القول الموصل

في

تفسير الكتاب المنزل

The Firm Statement in the Explanantion of the Revealed Book.

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ

أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ الزُّعْكُرِيِّ

حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى

By his Eminence Sheikh Abi Muhammad Abdul Hameed bin Yahya Al-Zu'kari.

المُجَلَّدُ الثَّانِي

مكتبة دار الصحابة
الغيضة

القول الموصل

في

تفسير الكتاب المنزل

عبد الحميد الزعكري

القول الموصل

في

تفسير الكتاب المنزل

الموقع الرسمي للشيخ حفظه اللّه تعالى

https://alzoukory.com.

https://t.me/A_lzoukory.

https :// X .com/A_Alzoukory.

https://www.youtube.com/channel/UCKΓLxΙfToSQcoΓhW۳tdgzOg.

https://www.facebook.com/٦٤٩٩١٨٠Γ٨۳σΓ۳٦٧.

https://chat.whatsapp.com/CAEyfZYa٧om٨٦EPEOtzAxq.

الموقع الرسمي

فيسبوك

تلجرام

يوتيوب

منصة X

واتساب

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة
دار الصحابة بالغيضة

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

الطبعة الأولى

نرحب بالاقتراحات والتنبيهات على الأرقام التالية:

٧٧١١٨٠٤٩٢ ٧٧٦٣٨٢٨٢٨

مؤلفات ومباحث القرآن لفضيلة الشيخ (١)

القول الموصل

في

تفسير الكتاب المنزل

The Firm Statement in the Explanantion of the Reveled Book.

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ

أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ الزُّعْكُرِيِّ

حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى

By his Eminence Sheikh Abi Muhammad Abdul Hameed bin Yahya Al-Zu'kari.

الْمُجَلَّدُ الثَّانِيْ

مكتبة

دار الصحابة بالغيضة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سورة المائدة

سُورَةُ المَائِدَةِ

- مدنية.
- وآياتها مائة وعشرون آية، وهي آخر ما نزل من القرآن.

الجزء ٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هذا خطاب للمؤمنين الذي استجابوا لله وللرسول ﷺ، ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ أي: بالعهود التي وقعت بينكم وبين الناس، وهي أعم من الوفاء باليمين؛ فإن هذه العقود لا تُنقض مطلقًا، وفيما يجوز فيه النقض لا تنقض إلا بإعلامهم بذلك، حتىٰ لا تقع لهم الغرة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال:٥٨].

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ أحل لعباده؛ كرمًا وفضلًا ومنة، ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ وهي الإبل، والبقر، والغنم فمنها يكون الهدي والأضحية والعقيقة وغير ذلك، ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ﴾ يقرأ، ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ تحريمه فيما يأتي من قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣].

﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ﴾ وكذا تحريم صيد البر علىٰ المحرم، فالأصل أن بهيمة الأنعام حلال إذا ذُكيت، وكذلك الصيد حلال إذا ذُكي إلا ما كان من صيد المحرم سواء

صاده هو أو صِيد له، وقد أكل النبي ﷺ من صيد أبي قتادة، ولم يأكل من صيد الصعب بن جثامة.

فقال العلماء في ذلك: أن الصعب صاده للنبي ﷺ، أو أنه كان محرمًا، وأما أبو قتادة فإنما صاد لنفسه، وكان حلالًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ﴾ يقضي، ﴿مَا يُرِيدُ﴾ من تحليل، أو تحريم، فيحل ما شاء، ويحرم ما شاء لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ﴾ لا تستحلوا، ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ معالم دينه جمع شعيرة، وهي شرائع الدين التي افترضها علىٰ عباده، فلا يجوز أن يحل ما حرم الله مثل الصيد في الحرم، ولا أن يحرم ما أحل الله، ﴿وَلَا﴾ تستحلوا، ﴿ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ بالقتال فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ﴾ [التوبة:٣٦]، ﴿وَلَا﴾ تستحلوا، ﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾ بأخذه بغير وجه حق، فقد كانوا يهدون إلى البيت العتيق، وربما ضاعت، فيحرم عليهم أخذها والتعرض لها، ﴿وَلَا﴾ تستحلوا، ﴿ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ وهي الهدايا المقلدة، فقد كانوا يسْلِتُون في سنامها الأيسر، ويقلدون فيها الأوتار، وربما النعال، ونحو ذلك حتى تُعلم أنها هدايا إلى البيت العتيق؛ فلا يتعرض لها، فإن عَطِب منها شيءٌ ذُبح وأُكل، وقيل: بأن القلائد: الأشجار المعلمة أنها في الحرم.

﴿وَلَا﴾ تستحلوا ﴿ءَآمِّينَ﴾ قاصدين، ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ مكة فلا تتعرضوا لهم بالقتل ونحوه، ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ رزقًا ومغفرة للذنوب، أي: الحجاج والعُمَّار حين يتجهون إلىٰ البيت الحرام يبتغون فضلًا من الله بمغفرة ذنوبهم، وستر عيوبهم، وقضاء حوائجهم، ﴿وَرِضۡوَٰنٗا﴾ أن يرضىٰ أعمالهم.

﴿وَإِذَا﴾ ولكن إذا، ﴿حَلَلۡتُمۡ﴾ من إحرامكم، ﴿فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ إذا كنتم خارج الحرم، فالصيد في الحرم يُمنع علىٰ الحلال والمُحرم، وخارج الحرم يُمنع علىٰ المُحرم ويحل للحلال،

والأمر للإباحة، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يحملنكم، ﴿ شَنَـَٔانُ ﴾ بُغْض، ﴿قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ﴾ منعوكم ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في عمرة الحديبية، ﴿أَن تَعْتَدُوا۟﴾ عليهم بل لازموا الشرع في جميع شأنكم.

﴿وَتَعَاوَنُوا۟﴾ أي: المؤمنون، ﴿عَلَى ٱلْبِرِّ﴾ فعل ما أمرتم به، ﴿وَالتَّقْوَى﴾ وعلىٰ ترك ما نهيتم عنه، هذا إذا اجتمعا، وأما عند الافتراق فكل يدل علىٰ معنىٰ الآخر، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ﴾ المعاصي، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ التعدي لحدود الله، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بفعل أمره، وترك نهيه وزجره، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يجازي المسيئين بإساءتهم؛ كما أنه يجازي المحسنين بإحسانهم.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

هذه الآية هي المشار إليها بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾.

واعلم أن طعام الإنسان ينقسم إلىٰ قسمين: حيواني، ونباتي.

فالحيواني: إن كان بحريًا فحلال كله ولا يلزم فيه الذكاة، فعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ: الْحُوتُ، وَالْجَرَادُ**» أخرجه ابن ماجه (٣٢١٨).

والبري: منقسم إلىٰ حلال وحرام، والأصل الحل إلا ما جاء الدليل بتحريمه، وما كان حلالًا يلزم فيه الذكاة إن كان من ذوات النفس السائلة، وما كان ميتة لا يجوز التعرض له بأكل ولا استفادة سواء من شحمه، أو عظمة؛ إلا ما دل عليه حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من قول النبي ﷺ: «**إِذَا دُبِغَ الْإِهَابُ فَقَدْ طَهُرَ**» أخرجه مسلم (٣٦٦)، أو كان المتعاطي لها للاضطرار إليها.

﴿ حُرِّمَتْ ﴾ أي: حرم الله، ﴿ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ وهي: كل حيوان مات حتف أنفه، أو ذبح علىٰ غير طريقة أهل الإسلام، فلم يذكر اسم الله عَزَّوَجَلَّ عليه؛ فحكمه حكم الميتة، ﴿وَٱلدَّمُ﴾ حرام عليكم، وقد كان أهل الجاهلية يشربون الدم المسفوح.

وفي حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ**»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهُ يُطْلَىٰ بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ، فَقَالَ: «**لَا، هُوَ حَرَامٌ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ**» متفق عليه.

﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ الحيوان المستخبث في طبعه، والخبيث في لحمه.

❖ وهنا قاعدة سار عليها كثير من الناس: وهي: (أن كل محرم نجس)، وهذا غير صحيح، فلا يلزم من التحريم النجاسة، فالخمر، والميسر، والقمار محرم، وليس بنجس.

﴿وَ﴾ ومما حرم عليكم، ﴿مَآ أُهِلَّ ﴾ ذبح، ﴿ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ من الأصنام، والأوثان، ﴿بِهِۦ﴾ من بهيمة الأنعام، وما في بابها، فيتقربون به لغير الله كالأصنام، والأوثان، أو يذبحونها علىٰ غير اسم الله.

﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي: التي تختنق فتموت، وكان أهل الجاهلية يَخْنِقُون الشاة حتىٰ إذا ماتت أكلوها، ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ هي المقتولة بالخشب، والضرب، ونحوه، ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي: التي تتردىٰ من مكان عال، أو بئر فتموت، فما لم يدرك ذكاته فهو حرام، ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ وهي: التي تنطحها أخرىٰ فيلحقها الموت، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي: ما بقي من الحيوان الذي يأكله السبع كالذئب، والأسد، والفهد، ونحوه، ﴿إِلَّا﴾ ويستثنىٰ مما تقدم، ﴿مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ما أدركتم حياته المستقرة فذكيتموه بالذبح والتسمية، ﴿وَ﴾ حرم عليكم، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ وهي: الأماكن التي كان يذبح المشركون عليها لأصنامهم، فيحرم ما ذبح علىٰ النصب، وإن ذكر اسم الله عليه؛ لأنَّ فيه مشابهة لذبائح الكفار وطريقهم، ﴿وَ﴾ مما

حرم عليكم، ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ﴾ تعزموا ما قسم لكم، ﴿بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ جمع زَلَمٌ، وهي قِداح مُعَلْمَة معروفة في الجاهلية، وكانت سبعة قداح مستوية من الشَّوحَط نوع من الشجر شديد الصلابة إذا يبس، يكون عند سادِن الكعبة مكتوب علىٰ واحد نعم، وعلىٰ واحد لا، وعلىٰ واحد منكم، وعلىٰ واحد من غيركم، وعلىٰ واحد ملصق، وعلىٰ واحد العقل، وواحد غُفِلَ ليس عليه شيءٌ، فكانوا إذا أرادوا أمرًا من سفر، أو نكاح، أو ختان، أو غيره، أو تدارأوا في نسب، أو اختلفوا في تحمل عَقْلٍ جاءوا إلىٰ هُبل، وكان أعظم أصنام قريش بمكة، وجاءوا بمائة درهم، فأعطوها صاحب القِداح حتىٰ يجيل لهم القداح ويقولون: يا إلهنا إنا أردنا كذا وكذا، فإن خرج نعم؛ فعلوا، وإن خرج لا؛ لم يفعلوا ذلك حولًا، ثم عادوا إلى القداح ثانيةً، فإذا أجالوه علىٰ نسب، فإن خرج منكم كان وسطًا منهم، وإن خرج من غيركم كان حليفًا، وإن خرج ملصق كان علىٰ منزلته لا نسب له، ولا حلف، وإذا اختلفوا في عقل فمن خرج عليه قدح العقل حمله، وإن خرج الغَفَلُ أجالوا ثانيًا حتىٰ يخرج المكتوب، فنهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك وحرمه.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ كل ما تقدم، ﴿فِسْقٌ﴾، خروجٌ عن الطاعة، ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ يوم عرفة؛ حين رأوا ظهور أهل الإسلام، لنقطع طمعهم، في ارتداد المسلمين عن دينهم، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوا منهم؛ لأنهم ضعفاء مغلوبون بأمر الله الكوني والشرعي إن شاء الله، ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ أي: يكون خوفكم لله عَزَّوَجَلَّ، والخشية: هي الخوف مع التعظيم.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يوم عرفة من السنة الحادية عشرة، ﴿أَكْمَلْتُ﴾ أتممت، ﴿لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فأكمل الله الدين، وأتمه بإنزال الأحكام، وما يتعلق بالحلال الحرام، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الإسلام أضافها إلىٰ نفسه تشريفًا وتعظيمًا لهذه النعمة؛ لأنها سبب صلاح الدارين، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وهو دين الله في جميع الملل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر:٧].

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: فيما تقدم من الميتات، والمحرمات، ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة نزلت به، وفاقَة حتىٰ أُلجئ إلىٰ الأكل منها، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ مائل، ﴿لِّإِثْمٍ﴾ وهو: أن يأكل فوق الشبع، وقال قتادة: غير متعرض لمعصية في مقصده، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعفو ويصفح.

❁ ومن عجيب قدرة الله عَزَّوَجَلَّ أن الإنسان إذا أكل لقمةً من ميتة في عدم حاجته يصيبه ربما الإسهال، والقيء، والتسمم، وربما يموت؛ لما فيها من السموم، وإذا أكلها مضطرًا إليها لا يصيبه شيء؛ وذلك لحاجة الجسم، واضطراره إلىٰ ذلك، والله أعلم.

❁ وهذه الآية نزلت في يوم الجمعة في عرفات.

فعن طارق بن شهاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَالَتِ الْيَهُودُ لِعُمَرَ: لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ يَهُودَ، نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، نَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي أُنْزِلَتْ فِيهِ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا.

قَالَ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فَقَدْ عَلِمْتُ الْيَوْمَ الَّذِي أُنْزِلَتْ فِيهِ، وَالسَّاعَةَ، وَأَيْنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ، «**نَزَلَتْ لَيْلَةَ جَمْعٍ، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَرَفَاتٍ**» متفق عليه.

❁ وذكر العلماء أنها لم ينزل بعد هذه الآية شيء من الأحكام، مع اختلافهم في نزول بعض القرآن.

والإسلام يتميز بثلاثة أمور: التمام، والكمال، والشمول إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل محمدًا ﷺ إلىٰ الناس كافة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ﴾ [سبأ:٢٨].

❁ وقد قال الشيخ فتح القدسي حفظه الله في نظمها:

إن الشمول والكمال والبقاء ... مميزات ديننا دين النقاء

❁ ومما يدل علىٰ تمام هذا الدين وكماله، أنه آخر الأديان.

فلا دين بعده، ولا رسول بعد محمد ﷺ، فلو لم يكن كاملًا للزم أن تكون الأمة بحاجة إلىٰ مكملات؛ ولكنه كان كاملًا تامًا، فلا يحتاج الناس إلىٰ غيره في شيء من شؤون حياتهم:

سواء الدينية أو الدنيوية، فما من حكم ديني إلا وفي القرآن والسنة بيان له، وما من حكم دنيوي يتعاطاه الناس إلا وفي القرآن والسنة بيان له، فالناس لم يتركوا علىٰ عَمِيَّةٍ يفعل أحدهم الذي يريد، وإنما أُحيلوا علىٰ القرآن والسنة، وحتىٰ وإن لم يوجد التنصيص علىٰ كل مسألة بعينها؛ لكثرت معاملات الناس؛ لكن عندنا عمومات في القرآن، وفي السنة تقضي علىٰ كل ما يخالف الكتاب والسنة؛ ولو كان في آخر الزمان، فالإسلام هو الحل لجميع أمور العالم في السياسات، والخلافات، والدين، والمعاملات من بيع، وشراء، ونكاح، ودعاوىٰ، وشهادات، ومقاضاة إلىٰ غير ذلك.

وانظروا إلىٰ سلفنا الصالحين زمن النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وزمن الدولة الأموية، والدولة العباسية في الجملة كيف قويت شوكة الإسلام وانتصر أهله، وكثرت أموالهم، وتجاراتهم، وصناعاتهم، وحصل لهم الخير العظيم، ويذكرون أن الروم وفارس، وقعت بينهم ألف معركة لم ينتصر أحد منهم علىٰ أحد، وجاء خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم بقوة أهل الإسلام في اثني عشر سنة فتحت فارس والروم، وهذا من فضل الله، ثم لم كانوا عليه من التمسك بدين الله، لكن لما ضعف المسلمون تسلط عليهم الكفار، قال النبي ﷺ: «**وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**» أخرجه أحمد(٥٦٦٧) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فخالفنا أمر النبي ﷺ فلحقنا ما لحقنا.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٤﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: يسألك المسلمون، وأصحاب الصيد، قيل عدي بن حاتم، وزيد الخيل الطائيين، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ﴾ أُبيح، ﴿لَهُمْ﴾ صيده إذ أن الله عَزَّ وَجَلَّ أحل لهم بهيمة الأنعام وعرفوا ذلك، ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ما تستطيبونه مما ذبح، وذكر اسم الله عليه.

وقد اختلف العلماء في مسألة الطيبات، فبعضهم يجعله ما تستطيبه العرب، والحرام ما يستخبثونه.

والصحيح: أن الاستخباث ليس بدليل علىٰ حرمة، وإنما الطَّيب ما أحله الله عَزَّوَجَلَّ، والخبيث ما حرمه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ وأحل لكم صيد الكَواسِب: من الكلاب، والسباع، والطير، ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ الكلب الذي يُعلم للصيد بحيث يعلمونه، ويَغْرُونه باتباع الصيد وَيُعَوَّدُ ألا يأكل منه، يربونه تربية، فإذا اصطاد شيئًا في أول الأمر وأكل منه ضربوه وأدَّبوه، حتىٰ يعلم أنه إنَّما ضُرب من أجل أكله من الصيد، فعند ذلك يرسلونه علىٰ اسم الله فلا يأكل منه شيئًا، فإذا لم يأكل منه شيئا كان صيدًا حلالًا، وإذا أكل منه فإنما صاده لنفسه وكان حرامًا إلا أن تُدرك ذكاته.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ بالتأديب، وكيفية أخذ الصيد، ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾، من آداب الصيد.

والعمدة في هذا الباب: ما أخرجه الشيخان عن عدي بن حاتم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرْسِلُ الْكِلَابَ الْمُعَلَّمَةَ، فَيُمْسِكْنَ عَلَيَّ، وَأَذْكُرُ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلْ**»، قُلْتُ: وَإِنْ قَتَلْنَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ قَتَلْنَ، مَا لَمْ يَشْرَكْهَا كَلْبٌ لَيْسَ مَعَهَا**»، قُلْتُ لَهُ: فَإِنِّي أَرْمِي بِالْمِعْرَاضِ الصَّيْدَ، فَأُصِيبُ، فَقَالَ: «**إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرْضِهِ، فَلَا تَأْكُلْهُ**».

وعن أبي ثعلبة الخُشَنِي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا بِأَرْضِ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، أَفَنَأْكُلُ فِي آنِيَتِهِمْ؟ وَفِي أَرْضِ صَيْدٍ، أَصِيدُ بِقَوْسِي وَبِكَلْبِي الَّذِي لَيْسَ بِمُعَلَّمٍ، وَبِكَلْبِي الْمُعَلَّمِ فَمَا يَصْلُحُ لِي؟.

قَالَ: «**أما مَا ذَكَرْتَ -يَعْنِي مِنْ آنِيَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ-: فَإِنْ وَجَدْتُمْ غَيْرَهَا فَلا تَأْكُلُوا فِيهَا، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَاغْسِلُوهَا، وَكُلُوا فِيهَا. وَمَا صِدْتَ بِقَوْسِكَ، فَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلْ، وَمَا**

صِدْتَ بِكَلْبِكَ الْمُعَلَّمِ، فَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلْ، وَمَا صِدْتَ بِكَلْبِكَ غَيْرِ الْمُعَلَّمِ فَأَدْرَكْتَ ذَكَاتَهُ فَكُلْ» متفق عليه.

﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ وإن قتلنه ما لم يأكلن منه علىٰ ما تقدم، وما لم يشركها غيرها من الكلاب التي لم يسم الله عليها، ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ عند إرساله؛ لقوله ﷺ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، فَكل»، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: بمراقبته، وعدم تعدي حدوده، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ سريع المحاسبة، والأنتقام ممن خالف أمره وارتكب نهيه.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ المستلذات من الحيوانات بشرط التَّذكية، فإذا ذبحت على اسم الله عَزَّوَجَلَّ طابت؛ لبركة ذكر اسم الله عَزَّوَجَلَّ، وأما النبات فكُّله طيب إلا أشجار يسيرة؛ إما لسميتها، وإما لتخديرها، ﴿وَطَعَامُ﴾ ذبائح، ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارىٰ، ﴿حِلّٞ﴾ حلالٌ، ﴿لَّكُمۡ﴾ لأهل الإسلام؛ لكن بشرط: أن تُذكىٰ، فتذبح علىٰ اسم الله، ولا يهل بها لغير الله، ﴿وَطَعَامُكُمۡ﴾ إياهم، ﴿حِلّٞ لَّهُمۡ﴾ يأكلون مما شاءوا منه، فهو حلال طيب.

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾وأحل لكم نكاح الحَرَائِر العفيفات، ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ المسلمات، ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ وأحل لكم نكاح الحَرَائِر العفيفات، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ اليهود والنصارىٰ، ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، ﴿مُحۡصِنِينَ﴾ متزوجين بالنكاح، ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ بالزنا، ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ الزنا في السر، ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ يرتد عن الإسلام، ﴿فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ ؛لأنَّ الكفر محبط لجميع العمل، فلا يقبل منه، ولا يثاب

عليه،﴿ وَهُوَ ﴾ الكافر، ﴿فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إذا مات علىٰ الكفر، والردة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: من النوم، أو إلىٰ صلاة، إن كان علىٰ غير وضوء، وإن كان علىٰ وضوء، فوضوؤه في هذا الحال علىٰ الاستحباب، واختيار الشافعي أن الآية في القيام من النوم؛ ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ وحدُّ الوجه: من مَنَابِتِ الشعر إلىٰ منابته ومن الأذن إلىٰ الأذن، ويدخل في غسل الوجه المضمضة والاستنشاق.

وأصح ما روي في وضوء النبي ﷺ حديث عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقِيلَ لَهُ: « تَوَضَّأْ لَنَا وُضُوءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

فَدَعَا بِإِنَاءٍ فَأَكْفَأَ مِنْهَا عَلَىٰ يَدَيْهِ فَغَسَلَهُمَا ثَلَاثًا.

ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فَاسْتَخْرَجَهَا فَمَضْمَضَ، وَاسْتَنْشَقَ مِنْ كَفٍّ وَاحِدَةٍ فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثًا.

ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فَاسْتَخْرَجَهَا فَغَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا.

ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فَاسْتَخْرَجَهَا فَغَسَلَ يَدَيْهِ إِلَىٰ الْمِرْفَقَيْنِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ.

ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فَاسْتَخْرَجَهَا فَمَسَحَ بِرَأْسِهِ فَأَقْبَلَ بِيَدَيْهِ وَأَدْبَرَ.

ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ إِلَىٰ الْكَعْبَيْنِ.

ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا كَانَ وُضُوءُ رَسُولِ اللهِ ﷺ » متفق عليه.

وفي الصحيحين عن حُمران، مولىٰ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ رَأَىٰ عُثْمَانَ دَعَا بِإِنَاءٍ، فَأَفْرَغَ عَلَىٰ كَفَّيْهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَغَسَلَهُمَا.

ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الأناءِ فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْثَرَ.

ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَيَدَيْهِ إِلَىٰ الْمِرْفَقَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» متفق عليه.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ من أطراف الأصابع حتىٰ يَشْرع في العَضُد، كما ثبت عن النبي ﷺ، ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ إن كان عليه العمامة اجْتُزِئَ بها؛ لحديث المغيرة: «**مَسَحَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ مُقَدَّمِ رَأْسِهِ وَعَلَىٰ الْعِمَامَةِ**» متفق عليه.

وإن لم يكن عليه عمامة مسح علىٰ رأسه، كما جاء في حديث عبد الله بن زيد: «**ويبدأ بمُقدم رأسه، ثم يردها إلىٰ قفاه، ثم يردها إلىٰ مقدم رأسه**» متفق عليه.

ويكون المسح مرة واحدة، وما جاء عند أبي داود عن عثمان بثليث المسح فشاذ.

ويدخل في مسح الرأس مسح الأذنين؛ لحديث ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**ثمَّ مسحَ برأسِهِ وأُذُنَيه ظَاهِرِهما وباطِنِهما**» أخرجه أبو داود (١٢١).

﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ أي: واغسلوا أرجلكم، وعلىٰ قراءة الكسر ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ فالمراد: امسحوها إن كان عليها خِفَاف أو جَوَارِب، ولا يجوز المسح علىٰ القدمين خلافًا للرافضة، ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ وله أن يَشْرَعَ في السَّاق؛ لما ثبت عن النبي ﷺ: «**ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُسْرَىٰ حَتَّىٰ أَشْرَعَ فِي السَّاقِ**» أخرجه مسلم (٢٤٦)عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾ إما لمباشرة امرأة، أو لاحتلام، أو نحو ذلك، ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ أي: اغتسلوا علىٰ الوجه الأكمل الذي هو مُبَيَّنٌ في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا اغْتَسَلَ مِنَ الجَنَابَةِ، بَدَأَ فَغَسَلَ يَدَيْهِ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ كَمَا يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ يُدْخِلُ أَصَابِعَهُ فِي**

المَاءِ، فَيُخَلِّلُ بِهَا أُصُولَ شَعَرِهِ، ثُمَّ يَصُبُّ عَلَىٰ رَأْسِهِ ثَلاَثَ غُرَفٍ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ يُفِيضُ المَاءَ عَلَىٰ جِلْدِهِ كُلِّهِ» البخاري (٢٤٨).

وفي الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «وَضَعْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ غُسْلًا وَسَتَرْتُهُ، فَصَبَّ عَلَىٰ يَدِهِ، فَغَسَلَهَا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أو ثلاثًا.

ثُمَّ أَفْرَغَ بِيَمِينِهِ عَلَىٰ شِمَالِهِ، فَغَسَلَ فَرْجَهُ.

ثُمَّ دَلَكَ يَدَهُ بِالأَرْضِ أَوْ بِالحَائِطِ.

ثُمَّ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، وَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَغَسَلَ رَأْسَهُ.

ثُمَّ صَبَّ عَلَىٰ جَسَدِهِ.

ثُمَّ تَنَحَّىٰ فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ، فَنَاوَلْتُهُ خِرْقَةً، فَقَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَلَمْ يُرِدْهَا» متفق عليه البخاري (٢٥٧).

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ إما بسبب جراحات أو غيرها تعجزون فيه عن استخدام الماء خَشْيَةَ الهلكة، أو زيادة المرض، أو تأخر البُرْء، فَيُشْرَعُ التيمم، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لِقِلَّةِ الماء، ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ قضيتم حاجتكم من البول، أو الغائط، ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الجماع، كما هو قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ **وإن كان قد ذهب بعض أهل العلم إلى أنه مطلق المَسِّ، إلا أن هذا القول مرجوح، فإن النبي ﷺ كان يصلي، فإذا سجد غَمَزَ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بيده، وربما قبّل ثم خرج إلى الصلاة، وربما فلَّته امرأته وهو في المسجد، وهذا ليس بناقض للوضوء.**

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾، أو عجزتم عن استخدامه، ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ اقصدوا، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ما صعد علىٰ وجه الأرض.

❁ **وهذا هو القول الراجح، وذهب جمهور العلماء إلى اشتراط التربة؛ لحديث حذيفة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا**» أخرجه مسلم (٥٢٢).

والصحيح الأول، ورسول الله ﷺ تيمم على جدار، وسافر هو وأصحابه بتبوك، وكان طريقهم رمل، ولم يذكر شَرْطِيَةِ التراب، وذكر التراب في حديث حذيفة على الغالب، والله أعلم.

﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ﴾ بدأ القرآن بالوجه، والسنة جاءت بتقديم اليدين، وفي بعضها الوجه فعن عمار رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْكَ هَكَذَا**» ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدَيْهِ الْأَرْضَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ مَسَحَ الشِّمَالَ عَلَىٰ الْيَمِينِ، وَظَاهِرَ كَفَّيْهِ، وَوَجْهَهُ» متفق عليه، فلا حرج في تقديم أحدهما علىٰ الآخر، ﴿وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ المراد بـ(اليد) هنا الكَفُّ وما إليه إلىٰ الرِّسْغِ، والمراد بـ(اليد) في الوضوء إلىٰ المرافق.

فإن لفظة (اليد) تُطلق ويراد بها الكف إلىٰ الرسغ، وتطلق ويراد بها إلىٰ المرفق، وتطلق ويراد بها إلىٰ الكتف، وكل ذلك يعرف بقرائنه.

﴿مِّنۡهُ﴾ يعني: بعضه، ولا يشترط الغُبار؛ لأنَّ النبي ﷺ قد نفخ حين ضرب بيديه الأرض، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بهذا الحكم ﴿لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم﴾ في الدين ﴿مِّنۡ حَرَجٖ﴾ مشقة، كقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨] فيشق عليكم الغُسل أو البحث عن الماء أو تأخر الشفاء فالحال كما قال رسول الله ﷺ: «**الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا**» أخرجه البخاري (٣٩) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، والنبي ﷺ يقول: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**» متفق عليه عن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ﴾ الله بهذه الأحكام ﴿لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ من الأحداث والجنايات والذنوب، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ بتكفير ذنوبكم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه الكثيرة.

وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي فَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْتِمَاسِهِ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَىٰ مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَأَتَىٰ

النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالُوا: أَلَا تَرَىٰ مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَىٰ مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَىٰ فَخْذِي قَدْ نَامَ فَقَالَ: أَحَبَسْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَىٰ مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، قَالَتْ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعَنُ بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ فَخْذِي، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ عَلَىٰ غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ آيَةَ التَّيَمُّمِ: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ: مَا هَذِهِ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَوَجَدْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ.

وفي فضل الوضوء: ما أخرج مسلم عن عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ فَالْوُضُوءَ حَدِّثْنِي عَنْهُ، قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ، وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ، وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَىٰ الْمِرْفَقَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَىٰ الْكَعْبَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّىٰ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**» أخرجه مسلم (٨٣٢).

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ آمرًا أمة محمد ﷺ بشكر نعمه التي أنعمها عليهم، ومنها ما تقدم بيانه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ واشكروا يا معاشر المسلمين،﴿ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ نعم الله الكثيرات، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ومن أجلها نعمة الإسلام، وما يليه من النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة، ﴿وَمِيثَٰقَهُ﴾ واذكروا عهده ﴿ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ الذي أخذه عليكم في الأخذ بكتابه وسلوك سنة رسوله ﷺ، ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ وذلك حين بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمَنْشَطِ والمكره، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتزام شرعه واجتناب نهيه وزجره، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما في قلوبكم فيجازيكم عليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾ قائمين، ﴿لِلَّهِ ﴾ بطاعته والتزام شرعه، ﴿شُهَدَآءَ﴾ بينكم، ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بالعدل على العدو والقريب، والصديق والبعيد، والأنصاف في حال الرضا والغضب، ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ ولا يحملنكم، ﴿شَنَـَٔانُ﴾ بغض، ﴿قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ فيهم، فإن البغض قد يكون من أسباب المجاوزة في الأحكام، والمبغض يحب الأنتقام؛ لكن المؤمن مأمور بعدم مجاوزة العدل، ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ الزموا العدل في قولكم وفعلكم مع أولياؤكم وأعدائكم، ﴿هُوَ﴾ العدل، ﴿أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: إلى التقوى، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ وعدًا حسنًا، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أهل الإيمان ظاهرًا وباطنًا، الملتزمون بالأعمال الصالحة بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ تجاوز عن السيئات والزلات، ﴿وَأَجۡرٌ﴾ ثواب، ﴿ عَظِيمٞ﴾ مضاعف يوم القيامة، وأعظمه الجنة، ويدخل فيه النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعرضوا، وأَبَوْا الإسلام، ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الشرعية، وربما الكونية حين جعلوا مع الله ظهيرًا ومعينًا ونصيرًا، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟﴾ اشكروا، ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ نعم الله، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وأراد بها النعمة الخاصة حيث دفع عنكم الكفار، ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ يبطشوا بكم بالقتل ونحوه، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ بما قذف في قلوبهم من الرعب، فعصمكم منهم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أمره واجتناب نهيه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ومن توكل على الله فهو حسبه وكافيه، ومن ترك التوكل على الله والاعتماد عليه فليس من المؤمنين في شيء.

۞ وعليه في حال التوكل فعل الأسباب الشرعية والقدرية، فالاعتماد علىٰ السبب شرك، وترك العمل بالسبب قدح في الشريعة، ومما يستدل به الصوفية علىٰ ترك العمل بالسبب؛ لحديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**» أخرجه الترمذي، والحديث رد عليهم فقد أثبت لهم فعلًا.

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ﴾ العهود الغليظة على ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أن يلتزموا شرع الله في توحيده وعبادته والمعاملة فيما بينهم، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي: كفيلًا بالوفاء بما أخذ الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، ولعلهم كانوا عرفاء قومهم أو رؤساء قبائلهم؛ لأنَّ الخطاب لهم خطاب لأصحابهم، ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ بحفظي وكلاءتي ونصري.

❁ والكلام على المَعِيَّةِ يكون من وجهين:

- **الأول: المعية العامة**: التي هي معية العلم، والبصر، والإحاطة بجميع المخلوقات وهذه لا يخرج عنها بر ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولا كبير ولا صغير، ولا قليل ولا كثير فإن الله بكل شيء عليم وبكل شيء محيط.

- **الثاني: المعية الخاصة**: المقتضية للنصر والتأييد والحفظ والكلاءة وغير ذلك، فالأولىٰ مقتضاها الربوبية، والثانية مقتضاها الرحمة وهي خاصة بالمؤمنين، قال الله عَزَّوَجَلَّ لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، يبشرهم بحفظه، وقال الله عَزَّوَجَلَّ مخبراً عن قول محمد: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة:٤٠]، وقد جاءت مقيدة بوصف في كثير من الأحوال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤].

وشرط هذه المعية: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التزمتم شرع الله بإقام الصلاة التي هي أفرض الفرائض بعد التوحيد، ﴿وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: المفروضة المكتوبة التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ حقًا للسائل والمحروم، ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ جميعا كما قال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٨٥]، ﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ وقرتموهم وعظمتموهم تعظيمًا شرعيًا لا كتعظيم النصارىٰ لعيسىٰ بن مريم حيث ألهوه وعبدوه، أو تعظيم اليهود لعزير فهذا تعظيم كفري، ولكن يعظمونهم كما عظمهم الله فهم في أعلىٰ مراتب البشرية من حيث العقيدة، والعلم، والتوحيد، والعمل وغير ذلك إلا أنهم بشر، قال الله عن نبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ﴾ [الأعراف:١٨٨].

﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ بالأنفاق في أوجه الخير، فإن التزمتم ما تقدم: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي ذنوبكم وتكفيرها محوها وذهاب أثرها، فلا يطالبون بتبعاتها في القيامة، ولا يلحقهم آثارها في الدنيا من المصائب وغير ذلك، والكفر في اللغة الستر، ولذلك يسمىٰ الزارع كافر؛ لأنه يستر الحب في الأرض، ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّٰتٖ﴾ بساتين ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ﴾ أعرض عن دين الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بَعۡدَ

﴿ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأ الطريق طريق الحق وأي خطأ فإنه خطأ يوصله إلىٰ النار والعياذ بالله.

﴿فَبِمَا﴾ بسبب ﴿نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: ما حصل من بني إسرائيل من نقض الميثاق الذي أُخذ عليهم حيث نقضوه بتكذيب الرسل وقتلهم، ونبذ الكتاب، وتضييع الفرائض وعدم العمل بها، ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي طردهم من الرحمة بلعنة تلحقهم إلى القيامة، كما قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة:٧٨]، وسلط الله عليهم بِخْتَنْصَر، ومن إليه من الكافرين والمجرمين، ومسخ منهم قردةً وخنازير، ويوم القيامة يساقون إلى النار، ويَتقادَعون فيها تَقَادُعَ الفراش.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ صيرنا ﴿قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ غليظة لا تلين لقبول الإيمان، فصارت قلوبا غُلفًا لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواها وصاروا مع ذلك ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يغيرون ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ كلام الله من وصف النبي ﷺ ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ عن دلالته، ﴿وَنَسُواْ﴾ تركوا ﴿حَظًّا﴾ نصيبًا ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: في التوراة والأنجيل وعلىٰ ألسنة رسلهم، ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ومن معك ﴿تَطَّلِعُ﴾ تظهر ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ﴾ خيانة ﴿مِّنْهُمْ﴾ فكم لهم من الخيانات حيث أرادوا قتل النبي ﷺ، ومالأوا الكفار عليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ممن أسلم.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ﴾ أي: اعرض عنهم ولا تتعرض لهم، فيحمل ذلك علىٰ أنه كان قبل نزول آية القتال، وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣]، ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا﴾ [التوبة:٢٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾الذين يعملون بالإسلام والإيمان وحسن المراقبة.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ يقال: بأنه أراد اليهود والنصارى وإنما كان ذكر أحدهما مغنيًا عن ذكر الآخر، والمعنى الظاهر: أن الله عَزَّوَجَلَّ أخذ على اليهود والنصارى العهد والميثاق، بالتزام شرع الله وتوحيده، ﴿فَنَسُواْ﴾ تركوا ﴿حَظّٗا﴾ نصيبًا ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ مما أُمروا به، ﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾ هيجنا وحرشنا ﴿بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: جعل الله عَزَّوَجَلَّ بينهم العداوة والبغضاء والتقاطع والتدابر وغير ذلك؛ وذلك بسبب كثرة الأهواء والبدع فإنها من أعظم أسباب تفرق الأمة، ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ﴾ يخبرهم ﴿ٱللَّهُ﴾ في الآخرة، ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ يعملون.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ وهو محمد ﷺ، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ﴾ تكتمون ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ التوراة

والأنجيل، ﴿وَيَعْفُواْ﴾ يصفح ويتجاوز ﴿عَن كَثِيرٍ﴾ أي: يعرض عن كثير مما أخفيتم فلا يتعرض له ولا يؤاخذكم به.

- **أولًا**: لعدم فتح الشر على الناس.

- **ثانيًا**: لإعراض اليهود والنصارى عن دعوته.

- **ثالثًا**: لأنَّ الإخبار بتحريف الكتابين في الجملة كاف في البحث عن جميع التفاصيل فإن هذا قد يؤدي إلى كثرة المسائل وعدم القناعة عند بعض من في قلبه مرض من المنافقين.

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ وهو القرآن، ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ بين واضح جلي في أحكامه وأخباره.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ﴾ يدل ويرشد بالكتاب، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن﴾ [الجن:٢]، ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: رضاه بطاعته واجتناب نهيه، ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: سبيل الله؛ لأنه هو السلام، ويقال: سبيل السلامة، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الكفر والشرك والبدعة، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الإيمان والتوحيد والسنة، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتوفيقه وهدايته وهو الإذن القدري الكوني والشرعي في هذا الموطن، فالكوني؛ لأنه وقع، والشرعي؛ لأنه موافق للمحبوب، ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ يرشدهم ويدلهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريق ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام كما قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، وفي حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ**» أخرجه أحمد (١٧٦٣٤).

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وهذه في النصارى خاصة؛ لأنهم هم الذين ألهوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختلفت أقوالهم فقالت طائفة: هو الله، وقالت طائفة: هو ابن الله، وقالت طائفة: هو ثالث ثلاثة، والطائفة التي قالت: أن عيسى هو الله اليعقوبية من النصارى إذ أنها تذهب إلى الاتحاد.

﴿ قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿ فَمَن يَمْلِكُ﴾ يدفع عنكم ﴿ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ عذابًا، بل إنه ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ﴾ يقبض ﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فالأمر أمره، ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يعجزه شيءٌ، وهذا لبيان عموم مُلكهِ، وضُعف عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن إليه من المخلوقين، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من مخلوقات، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ علىٰ مقتضىٰ حكمته، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ بغير حجة ولا برهان ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ أرادوا أن الله تعالى لنا كالأب في الحُنُوِ والعطف، ونحن كالأبناء في القُرب والمنزلة، وهذه دعوى عارية عن الدليل، والدعاوى إن لم تكن عليها بينات أصحابها أدعياء، فكان الرد عليهم: ﴿قُلْ﴾ إن كنتم أبناؤه وأحباؤه ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فلما يؤاخذكم بما ارتكبتم من الذنوب والمعاصي، بل كيف ترتكبون الذنوب والمعاصي، ﴿ بَلْ﴾ الواقع أنكم ﴿أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ كرامتكم بقدر استقامتكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ من أهل التوحيد، ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ من أهل الشرك والتنديد، وهو في مغفرته متفضلًا وفي عذابه عادلًا، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ يوم البعث والنشور، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ محمد ﷺ، ﴿يُبَيِّنُ﴾ يظهر ﴿ لَكُمْ﴾ ما أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إليه من شرائع التوحيد والهدى، ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾ بعد انقطاع ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ من الرسل، قيل: خمسمائة وأربعون سنة وقيل غير ذلك؛ لأنه لم يكن بين محمد ﷺ وبين عيسى رسول، فعيسى آخر رسل بني إسرائيل، ومحمد ختمت به النبوة والرسالة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الأَنبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**» متفق عليه.

﴿أَن تَقُولُواْ﴾ كيلا تقولوا معتذرين عن إعراضكم ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ﴾ إلىٰ الخير والجنة، ﴿وَنَذِيرٞۗ﴾ من النار والشرك، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ أي: حين أمره الله عَزَّوَجَلَّ بفتح بيت المقدس، ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ﴾ اشكروا ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بهدايتكم للإسلام وامتنانه عليكم به، ﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾ من أنفسكم يدعونكم إلى توحيد الله، ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ بعد أن كنتم أذلة يستخدمكم فرعون ويسومكم سوء العذاب، ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ أعطاكم ﴿مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حيث جمع لكم بين الملك والنبوة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]، والمراد عالم زمانهم وإلا فقد انتقلت الفضيلة إلى المسلمين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ﴾ [آل عمران:١١٠].

وعن بريدة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَىٰ الله**» أخرجه أحمد (٢٠٠١٥).

﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ المطهرة وهي بيت المقدس في فلسطين، ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح المحفوظ أن تكون مساكن ﴿لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ﴾ ترجعوا ﴿عَلَىٰٓ

﴿أَدۡبَٰرِكُمۡ﴾ أي: بالأنحراف عن الصراط القويم والطريق المستقيم، والخوف من العدو ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ في سعيكم، وهي شاملة لخسارة الدنيا والآخرة.

﴿قَالُواْ﴾ معترضين علىٰ أمره ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ﴾ في بيت المقدس ﴿قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾ من بقايا عاد فاعترضوا علىٰ أمر الله وأمر رسول الله ﷺ، ولو قالوا: سمعنا وأطعنا لنصرهم الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ مع أنهم لن يخرجوا منها إلا بالقوة وبالجهاد، ﴿فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي الجبارون ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ يريدون الدخول بدون قتال وبدون جراح تصيبهم أو مشقة تلحقهم ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ من أهل الاستقامة، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ يخافون الله عَزَّوَجَلَّ ويراقبونه، ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ بالتوفيق والعصمة والسداد، ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ التزموا شرع الله وادخلوا الباب وابشروا بالنصر، ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ لأنَّ الله قد وعدهم بالنصر والتمكين والعز المبين، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ حتىٰ يخرجوا منها، ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ القوم الجبارين، ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ عن القتال.

وكم هو الفرق وبين قول المسلمين لرسول الله ﷺ وبين قولهم، ففي صحيح البخاري (٣٩٥٢) عن ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «شَهِدْتُ مِنَ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا، لأَنَّ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ، أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَىٰ المُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لاَ نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَىٰ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ».

﴿قَالَ﴾ موسىٰ حينئذ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي﴾ فأظهر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضعفه بسبب خَذِيلَة بني إسرائيل له وكانوا ذا عدد وعُدة، ﴿فَٱفۡرُقۡ﴾ احكم، وافصل ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة.

﴿قَالَ﴾ تعالىٰ ﴿فَإِنَّهَا﴾ الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ أن يدخلوها ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ بسبب مخالفتهم لأمر نبيهم وكان تحريمها كونيًا وشرعيًا، أما الشرع فلم يأذن الله لهم

بدخولها، وأما الكوني فقد وقع عليهم التيه، ﴿يَتِيهُونَ﴾ يضيعون لا يهتدون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يمنةً ويسرة ولا يعلمون لها طريقًا، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين خالفوا شرع الله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (٣/ ٧٣): "وَهَذِهِ الْقِصَّة تَضَمَّنَتْ تَقْرِيع الْيَهُود، وَبَيَان فَضَائِحهمْ وَمُخَالَفَتهمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَنُكُولهمْ عَنْ طَاعَتهمَا فِيمَا أَمَرَاهُمْ بِهِ مِنْ الْجِهَاد، فَضَعُفَتْ أَنْفُسهمْ عَنْ مُصَابَرَة الْأَعْدَاء، وَمُجَالَدَتهمْ وَمُقَاتَلَتهمْ مَعَ أَنَّ بَيْن أَظْهُرهمْ رَسُول الله ﷺ وَكَلِيمه وَصَفِيّه عَنْ خَلْقه فِي ذَلِكَ الزَّمَان، وَهُوَ يَعِدهُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَر بِأَعْدَائِهِمْ هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوا مِنْ فِعْل الله بِعَدُوِّهِمْ فِرْعَوْن مِنْ الْعَذَاب وَالنَّكَال وَالْغَرَق لَهُ وَلِجُنُودِهِ فِي الْيَمّ وَهُمْ يَنْظُرُونَ لِتَقَرّ بِهِ أَعْيُنهمْ، وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمٍ ثُمَّ يَنْكُلُونَ عَنْ مُقَاتَلَة أَهْل بَلَد هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ دِيَار مِصْر لَا تُوَازِي عُشْر الْمِعْشَار فِي عُدَّة أَهْلهَا، وَعَدَدهمْ فَظَهَرَتْ قَبَائِح صَنِيعهمْ لِلْخَاصِّ وَالْعَامّ، وَافْتَضَحُوا فَضِيحَة لَا يُغَطِّيهَا اللَّيْل وَلَا يَسْتُرهَا الذَّيْل، هَذَا وَهُمْ فِي جَهْلهمْ يَعْمَهُونَ، وَفِي غَيِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَهُمْ الْبُغَضَاء إِلَىٰ الله وَأَعْدَاؤُهُ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ، فَقَبَّحَ الله وُجُوههمْ الَّتِي مُسِخَ مِنْهَا الْخَنَازِير وَالْقُرُود، وَأَلْزَمَهُمْ لَعْنَة تَصْحَبهُمْ إِلَىٰ الدَّار ذَات الْوَقُود، وَيَقْضِي لَهُمْ فِيهَا بِتَأْبِيدِ الْخُلُود، وَقَدْ فَعَلَ وَلَهُ الْحَمْد فِي جَمِيع الْوُجُود"اهـ.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَاتْلُ﴾ واقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد، ﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ هابيل وقابيل على قول المفسرين.

وجمهورهم: أن القاتل (قابيل)، و المقتول (هابيل)، ومما يذكرون من شعر آدم و لا يثبت والله أعلم:

تَغَيَّـرَتِ الْـبِلَادُ وَمَـنْ عَلَيْهَـا ... فَوَجْـهُ الْأَرْضِ مُغْبِـرٌ قَبِـيحُ
تَغَيَّـرَ كُـلُّ ذِي لَـوْنٍ وَطَعْـمٍ ... وَقَـلَّ بَشَاشَـةُ الْوَجْـهِ الصَّـبِيحُ
قَتَـلَ قَابِيـلُ هَابِيـلَ أَخَـاهُ ... فَوَا حَرْبًا مَضَىٰ الْوَجْهُ الْمَلِيحُ

وكان من شأنهم ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ إلىٰ الله ﴿قُرْبَانًا﴾ ما يتقرب به إليه، فإذا قبل الله النذر أخذته النار، وإذا رد الله النذر لم تأخذه، وقد يكون القربان ذبيحة ونحو ذلك، ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو المقتول بعد ذلك، ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ وهو القاتل وقبول العمل يكون بالإخلاص والمتابعة فلعل الله عَزَّوَجَلَّ علم من ذلك الخير فقبل نذره، وعلم من ذلك غير ذلك فرد نذره، ﴿قَالَ﴾ من لم يقبل نذره ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ حيث أخذه الحسد.

۞ وهذا دليل علىٰ أن كثير من الفتن التي تقع في الأمة سببها الحسد، فعن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ رِقَابِ بَعْضٍ**» أخرجه مسلم(٢٩٦٢)، فمبدأ الفتنة الحسد، ثم الحقد والقطيعة والهجر، ثم التربص والتتبع، فكلما زاد الحسد في القلب لا يرضي صاحبه شيء فهو مرض خبيث.

ولما قتل أخاه، أفسد دنياه وأخراه، فعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأنهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القتل**» متفق عليه.

﴿قَالَ﴾ أخوه مبينًا سبب قبول عمله ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾ العمل الصالح ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الملتزمين لشرع الله بفعل المأمور وترك المحظور.

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ مددت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾ وليس ذلك جُبْنٌ مني؛ ولكن ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

۞ ومن هنا تعلم أن من أعظم أسباب السلامة من الفتن الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾ ترجع ﴿بِإِثۡمِي﴾ إثم قتلي ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ الذي ارتكبته من قبل، ﴿فَتَكُونَ﴾ بقتلك لي ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾.

۞ وعقيدة أهل السنة والجماعة: أن فاعل الكبيرة فيما دون الشرك مستحق للنار متوعد بها وأنه تحت المشيئة.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَٰٓؤُاْ﴾ عقوبة ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة فإن كان الظلم كفرًا فيخلد فيها، وإن كان معصيةً فالأمر كما تقدم.

﴿فَطَوَّعَتۡ﴾ زَيَّنَتْ ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ﴾ الأمَّارة بالسوء ﴿قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ أوقع القتل فيه، ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ القاتل ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ النادمين، فخسر الاستقامة، وخسر أخاه، وناله الوعيد والله المستعان، ثم عجز عن دفنه ومُواراتِه.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ أرسل إرسالًا كونيًا ﴿غُرَابٗا يَبۡحَثُ﴾ يَنْبِشُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ﴾ يعلمه ﴿كَيۡفَ يُوَٰرِي﴾ يستر ﴿سَوۡءَةَ﴾ جِيْفَةُ و عورة ﴿أَخِيهِۚ﴾ وهو بدنه قيل: بأن الغراب أراد أن يواري غرابًا آخر فتعلم منه، ﴿قَالَ﴾ القاتل ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ دعاء بالحسرة، ﴿أَعَجَزۡتُ﴾ عن ﴿أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ﴾ أدفن ﴿سَوۡءَةَ أَخِيۚ﴾ جيفة أخي، ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ علىٰ فعلته.

وقال بعض أهل العلم علىٰ حمله علىٰ عاتقه لا علىٰ قتله، وقيل: علىٰ فراق أخيه، وقيل: ندم لقله النفع في قتله فإنه أسخط ربه ووالديه وما انتفع في قتله شيء، وربما كان ندمه علىٰ القتل وركوب الذنب، وهذا يقع كثيرًا، فإن الشيطان يزين المعصية لصاحبها حتىٰ يصاب بالسكر بها، فإن وقع فيها سقط في نفسه وندم بعد فوات الأوان، فعن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ يقول: «**وَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ بِمِلْءِ كَفِّهِ مِنْ دَمٍ أَهْرَاقَهُ فَلْيَفْعَلْ**»

أخرجه البخاري(٧١٥٢).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**» أخرجه البخاري.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حرامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ**» أخرجه أبو داود(٤٢٧٠)، أي: ضُيق عليه وشعر بالحرج.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما تقدم ذكره من قصص الله عَزَّوَجَلَّ في شأن ابنيّ آدم إذ قتل أحدهما أخاه ظلمًا وعدوانًا فأصبح من الخاسرين، ﴿كَتَبْنَا﴾ حكمنا ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في التوراة والأنجيل، ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ معصومة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بغير قصاص أو ما أباحه الشرع.

والنبي ﷺ يقول: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»، متفق عليه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما من قتل غير المعصومة فلا أثر لقتلة كمن قتل كافرًا في حال الحرابة.

❁ والأنفس المعصومة:

- نفس المؤمن: ما لم يستوجب ما يبيح دمه.

-ونفس المستأمن: الذي يؤمنه ولي أمر المسلمين أو أحد المسلمين كأصحاب السفارات ونحوهم.

- والذمي: وهو اليهودي والنصراني يكون في بلاد المسلمين، فتجري عليه أحكام أهل الذمة ما لم ينقض عهده، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَاما**» أخرجه البخاري(٣١٦٦).

و عن أبي بَكرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ قتلَ مُعَاهِدًا في غير كُنْهِهِ حَرَّم الله عليهِ الجنةَ**» أخرجه أبو داود (٢٧٦٠).

﴿أَوْ﴾ قتلها بغير ﴿فَسَادٍ﴾ كان منها ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من كفر أو زنا أو قطع طريق، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ من حيث انتهاك حرمتها وعدم خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ لم يتعرض لها بالقتل، ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ من حيث صيانتها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ بني إسرائيل ﴿رُسُلُنَا﴾ الأدلة الواضحات والحجج القاهرات، ولكنهم أبوا وأعرضوا ولم يستجيبوا بل فريقًا كذبوا وفريقًا يقتلون، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي: أكثرهم، ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ من بعد إقامة الحجة عليهم، ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ متجاوزون علىٰ أنفسهم بالمعاصي.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا: ما أخرج أبو داود عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ أَهْلُ ضَرْعٍ، وَلَمْ يَكُونُوا أَهْلَ رِيفٍ، وَشَكَوْا حُمَّىٰ الْمَدِينَةِ، فَأَمَرَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَوْدٍ، وَأَمَرَ لَهُمْ بِرَاعٍ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا، وَأَبْوَالِهَا، فَانْطَلَقُوا، فَكَانُوا فِي نَاحِيَةِ الْحَرَّةِ، فَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، وَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَسَاقُوا الذَّوْدَ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي آثَارِهِمْ، فَأُتِيَ بِهِمْ، فَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، وَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَتُرِكُوا بِنَاحِيَةِ الْحَرَّةِ يَقْضَمُونَ حِجَارَتَهَا حَتَّىٰ مَاتُوا، قَالَ قَتَادَةُ: فَبَلَغَنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ﴾ [المائدة: ٣٣].

❁ واختلفوا في (قاطع الطريق) متى يسمى قاطعًا وتجري عليه أحكام الحرابة؟

والصحيح: أن المحارب هو الذي يقطع الطريق خارج البنيان، وأن يكون معتصمًا من الإمام بحيث يكون قد خرج عن طاعته والتزم الإفساد في أشياء ذكرناها في الكتاب "أحكام قتل النفس المعصومة".

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ﴾ عِقاب ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بمحاربة المسلمين فينصبون الحَرَابَةَ للناس فيخيفون الآمنين ويقطعون السبيل، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ بقطع الطريق ونحو ذلك، ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ على الأخشاب، وهل يكون ذلك قبل القتل أو بعده، كل ذلك قد قيل ﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ﴾ يخرجون من البلد الذي أفسدوا فيه ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ ومعنى ذلك: أن الإمام مُخَيَّرٌ فيهم بين هذه الأمور: إما أن يقتل، أو يصلب، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفيهم من الأرض.

والصواب الذي عليه ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره: إن قتلوا قُتِلوا، وإن مثلوا قُتِلوا وصُلِبوا، وإن سرقوا تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ثم يكون مآلهم الصلب والقتل، وقد قتل النبي ﷺ العرنيين؛ لأنهم قتلوا وقطعوا الطريق وارتدوا.

فعن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَاجْتَوَوْهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَىٰ إِبِلِ الصَّدَقَةِ، فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا**»، فَفَعَلُوا، فَصَحُّوا، ثُمَّ مَالُوا عَلَىٰ الرِّعَاءِ، فَقَتَلُوهُمْ وَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَسَاقُوا ذَوْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ فِي أَثَرِهِمْ فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ، وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ، حَتَّىٰ مَاتُو» متفق عليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما تقدم من العقوبة عليهم، ﴿لَهُمۡ خِزۡيٞ﴾ ذل ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ فإن تابوا تاب الله عليهم، وإن ماتوا علىٰ جريمتهم وجريرتهم بعثوا عليها، ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيم﴾ موجع.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن﴾ رجعوا من فعلهم أي: من قُطَّاع الطريق والبغاة، وقيل من الكفار ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ من قبل أن تتمكنوا من القبض عليهم، فجاء بنفسه إلى ولي الأمر، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ متجاوز، وذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي يَعْفُ عنهم ما كان من حق الإمام، وأما إن كانوا قد قتلوا وسرقوا وفعلوا مثل هذه الأمور فالقاتل يُقتل والسارق تقطع يده.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير (٣/ ١٠٢): "أما عَلَىٰ قَوْلِ مَنْ قَالَ: هِيَ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ فَظَاهِرٌ، وَأما الْمُحَارِبُونَ الْمُسْلِمُونَ فَإِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ يَسْقُطُ عَنْهُمُ انْحِتَامُ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَقَطْعِ الرِّجْلِ، وَهَلْ يَسْقُطُ قَطْعُ الْيَدِ أَمْ لَا؟ فِيهِ قَوْلانِ لِلْعُلَمَاءِ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي سُقُوطَ الْجَمِيعِ، وَعَلَيْهِ عَمَلُ الصَّحَابَةِ" اهـ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ راقبوه في السراء والضراء والشدة والرخاء، والتزموا فعل المأمور واجتنبوا فعل المحظور، ﴿وَابْتَغُوا﴾ اطلبوا، ﴿إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ القربة.

ومنه قول الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ... وعاد التصافي بيننا والوسائل

وقال الشاعر:

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ لإعلاء دينه فيدخل في ذلك جهاد اللسان والبيان، وجهاد السنان ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون فتسلمون من المرهوب، وتحصولون علىٰ المطلوب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعرضوا عن دين الله عَزَّوَجَلَّ ولم ينقادوا له ﴿لَوْ﴾ ثَبَتَ ﴿أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من قصورها وحدائقها وغير ذلك، ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج:١٣-١٤].

﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ﴾ لأنهم لم يؤمنوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، ولا بمحمد ﷺ نبيًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع.

وفي حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ**» متفق عليه.

﴿يُرِيدُونَ﴾ يتمنون ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ﴾ بالفداء وغيره، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ﴾ بل يعذبون أبد الآباد ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ مستمر دائم.

۞ وهذا دليل لمذهب أهل السنة والجماعة بخلود الجنة والنار، وأنها لا تفنىٰ ولا تبيد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦]، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨].

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ وهو من يأخذ أموال الناس المُحَرَّزَةِ، فمن أخذ أموال الناس غير المُحَرَّزَةِ قد يكون غاصبًا وقد يكون نهابًا، أما إذا أخذها من حِرْزٍ فهو سارق، وقد بَيَّنَتْ السُّنة ما يقطع فيه السارق.

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا**» متفق عليه.

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِيمَا دُونَ الْمِجَنِّ**» قِيلَ لِعَائِشَةَ: مَا ثَمَنُ الْمِجَنِّ؟ قَالَتْ: «**رُبْعُ دِينَارٍ**» أخرجه النسائي(٤٩٥٠).

﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ والمراد بـ(اليد) هنا الكف إجماعًا، فتقطع اليمين من الرسغ، هذا في حال السرقة الأولىٰ ﴿جَزَاء﴾ عقوبة ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ بما عملا ﴿نَكَالاً﴾ عقوبة ﴿مِّنَ اللّهِ﴾ بسبب إجرامهم، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب ﴿حَكِيم﴾ إذ يضع الأمور في مواضعها.

وقد ذهب المعري وغيره من الزنادقة إلىٰ الاعتراض علىٰ حكم الله فقال قبَّحه الله:

يد بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

فردَّ عليهم بعضهم بقوله:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل ... الخيانة فافهم حكمة الباري

وقال بعضهم: لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت.

﴿فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ وهي السرقة هنا، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ﴾ يتجاوز عنه، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم﴾ إن تاب قبل أن يبلغ الأمر إلى السلطان وعفا عنه المظلوم أو ردَّ المظلمة إلى صاحبها نسأل الله أن يتوب عليه وليس عليه قطع، وأما إذا بلغ الأمر السلطان فعليه القطع سواءً تاب أم لم يتب.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد، وهو خطاب لجميع الأمة، ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وما بينهما، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاء﴾ عدلًا منه، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ فضلًا منه، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾ لا يعجزه شيء في أحكامه وأوامره، ومنه ما ينزله من العقوبة بأهل الإجرام، وما ينعم به أهل الإحسان.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ خطاب لمحمد ﷺ إذ أنه رسول الله إلى الناس كافة وختم به النبيون، وهو خطاب لأمته ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ صنع وفعل ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ في موالاة الكفار، وما في بابها من مسببات الكفر، وهؤلاء المسارعون هم: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ﴾ وهم أهل النفاق أسلموا ظاهرًا، وكفروا باطنًا، وقد توعدهم الله بالدرك الأسفل من النار كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦].

۞ وفي هذا دليل علىٰ أن القول المجرد عن النية لا يفيد صاحبه في شيء، فعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر:٢]، وقد قال النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» متفق عليه عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ وفي هذا ردٌ علىٰ المرجئة الذين يثبتون الإيمان بمجرد النطق، ومذهبهم ردي وطريقهم غير سوي.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قيل: معطوفة، فيكون المعنىٰ: (ولا يحزنك هذا الصنف من اليهود)، وقيل: استأنافية، فيكون المعنىٰ: ومن الذين هادو الذين هم: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يتلقفونه وينشرونه، والكذب يصدر من أهل النفاق وهم يُوشُونَه ويُشِيعُونَه، ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: من أهل النفاق ونحوهم، وقيل سماعون منك ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ للإيمان وسماع الحق والهدىٰ، وقيل لا يأتون لمجالسك، ومن طريقهم أنهم ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يغيرون ﴿ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي: دلالة القرآن والسنة، ومنه ما سيأتي من أنهم يحرفون التوراة فلما زنا أحدهم غطوا آية الرجم تلبيسًا وكتمًا للحق، ولن يضروا الحق شيئًا وإنما يضرون أنفسهم، ﴿يَقُولُونَ﴾ لبعضهم ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ الحكم المحرف المبدل ﴿فَخُذُوهُ﴾ اقبلوه، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ فحكم فيكم بالرجم، ﴿فَٱحْذَرُواْ﴾ أن تقبلوه، وهذا من كفرهم وتلبيسهم فلا يأخذون إلا ما يوافق أهوائهم ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ إضلاله ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وهذه الإرادة هي القدرية الكونية، لأنه يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا، فمهما أبلغت في النصيحة لا يستقيم الأمر لمثل هؤلاء لعلم الله بفساد حالهم ومآلهم، وكم من إنسان تبذل له النصيحة تلو النصيحة والتوجيه تلو التوجيه ولا تجد منه إلا النفور والإعراض، وهذا من تَنَكُّسِ الفطر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من تقدم ذكرهم من المنافقين واليهود ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ كونًا ﴿أَن يُطَهِّرَ﴾ ينقي ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ بالإيمان، وإلا فإن الله يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر؛ لكن أعرضوا وأبوا، وكون الله عَزَّوَجَلَّ لم يرد أن يطهر قلوبهم؛ لما في قلوبهم من الخبث والمرض كما قال تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ﴾ [البقرة:١٠]. وبسبب كفرهم وإعراضهم ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هَوانٌ وذُلٌّ، ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مُرَّ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمٍ مَجْلُودٍ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَهَكَذَا تَجِدُونَ الزِّنَا فِي كِتَابِكُمْ**»، قَالُوا: نَعَمْ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ: «**أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ**

الزِّنَا فِي كِتَابِكُمْ؟»، قَالَ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُ الزِّنَا فِي كِتَابِنَا: الرَّجْمَ، وَلَكِنْ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، فَقُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنُجْمِعْ عَلَىٰ شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَىٰ الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَىٰ التَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ مَكَانَ الرَّجْمِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ**»، فَأَمَرَ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَـٰذَا فَخُذُوهُ﴾، يَقُولُونَ: ائْتُوا مُحَمَّدًا، فَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَـٰسِقُونَ﴾. قَالَ الْبَرَاءُ: هِيَ فِي الْكُفَّارِ كُلُّهَا، أخرجه أبو داود، وأصله في الصحيحين عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

﴿سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٣﴾.

ويقول في وصف اليهود: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرره لبيان قبحه، فهم يَتَلَقَّفُونَ الكذب مصدقون له، زِد على ذلك أنهم يقولونه.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**» متفق عليه.

ومن صنيعهم أنهم: ﴿أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ صيغة مبالغة في أكلهم للسُّحْتِ وهو المال الحرام من الرشاوىٰ والربا وغيرها، وأصل (السُّحْتِ): الهلاك والشدة كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ﴾ [طه:٦١].

﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ يا محمد لتحكم بينهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم﴾ إن شئت، ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تحكم بينهم ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق الإثبات تفيد العموم، وهذا وعد من الله أنه إذا أعرض عنهم لا يتخوف من معرة هذا الإعراض فإنهم لن يضروه شيئًا؛ لضعفهم وضعف حججهم وفساد رأيهم،، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ بينهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾ إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ ﴿الْمُقْسِطِينَ﴾ المقسطين العادلين في الحكم.

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ** عَزَّوَجَلَّ، **وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**» أخرجه مسلم (١٨٢٧).

و(القَاسِطُ): الزائغ عن العدل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن:١٥].

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ لبيان عجيب حالهم، ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ كيف يذهبون إلىٰ تحكيم النبي ﷺ ؟ ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ التي أنزلت علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ بالرجم لو كانوا يبحثون عن حكم الله؛ لكنهم يبحثون عن الرخصة، فلما أتوا النبي ﷺ أنزل الله الرجم فرجم اليهودي واليهودية.

۞ وفيه: أن التوراة كتاب الله إلا أنها غُيرت وبُدلت فلا يجوز للمسلم أن يتحاكم إليها، فإن الله أمرنا أن نتحاكم إلىٰ القرآن والسنة.

وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ وَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**» أخرجه أحمد (١٥١٥٦).

﴿ثُمَّ﴾ لا يأخذون بحكمها ولكنهم ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ يعرضون ﴿مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عن حكمك المتوافق لحكم التوراة بالرجم، ﴿وَمَا أُوْلَـٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ما أولئك بالصادقين في قولهم وفي فعلهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول عَزَّوَجَلَّ لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا﴾ وهذا من باب التعظيم، وإلا فإن المنزل هو الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿التَّوْرَاةَ﴾ وهو الكتاب الذي أُنزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فِيهَا هُدًى﴾ من الضلال ﴿وَنُورٌ﴾ برهان لأسباب الرفعة في الدنيا والآخرة، ﴿يَحْكُمُ﴾ يقضي ﴿بِهَا﴾ بالتوراة ﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ الذين تابعوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واستقاموا على دينه.

﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ فيه تقديم وتأخير تقديره: (فيها هدىٰ ونور للذين هادوا)، ثم قال: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ العلماء منهم ﴿وَالأَحْبَارُ﴾ أيضًا يحكمون بها وهم علماء اليهود، وأما (الرُّهْبَان):فهم عباد النصارىٰ، ﴿بِمَا﴾ بسبب الذي ﴿اسْتُحْفِظُوا﴾ استودعوا ﴿مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ من العلم وأوجب عليهم العمل، وكتاب الله هنا مفرد ويشمل كل كتاب أنزله الله عَزَّوَجَلَّ، أو أنه بمعناه الخاص: التوراة ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ﴾ علىٰ الكتاب ﴿شُهَدَاء﴾ مطلعون علىٰ أنه الحق، ويجب التحاكم إليه، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ أي: فلا تخافوا الناس وتعظمون شأنهم فيحولون بينكم وبين التزام شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وتخفون وصف محمد ﷺ ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ أي:

اخشوا الله عَزَّوَجَلَّ، و(الخَشْيَةُ): هي الخوف مع التعظيم كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ﴾ تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ الشرعية ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ أي: لا تكتموا الحق مقابل عرض من الدنيا زائل كما قال النبي ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**» أخرجه مسلم (١١٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ يقضي ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ بشرع الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/ ٦١) : "قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَطَاوُسٌ: لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ، بَلْ إِذَا فَعَلَهُ فَهُوَ بِهِ كَافِرٌ، وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ عَطَاءٌ: هُوَ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ، وَفِسْقٌ دُونَ فِسْقٍ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ مَعْنَاهُ: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ جَاحِدًا بِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَقَرَّ بِهِ وَلَمْ يَحْكُمْ بِهِ فَهُوَ ظَالِمٌ فَاسِقٌ. وَسُئِلَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ يَحْيَىٰ الْكِنَانِيُّ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَقَالَ: إِنَّهَا تَقَعُ عَلَىٰ جَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَا عَلَىٰ بَعْضِهِ، وكل مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ فَهُوَ كَافِرٌ ظَالِمٌ فَاسِقٌ، فَأما مَنْ حَكَمَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَتَرْكِ الشرك. ثم لم يحكم ببعض مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الشَّرَائِعِ لَمْ يَسْتَوْجِبْ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَاتِ. وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا إِذَا رَدَّ نَصَّ حُكْمِ اللهِ عِيَانًا عَمْدًا، فَأما مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ أَوْ أخطأ في تأويل فلا" اهـ.

فلا يكون الحاكم بغير ما أنزل الله كافر إلا إذا حكم بغير ما أنزل الله علىٰ أنه أحسن من حكم الله، أو مثل حكم الله، أو أن حكم الله لا يصلح لهذا الزمان والمكان فهو كفر أكبر مخرج من الملة، وعلىٰ هذا جماهير أهل العلم، وذهب بعضهم إلىٰ أن الآية إنما نزلت في اليهود وليست في المسلمين.

والصحيح الأول.

﴿وَكَتَبْنَا﴾ فرضنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على بني إسرائيل، ﴿فِيهَا﴾ في التوراة، في حال عمدهم لما يقع بينهم من الجراحات في النفس وما دونها، أما الخطأ فليس فيه إلا الدية والقيمة، ويلتحق به شبه العمد ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ تقتل بها ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ تُفْقَأ بها ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ تُجْدَعُ

بها ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ تقطع بها ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ تقلع بها ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وسائر الجراحات تقاس عليها ويكون فيها القصاص، إلا ما لا يمكن فيه القصاص كالكسر وجراح اللحم، ويكون القصاص في الجروح بعد أن تبرأ، لأنه قد يموت بسبب هذه الجراحة فيلزم النفس بالنفس، وقد يلحقه ضرر؛ ولكن قال العلماء ينتظر حتى إذا برأ من جرحه عند ذلك تجري المقاصَّة.

❁ ويستثنى من هذه الآية: أن لا يقتل مسلم بكافر.

فقد خصصها حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**وأنه لا يقتل مسلم بكافر**»، وذهب أبو حنيفة رَحِمَهُٱللَّهُ إلىٰ خلاف هذا القول، وقوله مردود؛ لمخالفته للنص الثابت عن النبي ﷺ، واختلفوا أيضا في قتل الرجل بالمرأة.

والصحيح: أنه يقتل بها وتقتل به، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**أَنَّ جَارِيَةً وُجِدَ رَأْسُهَا قَدْ رُضَّ بَيْنَ حَجَرَيْنِ، فَسَأَلُوهَا مَنْ صَنَعَ هَذَا بِكِ؟ فُلأن؟ فُلأن؟ حَتَّىٰ ذَكَرُوا يَهُودِيًّا، فَأَوْمَتْ بِرَأْسِهَا، فَأُخِذَ الْيَهُودِيُّ فَأَقَرَّ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُرَضَّ رَأْسُهُ بِالْحِجَارَةِ**» متفق عليه، ولا يقتل الرجل بعبده ولا بولده، إلا إذا قتلهم غيلة كما هو قول الإمام مالك.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: بالجراحات وعفا، وكان النبي ﷺ لا يرفع إليه شيء إلا أمر فيه بالعفو، ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ كفارة لذنبه ورفع لدرجاته وتجاوز عن الظالم، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ يقضي ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ علىٰ المعنىٰ السابق ظلم دون ظلم.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾ اتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم﴾ آثار أنبياء بني إسرائيل، ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وهو إسرائيلي منهم نسب إلى أمه؛ لأنه لا أب له، وكان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: غير مخالف لها، بل جاء يدعو إليها ويجدد ما نبذه اليهود منها، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ أعطيناه ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ وإنجيله قد حُرف وغُير وبُدل وهو الآن أربعة أناجيل: إنجيل مرقص، ولوقا، ويوحنا، ومتَّى، وأقرب الأناجيل من عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عهدًا كتب بعد رفعه بثمانين سنة، وإنما كتبوا معاني أقواله ولهذا تجد فيها من الخلط والخبط ما الله به عليم حتى جاء

بولس شاول اليهودي وحرف هذه الأناجيل، وأدخل عليهم عقيدة الصلب، وغير ذلك من العقائد الباطلة.

ومن شأن الأنجيل أنَّ ﴿فِيهِ هُدًى﴾ من الضلال ﴿وَنُورٌ﴾ بيان للأحكام ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لأنَّ كتاب الله الحق لا يخالف بعضه بعضًا، وإنما الاختلاف قد يقع في الشرائع، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ هداية ودلالة إلىٰ الخير، وزاجر عن الشر والضير ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ أي: من الوحي، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن أمر الله عَزَّوَجَلَّ، وهو فسوق دون فسوق على التفصيل السابق.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن، ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، من التوراة والأنجيل أي: التي لم تحرف أو تغير أو تبدل، أما ما لم يكن من عند الله عَزَّوَجَلَّ فلا يلزم أن يصدقه القرآن، ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: شاهدًا وقيل: قاضيًا عليه بحيث أن القرآن يُعمل به ويترك غيره من الكتب فهو الكتاب والدين المهين فلا حق إلا ما فيه وما أقره، ﴿فَاحْكُم﴾ يا محمد ﴿بَيْنَهُم﴾ اليهود ومن تحاكم إليك ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في القرآن، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ﴾ عادلا وتاركا ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ لأنهم أرادوا أن يغيروا الحكم في الرجم إلى الجلد والتَّحْمِيم فلا يجوز اتباع الهوى؛ لأنه سبب الضلال، كما قال

تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص:٢٦]، وسُمي الهوى بهذا الاسم؛ لأنه يهوي بصاحبه إلى مدارك الضلالة ومساوئ الأحوال، وفي الآخرة ربما يهوي به إلى النار إن كان شركًا ويستحق صاحبه الهوي في النار إن كان دون ذلك.

﴿وَلَا﴾ سبيلًا، ﴿وَمِنْهَاجًاۚ﴾ أي: سنة، قاله مجاهد، فالأنبياء يتفقون في العقائد وربما اختلفوا في الشرائع والأحكام بعد اتفاقهم في الجملة من حيث الصلاة والصيام والزكاة والحج إلا أن لكل نبي طريق في التعبد لله عَزَّوَجَلَّ شرعه الله له.

فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، الأَنبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**» متفق عليه.

﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ﴾ كونًا ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ صيركم ﴿أُمَّةً﴾ طائفة أو ملة ﴿وَاحِدَةً﴾ علىٰ طريق واحد وسبيل قويم، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ يختبركم ﴿فِي مَا آتَاكُم﴾ من الشرائع والأحكام، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ بادروا بالأعمال قبل الحيلولة بينكم وبينها، ﴿إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ويحكم بينكم ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كرره؛ لأهمية الحكم بما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه الحق الذي لا باطل ولا خلف فيه، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ﴾ كرر النهي عن اتباع الهوى؛ لعظيم مفاسده وضرره، ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أن يضلوك عن سبيل الهدى، وطريق الرشاد، ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾ لأنهم لو أرادوا إضلاله عن الكل لتفطن لهم، لكن ربما ذهبوا إلى بعضها تلبيسًا وتمويهًا كما هو حال الكفار مع المسلمين فلا يقولون لهم اتركوا الإسلام جملة وإنما يقولون: حققوا الديمقراطية، أخرجوا المرأة للعمل مع الرجال، حكموا القوانين، افعلوا كذا وكذا، فالإنسان يكون على حذرة من مداخلهم وطرقهم، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن حكم الله، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم﴾ بالعقوبة في الدنيا ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ﴾ لأنَّ الذنوب

من أسباب الخزي في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن الطاعة.

﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾ يطلبون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون والاستفهام إنكاري، ﴿وَمَنۡ﴾ ولا ﴿أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا﴾ وأي حكم أحسن من حكم الله؟ وأي طريق أهدى من طريق رسول الله ﷺ ومع ذلك تجد أن الناس في زهد عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ.

ولو تأملت حال الناس لرأيت أن أغلب الدول والحكومات والجماعات في بعد عن الطريق القويم والصراط المستقيم إلا ما كان من الطائفة المنصورة الفرقة الناجية التي قال عنها النبي ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً عَلَىٰ الْحَقِّ لَا يُبَالُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاسِ**» متفق عليه.

عن معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والتحاكم إلىٰ ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ هو لفظ عام يدخل فيه التحاكم في التوحيد، والعقائد، والأخلاق، والعبادات، والمعاملات فكلما كان من شأن الإنسان ينبغي أن يتحاكم فيه إلىٰ الله ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ يستيقنون أنه تعالىٰ أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة يولدها، فإنه تعالىٰ العالم بكل شيء القادر علىٰ كل شيء العادل في كل شيء.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾.

يخاطب الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بهذا الأمر العظيم الذي هو من مهمات الدين إذ فيه الدعوة إلى مُبايَنَةِ المشركين حالا وقالا، لاسيما اليهود والنصارى لشدة التأثر والاقتداء بهم، فيقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ والأمر عام لجميع من اتصف بالإيمان ظاهرا أو باطنا أو ظاهرا فقط، خلافًا من زعم أن الخطاب

للمنافقين ﴿ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ تناصرونهم ويناصرونكم، وتحبونهم ويحبونكم؛ لأنَّ هذا أمر لا يجوز فالبراءة مطلوبة من اليهود والنصارى كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ﴾ [المجادلة:٢٢]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مخبراً عن إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨]، فنهىٰ الله عن اتخاذ اليهود والنصارىٰ أولياء، فمن تولاهم ظاهرًا باطنًا مناصرًا لهم محبًا لدينهم فهو منهم قد رضي دينهم، وباطلهم، ورضي الكفر بعد الإسلام، وقد جوز الله من الولاية لهم ما كان لاتقاء شرهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ﴾ [آل عمران:٢٨]، فرخص الله فيه التقية الظاهرة لدفع شرهم كأن يكون المسلم مستضعفًا، أما أن يحبهم ويُودُّهم ويناصرهم فهذا لا يجوز بل هو الكفر بعينه.

فإن الكفار ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ اليهودي ولي لليهودي والنصراني ولي للنصراني، فإن بين اليهود والنصارىٰ عداوة كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ١١٣]، وقيل بل بينهم ولايات لبعضهم لاسيما ضد أهل الإسلام ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ ظاهرًا باطنًا، ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ من جملتهم علىٰ التفصيل الذي سبق: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين المنحرفين عن الصراط القويم، والطريق المستقيم.

﴿فَتَرَى﴾ يا محمد ومن معك من المؤمنين ﴿الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من المنافقين وغيرهم، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ في معونتهم ومولاتهم والمحبة لهم والميل إليهم والدفاع عنهم، وقال فيهم ولم يقل إليهم لشدة رغبتهم في محبتهم ونصرتهم، فكأنهم داخلون في مرادهم، والسبب في ذلك: ما في قلوبهم من المرض والحرص على الدنيا، ﴿يَقُولُونَ﴾ بلسان حالهم

أو مقالهم ﴿نَخْشَىٰٓ﴾ نتخوف ﴿أَن تُصِيبَنَا﴾ تنزل بنا ﴿دَآئِرَةٌ﴾ هزيمة والمعنى: أن المنافقين يقولون نتخوف أن ينتصر الكفار، فتكون لهم الدولة ويلحقنا الضرر فنستعين بهم، ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ﴾ على الرجاء، وهي في حق الله عَزَّوَجَلَّ موجبة ﴿أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ بالنصر وظهور النبي ﷺ والمؤمنين على الكافرين وحصول النصر والتمكين، ﴿أَوۡ﴾ يأتي بـ ﴿أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ يندفع به شر اليهود والنصارى والكافرين، وقد جاء الله بالفتح فعذب الكافرين وأجلي اليهود وفتحت مكة وهذا من فضل الله على عباده، ﴿فَيُصۡبِحُواْ﴾ أهل النفاق ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ﴾ أخفوا ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ من موالاة اليهود ودَسِّ الأخبار إليهم ﴿نَٰدِمِينَ﴾ على ما كان منهم مما لم يُجْدِ عنهم شيئًا، ولم يدفع عنهم محذورًا وأظهر الله أمرهم في الدنيا بعد أن كانوا مستورين.

❁ وفي هذه الآيات شبهة للتكفيريين الذين يكفرون حكام المسلمين بمجرد إجراء العهود مع الدول الكافرة.

فيرد عليهم بأن النبي ﷺ قد فعل بعض العقود، والعهود مع اليهود والنصارىٰ ومع الكفار، فينظر في مسألة الصلح إلىٰ مصلحة الإسلام والمسلمين، فقد يجب الصلح، وقد يستحب، وقد يحرم كل شيء بحسبه، والله الموفق.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عند ظهور ندامة المنافقين ومن إليهم ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ﴾ حلفوا ﴿بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أغلظها ﴿إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾، ينصرونكم ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بطل كل خير عملوه، بسبب كفرهم الباطن ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لدينهم ودنياهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ﴾ من يرجع عن هذا الدين، وقرأ أهل المدينة والشام: ﴿يَرْتَدِد﴾ بدالين، ﴿عَن دِينِهِۦ﴾ فيرجع إلى الكفر.

۞ وهذا دليل علىٰ الردة، وتجد كثيرًا من دعاة الحزبيين في هذه الأيام لا يرون حكم الردة وهذا ليس بمستغرب فإنهم يرون أن اليهود والنصارىٰ كلهم أصحاب أديان سماوية، بل ربما التمسوا لهم الأعذار.

ويقولون: الفِرَقُ التي تؤمن بالله ويقصدون بها اليهود والنصارىٰ والمسلمين، وإيمانهم بالله في الجملة غالبه في الربوبية وإلا فهم مشركون منددون لا عبرة بإيمانهم فقد سماهم الله عَزَّوَجَلَّ كافرين، وهم في شرع الله منددين ولو لم يكن من أسباب كفرهم إلا كفرهم بمحمد ﷺ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ﴾ خيرًا منهم، كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، ﴿يُحِبُّهُمۡ﴾ لعملهم الصالح ومسارعتهم فيه، ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ لعلمهم بما له من الحق عليهم، وإيمانهم بأسمائه وصفاته، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تواضعًا ورفقًا ورحمة للمؤمنين، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ علوًا وظهورًا وإهانة للكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأنواع الجهاد القولي، والفعلي، والاعتقادي، والمالي، لإعلاء كلمة الله ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ﴾اعتراض ﴿لَآئِمٖۚ﴾ معترض لهم في حال دعوتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وفي حديث طَارِقٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ إمامٍ جَائِرٍ**» أخرجه أحمد.

وقال رسول الله ﷺ: « **لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ هَيْبَةُ النَّاسِ، أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ أَوْ سَمِعَهُ** » أخرجه أحمد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ ما تقدم من صفاتهم ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ الواسع العظيم ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ ممن علمه أهلا لذلك وفقه وسدده، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ واسع الفضل والعطاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق ذلك الفضل.

۞ وقد نزلت هذه الآية في أهل اليمن فهم الذين نصر الله بهم الدين في خلافة أبي بكر وعمر، وفتحوا الفتوحات ومصروا الأمصار، فإذا أردنا العزة علينا أن نعتز بما أعز الله به هؤلاء من هذه الصفات الحميدة لا بالنسب المجرد فإن النسب المجرد عن الاستقامة الدينية لا يغني شيئا قال رسول الله ﷺ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكون الإنسان يمنيًا مع فضائل أهل اليمن، أو كون الإنسان شاميًا مع فضائل أهل الشام، أو كون الإنسان هاشميًا مع فضائل بني هاشم وآل بيت النبي ﷺ فهذه النسبة لا تقدم ولا تؤخر كما قال النبي ﷺ: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**» أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

حتىٰ يضاف إليها الاستقامة ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقُهُوا**» أخرجه مسلم (٢٣٧٨).

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ يا أهل الإسلام ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليست اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين فيُحبون ويناصرون ويعاونون، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ بيان للمؤمنين أي: أنهم الذين يحافظون على الصلوات بأركانها وشروطها وواجباتها، ومستحباتها على الوجه الذي شرعه الله، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: المفروضة التي افترضها الله عَزَّوَجَلَّ عليهم في كتابه، وبينها رسول الله ﷺ في سنته، ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ قيل: صلاة التطوع بالليل والنهار.

❖ وذهب بعضهم: إلىٰ أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا يثبت حيث زعموا أن السائل جاءه يسأله الصدقة وهو راكع فناوله وهو علىٰ هذا الحال، ففي سندها عبد الوهاب بن مجاهد متروك، والآية علىٰ عمومها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣/ ١٢٥): "وَأما قَوْلُهُ وَهُمْ راكِعُونَ فَقَدْ تَوَهَّمَ بعض الناس أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ قَوْله ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أَيْ فِي حَال رُكُوعهمْ وَلَوْ كَانَ هَذَا كَذَلِكَ لَكَانَ دَفْع الزَّكَاة فِي حَال الرُّكُوع أَفْضَلَ مِنْ غَيْره لأنهُ مَمْدُوح وَلَيْسَ الْأَمْر كَذَلِكَ عِنْد أَحَد مِنْ الْعُلَمَاء مِمَّنْ نَعْلَمُهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْفَتْوَىٰ، وَحَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَهُمْ ذَكَرَ فِي هَذَا أَثَرًا عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فيه، وذلك أَنَّهُ مَرَّ بِهِ سَائِلٌ فِي حَالِ رُكُوعِهِ فَأَعْطَاهُ خَاتَمَهُ" اهـ.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ﴾ بالقيام بطاعته ﴿وَ﴾ يتولى ﴿رَسُولَهُۥ﴾ بمتابعته ومحبته ونصرته ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بنصرتهم ومعونتهم ومحبتهم فهم حزب الله ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ سماهم حزب الله؛ لتحزبهم واجتماعهم على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وفي مقابله حزب الشيطان: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩]، فحزب الله هو الغالب، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ﴾ من المنافقين والكافرين من أهل الكتاب، ﴿هُزُوٗا﴾ يستهزئون به، ﴿وَلَعِبٗا﴾ يتلاعبون بأحكامه إما بالمَسَبَّة ونحو ذلك من القول والفعل، أو اعتقادهم أنه نوع من اللعب على ما في نظرهم الفاسد وفكرهم البارد.

وكما قال بعضهم:

وكم من عائب قولًا صحيحًا ... وآفاته من الفهم السقيم

﴿مِّنَ﴾ من للتبعيض، ﴿الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارىٰ، ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ﴾ جميع عباد الأصنام والأوثان ومن خالف شرع الله ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ وليًا مناصرًا وإن كان قريبًا أو صديقًا

أو حميمًا كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن﴾ [التوبة:٢٣]، فالكافر لا ولاية له كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ حقًا وصدقًا قولًا وفعلًا.

﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بالآذان ونحوه، ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾ أي: الكفار، ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ استهزاءً وسخرية، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ لا يعقلون شرع الله ولا يلتزمونه.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿يَاأَهۡلَ الۡكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارىٰ، ﴿هَلۡ﴾ ما ﴿تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ من ديننا وتخالفونه وتظهرن لنا العداوة، ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ربًا، ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ من القرآن والوحي، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ التوراة والأنجيل حيث آمنوا بها إجمالًا من أنها كتب الله أنزلت علىٰ رسله، ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن أمر الله وطاعته، أولًا: بكفرهم بحمد ﷺ، ثانيًا: بتحريفهم لما أنزله اللهعَزَّوَجَلَّ وأوحاه إليه، وكان سبب فسقهم حب الرئاسة والعلو والفساد والبغي وما في قلوبهم من المرض وغير ذلك مما أخبر الله به.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ ممن هو أولىٰ بالعيب مما تنقمون علينا، ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ عقوبة وجزاءً عند الله سواء في الدنيا أو في الآخرة، ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أبعده من رحمته، ﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ غضبًا لا يرضىٰ عليه بعده أبد، ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ اليهود الذين خالفوا أمر الله وشرعه فمسخهم قردةً وخنازير، فهم أشر وأبعد عن الحق لكنهم لا يعقلون، يزعمون أن محمدًا ﷺ وأصحاب محمد ﷺ هم المخالفون، والواقع أنهم هم الأشرار الفجار، ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ أي: وكذلك جعل منهم عبدت الطاغوت.

ومعنىٰ آخر علىٰ قراءة ﴿وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ﴾ أي: أن أشر المخلوقات من لعنه الله وغضب عليه، وعبد الطاغوت أي: الشيطان ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا﴾ في الدنيا والآخرة، مما تظنون بأهل الإسلام ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن طريق الحق والهدىٰ، وهذا كقوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤].

۞ **وهذه الآية مع ما فيها من فضح لطريق اليهود والنصارىٰ وغيرهم من المشركين إلا أن فيها تسلية للنبي الكريم** ﷺ؛ إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ أظهر أنهم يستهزئون به، وهم بالاستهزاء أجدر، ويسخرون منه وهم بالسخرية ألحق؛ لأنَّ الله لعنهم ومسخهم، وبدلا أن يعبدوا الله الواحد القهار الذي عبده محمد ﷺ وأصحابه، صاروا يعبدون الطاغوت وهو الشيطان وما إليه.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾ المنافقون أو اليهود، ﴿قَالُوٓاْ آمَنَّا﴾ بالذي أنزل علىٰ محمد ﷺ، مصانعة علىٰ غير الحقيقة كقوله تعالىٰ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، ﴿وَقَد دَّخَلُواْ﴾ حين دخلوا علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿بِالْكُفْرِ﴾ والإعراض، ﴿وَهُمْ﴾ المنافقون ﴿قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۖ﴾ أي: بالكفر، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ يخفون لا تخفىٰ عليه خافية، وهذا علىٰ الوعيد.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين، أو اليهود أو من الطائفتين معًا ﴿يُسَارِعُونَ﴾ يسرعون ويبادرون، ﴿فِي ٱلْإِثْمِ﴾ المعاصي ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم فيدخل فيها الشرك والكذب، والاعتداء علىٰ المخلوقين، ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ ويسارعون في أكل المال الحرام مثل الربا والرشاوي ونحوها ، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يتعاطون من المعاصي.

﴿لَوْلَا﴾ هلا كان ﴿لَوْلَا﴾ يمنعهم ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ العباد، ﴿وَالأَحْبَارُ﴾ علماء اليهود ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ الباطل ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الحرام، لكنهم لم يفعلوا ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ بكتم الحق وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "فتح القدير" (٢/ ٦٤): "ثُمَّ وَبَّخَ عُلَمَاءَهُمْ فِي تَرْكِهِمْ لِنَهْيِهِمْ فَقَالَ: لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَهَذَا فِيهِ زِيَادَةٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ: لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لأَنَّ الْعَمَلَ لَا يَبْلُغُ دَرَجَةَ الصُّنْعِ حَتَّىٰ يَتَدَرَّبَ فِيهِ صَاحِبُهُ، وَلِهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ: سَيْفٌ صَنِيعٌ: إِذَا جَوَّدَ عَامِلُهُ عَمَلَهُ، فَالصُّنْعُ هُوَ الْعَمَلُ الْجَيِّدُ لَا مُطْلَقُ الْعَمَلِ، فَوَبَّخَ سُبْحَانَهُ الْخَاصَّةَ، وَهُمُ الْعُلَمَاءُ التَّارِكُونَ لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِمَا هُوَ أَغْلَظُ وَأَشَدُّ مِنْ تَوْبِيخِ فَاعِلِ الْمَعَاصِي، فَلْيَفْتَحِ الْعُلَمَاءُ لِهَذِهِ الْآيَةِ مَسَامِعَهُمْ وَيُفْرِجُوا لَهَا عَنْ قُلُوبِهِمْ، فَإِنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِمَا فِيهِ الْبَيَانُ الشَّافِي لَهُمْ بِأَنَّ كَفَّهُمْ عَنِ الْمَعَاصِي مَعَ تَرْكِ إِنْكَارِهِمْ عَلَىٰ أَهْلِهَا لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مَنْ جُوعٍ، بَلْ هُمْ أَشَدُّ حَالًا وَأَعْظَمُ وَبَالًا مِنَ الْعُصَاةِ، فَرَحِمَ اللهُ عَالِمًا قَامَ بِمَا أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ فَرِيضَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَهُوَ أَعْظَمُ مَا افْتَرَضَهُ اللهُ عَلَيْهِ وَأَوْجَبُ مَا أَوْجَبَ عَلَيْهِ النُّهُوضُ بِهِ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ فِيكَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَعِنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ وَقَوِّنَا عَلَيْهِ وَيَسِّرْهُ لَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَىٰ مَنْ تَعَدَّىٰ حُدُودَكَ وَظَلَمَ عِبَادَكَ، إِنَّهُ لَا نَاصِرَ لَنَا سِوَاكَ وَلَا مُسْتَعَانَ غَيْرُكَ، يَا مَالِكَ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" اهـ.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ طعنًا في الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾ بخيلة وهذا من أقبح قولهم فقد قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران:١٨١]، وهنا زعموا أنه بخيل تعالى الله عن قولهم.

۞ وفي الآية إثبات صفة اليدين لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم ينكر عليهم إثبات اليد وإنما أنكر عليهم وصفه بالغل، وهو كناية عن البخل، واليد المغلولة: هي التي تُضم إلىٰ العنق.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ جوزوا لسوء فعالهم حين اتهموا الله عَزَّوَجَلَّ بالبخل عاقبهم الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الصفة الذميمة ولهذا تجد اليهود أشد الناس بخلًا.

﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ طردهم الله وأقصاهم وأبعدهم من الحق والرحمة؛ لعظيم ذنبهم وعظيم جرمهم، ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ يدان حقيقتان تليق بجلالته، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ بالخير والعطاء وفي حديث أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ**» أخرجه مسلم (٢٧٥٩).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**يَمِينُ اللهِ مَلْأَىٰ لَا يَغِيضُهَا سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ**» متفق عليه.

۞ ومن زعم أن اليد بمعنىٰ القدرة أو القوة من المعتزلة والجهمية ونحوهم، رد عليه بأن المجاز لا يثنىٰ وهنا ثنيت بينما، قدرة الله واحدة وقوته واحده، ثم إن اليد قد وصفت بالقبض والبسط والهز والأصابع والكف والساعد وكل هذا يمنع القول بالمجاز، علىٰ ما هو موضح في موطنه.

﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾ يوسع علىٰ هذا ويُقْتِرُ علىٰ هذا، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ اللام لام القسم ﴿كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ من اليهود والنصارىٰ، ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن والوحي ﴿طُغْيَانًا﴾ مجاوزة للحق ﴿وَكُفْرًا﴾ أي كلما أنزلت الآيات التي يؤمن بمثلها وإذا بهم يزدادون في طغيانهم وكفرهم وبعدهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ أغرينا ﴿بَيْنَهُمُ﴾ اليهود أو بين اليهود والنصارىٰ ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وإنما اجتمعوا علىٰ أهل الإسلام وإلا فالبغضاء والشحناء بينهم، ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ لاستئصال أهل الإسلام وشوكتهم، ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ بقدرته وقوته لا يعجزه شيء،

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ الفساد الخلقي، والديني، والعقدي، وما ينادون به في هذه الأيام من الدعوة إلىٰ اللواط ونحوه، إلا من هذا الباب نسأل الله السلامة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ هذا وإن كان ظاهره في أهل الكتاب إلا أنه عام في كل مسلم وموحد، فإنه إذا التزم الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ومن الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ: الإيمان بأمره والعمل به، والإيمان بنهيه والبعد عنه، وقد سُئل النبي ﷺ عن أفضل الأعمال قال: «**إِيمَانٌ بِاللهِ**»، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: بفعل المأمور وترك المحظور، فينبغي للمسلم أن يكون من المحققين لهذه الآية؛ لما فيها من الوعد العظيم لمن حققها.

﴿لَكَفَّرْنَا﴾ لمحونا ﴿عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ معاصيهم التي اقترفوها، ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿جَنَّٰتِ النَّعِيمِ﴾ نعيمها دائم وخيرها عميم.

۞ ففي هذه الآية فضيلة التقوىٰ والإيمان، وما لحق الأمة من الذل والهوان إلا بالبعد عن هذين الأمرين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي: أهل الكتاب ﴿أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ وما فيها من الأحكام ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ علىٰ نبيه محمد ﷺ من الوحي، ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ للبركات النازلة من المطر الذي هو رحمة الله لعباده، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ لكثرة الخيرات الخارجة من الأرض، وفيه كناية عن سعة الرزق وغدق العيش ﴿مِّنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة

﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾ مؤمنة كعبد الله بن سلام وغيره، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ من اليهود والنصارىٰ ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وهم المصرون علىٰ الكفر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ الأمر خاص بالنبي ﷺ في لفظه وعام في العمل بمعناه ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»

حديث حسن أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٢٩٦) والحاكم (٣٤٦) وصححه، ووافقه الذهبي (الألباني).

وقد قال تعالىٰ: ﴿فَاسْأَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فعلىٰ أهل الذكر أن يبينوا للناس الحق، ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾القرآن والسنة الصحيحة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤].

۞ وفيه دليل علىٰ أن القرآن منزل من الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ ولم يقل: من الله؛ لأنَّ هذا يقتضي النصر والتأييد والحفظ والكلاءة ونحو ذلك.

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي: تقم بالبلاغ، ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ كما أمرك الله عَزَّوَجَلَّ.

وعن مسروق عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: « **ثَلاَثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَىٰ اللهِ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَىٰ رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ الفِرْيَةَ عَلَىٰ اللهِ، وَاللهُ يَقُولُ:** ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾. [الشورىٰ:٥١].

وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلاَ تُعْجِلِينِي، أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:١٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣].

قَالَتْ: أَنَا وَاللهِ أَوَّلُ مَنْ سَأَلَ عَنْ هَذَا رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ، مَا رَأَيْتُهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ.

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ الفِرْيَةَ عَلَىٰ اللهِ، يَقُولُ اللهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. [المائدة:٦٧].

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَدْ أَعْظَمَ الفِرْيَةَ عَلَىٰ اللهِ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥] » متفق عليه.

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ يحفظك ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ وهذه خاصة بالنبي ﷺ من حيث حفظه الله من مكر الأعداء وسلمه من بطشهم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ نَجْدٍ، فَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ القَائِلَةُ، وَهُوَ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ، فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَاسْتَظَلَّ بِهَا وَعَلَّقَ سَيْفَهُ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الشَّجَرِ يَسْتَظِلُّونَ، وَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجِئْنَا، فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ قَاعِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاخْتَرَطَ سَيْفِي، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ رَأْسِي، مُخْتَرِطٌ صَلْتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ، فَشَامَهُ ثُمَّ قَعَدَ، فَهُوَ هَذَا**» قَالَ: وَلَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ» متفق عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ لا يوفق ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لعلمه بفساد قلوبهم.

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الحق ﴿حَتَّىٰ﴾ إلى أن ﴿تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أحكامها وما يجب عليكم فيها ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ من اليهود والنصارىٰ ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن ﴿طُغْيَانًا﴾ تجاوزا يلحق إلىٰ تجاوزهم ﴿وَكُفْرًا﴾ إلىٰ كفرهم

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، بينما المؤمن: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلىٰ:٩-١١]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، يعني: فليست العبرة بسماع الحق ولكن العبرة بالاستفادة منه والعمل به.

﴿فَلَا تَأْسَ﴾ فلا تحزن ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ المعرضين عن دين رب العالمين ، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ ربًا ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بالعبث والنشور وما يلي ذلك من الجزاء، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ التزم الأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يقدمون عليه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ العهود في التوحيد والنبوة وغير ذلك، ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يبشرونهم وينذرونهم ويجددون لهم دينهم، ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ﴾ يخالف ما في أنفسهم من الباطل، ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ وردوا دعوته وما دلهم عليه، ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ظلمًا وعدوانًا كما فعلوا بزكريا وأرادوا أن يفعلوه بعيسى لولا أن الله عَزَّوَجَلَّ سلمه منهم.

﴿وَحَسِبُوا﴾ ظنوا، ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ عذاب وقتل وابتلاء واختبار بسبب هذا الصنيع الذي صنعوه،﴿فَعَمُوا﴾ عن الحق فلم يبصروه، ﴿وَصَمُّوا﴾ عن الحق فلم يسمعوه؛ بسبب الطبع علىٰ قلوبهم، كما قال تعالىٰ: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل:١٠٨]؛ وبسبب الرَّان الذي علىٰ قلوبهم والاعراض عن دين رب العالمين، ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ببعث عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ثُمَّ عَمُوا

﴿وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ﴾ مرة أخرىٰ بالكفر بمحمد ﷺ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ علىٰ التهديد والوعيد.

﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ النصارىٰ ﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وقد تنوعت أقوالهم فقال بعضهم: المسيح ابن الله، وقال بعضهم: المسيح هو الله، وقال بعضهم: المسيح شريك الله وهو ما يسموه بـ(الأقانيم الثلاثة)، فكفر الله عَزَّوَجَلَّ الطائفة الأولىٰ وهم الملكانية واليعقوبية من النصارىٰ، ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ﴾ اعترف لهم بأنه مخلوق مربوب ومع ذلك أبوا إلا الغلو فيه، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ الشرك الأكبر، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ تحريمًا مؤبدًا، ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ خالدًا فيها أبدًا، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ من شفعاء يدخلونهم الجنة ويخلصونهم من النار.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ﴾ وهم المرقوسية من النصارى حيث زعموا بتشريك الإلهية بين الله تعالى ومريم وعيسى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ﴾ وهو الله.

❁ وفيه معنىٰ لا إله إلا الله حيث تضمنت النفي والإثبات.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من التشريك والتثليث، ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ يُصِيبَنَّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا بالقتل والسبي والجزية والمهانة، وفي الآخرة بالنار وبئس القرار.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ يرجعون ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تحضيض علىٰ التوبة والاستغفار فإنها مذهبة لجميع الذنوب والمعاصي، والتوبة تهدم ما قبلها كما أن الإسلام يهدم ما قبله، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥٓ﴾ والمراد به استغفار اللسان مع حضور القلب، وتجرد الجوارح المؤدي إلىٰ ترك الشرك جملة، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأناب وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال:٣٨].

ثم قال مبكتًا لبني إسرائيل في عبادتهم لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ بشر فضله الله بالرسالة، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ موسىٰ ومن قبله ومن بينهما، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ كثيرة الصدق والتصديق بآيات الله عَزَّوَجَلَّ كما قال الله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢].

❁ وهذا دليل علىٰ أنها ليست بِنَبِيَّةٍ، ولو كانت نَبِيَّة كما ذكر ابن حزم والقرطبي لذكرت بها فإن هذا موطن مدح.

❁ ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ دليل علىٰ بشريتهما، ولو كانا آلهة ما أكلا الطعام وشربا الشراب، فإن الإله هو الغني عمن سواه، وهو يُطعِم ولا يُطعم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الواضحات البينات علىٰ أنهم بشر، ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرفون عن الحق لفساد قلوبهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب، من اليهود والنصارىٰ إلزاما لهم وقطعا لحجتهم ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ﴾ من الآلهة المزعومة، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لأقوالكم ﴿الْعَلِيم﴾ بأفعالكم والمجازي عليها.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ بالتجاوز للحد؛ فكم يجر إليه من الفساد في الأعمال والأقوال والمعتقدات، و(من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل)، وقد غلى اليهود في أنبيائهم حتى عبدوهم واتخذوا قبورهم مساجد ومثلهم النصارى، وغلا اليهود في عيسى حتى اتهموا أمه بالفاحشة.

﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: في دينكم المخالف للحق، أما إعطاء الأنبياء ما أولاهم الله به من الفصل، فليس بغلو بل هو من التعزير والتوقير الممدوح ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ﴾ من أسلاف اليهود والنصارىٰ، ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني: رؤساء الضلالة من فريقي اليهود والنصارىٰ، ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ من الناس بسبب ما يذكرون لهم من الشبه والبدع، ﴿وَضَلُّواْ﴾ انحرفوا ﴿عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن قصد الطريق؛ لسلوكهم البدع ودعوتهم إليها.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿لُعِنَ﴾ طُرد من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ﴾ اليهود والنصارى، ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾ النبي الكريم، ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ آخر أنبياء بني إسرائيل، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ أي: بسبب عصيانهم، وأعظمه الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ على غيرهم بالظلم، ونحوه.

ومن سوء صنيعهم أنهم: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ بل ربما أيد بعضهم بعضًا وسكت بعضهم على بعض.

❁ وهذا دليل علىٰ أن تغيير المنكر من الواجبات.

فعن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» أخرجه مسلم (٤٩).

وفي حديث النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ القَائِمِ عَلَىٰ حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَىٰ سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي**

نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا» أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: بعدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بئس العفل فعلهم ﴿تَرَىٰ﴾ تشاهد ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود والنصارىٰ مثل كعب بن الأشرف، ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالنصرة ونحوها، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ من العمل السيء، ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وسبب لهم ذلك أن يسخط ويغضب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم، فيهلكهم.

۞ وفيه: إثبات السخط لله عَزَّوَجَلَّ وهي من الصفات الفعلية وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيْكَ»، ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ موافق لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

﴿وَلَوْ كَانُوا۟﴾ أي اليهود والنصارى ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ ربًا، ﴿وَٱلنَّبِىِّ﴾ مرسلًا، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ القرآن، ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نصراء بل لكان بينهم وبينهم العداوة والبغضاء كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن أمر الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

نزلت في النجاشي، ومن ذهب إلىٰ عمومها لم يصب بحيث أن النصارىٰ أقرب في المودة للمسلمين من اليهود فهي خاصة بمن أسلم من نصارىٰ ذلك الزمان، وإلا فالأصل أن عداوة اليهود والنصارىٰ للمسلمين متأصلة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٩]، وكما قال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، فكلهم مبغض للإسلام ومحارب له.

ولو نظرنا إلىٰ تأريخ النصارىٰ لعلمنا شدة عداوتهم للمسلمين لكثرة غزواتهم ومحاولاتهم لصد الإسلام، ومنه ما حل بالأندلس من الخراب والبلاء حتىٰ أنهم استخدموا أبشع أنواع القتل والتعذيب في حق النساء والعُزَّل من الأطفال والشيوخ، فضلا عن غيرهم، وفي هذه الأزمنة المتأخرة مكنوا لليهود وعظموا شأنهم وسهلوا لهم السبل في السيطرة علىٰ فلسطين وكثير من بلاد المسلمين، فلولا النصارىٰ لما وصل اليهود إلىٰ تلك البلاد، وإنما هو (وعد بلفور النصراني البريطاني) الذي وعدهم بإقامة دولة لهم وفعلًا قام بذلك، فحصل من وراء صنيعه الفساد العظيم، ثم إن هيئة الأمم التي هي من تأسيس النصارىٰ تخدم السياسة اليهودية في العالم، إذ أن الذين يتحكمون في هذه الهيئة هم الماسونيون، والماسونيون هم في الأصيلة جمعية يهودية قامت علىٰ تقويض الأديان وعلىٰ نشر الرذيلة والفساد، والله المستعان.

قلنا هذا حتىٰ لا يقع في قلب بعض من لا يتقن العقيدة الصحيحة نوع ميول إلىٰ النصارىٰ، فمما يُعلم أن النصارىٰ علىٰ مر العصور وتقلبات الدهور قاموا علىٰ الإسلام والمسلمين بما قام به اليهود وأكثر، فكم هي الغزوات الصليبية من أوائل الإسلام وإلىٰ يومنا هذا وهي تتكرر من النصارىٰ لا من اليهود إلا أن اليهود مكرهم وبغضهم وشرهم ظاهر بخلاف النصارىٰ الذين غزو بلدان المسلمين بحجة الاستعمار وأنهم يعمرون البلاد وهم يخربونها، وأنشأوا المنظمات التي تتدخل في شؤون البلدان وصورتها الإحسان إلىٰ

الناس وهي في الباطن تدعو إلىٰ التنصير وتسلك مسلك التبشير بدين النصارىٰ، بل إن الحرب التي قادها بوش الأب والابن علىٰ بلاد الإسلام قد صرحوا في غير ما موطن أنها حرب صليبية وأنها انطلقت بمباركة الرب، وما دخلت النصرانية إلىٰ إندونيسيا، وماليزيا، وسنغافورة، والهند، وتنزانيا، وكينيا، وأوغندا وغيرها إلا بسبب الاستعمار البريطاني والمغولي، وهكذا رحلة (كريستوف كولومبوس) الذي يمجدونه بأنه مكتشف القارتين كان نصرانيًا خبيثًا مقصوده السيطرة علىٰ العالم ونشر النصرانية.

والحمد لله بالنسبة لليمن مكثوا فيها مائة وتسعة وعشرين سنة وخرجوا بخفي حنين، ولم يسلم من الغزو الصليبي في البلاد العربية إلا ما كان من بعض جزيرة العرب، وما يسمىٰ باليمن الشمالي في حينه وإلا فإن الغزو الصليبي ضرب بأطنابه في المغرب وليبيا وتشاد، ومالي، وتونس، والجزائر، ومصر، والسودان، والعراق، والكويت، وسوريا، ولبنان وغير ذلك من البلدان، ومع أن كثيرًا من الدول قد تحررت ظاهرًا إلا أنها مستعمرة باطنًا يتصرف فيها النصارىٰ بقوانينهم وبكثير من شؤونهم والله المستعان.

﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أي: ومن أشد الناس عداوة للمسلمين عباد الأصنام، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ في النجاشي ومن معه ففي قصة جعفر قال: «**فَبَكَىٰ وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّىٰ أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّىٰ أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ**» أخرجه أحمد (١٧٤٠).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ وهم المتابعون للعلماء والعباد ﴿وَرُهْبَانًا﴾ جمع راهب وهم المتفرغون للعبادة في الصوامع وغيرها، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ بعيدون عن الكبر.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ﴾ أي: أصحاب النجاشي، ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ﷺ من القرآن، ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ مما علاهم من الخشوع والتدبر والتعقل، ﴿مِمَّا عَرَفُواْ﴾ علموه ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: بسبب أن القرآن يوافق الحق الذي كانوا يعتقدونه، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: بهذا القرآن وبمحمد ﷺ، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أمة محمد؛ لأنهم شهداء علىٰ

الناس كما قال تعالىٰ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة:١٤٣]، ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يقولون: ما الذي يحول بيننا وبين الإيمان بالله، ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ الوحي، ﴿وَنَطۡمَعُ﴾ نرجو ﴿أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في أمة محمد ﷺ، ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ جازاهم ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا﴾ وعملوا ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أبدًا مؤبدًا، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ المؤمنين الموحدين ومن سار علىٰ مرضات رب العالمين، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وبرسله، ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالقرآن، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ بل على المسلم أن يأكل مما رغب فيه من الحلال الطيب من غير إسراف ولا مخيلة كما قال النبي ﷺ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَالْبَسُوا، وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ**» أخرجه أحمد (٦٦٩٥) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والممنوع أن يترك المرء الحلال الطيب تعبدًا وتقربًا إلىٰ الله، أما إذا كان لا يعجبه أو لا يشتهيه فهذا ليس من التحريم في شيء، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَىٰ فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ. فَقَالَ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**» متفق عليه.

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتح القدير" (٢/ ٨٠): " (الطَّيِّبَاتُ): هِيَ الْمُسْتَلَذَّاتُ مِمَّا أَحَلَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، نَهَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا عَنْ أَنْ يُحَرِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنْهَا، إما لِظَنِّهِمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ طَاعَةً لِلَّهِ وَتَقَرُّبًا إِلَيْهِ، وأنه من الزّهد في الدنيا فرفع النَّفْسِ عَنْ شَهَوَاتِهَا، أَوْ لِقَصْدِ أَنْ يُحَرِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِمَّا أَحَلَّهُ لَهُمْ كَمَا يَقَعُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَوَامِّ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَرَامٌ عَلَيَّ

وَحَرَّمْتُهُ عَلَىٰ نَفْسِي وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا النَّهْيِ الْقُرْآنِيِّ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَحْرِيمُ شَيْءٍ مِمَّا أَحَلَّ اللهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ طَيِّبَاتِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَنَاكِحِ، وَلِذَلِكَ رَدَّ النَّبِيُّ ﷺ التَّبَتُّلَ عَلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ.

فَثَبَتَ أَنَّهُ لَا فَضْلَ فِي تَرْكِ شَيْءٍ مِمَّا أَحَلَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، وَأَنَّ الْفَضْلَ وَالْبِرَّ إِنَّمَا هُوَ فِي فِعْلِ مَا نَدَبَ اللهُ عِبَادَهُ إِلَيْهِ، وَعَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَنَّهُ لِأُمَّتِهِ، وَاتَّبَعَهُ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِ الْأَئِمَّةُ الرَّاشِدُونَ، إِذْ كَانَ خَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ نَبِيِّنَا محمد ﷺ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ تَبَيَّنَ خَطَأُ مَنْ آثَرَ لِبَاسَ الشَّعْرِ وَالصُّوفِ عَلَىٰ لِبَاسِ الْقُطْنِ وَالْكَتَّانِ إِذَا قَدَرَ عَلَىٰ لِبَاسِ ذَلِكَ مِنْ حِلِّهِ، وَآثَرَ أَكْلَ الْخَشِنِ مِنَ الطَّعَامِ وَتَرَكَ اللَّحْمَ وَغَيْرَهُ حَذَرًا مِنْ عَارِضِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ النِّسَاءِ. قَالَ: فَإِنْ ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ الْفَضْلَ فِي غَيْرِ الَّذِي قُلْنَا لِمَا فِي لِبَاسِ الْخَشِنِ وَأَكْلِهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ عَلَىٰ النَّفْسِ وَصَرْفِ مَا فَضَلَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْقِيمَةِ إِلَىٰ أَهْلِ الْحَاجَةِ، فَقَدْ ظَنَّ خَطَأً، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوْلَىٰ بِالإنسان صَلَاحُ نَفْسِهِ وَعَوْنُهُ لَهَا عَلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهَا، وَلَا شَيْءَ أَضَرَّ لِلْجِسْمِ مِنَ الْمَطَاعِمِ الرَّدِيَّةِ، لأنها مُفْسِدَةٌ لِعَقْلِهِ وَمُضْعِفَةٌ لِأَدَوَاتِهِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ سَبَبًا إِلَىٰ طَاعَتِهِ" اهـ.

﴿وَلَا تَعْتَدُواْ﴾ أي: بالإسراف والمَخِيلَة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين للحق، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١].

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا على الإباحة، والتفضل، ﴿حَلَٰلاً طَيِّبًا﴾ مباحًا طيبًا تأخذه من وجه من غير غصب ولا سرقة ولا نهبة ولا يؤخذ من العمل الحرام، ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، **وَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ﴾، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىٰ**

السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟».

وفي هذا بيان أن دين الإسلام وسط بين الغلاة والجفاة، فالنصارىٰ اتخذوا رهبانيةً ابتدعوها فحرموا علىٰ أنفسهم الحلال، واليهود كانوا يأكلون الرشا والسحت والربا، فكان دين الإسلام وسط بين ضلالتين، وحق بين باطلين، ونور بين ظلمتين، وهكذا في جميع الشؤون.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾ لا يحاسبكم ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ الغير مقصود ﴿فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ في حلفكم أي: ليس فيه إثم ولا كفارة، وقد تقدم بيانه في سورة البقرة: وهو قول الرجل كلا والله، وبلىٰ والله وليس له نية العزم علىٰ الإمضاء، وإنما يخرج منه علىٰ العادة وسُميت (أيمان)؛ لأنَّ العرب كانوا يتصافحون باليمين حين المحالفة، ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ وفي قراءة: ﴿عَاقَدْتُم﴾ أي: بما عقدت عليه قلوبكم، والأعمال بالنيات كما قال النبي ﷺ.

❁ **ثم إن اليمين ينقسم إلى قسمين:**

- يمين على ماضي.
- ويمين علىٰ مستقبل.

فاليمين الماضية إن كان صادقًا فيها فهي يمين مبرة، وإن كان كاذبًا فيها فهي يمين الغموس، والنبي ﷺ عظم شأن هذه اليمين فقال: «**مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ مَالِ أَخِيهِ فَأَكَلَهُ ظُلْمًا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ**» متفق عليه عن عبد الله ين مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال النبي ﷺ حين سُئل عن الكبائر: «**الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسِ**» أخرجه البخاري (٦٦٧٥) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي رواية: «**الْيَمِينُ الْغَمُوسُ**

تَدَعُ الدِّيَارَ بَلَاقِعَ»، أي: أنها من أسباب دمار البلدان وحصول الشرور علىٰ الناس لما فيها من الكذب والبهت ولما فيها من أخذ أموال الناس بالباطل.

ومن حلف بالله عَزَّوَجَلَّ في أمر مستقبل فله حالات إذ أن اليمين بالله تجري عليه الأحكام الخمسة فقد يجب عليه الحنث، وقد يجب عليه الاستمرار فيه، وقد يستحب الحنث وقد يستحب الاستمرار فيه، وقد يباح الحنث ويباح الاستمرار فيه، وقد يكره الحنث ويكره الاستمرار فيه، وقد يحرم الحنث ويحرم الاستمرار فيه علىٰ نوع اليمين، فمن حلف بالله عَزَّوَجَلَّ أن يصلي فالصلاة واجبة عليه حلف أو لم يحلف فيجب عليه أن يأتي بالواجب، ومن حلف بالله عَزَّوَجَلَّ أن يصلي ركعتين فيستحب له أن يصليها وإن كفر وأراد أن يخرج من اليمين يكره في حقه هذا التكفير؛ لأنَّ الإمضاء أحب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ والأصل الإباحة، فالأصل أن من حلف علىٰ يمين أن يستمر فيه إلا إذا كانت يمين تؤدي إلىٰ قطيعة الرحم فيجب عليه أن يحنث وأن يؤدي كفارة اليمين التي أوجبها الله عَزَّوَجَلَّ فيه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَاللهِ لأَنَّ يَلَجَّ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ، آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي فَرَضَ اللهُ**» متفق عليه.

❁ واختلفوا في مبدأ الكفارة هل تكون قبل الحنث أم بعد الحنث؟.

والصحيح: جوازها قبله أو بعده: ففي حديث عبد الرحمن بن سمرة وأبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « **فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ**»، وفي رواية: «**فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ**» متفق عليه.

❁ واليمين المنعقدة التي يجب فيها الكفارة:

هي اليمين بالله أو بصفة من صفاته، أما اليمين بالمخلوقات فلا تنعقد بل هي من الشرك، فعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**» متفق عليه، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ**» أخرجه أبو داود (٣٢٤٨).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي حَلِفِهِ وَاللَّاتِ وَالعُزَّىٰ فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» متفق عليه.

وعن ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**» أخرجه الترمذي (١٥٣٥).

وأما الحلف بآيات الله عَزَّوَجَلَّ فعلىٰ وجهين:

إن كان يريد بها الآيات الكونية كالشمس والقمر والنجوم والكواكب ونحو ذلك فلا يجوز الحلف بها؛ لأنها مخلوقة مربوبة.

وإن كان يريد الآيات الشرعية التي هي كلام الله عَزَّوَجَلَّ فيجوز الحلف؛ لأنها صفة من صفات الله.

❖ وما جاء في القرآن من حلف الله عَزَّوَجَلَّ بالشمس والقمر والليل والعصر ونحو ذلك مما هو معلوم فالله عَزَّوَجَلَّ يحلف ويقسم بما شاء من مخلوقاته، وقال بعض أهل العلم: هي علىٰ تقدير ورب الشمس، ورب القمر، ورب العصر.

والمعنىٰ الأول أليق، والله أعلم.

﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ أي: كفارة اليمين التي يريد أن يخرج منها، ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾ ويكون كل مسكين خلاف المسكين الأول، فلا يجوز أن يُطعم مسكينًا واحدًا عشر مرات، ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من خير قوت عيالكم.

وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: عند ابن ماجة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان الرجل يقوت أهله قوتًا فيه سعة، وكان الرجل يقوت أهله قوتًا فيه شدة فنزلت: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ يعني: المساكين واختلف في مقدار الكسوة اختلافًا كثيرًا.

والصحيح: أنه ما صحت فيه الصلاة، وهذا قول الإمام مالك وهو أعدل الأقوال، ويجوز أن يطعم خمسة مثلًا ويكسو خمسة، أو يطعم ثمانية ويكسوا اثنين فلا حرج في ذلك.

❁ واختلفوا في مقدار الإطعام.

والصحيح: أنه نصف صاع لكل مسكين كما حدده النبي ﷺ في قضية كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: يعتق رقبة، والرقبة يشترط أن تكون مؤمنة علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم، وما جاء مُطلقًا في هذا الموضع قُيد في سورة النساء: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]، وهو في هذه الثلاثة الأشياء: الإطعام، والكسوة، وتحرير الرقبة علىٰ التخيير، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما أقسمت ألا تكلم عبد الله بن الزبير كفرت بإعتاق أربعين رقبة فالأمر فيه سعة.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ يعني: إحدىٰ الثلاث السابقات، ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعات كما في قراءة عبد الله بن مسعود ويجوز التفريق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ بالله أو بصفة من صفات الله، وأردتم الحنث ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ قيل: لا تحلفوا، وقيل: كفروا إذا حلفتم بالله عَزَّوَجَلَّ وهذا هو المعنىٰ؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمْ يَكُنْ يَحْنَثُ فِي يَمِينٍ قَطُّ، حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ كَفَّارَةَ اليَمِينِ، وَقَالَ: «**لاَ أَحْلِفُ عَلَىٰ يَمِينٍ، فَرَأَيْتُ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي**» أخرجه البخاري (٦٦٢١).

❁ وما يتعلق بتغليظ اليمين فقد قسمه أهل العلم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: التغليظ الزماني، دليله حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَجُلٌ حَلَفَ يَمِينًا عَلَىٰ مَالِ مُسْلِمٍ فَاقْتَطَعَهُ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ أَنَّهُ أُعْطِيَ بِسِلْعَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ وَهُوَ كَاذِبٌ**» متفق عليه.

الثاني: التغليظ المكاني، يدل عليه حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ حَلَفَ بِيَمِينٍ آثِمَةٍ عِنْدَ مِنْبَرِي هَذَا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ، وَلَوْ عَلَىٰ سِوَاكٍ أَخْضَرَ**» أخرجه ابن ماجه (٢٣٢٥).

الثالث: التغليظ القولي، يدل عليه حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ**» أخرجه أحمد (٢٥١٤).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ما بين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يوضح ويجلي ﴿آيَاتِهِ﴾ الشرعية كما يبين عظم آياته الكونية، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون نعمه الكثيرة التي امتن بها عليكم، ولي بحمد الله في بيان هذه المسألة كتاب: "التبيان فى أحكام الأيمان".

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣﴾.

📖 فِي سَبَبِ نُزُولِهَا: عند ابن جرير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا حتىٰ إذا ثملوا عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل منهم يرىٰ الأثر بوجهه ولحيته فيقول: فعل بي هذا أخي فلأن، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن والله لو كان بي رؤوفًا رحيمًا ما فعل بي هذا، حتىٰ وقعت في قلوبهم الضغائن فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ [المائدة:٩٠]، إلىٰ قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، فقال ناس من المتكلفين هي رجس وهي في بطن فلأنٍّ قتل يوم بدر، وقتل فلأنٍّ يوم أحد فأنزل الله: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا﴾ [المائدة:٩٣]، الآية.

وفي الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة وكان خمرهم يومئذ الفضيخ فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فخرجت فهرقتها فجرت في سلك المدينة فقال بعض

القوم قد قتل قوم وهي في بطونهم فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا﴾ [المائدة:٩٣].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ نداء للمؤمنين الموحدين المتابعين لسنة نبينا ﷺ، ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ وهو الشراب المسكر، فكل ما خامر العقل فهو خمر حرام، فعن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**» أخرجه مسلم (٢٠٠٣).

﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ وهو القِمَار ونحو ذلك، ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ جمع نُصُبٍ: وهو ما يذبح عليه المشركون لآلهتهم، ويدخل فيه الأوثان، ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ وهو ضرب القِداح والاستقسام بها، ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ خبيث مستقذر، فليس معنىٰ الرجس النجاسة؛ لأنَّ الأصنام ليست بنجسة.

۞ وهذا من الأدلة علىٰ أن الشيء قد يُحرم وليس بنجس.

﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أبلغ من قوله فلا تشربوه؛ لأنه إذا أمر بالاجتناب والبعد فمن باب أولىٰ عدم الشرب، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بتحبيب الخمر والميسر إليكم، ﴿أَن يُوقِعَ﴾ تحصل ﴿بَيْنَكُمُ﴾ بشرب الخمر ﴿الْعَدَاوَةَ﴾ والعداوة يظهر أثرها، ﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾ تكون في القلوب، ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ بسببهما ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ويريد الشيطان بهذه الملهيات من الخمر والقِمار أن يصدكم عن ذكر الله وهو طاعة الله، ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ هذا من الخاص بعد العام، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ يعني: عن شربه وقربه والاستفادة منه حتى أن النبي ﷺ نهى أن يتخذ الخمر خلا ونهى عن التداوي بالخمر؛ لفساده وفساد طبعه، وقد قيل فيه: بأنه أم الخبائث، وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ بمعنى: انتهوا فهي للتحضيض عن ترك ذلك.

﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ أي: بامتثال الأمر واجتناب النهي، ﴿وَٱحْذَرُواْ﴾ عقابه وبطشه وغضبه، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا

ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨].

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا﴾ أي: فيما تعاطوه من الخمر قبل التحريم.

والآية نزلت في أناس شربوها في زمن حلها، فلما حرمت تألم إخوانهم قالوا: إخواننا ماتوا والخمر في بطونهم، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أي: في الزمن الماضي، ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولازموا الطاعة وابتعدوا عن المنكرات، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ أيضًا اجتنبوا المنكر ولازموا الخير، ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: لازموا التقوىٰ في جميع الأمور فينبغي لهم أن يتقوا الله عَزَّوَجَلَّ ويبتعدوا عن هذه الكبيرة والخبيثة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما أنزل تحريمها وحذر من إتيانها وغشيانها؛ لضررها فإن الإسلام جاء بحفظ الضروريات الخمس: الدين؛ ولهذا حرم الردة، والعقل؛ ولهذا حرم الخمر، والعرض؛ ولهذا حرم الزنا، والمال؛ ولهذا حرم السرقة والنهبة، والنفس؛ ولهذا حرم القتل والقتال بل حرم مسببات القتل والقتال من التخاصم والتهاجر والتقاطع والتدابر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٩٥﴾.

هذا شروع في ذكر أحكام صيد الحرم، وما أباح الله عَزَّوَجَلَّ للمحرم وما حرم عليه، وصيد الحرم ممنوع علىٰ المُحرِم والحلال، وصيد غير الحرم ممنوع علىٰ المُحرِم حلال علىٰ الحلال، فإن قُدِّرَ أن المُحرِم صاد صيدًا فيحرم عليه وعلىٰ غيره، وإن قدر أن غير المُحرم صاد صيدًا فله حالأن، الأول: إن كان صاده لنفسه فيجوز أن يأكل منه ويأكل معه المُحرم، الثاني: إن كان صاده للمُحرِم فيحرم أن يأكل منه المُحرِم.

ففي حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَخَلَّفَ أَبُو قَتَادَةَ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، وَهُمْ مُحْرِمُونَ وَهُوَ غَيْرُ مُحْرِمٍ، فَرَأَوْا حِمَارًا وَحْشِيًّا قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ، فَلَمَّا رَأَوْهُ تَرَكُوهُ حَتَّىٰ رَآهُ أَبُو قَتَادَةَ، فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ يُقَالُ لَهُ الجَرَادَةُ، فَسَأَلَهُمْ أَنْ يُنَاوِلُوهُ سَوْطَهُ فَأَبَوْا، فَتَنَاوَلَهُ، فَحَمَلَ فَعَقَرَهُ، ثُمَّ أَكَلَ، فَأَكَلُوا فَنَدِمُوا، فَلَمَّا أَدْرَكُوهُ قَالَ: «**هَلْ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟**»، قَالَ: مَعَنَا رِجْلُهُ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَأَكَلَهَا.

وفي الصحيحين عن الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ اللَّيْثِيِّ، أَنَّهُ أَهْدَىٰ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ - أَوْ بِوَدَّانَ - فَرَدَّهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ. قَالَ: فَلَمَّا أَنْ رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا فِي وَجْهِي، قَالَ: «**إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ، إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ**» فجمع بينهما أهل العلم أن حديث أبي قتادة صاده لنفسه ولم يعنه أحد من المحرمين، وحديث الصعب بن جثامة صاده للنبي ﷺ، فلذلك لم يأكل منه، وفي حديث جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ مَا لَمْ تَصِيدُوهُ، أَوْ يُصَادَ لَكُمْ**» أخرجه أبو داود (١٨٥١).

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ النداء للمؤمنين؛ لأنهم أجوب وأطوع؛ ولأنَّ الأوامر متعلقة بهم أما الكافر وإن كان مخاطب بعموم الشريعة إلا أنه لا يقبل منه العمل إلا بعد إسلامه، ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ يختبرنكم ﴿ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ في حال إحرامكم أو الحرم، ﴿تَنَالُهُۥٓ﴾ تصل إليه ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ بالمسك والتناول، وهو صغار الصيد وفراخه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ بالنبل تنالون كباره ومع ذلك يمنع المؤمن من مخالفة أمر الله عَزَّوَجَلَّ إيمانه وخوفه من الله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لو رأيت الضباء ترتع في المدينة ما دَعَرْتُها؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «**الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَىٰ ثَوْرٍ**» أخرجه مسلم (١٣٧٠).

﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ علم وقوع، وإلا فإن الله بكل شيء عليم لا تخفىٰ عليه خافية ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، إلىٰ غير ذلك.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ أي: بارتكاب نهي الله، ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد هذا البيان، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما يجب عليه من الكفارات ونحوها، وذهب بعضهم إلىٰ أنه يُضرب ويؤدب؛ لأنَّ النبي ﷺ قال في الحرم: «**وَلا يُخْتَلَىٰ خَلاهُ، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ**» متفق عليه عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ محرمون بالحج والعمرة، وإذا أُطلق الصيد فالمراد به الحيوان الحلال المأكول ففي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**هُوَ صَيْدٌ وَيُجْعَلُ فِيهِ كَبْشٌ إِذَا صَادَهُ الْمُحْرِمُ**» أخرجه أبو داود (٣٨٠٣).

أما قتل الكلب والفهد والأسد والنمر ونحو ذلك فلا حرج منه فليست بصيود، فعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْحُدَيَّا، وَالْغُرَابُ، وَالْعَقْرَبُ**» متفق عليه.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾ الصيد ﴿مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ قاصدا، ﴿فَجَزَآءٌ﴾ أي فعليه جزاء ﴿مِّثْلُ﴾ شبهه ﴿مَا قَتَلَ﴾ من الصيد فيكون جزاؤه ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ من بهيمة الأنعام فيحكم عليه به، فالنعامة شبيهة بالجمل فيلزم ببدنة، وحمار الحوش يقال فيه: بقرة، والضبع فيه كبش، وفي الحمامة شاة وهكذا.

وفي قراءة بإضافة (جزاء) فيكون المعنىٰ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، ذو فطنة وذكاء ﴿هَدْيًۢا﴾ حال كونه هديًا ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ يبلغ به الحرم، والهدي: إما أن يكون من الإبل، أو البقر، أو الغنم، ﴿أَوْ﴾ عليه ﴿كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ يعني: يُكَفِّرُ بما يقوم مقام كل حيوان بطعام المساكين، من غالب قوت البلد مُدٌّ لكل مسكين، فإن عجز عن الطعام: ﴿أَوْ﴾ فعليه ﴿عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ يصوم عن كل مُدٍّ يومًا، ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ﴾ ثِقَل وعاقبة ﴿أَمْرِهِۦ﴾ الذي فعله، ﴿عَفَا﴾ تجاوز ﴿ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: ما كان من الصيد قبل نزول الأحكام، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ هذا الصنيع بعد العلم بالأحكام، ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ لأنه ما راعىٰ الحرمات، ومن لوازم الغضب الإنتقام، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥]، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ ممن عصاه.

❖ وليس من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ المنتقم.

۞ وفي هذا تهديد ووعيد من الله عَزَّوَجَلَّ لمن خالف أمره متعمدًا وارتكب زجره قاصدًا، فينبغي للمسلم أن يكون بين الطاعة والبعد عن المعصية، فإن عجز عن التزام المأمور: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ﴾ [التغابن:١٦]، وأما المحظور فيجب عليه الابتعاد عنه؛ لأنه ترك لا يتطلب قوة ولا نشاطًا ولا غير ذلك، والله المستعان.

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩٦ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠﴾.

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾ ما صيد بفعل الإنسان، ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ميتة البحر.

۞ وهذه الآية علىٰ عمومها: من أن كل حيوان البحر حلال وإن سمي بأسماء محرمات البر ككلب البحر، وخنزير البحر، وعروس البحر، وثعبان البحر ونحو ذلك، فإن هذه التسميات لا تحرمها.

﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ﴾ أي: في أسفاركم تأكلونه وتتقوتونه، ﴿وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾ يعني: المراد بهم من يسيرون في البحر بالرحلات ونحو ذلك، وربما كانوا جماعة، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾ علىٰ تفصيل سبق، ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ أي: بالتزام أمره والأنتهاء عن نهيه وزجره، ﴿الَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، وقد يجازي المسيء بإساءته، وقد أخرج ابن ماجة (٣٣١٤) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُحِلَّتْ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَما الْمَيْتَتَانِ، فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأما الدَّمَانِ، فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ**»، الحديث فيه كلام لأهل العلم إلا أن العمل عليه عند جمهورهم.

وفي هذا الباب يتكلم أهل العلم عن نوع من الحيوان وهو ما يعيش في البر والبحر، فما كان هذا حاله فإن مات في البحر فهو حلال، وإن كان في البر أو صيد في البحر قبل موته

فيذكىٰ ويشترط فيه شروط الذبيحة من الذبح بالآلة وقطع الأوداج والتسمية ونحو ذلك، هذا فيما لم يكن قد حرم لنص آخر كالضفادع.

وأما ما ماله نفس له سائلة كـ(السرطان، والقواقع)، وما كان في بابه فلا يلزم فيه التذكية.

والمحرم من الحيوان أنواع:

- **الأول:** ما أمر الله بقتله كالغراب، والفأرة، والحية.
- **الثاني:** ما نهىٰ الله عن قتله كالضفدع، والصرد، والهدهد.
- **الثالث:** كل ذي مخلب من الطير.
- **الرابع:** كل ذي ناب من السباع.
- **الخامس:** الكلب.
- **السادس:** الخنزير.
- **السابع:** الحمار الأنسي.

هذه هي المحرمات بالنص وزاد بعضهم المستخبث، لكن هذه قاعدة غير صحيحة؛ لأنَّ بعض العرب يستخبثون السمك وهو حلال، وبعضهم قد يستخبث لحم الفرس، وبعضهم يستخبث لحم الأرنب وهو حلال، فالقول بعلة الاستخباث لا يستقيم، وما عدا ما ذكر حلال، لقول الله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ﴾ [الجاثية:١٣].وهذه المحرمات في شأن حيوان البر.

أما حيوان البحر فقول واحد علىٰ الصحيح، وهو الحل سواء وجد مقتولًا أو حيًا إلا ما كان من الحيوان البرمائي فإن وجد في البحر فله حكمه وإن وجد في البر فيلزم فيه التذكية وما يلحق بذلك.

وأكثر من تكلم عن هذه المسألة هم الشافعية حتىٰ قال الأقفهسي: (والشافعي وسع المطاعم)، أي: أنه وسع في هذا الباب فكل حيوان البحر عنده حلال، وكل حيوان البر حلال إلا ما حرمه الدليل، بينما أبو حنيفة ذهب إلىٰ أن كل الحيوان حرام إلا ما أباحه الدليل.

وقد تكلمنا بحمد الله علىٰ كثير من هذه الأحكام في كتابنا "فتح ذي الجلال والإكرام شرح منظومة ما يحل ويحرم من الحيوان" للأقفهسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وللأقفهسي كتاب بعنوان: "بيان ما يحل ويحرم من الحيوان" وهو من أنفع الكتب مع اختصار فيه، وأما كتاب "الحيوان للدميري" وكتاب "الحيوان للجاحظ" وكتاب "عين الحياة"، وكتب في الباب فيها نفع، وفيها ما يُنتقد لا سيما من إدخال بعض الحيوان في باب السحر والشعوذة، وفي بعضها ما يسوق من الأحاديث المكذوبة والموضوعة ونحو ذلك.

وبسبب ما تقدم اختلفوا في (الفيل)، و(التمساح)، و(الثعلب)، و(الدب)، وفي كثير من الحيوان؛ لأنَّ بعضهم إذا وجد الناب فالحيوان حرام، وإذا لم يوجد الناب فالحيوان حلال حتىٰ أن المالكية لهم رواية في جواز أكل الكلب واشتهر هذا عنهم، وفي المقابل الإمام مالك يحرم (الفرس)، ورأيت لبعض المالكية أيضًا إباحة الطيور ذوات المخالب، وقد قال الأقفهسي:

ولـيس عنـد مالـك يُعـاب ... أن تؤكـل الحيـات والكـلابُ

مـن ذرةٍ لفيلـةٍ سـماحٌ ... في قولـةٍ لمالـك تبـاحُ

واختلفوا في شأن (القنفذ) وهو الذي يسمى عند بعضهم بـ(أبي شوك).

والصحيح: فيه الحل.

وذهب بعضهم إلىٰ تحريم طيور البحر وكلها حلال علىٰ الصحيح، وهي ما يتغذىٰ بحيوان البحر سواء كانت أصابعه ملتصقة أو متفاصلة إلا أن الإنسان قد يستخبث مثل هذه الطيور لا علىٰ أنها حرام.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تحريم ذي الناب أن يكون من السباع أي يشترط وجود السبعية والبطش والشدة في الحيوان، أما ما لم يكن ذلك فلا يرون فيه التحريم، ولذلك وجه بعض أهل العلم كيف يباح الضبع وهو مما يأكل الجيف والحيوان كالحمير، قالوا بأن نابه غير مكاوحة أي: ناب ضعيفة ليست مثل ناب الذئب، والأسد، والفهد، وبنت أوىٰ ونحو ذلك من الحيوان البطاش المفترس، فلذلك تجد الضبع يلحق الحيوان الضعيف أو الحيوان الميت بخلاف الأسد، فلا يأكل حيوانًا ميتًا ولا يأكل إلا ما يفترسه لنفسه، والذئب

إذا دخل المزرعة لشدة بطشه ربما يعقر عشرين إلىٰ ثلاثين رأسًا من الغنم حتىٰ قال النبي ﷺ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَىٰ الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»

أخرجه الترمذي (٢٣٧٦) عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿جَعَلَ اللَّهُ﴾ صير ﴿ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ﴾ وسميت الكعبة لتربعها وقيل: سميت لأنفرادها من البناء، وقيل: لارتفاعها، ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ من أسمائها وهو بيت محرم له أحكامه، ويضاف إليه ما كان من حدوده في جميع الجهات، وأقرب الحل منه التنعيم، وأبعد الحِلُ منه الحديبية الشميسي الآن، فما كان من داخل حدود الحرم فيحرم صيده وتحرم لقطته إلا لمنشد، في أحكام يذكرها أهل العلم.

﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ أي: قواما لهم في أمر دينهم ودنياهم، أما الدِّين؛ فلأنَّ به يقوم الحج والمناسك، وأما الدنيا ففيه ما يجبىٰ إليه من الثمرات، وكانوا يأمنون فيه من النهب والغارة فلا يتعرض لهم في الحرم، ﴿وَ﴾ جعل الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ وهي: ذو العقدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب قياما للناس يأمنون فيه من القتل والقتال ونحو ذلك، وكان العرب إذا جاء الشهر الحرام أمن فيه الخائف حتىٰ الكفار كانوا يعظمون رجب فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال وفد عبد القيس: «**يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيَّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي شَهْرِ الْحَرَامِ**» متفق عليه وسمي رجب مضر؛ لأنَّ كفار مضر كانوا يعظمونه فإذا وجد أحدهم قاتل أبيه لم يتعرض له.

﴿وَ﴾ جعل الله عَزَّوَجَلَّ ﴿الْهَدْىَ﴾ وهو ما يتقرب به من النسك ﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾ وهي الإبل المقلدة حيث كانوا يسلتونها ويشعرونها أي: يقطعون فيها بالسكين في سنامها حتىٰ يسيل الدم فإذا وجدت عرفت أنها هدي، وكانوا يقلدون فيها الأوتار في رقابها ونحو ذلك، فإذا ضاعت وضلت الطريق ولقيها أحد من العرب ساقها إلىٰ البيت لعلمه أنها هدي.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجعل المذكور؛ ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعلم مصالح العباد وما يصلح به حالهم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ فيشرع ما شاء ويمنع ما شاء.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ علىٰ أعدائه وفي هذا وعيد عظيم لمن خالف أمره وارتكب نهيه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لأوليائه وفي هذا رجاء عظيم لمن لزم شرع الله أو وقع في شيء من الذنوب والمعاصي، فبادر بالتوبة فالآية جمعت بين الوعد والوعيد.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ تبليغ دين الله عَزَّوَجَلَّ لكم، كما قال الله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر:٧]، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ تظهرون ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ تسرون من الموافقة والمخالفة، والفعل والترك.

۞ وبهذا يُعلم أن كثيرًا من الصفات تعلم معانيها بالنظر إلىٰ آيات الله عَزَّوَجَلَّ الكونية والشرعية، فإتقان هذا العالم وحسن صناعته وإتقان الشريعة والأمر والنهي يدل علىٰ علم الله المحيط بكل شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

﴿قُل لَّا﴾ يا محمد: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي﴾ الحرام ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾ الحلال ويدخل في ذلك خبث القول، والفعل، وخبث العين، فلا يستوي مع طيب القول وطيب الفعل وطيب العين فإن الله أحل الطيبات وحرم الخبائث، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [النور:٢٦].

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال كان من دعاء النبي ﷺ إذا دخل الخلاء: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ**» متفق عليه.

فلفظ الخبيث يدل علىٰ الاستقباح والكراهة، ولفظ الطيب يدل علىٰ سلامة الظاهر والباطن، ومن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ الطيب: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**» أخرجه مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأحل الطيبات فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ﴾ [البقرة:١٧٢]، وكل ما أمر الله به من الأفعال والأقوال والمعتقدات فهو طيب، كما قال: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠].

ومن أسوأ الخبائث الخمر حتىٰ سميت بأم الخبائث والمضيع لفرضه يصبح خبيثا، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ**» متفق عليه، إذا خبثت نفسه بسوء السريرة وسوء العمل، وقد نهىٰ النبي ﷺ أن يقول الرجل: خبثت نفسي ولكن ليقول:

لقست نفس أخرجه مسلم عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا مع أن المعنىٰ وحد؛ لكن لفظ الخبيث مستقبح عند العقلاء.

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ الحرام، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا، إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَىٰ قِلَّةٍ**» أخرجه ابن ماجه.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يا أصحاب العقول السلمية والفطر المستقيمة، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾.

وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: خطب رسول الله ﷺ خطبةً ما سمعت مثلها قط قال: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»، قَالَ: فَغَطَّىٰ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنِينٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَنْ أَبِي؟ قَالَ: فُلأن، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة:١٠١].

وفي البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قَالَ: كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتِهْزَاءً، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِي؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَاقَتُهُ: أَيْنَ نَاقَتِي؟ « فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة:١٠١]، حَتَّىٰ فَرَغَ مِنَ الآيَةِ كُلِّهَا.

وأخرج الطبري (٩/ ١٩) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، كَتَبَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ**». فَقَامَ مِحْصَنٌ الْأَسَدِيُّ فَقَالَ: أَفِي كُلِّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ ثُمَّ تَرَكْتُمْ لَضَلَلْتُمْ. اسْكُتُوا عَنِّي مَا سَكَتُّ عَنْكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ**» فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن﴾ [المائدة:١٠١] إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ»

وأصل الحديث في مسلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ﴾ رسول الله ﷺ، ﴿عَنۡ أَشۡيَآءَ﴾ مما أباح الله عَزَّوَجَلَّ لكم ولم ينزل فيه الحكم الشرعي، ﴿إِن تُبۡدَ﴾ تظهر ﴿لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ لما فيها من المشقة، ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ يظهرها الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك قال جابر: كنا نعزل والقرآن ينزل ولو كان شيئًا يُنهىٰ عنه لنهىٰ عنه القرآن أخرجه مسلم فإن الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن ليترك الناس علىٰ خطأ وضلالة، ولهذا ما أقره النبي ﷺ فهو شرع لنا ودين.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ أي: عفا الله عن الأسئلة التي لم يقصد بها التعنت وإنما كانت عن جهل وحسن قصد، فلا تعودوا ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ يعفو ولا يعاجل بالعقوبة.

وفي صحيح مسلم أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ برك علىٰ رجله وجعل يقول: أتوب إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ﷺ حتىٰ سري عن وجه النبي ﷺ الغضب.

﴿قَدۡ سَأَلَهَا﴾ أي الأشياء المستورة ﴿قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ من اليهود والنصارىٰ، ﴿ثُمَّ أَصۡبَحُواْ﴾ صاروا ﴿بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ وقد قال النبي ﷺ: «**فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ**».

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾.

يقول سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ رادًا علىٰ ما أحدثته قريش ومن إليهم من البدع في شأن الأنعام: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾ أي: ما شرع وما أنزل ولا أمر بما يفعلونه من البحيرة وهي: الناقة التي إذا ولدت خمسة أبطن شقوا أذنها وتركوا الحمل عليها.

﴿وَلَا سَآئِبَةٖ﴾ وهي المُسيبة وذلك أن البعير إذا ترك الحمل عليه يكون قد سُيب وهذه بدعة قد أحدثوها أنه إذا شُفي مريض أو رجع غائب سيب بعض أنعامه.

﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ أي: أنها إذا ولدت سبعة أبطن فإن كان السابع ذكرًا ذبحوه فأكل منه الرجال والنساء وإن كانت أنثىٰ تركوها، وإن كان ذكرًا وأنثىٰ استحيوا الذكر من أجل الأنثىٰ وقالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوه، وكان لبن الأنثىٰ حراما علىٰ النساء، وهذه من البدع المحدثة.

﴿وَلَا حَامٍ﴾ وهو ذكر الإبل إذا رُكب وولد ولده تركوا ركوبه والأنتفاع به، وأول من سيب السوائب هو عمر بن لحي فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خِنْدِفَ أَبَا بَنِي كَعْبٍ هَؤُلَاءِ، يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ**» متفق عليه، وفي هذا شؤم البدعة علىٰ صاحبها، ومعنىٰ ذلك: أن هذه الأمور التي يتعبدون بها علىٰ أنها من إبراهيم وليست من دين إبراهيم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ أي: بدعواهم أن الله أمرهم بذلك أو أن ذلك من دين الله، ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ لا يعقلون ما يتلىٰ عليهم ولا يعقلون ما يطلب منهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ﴾ هلموا ﴿إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في كتابه، ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ إلى ما في سنته ﷺ، ﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا﴾ يكفينا ﴿مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من الدين وهو التقليد، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف:٢٣].

﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ وهذا كالتكبيت لهم والبيان لفساد استدلالهم، ﴿لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ من وحي الله وشرعه، ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ لسبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم بنوا أمرهم علىٰ التقليد والهوىٰ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ هذا أمر من الله عَزَّوَجَلَّ بأن الإنسان يلزم الاستقامة ويسعى في تحصيلها لنفسه لا سيما مع كثرة الفتن وإياه والتلون.

وفهم بعضهم من هذه الآية ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرد عليهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذا الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة:١٠٥]، وتضعونها في غير موضعها ولا تدرون ما هي وإني

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا مُنْكَرًا فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ يُوشِكُ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ**» أخرجه أحمد (٥٣).

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ انحرف، قيل لا يضركم من ضل من أهل الكتاب، وهي عامة في كل من ضل عن مسألة بعد تذكيرك ووعظك، وهذا كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى:٩-١١]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ إذا لزمتم سبل مرضات الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة، ﴿جَمِيعًا﴾ أنتم وهم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ فيخبركم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ۝١٠٦ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٧ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝١٠٨﴾.

وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: أخرج الإمام البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جامًا: وهو إناء، من فضة مخوصًا من ذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجدوا الجام بمكة فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي فقام رجلانِ من أولياء السهمي فحلفا لشهادتنا أحق من شهادتهما وأن الجام لصاحبهم، قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ﴾ [المائدة:١٠٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ أي: أن الشهادة بينكم في الوصايا؛ لتثبيتها، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ من الرجال والنساء، ﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ﴾ أي: من المسلمين، ويجوز كذلك الوصية في الأموال أن تكون أربع من النساء أو رجل وامرأتان، ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: من أهل العدالة والأمانة والعقل من المسلمين، ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أي: من الكافرين، لكن بشرط ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ﴾ سافرتم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و كان المسلم غير موجود فيستعاض بشهادة الكافر في هذا الباب؛ لتثبيت الحق، ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم﴾ نزلت بكم ﴿مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ توقفوهما ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لما علم من تغليظ الأيمان في الزمان، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنهم يُحبسون بعد صلاة العصر، ﴿فَيُقۡسِمَانِ﴾ يحلفان ﴿بِٱللَّهِ﴾ لتوكيد الشهادة، وهذا القسم ليس مطلقًا ولكن، ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ شككتم في شأنهما ويكون يمينهم ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾ لا نأخذ عوضا بهذه الشهادة، ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ المقسم له ﴿ذَا قُرۡبَىٰ﴾ من الأقربين، ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ من كتم شهادة الله فقد ظلم نفسه، ولا نغير فيها فإن فعلنا ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ المرتكبين لعظيمة، فكما أن الله حرم شهادة الزور حرم كتم الشهادات وكان أعظم الشهداء الذي يؤدي الشهادة قبل أن يُسألها حتى لا تضيع الحقوق.

﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ اطلع ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ﴾ استوجبا، ﴿إِثۡمٗا﴾ بخيانتهما وبأيمانهما الكاذبة، ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ من أولياء الميت، ﴿يَقُومَانِ﴾ للحلف ﴿مَقَامَهُمَا﴾ مقام الوصيين، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ أي كانت فيهم ولأجلهم الوصية وهم الورثة ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ بالميت، ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي: ورثة الميت على خيانة الشاهدين، ويقولأن: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ﴾ يميننا التي تبطل شهادة الشاهدين الأولين، ﴿أَحَقُّ﴾ أصدق ﴿مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ يمينهما، ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ تجاوزنا في شهادتنا وإيماننا، ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن وقع منا الاعتداء والتغيير والتبديل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور من رد اليمين على الورثة، ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾ أقرب إلى ﴿أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ الذي هو أقرب وأصوب، كما تحملوها من غير تحريف ولا خيانة ﴿أَوۡ﴾ أقرب إلى أن ﴿يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾ على الورثة المدعين، فيحلفون على خيانتهم

يعني: جعل الله عَزَّوَجَلَّ هذ الحكم كالتهديد للشاهدين الأولين إما أن يأتوا بالشهادة على وجهها وإلا سيقوم أولياء الميت ويقسمان بالله بخلاف ما حكما به، فتقع عليهم الفضيحة، ويلزمان بإعطاء الشيء الذي اتهما به، نعم اليمين على المدعي والبينة على من أنكر، لكن لا بينة لدى أولياء الميت هنا فيكون لهم اليمين، وإذا حلفوا استوجبوا ما تعلق بهذا اليمين، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أيمانكم وفي جميع شأنكم، ﴿وَاسْمَعُوا﴾ حكم الله واعملوا به، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ لا يوفق ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

واذكر يا محمد: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿فَيَقُولُ﴾ مناديًا لهم بصوت يُسمع، ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ ما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي، ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بذلك إلا العلم الذي أنت تعلمه، ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فأنت مطلع على ظواهرهم وبواطنهم وعلى جميع أعمالهم.

واذكر ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ وأفردها لتعم فإن نعم الله عَزَّوَجَلَّ على عيسى ابن مريم كثيرة، ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ وهي مريم إذا أكرمها الله عَزَّوَجَلَّ بما أكرمها به في الدنيا من الصديقة وهي مكرمة في الآخرة.

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ قويتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ في حال صغرك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾

قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩-٣٠]، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ**»، وذكر منهم: «**عِيسَىٰ بن مَرْيَمَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وهذا خلاف العادة.

﴿وَكَهْلًا﴾ حين نزوله في آخر الزمان، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخط ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ العلم والفهم، ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالأنجِيلَ﴾ وما فيهما من الأحكام ﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تُصَيِّر ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ﴾ كصورة ﴿ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ﴾ بإذن الله، ﴿وَتُبْرِئُ﴾ أي: تصح المريض، ﴿الأَكْمَهَ﴾ الأعمىٰ ﴿وَالأَبْرَصَ﴾ الذي في جلده مرض، ﴿بِإِذْنِي﴾ وهذه آية من آيات الله، كم يعجز الأطباء عن علاج مثل هذه الأمراض وعيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ بمسحة وإذا به يُبصر وبمسحه وإذا به صاحب جلد حسن، ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: من قبورهم أحياء، ﴿بِإِذْنِي﴾ وهذه ليست حياة مستقرة إنما يشهدون له بالرسالة أو يُسألون عما كان ثم يرجعون إلىٰ ميتتهم، ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ منعت، ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اليهود، ﴿عَنكَ﴾ أي: حين هموا بقتلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨].

﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: الدلالات والمعجزات المذكورات وغيرها، ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ﴾ الذي جاء به من البينات﴿إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر، وهذا من تخرصهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

﴿وَ﴾ واذكر ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ ألهمهم الله عَزَّوَجَلَّ وقذف في قلوبهم الإيمان، وأمرهم على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ ربًا، ﴿وَبِرَسُولِي﴾ عيسى نبيًا، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ عاجلوا بالإيمان حين بلغتهم الرسالة، ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لدين رب العالمين.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

واذكر ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والحواري: الناصر، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ**» متفق عليه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ قُرئت: (هل تستطيع) وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن هذا من باب العذر بالجهل فإنهم شكوا في قدرة الله في هذا الأمر، وقيل: لم يشكوا في قدرة الله وإنما قالوا هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، أو هل يستطيع ربك بمعنىٰ: أنه يستجيب الدعاء، ﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من مثل هذا لقول، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تشكوا في قدرته وهذا قد يرجح معنىٰ: أنه وقع منهم الشك، وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال لها: «**مَا لَكِ؟ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً**» قَالَتْ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ، قَالَ: «**لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**»، قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ؟ فعذرت بذلك أخرجه مسلم.

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتح القدير" (٢/ ١٠٥): "وَالسُّؤَالُ عَنِ اسْتِطَاعَتِهِ لِذَلِكَ يُنَافِي مَا حَكَوْهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأُجِيبَ بِأَنَّ هَذَا كَانَ فِي أَوَّلِ مَعْرِفَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَحْكِمَ مَعْرِفَتُهُمْ بِاللهِ، وَلِهَذَا قَالَ عِيسَىٰ فِي الْجَوَابِ عَنْ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ الصَّادِرِ مِنْهُمْ: اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أَيْ لَا تَشُكُّوا فِي قُدْرَةِ اللهِ وَقِيلَ: إِنَّهُمُ ادَّعَوُا الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ دَعْوَىٰ بَاطِلَةً، وَيَرُدُّهُ أَنَّ الْحَوَارِيِّينَ هُمْ خُلَصَاءُ عِيسَىٰ وَأَنْصَارُهُ كَمَا قال: مَنْ أَنْصارِي إِلَىٰ اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ وَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ صَدَرَ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُمْ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ لَمْ يَشُكُّوا فِي اسْتِطَاعَةِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ عَارِفِينَ بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ الرَّجُلِ: هَلْ يَسْتَطِيعُ فُلَانٌ أَنْ يأتي؟ مع علمه بأنه يَسْتَطِيعَ ذَلِكَ وَيَقْدِرَ عَلَيْهِ فَالْمَعْنَىٰ: هَلْ يَفْعَلُ ذلك وهل يجيب إِلَيْهِ؟

وَقِيلَ: إِنَّهُمْ طَلَبُوا الطُّمَأْنِينَةَ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتىٰ الْآيَةَ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُهُمْ مِنْ بَعْدُ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَأما عَلَىٰ الْقِرَاءَةِ الْأُولَىٰ، فَالْمَعْنَىٰ: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْأَلَ رَبَّكَ. قَالَ الزَّجَّاجُ: الْمَعْنَىٰ هَلْ تَسْتَدْعِي طَاعَةَ رَبِّكَ فِيمَا تَسْأَلُهُ فهو من باب وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ.

ومائِدَةً: الْخُوَانُ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ، مِنْ مَادَّهُ: إِذَا أَعْطَاهُ وَرَفَدَهُ كَأَنَّهَا تُمِيدُ مَنْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ قَالَهُ قُطْرُبٌ وَغَيْرُهُ وَقِيلَ: هِيَ فَاعِلَةٌ بمعنىٰ مفعولة ك عِيشَةٍ راضِيَةٍ قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ. فَأَجَابَهُمْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أَيِ اتَّقُوهُ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ وَأَمْثَالِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي إِيمَانِكُمْ، فَإِنَّ شَأْنَ الْمُؤْمِنِ تَرْكُ الِاقْتِرَاحِ عَلَىٰ رَبِّهِ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَمَرَهُمْ بِالتَّقْوَىٰ لِيَكُونَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَىٰ حُصُولِ مَا طَلَبُوهُ". اهـ

﴿قَالُواْ﴾ الحواريون سألناكها لأننا ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ﴾ فتبرك بالأكل منها بدون كلفة ولا مشقة، ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي: تسكن قلوبنا لإيمانها بصدق رسالتك، ولا يصدقون ما يأتي من الشبه من اليهود وغيرهم، ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ بأنك رسول الله عَزَّوَجَلَّ فيزدادون إيمانًا مع إيمانهم، ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لمن لم يحضرها أو من الشاهدين لله بالوحدانية، ولعيسى بالرسالة.

ولما رأى عيسى وسمع ما حكوه من سبب سؤال نزول المائدة ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مع ما فيها من المأكولات والمطعومات، ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ نجتمع حولها ونتبرك بما فيها، وفي قراءة: ﴿يَكُونُ﴾ أي: اليوم الذي نزلت فيه ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ أي: لأهل زماننا، ﴿وَءَاخِرِنَا﴾ أي: لمن يجيء بعدنا، ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾ على قدرتك فهي آية واضحة ودلالة وحجة، ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ استجابةً لدعوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واختبارًا لهم، ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني: عالمي زمانه، والجحد بعد ظهور مثل هذه الآيات يدل على ضعف إيمان عندهم جدًا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد استجاب لهم

وأعطاهم ما سألوه وبعد ذلك قاموا بالمعاندة والمعارضة، وهذا كصنيع كثير من اليهود فإنهم كانوا يسألون أنبياؤهم الآيات فإذا جاءتهم الآيات لم يؤمنوا، وكذلك كفار قريش سألوا النبي ﷺ الآيات وعندما جاءتهم الآيات لم يؤمنوا.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما زعمت النصارى فعبدوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعبدوا أمه مع الله عَزَّوَجَلَّ وربما سموهم بـ(الأقانيم الثلاثة)، وربما قالوا: (اللاهوت والناسوت) ، إلى غير ذلك.

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي: أنزهك يا الله، ويؤتىٰ به للتعجب مما نُسب إلىٰ الشخص ولدفع التهمة، ﴿مَا يَكُونُ﴾ ما ينبغي ﴿لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وهو رسول الله يعلم ما يجب لله عَزَّوَجَلَّ وما يجوز عليه وما يمتنع عنه، وهو من دعا إلىٰ التوحيد حيث أرسله الله لذلك فكيف يدعو إلىٰ الشرك والتنديد؟ ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا﴾ أخفيه ﴿فِي نَفْسِي﴾.

❁ فيه إثبات صفة النفس لله عَزَّوَجَلَّ.

❁ **وهل هي الذات أو هي صفة من صفات الذات اختلف العلماء في ذلك.**

والصحيح: أنها الذات المتصفة بالصفات، وقد زعم بعض المبتدعة من المعتزلة أن عيسىٰ كفر بقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ لأنه أثبت النفس لله فزعموا أنه ممثل، وهذا دليل علىٰ بعد ضلالهم وسحقه، ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ كما أنه عالم بالظواهر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ أي: ما دعوتهم وأخبرتهم، ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ وهو التوحيد، ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ﴾ كما قال الله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم﴾ [النحل:٣٦]، ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ مطلعًا ناصحًا لهم ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ﴾ مدة إقامتي فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ قبضتني ورفعتني إلى السماء، ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ﴾ المطلع والشهيد، ﴿عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾ تحفظ أعمالهم وترى أفعالهم ولا يخفى عليك شيء من أمرهم.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ بسبب كفرهم وبغيهم وبدعتهم، ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ﴾ ولا راد لأمرك وقضائك، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ تتجاوز عمن آمن منهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمِ﴾ في صنعه، فإن قيل: كيف طلب المغفرة لهم وهم كفار؟ وقال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

❁ قيل: وهذا لا يليق بسؤال المغفرة؟

- **والجواب أولًا:** معناه: إن تعذبهم بإقامتهم علىٰ كفرهم، وإن تغفر لهم بعد الإيمان، وهذا يستقيم علىٰ قول السدي: من أن هذا السؤال قبل يوم القيامة.

- **ثانيًا:** هذا في فريقين منهم معناه: إن تعذب من كفر منهم، وتغفر لمن آمن منهم.

- **ثالثًا:** ليس هذا علىٰ وجه طلب المغفرة ولو كان كذلك لقال: فإنك أنت الغفور الرحيم، ولكنه تسليم الأمر وتفويضه إلىٰ مراده.

وفي مصحف ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وأما علىٰ القراءة المعروفة قيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: إن تغفر لهم فإنهم عبادك وإن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم.

- **رابعًا:** معناه: إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز في الملك الحكيم في القضاء لا ينقص من عزك شيء ولا يخرج من حكمك شيء.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وَبَكَىٰ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**» أخرجه مسلم.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ أي: ردًا على كلام عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿هَٰذَا﴾ يوم القيامة ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بالتوحيد والاستسلام لله عَزَّوَجَلَّ ﴿صِدْقُهُمْ﴾، مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه يوم الجزاء ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ﴾ أي: فيها الأنهار، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعته ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ بثوابه، ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمِ﴾ الفوز الذي ليس بعده فوز؛ لأنهم نالوا نعيم الدنيا والآخرة أو نالوا النعيم الأبدي السرمدي.

وفي حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ» أخرجه مسلم.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » متفق عليه.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ له الملك المُطلق والغنى المُطلق، ﴿وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "فتح القدير" (٢/ ١٠٩): "جَاءَ سُبْحَانَهُ بِهَذِهِ الْخَاتِمَةِ دَفْعًا لِمَا سَبَقَ مِنْ إِثْبَاتِ مَنْ أَثْبَتَ إِلَهِيَّةِ عِيسَىٰ وَأُمِّهِ، وأخبر بأن ملك السموات وَالْأَرْضِ لَهُ دُونَ عِيسَىٰ وَأُمِّهِ وَدُونَ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ دُونَ غيره، وقيل المعنىٰ: أن له ملك السموات وَالْأَرْضِ يُعْطِي الْجَنَّاتِ لِلْمُطِيعِينَ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ" اهـ.

تفسير

سورة الأنعام

سُورَةُ الأَنْعَامِ

۞ مكية وَهِيَ مِائَةٌ وَخَمْسٌ وَسِتُّونَ آيَة، ولم يثبت حديث في فضل قراءتها.

❖ ومن البدع في ليلة السابع من رمضان أن يصليها بعضهم في ركعة واحدة، بزعمهم أنه لا يجوز أن تجزأ، وهذا اعتقاد مبني علىٰ أحاديث ضعيفة ذكر منها ابن كثير في تفسيره جملة.

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نَزَلَتْ سُورَةُ الأنعَامِ بِمَكَّةَ، إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١، ٩٣]، إِلَىٰ آخِرِ ثَلَاثِ آيَاتٍ، وَقَوْلَهُ تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ﴾ [الأنعام:١٥١]، إلىٰ قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فهذه الستّ آيات مدنيات، أما السند فضعيف كما ترىٰ، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يحمد ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه الكريمة مادحا لها علىٰ جميل أفعاله وعظيم خصاله، فهو المحمود علىٰ كل حال، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أوجدها من العدم فخلقها في ستة أيام، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: وخلق الظلمات، جمع ظلمة ﴿وَٱلنُّورَ﴾ وخلق النور وقيل: النور يراد به القرآن فيكون معنىٰ وجعل النور أي: صيره إذ أن جعل تأتي بمعنيين: بمعنىٰ خلق، وصير، فإذا عديت إلىٰ مفعولين فهي بمعنىٰ صير كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، وإذا عديت إلىٰ مفعول واحد فهي بمعنىٰ خلق،

﴿ثُمَّ﴾ مع هذه الدلائل والحجج﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ بخالقهم ومالكهم، ورازقهم ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يسون به غيره من الأصنام والأنصاب والأوثان، وجعلوا له الصاحبة والولد.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ وهذا خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأما ذرية آدم فخلقوا من ماء دافق إلا ما كان من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فإن الله خلقه من أم بلا أب، ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ الأجل الأول من الولادة إلى الموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ لا يعلمه إلا هو، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّىۖ﴾ من الموت إلى البعث وهو البرزخ، وقيل الأول الموت والثاني الآخرة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ تجادلون وتشكون في البعث.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المألوه المعبود ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تعبده الملائكة، ﴿وَ﴾ هو المألوه المعبود ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعبده المسلمون، فليس المعنى أنه في الأرض بذاته تعالى الله عن هذا القول علوًا كبيرًا، وقيل المعنى: ﴿فِى ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ علا السموات ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وهي معية العلم والإحاطة، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ ما تعملون من الخير أو الشر.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ أي أهل مكة ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من علامة ومعجزة مما يطلبونها من النبي ﷺ، على صدق نبوته ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الكثيرة مثل انشقاق القمر وآيات القرآن كسؤالهم عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، ونحو ذلك، ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لها تاركين وبها مكذبين.

فلا تعجب من صنيعهم هذا ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مع ما فيه من الآيات البينات والأدلة الواضحات على صدق كلام الله عَزَّوَجَلَّ،

وصدق رسول الله ﷺ، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ﴾ أخبار وجزاء ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يسخرون بدين الله عَزَّوَجَلَّ وحملته فينالهم من العقوبات الدنيوية قبل الأخروية.

۞ وفيه: أن الاستهزاء سبب لعقاب الله عَزَّوَجَلَّ مع ما فيه من الكفر والإلحاد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: كفار مكة، رؤية اعتبار ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ مثل: عاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع إلى غير ذلك، ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ ملكناهم وأعطيناهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢٦]، فمكن الله لهم حيث صاروا ملوكًا وجبابرة ومع ذلك نكسهم الله بذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: أمطارًا تدر لهم الضرع، وتنبت لهم الزرع، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ وهذا من تمام نعيمهم كما حصل لفرعون وقومه، فيشربون من مائها ويسقون زروعهم وثمارهم ومع ذلك كفروا وكذبوا، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾ دمرناهم، ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم وبغيهم، كما قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ خلقنا وأوجدنا ﴿مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا﴾ قومًا ﴿ءَاخَرِينَ﴾ فمنهم من استجاب، ومنهم من كفر فلحق بمن سبقه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا﴾ مكتوبا ﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾ كما طلبوا من النبي ﷺ ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ واستيقنوا أنه من عند الله لجاءوا بشبهة أخرى و: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مكذبين معرضين ﴿إِنْ

﴿هَـٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ سحر بين واضح، فلا تنفع معهم الآيات، ولا تنفع معهم المواعظ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤- ١٥]، ولما سألوا انشقاق القمر ورأوه قد انفلق فرقتين قالوا: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر:٢]، مع أن كثيرًا من الناس قد أرخوا انشقاق القمر، أرخوه في الهند، وغيرها من البلدان، وهو آية من آيات الله الدالة على صدق النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر:١-٢].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ مكابرين معارضين ﴿لَوۡلَا﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾ على محمد ﷺ ﴿مَلَكٞ﴾ في صورته التي خلقه الله عليها، ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ بهلاكهم، ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ لا يؤخرون.

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا﴾ مع الرسول البشري كما سألوا، ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ أي: في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، وكان جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وجاء الملكان إلى داود في صورة رجلين، ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم﴾ خلطنا وشبهنا عليهم ﴿مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ ما يخلطون على أنفسهم، فلا يدرون هل هو ملك أو آدمي؟

يقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مسليًا محمدًا ﷺ: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾ سخر الكفار ﴿بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد، ﴿فَحَاقَ﴾ لحق ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ استهزأوا، ﴿مِنۡهُم﴾ من الكفار، ﴿مَّا كَانُواْ بِهِ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فدمر الله ودمدم عليهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿سِيرُواْ فِي الأَرْضِ﴾ للعظة والعبرة ومعرفة ما حل بالأمم السابقة، ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ نظر اعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ بعض البلدان عاليها سافلها، ودمر بعضها بالريح، وأغرق بعضها كما هو الحال.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة مقررًا لهم علىٰ وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لمن هذا الملك العظيم الواسع، فإن أجابوك وإلا فـ: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أي: الإله الحق الخالق، الرازق، المالك، المدبر، ﴿كَتَبَ﴾ فرض تفضلًا ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ المقدسة ﴿الرَّحْمَةَ﴾ لمن أناب وتاب، كما قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَىٰ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**» متفق عليه، وهذا كالدعوة لهم إلىٰ التوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي والله ليجمعنكم ويحشرنكم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ البعث والنشور وهو كائن لا محالة، وقد دلل الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ وقوعه بآيات كثيرات بينات، واستدل بإحياء الأرض الموات، واستدل بالبدء علىٰ سهولة الإعادة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠]، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك ولا مرية فيه، ﴿الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقرون بشرع الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَهُ﴾ ملكًا وخالقًا ﴿مَا سَكَنَ﴾ استقر ﴿فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لأصواتهم، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بأحوالهم الظاهرة والخفية.

ثم قال بعد أن بين ما لله عَزَّوَجَلَّ من الدلائل البالغات والحجج الدامغات القويات: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ﴾ معبودًا وناصرًا ومعينًا ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خالقهن من العدم كقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ مخلوقاته فيرزقهم ويوسع عليهم، ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ لغناه وكماله وقيوميته، فإنما يحتاج إلىٰ الطعام المخلوق الضعيف العاجز، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ**» أخرجه الطبراني. ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ من هذه الأمة لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المنددين المضيعين لحق رب العالمين.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فعبدت غيره، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب النار يوم القيامة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦].

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ وإنما يُصرف العذاب عن المؤمنين، ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الفوز العظيم الواضح البين كقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ يصبك، ﴿اللَّهُ﴾ عَزَّوَجَلَّ، ﴿بِضُرٍّ﴾ بشدة أو مرض أو بلية، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ لا رافع له ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ والأنداد والأصنام التي تُعبد من دونه عاجزة، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من رزق، وعطاء، وسعة، وصحة، وعافية، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**» أخرجه الترمذي.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الغالب القوي فوق عباده فوقية القدر والقهر، وفوقية الذات، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ﴾ [النحل:٥٠]، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأمره، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأعمال عباده، لا تخفى عليه خافية.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ﴾ أعظم ﴿شَهَادَةً﴾ على صدقك في دعوتك ورسالتك، فإن أجابوك وإلا فليكن الجواب: ﴿قُلِ اللَّهِ﴾.

❁ وفي هذا دليل: علىٰ أن الله شيء لا كالأشياء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

❁ وبهذه الآية يرد علىٰ المعتزلة الذين يزعمون أن القرآن مخلوق بقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، فقالوا: الشيء مخلوق، فيقال لهم: قد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ فهل هو داخل في المخلوقات؟ معاذ الله وتعالىٰ عن قولهم علوًا كبيرًا.

﴿قُلِ اللَّهِ﴾ أكبر شاهد علىٰ صدقي وهو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: أنه شهيد علىٰ ما أقول ويشهد لي بالحق، ومطلع علىٰ ما تقولون وتفعلون، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ الذي تكلم الله عَزَّوَجَلَّ به، وأنزله إلىٰ محمد ﷺ، ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ أخوفكم من النار ومن غضب الجبار ومما تقدمون عليه، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ وأخوف من بلغه هذا القرآن من العرب أو العجم، فهو حجة

قاهرة، وعلم غزير، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم: ٥٢].

قل يا محمد: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ﴾ تزعمون وتخبرون ﴿أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾ من الأصنام والأوثان، فتعبدونها وترجونها من دون الله، ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ معكم أن معه آلهةً أخرىٰ، فهذه الشهادة باطلة، ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [البقرة:١٦٣]، ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ﴾ بعيدٌ ﴿مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وكقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٧]، فلا بد من البراءة من المشركين وشركهم، والمولاة للموحدين وتوحيدهم، وأوثق عرىٰ الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى، حيث آتاهم الله التوراة والأنجيل، ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ القرآن، أو محمدًا ﷺ، بنعته وصفته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ﴾ وإنما منعهم من الإيمان به الكبر والحسد، ﴿الَّذِينَ خَسِرُواْ﴾ غبنوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بعدم الاستجابة لنداء الله عَزَّوَجَلَّ، ولدعوة رسول الله ﷺ، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا ينقادون لدين الله وشرعه.

﴿وَمَنْ﴾ ولا ﴿أَظْلَمُ﴾ أكفر، ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ اختلق، ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ فأشرك به غيره، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ القرآن، والوحي المنزل ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون لا ينالهم الفلاح في الدنيا ولا في الآخرة، والفلاح لاحق بالمؤمنين كما قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]، وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاه**» أخرجه مسلم.

﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ نجمعهم ﴿جَمِيعًا﴾ العابد والمعبود، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ كفروا وعبدوا الأحجار والأصنام والأوثان، ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ معبوداتكم ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم آلهة وأنها تشفع، وتدفع، وتنفع، وتخفض، وترفع والواقع: أنها عاجزة، وهذا كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

﴿ثُمَّ﴾ أي: حين سُئلوا: أين آلهتكم؟ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ قولهم وجوابهم ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ﴾ كذبًا وزورًا ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ منددين بالله في الدنيا، لكن حالهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤].

﴿انظُرْ﴾ يا محمد ومن يصلح معه الخطاب ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ﴾ في الدنيا بسلوك مسلك المجرمين الكافرين، وفي الآخرة بتبرئة أنفسهم من هذا السلوك المشين، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ زال وذهب، ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُون﴾ يختلقون من الأصنام والأوثان، وهم القائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المشركين المنددين، ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ من يستمع للقرآن وإلىٰ كلامك وما تذكره، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ غشاوة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ لا يفقهون ولا يستجيبون ولا يعلمون، فالفقه: هو الفهم، ﴿وَ﴾ جعلنا ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صمم وثقل كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ﴾ حجة وعلامة علىٰ صدقك سواء من آيات الله الشرعية، والكونية، والمعجزات، والدلالات، ﴿لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ لا يقروا بها ﴿لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ لتوغل الكفر في قلوبهم؛ ولعظيم إعراضهم؛ ولكبرهم وحسدهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ﴾ أتوك ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ يخاصمونك، مثل قولهم في القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، وقولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان:٥]، وقولهم: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر:٢٤]، وقولهم: ﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ردًا للحق الذي جاءهم به محمد ﷺ، ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هَٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِلاَّ أَسَٰطِيرُ﴾ أكاذيب ترهات وأباطيل، أصلها: من سطرت أي: كتبت ﴿الأَوَّلِينَ﴾ الأمم السابقة.

﴿وَهُمْ﴾ الكفار ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ﴾ عن اتباع محمد ﷺ، والأخذ بالقرآن والسنة، ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ يتباعدون عنه بأنفسهم، فسلكوا سبيل الضلال من جهتين: النهي عن اتباع القرآن والسنة واتباع محمد ﷺ، والنأي: البعد بأنفسهم عن الاستجابة لداعي الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَإِن﴾ وما ﴿يُهْلِكُونَ﴾ بهذا الصنيع ﴿إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يرجع وبال ذلك عليهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُون﴾ بذلك لتعمق الباطل في نفوسهم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد، والخطاب لأمته، ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾ عرض الكفار يوم القيامة، ﴿عَلَى النَّارِ﴾ التي حرها شديد وقعرها بعيد، يحطم بعضها بعضًا، فما عسىٰ المتمني أن يتمنىٰ في ذلك المكان وفي ذلك الزمان، ﴿فَقَالُواْ﴾ مع الخوف والفزع والحسرة ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ إلىٰ الحياة الدنيا، ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من أهل الإيمان، المبادرين إلىٰ مرضات الرحمن، ولكن هيهات لا تنفع الندمات ولا الحسرات، كما قال تعالىٰ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧]، وهو موقف شديد وصعب علىٰ المرء حين يرىٰ أنَّ الهلكة قد أحاطت به من جميع جوانبه، ولا يستطيع أن يحدث شيئًا.

﴿بَلۡ بَدَا لَهُم﴾ ظهر لهم ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ﴾ يسرون ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في الدنيا من كفرهم ومعاصيهم، وقيل: ما كانوا يخفون من قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، وقيل أنه ظهر لهم ما كانوا يعلمون من صدق ما جاءت به الرسل في أنفسهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ﴾ [النمل: ١٤]، ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ﴾ إلىٰ الدنيا كما طلبوا، ﴿لَعَادُواْ﴾ رجعوا، ﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ من الكفر والإجرام، وهذا من تمام علم الله إذ أنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ في دعواهم وقولهم ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ﴾ ما ﴿هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ منكرين للبعث والنشور، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ وكان هذا القول مبني علىٰ الخرص، والظن الكاذب.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد أو من يصلح له الخطاب ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾ حبسوا وعرضوا ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة، فيحكم بينهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لرأيت العجب من حالهم، فعن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ» متفق عليه.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَلْقَىٰ الْعَبْدُ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: أَيْ فُلُ، أَلَمْ أَخْلُقْكَ؟ أَلَمْ أجعلك سميعًا بصيرًا؟ ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ؟ أَلَمْ أُسَوِّدْكَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: فَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي» أخرجه مسلم.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ الذي ترونه من القيامة وأهوالها ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق، ﴿قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أنه حق ثابت، ﴿قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ الشديد، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالله ورسله وكتبه ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ كفروا ﴿بِلِقَاء اللّهِ﴾ بالآخرة، والبعث والنشور، وخسروا كل نفيس، وكانوا من أهل النار، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ:٢٤-٢٦]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة، ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، ﴿قَالُواْ يَحَسْرَتَنَا﴾ يا ندامتنا، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ علىٰ ما ضيعنا وقصرنا في الدنيا من الأعمال الصالحات، كما قال تعالىٰ ﴿يَحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾، ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ خطاياهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ ومن أعظمها الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ زد علىٰ ذلك أوزار من أضلوهم، كما قال تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا﴾ [النحل:٢٥]، ﴿أَلَا سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ بئس الحمل الذي يحملون.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الفانية ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغرور لا بقاء لها، ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الباقية ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يتعبدون لله بفعل المأمور وترك المحظور ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيكون سبب لاستجابتكم وبعدكم عن مغضبات ربكم.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذه آيات عظيمات، ووصايا كريمات، وعظات بليغات من رب الأرَضين والسماوات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويدخل في هذه الوصية ابتداء الدعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ النبي ﷺ هو مقدمهم وإمامهم وقدوتُهم.

﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ قد أحطنا بتكذيب قومك لك، ﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ يدخل عليك الحزن والتأسف، ومن ذلك: ﴿الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لعلمهم بصدقك وأمانتك، ولا يطعنون فيك، ﴿وَلَكِنَّ﴾ الواقع أن ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ الشرعية ﴿يَجْحَدُونَ﴾، يكذبون، وأي تكذيب أعظم من هذا؟ حيث يصدقونه بلسان المقال، ويكذبونه بلسان الحال.

ثم قال الله مسليًا لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ عيسىٰ وموسىٰ ومن قبلهم نوح وإبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وغيرهم كثير ﴿فَصَبَرُوا﴾ امتثالًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ علىٰ رد دعوتهم، ﴿وَأُوذُوا﴾ بالقتل، والضرب، والشتم، والطرد وغير ذلك، فالداعي إلىٰ الله لا يخلو من حصول أذىٰ عليه إما جسميًا أو نفسيًا أو مجموعهما، كما حصل للنبي ﷺ فقد وضع السلىٰ علىٰ ظهره، وطُرد من بلده، وكُذب في دعوته، وسُب في وجهه، يقولون له: مُذممًا، ويقولون: ساحرًا، ويقولون: كاذبًا، وجرحوه في أُحُدٍ، وأرادوا قتله.

﴿حَتَّىٰ أَتَاهُمْ﴾ جاءهم ﴿نَصْرُنَا﴾، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، ومع ذلك لابد من الصبر فلا يُمكن الرجل حتىٰ يُبتلىٰ، ويمحص ويُختبر ويُعلم هل هو أهل

لحمل هذه الرسالة أم أنه من المتضعضعين الذي يمكن أن ينحرف في أدنىٰ مواجهة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج:١١]، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾ مغيِّر ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ الكونية، من أنه لا بد من الابتلاء والاختبار، ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ خبر ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ما يكون فيه تطمين لخاطرك، وتطييب لنفسك، وتثبيت لك كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ﴾ [هود:١٢٠].

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ شق ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن دعوتك، ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ﴾ تطلب ﴿نَفَقٗا﴾ سربًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فتهرب منهم ﴿أَوۡ سُلَّمٗا﴾ مصعدًا ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ فترقىٰ فيه، وأنت عاجز عن ذلك، ﴿وَلَوۡ شَاءَ اللَّهُ﴾ كونًا ﴿لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ الإسلام، والسنة، والاستقامة؛ ولكن الحال كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد:٤]، وكما قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ بهذا الأمر جهل الخلق: وهو السفه علىٰ الناس، والنبي ﷺ مُصان عن ذلك؛ لكن هذه وصية الله عَزَّوَجَلَّ لمن سلك هذا السبيل.

﴿۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ للدعوة وينقاد، ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ الوحي سمع استجابة فيتذكرون وينتفعون، ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ الكفار، شبههم بالموتىٰ لأنهم لا ينتفعون ﴿يَبۡعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة،

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم، ﴿وَقَالُواْ﴾ معترضين علىٰ رسول الله ﷺ ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ علامة ومعجزة تدل علىٰ نبوته، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ لا يعجزه شيء، وهو علىٰ كل شيء قدير، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يستجيبون حتىٰ ولو أُنزلت، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ﴾ والدابة: كل ما يَدُبُّ علىٰ وجه الأرض من حيوان، وإنسان، وطير وغير ذلك، ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ ذكر الطائر مع أنه من الدواب؛ لبيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور:٤١]، ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ صفة كاشفة وإلا ما من طائر إلا وهو يطير بجناحيه، كما يقول بعضهم: نظرت بعيني وأخذت بيدي، ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أصناف مصنفة تُعرف بأسمائها، وخلقها الله عَزَّوَجَلَّ وسخرها، وفي حديث عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ: «**لَوْلا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا، فَاقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ**» أخرجه الترمذي.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ**» أخرجه مسلم.

﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ أغفلنا وتركنا ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ اللوح المحفوظ، فقد كتب فيه ما كان وما يكون إلىٰ قيام الساعة، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أوَّلَ ما خلقَ الله القلمُ، فقال له: اكتُبْ، قال: ربِّ، وماذا أكتُبُ؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كل شيءٍ حتىٰ تقومَ الساعةُ**» أخرجه أبو داود.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يجمعون أي: جميع الخلق، ثم تصير الدواب وما إليها بعد المقاصة بينهم ترابًا، كما قال: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ:٤٠]، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ الكفار، ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحق، ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن النطق به، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في ظلمات البدع والشركيات والخرافات، ويكونون يوم القيامة في ظلمات النار بعضها فوق بعض، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ من الناس ﴿يُضْلِلْهُ﴾ يخذله فلا يوفق للإسلام، ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ﴾ يوفقه ﴿عَلَىٰ﴾ إلىٰ ﴿صِرَاطٍ﴾ طريق ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ الإسلام؛ لعلمه أنه أهل لذلك.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَأَيْتُكُم﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ بالقتل والسبي أو الجوع ونحوه، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ ليصرف العذاب عنكم، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم ودعواكم.

﴿بَلْ﴾ الواقع أنكم ﴿بَلْ إِيَّاهُ﴾ لكشف الضر عنكم، ﴿فَيَكْشِفُ﴾ يرفع ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ من العذاب ﴿إِنْ شَاءَ﴾ وإن شاء أصابكم به، ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ تتركون، ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾ في حال الشدة يتركون ما يشركون ويندون، وفي حال الرخاء يشركون ويندون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ بعثنا رسلًا للنذرة، والبشارة ﴿إِلَى أُمَمٍ﴾ طوائف ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ وهذه تسلية لمحمد ﷺ، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ حين كفرهم وبغيهم ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ بالشدة والجوع، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض والزمانة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يتوبون، ويخضعون، ويتضرعون لله بالسؤال والتذلل.

﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ وهو العذاب الذي قدره الله عليهم، ﴿تَضَرَّعُوا﴾ دعوا الله عَزَّوَجَلَّ خاضعين لكشفه، ﴿وَلَٰكِن﴾ الواقع أنها ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بسبب كفرهم ومعاصيهم، وصارت أشد قساوة من الحجارة الصماء، ﴿وَزَيَّنَ﴾ حسن وزوق ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي فلذلك لم يستقبحوها، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]، فمن نعمة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ المسلمين أن حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ومن بلاء الله علىٰ الكافرين: أنه زُين لهم سوء أعمالهم.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ تركوا ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أُمروا به من وحي الله وشرعه، وما وعظوا به من الأمراض والأسقام، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ استدراجًا ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النعم وفيها بركات وخيرات وافرات؛ لاستدراجهم، كقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٦-١٧]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ﴾ بطروا ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ من الدنيا ونعيمها الزائل، ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ أهلكناهم ﴿بَغْتَةً﴾ على حين غرة، والدنيا أعجب ما كانت إليهم، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير، قال أبو عبيد: المبلس: النادم الحزين، وأصل الإبلاس الإطراق من الحزن والندم، وفي حديث عقبة بن عامر عند أحمد قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ**»، وتلى هذه الآية.

﴿فَقُطِعَ﴾ فاستؤصل ﴿دَابِرُ﴾ آخر ﴿الْقَوْمِ﴾ الذين كفروا فأُهلكوا وَأُبيدوا عن آخرهم، ﴿الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا بالله ورسله، ويدخل تحته غيره من أنواع الظلم، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يُحمد على فضله، ونعمته، وعدله، وكماله، وعلى جميع شأنه، وهو هنا يحمد على نصر رسله وحفظهم وإهلاك الكافرين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني أيها المشركون، ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ فأصمكم فأصبحتم لا تسمعون شيئًا ﴿وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾، فأعماكم فلا تبصرون شيئًا، ﴿وَخَتَمَ﴾ طبع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فأصبحتم لا تفقهون شيئًا ولا تعرفون شيئًا من أمور دنياكم، ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾ بمثل هذه النعم العظيمة التي أخذت منكم، ﴿انظُرْ﴾ نظر تفكر واعتبار ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نبين ونكرر ﴿الآيَاتِ﴾ الحجج البينات، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يُعرضون عنها ويكذبونها.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أخبروني يا معاشر المشركين، ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ بالقتل والسبي وغيره في الدنيا، ﴿بَغْتَةً﴾ فجاءة، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ معاينة وأنتم ترونها، ﴿هَلْ﴾ ما ﴿يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المشركون المنددون.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ﴾ من آمن بما لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ من الجنة والرضوان ﴿وَمُنذِرِينَ﴾، مخوفين الكافرين بالنيران وبما لهم عند الله من الخزي والهوان، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ، ورسله وكتبه، وجميع ما يجب الإيمان به، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يقدمون عليه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مما فاتهم، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ أعرضوا عنها، وتمردوا عليها، وكابروا، ﴿يَمَسُّهُمُ﴾ ينالهم ﴿الْعَذَابُ﴾ الأليم، ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم عن الطاعة﴿قُل﴾ لهم يا محمد، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ﴾ التي منها يرزق بحيث يؤملهم في العطاء، ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ بحيث يُخبرهم بما غاب مما مضىٰ ومما سيكون، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌۖ﴾ من الملائكة؛ لأنَّ الملك يقدر علىٰ ما يقدر عليه الآدمي ويشاهد ما لا يشاهده الآدمي، يريد: لا أقول لكم شيئًا من ذلك وتنكرون قولي وتجحدون أمري، ﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ من القرآن والسنة، فيلتزم المأمور، ويترك المحظور، ويصبر علىٰ المقدور، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى﴾ الكافر ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ المؤمن، وهذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، فالأعمىٰ: هو الكافر وإن كان مبصر العين، والبصير: هو المؤمن وإن كان أعمىٰ العين، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في أنهما لا يستويان.

﴿وَأَنذِرْ﴾ خوف ﴿بِهِ﴾ بالقرآن، ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أن يُجمعوا ويُبعثوا عند ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يوم القيامة، ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ غير الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلِيٌّ﴾ قريب ينفعهم أو ناصر ينصرهم، فيجبل لهم النفع، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ، فيدفع عنهم الضر، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ينزجرون عما نهاهم عنه، ويلتزمون ما أمرهم به.

﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ تُبْعِد ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ﴾ الصبح ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾ آخر النهار يخلصون له، فاصبر عليهم ولازمهم كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا﴾ [الكهف:٢٨].

وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا: ما جاء عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: « كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾ »

أخرجه مسلم.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ إن كان باطنهم غير مرضي، ولعل إيمانهم أعظم من إيمان غيرهم، ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ عن مجالستك ﴿فَتَكُونَ﴾ بطردك لهم ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المتجاوزين لحدود الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا تهديد ووعيد عظيم من رب العالمين، والتزم النبي ﷺ أمر الله وجالسهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ
بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ
ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ

خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ ابتلينا واختبرنا، ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، والمؤمن بالكافر، والبر بالفاجر، ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ الكفار ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ بالهداية ونحوها ما كان الله ليهدي هؤلاء إلىٰ الخير ويدعنا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ يعني: بلىٰ إن الله عَزَّوَجَلَّ عليم بالشاكرين، عليم بما يصلح العباد في مآلهم وآخرتهم، فيبتلي هؤلاء بالشدة فإن صبروا فلهم من الله الأجر والمثوبة، ويبتلي هؤلاء بالرخاء فإن شكروا فلهم من الله الأجر والمثوبة، وإن كفر هذا وهذا كان جزاؤه المقت من الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ يا محمد، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يقرون بها وينقادون لها، ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم بالسلامة في الآخرة، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾ قضىٰ وفرض تفضلًا ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ للمؤمنين فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا قَضَىٰ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**» متفق عليه، ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ سيئة ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ بحيث أنه فعل فعل الجاهلين وارتكبها عن طيش وعدم مراعاة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، إذ لا تُحمل الآية علىٰ أنه عمل الشيء جاهلا بحكمه، فإن الجاهل بالحكم لا يؤاخذ حتىٰ تقام عليه الحجة الرسالية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، ولكن المراد بالجهالة: جهالة المعصية، جهالة الطيشان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ [النساء:١٧]، ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ رجع ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذنبه، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله، وقيل: أخلص في توبته، ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿غَفُورٌ﴾ متجاوز عما مضىٰ ﴿رَّحِيمٌ﴾ موفق لعباده فيما يأتي.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل هذا ﴿نفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ نبين ونميز بين الحق والباطل، وبين الحج القويمة والحجج السقيمة، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ تظهر لك يا محمد ومن معك قبح، ﴿سَبِيلُ﴾ طريق ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ وعلى قراءتها بالفتح: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ أي: تتبين أنت سبيل المجرمين.

۞ وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل الحق علىٰ تعين الجرح والتعديل.

فإن الجرح لأهل الباطل والتعديل لأهل الحق هو بيان لسبيل المجرمين، فيُعرف أهل الحق فيؤخذ بطريقهم، ويُعرف أهل الباطل فيجتنب طريقهم، وهذا باب مهم كلف الله به حملة القرآن والسنة في كل زمن وحين، وله ضوابطه وأحكامه، فلابد أن يصدر من عارف بأسباب الجرح والتعديل، ورع صاحب تقوىٰ، بحيث لا يجور في أحكامه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ نهاني ربي عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ من الأصنام والأوثان وغير ذلك، ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ في عبادتها إذ أن عبادتهم لأصنامهم وأوثانهم إنما جاء عن الهوى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]، ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ انحرفت عن الصراط المستقيم، والطريق القويم إذا أشركت بالله، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ الذين سلكوا سبيل الله الذي بينه لعباده المؤمنين.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ﴾ بيان وعلم ودراية ﴿مِّن رَّبِّي﴾ وبصيرة وثبات ويقين مما أنا عليه من الدين القويم والصراط المستقيم، حيث أكرمني بيان ذلك في القرآن ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ كذبتم بما جئت به مع ثقتي وتيقني بثبوته، ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ من العذاب أو الآيات إلى غير ذلك ومنها قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال:٣٢]، وكما قال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى:١٨]، وكما قال: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ [المعارج:١-٢]، ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ القضاء بالعذاب ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ في

تقديمها وتأخيرها، ﴿يَقُصُّ﴾ يقول ﴿الْحَقَّ﴾ فيخبر به وينزله، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ الحاكمين أي: خير من يقضي بيني وبينكم، فيميز الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب وكان بيدي، ﴿لَقُضِىَ﴾ فرغ ﴿ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فعجلته لكم حتى أتخلص منكم، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ متى يعاقبهم فله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَعِندَهُۥ﴾ تعالى ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزانته والطرق الموصلة إليه ومفاتيح الغيب خمسة كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند البخاري قال رسول الله ﷺ: «**مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لاَ يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ**»، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان:٣٤].

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

۞ وفي هذا رد علىٰ الصوفية الذين يزعمون أن محمدًا ﷺ يعلم الغيب، أو أن الأولياء يعلمون الغيب؛ معاذ الله إلا ما أطلع الله عَزَّوَجَلَّ عليه من شاء.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ﴾ القفار، وقيل البادية ﴿وَالْبَحْرِ﴾ الماء، وقيل المدن.

والصحيح الأول، وخصهما بالذكر لكثرة مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ فيهما.

وهذا رد علىٰ المعتزلة ومن إليهم، الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها أو أنه لا يعلم الجزئيات وإنما يعلم الكليات.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أوراق الشجر أين كانت ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، وهذا دليل علىٰ أنه لا يعزب عنه شيء سواء كانت الورقة يابسة أو خضراء، كبيرة أو صغيرة، ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ صغيرة ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ قد غطاها التراب، ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾ من الحيوان والشجر ونحوه، ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾ من الحجارة والتراب ونحوها، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، وهو اللوح المحفوظ.

وهذه من أصرح الآيات في الرد علىٰ المعتزلة إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ بين عموم علمه، ومن أنكر علم الله عَزَّوَجَلَّ كان من الكافرين.

قال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إذا لقيتهم فأخبرهم أني منهم بريء وأنهم مني برآء، والذي يقسم ابن عمر به: «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» أخرجه مسلم(٨)، وقال الشافعي: خاصموهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ مخبراً عن قدرته التامة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يقبضكم ﴿بِٱللَّيْلِ﴾ أي: وفاة النوم، وربما كانت الوفاة الكبرى لبعضهم، كقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر:٤٢]، ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ ما كسبتم من الأعمال، وسُمي بالجرح؛ لإضافته إلى للجارحة، ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ يوقظكم ﴿فِيهِ﴾ في النهار، ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أجل الحياة إلى الممات، يريد استيفاء العمر على التمام، وهذا دليل على أن ما من نفس منفوسة إلا ويكون قبضها بأجلها، كما قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥].

۞ وفي هذا رد علىٰ الرافضة ومن إليهم ممن يقولون بخرم الأجل، فالصحيح: أن من مات انقضىٰ أجله ولو مات قتلًا أو علىٰ أي حال كان.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم علىٰ أعمالكم.

وفي قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

۞ دليل علىٰ علو الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده علو القهر، والقدر، والذات فهو علىٰ عرشه استوىٰ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ وأدلة العلو قد جاءت متنوعة في القرآن منها:

- ما جاء بلفظ العلو، كقوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلىٰ:١]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

- ومنها ما جاء بلفظ الفوقية كما هو هنا.

- ومنها ما جاء بلفظ الرفع والصعود والعروج إليه كما قال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، إلىٰ غير ذلك.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحصي أعمالكم وتحفظكم كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الأنفطار:١٠-١١]، والملائكة المرسلة علىٰ الناس منها ما هي حافظة له مما ينوبه من الأمور، ومنها ما هي حافظة لأعماله، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ انتهىٰ أجله، ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ قبضته ﴿رُسُلُنَا﴾ ملائكة الموت وهو ملك واحد وله أملاك يُتابعونه ويصدرون عن أمره، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، لأنه هو المباشر، وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام:٦٠]؛ لأنه

الآمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ لا يقصرون، فيما يؤمرون به فلا يمكن أن يتأخر أحدهم لحظةً عن وقت أجله، أو يُنسىٰ، أو يهمل.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ الأموات، ﴿إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ﴾ مالكهم ﴿الْحَقِّ﴾ وهذا يُشكل مع قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١]، وهنا يقول: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وهو شامل للمؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، فقيل: المولى في تلك الآية بمعنى: الناصر ولا ناصر للكافر، وهنا بمعنى: الملك الذي يتولى أمرهم وهو الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ في الدنيا والآخرة، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ سريع الحساب.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿قُلْ مَن﴾ يا معاشر الكفار ومن إليهم، ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا اشتد عليكم البحر وظلمته وأمواجه، وأظلمت عليكم في البر، ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا﴾ علانيةً ﴿وَخُفْيَةً﴾ سرًا، تقولون: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ الله وسلمنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الكربة والشدة ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ والله ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الطائعين فتجعلون على أنفسكم عهودًا ومواثيق لله عَزَّوَجَلَّ إذا أنجاكم من هذه الظلمة أن تسلكوا سبيل الشكر وهو معرفة النعمة مع القيام بحقها، والواقع أنهم إذا سَلموا مما هم فيه عادوا إلى ما كانوا فيه من الشرك.

﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ يسلمكم ﴿مِّنْهَا﴾ من هذه الشدة فهو القادر الذي لا يعجزه شيء، ﴿وَ﴾ يسلمكم ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ ينزل بقلوبكم من الهموم والغموم، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ تنددون، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال كان من دعاء النبي ﷺ في الكرب: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**

العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ» متفق عليه.

وعن أسما بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت قال رسول الله ﷺ: **«اللهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»**، أخرجه أبو داود (١٥٢٥) وهكذا قوله تعالىٰ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

﴿قُلۡ﴾ يا محمد، ﴿هُوَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ الصيحة، والحجارة، والريح، والطوفان، والمطر ونحو ذلك، ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ بالزلازل والرجفة ونحو ذلك، ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ﴾ يخلطكم ﴿شِيَعٗا﴾ أحزابا فيجعل بينكم العداوة والبغضاء فيقتل بعضكم بعضًا، ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ من القتل والهجر والضرب وغير ذلك، ﴿انظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ﴾ نبين ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالة على وحدانيته وعظمته وعلو شأنه، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ يفهمون ما يُلقى عليهم فيستفيدون.

وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في البخاري: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»**، قَالَ: ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾، قَالَ: **«أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»**، ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«هَذَا أَهْوَنُ - أَوْ هَذَا أَيْسَرُ»** أخرجه البخاري(٤٦٢٨).

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ بالقرآن، ﴿قَوۡمُكَ﴾ قريش، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾ أي: من الله عَزَّوَجَلَّ، لا خلف لوعده، ولا كذب في خبره، ولا تناقض فيما فيه، ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦﴾ فأجازيكم عن إعراضكم وهو كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية:٢١-٢٢].

﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ﴾ خبر من أخبار القرون، ﴿مُّسۡتَقَرّٞ﴾ حقيقة ومنتهى يُنتهى إليه، ومن ذلك أخباركم وما يكون من شأنكم ﴿وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ حين ينزل بكم العذاب، ويقع لرسول الله ﷺ الظهور، الصادق في خبره من الكاذب في قيله، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقطع المتقولين عليه، كما

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧]، فإما أن تظهر هذه الحقيقة في الدنيا بتنكيل الله عَزَّوَجَلَّ بهم، وإما أن يكون في الآخرة حين يخزيهم الله عَزَّوَجَلَّ على رؤوس الأشهاد ويُنادى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالاستهزاء وغير ذلك، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فاتركهم ولا تُجالسهم، ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أي: يحدثوا توبة مما هم فيه من الباطل، ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فينسينك المنابذة لهم وتجلس معهم،، ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فإذا ذكرت فاهجرهم ولا تجلس ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وإن كان المراد بهذه الآية أهل الكفر إلا أنها عامة، وهي أصل في هجر أهل البدع.

وهجر أهل البدع إجماع من أهل السنة، نقله غير واحد من أهل العلم، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ [الكهف:٢٨]، مفهومه هجر المخالفين فعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَلَا يَزَالُ بِهِ لِمَا مَعَهُ مِنَ الشُّبَهِ حَتَّى يَتَّبِعَهُ**» أخرجه أحمد(١٩٨٧٥)، وعند أهل البدع نوع دجل فيهجرون لذلك.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ من آثام الخائضين والمستهزئين بالدين من شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]، فكل واحد يُحاسب علىٰ عمله، ﴿وَلَٰكِن﴾ عليهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ ذكروهم

وعظوهم بالقرآن، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عن الخوض في الباطل والنصرة له، ولعلهم يستجيبون وينزجرون، والواقع أن الكفار قليلُ حياء مع الله عَزَّوَجَلَّ ومع عباده؛ ولهذا جاء في حديث أبي مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَىٰ: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**» أخرجه البخاري(٦١٢٠).

﴿وَذَرِ﴾ اترك، ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾ الذين كلفوا به ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ يلعبون بدينهم علىٰ أهوائهم ويستهزؤون بهم، بخلاف حال المسلم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران:٨٣]، ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾ [الحج:٣٤]، ﴿وَذَكِّرۡ﴾ عظ ﴿بِهِۦ﴾ بالقرآن، ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ﴾ تُسلم للهلكة، ﴿بِمَا كَسَبَتۡ﴾ ما عملت كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ:٣٠]، ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس لتلك النفس من دون الله، ﴿وَلِيّٞ﴾ قريب يدافع عنها وينافح، ﴿وَلَا شَفِيعٞ﴾ يشفع لها في الآخرة، ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ﴾ تُفدىٰ كل فداء لا يقبل منها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـَٔاوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥﴾ [المعارج:١١-١٥]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ﴾ أُسلموا للهلاك، ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾، ماء بالغ نهاية الحرارة، كما قال تعالىٰ: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٦﴾ [الدخان:٤٥-٤٦]، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ موجع، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ بسبب كفرهم وإعراضهم.

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿قُلْ﴾ أنعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ بعبادته في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ بترك عبادته في الدنيا ولا في الآخرة؛ لعجزها عن ذلك وهي الأصنام، ﴿وَنُرَدُّ﴾ نرجع ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ القهقرىٰ إلىٰ الشرك مرتدين كافرين برب العالمين، ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلىٰ الإسلام، ومن دعاء المؤمنين: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف:٤٣]، والذي يرجع: ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾ أظلته ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ وردته علىٰ عقبه، ﴿فِي الأَرْضِ﴾ كالمسافر في الأرض أضلته الشياطين عن طريقه، ﴿حَيۡرَانَ﴾ لا يدري أين يتجه، وهو ما كان يُسمىٰ بالغيلأن، فربما تأتيهم الغيلأنَّ وتضلهم الطريق، ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ﴾ رفقة ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾ ليهدوه ﴿ائْتِنَا﴾ فلا يجيبهم ولا يستمع لهم لأعراضه، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ الطريق الصحيح يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا، ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾ لنستسلم بالتوحيد ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة، ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ راقبوه بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ تجمعون يوم القيامة فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ﴾ بالعدل فكيف تخالفون الحق وتعبدون الأصنام، ﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾ يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ الذي لا خلف فيه، والواقع الذي لا يختلف ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ المُطلق، ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل للإعادة بعد الوفاة، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كِلْتَا يَدَيِ اللهِ يَمِينَانِ، فَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ فَيَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ قَالَ: ثُمَّ يَأْخُذُ الْأَرَضِينَ بِيَدِهِ الْأُخْرَىٰ، وَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**» متفق عليه، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الأعين، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما ظهر للأعين، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في حكمه وقضائه، وجميع ما يصدر عنه ﴿الْخَبِيرُ﴾ بكل شيء من الظواهر والبواطن، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ:٣].

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ٨٢ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ ابن آزر، لا كما يقول بعضهم: بأن آزر هو عم له، فهو أبوه كما هو ظاهر القرآن، وتفسير القرآن بظاهره أولى من تفسيره بأقوال تحتاج إلى دليل، وقد اختلفوا في اسم آزر فقيل: آزر لقب، وقيل: اسم، وقالوا: اسمه تارخ، وقيل: بأنه عبارة عن سب وعيب، وقيل غير ذلك.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لا تَعْصِنِي؟! فَيَقُولُ لَهُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لا أَعْصِيكَ...** »، أخرجه البخاري(٣٣٥٠).

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ كالمنكر عليه أتعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ حجارةً صماء لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنك شيئًا، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾ رؤيا علم وعين ﴿وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ من عبادتهم للأصنام وكفرهم برب الأنام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأي ضلال أعظم من ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ٦﴾ [الأحقاف:٥-٦].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ كما أريناه بالبصيرة في دينه والحق في خلاف قومه نريه: ﴿مَلَكُوتَ﴾ ملك ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وتدبر السماوات الواسعات، والأرض المبسوطة، ﴿وَلِيَكُونَ﴾ بهذه الرؤية ﴿مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ بما هو عليه من الإيمان والتوحيد، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ تعرف علىٰ عباده بآياته الكونية والشرعية، فمثل الآيات الكونية: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ﴾ [فصلت:٣٧]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤﴾ [المؤمنون:٨٤]، ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل:٦٠]، في آيات كثيرات، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، فالتفكر في آيات الله الكونية والشرعية تزيد الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة:٢٦٠].

﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ أظلم ﴿عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ وغشاه وغطاه، ﴿رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ قيل هي الزهرة؛ لأنَّ الكواكب لصغرها عن الشمس والقمر لا تُرىٰ إلا بالليل، والقمر قد يُرىٰ بالنهار لكن لا ضوء له، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ علىٰ تقدير: أهذا ربي؟ لأنَّ الأنبياء لم يكونوا علىٰ شك في ربهم لا قبل النبوة ولا بعدها، ولكن قيل هذا علىٰ سبيل التهكم كما يقول بعضهم إذا أدب ولده من أجل شيء: هذا كذا، كالمنكر عليه لا الآمر به، وقيل هذا ربي في زعمكم ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ الكوكب وغاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ أن اتخذها أربابا من دون الله عَزَّوَجَلَّ فهم كانوا يعبدون الكواكب ويعتقدون تصرفها في الكون، فهو يقول لهم: انظروا إلىٰ إلهكم الذي تعبدونه من دون الله يأفل ويغرب، ومثله لا يكون إلهًا لنزول الحوادث به.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ طالعًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ على التقدير الأول: أهذا ربي؟، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غرب، ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾ أي: لئن لم يثبتنِ ربي على هذا الدين القويم والصراط المستقيم فالهداية هنا: مزيد الهداية، مزيد الثبات، مزيد العون، ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: عن الهدى، والمعنى: لأكونن من الكافرين.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ وهي أكبر الأجرام التي إذا ظهرت غطت غيرها؛ لعظم نورها وشدة حرارتها، ﴿قَالَ هَـٰذَا رَبِّى﴾ يعني: أهذا الضياء والنور ربي ؟ ولم يقل: هذه ربي، إشارة إلى الضياء والنور، ﴿هَـٰذَآ أَكْبَرُ﴾ يعني: إن كنتم تعتقدون أن الأحق بالألوهية الأكبر فالشمس أكبر من الكوكب والقمر: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ غربت، دل على أنها محتاجة إلى غيرها، ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ﴾ ناداهم كالمنذر لهم، ﴿إِنِّى﴾ إنني ﴿بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وهذه البراءة قد ذكرها لله في مواطن من القرآن وأمرنا الله أن نتأسى بإبراهيم فيها، كما قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]، فالبراءة من المشركين ومما يعبدون واجبة، ولا إسلام إلا لمن تبرأ من الشرك والمشركين.

ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن حال إبراهيم وما هو عليه: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ قصدت بعبادتي ﴿لِلَّذِى فَطَرَ﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ آخذًا بالتوحيد مائلًا عن الشرك والتنديد، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المنددين تأكيد لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ على من يفسرها بالنفي: وهي معنى لا إله إلا الله على من يفسرها بالإثبات.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ خاصموه وجادلوه في دينه، ﴿قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى﴾ تجادلونني ﴿فِى اللهِ﴾ في الله الذي وجوده ظاهر، وأحقيته بالعبادة ثابتة عقلًا وشرعًا، ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ للإسلام والتوحيد الخالص، ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ كأنهم هددوه بالأصنام، كقول بعضهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٤]، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ من المكروه فلن يصيبني إلا ما قدره الله عَزَّوَجَلَّ وقضاه ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء يحفظ عباده وينصرهم ويعينهم، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون فيكون لكم عبرة في ملازمة التوحيد والبعد عن الشرك والتنديد.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ بالله من الأصنام والأوثان الصماء البكماء التي لا تبصر، ولا تسمع، ولا تضر، ولا تنفع، ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾ والحال أنكم لا تخافون ﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ نددتم وجعلتم له شريكًا، ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ بعبادته ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ حجة وهذه صفة كاشفة، وإلا فإن الشرك لا سلطان له ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ الصنفين، ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ في الدنيا والآخرة، أهل التوحيد أم أهل الشرك والتنديد؟ الجواب: أنهم أهل التوحيد، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بحقيقة الحال والمآل، ولكن من جهل الله عَزَّوَجَلَّ جهل نفسه وغيره.

﴿ٱلَّذِينَ آمَنُواْ﴾ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وحققوا ما طلب منهم، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾ يخلطوا، ﴿إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بشرك، كما فسرها النبي ﷺ، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم﴾ [الأنعام: ٨٢]، إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «**لَيْسَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**» متفق عليه.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ التام في الدنيا والآخرة، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلىٰ الحق ثابتون عليه في الدنيا والآخرة.

والاهتداء التام هو الذي يبلغهم إلىٰ رضوان الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ والأمن أمنان:

أمن مطلق: وهو لأصحاب الإيمان الكامل ومُطلق الأمن: لأصحاب الإيمان الضعيف، كما قال ابن القيم: الحصة بالحصة، من كان إيمانه كاملًا كان أمنه كاملًا، ومن كان إيمانه ناقصًا كان عنده من الأمن بقدر إيمانه.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ البراهين القاطعة ﴿ءَاتَيْنَـٰهَآ﴾ أعطيناها ﴿إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ فخصمهم وفلجهم بها، وكما رفعنا إبراهيم بالحجة ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالهداية إلى الإسلام،

كما قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة:١١]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في فعله ﴿عَلِيم﴾ بحال عباده وبمن يستحق هذه الرفعة ممن لا يستحقها.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾ أعطينا ﴿لَهُ﴾ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منةً وفضلًا من الله، حيث كان وحيدًا فصار له ذرية، بل إن جميع الأنبياء والمرسلين بعده يعودون إليه، وهذا أمر يرغب الإنسان فيه: أن يكون من ذريته الصلحاء حتى أهل الدنيا يرغبون في أن يكون من ذريتهم الملوك والأمراء والتجار، فكل يرغب بما هو فيه، ﴿إِسْحَقَ﴾ ولده من سارة، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن ولده إسحاق، ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وفقنا وأرشدنا لسبيل الخير، ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ هداه الله عَزَّوَجَلَّ ووفقه واختاره واصطفاه واجتباه من قبل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ قيل: من ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ابن داود، ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ كلهم ينتسبون إلى إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يجازيهم الله بالإحسان في دنياهم وأُخراهم.

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ من ذرية إبراهيم، ﴿وَيَحْيَى﴾ ابن زكريا، وهو وعيسى ابني خالة، ﴿وَعِيسَى﴾ ابن مريم ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ يقال ابن أخي هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ وقيل من ولد إسماعيل وقد تقدم أن بعضهم يقول إلياس هو إدريس وبعضهم ينفي ذلك؛ بسبب أنهم يقولون إن إدريس بين آدم

ونوح، هذا على قول الإخباريين، أما ظاهر القرآن فيدل على أنه ليس بين آدم ونوح من رسول، فإن نوحًا أول رسول إلى أهل الأرض، وإدريس رسول، وغاية ما اعتمد عليه النسَّابون، والإخباريون الإسرائيليات، ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِّنَ الصَّالِحِين﴾.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، جد النبي ﷺ، ﴿وَالْيَسَعَ﴾ ابن أخطوب ابن العجوز هكذا يقولون، ﴿وَيُونُسَ﴾ ابن متى، ﴿وَلُوطًا﴾ ابن هارون ابن أخي إبراهيم، ﴿وَكُلاًّ﴾ منهم ﴿فضَّلْنَا﴾ بالنبوة والرسالة ﴿عَلَى الْعَالَمِين﴾ أي: عالمي زمانهم، وأما بعد مبعث النبي ﷺ فهو أفضل الناس، وأكرمهم، وأشرفهم، وأمته أفضل الأمم.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ آباء من ذُكِر، ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ الأبناء ومن إليهم، ﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي هديناهم ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ حيث اختارهم الله واصطفاهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ وفقناهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم﴾ الإسلام الخالص الموصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ذَلِكَ﴾ الدين الذي هدوا إليه، هو ﴿هُدَى اللهِ﴾ دين الله، ﴿يَهْدِى بِهِ﴾ يوفق له، ﴿مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ﴾ من علمه أهلًا للهداية، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ﴾ وكفروا ونددوا، ﴿لَحَبِطَ﴾ لبطل وذهب، ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة، وهذا في الشرك الأكبر، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، وأما الشرك الأصغر فإنما يحبط العمل الذي يُداخله، وإذا كان هذا التهديد في حق هؤلاء الأنبياء، إن حصل منهم ذلك وحاشاهم، فكيف بحال من وقع في الشرك والتنديد، من عباد القبور وغيرهم، حيث صرفوا لهذه القبور العبادات والنذور والدعوات، ألا ساء ما كانوا يعملون.

﴿أُوْلَـٰئِكَ﴾ من تقدم ذكرهم من الأنبياء والمرسلين ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ أعطيناهم ﴿الْكِتَابَ﴾ المنزل من عنده، ولكل رسول كتاب كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ﴾ [الحديد:٢٥]، ﴿وَ﴾ آتاهم ﴿الْحُكْمَ﴾ العلم والفقه والسنة، ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ المرتبة العالية نبأهم الله بالوحي، وأمرهم بتبليغ دين الله

عَزَّوَجَلَّ، وفي حديث أبي سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنبِيَاءُ**» أخرجه مسلم (١٨٤٢).

﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا﴾ بالحكم والنبوة ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ كفار مكة، ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا﴾ هيأنا ﴿بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ وهم المهاجرون والأنصار ومن إليهم ممن هداهم الله عَزَّوَجَلَّ، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال ﷺ: «**لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ بِالثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ**» أخرجه مسلم(٢٥٤٦).

وفعلًا نصر الله عَزَّوَجَلَّ الإسلام بأهل اليمن وبأهل فارس في زمن من الأزمان، فمنهم المحدثون، والعلماء، والمصنفون، وأغلب أصحاب الأمهات الست منهم إلا أنها في عصرنا تسلط عليها الروافض، فنشروا فيها الشرك والزور والفجور، والله المستعان.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ من تقدم ذكرهم، ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ وفقهم، فالتوفيق بيده يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ أي: بسنتهم وسيرتهم، ﴿ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ أي اهتد وسر عليها وخذ بها.

۞ وفي هذا وجوب متابعة الأنبياء والمرسلين لا سيما فيما هو من المتفق عليه من العقيدة والتوحيد، وأما الشرائع فلا يجب علينا إلا ما جاء به النبي ﷺ.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ أطلبكم ﴿عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ في دعوتي، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس:٧٢]، ﴿إِنۡ هُوَ﴾ القرآن ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ﴾ موعظة ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ أهل التكليف من الجن والأنس.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾.

﴿وَمَا قَدَرُواْ﴾ أي: اليهود ومن شابَهَهُمْ لم يعظموا ﴿اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حق تعظيمه كما ينبغي لجلال وجه العظيم، وسلطانه القديم، وقيل ما عرفوه حق معرفته ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ للنبي ﷺ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾ من وحي وهذا الجحد منهم ليتمكنوا من جحد القرآن وهيهات لهم ذلك؛ فقد دلت الدلائل الكثيرة من القرآن، والسنة، على أنه أنزل الكتب على أنبيائه ورسله، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ﴾ فيها نور، وهداية للطريق القويم وللصراط المستقيم، ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ مكتوبا في ﴿قَرَاطِيسَ﴾ دفاتر، ﴿تُبْدُونَهَا﴾ إذا وافقت أهوائكم، ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ﴾ كما أخفوا آية الرجم وصفة النبي ﷺ، ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ من هذا الكتاب الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ﴾ قبلكم ﴿قُلِ﴾ لهم الذي أنزل التوراة، وأنزل الأنجيل، وأنزل القرآن، ﴿ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ اتركهم ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ باطلهم ﴿يَلْعَبُون﴾ يستهزؤن ويسخرون، حتى يأتيهم عذاب الله وبطشه.

﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن، هو ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ إليك يا محمد، ﴿مُبَارَكٌ﴾ فيه بركة في قراءته، وبركة في أخباره، وبركة في أحكامه، وبركة في أجوره، وفي الاستشفاء به ﴿مُّصَدِّقُ﴾ موافق ﴿الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والأنجيل التي لم تحرف، وأما المُحرف المُغير المُبدل فليس من وحي الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ ولتحذر بهذا القرآن ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ وهي مكة،﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وسُميت بأم القرى؛ لأنَّ الأرض دحيت من تحتها فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل، وأراد أهل القرى، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يقرون ﴿بِالآخِرَةِ﴾ باليوم الآخر وبوعد الله ووعيده، ﴿يُؤْمِنُونَبِهِ﴾ بالقرآن، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ الصلوات الخمس المفروضات، ﴿يُحَافِظُون﴾ يداومون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ولا ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ اختلق ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ وزعم أنه من وحي الله وليس كذلك، ﴿أَوْ قَالَ﴾ كاذبا ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ وإنما هو كاذب كحال مسيلمة الكذاب ومن إليه، ﴿وَ﴾ لا أظلم أيضًا ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهو كاذب، فإنهم وإن قالوا ببعض الأقوال يظهر فيها الخلل، في تركيبها، وأخبارها، وأحكامها، بينما كتاب الله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢].

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ومن معك، ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ سكرات الموت حين ينزل بهم، ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾ ملائكة الموت ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ إلىٰ الكفار بالضرب ونحوه، يضربونهم مع قولهم لهم ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ تخرج كارهة كما في حديث البراء: ينتزع معها كل عرق وعصب، ﴿الْيَوْمَ﴾ عند الموت ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الهوان.

۞ وبهذه الآية استدل بعض أهل العلم علىٰ إثبات عذاب القبر.

فإن سياقة الآية في ذلك، وأدلة إثبات عذاب القبر كثيرة من القرآن والسنة وعليه إجماع أهل السنة، ﴿بِمَا﴾ بسبب ما ﴿كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ بدعوىٰ النبوة والإلحاد، ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الشرعية ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلم تنقادوا لشرعه ولم تمتثلوا أمره.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ يوم القيامة، وجاء به بهذه السياقة؛ لأنه متحقق وقوعه، ﴿فُرَادَى﴾ كل واحد مع نفسه، ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حين يخرج الإنسان من بطن أمه فردًا لا مال له ولا قدرة، فهكذا الإنسان يوم القيامة، وأول من يُكسىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً**

عُرَاةً غُرْلًا، ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] **أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَىٰ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ» متفق عليه.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**» متفق عليه.

﴿وَتَرَكْتُم﴾ خلفتم، ﴿مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ما أعطيناكم من الأموال، والأولاد، والخدم، والحشم، ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ﴾ خلف ظهوركم، عند موتكم فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَىٰ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ، وَمَالُهُ، وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَىٰ مَعَهُ عَمَلُهُ**» متفق عليه.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ آلهتكم ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ عبدتموهم من دون الله على ﴿أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ تقربكم من الله، وتشفع لكم عنده ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ﴾ الوصل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وبين أنصابكم وأوثانكم، ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ بعد وغاب، ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: من نفع هذه الآلهة، وهذه من أشد مواقف التبكيت لهم، والله المستعان.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

هذه آيات تعرف الله عَزَّوَجَلَّ بها علىٰ عباده وعرفهم بنفسه، وأظهر من عجائب قدرته، ومن عجائب صفاته ما يستبصر بها كل ذي عقل سليم وفطر قويم، وإنما يُعرض عن ذلك أصحاب القلوب المنكوسة والفطر المعكوسة، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَالِقُ﴾ شاق ﴿الْحَبِّ﴾ عند النبات، ﴿وَالنَّوَىٰ﴾ عن النخل ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ قيل: الزرع من الحبة، أو الديك من البيضة، والإنسان من النطفة ونحو ذلك، ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ﴾ النطفة والبيضة ﴿مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ﴾ الفالق والمخرج ﴿اللَّهُ﴾ المتصف بهذه الصفات فلا يعجزه شيء، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن الحق، وهذا لا يكون إلا بسبب أعراض شديد.

﴿فَالِقُ﴾ شاق ﴿فَالِقُ﴾ عمود الصبح عن ظلمة الليل، وهو أول ما يبدوا من النهار يريد مبدأ الصبح ويوضحه، ﴿وَجَعَلَ﴾ صير ﴿اللَّيْلَ﴾ المظلم ﴿سَكَنًا﴾ تسكن فيه الخلائق، كما قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان:٤٧]، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ حسابا للأوقات فالقمر والشمس تجري بحساب معلوم لا يجاوزانه حتى ينتهي إلى أقصى منازلهما، والحسبان مصدر كالحساب، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْعَلِيمِ﴾ بخلقه فهو تعالى العزيز الذي لا يُغلب، والعليم الذي لا يجهل.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ في حال أسفاركم وتعلمون بها قبلتكم فتجد بحرًا واسعا، وصحراء مترامية، وإذا لم يكن للإنسان علامات لتاه وضاع، ومع ذلك ينظر إلى الأفق فإذا به يعلم أين يتجه وأين يسير، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بينا ﴿الآيَاتِ﴾ الحجج ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لمن كان له علم وبصيرة وهدى، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم﴾: خلقكم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الرحم إلى أن يولد، ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في القبر إلى أن يُبعث، وقيل: مستقر في أرحام الأمهات، ومستودع في أصلاب الآباء، وقيل العكس، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بيننا ووضحنا ﴿الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ يفهمون ما يقال لهم فدلَلَ الله على عظيم قدرته بخلقه لهذا الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

﴿٢١﴾ [الذاريات:٢١]، وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب ﴿مَاءً﴾ لو طلبوه عجزوا عنه إذا غَار في الأرض، ومع ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٢١]، فينبت به الثمار، ويحيي به الأرض بعد موتها، وتمتلئ به الآبار، ويُلطف به الجو، ويحصل فيه من البركات ما الله به عليم، وقد حاولوا في بعض الدول أن يصنعوا سحابًا صناعيًا لكن مهما صنعوا فهم عاجزون، ما عسى السحب الصناعية أن تفعل؟ تغطي مساحة يسيرة بينما الله عَزَّوَجَلَّ إذا قال لها تمطر أمطرت، وتغطي القفار، والوهاد، والجبال، والأنهار، وهل يكون فيما يفعلونه بركة ماء المطر، الله أعلم، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ﴾ ينبت ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، فالحياة عائدة إلى الماء، ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي النبات ﴿خَضِرًا﴾ زروعًا خضراء في لينها، رطبة في تركيبها، حلوة في طعامها، ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من هذا الزرع الأخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ تلقي حبة في الأرض شعيرة أو من حبات الذرة أو غير ذلك فإذا بها تخرج متراكبة تأتي بمئات الحبوب، ﴿وَ﴾ يخرج ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾ أول ما يخرج منها فالنخل فيه آيات بينات في طوله، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق:١٠]، في طلعه، وطعمه، وفاكهتُها إن شئت أن تكون فاكهة، وإن شئت أن تكون طعاما، ونفعها متنوع؛ وقد مثل النبي ﷺ المؤمن بها في نفعه، فعن عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ فَقَالَ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**» قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قَالَ: لأَنْ تَكُونَ قُلْتَ: هِيَ النَّخْلَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا» متفق عليه.

﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع قنو وهو العِذق، ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة المتناول ينالها القائم والقاعد، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُتَدَلِّيَةٌ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: قِصَارٌ ملتزمة بِالْأَرْضِ، وَفِيهِ اخْتِصَارٌ مَعْنَاهُ: وَمِنَ النَّخْلِ مَا

قِنْوَانُهَا دَانِيَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ بَعِيدَةٌ، فَاكْتَفَىٰ بِذِكْرِ القريبة عن البعيدة لسبقها إِلَىٰ الْأَفْهَامِ، ﴿وَ﴾ أخرجنا بالماء ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ جمع جنة، ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ الشجرة المباركة يؤكل من ثمرها ويدهن بزيتها، ﴿وَالرُّمَّانَ﴾ شجرة مباركة وهي من ثمار الجنة، ﴿مُشْتَبِهًا﴾ في لونه، ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ مختلف في طعمه، فالرمان نوع من حيث الخلقة ولكن من حيث الطعم منه المز، والمر، والحلو، والحامض، ومنه الأحمر، والأبيض وغير ذلك، ﴿انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ والمراد به نظرة تفكر وتدبر وتعقل، ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ في أوله وما فيه من الجمال، ﴿وَيَنْعِهِ﴾ في حال نضجه وإدراكه، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ﴾ الآيات ﴿لَآيَاتٍ﴾ علامات، ودلائل، وحجج ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ﴾ يريد المشركين ﴿شُرَكَاءَ﴾ في عبادته ﴿الْجِنَّ﴾ الشياطين ﴿وَ﴾ قد ﴿خَلَقَهُمْ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ وأوجدهم من العدم، وهذا فعل منهم سيء كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم:٢٢]، ﴿وَخَرَقُوا﴾ اختلقوا ﴿لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أضافوا إليه البنين والبنات تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، فزعموا أن الملائكة بنات الله وأن عيسى وعزيرًا ابناء الله، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ تنزيها له ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، بأن له ولدًا وصاحبة، قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرا عن مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن:٣].

ومن شانه تعالى أنه ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾ مبدع وخالق ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وموجدها من غير مثال سابق، ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ زوجة، وحالهم كما قال

الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩١-٩٣]، فإنما يحتاج الولد المخلوق الضعيف الذي يمرض ويعجز ويموت، فيحتاج من يرثه ويخدمه، أما الله عَزَّوَجَلَّ فهو الغني الحميد، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات، ويدخل فيها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما عبدوه من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي: الذي تقدمت صفته ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وخالقكم وموجدكم والمتصرف فيكم، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كما أنه لا خالق ولا رب سواه، كذلك لا معبود بحق سواه.

۞ وبهذا تعلم أن توحيد الربوبية يُستدل به علىٰ توحيد الألوهية، وأن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، فيجب علىٰ كل مكلف أن يكون عبدًا لله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له في خلقه وملكه وتدبيره، ولا شريك له في عبادته.

﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات ولا يدخل في هذا العموم صفات الله عَزَّوَجَلَّ، ولا القرآن فهو صفته، فإن كل تفيد العموم بحسبها، كما قال تعالىٰ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]، والمساكن أشياء ما دمرتها، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ افردوه بما يجب له دعاءً، ورجاءً، وتوكلًا، ورغبةً، ورهبةً، وخشية، وإنابة، وخوفًا، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ بالحفظ والتدبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولما ذكر من صفات الله عَزَّوَجَلَّ وآياته البينات ما ذكر، قطع عن كل متهوك في البحث عن الكيفية والماهية أن يتوصل إليها، فقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ لا تحيط به ﴿الْأَبْصَارُ﴾ لعظيم سعته، ولعظيم كبره، ولعظيم جلاله، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه:١١٠]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ محيط بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت:٥٤]، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ بأوليائه مع علمه بهم وإحاطته بجميع شأنهم، ﴿الْخَبِيرُ﴾ العليم بالبواطن والظواهر.

۞ وبهذه الآية يستدل أهل السنة والجماعة علىٰ إثبات رؤية الله عَزَّوَجَلَّ.

ويستدل بها أهل البدعة والشناعة علىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُرىٰ يوم القيامة، والصواب مع أهل السنة والجماعة؛ وذلك أن الإدراك رؤيا وزيادة، فالمؤمنون يرون الله ولا يحيطون به، ودليل هذا المعنىٰ في التنزيل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾[الشعراء:٦١-٦٢]، فنفىٰ موسىٰ الإدراك ولم ينفِ الرؤية.

فالآية كما قال شيخ الإسلام، ومثله ابن القيم وغيره من المتقدمين والمتأخرين: دليل علىٰ إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، والأدلة في هذا الباب متنوعة ومتكاثرة ومنها حديث جرير قال كنَّا عند رسول الله ﷺ: فَنَظَرَ إِلَىٰ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «**أما إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَزَّوَجَلَّ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**» متفق عليه، وقال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢]، من النضارة والبهاء: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٣]، بعيني رأسها، وقال تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق:٣٥]، وقد فسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلىٰ وجه الله عَزَّوَجَلَّ، علىٰ ما يأتي إن شاء الله في سورة يونس.

﴿قَدْ جَاءكُم﴾ يا معاشر قريش ومن إليهم، ﴿بَصَائِرُ﴾ حجج وبراهين تبصرون به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ خالقكم ومالككم، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ ها واهتدى، ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ والله غني عنه وعن طاعته، كما في حديث أبي ذر القدسي: «**لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**» أخرجه مسلم(٢٥٧٧)، ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ تعامى عنها فضل وصُرف عن الهداية، ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي: فعلى نفسه يُجازى على سوء عمله، ﴿وَمَا أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ برقيب أحصي عليكم أعمالكم، إنما أنا رسول أبلغكم البلاغ، والله عَزَّوَجَلَّ الحفيظ

والشاهد على جميع أعمالكم، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧].

﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما بيننا ما ذكر ﴿نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ ونفصلها ونجليها، ليعتبروا ويستجيبوا ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ الكفار بعد هذه الحجج معارضين لها ﴿دَرَسْتَ﴾ قرأت الكتب السابقة، وأخذت منها ما تبلغهم إياه، بمعنى: أنه ليس برسول كريم، وهذا دليل على شدة المكابرة والإعراض ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ نظهر هذه الآيات وهذه الحجج ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يهتدون وهم أهل الإسلام الحق، الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وهذا من رحمة الله بعباد: أن أنزل الكتب، وأرسل الرسل؛ لإقامة الحجج، فلو تركهم في عميتهم لتسلطت عليهم الشياطين وأزتهم إلى الشرك أزًا.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿اتَّبِعْ﴾ يا محمد ﴿مَا أُوحِيَ﴾ أنزل ﴿إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآن واعمل به، ﴿لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ المعبود بحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ كن في نأي وبعد عن المشركين فلا تشغل نفسك بمجادلتهم بعد إقامة الحجة.

﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ﴾ كونًا ﴿مَآ أَشْرَكُواْ﴾ بل لكانوا مؤمنين، ولكن اقتضت حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكون المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولا حجة لهم في الاستدلال بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ فإنهم قد قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، فما قبل الله

ذلك منهم، بل أكفرهم وأمر بقتلهم وقتالهم ما داموا على حرابهم إلا أن يتوبوا، ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ برقيب ومحاسب، وإنما أنت رسول الله ﷺ يلزمك البلاغ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية:٢١-٢٢].

۞ وفي هذه الآية تسلية من الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ، كما هي تسلية لجميع الدعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر:٨]، فلو شاء الله لكانوا علىٰ هدىٰ، لكن خذلهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لعلمه بحالهم، فالأمر إلىٰ الله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟﴾ تشتموا يا معاشر المسلمين ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غير الله عَزَّوَجَلَّ وهذا باب سد الذرائع وهو باب عظيم، سواء ذرائع البدع، أو الشركيات، أو المعاصي، والشرور، فمسبة الكفار ومسبة دينهم وإن كانت تجوز في نفس الأمر فإنهم على حال سيء لكن لما يؤول إليه مُنع منه؛ لأنك إذا سببته ربما سبك، وإذا قبحت دينه قبح دينك، وإذا سببت آلهته سب ربك؛ فلذلك مُنع المسلم من سب آلهتهم، ولا حرج إذا كان في موطن مناظرة كما فعل إبراهيم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٧]، لكن إذا كان الأمر سيؤدي إلى مسبة الله ومسبة رسوله ﷺ فليبتعد المؤمن عن ذلك، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**مِنَ الْكَبَائِرِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قَالُوا: وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ**» متفق عليه، فكيف بسب الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَيَسُبُّوا۟﴾ يتنقصوا ﴿ٱللَّهَ عَدْوًۢا﴾ ظلمًا وجورًا ومجاوزة، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لجهلهم، بحق ربهم، قال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فنهاهم الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك؛ لأنَّ لا يسبوا الله فإنهم قوم جهلة، ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا﴾ حسنا فكما زينا لهؤلاء ما هم عليه من الشر، وهذا التزيين قدري كوني لا شرعي، فالشرعي في قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ

وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ [الحجرات:٧]، فالمبطل يرىٰ أنه علىٰ شيء وليس علىٰ شيء، وهذه فتنة لهم، بحيث يصبحون عميًا مع وجود الأبصار، وصمًا مع وجود الأسماع، وقلوبهم غلفًا مع أنها تنبض بالدم ونحوه فزُين ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ جماعة ﴿عَمَلَهُمْ﴾ وإن كان سيئا.

۞ وفي هذه الآيات دلالة علىٰ الإيمان بالقدر، وأن الهدىٰ والضلال بيد الله عَزَّوَجَلَّ، يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ يوم القيامة بالبعث والنشور، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس:٥١]، ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ فيخبرهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ويجازيهم بأعمالهم.

﴿ وَأَقْسَمُواْ ﴾ حلف الكفار ﴿ بِٱللَّهِ جَهْدَ ﴾ غاية ﴿ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: بالغوا في الأيمان وأغلظوا فيها فإنهم كانوا يعرفون الله بالجملة، وإنما كانوا يشركون به ويندون، ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ ﴾ معجزة وعلامة على صدقك مما اقترحوا وطلبوا، والمراد بها الكونية مثل تسيير الجبال، وشق القمر، وتفجير الأرض ينابيع، كما سألوا رسول الله ﷺ، ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ومع ذلك كذبوا، سألوا النبي ﷺ أن يريهم آية فأراهم ذلك مرتين كما في حديث ابن مسعود فكان حالهم ما قال الله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر:١-٢]، يعني: سحر ملازم لنا، وقد قال الله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١]، لكن هذا من مغالطاتهم وتلبيسهم، ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ﴾ المعجزات والآيات الظاهرات ينزلها متى شاء ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ يدريكم ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ﴾ الآيات ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهذا هو الواقع، فرعون سأل موسى آيات وما انتفع كما قال الله: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٠-٢٤]، وقوم صالح سألوه آية فأتاهم بالناقة، فأعرضوا وكذبوا وهكذا كل مبطل.

﴿وَنُقَلِّبُ﴾ نحول ﴿أَفْئِدَتَهُمْ﴾ قلوبهم عن الحق فلا يقبلونه ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عن الحق فلا يبصرونه فيبقون في الضلالة، ويحول الله عَزَّوَجَلَّ بينهم وبين الإيمان لا ظلمًا منه ولكن لعلمه أنهم ليسوا أهلًا له كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال:٢٤].

۞ وهذا دليل علىٰ القدر، ورد علىٰ المعتزلة فالهدىٰ والضلال من الله، وحصل لهم هذا الزيغ.

﴿كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ﴾ بالقرآن وغيرها من الآيات، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ بسبب عنادهم ﴿وَنَذَرُهُمۡ﴾ نتركهم، ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ إعراضهم وبغيهم وضلالهم، ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يتمادون متحيرين، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [الحجر:٣].

﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ فرأوهم بأعينهم، ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ كما اقترحوا فشهدوا لله عَزَّوَجَلَّ بالألوهية ولرسول الله ﷺ بالنبوة، ﴿وَحَشَرۡنَا﴾ جمعنا ﴿عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ من المخلوقات التي يُحشر مثلها، ﴿قُبُلٗا﴾ جمع قبيل جماعات مثل القبائل، ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ ويستجيبوا لرسول الله ﷺ، وذلك لما سبق في علم الله عَزَّوَجَلَّ من ضلالهم ولقسوة وفساد قلوبهم، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لهم ذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ يجهلون هذا الأمر لجهلهم بالله، وقدره.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أعرض هؤلاء عن الحق، ﴿جَعَلۡنَا﴾ صيرنا ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ ممن سبقك ﴿عَدُوّٗا﴾ أعداء يتربصون به، ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ مردة شطوا عن الطاعة والتزموا المعصية، ﴿يُوحِي﴾ يوسوس له وقد حاول أذية النبي ﷺ شياطين الأنس كأبي جهل وغيره،

وشياطين الجن حيث كادوا أن يحرقوه بالنار وهو يصلي، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جعل رسول الله ﷺ يقول: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ ثُمَّ قَالَ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ، أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ، أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ**»، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ الصَلَاةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ، قَالَ: «**إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ، فَأَخَذْتُ بِحَلْقِهِ فَخَنَقْتُهُ، فَمَا زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ إِصْبَعَيَّ هَاتَيْنِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ آخُذَهُ، فَوَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَأَصْبَحَ مَرْبُوطًا بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ أَحَدٌ فَلْيَفْعَلْ**» أخرجه مسلم (٥٤٢).

﴿بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ الجني يوحي إلىٰ الأنسي، والأنسي يطيع الجني، ﴿زُخْرُفَ﴾ مموه ﴿الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ ليغروهم فيأتون بقول مزخرف يبطلون به الحق، ويحقون به الباطل، والمراد بالإيحاء هنا ما تقدم: أنه يلقي بعضهم إلىٰ بعض قولًا مزينًا مزوقًا؛ وذلك أن الباطل لا بد أن يزوق حتىٰ يُقبل، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ كونًا ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ الإيحاء المذكور، لكن لله حكمة بالغة وحجة دامغة يبتلي العبد المؤمن فيرفع درجاته، ويكفر عن سيئاته، ثم يظهر مقتضىٰ هذا الدين بالدعوة إلىٰ التوحيد، والتحذير من الشرك والتنديد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا اعتراض علىٰ قدر الله؛ ولذلك كان من عقيدة أهل السنة والجماعة الرضا بما هو من فعل الله، وعدم الرضا بما هو من فعل الإنسان إن كان باطلًا، وكما قيل:

وليس واجب علىٰ العبد ... بكل مقضي ولكن بالقضاء

﴿فَذَرْهُمْ﴾ اتركهم يا محمد، ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ من الباطل فيعاقبون عليه.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ إلى الباطل ﴿أَفْـِٔدَةُ﴾ قلوب ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾ فيقبلون هذا الكلام الباطل، ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ يكتسبوا، ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ ما هم مكتسبون من السيئات والبواطل التي لا ينتفعون بها وإنما تضرهم في الدنيا وفي الآخرة.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ .

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى﴾ أطلب ﴿حَكَمًا﴾ قاضيًا بيني وبينكم؛ فقد ذكر أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكمًا فأجابهم به، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿مُفَصَّلًا﴾ مبينًا موضحًا فيه الأمر والنهي والخبر وما يحتاج إليه، وأيضًا نزل مفصلًا في أوقات متفاوتة، ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى أصحاب التوراة والأنجيل ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ هذا القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق، ولكنهم جحدوا ذلك حسدًا وبغيًا وكبرًا حيث قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين في شأنهم فأمرهم واضح، وكفرهم ظاهر.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ الكونية والشرعية ﴿صِدْقًا﴾ في الأخبار، ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأحكام، فالله عَزَّوَجَلَّ أصدق قيلًا، وأحسن حديثًا، وأحكم الحاكمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ القدرية الكونية فلا بد أن تقع مهما مكر الماكرون،

وتغطرس المتغطرسون، وتنكر المتنكرون، فإن الأمر لله من قبل ومن بعد، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيم﴾ بأفعالهم فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته إلا إذا كان من المسلمين فهو تحت المشيئة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّه لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن﴾ [النساء:٤٨].

﴿وَإِن تُطِعْ﴾ يا محمد ﴿أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ من اليهود والنصارى وعباد الأصنام من المشركين، ﴿يُضِلُّوكَ﴾ يحرفوك ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ دين الله القويم والصراط المستقيم؛ لكثرة شبههم، واعتراضاتهم، ﴿إِن﴾ ما ﴿يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ في مجادلتهم لك، ﴿وَإِنْ﴾ ما ﴿هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُون﴾ يكذبون في أقوالهم وأفعالهم، فالكثرة لا تمدح إلا إذا كانت على الحق، وإلا فلا يلتفت إليها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ من ينحرف ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ عن طريقه الموصل إليه، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين﴾ فيجازي كل منهما على عمله، ﴿فَكُلُواْ﴾ الأمر للإباحة ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ من الحيوان حين ذبحه، وما كان من الصيد فيجزئ فيه الرمي مع اسم الله بشرط أن يخزق، ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ الشرعية ﴿مُؤْمِنِين﴾ منقادين، ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني: أي شيء يمنعكم ويحول بينكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ بين ووضح ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ من الحيوان.

۞ وبهذه الآية استدل جماهير العلماء علىٰ أن الأصل في الحيوان الإباحة، والمحرم مفصل، وقد فصل الله عَزَّوَجَلَّ المحرمات في مواطن من كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، كما تقدم الإشارة إلىٰ ذلك في تفسير سورة المائدة.

﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: ما أحل لكم علىٰ وجه الاضطرار بحيث يرىٰ الشخص من نفسه أنه ستلحقه الهلكة؛ لعدم وجود الطعام، أو الشراب، فيأكل بقدر ما يرفع الضرر، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الناس بسبب كفرهم ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ يهلكون ويحتارون ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ وآرائهم ﴿بِغَيْرِ

عِلْمٍ﴾ فيضلون عن الطريق المستقيم والصراط القويم؛ بتحريم ما أحل الله عَزَّوَجَلَّ كالبحيرة، والسائبة بغير علم أتاهم من الله عَزَّوَجَلَّ وإنما هو الهوىٰ والتقليد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الذين يجاوزون الحلال بتحريمه والحرام بأكله وتعاطيه.

﴿وَذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ علانيته وسره، فهذا أمر من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين أن يتركوا الذنوب الظاهرة والباطنة، وهذا عام في جميع الذنوب، فذنوب الجوارح منها الظاهر ومنها الباطن مثل: الغيبة، والنميمة، والسرقة، والزنى قد يكون ظاهرًا وباطنًا، ومثله ما يقع في القلوب من الحقد والحسد وغير ذلك، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ﴾ يعملون ﴿الإِثْمَ﴾ الذنب، ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة، ﴿بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ بما كانوا يكتسبون ويعملون في الدنيا، ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حتى وإن ذُبح من الأوداج وعلى أي حال إذا لم يسمَ الله عليه فهو ميتة لا يجوز تعاطيه.

❁ فتضمنت هذه الآيات: الأمر بالأكل مما سُمي الله عَزَّوَجَلَّ عليه، والتحضيض علىٰ الأكل مما سُميّ الله عليه، والنهي عن الأكل مما لم يسمَ الله عليه.

❁ **إلا أنهم اختلفوا فيمن نسي التسمية.**

❁ والصحيح: أنه يرفع عنه الإثم، لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وأما الأكل فلا يجوز أن تُؤكل بحال.

وأما حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند البخاري (٢٠٥٧): أَنَّ قَوْمًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لاَ نَدْرِي أَذَكَرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ أَمْ لاَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَمُّوا اللهَ عَلَيْهِ وَكُلُوهُ**».

فهذا في حق قوم الأصل في ذبائحهم الحل ثم تشككت فلك أن تقول: بسم الله وتأكل، أما إذا عُلم أنه لم يسم الله ثم تتعاطىٰ هذا الأمر فهذا لا يجوز، وهذا اختيار الشوكاني وكثير من المحققين.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ خروج عما يحل لأنه إما أن يُذبح علىٰ غير اسم الله كاسم الشيطان وغير ذلك، أو يهل به لغير الله، فلا تدخله الذكاة، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي: شياطين الجن والأنس، ﴿لَيُوحُونَ﴾ يوسوسون ﴿إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ الكفار ممن يطيعهم ويتولاهم، ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ يُخاصمونكم بالباطل في تحليل الحرام وغير ذلك، ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ﴾ في باطلهم؛ لتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ مثلهم وعلىٰ طريقهم.

۞ قال الزجاج: "وفيه دليل علىٰ أن من أحل شيئًا مما حرم الله أو حرم شيئًا مما أحل الله فهو مشرك". اهـ

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾.

﴿أَوَمَن كَانَ﴾ بالشرك، والجهل، والبدعة، ﴿مَيۡتٗا﴾ بالعلم والهدى والإسلام، ﴿فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي﴾ وهو الإيمان يستضيء به في الدنيا من حنادس ظلمات الشهوات والشبهات، ويستضيء به في الآخرة على الصراط، ﴿ٱلنَّاسِ كَمَن﴾ كمن هو﴿مَّثَلُهُۥ فِي﴾ ظلمات الجهل، والشرك، والبدعة، وهو هنا الكفر ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ﴾ يعني: لا يخرج من كفره؛ لأنَّ الله لم يرد له الهداية لعلمه بحاله.

۞ ففي هذا دليل علىٰ أن المؤمن حي وإن كان ضعيف الحال، حياة طيبة كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

﴿مِّنۡهَا﴾ كما زين للمؤمنين الإيمان ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ زوق لهم وحسن وحُبب إليهم عملهم فأصبحوا يتعاطونه ولا يتحرجون ولا يخافون ولا ينزجرون، ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ

﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي، وهذا التزيين قدري كوني، وليس معناه: أن الله يحب هذا الأمر؛ فهو تعالىٰ لا يحب الكفر والمعاصي.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾ صيرنا ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ مجمع من الناس، ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي أن الكفر والفسوق في كبرائهم، ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بأهل الإسلام فيحلون الحرام ويحرمون الحلال، ويتعاطون الشرك والبدع، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يتعاطون ما يكون سبب لهلاكهم وخزيهم وبوارهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يمكرون بأنفسهم وذلك بسبب تزيين الشيطان لهم سوء عملهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨].

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ أهل مكة ﴿آيَةٌ﴾ بينة من القرآن والوحي والنبوة، ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ﴾ به ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ من الرسالة والوحي والآيات وهذا علىٰ سبيل الكبر والحسد، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ومن يصلح لها كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بقولهم وكفرهم وجحودهم ﴿صَغَارٌ﴾ ذلة، ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وعند صالح الناس، ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ موجع إما في الدنيا بالقتل ونحوه، وإما في الآخرة في النار، ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم وبما كانوا يتعاطون من الظلم والفساد.

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا

وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ كونًا ﴿أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ أن يوفقه لسبيل الخير والرشاد، وأن يجعله مسلمًا ظاهرا وباطنًا، والمراد بالهداية هنا: هداية التوفيق، ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يفتح قلبه وينوره حتى يقبل الإسلام.

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ كونًا، ﴿أَن يُضِلَّهُۥ﴾ يحرفه عن الصراط المستقيم والطريق القويم، ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شديد الضيق فإذا سمع الخير ضاق، وإذا سمع الشر انشرح، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥]، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ كأنما يرتفع إلىٰ العلو، فإنه كلما ارتفع ضاق صدره، وقُرِئت: ﴿يَصْعَدُ فِى السَّمَاءِ﴾، أي: يشق عليه الإيمان كما يشق عليه صعود السماء، وأصل الصعود المشقة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧]، أي: عقبة شاقة، فكلما صعدت إلىٰ الجبل كلما ارتفعت وجدت ضيقًا في النفس، وليس فقط من قلة الأوكسيجين كما يُقال، بل من شدة العمل الذي يلحق الإنسان، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب والخذلأنَّ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يستجيبون لدين الله وأمره.

﴿وَهَٰذَا﴾ الذي أنت عليه يا محمد من الإسلام هو ﴿صِرَٰطُ﴾ طريق ﴿رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ إشارة إلى الإسلام أنه صراط الله المستقيم وطريقه القويم الذي ارتضاه لمحمد ﷺ الصادق الأمين، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، لا اعوجاج فيه، فمن استقام على المعنوي استقام على الحسي الممدود على متن جهنم، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بينا ﴿الآيَاتِ﴾ الحجج، وهو ما تقدم ذكره في الدعوة إلى التوحيد، ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتذكرون ويتعظون.

ثم قال مخبراً عن المسلمين المستقيمين المستجيبين لرب العالمين: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الجنة، فالسلام هو الله، والدار: هي الجنة أُضيفت إليه إضافة تشريف ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

❁ فيه إثبات صفة العلو، فإن من أوجه إثبات العلو العندية: فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**» متفق عليه.

وقيل سُميت دار السلام؛ لسلامتها من الآفات، ومن كل نقص، فلا نوم، ولا حزن، ولا عري، ولا حر، ولا قر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه:١١٨-١١٩]، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «**مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ**» أخرجه مسلم(٢٨٣٦)، والحال أنهم: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر:٥٥]، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ في الدنيا والآخرة، حيث أخرجهم من الظلمات إلىٰ النور في الدنيا، ونصرهم ومكن لهم وتولاهم في الآخرة بأن أكرمهم بالجنة، ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالهم.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يجمعهم ﴿جَمِيعًا﴾ الجن والأنس، ثم يقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ بإغوائهم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ استمتع الجني بالأنسي بحيث أنه أضله وأغواه، وفتنه وأرداه، واستمتع الأنسي بالجني بحيث أطاعه في معصية الله، ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا﴾ يوم القيامة، وهذا تحسر منهم ﴿ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: جعلته في وقت معلوم، ﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ مقامكم ومأواكم جميعًا، كفار الجن والأنس، فلا سبيل إلى الخلاص، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا.

❁ وهذا دليل علىٰ أبدية النار، وأنها لا تفنىٰ.

كما قال بعضهم:

ثَمَانِيَـة حكـم الْبَقَـاء يعمهـا مـن الْخلـق وَالْبَـاقُونَ فِـي حيّـز الْعَـدَم
هِيَ الْعَرْش والكرسي ونـار وجنـة وَعجب وأرواح كَذَا اللَّوْح والقلـم

﴿إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ﴾ هذا الاستثناء منقطع فيمن سبق أنه يخرج منها ممن دخلها من العصاة، فإن العصاة في النار لا يُخلدون كما هو معتقد أهل السنة والجماعة ،﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليم﴾ عليم بالذي استثناه بما في قلوبهم من البر والتقوىٰ، وحكيم فيما قدر من العذاب للكافرين، والرحمة للمؤمنين.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما تولى بعضهم بعضًا في الدنيا ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، على بعض مع أنهم يتبرأ بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨﴾ [الزخرف:٦٧-٦٨]، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُون﴾ بسبب ما كانوا يتعاطونه من الذنوب والمعاصي.

﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأنسِ﴾ نداء من الله عَزَّوَجَلَّ لمن أُدخل النار من الجن والأنس، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من بعضكم، أو من مجموعكم فالجن ليس منهم رسل وإنما منهم نذر، وهذه الآية كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ [الرحمن:٢٢]، مع أنه إنما يخرج اللؤلؤ والمرجان عند جماهير العلماء من البحر المالح لا العذب، وشرط الرسول: أن يكون ذكرًا، حرًا، إنسيًا، عاقلًا، بالغًا، فمن زعم أن من النساء رسل فقد أبعد كابن حزم والقرطبي، ﴿يَقُصُّونَ﴾ يتلون: ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ من القرآن والسنة ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ يحذرونكم، ﴿لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا﴾ ما يكون في يوم القيامة، ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا﴾ أخبرنا ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بلسان الحال أو المقال، فإن الله يختم على أفواههم وتشهد ألسنتهم وجوارحهم بما كانوا يعلمون، ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ فتنتهم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها، وشهواتها، وملذاتها الزائلة، كما قال تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد:١٤]، ﴿وَشَهِدُواْ﴾ أقروا؛ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِين﴾ مخالفين لدين رب العالمين.

﴿ذَٰلِكَ﴾ سبب إرسال الرسل ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ والمعنى ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل، وعذاب من كذبهم؛ لأنه لم يكن ربك معذب القرى بظلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي: في حال غفلة لم يأتيهم رسل، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥]، ويقول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من العاملين ﴿دَرَجَاتٌ﴾ جزاء ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ من الثواب أو العقاب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء:٨٤]، فأهل الطاعة تنالهم الأجور المضاعفة، وأهل المعصية تقع عليهم الأوزار، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وفي قراءة: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، فالله مطلع، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ [الجن:٢٦]، وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، بمعنى: أن الله عَزَّوَجَلَّ سيجازي كل عامل بما عمل.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿الْغَنِيُّ﴾ عن خلقه، وله الغنى المطلق في جميع الحالات أطاعوه أم عُصوه، كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥]، فغناه ذاتي؛ ولذلك قال: « **يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا**

يُنْقِصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»، وفي المقابل: « لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا» أخرجه مسلم(٢٥٧٧) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ بأوليائه فهو صاحب الرحمة المتصف بها.

۞ وهذا من الأدلة علىٰ أن الرحمن ذو الرحمة، كما أن القوي هو ذو القوة، والعزيز ذو العزة، فكل اسم يتضمن صفة.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالهلاك إن بقيتم علىٰ كفركم وبغيكم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من مخلوقاته، يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر:١٦]، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾ أوجدكم ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ يعني: كما أنشأكم من قرون قد بادت وذهبت، لا يعجزه أن يأتي بغيركم، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨].

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: من شأن الساعة، وما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به، ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾بفائتين من العذاب، بل الحال كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر:٤٤]، وقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء:٧٨]، وقد قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠].

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ**»، متفق عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿يَٰقَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ حالتكم وقيل على تمكنكم وعلى رفعة أنفسكم، وهذا لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥]، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ بما أمرني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إن لم

تستجيبوا لنداء الله وأمر رسوله ﷺ، ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، منا أو منكم وهي الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والخير العميم، لا مقطوعة ولا ممنوعة، لكن هذا العلم سيكن في وقت لا ينفعهم العمل، ووقت لا رجوع فيه، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يلحقهم الفوز والسعادة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾.

في هذه الآيات بيان من الله عَزَّوَجَلَّ لقبح جهل الجاهلية، إذ وصل بهم الأمر أن يحرموا ما أحل الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يشركوا مع الله عَزَّوَجَلَّ غيره وهو أعظم الذنوب التي عُصي الله بها، وفي حديث عبد الله بن مسعود: أن النبي ﷺ سُئل أي الذنب أعظم؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»، وكان من عظيم شأن هذا الذنب أنه لا يُغفر، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ﴾ [النساء:٤٨].

وفي البخاري (٣٣٣٤) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الأنعام: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾ [الأنعام:١٤٠]».

وطبيعة النفس البشرية مجبولة علىٰ حب الزوج والولد ومع ذلك بلغ السفه بأهل الجاهلية أن قتلوا أولادهم، فقتلوا البنين خشية الفقر، وقتلوا البنات خشية الفقر أو العار، وكلاهما مذموم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩﴾ [التكوير:٨-٩].

❖ ولا يثبت عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يتناقله البعض من أنه دفن ابنته، وكانت تزيل التراب عن لحيته، وإن ثبت فليس فيه مطعن في عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ الإسلام يهدم ما قبله، ومع ذلك لم يثبت وابنته حفصة وأخته فاطمة بنت الخطاب شاهد علىٰ ذلك، إذ أن قتل البنات كان في بيوت معدودة مخصوصة، فليمت الرافضة والباطنية ومن إليهم بغيضهم، فأئمتنا من الصحابة رضوان الله عليهم قد تابوا توبةً نصوحة بدخولهم في الإسلام، فهدم الإسلام كل ما كان منهم قبله، فلا يجوز أن يُعير أحد بما كان قبل إسلامه أيًا كان فضلًا أن يُعير بما لم يدل عليه كتاب ولا سنة ولا نقل صحيح.

﴿وَجَعَلُواْ﴾ أي كفار مكة ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا﴾ خلق، ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ الزرع وثمره، ﴿وَالأنعَامِ﴾ وهي الإبل، والبقر، والغنم ﴿نَصِيبًا﴾ للأوثان والأصنام، ﴿فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ ذكروا أن بعض هذه النذور لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ أي: لما يعبدون من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فأشركوا مع الله عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» أخرجه مسلم (٢٩٨٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧]، وهؤلاء لم يتقوا الشرك فلذلك لا يُقبل منهم، بل من سوء صنيعهم وعظيم تعمقهم في الشرك، تقديم حق أصنامهم علىٰ حق الله عَزَّوَجَلَّ، فكان حالهم: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ﴾ من المنذورات، ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأنه أهل به لغير الله، أو ذبح علىٰ غير اسم الله، ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ﴾ من المنذور، ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ فربما أوصلوه إليه وبلغوه إياه، ﴿سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساء الصنيع ما يتعاطونه ويفعلونه، أشركوا مع الله المربوبين العاجزين الناقصين.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كما فعلوا ما ذكر ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ﴾ بالوأد ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ سدنة الأصنام ومطيعي الجن والشيطان فهم الذين يفتنونهم بقتل أولادهم؛ ليقعوا في سوء صنيعهم، حيث يشركون ويقتلون النفس المعصومة، فوقعوا في الكبائر من جميع أبوابها، فالحسنة تجر إلى الحسنة، والسيئة تجر إلى السيئات، ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي:

يوقعوهم ويهلكوهم في أسوء ما كانوا يعلمون، ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾ ليخلطوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ فدينهم مخلوط بالبواطل، ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ﴾ كونًا، ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ الشرك والكفر ولكن لله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا، ولا حجة للمشركين في أن الله شاء منهم الكفر، فإن هذه مشيئة كونية قدرية يخالفها الأمر والنهي ونحن مُطالبون بفعل المأمور وترك المحظور، وأما أن نربط أفعالنا بمشيئة الله فهذا قد ردَّه الله عَزَّوَجَلَّ كما يأتي في آخر ﴿سورة الأنعام﴾، وهكذا في غير ما موطن.

۞ وفي هذا رد علىٰ النفاة من المعتزلة الذين يزعمون أن الله لم يخلق أفعال العباد، وأن الله لم يشأ منهم هذه الأفعال كونًا، بل شاءها؛ لأنه لا يكون في ملكه إلا ما شاء.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ اتركهم يا محمد، ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وما يختلقون من الكذب، وهذا علىٰ التهديد، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر:٣]، ما هم فيه من الباطل: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر:٧١-٧٢].

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٣٩ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝١٤٠﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي كفار مكة ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ من البقر والإبل والغنم والضأن، ﴿وَحَرْثٌ﴾ من الزروع ونحوها، ﴿حِجْرٌ﴾ محجورة وحرام ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ حرموا بعضها على الرجال، ومنعوا بعضها من النساء، وأباحوا بعضها للرجال والنساء من أين لهم هذا؟ إذ ليس بوحي الله وإنما هو من جراء أنفسهم ومن تلاعب الشيطان بهم، فسموا بحيرة، وسائبة، ووصيلة، وحام من عند أنفسهم، ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ ركوبها كالحام، الذكر

من الإبل إذا بلغ من السن كذا وقد أنتج من البنين كذا يُحمى ظهره فلا يُحمل ولا يُركب عليه ولا يؤكل لحمه، ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حين ذبحها، بل يهلون بها للأصنام.

﴿وَقَالُواْ﴾ كفار مكة ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ﴾ من الأجنة ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ دون الأناث ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ ممنوع ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ النساء، ﴿وَإِن يَكُن﴾ الجنين ﴿مَّيْتَةً﴾ ميت ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ الرجال والنساء، ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ عقوبة كذبهم على الله عَزَّوَجَلَّ، بالتحليل والتحريم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في أمره وفعله، ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن عصاه وأطاعه.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا﴾ جهلًا وسفهًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير وحي جاءهم من الله ولا أمر بذلك، ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ مما ذكر ﴿افْتِرَاءً﴾ كذبا ﴿عَلَى اللهِ﴾ مع أن الله يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢]، ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ في هذه الحياة الدنيا، وسيلحقهم الضلال في الآخرة، ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ لعلم الله عَزَّوَجَلَّ بهم أنهم ليسوا أهلًا للهداية.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿ وَهُوَ﴾ الله، ﴿الَّذِي أَنشَأَ﴾ أبدع وابتدأ في إنشائها من غير مثال سابق، ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين، سُميت جنة؛ لأنها تجنها الأشجار وتغطي ما فيها، ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ أي: ممسوكات مرفوعات، كالعنب ونحوه ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أو غير ممسوكات ومرفوعات، فالمعروشة محتاجة إلى رفعها بأخشاب وأعمدة كالعنب، والقرع، والبطيخ، وغير المعروشات: ما قام على ساق مثل: النخل والزرع وسائر الأشجار.

❖ وذهب بعضهم إلىٰ أن الآية في العنب خاصة، منه المعروش ومنه غير المعروش، والقول الأول أصوب.

﴿وَالنَّخْلَ﴾ أي: وأنشأ النخل، وهذا يكون من الخاص بعد العام، إذا فسرنا غير المعروشات بما له ساق، ﴿وَٱلزَّرْعَ﴾ أي: وأنشأ الزرع وهو ما يحمل الحبوب، ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ ثمره وطعمه، منه الحلو، والحامض، والجيد، والرديء، والأسود، والأحمر، والمز وغير ذلك ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ وشأنه عظيم في منظرة، وثمره، وزيته، إن شئت أن تكون به مستصبحًا، وإن شئت أن تستخدمه إدامًا، وإن شئت أن تستخدمه دهنًا، ﴿وَالرُّمَّانَ﴾ أيضًا أنشأ الرمان في عجيب منظره وعجيب مخبره ﴿مُتَشَابِهًا﴾ في المنظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في طعمه، ﴿كُلُواْ﴾ علىٰ الإباحة ﴿مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ صلح للاستخدام، ﴿وَآتُواْ﴾ أعطوا ﴿حَقَّهُۥ﴾ الصدقة منه ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾.

❁ **وهذا الحق هل هو زكاة أم أنه حق خارج العُشر أو نصف العُشر مما سقي بالسانية.**

والذي عليه جماهير العلماء: إخراج الزكاة في كل هذه الأنواع.

ꕥ والصحيح: أن الزكاة فيما جاء به النص، وهي تسعة أصناف في النقدين الذهب والفضة وما يقوم مقامها، وفي الغراس الزبيب والتمر، وفي الحبوب الحنطة والشعير، وفي بهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم، واختلف في العسل أيضًا.

ꕥ والصحيح: أنه لم يصح عن النبي ﷺ شيء في زكاته، ويكون حق هذه أن يُطعم من ثمرها، ويُكرم مما فيها.

وذكر يوم الحصاد؛ لأنه يوم اجتماع الثمر ويوم الجزاز، ويستشرف الناس للحصول علىٰ شيء من ذلك، ﴿وَلَا تُسْرِفُواْ﴾ بإعطاء الكل، فتصبح فقيرًا، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿وَ﴾ أنشأ ﴿مِنَ الأنعَامِ حَمُولَةً﴾ وهي كل ما يُحمل عليها من الإبل، وما يقوم في مقامها، لكن المراد هنا لإبل، ﴿وَفَرْشًا﴾ وهي الصغار من الإبل التي لا تحمل، ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ حلالًا طيبًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ﴾ سبل ﴿الشَّيْطَانِ﴾ في تحريم الحلال،

وخطوات الشيطان كل سبيل يصرف عن الحق فإنه يتقصد العباد بصرفهم عن طاعة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويزين لهم سوء أعمالهم، ويَؤزهم على الباطل أزًا، ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ متربص ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر في عداوته.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، أي: أصناف، ﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ الذكر والأنثى، ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ﴾ زوجين ﴿اثْنَيْنِ﴾ وكلاهما عند الإطلاق يُطلق عليه غنم، لكن الضأن: هو الشاة وما إليها، والمعز هو التيس والعناق وما إليها، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ وهذا سؤال إنكار عليهم؛ لأنهم أحلوا بعضًا وحرموا بعضًا ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ رد عليهم في قوله: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، ﴿نَبِّئُونِي﴾ أخبروني، ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: بدليل يدل على ما قلتم، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الله تعالى حرم ذلك ﴿وَ﴾ خلق لكم.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ الذكر والأنثى، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ الذكر والأنثى، ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حضورًا ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ﴾ أمركم ﴿ اللَّهُ بِهَذَا﴾ الحكم الذي تقولونه، وهذا محال فإنهم لم يطلعوا على أمرٍ فيه، وإنما ساروا على طريقة عمرو بن لحي إذ جاءهم بطريقة محدثة فأحل لهم ما حرم الله وحرم عليهم ما أحل الله، ﴿فَمَنْ﴾ لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ اختلق ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ وجاء بأمر لم يشرعه الله، ﴿لِيُضِلَّ﴾ ليزيغ ﴿ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ بغير هدى من الكتاب والسنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ لا يوفق ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد، ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ﴾ في القرآن والسنة ﴿مُحَرَّمًا﴾ ممنوعًا ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ على آكل يأكله، ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ فهذا الذي حرمه الله، كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة:٣]، الآية، ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ وهو ما يخرج من الحيوان مهراقًا، وقد كان الجاهلية يشربونه وإنما أباح الله عَزَّوَجَلَّ من الدماء الكبد والطحال، ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ ومما حرمه الله لحم الخنزير، ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾.

❁ **قال بعضهم: المراد بالرجس النجس.**

❀ والصحيح: أن الرجس الحرام، فليس كل محرم نجس، فقد حرم الله عَزَّوَجَلَّ لحم الحمر الأنسية وليست بنجسة، وحرم الخمر.

❀ والصحيح: أنه ليس بنجس، وحرم الأصنام، والميسر وليست بنجسة، فلا يلزم من التحريم النجاسة.

﴿أَوْ فِسْقًا﴾ أي: ومما حرمه الله: الفسق الذي ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ مما ذُبح علىٰ غير اسم الله أو مما ذُبح لغير الله.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: إلىٰ الأكل من الميتة ونحوها مما حرمه الله، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ من غير بغي ولا عدوان، وإنما أراد المحافظة علىٰ نفسه، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ يتجاوز عنه.

۞ وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية علىٰ المحرمات وأباح ما سواها، وذهب بعضهم إلىٰ أنها من أوائل ما أُنزل، وقد حرم الله عَزَّوَجَلَّ غيرها، وفعلًا فإن النبي ﷺ «**نهىٰ عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير**»، ونهىٰ ﷺ «**عن لحوم الحُمر الأنسية**»، ومنه ما أمر النبي ﷺ بقتله فهو حرام لا يجوز أن يُتناول، وما نهىٰ النبي ﷺ عن قتله فهو حرام، وقد تقدم بيان ذلك في سورة المائدة فلا نكرر.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ﴾ اليهود، ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل: البعير، والنعامة، والإوز، والبط.

قال القتيبي: هو كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي حافر من الدواب، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: شحوم الجوف والثروب وشحم الكلتين، ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما، ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾، وهي المباعر واحدتها حاوية وحوية أي: ما حملته الحوايا من الشحم، فهو حلال لهم ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يعني: شحم الإلية، هذا كله داخل في الاستثناء والتحريم مختص بالثرب وشحم الكلية.

ولم يلتزموا ففي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ: «**قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ الشُّحُومَ جَمَلُوهَا، ثُمَّ بَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا**» متفق عليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم والمنع عليهم ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب بغيهم وظلمهم من قتل الأنبياء، وأكل الربا، وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك مما اقترفوه وفعلوه، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُون﴾ أي: في الإخبار عما أخبر عنهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد أي: بتأخير العذاب عنهم، وبما دعوتهم إليه، ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يرحم من يشاء، ويعاجل من يشاء بالعقوبة، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ أي: عذابه ونقمته، ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِين﴾ إذا جاء وقته كما قال تعالى ﴿فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُون﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ محتجين على باطلهم، وكفرهم، وعنادهم، ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ أرادوا أن يجعلوا هذا القول حجة على كفرهم، وماثلتهم الجبرية الذين يزعمون أن العبد كالريشة في مهب الريح، أو كالميت بيدي المغسل، ومع ذلك فهذا الاحتجاج مردود عليهم، فلا يجوز الاحتجاج بالقدر على معصية الله عَزَّوَجَلَّ، وما جاء عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ « فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**» متفق عليه، فالمراد به أن ذلك كان بعد توبته، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وقال بعضهم: أي أن آدم احتج بالقدر على إخراجه من الجنة، لا على الذنب ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما كذب هؤلاء، ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ سماهم الله مكذبين، دليل على أن حجتهم غير مقبولة، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ العذاب الأليم، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ حجة بينة على قولكم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ حتى نعلمها والواقع ما عندهم من شيء؛ لأنهم كانوا إذا فعلوا الفواحش قالوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]، وهذا ليس بعلم وليس بمصوغ لهم للفاحشة، وقد ذمهم الله حين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الظن المبني على الهوى والرأي الفاسد، ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون في قولكم وفعلكم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد إن لم تكن لكم حجة ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ﴾ التامة، ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ كونًا ﴿لَهَدَاكُمْ﴾ لوفقكم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ إلى دينه القويم ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿هَلُمَّ﴾ أأتوا واحضروا، ﴿شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ معكم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ الذي تحرمونه ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ أخبروا أن الله حرم البحيرة، والسائبة، والوصيلة ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فإن شهادتهم زور.

۞ وفي هذا رد عل القاعدة التي يقول أصحابها:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشَدُ

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من الكفار وغيرهم، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بالبعث والنشور ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يشركون ويندون، ويجعلون له مثيلًا ونظيرًا ومعينًا، تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ الصَّحِيفَةِ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الآيَاتِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، الآيَةَ إِلَىٰ قَوْلِهِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾» أخرجه الترمذي (٣٠٧٠).

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿تَعَالَوْاْ﴾ هلموا، ﴿أَتْلُ﴾ أقرأ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ منعكم من تعاطيه وأعظمه، ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لا في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، وقال

تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إي: ومما يُتلى عليكم الإحسان إلى الوالدين؛ لعظيم حقهم، وقد قرن الله عَزَّوَجَلَّ حقهم بحقه في مواطن، ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُم﴾ أبنائكم وبناتكم ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ خشية الفقر، كما كان يفعله بعضهم، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ أي: الآباء، ﴿وَإِيَّاهُمْ﴾ أي: الأبناء، وقدم هنا رزق الآباء عل الأبناء؛ لأنَّ الآباء يقتلون أبنائهم خشية الفقر عليهم، بينما في سورة الإسراء: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء:٣١]، من أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الرزاق للجميع، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ لم يقل لا تأتوا؛ لأنَّ كلمة لا تقربوا أبلغ، فإذا نهى عن القرب فالنهي عن إتيانها من باب الأولى، ﴿الْفَوَاحِشَ﴾: ما فحش من الأفعال والأقوال، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كالزنى ونحوه، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما يكون في السر، قال الضحاك: ما ظهر الخمر، وما بطن الزنا، وقيل غير ذلك، فالآية فيها النهي عن جميع الفواحش الظاهرة والباطنة، كالزنا واللواط.

❁ وفيه: رد علىٰ دعاة ما يسمونه بالمثلية، وهو اكتفاء الرجل بالرجال، والنساء بالنساء، فإن هذا من أسوء الفواحش، والعياذ بالله، وقد تميز بالدعوة إلىٰ هذا الشر في هذه الأزمنة، الأمم المتحدة متمثلة في الجندر وما إليها من المنظمات الفاسدة المفسدة.

❁ وفيه الدعوة إلىٰ إصلاح الحال ظاهرًا وباطنًا، وهذا هو الدخول في الإسلام كافة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨].

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وقد حرم الله قتل المؤمن، والمعاهد، والُمستأمن، ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ كالقصاص وارتكاب موجب من موجبات القتل كالزنا بعد إحصان، وارتداد بعد إيمان وغير ذلك مما يذكره أهل العلم، وفي حديث عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**» متفق عليه.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما ذُكر قبل، ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ أمركم وحثكم عليه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أمر الله فتستجيبون له.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ النهي عن الدنو من مال اليتيم، لما في إتلافه من الضرر الذي يلحق اليتيم، ومن الضرر الذي يلحق المتلف من الإثم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**» متفق عليه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ كتنميته والتجارة فيه والإصلاح له، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ وقد اختلفوا في الأشد.

والصحيح فيه: أنه بلوغ الحلم مع رجاحة العقل؛ لأنَّ بعضهم قد يبلغ الحلم وما زال سفيهًا.

﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ فيما يُكال، ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ فيما يوزن في التجارات، ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قدرتها فقد يقع زيادة ونقصان بدون تعمد، فالإنسان لا يؤاخذ، أما أن يَتَعَمَّدَ التَّطفيف فهذا هو الذي يؤاخذ عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ [المطففين:١-٥]، وما أكثر الناس الذين يطففون المكيال والميزان في هذه الأيام بخلًا وحرصًا علىٰ الدنيا نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، والنبي ﷺ لما اشترىٰ سراويل قال: «**زِنْ وَأَرْجِحْ**» أخرجه أبو داود (٣٣٣٦) عن مخرمة العبدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولًا ﴿فَٱعْدِلُواْ﴾ بعد أن أمر بالعدل في الأفعال أمر بالعدل في الأقوال، سواء كان في الشهادات أو في غيرها، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ لأنَّ القريب تميل النفس إلىٰ نصرته والشهادة له لا سيما في الخصومات، ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ العهد: العقد، وما عاهد عليه

الإنسان فجيب عليه أن يفي به، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١]، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ﴾ [النحل:٩١]، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ما تقدم من الوصايا العظيمات الجليلات، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون وتنزجرون عن الباطل.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ الذي يتلى عليكم وصاكم به ﴿صِرَٰطِي﴾ سبيلي، وأضافه إلى نفسه لشرفه، وصراط الله واحد، بينما طرق الشيطان كثيرة، ﴿مُسۡتَقِيمٗا﴾؛ لأنه يوصل إلى المطلوب، ومن استقام على الصراط المعنوي الذي هو الإسلام استقام على الطريق الحسي الذي هو الجسر الممدود على متن جهنم، وكان من دعاء المسلمين في كل ركعة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ وجوب اتباع النبي ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَابَىٰ؟، قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**» أخرجه البخاري(٧٢٨٠)، قال سفيان: وجدنا الأمر كله في الاتباع.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الطرق المخالفة لسبيل الله، ففي حديث عبد الله بن مسعود: خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ الله**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام:١٥٣]، أخرجه أحمد (٤١٤٢) وغيره، فالسبل المخالفة للكتاب والسنة كثيرة، فكم فرق اليهود؟ والنصارىٰ؟ وكم فرق أهل الإسلام؟ بينما المتبعون لرسول الله ﷺ سبيلهم وطريقهم واحد، ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ ما تقدم ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أمركم به، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، ﴿تَمَامًا﴾ تامة، ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ منهم، ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ فيها بيان: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه من شرائع الدين، ﴿وَهُدًى﴾ دلالة وإرشاد، ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ إذ لم يجعلهم في ضلالة وعمية، ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ﴾ رؤية ﴿رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون بوعد الله ووعيده، وثوابه وعقابه، فيلتزمون المأمور ويبتعدوا عن المحظور، ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ في أخباره، وأوامره، وتلاوته، والاستشفاء به، كتاب مبارك فيه علم الأولين وعلم والآخرين، ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ التزموه ظاهرًا وباطنًا، ﴿وَاتَّقُواْ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في الدنيا بالهداية، وفي الآخرة بستر العيوب وغفر الذنوب، وتكرمون بالجنة التي أعدها الله لعباده.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالاَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأما النَّارُ: فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا**

إِلَىٰ بَعْضٍ، وَلاَ يَظْلِمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأما الجَنَّةُ: فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا» متفق عليه.

﴿أَن تَقُولُواْ﴾ معتذرين بعدم إسلامكم، ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ التوراة والأنجيل ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ يعني: اليهود والنصارى، ﴿وَإِن كُنَّا﴾ وقد كنا، ﴿عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ عن قراءتهم، ﴿لَغَافِلِين﴾ جاهلين لعدم معرفتنا بذلك.

﴿أَوۡ تَقُولُواْ﴾ يا معشر قريش: ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ الأول ﴿لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ﴾ أحسن متابعة وانقياد ﴿مِنۡهُمۡ﴾، لجودة أذهاننا ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾ بيان ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهو القرآن بين واضح، ﴿وَهُدًى﴾ فيه الدلالة والإرشاد لكل خير، ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ رحم الله به العباد إذ لم يدعهم في الشرك والتنديد والمعاصي والسيئات، فهل اتبعتموه والجواب لا ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ فلا أظلم ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكونية والشرعية، فالكونية كقولهم أن مع الله شريكا أو نظيرا أو مثيلًا، والشرعية بالرد ونحو ذلك، ﴿وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ أعرض عنها، ﴿سَنَجۡزِي﴾ في الدنيا أو يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ﴾ يعرضون، ﴿عَنۡ آيَاتِنَا﴾ القرآن، ﴿سُوٓءَ﴾ شديد ﴿ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ يعرضون.

﴿هَلۡ﴾ ما ﴿يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون بعدم إيمانهم، ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ يوم القيامة، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ للقضاء بينهم.

۞ وفيه إثبات صفة المجيء والإتيان لله عَزَّوَجَلَّ كما يليق بجلاله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر:٢٢]، ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦﴾ [الفرقان:٢٥-٢٦].

والمبتدعة يثبتون إتيان ومجيء الملائكة، وينفون إتيان ومجيء الله مع أن الله عَزَّوَجَلَّ عطف إتيانه ومجيئه علىٰ إتيان الملائكة ومجيئها، فإذا كان إتيان الملائكة حقيقيًا فإتيان الله حقيقي ولا بد، وأما من قال بأن المراد بربك: بعض آيات الله عَزَّوَجَلَّ: فسيكون في الجملة

تكرار، بل المراد إتيان الملائكة، وإتيان الله حقيقة، وإتيان بعض الآيات كما في الحديث: عن أبي هريرة: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ، آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ:** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]».

﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ﴾ علامات ﴿رَبِّكَ﴾ قبل الساعة، ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا﴾ من المكلفين ﴿إِيمَانُهَا﴾ وانقيادها ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ ظهور الآيات فإن هذا وقت لا تقل فيه التوبة، ﴿أَوْ كَسَبَتْ﴾ حصلت ﴿فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ فالأعمال بالخواتيم، والتوبة مقبولة من العبد ما لم تغرر النفس أو تطلع الشمس من مغربها، ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أي: تربصوا فيما أنتم فيه من الباطل، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ متربصون بكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ وهم اليهود والنصارى ومن إليهم، ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أحزابًا وفرقًا مختلفة، ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ براءة من هذا السبيل المردي والمخزي، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيجازيهم على أعمالهم، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يخبرهم يوم القيامة، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ من المخالفات الشرعية.

۞ وهذه الآية عمدة في النهي عن التحزب والتفرق، فإن الله عَزَّوَجَلَّ حذر نبيه ﷺ من الاقتداء بهؤلاء والتأسي بهم، فمن أعظم أسباب الضلال الفرقة والحزبية، وما دخلت في أمة إلا واشتعل بينها الشر، والبغضاء، والتحاسد والحقد.

﴿مَن جَاء﴾ يوم القيامة ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ الطاعة، ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ مضاعفة، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَالسَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ أَوْ أَغْفِرُ**»، وفي حديث أبي هريرة: «**إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللهَ** عَزَّوَجَلَّ»، متفق عليه.

﴿وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ﴾ المعصية ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ واحدة فمن كرم الله أن يضاعف الحسنات، ومن عدله أن تكون السيئة بسيئة، لكن الويل لمن كثرت سيئاته علىٰ حسناته، ومع أن الحسنة تُضاعف إلا أنه يجب أن يحافظ عليها، فالمعاصي تؤدي إلىٰ أخذها وبطلأنها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**» أخرجه مسلم (٢٥٨١).

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿قُلْ إِنَّنِي﴾ وفقني وأرشدني ﴿رَبِّي﴾ ولم يقل الله؛ لبيان حفظه وكلاءته ونصره وعونه له، ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وطريق قويم وهو الإسلام، ﴿دِينًا قِيَمًا﴾: دينًا لا اعوجاج فيه، ﴿مِّلَّةَ﴾ دين ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو التوحيد الخالص، ﴿حَنِيفًا﴾ مائلًا من الشرك إلى التوحيد، ومفردًا لله عَزَّوَجَلَّ بما له، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في قيله، ولا في فعله، ولا في شيء من شأنه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿قُلْ إِنَّ﴾ وهي الصلاة المعهودة، ﴿وَنُسُكِي﴾ قيل: المراد بها الذبيحة، وقيل: ما هو أعم وهو الطاعة، ﴿وَمَحْيَايَ﴾ حياتي، ﴿وَمَمَاتِي﴾ وفاتي، ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هو يحييني ويميتني، وقيل: محياي بالعمل الصالح، ومماتي إذا مت على الإيمان.

۞ وبهذه الآية استدل من ذهب من أهل العلم إلىٰ تحريم التبرع بالأعضاء البشرية، إذ أن الإنسان يُعتبر لله عَزَّوَجَلَّ فلا يجوز له أن يتصرف في شيء من أعضائه إلا علىٰ وفق ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في ألوهيته، ولا في ربوبيته، ولا في أسمائه وصفاته.

۞ وفيها معنىٰ لا إله إلا الله.﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ بالتوحيد ﴿أُمِرْتُ﴾ أمرني الله وأرسلني ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين من هذه الأمة.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى﴾ إلها ومعبودا ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فلا يجني والد علىٰ ولد، ولا زوجة علىٰ زوج، ولا سيد علىٰ عبد، كل يجازىٰ علىٰ عمله، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يحمل عامل عمل آخر، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء:٨٤]، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ يخلف بعضكم بعضًا ﴿الْأَرْضِ﴾ فأهلك القرىٰ الماضية وأورثكم الأرض يا أمة محمد، فجعلكم مستخلفين فيها بعد أن كنتم قلة وفي ذلة، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ فصار منهم الأمراء والوزراء والعلماء، وصار منهم الأغنياء، ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم ﴿فِى مَا آتَاكُمْ﴾ أعطاكم فيبتلي الغني هل يشكر؟ والفقير هل يصبر؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ تهديد للمخالفين لدينه وشرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، غفور لأوليائه رحيم بهم.

تفسير

سورة الأعراف

سُورَةُ الأَعْرَافِ

۞ مكية بالإجماع.

وقرأ بها والنبي ﷺ في صلاة المغرب كما في حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝١٠﴾.

﴿الٓمٓصٓ﴾ تقدم بيان الاختلاف في هذه حروف في أول تفسير سورة البقرة، فمن قائل: بأنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، ومن قائل: بأنها أسماء للسور، ومن قائل: بأنها أسماء لله عَزَّوَجَلَّ، ومن قائل: بأنها حساب أمة محمد ﷺ كما هو قول اليهود ومن إليهم.

والصحيح: أنها أحرف يتحدىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الكفار من حيث أن القرآن مكون من هذه الأحرف.

ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله، وفي الغالب أنه إذا جيء بالأحرف المقطعة تلاه ذكر القرآن؛ لبيان عظمته في أحكامه، وأخباره، ووعده

ووعيده، فهو الكتاب الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

﴿كِتَابٌ﴾ أي: مكتوب، ﴿أُنزِلَ﴾ وهو القرآن نزل به جبريل من عند الله عَزَّوَجَلَّ حيث سمعه منه حقيقة وسمعه محمد ﷺ من جبريل، كما قال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]، ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد، ﴿فَلَا يَكُن﴾ يحصل ﴿فِي صَدْرِكَ﴾ قلبك ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ شك أو ضيق من تبليغه، فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيفتح به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صما، ﴿لِتُنذِرَ﴾ تخوف ﴿بِهِ﴾ الناس فتدعوهم إلىٰ التوحيد وتحذرهم من الشرك والتنديد، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ عظة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتعظون بها وينزجرون عن الباطل ويلزمون الحق.

﴿اتَّبِعُواْ﴾ خذوا وانقادوا وهذا أمر من الله عَزَّوَجَلَّ، والأمر يقتضي الوجوب، ﴿مَا﴾ الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣-٤].

❁ وفي هذه الآية عظيم شأن الاتباع.

قال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجدنا الأمر كله في الاتباع، فمن عمل عملًا وهو مجانب للاتباع لم يُقبل منه، كما قل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ تطيعونهم في معصية الله وتتبعون الآراء والأهواء، وما خالف الكتاب والسنة، فإن ذلك من أسباب الضلال، ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

﴿وَكَم﴾ للتكثير ﴿مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالعذاب بسبب بغيها وذنوبها، وإعراضها عما أنزله الله عَزَّوَجَلَّ من الوحي ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ العذاب الشديد، ﴿بَيَاتًا﴾ ليلًا، ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ في غفلتهم في القيلولة، فبعضهم يأتيهم العذاب ليلًا، وبعضهم يأتيهم نهارًا كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم

بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ قولهم وتضرعهم، ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ العذاب، ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ معترفين بلسان حالهم ومقالهم، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ مخالفين لدين رب العالمين، ومع ذلك فإن هذا الاعتراف لا ينفعهم لأنه بعد فوات الأوان كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥]، فلا بد أن تكون التوبة قبل الغرغرة وقبل نزول العذاب: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يوم القيامة عن إجابتهم الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن البلاغ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، ويُسأل الأتباع عن رسلهم، قال النبي ﷺ: «**وَأَنْتُمْ مَسْؤُولُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ**»؟ قَالُوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ، وحين قال لهم: «**أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ بَلَّغْتُ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: «**اللهُمَّ اشْهَدْ**».

۞ وهذا من الأدلة علىٰ أن الله يكلم جميع من في الموقف، وأن ما جاء من أن الله لا يكلمهم في موطن دون موطن.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ لنخبرنهم عن علم، ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ بل إن الله كان مطلعًا عالمًا مبصرًا سامعًا لأحوال الناس، وهذه صفة منفية والصفات المنفية تتضمن كمال الضد.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿الْحَقُّ﴾ العدل والقسط وتوزن الأعمال ليس فيها تطفيف.

❁ وفي هذه الآية إثبات الميزان، وهو ميزان عظيم له كفتان ولسان، توزن فيه أعمال العباد، ويوزن العامل والعمل والصحف.

كما في حديث ابن مسعود قال النبي ﷺ: «**مَا تَضْحَكُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**» أخرجه أحمد(٩٢٠) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**» متفق عليه.

وفي حديث البطاقة بيان لوزن الصحف فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إِنَّ اللهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أمتي علىٰ رُؤوس الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلَ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَبُهِتَ الرَّجُلُ، قَالَ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، قَالَ: فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**» أخرجه الترمذي.

❖ وينكر الميزان الخوارج والمعتزلة ومن إليهم، وجُمع الميزان لكثرة الموزونات وإلا فهو ميزان واحد.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: بالحسنات، ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنِّ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**» أخرجه مسلم.

❁ **وهل يوزن الكفار؟، اختلف العلماء في ذلك.**

والصحيح: أنهم يوزن، ولا وزن لهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَءُوا فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**» متفق عليه.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ لكثرة السيئات، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم﴾ وأي خسارة، خسارة يدخلون بها النار وبئس القرار، ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ يكذبون ويجحدون، ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّـٰكُمۡ﴾ هيئنا لكم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ بحيث تتمكنون من البناء والحرث فيها، ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ جعلنا لكم فيها أسباب ما تعيشون به من التجارات والمكاسب والمآكل والمشارب والمعايش، كما قال تعالى: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَـٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش:١-٤]، وقال: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧] ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُون﴾ ومع ذلك قليل منكم من يشكر الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَـٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَـٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَـٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَـٰكِرِينَ ۝١٧ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝١٨﴾.

هذا ملخص سيرة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ منذ خلقه الله عَزَّوَجَلَّ ونفخ في من ورحه، وأمر الملائكة أن يسجدوا له، فاستكبر إبليس وأبىٰ قبول الأمر، فكان مبدأ المكر من إبليس بآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خَلْقٌ لَا يَتَمَالَكُ**»، فلما أبىٰ إبليس عليه لعائن الله تترا السجود لآدم كبرًا وحسدًا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا من العام الذي يراد به الخصوص ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ في أحسن صورة، وأحسن تقويم وعلمه أسماء كل شيء ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ تكريما له، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ امتثالًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد فقد ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠]، ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منعه الكبر والحسد.

﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا﴾ لآدم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ﴾ إبليس معترضا على أمر الله لأ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ حتى ولو قُدر جدلًا أنه خير منه ما جاز له أن يخالف أمر الله، فهذه حجة ضعيفة وسقيمة رد بها أمر الله الملك القهار، العظيم الجبار.

۞ وفي هذا دلالة علىٰ أن أمر الله عَزَّوَجَلَّ يدل علىٰ الوجوب، إلا أن تدل قرينةٌ علىٰ خلاف ذلك.

قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ ذهب للمفاضلة بين نفسه وبين آدم بالنظر إلىٰ أصل الخلقة؛ ولذلك ذهب قوم من عباد النار والشمس إلىٰ تفضيلها علىٰ التراب حتىٰ قال بعضهم:

لأَرْضُ مُظْلِمةٌ والنَّارُ مُشْرِقَةٌ ... والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ

والصحيح: الذي عليه التحقيق: أن جنس الأرض أفضل من جنس النار، فالأرض فيها الزراعة، والسكنىٰ، والماء، وجميع أنواع التنعم، بخلاف النار إنما يستفاد منها في طهي الأطعمة، وإعداد الصناعات ونحو ذلك، وإلا فليست في الدنيا بدار حياة، والله المستعان.

﴿قَالَ﴾ قال الله تعالى له: ﴿قَالَ﴾ أخرج ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنها دار المتواضعين لله رب العالمين؛ وفي حديث عياض بن حمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَة: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**» أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ من الذليلين المحقورين بعد أن كان يرىٰ لنفسه الرفعة والعزة، وهذه حالة عجيبة حصلت لإبليس حيث ضحىٰ بالجنة التي قد دخلها، ووجد عيشها بسبب كبره وبغيه ﴿قَالَ﴾ أي: إبليس ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾ أخرني وأمهلني فلا تمتني، ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ إلىٰ يوم الوقت المعلوم وهي النفخة الأولىٰ التي يموت فيها الخلق كلهم، ولله الحكمة البالغة والحجة الدامغة إذ أن وجود إبليس تحققت به مصالح كثيرة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والدعوة إلىٰ التوحيد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من المصالح ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ له ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ أي: المؤخرين، وذلك للإبتلاء والاختبار.

﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ كما ضللتني.

﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾ للخلف من ذرية آدم ﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ طريق الحق وسبيل النجاة والمعنىٰ لأجل أنك أغويتني لأحقدن لهم، وأتربص بهم علىٰ الإسلام؛ ليزيغهم عنه ويحيلهم إلىٰ غيره.

۞ وفيه: إثبات القدر، فالهدىٰ والضلال من الله يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا، وكان إبليس في هذه المسألة أحسن حالًا من القدرية الذين زعموا أن العبد يخلق فعل نفسه، فقد ذكر إبليس أن الله هو الذي خلقه وخلق فعله.

﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم﴾ لقصد إغوائهم ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: من قبل الآخرة فأشككهم فيها، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ أي: أرغبهم في الدنيا كما قال بعض أهل العلم، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ أشهي لهم المعاصي أي: أنه يأتيهم من جميع جهاتهم، فيأتي كل إنسان من الجهة التي يتسلط بها عليه، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ بل يقع منهم الكفر والإعراض، والله المستعان.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ عند ذلك لإبليس، ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ﴾ من الجنة، ﴿مَذۡءُومٗا﴾ معيبًا حقيرًا ﴿مَّدۡحُورٗا﴾ مطرودًا مع ذمه وحقارته ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ من بني آدم، ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ

﴿أَجْمَعِينَ﴾ واللام لام القسم: والله لأملأنَّ جنهم منكم أي: منك ومن ذريتك ومن كفار ذرية آدم أجمعين، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لا يزال جهنم يلقى فيها حتى يضع الجبار قدمه فيها فتقول: قط قط، كما قال تعالى:** ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق:٣٠] » متفق عليه.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم عاد الخطاب إلىٰ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ محذرًا له من إبليس ودالًا له علىٰ ما ينتفع به: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ جنة عدن علىٰ الصحيح، ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من أي شيء شئتم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة:٣٣]، ﴿شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ﴾ منعهم عن شجرة بعينها؛ للاختبار والابتلاء، وقد اختلف الناس في هذه الشجرة كما تقدم في سورة البقرة، وهو خلاف غير منظور إليه؛ فلو كان من الدين معرفة الشجرة لأخبرنا الله بها، فقيل: السنبلة، وقيل: التفاحة وقيل غير ذلك، ﴿الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ من العاصين لله رب العالمين.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وسوس إلىٰ آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بحديث نفس ألقاه في قلوبهم، ﴿لِيُبْدِيَ﴾ يظهر ﴿لَهُمَا مَا وُۥرِيَ﴾ ما غُطي وستر ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ من عوراتهما ﴿وَقَالَ﴾ كاذبًا ومخادعًا ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ التي حرمها عليكم، ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ في عداد الملائكة ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ ممن يعيش فلا يموت.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أقسم لهما يمينًا فاجرة غموسًا، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فهو أول ملبس ومدلس وأول من قاس، وليس كل مدعي للنصيحة ناصح فالنصيحة الصحيحة هي

الموافقة للكتاب والسنة، ﴿فَدَلَّٰهُمَا﴾ أنزلهما عن الرتبة العلية بهذه النصيحة ﴿فَدَلَّٰهُمَا﴾ خدعهما، فما زال يأتيهم بشبهة ووعد حتىٰ وقعا فيما وقعا فيه، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ طعما ﴿الشَّجَرَةَ﴾ وأكلا منها، ﴿بَدَتْ﴾ ظهرت ﴿لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ عوراتهما عقوبة لهما، ﴿وَطَفِقَا﴾ أي: أقبلا وجعلا، ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ يرقعان ويلزقان ويصلأنَّ لستر العورة ﴿مِن وَرَقِ﴾ أشجار ﴿الْجَنَّةِ﴾ قال بعضهم ورق التين والله أعلم، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾.

❁ إثبات الكلام لله والنداء يكون بصوت عال، والنجاء يكون بصوت خافت.

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ عن الأكل منها، ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فحذرهم من طريق إبليس اللعين، لكن الإنسان ضعيف أمام الشهوة إلا من ثبته الله.

﴿قَالَا﴾ آدم وحواء، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ﴾ بالأكل من الشجرة وهذا اعتراف بالذنب، ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ بمغفرة ما سلف من شأننا، ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بتوفيقنا فيما يأتي من أمرنا، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فقبل الله منهما التوبة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧]، لكن المعصية قد يبقىٰ لها معرة.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿اهْبِطُواْ﴾ انزلوا إلىٰ الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قيل: العداوة بين آدم وذريته وإبليس وذريته، وقيل: العداوة بين ذرية بني آدم، وكلاهما واقع، ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ﴾ تستقرون فيه فتأكلون وتشربون وتتنعمون، ﴿إِلَى حِينٍ﴾ الأجل، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] ﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فِيهَا﴾ أي: في الدنيا ﴿تَحْيَوْنَ﴾ تعيشون، ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ وتُقبرون وتُدفنون، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦]، ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ تبعثون يوم القيامة.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

يحذر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيات بني آدم من اتباع الشيطان، ويخبرهم بنعمه عليهم ومنها نعمة اللباس حيث يتميزون به علىٰ غيرهم من المخلوقات، فلو نظرت إلىٰ جماهير المخلوقات المرئيات لرأيت أنها غير مستترة عوراتها وأجسامها بادية، بينما امتن الله علىٰ بني آدم بلباس يفصلونه علىٰ أجسامهم، ويستعينون به في رد الحر والقر، ويسترن به العورات ويتزينون به، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ خلقنا لكم، ﴿لِبَاسٗا يُوَٰرِي﴾ يخفي ويستر ﴿سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ عوراتكم، واحدتها سوءة، ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ قيل: مالًا، يُقال: تريش الرجل إذا تمول، وقيل: الريش الجمال، وقيل: ما يتجملون به من الثياب وهذا الأظهر، فلما ذكر اللباس الظاهر ناسب أن يذكر اللباس الباطن: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ الإيمان أي: أن لباس الدين أعظم الألبسة، ومما يدل علىٰ هذا المعنىٰ قول لبيد:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبِسْتُ وَلا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أي: أنه خير لباس وخير زاد، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الألبسة ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ العظيمات ونعمه الكريمات، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ يقع لهم العظة بمعرفة عظيم نعم الله عليهم.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ يضلنكم ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بمكره فيغويكم عن سبيل الهدى، ويصرفكم عن الخير، ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بمكره ووسوسته، ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ عوراتهما، ﴿إِنَّهُۥ﴾ الشيطان ﴿يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده وولده ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ وقد رأى النبي ﷺ جنيًا وخنقه وكاد أن يربطه، وربما يراهم الإنسان إذا تحولوا إلى صورة مما مكنهم الله من التلبس بها كالحيات والكلاب، فقد قال النبي ﷺ في وصف الجن منهم حيات وعقارب، ومنهم كلاب، ومنهم يطيرون في الهواء، ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾ صيرنا ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ قرناء وأعوانًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ [مريم:٨٣]، ولا اعتصام إلا بالله، فالإنسان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويذكر الله في جميع شأنه ولا يضره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا

سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ [النحل:١٠٠]، وأما المؤمن فهو في سلامة منه، فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ**» أخرجه مسلم (٢٠٣٣).

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟﴾ أهل الإشراك ﴿فَٰحِشَةً﴾ ومنها: الطواف بالبيت وهم عراة، فنهوا عنه ﴿قَالُوا۟﴾ محتجين على جوازها ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ استدلوا بتقليد الآباء ولا حجة لهم فيه فالحجة فيما أنزل الله: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ وهذا كذب على الله فلم يأمرهم الله بكشف سوءاتهم، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾ من الأعمال والأقوال فإياكم والكذب على الله، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُون﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى﴾ بالتوحيد والعدل ويدخل فيه لا إله إلا الله، ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ وجهوا ﴿وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عند الصلاة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ المسجد هو موطن الصلاة، ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ اعبدوه حال كونكم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مخلصين الطاعة والعبادة له، واعلموا أن حشركم ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أول مرة ﴿تَعُودُونَ﴾ للبعث قال ابن عباس: إن الله تعالى بدأ خلق بني آدم مؤمنًا وكافرًا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ﴾ [التغابن:٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنًا وكافرًا، قال مجاهد: يُبعثون على ما ماتوا عليه، وفي حديث جابر قال رسول الله ﷺ: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**» أخرجه مسلم (٢٨٧٨). وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ».

﴿فَرِيقًا﴾ طائفة منكم ﴿هَدَى﴾ للحق والهدى، والنور والضياء، ﴿وَفَرِيقًا﴾ وطائفة ﴿حَقَّ﴾ وجبت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ الغواية لما في قلوبهم من الكفر والنفاق ونحوه، والسبب في ذلك: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومن اتخذ الشيطان وليًا من دون الله ألبسه الباطل كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ يظنون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ على هداية، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ يدخل فيه الرجال والنساء، ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ استروا عوراتِكُم، ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: عند كل صلاة.

📖 وَسَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةُ: ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية» أخرجه مسلم.

۞ وبهذه الآية استدل العلماء علىٰ شرطية ستر العورة في الصلاة.

﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ من رزق الله من الحلال الطيب: ﴿وَلَا تُسْرِفُواْ﴾ تجاوزوا الحد كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٧]، وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَالْبَسُوا، وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ**» أخرجه النسائي(٢٥٥٩) وعلقه البخاري(٧١٣)، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ سواءً كان الإسراف بالقول أو بالفعل.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿قُلْ مَنْ﴾ منع ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ فتتطوفون عراة، وإنما هذه عادة من عند أنفسهم، قالوا: عصينا الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الملابس فلا يجوز لنا أن نصلي، ونطوف فيها، فهو قول محدث يجب عليهم أن يتوبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ من المعاصي، ويجب عليهم إن طافوا أن يستروا عوراتِهم، ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ مِنَّةً منه وفضلًا، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ اللحم والدسم وغيره في أيام الحج وغيرها؛ وذلك لعلهم حرموا بعض ما أحل الله لهم بقوله: هذه بحيرة، وهذه سائبة، وهذه حام، ﴿قُلْ هِيَ﴾ هذه الأرزاق ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ﴾ لهم، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يتنعمون بها، وفي حال تقديره: هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا فإن أهل الشرك يُشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا، وهي في الآخرة خالصة للمؤمنين لا حظ للمشركين فيها، وقيل: هي خالصة يوم القيامة من التنغيص والغم للمؤمنين، فإنها لهم في الدنيا مع التنغيص والغم، ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ نبينُها ونجليها ونوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ شرع الله، وإما المُعرض فلا تزيده إلا بعدًا.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ أي: منع ونهى عن ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ القولية والفعلية، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ من الزنا والربا ونحوه، وبعضهم فسر الآية على خصوص هذه السبب: أن ما ظهر منها: هو طواف الرجال بالنهار، وما بطن: طواف النساء بالليل؛ لكن الآية أعم، وفي حديث عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: «**لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**» متفق عليه، ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾ وحرم الإثم، وهو الذنب والمعصية، ﴿وَالْبَغْيَ﴾ وحرم الظلم والكبر، وتوعد عليه بالعذاب، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**» أخرجه مسلم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس:٢٣]، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ هذا صفة كاشفة ليس معناه: أن هناك بغي بحق فالبغي كله باطل، إلا إذا كان في مقابلة الإساءة بدون مجاوزة، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى:٤٠]، ﴿وَ﴾ حرم عليكم ﴿أَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ﴾ تنددوا تجعلوا له شركاء ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة وبرهانًا، ﴿وَ﴾ مما

حرمه ﴿أَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذه المعصية تقمص بها أهل البدع في سابق الدهر ولاحقه، وقد جعل العلماء القول على الله بلا علم أكبر الذنوب، إذ أنه يجر إلى الشرك والتعطيل إلى غير ذلك.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ طائفة من الناس ﴿أَجَلٌ﴾ مدة ينتهون إليها، ﴿فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ﴾ منيتهم ومدتهم، ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يتأخرون ﴿سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ولا يتقدمون ساعة.

۞ وفي هذا رد على المعتزلة ومن إليهم من الرافضة الذين يزعمون بخرم الأجل فيزعمون أن المقتول أو صاحب الحادث خُرم أجله، وهذا اعتقاد باطل يخالف قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾ [الرعد:٣٨]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥].

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝٣٧﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ﴾ سيأتيكم ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ أي: يخبرونكم بفرائضي وأحكامي، ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الشرك وما دونه من المعاصي، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالطاعات، وأعظمه التوحيد، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يقدمون عليه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما يفارقونه، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ كفروا فكذبوا بآياته الكونية والشرعية، فالتكذيب بالآيات الكونية أن جعلوا مع الله شريكًا، ومثيلًا، ونظيرًا، ومعينًا، والتكذيب بالآيات الشرعية: أنهم ردوا القرآن والسنة، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ عن قبولها وتكذيبهم في الغالب عن كبر، فالكبر يمنع كثيرًا من الناس من الاستقامة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومنها لا يخرجون.

﴿فَمَنْ﴾ فلا ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ اختلف ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ وجعل له شريكًا في ألوهيته، أو ربوبيته، أو في أسمائه وصفاته، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ القرآن والسنة والوحي المنزل، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ﴾ يلحقهم ﴿نَصِيبُهُم﴾ حظهم ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي: مما كُتب لهم في اللوح المحفوظ من اللعن، والطرد، والإقصاء، حيث علم الله منهم ذلك فأركسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٣]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه، ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضونهم إذا انقضى أجلهم، ﴿قَالُوٓا۟﴾ الملائكة لهم توبيخًا ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ من الأصنام والأوثان فينقذونكم مما أنتم فيه أو يدفعوا عنكم ضرًا أو يجلبوا لكم نفعًا، ﴿قَالُوا۟﴾ الكفار ﴿ضَلُّوا۟﴾ ولوا، وضاعوا، وبطلوا، ﴿عَنَّا وَشَهِدُوا۟﴾ أخبروا وأقروا ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧].

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ الله لهم يوم القيامة ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ﴾ جملة جماعات ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت، ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ على كفر وشرك وعناد، ﴿فِى النَّارِ﴾ يعذبون ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ جماعة، ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ في الدين، ويلعن الأتباع القادة ونحو ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟﴾ وتلاحقوا ﴿فِيهَا جَمِيعًا﴾ واجتمعوا في النار، ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ التابعة التي اقتدت وضلت بسبب الأولى، ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ المتبوعة الداعية إلى الشرك والكفر، ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ حرفونا عن الهدى يريدون القادة، ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مُضاعفًا ﴿مِّنَ النَّارِ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ [النحل:٢٥]، فالمضاعفة حاصلة عليهم سواءً دُعي عليهم بهذا الدعاء أم لا، ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ عذاب مضاعف وسبب المضاعفة على المتابعين؛ أنهم دعوا من بعدهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكل فريق من العذاب، ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ﴾ المتبوعون، ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ الأتباع، ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قيل لأنكم لم تكفروا بسببنا، وقيل لأنكم كفرتم كما كفرنا، وبغيتم كما غينا فلماذا يضاعف عذابنا وأنتم لا يُضاعف عذابكم، فقال الله عَزَّوَجَلَّ لهم: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ تعملون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الشرعية، ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ تكبروا ﴿عَنْهَا﴾ فلم ينقادوا لها، وبقوا على كفرهم، ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهذا عند فراق الروح الجسد، فإن الروح يحملها ملائكة العذاب ويرقون بها إلى السماء فلا تُفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة.

فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأنصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَىٰ رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا،**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ**». قَالَ: «**فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ**» قَالَ: «**فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا،**

فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ». قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولانِّ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولانِّ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولانِّ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولانِّ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي، وَمَالِي». قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ». قَالَ: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

«فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولانِّ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولانِّ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولانِّ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُ كَالَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ» أخرجه أحمد (١٨٥٣٤).

﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أبدًا لأنَّ الله حرمها عليهم، ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ﴾ يدخل ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾ البعير، وقيل: الحبل والصحيح الأول.

﴿فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ أي: في ثقب الإبرة والمخيط، فكما أنه يستحيل دخول الجمل في هذا الثقب فيستحيل خروج الكافرين من النار، والعجب أن المعتزلة ومن إليهم ذهبوا إلىٰ عدم خلود الجنة والنار مخالفين لهذه الأدلة الواضحة الجلية،﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي﴾ نعاقب ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ علىٰ إجرامهم.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ﴾ فراشٌ، يضطجعون ويجلسون عليها، ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ لحف، وهي جمع غاشية ومعنى ذلك: أن النار أحاطت بهم من جميع جوانبهم من تحتهم ومن فوقهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزمر:١٦]. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾ آمنوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ لازموا العمل الصالح، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ طاقتها كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ

نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧]، وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وهذا من رحمته بعباده، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: أصحاب الإيمان والعمل الصالح ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يُنعمون فيها، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كما تقدم حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين يُذبح الموت ويقال: «**يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ**»، ثم تلى قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم:٣٩] متفق عليه.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ أخرجنا ﴿مَا فِى صُدُورِهِم﴾ قلوبهم ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ من حقد كان بينهم في الدنيا وهذا من عظيم نعيم الجنة، أنها لا عداوة فيها ولا تباغض، ولا تحاقد، ولا تدابر، ولا تحاسد، وهذه أمراض شديدة لا يستقر حال العبد مع وجودها بل تجد العبد مع وجودها في حالة قلق وضعف إيمان وضيقة صدر وإن كثر ماله، وأتباعه، وأبناؤه، وخدامه لأنَّ من في قلبه غل على غيره يبقى معذبًا بذلك الغل، فمن رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن هذا يُنزع يوم القيامة، فسلمت في ذلك اليوم الصدور كما سلمت الأبدان، وسلمت الأقوال، والأفعال فهي دار السلام نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكرمنا ويكرم جميع المسلمين بها، ولا يمكن أن يدخل أحد الجنة إلا وقد نُزع ما في قلبه من الغل.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**» أخرجه البخاري(٢٤٤٠).

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُواْ﴾ أهل الجنة عند الاستقرار في منازلهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُحمد الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ جميع نعمه ومننه في الدنيا والآخرة، ﴿ٱلَّذِى هَدَىٰنَا﴾ وفقنا ﴿لِهَـٰذَا﴾ العمل الذي هذا جزاؤه فهداهم لدخول الجنة، وقبل ذلك وفقهم للإيمان والعمل الصالح، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ ما كنا لنصل إلىٰ هذا الخير العظيم والنعيم المقيم، ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وفقنا الله عَزَّ وَجَلَّ، ففي الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان النبي ﷺ يقول:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

ومن هنا ينبغي للعبد أن يبقىٰ مستحضرًا لحمد الله وشكره فإن ذلك من أسباب الزيادة، فكم من زكي غير ذكي عنده بلادة لكنه مصلي وصائم وموحد، وكم من ذكي غير زكي، ذكاؤه أورده الموارد وسبب له الزيغ والأنحراف، فالله عَزَّوَجَلَّ يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا.

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ﴾ وهذا خبر منهم، يقولون: السبب الذي أوصلنا إلىٰ ما وصلنا إليه: أن رُسل ربنا جاءت بالحق، واتبعناهم وآمنا بهم وصدقناهم، ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ ناداهم الله، أو نادهم ملك من ملائكة الله، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مسلم (٢٨٣٧) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**».

﴿أَن تِلْكُمُ﴾ هذه ﴿ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ إما أن المعنىٰ أورثهم الله إياها بدلًا من الأرض الفانية، أو المعنىٰ: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلأن: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك**»، قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠﴾ [المؤمنون:١٠] أخرجه ابن ماجه (٤٣٤١).

۞ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه دليل علىٰ أن دخول الجنة لا بد فيه من ملازمة العمل الصالح، فالعمل سبب لدخول الجنة، وأما المنفي في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**» متفق عليه، فالمنفي باء العوض.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾.

﴿وَنَادَى﴾ يوم القيامة ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أهل الجنة، ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أهل النار، فقالوا لهم ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب والجزاء، ﴿حَقًّا﴾ صدقًا، ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا﴾ صدقاَ، ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ يعني: وجدوا النار التي أعدت للكافرين، ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: نادى منادٍ أسمع الفريقين، ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: البعد والطرد من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ للظالمين والمراد بهم الكفار.

﴿الَّذِينَ﴾ أي: من صفاتهم، ﴿يَصُدُّونَ﴾ يصرفون الناس، ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن التوحيد والعمل الصالح، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يطلبونها ﴿عِوَجًا﴾ أي: طريقًا زائغًا مائلًا جائرًا عن القصد وعن الدين القويم والصراط المستقيم، ﴿وَهُم﴾ زد على صدهم أنهم: ﴿بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ لم يؤمنوا ببعث ولا جزاء؛ ولذلك تمادوا في كفرهم وبغيهم.

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ بين الجنة وبين النار ﴿حِجَابٌ﴾، قيل: بين أهل الجنة وبين أهل النار سور وحاجز وهو سور الأعراف وهو الذي قال الله عنه: ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد:١٣]، ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ السور الذي بين الجنة والنار، جمع عرف وهو اسم للمكان المرتفع ومنه عرف الديك؛ لارتفاعه عما سواه، قيل: سُمي بذلك؛

لأنَّ أصحابه يعرفون الناس، ﴿رِجَالٌ﴾ استوت حسناتهم وسيئاتهم ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة وأهل النار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بصفاتهم، وقد اختلف أهل العلم في أصحاب الأعراف هل هم من أهل الجنة أم النار والتحقيق أنهم من أهل الجنة إلا أنهم حُبسوا على الأعراف لتساوي حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتُهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم النار، فوقفوا هنالك حتى يُقضي الله عَزَّوَجَلَّ أمرًا كان مفعولًا، ﴿وَنَادَوْاْ﴾ أي: أصحاب الأعراف، ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ الذين قد دخلوها، ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلمتم وبورك مقدمكم، ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أصحاب الأعراف ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ عندهم طمع في دخولها؛ لأنهم قد سلموا من النار، وفي المستدرك عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ قَوْمٌ تَجَاوَزَتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمُ النَّارَ، وَقَصُرَتْ بِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ، قَالُوا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذِ اطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ. قَالَ: **«قُومُوا ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»**

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أبصار أصحاب الأعراف ﴿تِلْقَاءَ﴾ جهة ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين في النار، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من أصحاب النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلاماتهم فكانوا عظماء في الدنيا، ﴿قَالُواْ مَآ﴾ نراه ﴿أَغْنَىٰ﴾ دفع ﴿عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ من الأموال والأتباع والأولاد، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وكبركم واستهزاؤكم وعلوكم في الدنيا، فاستكبروا على أتباع الرسول ﷺ وعلى أصحاب الإيمان، فجوزوا به فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، فَتَعْلُوَهُمْ نَارُ الأَنيَارِ**» أخرجه أحمد (٦٦٧٧).

ومن خطاب أصحاب الأعراف للمتكبرين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ﴾ أي: أهل الاستضعاف، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ﴾ حلفتم ﴿لَا يَنَالُهُمُ﴾ لا يصلهم ﴿ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أنهم لا يدخلون الجنة، ثم يُقال لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

۞ وهذا دليل علىٰ أنهم من أهل الإسلام حُبسوا علىٰ تلك القنطرة وذلك الموضع لتنقيتهم؛ لأنَّ الجنة لا يدخل فيها إلا من قد طهر ونُقي من الذنوب.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ لمن في الجنة من أرحامهم ومعاريفهم، ولو لم يكن إلا أنهم بشر مثلهم لعلهم يجدون عندهم رحمة وشفقة لما هم فيه من العذاب الأليم والخزي العظيم، وكان طلبهم ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ﴾ صبوا وألقوا ﴿عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ لشدة عطشهم.

وقد أخرج ابن أبي حاتم (٨٥٣٣) عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه سُئِلَ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ الْمَاءُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَىٰ أَهْلِ النَّارِ لَمَّا اسْتَغَاثُوا بِأَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا: أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ**».

﴿أَوۡ﴾ أفيضوا علينا ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الطعام ﴿قَالُوٓاْ﴾ أهل الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ منع طعام وشراب الجنة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾؛ لأنهم اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، وهو ما زين لهم الشيطان ليتخذوه دينًا، وما جاءهم به أهل الإيمان اتخذوه لعبًا وردوه، وقيل: بأن دينهم أي: عيدهم اتخذوه لعبًا، لكن المعنى الأول أليق، ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ فقدموها على الآخرة، مع فساد ما فيها وحالها، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نتركهم في النار، فالنسيان في حق الله عَزَّوَجَلَّ المراد به الترك، وأما النسيان بمعنى الغفلة، فالله عَزَّوَجَلَّ منزه عنه، ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ الآخرة، بتركهم العمل الصالح والجزاء من جنس العمل، ﴿وَ﴾ بسبب ﴿مَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ فلم يؤمنوا بها ولم ينقادوا لها، والله المستعان.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم﴾ ولقد آتينا كفار مكة، ﴿بِكِتَٰبٖ﴾ القرآن، ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾ بيناه ووضحناه كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [سورة هود:١]، وقال:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [فصلت: ٣]، فبينه الله ووضحه وجلاه ولا يُشكل معناه على ذي بصيرة من العرب ومن تعلم لغتهم من العجم؛ ولذلك جعله الله عَزَّوَجَلَّ بلاغًا، كما قال: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم:٥٢]، فالنذارة تكون لهم بالقرآن، والنبي ﷺ يقول: «**وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ**» متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ أي: فصله الله علىٰ علم بما يصلحهم وبما هو من أسباب سعادتهم، ﴿هُدٗى﴾ هاديًا ومرشدا، ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ ذو رحمة، ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لمن انقاد له والتزم به.

﴿هَلۡ﴾ ما ﴿يَنظُرُونَ﴾ الكفار، ﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ حقيقة اليوم الآخر وما فيه من الجزاء والعاقبة ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ يأتي اليوم الآخر وما فيه من الحقائق والبينات الواضحات، ﴿يَقُولُ﴾ الكفار ﴿ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ تركوا العمل له ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في الدنيا، ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ وأخبروا بالبعث والنشور، ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ عند الله عَزَّوَجَلَّ في عدم عذابنا ﴿فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ وهيهات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ وقال: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ**» متفق عليه.

﴿أَوۡ﴾ هل ﴿نُرَدُّ﴾ إلىٰ الدنيا، ﴿فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ نوحد الله ونترك الشرك وهم كاذبون في هذا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام:٢٨]، ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ وأيما خسارة حيث صاروا إلىٰ الهلاك، ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ بطل فلم يستفيدوا منه، ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من الشريك والتكذيب بالبعث والنشور.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبراً عن عظيم شأنه وعظيم قوته وقدره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ خالقكم، ورازقكم، ومدبركم، ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ مع سعة بنائها، وكبر حجمها، وعلوها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧]، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع قدرته في أقل من ذلك لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

❖ ولا خلاف بين هذه الآية والتي في سورة فصلت: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:٩]، فإنه خلق الأرض في يومين، وقدر فيها أقواتها في يومين فصارت أربعة، وخلق السماوات في يومين فصارت ستة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: علا، وارتفع، وصعد، وقال كثير من أهل السنة أيضًا: استقر.

۞ وهذا هو المعنىٰ الصحيح لهذه الآية، وأما من فسر الاستواء بالاستيلاء فتفسيره باطل لفظًا ومعنىٰ، أما اللفظ: فإن استوىٰ إذا عُديّ بعلىٰ فالمراد به العلو بالإجماع، وأما المعنىٰ: فإن الله علىٰ عرشه وهو في العلو، كما قال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلىٰ:١]، وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَى ﴿٢٠﴾﴾ [الليل:٢٠].

وعن معاوية بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ سأل جارية: «**أَيْنَ اللهُ؟**»، ، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، أخرجه مسلم (٥٣٧).

وكان النبي ﷺ في أعظم المواطن يقول: «**اللَّهُمَّ**»، ويشير إلىٰ السماء: «**اشْهَدْ**»، ويشير إليهم، أخرجه مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا أمر مجمع عليه، فمن زعم أن الله في كل مكان بذاته فقد كفر وصار مشابهًا لعقيدة فرعون، فإن فرعون أخبره موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ربه في السماء فكذب ذلك بلسان مقاله وإن كان قد أقر به بلسان حاله، حيث قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

وقد قال أهل العلم: من اعتقد أن الله في السماء فهو مساوي محمدي، ومن اعتقد أن الله في كل مكان فهو فرعوني.

ثم اختلقوا بيتًا واصطنعوه، ليدللوا به علىٰ باطلهم، وهو قول الأخطل:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَىٰ الْعِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

قالوا: ومعنىٰ استوىٰ استولىٰ، وبين العلماء أن هذه اللام زائدة كنون اليهود، قيل لهم: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة، قالوا: حنطة، وهؤلاء قال الله لهم: استوىٰ، قالوا: استولىٰ، وفي ذلك يقول ابن القيم :

نون الْيَهُود وَلَام جهمي هُمّا ... فِي وَحي رب الْعَرْش زائدتانِ

وقال شيخ الإسلام:

قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ القُرَانَ وَرَاءَهُ ... وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الأَخْطَلُ

❁ ثم إن الاستواء قد جاء في القرآن علىٰ عدة معان:

قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأن موسىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾ [القصص:١٤]، أي كَمُل وصار شابًا يافعًا مكتملًا.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح:٢٩]، أي: قام وارتفع علىٰ سوقه.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣]، أي: تعلوا علىٰ ظهورها إذا ركبتم.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت:١١]، قصد إلىٰ خلق السماء من العلو، ومنه استوىٰ الماء والخشبة أي: تساويا وذلك في المد والجزر.

وفي عقيدة السلف للصابوني: عن جعفر بن عبد الله قال: «جاء رجل إلىٰ مالك بن أنس يعني يسأله عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ قال: فما رأيته وجد من شيء كوجده من مقالته، وعلاه الرحضاء، وأطرق القوم، فجعلوا ينتظرون الأمر به فيه، ثم سري عن مالك فقال: الكيف غير معلوم، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعه، وإني لأخاف أن تكون ضالا، ثم أمر به فأخرج».

﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهو أول مخلوق وأعلىٰ مخلوق، علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم وهو سقف الجنة فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «...**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَىٰ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**» أخرجه البخاري(٧٤٢٣)، وهو أكبر مخلوق، وقال تعالىٰ: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]، علىٰ كسر الدال: أي: العرش الوسع، وقد جاء في الآثار: «**مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ**».

﴿يُغۡشِي﴾ يغطي ﴿ٱللَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ بقدرته العظيمة يأتي بالليل علىٰ النهار فيغطيه، ويأتي بالنهار بعد الليل فيجليه، ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ سريعًا، ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ خلقهما الله مع عجيب نفعهما، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ [نوح:١٦]، ﴿وَٱلنُّجُومَ﴾ خلقها أيضًا مع كثرة أعدادها وتنوع مصالحها، ﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾ مذللات ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ تسير بأمره فيُعرف بها السنين والحساب، ويُهتدىٰ بها في الطرقات، ومنها ما يُرجم به الشياطين، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ﴾ جميعا ﴿وَٱلۡأَمۡرُ﴾ كله.

۞ وبهذه الآية استدل أهل السنة والجماعة: علىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ متكلم متىٰ شاء وبما شاء وكيف شاء، وأن كلام الله عَزَّوَجَلَّ غير مخلوق؛ لأنَّ الله فرق بين الخلق والأمر، فيكون الخلق بالأمر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس:٨٢].

وذُكر أن سفيان بن عيينة ناظر بشرًا المريسي فزعم بشر: أن كلام الله مخلوق، فقال له: يا دويبة تصغير دابة، ألم ترَ أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ ففرق بين الخلق

وبين الأمر، فالخلق: المخلوقات، والأمر: كلامه الذي توجد به المخلوقات، والأدلة علىٰ إثبات الكلام كثيرة يأتي بعضها إن شاء الله في سورة الأعراف وسورة التوبة، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: تعالىٰ وتعاظم وارتفع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالق ومالك ومدبر العالمين.

﴿ٱدْعُواْ﴾ اطلبوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ في جميع شؤونكم، في جلب أرزاقكم، وفي عافية أبدانكم، وفي صلاح أبنائكم، وفي دفع الضر عنكم، ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذللًا واستكانة، ﴿وَخُفْيَةً﴾ سرًا، والنبي ﷺ كان يدعو الله سرا تارة ويجهر تارة، فلا بأس أن يدعو الإنسان ويُسمع نفسه ولا يؤذي غيره، ولعل دعاء السر أجوب من دعاء الجهر؛ لخلوص النية وصلاح الطوية؛ وأنفع الدعاء ما يكون في جوف الليل الآخر، وما يكون في السجود، وما يكون عند الاضطرار حين تنقطع الأسباب ويبقى السبب الذي بين العبد وبين الله، فنبي الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أُلقي في البحر في ليلة مظلمة، وفي لجة مظلمة، وفي بطن حوت مظلم ومع ذلك بقي السبب الذي لا ينقطع إلا بالموت فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال الله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء، كأن تدعو بمنزلة الأنبياء، أو تدعو بما لا يجوز من قطيعة الرحم فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، أَوْ يَسْتَعْجِلَ فَيَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَا أَرَى يَسْتَجِيبُ لِي**» أخرجه البخاري ي الأدب المفرد (٦٥٥) قال الألباني: صحيح.

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالشرك والمعاصي، ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بالإيمان والعمل الصالح، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ، كرر الأمر بدعائه؛ للحاجة إلى دعائه ورجائه عَزَّوَجَلَّ، ﴿خَوْفًا﴾ منه ومن أليم عذابه، ﴿وَطَمَعًا﴾ في مغفرته، وهذا حال الأنبياء كما قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ بعباده من فرجه، وعونه، وتسديده، ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيرحم الله عباد بتكفير ذنوبهم، وستر عيوبهم، وإثابتهم على دينه فهو

الرحمن الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو تعالى قريب من عباده وهو في علوه على عرشه، فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» متفق عليه، وعن عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعَبْدِ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرَ» أبي داود (١١٥٨).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالرحمة، ﴿بُشْرًۢا﴾ وفي قراءة: ﴿نَشرًا﴾: وهي الريح الطيبة اللينة التي تكون قبل المطر كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾ [المرسلات:٣]، و﴿بُشْرًا﴾ أي: مبشرة بالماء ونزول المطر، ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ المطر، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ: كان إذا نزل المطر قال: «رَحْمَةٌ» أخرجه مسلم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالمطر، ﴿سُقْنَٰهُ﴾ أي السحاب، ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يحتاج إلى الماء، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ بالبلد ﴿الْمَاءَ﴾ المطر، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من تلك الأرض التي أُمطرت، ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم فاستدل بإحيائه للأرض الميتة على أحيائه للناس يوم البعث والنشور، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتذكرون وتتعظون وتؤبون وتعودون إلى طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يستفيد من المطر؛ كما يستفيد القلب الطيب من العلم، ففي حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ

فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» متفق عليه.

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ حسنا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: طيبًا لطيب منبته مفيدًا للناس يأكلون من حبه وثمره، ويستظلون بشجرة، ويستفيدون من تربته، ﴿وَ﴾ البلد ﴿ٱلَّذِى خَبُثَ﴾ ترابه وهي الأرض السبخة، ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباتها، ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ عسرًا قليلًا بعناء ومشقة ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ﴾ نبين ﴿ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، وأما المُعرض فلا يستفيد من هذه الأمثلة شيئًا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ [الذاريات:٢٠]، فجعلها الله آيات يهدي بها إلىٰ إثبات الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وما له من الحق علىٰ عباده، فإن التصريف الذي يقع في الكون يدل علىٰ إرادته، وقدرته، وعلمه، وقوته، وقهره، وكما هو معلوم أن الله عَزَّوَجَلَّ يُعرف بآياته الكونية والشرعية، فتمايز البلدان هذا طيب وهذا خبيث، وكذلك تمايز الألوان، وتمايز الطعم كل ذلك يدل علىٰ قدرة الملك العلام سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾.

هذا شروع في ذكر قصص الأنبياء والمرسلين مع أممهم في هذه السورة كالتسلية لرسول الله ﷺ، ومن معه من المؤمنين وبيان أن العاقبة للمتقين.

- وفيها التهديد للمشركين ومن إليهم من أن عاقبتهم خسرًا وأمرهم إلىٰ بوار.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ وهو أول رسول إلى أهل الأرض، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على التوحيد كما ذكر ابن عباس، وسمى الله نوحًا عبدًا شكورًا، ولبث في قومه يدعوهم إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عاما، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ،

﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ﴾ وأفردوه بما يجب له كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، وعن طارق المحاربي أن النبي ﷺ كان يقول: «**قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»، ﴿مَا﴾ ليس ﴿لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وهذا معنى لا إله إلا الله، قوله: ﴿اعْبُدُواْ﴾ إثبات، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ﴾ نفي، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ أتخوف ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إن تمردتم على شرع الله ولم تؤمنوا به وبكتبه ورسله، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿قَالَ الْمَلأُ﴾ الجماعة الذين كفروا ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ أي: أصحاب الكبر والغطرسة، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ خطأ وزوال عن الحق، ﴿مُّبِين﴾ بيّن وواضح ما عندنا فيك تشكك ولا تردد ﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾ وقوم الرجل ينبغي أن يكونوا في رفق به ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ كما تزعمون وتدعون، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ أخبركم، ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ أوامر الله ونواهيه، جُمعت لكثرة الشرائع المأمور بها من توحيد، وصلاة، وصيام، وحج وإلا فهو رسول واحد، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ بدعوتي لكم إلى التوحيد، فليس مرادي تغيير حالكم لمصلحة نفسي، وإنما هو النصيحة، وبهذا تعلم معنى قول النبي ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**» أخرجه مسلم (٥٥) عن أبي تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ حيث علمني بالوحي المبين ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه بيان أن من شروط الداعي إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ: أن يكون ذا علم وبصيرة بما يقول وما يدعو إليه، ومنه: العلم بحال المشركين والمعرضين عن دين رب العالمين ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ استفهام؛ أتتعجبون، ﴿أَن جَاءكُمْ﴾ أتاكم، ﴿ذِكْرٌ﴾ موعظة، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خالقكم، ورازقكم، ومدبركم، ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع ذلك قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤]، وقد كان الله عَزَّوَجَلَّ يُرسل كل رسول إلىٰ قومه بلسانهم، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي: يخوفكم من بطش الله وعقابه وناره، ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إذا حصل منكم

الإيمان فيرحمكم في دنياكم بالثبات علىٰ الدين والسلامة من الهلاك، وفي أخراكم بدخول الجنة، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وردوا دعوته وهذا صنيع المعرضين، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ سلمناه ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ في سفينة عظيمة صنعها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بيده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:٣٨]، وحمل فيها من كل زوجين اثنين علىٰ ما يأتي في تفسير سورة هود إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ بالطوفان ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ كفروا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:٤٣]، ﴿إِنَّهُمْ﴾ الكفار من قوم نوح ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ يتعامون عن أخذ الحق والاستفادة منه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وقال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر إذ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح، وكانت قبيلة جبارة تقطن الأحقاف من حضرموت في جزيرة العرب، ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: في النسب لا في الدين، ﴿هُودًا ۗ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحدوه، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ولا رب سواه، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون نقمته وبطشه.

﴿قَالَ الْمَلأُ﴾ الجماعة ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ يا هود: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ في حمق وجهالة، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ نستيقن إنك ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ على الله عَزَّوَجَلَّ ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ طيش، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إخبار بما هو عليه من الحال، وإنما ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ أخبركم بـ ﴿رِسَالاتِ رَبِّي﴾ أي: ما أرسلني به إليكم، ﴿وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ حريص عليكم موجه لكم إلى كل خير، ﴿أَمِينٌ﴾ في نصحي لا يحملني بغضكم وازدراؤكم، واحتقاركم على كتم النصيحة.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ أتعجبتم، ﴿أَن جَاءكُمْ﴾ رسالة، و ﴿ذِكْرٌ﴾ موعظة، ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ من أنفسكم لا من غيركم وهو هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ يخوفكم من النار ويبشركم بالجنة، ﴿وَاذْكُرُواْ﴾ اشكروا نعمة الله ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء﴾ في الأرض وملككم أيها ﴿مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ حيث أغرقهم وأبادهم، وكان آباؤهم قومًا صالحين؛ لأنَّ نوح يُعتبر أبو البشرية الثانية، فأُهلك من كان من الكافرين ومع ذلك ما أسرع الكفر إلى الناس إذ لم يثبتهم الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَزَادَكُمْ﴾ الله ممتنا عليكم ﴿فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ قوة كما قال تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر:٧-٨]، ﴿فَاذْكُرُواْ آلاء﴾ نعم ﴿اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يحصل لكم الفلاح في دفع المرهوب وحصول المطلوب.

﴿قَالُواْ﴾ يا هود ﴿قَالُوَاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ﴾ أي إلى الدعوة إلى التوحيد واعتبروها عظيمة، وهذا كقول كفار قريش: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، ﴿وَنَذَرَ﴾ نترك ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قولك ودعواك أنك رسول الله ﷺ ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ وجب ونزل، ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب، ورجس ورجز بمعنى، ﴿وَغَضَبٌ﴾ غضب الله عليهم.

۞ وفيه: إثبات صفة الغضب لله عَزَّوَجَلَّ وهي من الصفات الفعلية: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، ومن لوازمها: أنه ينتقم، ممن غضب عليه كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾ تخاصموني من المجادلة والمعارضة، ﴿فِيٓ أَسْمَآءٍ﴾ أصنام وأوثان ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ تعبدونها من دون الله، ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ من آية ولا بينة أو حجة بل هو التقليد والقياس الفاسد، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ العذاب، ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ فأنجاه الله وأهلكهم؛ وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ، قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ، عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهِ**» أخرجه مسلم (٢٢٨٨) عن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ عند نزول العذاب، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ آمنوا بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ رحمهم الله، ﴿وَقَطَعْنَا﴾ أهلكنا ﴿دَابِرَ﴾ آخر ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بإهلاكهم، ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ وحتى لو أحياهم الله وأبقاهم ما كان لهم أن يبقوا على الإيمان؛ وذلك لتعمق الكفر في قلوبهم.

وفي مسند أحمد عَنِ الْحَارِثِ بْنِ حَسَّانَ قَالَ: مَرَرْتُ بِعَجُوزٍ بِالرَّبَذَةِ مُنْقَطِعٌ بِهَا، مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، قَالَ: فَقَالَتْ: أَيْنَ تُرِيدُونَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نُرِيدُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: فَاحْمِلُونِي مَعَكُمْ فَإِنَّ لِي إِلَيْهِ حَاجَةً. قَالَ: فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ غَاصٌّ بِالنَّاسِ، وَإِذَا رَايَةٌ سَوْدَاءُ تَخْفِقُ، فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ الْيَوْمَ؟ قَالُوا: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَجْهًا، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَجْعَلَ الدَّهْنَاءَ حِجَازًا بَيْنَنَا، وَبَيْنَ بَنِي تَمِيمٍ، فَافْعَلْ فَإِنَّهَا كَانَتْ لَنَا مَرَّةً، قَالَ: فَاسْتَوْفَزَتِ الْعَجُوزُ، وَأَخَذَتْهَا الْحَمِيَّةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ تَضْطَرُّ مُضَرَكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَمَلْتُ هَذِهِ وَلَا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَائِنَةٌ لِي خَصْمًا، قَالَ: قُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا قَالَ الْأَوَّلُ؟**» قَالَ: عَلَىٰ الْخَبِيرِ سَقَطْتَ - يَقُولُ سَلَّامٌ: هَذَا أَحْمَقُ، يَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: عَلَىٰ الْخَبِيرِ سَقَطْتَ - قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هِيهْ» يَسْتَطْعِمُهُ الْحَدِيثَ، قَالَ: إِنَّ عَادًا أَرْسَلُوا وَافِدَهُمْ قَيْلًا، فَنَزَلَ عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ، وَتُغَنِّيهِ الْجَرَادَتَانِ، فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ أَتَىٰ جِبَالَ مُهْرَةَ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي لَمْ آتِ لِأَسِيرٍ أُفَادِيهِ، وَلَا لِمَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ، فَاسْقِ عَبْدَكَ مَا كُنْتَ سَاقِيَهُ، وَاسْقِ مُعَاوِيَةَ بْنَ بَكْرٍ شَهْرًا - يَشْكُرْ لَهُ الْخَمْرَ الَّتِي شَرِبَهَا عِنْدَهُ - قَالَ: فَمَرَّتْ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنُودِيَ أَنْ خُذْهَا رَمَادًا، رِمْدِدًا لَا تَذَرْ مِنْ عَادٍ أَحَدًا قَالَ أَبُو وَائِلٍ: فَبَلَغَنِي أَنَّ مَا أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ كَقَدْرِ مَا يَجْرِي فِي الْخَاتَمِ.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَ﴾ واذكر إذ أرسل الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهو ثمود بن عامر بن أرم بن سام بن نوح، وأرادها هنا القبيلة، قيل: سُميت ثمود؛ لقله مياهها، والثمد: الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ في النسب لا في الدين، ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ﴾ أي: وحدوه، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ ما لكم من معبود بحق سواه، وفي الآية معنى لا إله إلا الله، ﴿قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آية بينة واضحة جلية لا يلتبس شأنها ولا يخفى أمرها، دليل على صدق نبوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وكانت ﴿هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ﴾ إضافة تشريف.

۞ فالإضافة إلىٰ الله تنقسم إلىٰ قسمين: أضافة صفات، وإضافة مخلوقات وهي إضافة تشريف أو ملك وخلق وإيجاد، فما كان من المعاني التي تقوم بغيرها فيُثبت لله بها الصفة علىٰ ما يليق بوجهه كوجه الله، ويد الله، وسمع الله، وغضب الله، ورضا الله، وما كان من الأعيان التي تقوم بنفسها فإضافتها إلىٰ الله إضافة تشريف: كناقة الله، أو خلق وإيجاد: كسموات الله وأرض الله.

﴿لَكُمْ آيَةً﴾ علامة علىٰ صدق نبوة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَذَرُوهَا﴾ اتركوها ﴿تَأْكُلْ﴾ العشب، ﴿فِي أَرْضِ اللهِ﴾ أضاف الأرض إليه إضافة ملك حتىٰ لا يقول قائلهم: مزرعتي، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ لا تصيبوها ﴿بِسُوءٍ﴾ بعقر أو ضرب أو غير ذلك، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جزاء فعلكم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب موجع.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ﴾ صيركم ﴿خُلَفَاءَ﴾ استخلفكم في الأرض، ﴿مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ التي أهلكها بالريح لكفرها، ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ أسكنكم وأنزلكم ﴿فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون في سهولها القصور، ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ تحفرون ﴿الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ تأخذون من حجارتها ما تستكنون وتستظلون، ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ﴾ نعمه الله عليكم، يزدكم من فضله، ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ تنتشروا ﴿فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وهو أشد الفساد، يقول: عثا الشيب إذا انتشر في الرأس، فنهاهم الله عَزَّوَجَلَّ عن جميع الفساد.

﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ الجماعة ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وجحدوا ولم يؤمنوا،﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ﴾ للمؤمنين ﴿مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كالاستهزاء والاستخفاف، ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ منقادون مقرون ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ كفروا ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ جاحدون، وهكذا أتباع الرسل هم المستضعفون ابتداءً، ﴿فَعَقَرُوا﴾ ذبحوا وقتلوا ﴿النَّاقَةَ﴾ كبرًا بعد أن تمالأوا على قتلها بتهديد ووعيد، والذي عقرها واحد لكن أضاف الله العقر إليهم جميعًا؛ لأنهم رضوا بفعله وصنيعه، فالرضى بالمنكر صاحبه مشارك في المنكر، ﴿وَعَتَوْا﴾ استكبروا، ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾

بالإحسان إلى الناقة، ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ﴾ تحديًا وتكبرًا، ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فعاجلهم الله بالعقوبة.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ الرَّجۡفَةُ﴾ وهي زلزلة الأرض وحركتها، فصيح فيهم صيحة عظيمة ورجفت الأرض من تحت أقدامهم، ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾ وفي بعض الآيات: ﴿دِيَارِهِمۡ﴾ [هود:٦٧]، بيوتهم، ﴿جَاثِمِينَ﴾ خامدين ميتين، قيل: سقطوا على وجوههم موتة إلى آخرهم.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ أعرض عنهم صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكان هذا التولي قبل الرجفة والصيحة ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي﴾، وهو الواجب عليه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَنَصَحۡتُ﴾ في دعوتي، ﴿لَكُمۡ﴾ إلى الخير، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ بسبب الكفر، والكبر، والعناد، والبغي.

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ شأن ثمود وما لحقهم ذكر قوم لوط، مخبرًا عن حالهم وما لحق بهم وسبب هلاكهم فإنهم قد جاءوا بفاحشة سيئة وبفعل ذميم لم يسبقوا إليه، وذاك دليل علىٰ فسادِ فطرهم، وضعف دينهم، وفساد أخلاقهم، وما انتشر فعلهم في أمة من الأمم إلا قل حياؤها وذهب خيرها وظهر شرها، وكانت الفائدة من رجالهم وشبابهم معدومة يتكسرون كتكسر النساء، ويتمايلون كتمايل المومسات، فلا تجد في أحدهم معروفًا ولا برًا؛ لأنه قد رضي في نفسه بأبشع الأفعال، فإن الإنسان إن لم يحفظ شرفه فهو لما سواه أضيع، وربما رضي بالشر في زوجه وابنته ومن إليه لإرضاء نفسه بهذه الفعلة القبيحة، وفي الغالب أن صاحب هذه الفعلة يكون ديوثًا إذ أن الغيرة علىٰ المحارم إنما تأتي من أصحاب المكارم، فرجل قد رضي في نفسه كيف لا يرضىٰ بغيره، ولم تنتشر هذه الفاحشة بصورة معلنة بعد قوم لوط إلا في هذه الأعصر المتأخرة حيث تبنىٰ الدعوة إليها النصارىٰ ومن

إليهم؛ وذلك أن الماسونية العالمية هي التي تدفعهم لهذا الفعل؛ لإشاعة الفاحشة والبغاء، وقد تمكنوا من إشاعة الفاحشة بين الرجال والنساء وبين النساء والنساء، ثم لم يكتفوا حتىٰ أشاعوها بين الرجال والرجال، ولهم في ذلك طرق، ومن أعظم ما يسبب للإنسان الوقيعة في شراكهم ضعف الإيمان، وتسلط الشهوة، وضعف المروءة، وضعف الأخلاق فلا أسوأ بعد الشرك منهم بحال، والله المستعان.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد إذ أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ وهو ابن أخي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ الذين بُعث وأُرسل إليهم وهم أهل سدوم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني: إتيان الذكران، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال عمرو بن دينار: ما يروى ذكر على ذكر في الدنيا إلا كان من قوم لوط.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ في أدبارهم، ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أشهى عندكم من فروج النساء، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مجاوزون للحد مرتكبون للحرام تاركون للحلال، وقد قال لهم نبيهم: ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر:٧١]، يريد نساء تلك الأمة، فلا يُفهم أن لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ رضي في بناته بالزنا من أجل أن يكفوا عن أضيافه؛ معاذ الله فلوط نبي كريم ما كان ليرضى الدياثة ولكن دلهم على نسائهم وزوجاتهم، فإن النبي لأمته بمنزلة الوالد، ولكنهم مع ذلك أبوا وتجرؤوا وأخبروه أن لا رغبة لهم في النساء: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود:٧٩]، وهذا دليل على قلة الحياء.

ولذلك قال النبي ﷺ: «**الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الآخَرُ**» أخرجه الحاكم (٥٨) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي الصحيحين عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»، وقال ﷺ: «**الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**».

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ في ردهم عليه، وتمالؤهم ومكرهم به، ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض، ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي: لوط ومن إليه من بناته، وذنبهم عندهم:

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزهون عن أدبار الرجال، سبحان الله حين ينتشر الشر والبلاء تجد أن أصحاب الباطل يتبجحون بباطلهم ويُعيّر أهل الاستقامة باستقامته.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَأَهْلَهُ﴾ من خزيهم، وصنيعهم، وأنجاه الله مما نزل بهم من الدمار، ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ زوجته، ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقين فأُهلكت مع من أُهلك.

﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ أنزلنا ﴿عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ من حجارة من سجيل كما سيأتي في سورة هود، ﴿فَانظُرْ﴾ متفكرًا متأملًا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ في الدنيا فكيف سيكون عاقبتهم في الآخرة؛ ولهذا حكم العلماء على أن من يأتي فعلة قوم لوط أنه يُلقى من شاهق ثم يُرجم بالحجارة؛ لأنَّ الله رفعهم إلى حيث شاء ثم نُكِسوا وأتبعهم بالحجارة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَ﴾ كما أرسلنا إلىٰ من سبق ذكرهم أرسلنا: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ أي: إلىٰ ولد مدين وهو مدين بن إبراهيم خليل الرحمن، وهم أصحاب الأيكة أي: الشجرة التي كانوا يعبدونها من دون الله، ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ في النسب لا في الدين، قيل: هو شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم، وقال ابن إسحاق: هو شعيب بن ميكائيل بن يسخر بن مدين بن إبراهيم، وأمه ميكائيل بنت لوط، وقيل: هو شعيب بن يسرون بن مدين، وكان شعيب أعمىٰ وكان يُقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ دعاهم إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة، ﴿قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آية، وموعظة وذكرىٰ، ﴿فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ﴾ في المكيلات من

الأطعمة ونحوها ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ في الموزونات أي: مع توحيدكم، وأما الوفاء بالكيل والميزان مع كفرهم فلا ينفعهم، وبهذا تعلم أهمية التدرج في الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ والبدء بالأهم فالأهم، ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ لا تظلموا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾ حقوقهم فلا تُنقصوهم إيَّاها ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ﴾ بالشرك والمعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بالتوحيد والطاعة، فإن هذا أعظم ما يُفسد البلاد والعباد، ﴿ذَلِكُمْ﴾ الإصلاح الديني والخلقي ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دنياكم وأُخراكم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بما أقول لكم.

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ﴾ تجلسوا حسا أو معنا للصد عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ طريق للإسلام وأهله، ﴿تُوعِدُونَ﴾ تهددون، حيث كانوا يهددونه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَتَصُدُّونَ﴾ تصرفون ﴿عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾ عن دين الله، ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ من المستضعفين ونحوهم، ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ تريدونها عِوَجًا مائلة عن الإيمان والإسلام إلى الشرك والإجرام، ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ في سابق عهدكم ردهم إلى التذكير بنعم الله عليهم لعلهم أن يرعووا وينزجروا، ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالتناسل والتزاوج فكثر عددكم وكثرت أموالكم، ﴿وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ من قوم لوط، وثمود، وعاد، وقوم نوح.

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ﴾ عدد قليل، ﴿مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من التوحيد، ﴿وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ وهم الأكثر، ﴿فَاصْبِرُواْ﴾ أي: أهل الإيمان وكذلك أهل الإجرام، وهذا على التهديد، ﴿حَتَّى يَحْكُمَ﴾ يفصل ﴿اللّهُ بَيْنَنَا﴾ بإعلاء كلمته وإركاس المخالفين لشرعته، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ خير القاضين، وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبًا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبًا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ﴾ الجماعة ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ﴾ وكفروا ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ محاججة ومجادلة، ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ من بلدتنا ﴿يَشُعَيْبُ﴾ تهديد ووعيد على إخراجه من وطنه وبلده، وهكذا كل رسول يُخرج من بلده ووطنه قال ورقة بن نوفل يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» قَالَ وَرَقَةُ: «**لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَأُوذِيَ**»، قال: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟**»، قَالَ: نَعَمْ» متفق عليه، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾ من المستضعفين وغيرهم، ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾ مع أنها عامة لهم وكلهم ورثوها من آبائهم، ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ ترجعن ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ ديننا دعوة إلى الكفر والردة، ﴿قَالَ﴾ شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ لدينكم لما نعلم ما فيه من الضلال ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى﴾ اختلقنا ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا﴾ رجعنا ﴿فِي مِلَّتِكُم﴾ دينكم والمعنى أنهم لو كانوا صادقين في قولهم واتباعهم ما ارتدوا، ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ من دينكم الباطل فلأنَّ يُقذف المؤمن في النار أهون عليه من أن يرتد عن دينه، ففي حديث أنس قال رسول الله ﷺ: « **ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ** » متفق عليه، ﴿وَمَا﴾ لا ﴿يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ في ملتكم، وليس معناه أن شعيب كان في ملتهم ثم خرج منها وطالبوها بالعودة إلى ما كان عليه، ولكن معناه أنهم طلبوه أن يدخل في ملتهم ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ مشيئةً كونية، فإذا كان قد سبق في علم الكتاب أن نرتد قد يقع ذلك، أما والله عَزَّوَجَلَّ قد هداهم وثبتهم

فمحال، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا تخفى عليه خافية، وهو أعلم بأهل الهداية فوفقهم، وأعلم بأهل الغواية فأركسهم، ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في جميع شأننا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ﴾ احكم ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ الحاكمين.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ مهددين المسلمين، ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ علىٰ دينه، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ في الدنيا، وهذا القول منهم من التألي علىٰ الله وإلا فإن الوعد من الله، برفع أهل الإسلام، وضعة أهل الكفران.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة، بسبب كفرهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ مُقعدين لا يستطيعون الحراك، وقد فارقت أرواحهم أجسادهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ وأعرضوا عن دينه، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ كأن لم ينزلوا في تلك البلاد فبعد أن أُهلكوا صارت خاوية منهم، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ المنقوصين، خسروا دنياهم وأُخراهم، ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ شاخصًا، ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ علىٰ ما تقدم إما أن يكون قال هذا قبل أن يُخسف بهم، وإما أن يكون قاله بعد أن خُسف بهم، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بتوجيهكم إلىٰ طُرق الخير والسلامة، ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أحزن، ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ لا حزن ولا بؤس عليهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

هذا إجمال بعد تفصيل، بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ما حل بقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وشعيب، أخبر أن القرىٰ التي سلكت هذا المسلك قد دُمر عليها، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن ليجري عاقبته حتىٰ يقيم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فكذبوه وأعرضوا عن دعوته، ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ﴾ عاقبنا ﴿أَهْلَهَا﴾ سكانها ومن إليهم الذين عصوا وتمردوا ولم يؤمنوا، ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ الفقر، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض، وقيل: البأساء: ضيق العيش، والضراء: سوء الحال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يتذللون أي: يتضرعون إلىٰ الله بالدعاء، ويتوبون ويرجعون من ذنوبهم فيرفع عنهم.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾ أعطيناهم ﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾ الشدة والفقر، ﴿الْحَسَنَةَ﴾ النعمة، والسعة، والخصب، والصحة، ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ كثروا وازدادوا وكثرت أموالهم، ﴿وَّقَالُوا﴾ كفرا للنعمة ﴿قَدْ مَسَّ﴾ أصاب ﴿ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ﴾ يعني: أن الذي يحصل علينا هو أمر يتعاقب علىٰ من قبلنا تارة سراء وتارة ضراء، أي: أن الأمر عندهم ليس بحسب الطاعة والمعصية، والإقبال والإدبار، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ قد يُنعم علىٰ أُناس في دنياهم للمكر بهم، وقد يقتر عليهم ليتوبوا لكن هؤلاء لم ينتبهوا لذلك، ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ عاقبناهم ﴿بَغْتَةً﴾ علىٰ حين غفلة وغرة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بحال مجيئه فلم يتمكنوا من توبة ولا إنابة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ﴾ المدن الحواضر والبوادي، ﴿آمَنُوا﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ ورسله، ﴿وَاتَّقَوا﴾ بفعل المأمور، وترك المحظور، ﴿لَفَتَحْنَا﴾ تابعنا ﴿عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ المطر والنبات، والخير العظيم، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ أعرضوا وتمردوا، ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ بالعذاب ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الأعمال الخبيثة، إذًا ما يقع على الناس إنما يكون بسوء صنيعهم، وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى:٣٠]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧].

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ﴾ المكذبون المعرضون ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا، ﴿بَيَاتًا﴾ ليلًا، ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ في أشد الغفلة عنه.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نهارًا، وقيل: صدر النهار، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ساهون لاهون، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ بهم واستدراجهم بالنعم والله عَزَّوَجَلَّ موصوف بالمكر مقابلة لمكرهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال:٣٠]، فلا يُقال: الماكر مطلقًا، ولا يُنفى عنه صفة المكر، ولكنه يمكر بالماكرين، ويستهزئ بالمستهزئين، ويسخر بالساخرين.

فالصفات تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

صفات كمال مطلق: كالعلم، والقوة، والقدرة فهذه تُثبت لله عَزَّوَجَلَّ مطلقًا.

وصفات نقص مطلق: كالصمم، والبكم، والعجز فهذه تُنفىٰ عن الله عَزَّوَجَلَّ مطلقًا، مع إثبات كمال ضدها.

وصفات كمال من وجه ونقص من وجه: كالمخادعة، والمكر، والكيد فهذه تُثبت لله عَزَّوَجَلَّ في حال كمالها وهو المقابلة، وتُنفىٰ عن الله عَزَّوَجَلَّ في حال نقصها، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ المعرضون الكافرون، وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «**أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ**» أخرجه معمر (١٩٧٠١).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ في قراءة قتادة بالنون: ﴿نَهْدِى﴾، أي: أولم نبين، ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ﴾ هلاك ﴿أَهْلِهَا﴾ الذين كانوا فيها قبلهم، ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ أخذناهم وعاقبناهم كما عاقبنا من قبلهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ بمعاصيهم، ﴿وَنَطْبَعُ﴾ نختم، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا تنتفع بموعظة ولا تستفيد من زاجر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة:٧]، فيهددهم الله أن يصيبهم بذنوبهم وسوء أفعالهم، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظةً ولا يستجيبون؛ لأنَّ السمع يُطلق على سمع الاستجابة.

عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « **وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ يَسْمَعُ اللهُ لَكُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَالَ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» أخرجه مسلم (٤٠٤).

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من: ﴿الْقُرَى﴾ الهالكة: قوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب ومن إليهم، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَنْبَآئِهَا﴾ من أخبارها لما فيها من الاعتبار، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات والمعجزات والعجائب الدالات على عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وعلى صدق أنبيائهم ومع ذلك أبوا وأعرضوا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ لشدة إعراضهم، ولشدة تسلط الشيطان عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:١٠٢]، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوب الأمم الخالية يطبع على قلوب الكافرين، إذ أنه لو شاء هدى الناس جميعًا ولكن له الحكمة يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا.

﴿وَمَا وَجَدْنَا﴾ لقينا ﴿لِأَكْثَرِهِم﴾ لأكثر الأمم الماضية ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ يفون به ومن العهود التي بين الإنسان وبين الله عَزَّوَجَلَّ: التوحيد، والصلاة وغير ذلك، ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ كافرين مخالفين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

هذا شروع في ذكر قصة بني إسرائيل، وقص الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ محمد ﷺ هذا القصص العظيم؛ لتثبيته وتصبيره علىٰ ما يُلاقي من إعراض المعرضين في الدعوة إلىٰ رب العالمين، حتىٰ قال النبي ﷺ: « **يَرْحَمُ اللهُ مُوسَىٰ لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ** »، متفق عليه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، آذوه في عرضه، وفي نفسه، وفي دينه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ أي: أرسلنا من بعد الأمم السابقة، ﴿مُّوسَى﴾ وهو ابن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التوراة وما إليها من الحجج كالعصا واليد وغيرها ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر ﴿وَمَلَإِيهِ﴾ وقومه واتباعه ، فكل ملك في مصر يُسمى فرعون، كما أن ملك اليمن تبع، وملك الحبشة النجاشي، وملك الفُرس كسرى، وملك الروم قيصر، وملك الإسكندرية المقوقس، ﴿فَظَلَمُواْ﴾ جحدوها وكفروا ﴿بِهَا﴾ بآيات الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الكافرين بإهلاكهم وتدميرهم.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لفرعون حين دخل عليه، ﴿يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أرسلني الله عَزَّوَجَلَّ إليك أدعوك إلى توحيده وإفراده بما يجب له، وانظر إلى قوله: ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مع أن فرعون يزعم أنه الرب الأعلى، فكان في هذا الخطاب رد لدعواه، والعالم: كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿حَقِيقٌ﴾ أي: حريٌ وجدير، ﴿عَلَى أَن﴾ بأن ﴿لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أن أبلغ الحق الذي أرسله الله وبينه، ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي التوراة، وهكذا الآيات التي سيقصها الله عَزَّوَجَلَّ من العصا وغير ذلك من الآيات البينات العظيمات، ﴿فَأَرْسِلْ﴾ أطلق ﴿مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ للرجوع إلى الأرض المقدسة، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقة من ضرب اللبن ونقل التراب ونحوهما، فلم يستجب فرعون لهذا النداء على ما يأتي، بل ازداد بغيًا وعتوًا.

﴿قَالَ﴾ فرعون، ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ﴾ علامة وحجة تدل على صدقك وصدق دعوتك، ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ أظهرها، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قولك.

﴿فَأَلْقَى﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿عَصَاهُ﴾ من يده، والله أعلم من أي شيء هي، ولا حاجة لنا في الاستفصال عن نوعها وحجمها ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ الذكر العظيم من الحيات، ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بين ظاهر، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل:١٠]، ويجمع أنها كانت كالحية الصغيرة في الحركة والخفة، وكالحية الكبيرة في الجثمان.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أخرجها من جيبه وهو ما تحت الرقبة، ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾ لها شعاع عظيم ليس ببرص ولا نحوه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ الجماعة من عِلْيَةِ القوم والمستكبرون من أصحاب مشورة فرعون، ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: أن هذا الذي أخذ بأعيننا من تحرك العصا وكونها حية، وكذلك بياض اليد لهو من السحر البيّن الواضح، وهذه تهمة تعاقب عليها الكفار، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

﴿يُرِيدُ﴾ بهذه الدعوة التي جاء بها ﴿أَن يُخْرِجَكُم﴾ يا معاشر القبط، ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ مصر فعند ذلك قال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: ماذا تُشِيرون.

﴿قَالُواْ﴾ الملاء من قوم فرعون ﴿أَرْجِهْ﴾ أخره، وقيل: احبسه، ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَأَرْسِلْ﴾ وابعث رسلًا من قبلك جنودًا ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ جامعين.

﴿يَأْتُوكَ﴾ يجيئونك، ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ وقد تقدم في سورة البقرة كفر من تعلمه وعلمه، ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ ملتزمين بأمره واجتمعوا عنده، ﴿قَالُواْ إِنَّ﴾ وفي قراءة: ﴿أئن﴾، ﴿لَنَا لَأَجْرًا﴾ نوالا وعطاءً وجُعلًا ومالًا على ما نقوم به، ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾

المنتصرين على موسى ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ﴾ لكم أجر، ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ أيضا ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندنا في المنزلة والرفعة والمشورة.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾.

وجمع فرعون السحرة على ما أشار به زبانيته، فحين اجتمعوا في اليوم المشهود ﴿قَالُواْ﴾ السحرة، ﴿يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ عصاك، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ لما معنا من العصي والحبال ﴿قَالَ﴾ لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَلْقُوْاْ﴾ ما معكم، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْاْ﴾ حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، صرفوهم باستخدام السحر والشعوذة يتخيلون الحبال والعصي حيات وثعابين.

❖ وبهذا استدل بعضهم على أن السحر لا حقيقة له، وقولهم: فاسد، فإن السحر له حقيقة ولذلك يُعلم ويُتعلم.

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وخوفوهم وأفزعوهم؛ لأنَّ عادة الناس التخوف من الحيات والعقارب لما فيها من السمية، ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ وذلك أنهم كانوا من أمهر السحرة في زمانهم، واستخدموا كل حيلة لبيان انتصارهم ولكن لا غالب لأمر الله إذا جاء، ولقد لحق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التخوف منهم كما قال الله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ٦٨﴾ [طه:٦٨].

﴿ وَأَوْحَيْنَا﴾ أوحى الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ التي جعلها الله آية، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تأكل وتتناول، ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يكذبون من التخيل ويزورونه بتموهيهم على الناس.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ ثبت وظهر وتبين، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ من السحر؛ فلو كانت عصا موسى سحرًا كما يقولون ما استطاعت أن تأكل حبالهم، لكن لما رأوا ما هي عليه علموا أنها آية، ﴿فَغُلِبُوا۟﴾ هزموا فرعون وقومه ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان والموطن، ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ ذليلين مقهورين، ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، وألهمهم السجود أو أنهم قد علموا أن في دين موسى السجود وفعلوا ذلك؛ إظهارًا للإيمان وتوبةً من الكفر والإجرام ﴿قَالُوا۟ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بلسان حالهم ومقالهم.

وكأن فرعون يقول لهم: تعنوني أنا؛ لأنه زعم أنه الرب الأعلى، فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متكبرًا متغطرسًا متجبرًا، ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ بموسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مُنكرًا عليهم، ﴿قَبْلَ أَن آذَنَ﴾ أنا ﴿لَكُمْ﴾ وليس بآذن، ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ الذي فعلتموه ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ زعم أن هذا السبب في إيمانهم أنهم قد مكروا وتمالأوا على هذا الفعل وهو كاذب، فإنهم ما جاءوا إلا لنصرته؛ ولذلك طلبوا منه سبيل الرفعة لكن هو الله، ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: بعد إيمانهم مهاجرين مع موسى وهارون، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما أفعل بكم، وهذا على الوعيد.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ اليمنى من الأيادي واليسرى من الأرجل، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ على النخل كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، أراد أن يُنكل بهم حتى يكونوا عبرة للمعتبر.

﴿قَالُوا۟﴾ السحرة لفرعون غير مبالين بتهديده، ﴿إِنَّا﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ راجعون، فيجازيهم الجزاء الأوفى كما قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥١]، ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ تكره وتطعن علينا، ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا

﴿جَآءَتۡنَاۚ﴾ رسالة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ثم فزعوا إلى الله بالثبات: ﴿رَبَّنَا أَفۡرِغۡ﴾ أصبب ﴿عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ على هذا البلاء، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «**يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، ومن دعاء يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف:١٠١].

وقد اختلف أقوال المفسرين هل قتلهم أم لا، ومن ذهب إلىٰ عدم قتله لهم استدل بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾ [القصص: ٣٥]، والذي يظهر أنه قتلهم.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾.

وبعد أن قضى فرعون ما قضى من شأن السحرة رحمهم الله عاد إلى الملأ المستكبر من قومه: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ له ﴿أَتَذَرُ﴾ تترك ﴿مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ﴾ الذين آمنوا معه، ﴿لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالدعوة إلى مخالفتك وهذا من تلبيسهم وهكذا هم جلساء السوء دائمًا يُثيرون على المصلحين ويزعمون أن الإيمان إفساد؛ قلبًا للحقائق، ﴿وَيَذَرَكَ﴾ يتركك ﴿وَءَالِهَتَكَۚ﴾ عبادتك، كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ انتقاما منهم، ﴿وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ نتركهن أحياء ويستخدموهن في الرِّق والاستمتاع والخدمة ونحو ذلك، وهذا غاية الامتهان أنه يقتل ولدك ويستعمل امرأتك، وهذه المرة الثانية في قتل أولاد بني إسرائيل الأول من تخوفه من الرسول الذي ينتهي ملكه على يده والثانية: حين آمنوا وانقادوا ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ قادرون متغلبون، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ**» أخرجه أبو داود (١٥٥٥).

﴿قَالَ مُوسَى﴾ عند ذلك ﴿لِقَوْمِهِ﴾ مصبراً لهم على البلاء الذي لا بد منه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ على طاعته والصبر على قدره، ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ على ما نزل بكم، ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: أرض مصر، ﴿لِلَّهِ﴾ خلقًا وملكًا وإيجادًا، ﴿يُورِثُهَا﴾ يعطيها ﴿مَن يَشَاءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أهل الاستضعاف؛ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ من النصر، والظفر، والسعادة، والشهادة، والجنة فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ، وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ**» أخرجه أحمد (٢١٢٢٠).

﴿قَالُوٓاْ﴾ بنوا إسرائيل، ﴿قَالُوٓاْ﴾ من فرعون وقومه، ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ حيث ذبح أبناءهم واستحيى نساءهم، ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ حيث سلط عليهم ما سلط في سابق زمانه، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾ وعسى في حق الله عَزَّوَجَلَّ موجبة، ﴿أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾ وفعلًا أهلكه بالطوفان، ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ﴾ يجعلكم خلفاء ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من بعدهم فيسكنكم أرض مصر، ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ۝١٢٩﴾ فيها بطاعته ومرضاته أم أنكم تسلكون سُبل المتمردين.

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣١ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٣٢ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ۝١٣٥ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ۝١٣٦﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ﴾ عاقبنا ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الجدب والقحط، ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ نقصت أموالهم وثمارهم وبركاتهم، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون ويرجعون إلى الله

عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الخصب والرزق الحسن الواسع، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ نستحقها بأعمالنا وعقولنا، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ قحط وجدب وأمراض وأسقام، ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ يتشاءموا ويتطيروا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي أن ما حصل لهم بسبب مجيء موسى ومن معه «**والطيرة شرك**»، كما قال رسول الله ﷺ في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ شؤمهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ فالقدر قدره، والأمر أمره، والنهي نهيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب بعدهم عن الكتاب والسنة.

﴿وَقَالُواْ﴾ قوم فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا﴾ متى ما تأتنا به، ﴿مِن آيَةٍ﴾ علامة ومعجزة، ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ لتنقلنا عما نحن عليه من الدين، ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين ومنقادين، والإيمان والهداية هي محض توفيق الله عَزَّوَجَلَّ للعبد وإلا فقد رد المشركون الحجج القويمة والآيات البينة العظيمة بمثل هذه الدعاوى، فانظر إلى السحرة لما كانوا على علم بالباطل وجاءهم الحق عرفوا الفرق بين الحية التي كانت آية وعلامة، وبين الحيات والثعابين التي كانت من عصيهم وحبالهم، ولو كان في قوم فرعون بقية عقل يفهمون به الحق ويستجيبون له لكان في إيمان السحرة أقوى دليل على نبوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلو كان موسى ساحرًا ما كانوا ليتنازلون له مع كثرتهم وبراعتهم في السحر، ولكن علموا أنه رسول من رب العالمين.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ الماء الكثير الذي أغرق مزارعهم وأشجارهم وقيل: الطاعون بلغة اليمن، ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ تأكل محاصيلهم، وهو حيوان إذا سُلط على المزارع أذهب ما فيها وتصبح الأرض جرداء بعد أن كانت خضراء، وذكروا في أنه يخرج من البحر وأيٌّ كان فهو آية من آيات الله العِظام، ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ القَملُ يكون في ثياب الإنسان أو بين شعره، والقُمَّل: يعيش في البيوت وأماكن المزابل ونحو ذلك ويقفز قفزًا، وربما لا يتمكن الإنسان من قتله، وقيل: بأن المراد بالقمل القمل، ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ كثرت بين مياههم ومساكنهم ومزارعهم، وما أشد أصواتها ونقيقها، ربما لا يستطيع الإنسان أن يهنأ نومه، وقد يتقزز من شربه وغير

ذلك، وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الضفادع، ﴿وَالدَّمَ﴾ الرعاف وغيره، وقيل تحولت مياههم إلى دم، فإذا أرادوا أن يشربوا من الماء كان على هيئة الدم، ﴿آيَاتٍ﴾ علامات، ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبينات موضحات، ﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الاستجابة وأعرضوا عن الاستقامة، ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين، وقد قيل في نظم هذه الآيات:

عَصًا سَنَةٌ بَحْرٌ جَرَادٌ وَقُمَّلُ ... يَدٌ وَدَمٌ بَعْدَ الضَّفَادِعِ طُوفَانُ

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ﴾ على فرعون وقومه ﴿الرِّجْزُ﴾ العذاب، وقيل: بأن الرجز خاص بالطاعون: وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس، ﴿قَالُواْ﴾ مستغيثين ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ برفع هذا البلاء ودفعه ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما أوصاك أو بما نبأك وأعطاك من الوحي، ﴿لَئِن كَشَفْتَ﴾ رفعت ودفعت ﴿عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ وهو ما تقدم من العذاب أو الطاعون، ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ لنصدقن ﴿لَكَ﴾ برسالتك، ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تأخذهم حيث شئت ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ﴾ بدعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿الرِّجْزَ﴾ العذاب، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ وقت ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ وهو الغرق في اليم، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ عهودهم ومواثيقهم وهكذا المبطلون لا يوفون بوعد وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ**» متفق عليه.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ** » متفق عليه.

وهذا البغي ضرره عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس:٢٣]، فالناس إذا نزل بهم البلاء عرفوا الله، وإذا رُفِع عنهم البلاء الحال كما قال الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق:٦-٧].

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بسبب بغيهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥]، والأنتقام هو لازم الغضب، وكان انتقامه منهم ما أخبر به من

قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ البحر حيث أهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم بآيات الله، ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ معرضين.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ في الأرض يُذبح أبناؤهم، وتستخدم نساؤهم، ويُستعبد رجالهم، وهذا ليس خاصًا بهم، بل هو عام في كل أمة؛ أن المستضعفين مصيرهم إلى النصر والعز والتمكين ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ مصر والشام، ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء، والأشجار، والثمار، والخصب، والسعة، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلمة الله الكونية بنصرهم وتمكينهم وإعزازهم، وهي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥]، وقوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨] ، وفي الحديث: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ، وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ**»، هذا وعد من الله عَزَّوَجَلَّ لكل من أطاعه واتقاه وسلك سُبل رضاه، وهذا إنما يقع للصابرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا، ﴿مَا﴾ الذي ﴿كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من العمارة والبنيان، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ يبنون من البيوت والقصور، والذي يتأمل الآثار في مصر

يجد العجب، فالأهرامات حَيَّرت علماء الآثار في طريقة صناعتها، وبنائها، وإحكامها من الداخل، والوصول إلى أبعد غرفها أشياء عجيبة؛ لكن دمر الله عليهم: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأحقاف:٢٦].

﴿وَجَاوَزْنَا﴾ بعد هلاك فرعون عبرنا ﴿بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: بعد أن نصرهم الله عَزَّوَجَلَّ ومكن لهم جاوز بهم البحر مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في اتجاههم إلى الشام، ﴿فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ﴾ يقيمون ﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يتبركون بها ويعبدونها، ﴿قَالُواْ﴾ بنو إسرائيل ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ صنعا نتبرك به ونعبده ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وهذا من الفتنة أنهم يعبدون الله الذي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]، ويطلبون عجلًا أو صنمًا، ما أسخف عقل الإنسان إذا جهل التوحيد فإنه يكون أسخف من الحيوان البهيم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩]، فهؤلاء مع نبي كريم وقد مُكِن لهم ومع ذلك يطلبون غير الله: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ يتعبدون له، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين يعبدون الأصنام والأوثان، ﴿مُتَبَّرٌ﴾ ذاهبٌ، و(التَّتَبر): الهلاك، ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من الشرك والباطل، ﴿وَبَاطِلٌ﴾ ذاهب ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، فلا ثواب لهم، ومصيرهم إلى العقاب ﴿قَالَ﴾ لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ منكرا عليهم ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ أطلب لكم ﴿إِلَٰهًا﴾ معبودًا، ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عالمي زمانهم.

وجاء عند أحمد (٢١٩٠٠) وغيره من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا كَانَ لِلْكُفَّارِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، وَكَانَ الْكُفَّارُ يَنُوطُونَ سِلَاحَهُمْ بِسِدْرَةٍ يَعْكُفُونَ حَوْلَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنا إِلهًا كَما لَهُمْ آلِهَةٌ، إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**».

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَنجَيْنَاكُم﴾ وفي قراءة: ﴿أَنْجَاكُمْ﴾، سلمكم ﴿مِّنْ﴾ مكر ﴿آلِ فِرْعَونَ﴾ فرعون وقومه، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يُذِيقونكُمْ، ﴿سُوءَ﴾ شدة ﴿الْعَذَابِ﴾ بالقتل والاستخدام ونحوه، ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ذبحا، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ﴾ يستبقوهن للخدمة وغير ذلك، ﴿وَفِي ذَلِكُم﴾ الأنجاء من العذاب ﴿بَلاء﴾ نعمة جليلة حيث أعزكم بعد ذل ورفعكم بعد ضعة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيم﴾ يعلم ذلك أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ جعل له ميعادًا قيل: شهر ذي القعدة، ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ من ذي الحجة، ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ذهب إلى الميقات وإلى الموعد فمكث أربعين ليلة، أوحى الله إليه فيها بالتوراة، وخطها له، وكلمه الله تكليمًا، ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ عند انطلاقه إلى الجبل للمناجاة موصيا، ﴿لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي﴾ كن خليفتي في بني إسرائيل، والنبي ﷺ ما خرج من المدينة إلا واستخلف فيها من يقوم بشأن المسلمين، حتى أنه في غزوة تبوك استخلف علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال المنافقون ما قالوا، فقال النبي ﷺ: «**أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»، متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فِي قَوْمِي﴾ أي: في بني إسرائيل الذين هم قومه وأتباعه، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ اعمل فيهم بالصلاح: وهو ملازمة الشرع، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بموافقتهم علىٰ باطلهم خشيَّ موسىٰ علىٰ قومه من أن يقع منهم شيء من الفساد بسبب بعض المفسدين، وفي هذا تحذير لأهل العلم والدين والسنة جميعًا في البعد عن اتباع سبيل المجرمين؛ لأنه سبيل يقوم علىٰ مدافعة الحق، وسبيل المجرمين طريقهم سواءً كان الطريق العلمي أو العملي

وحتىٰ الطريق الحسي إن استطعت أن تمايزهم فمايزهم فإن النبي ﷺ حين مر من قرىٰ ثمود أمرهم أن يتعجلوا.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ للوقت الذي وقته الله له، ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾.

❁ فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، وهي صفةٌ ذاتيةٌ فعلية وقد عمد أهل الباطل إلىٰ تحريفها وزعموا أن معنىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء:١٦٤]، أي: جرحه بأظافير الحكمة، وحرفها بعضهم: بقوله: ﴿وكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ بنصب لفظ الجلالة فيكون من المقدم والمؤخر.

وقد رُوي أن أحدهم جاء إلىٰ أبي عمرو بن العلاء أحد القراء فقال له: اقرأ ﴿وكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، قال: أرأيت إن قرأُتها لك فما تفعل بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]؛ لأنَّ الضمير يعود إلىٰ أقرب مذكور، فالمُكلِم هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والمُكَلَمْ هو موسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ والكلام صفة كمال ومعطي الكمال أولىٰ به، والكلام معنىٰ يقوم بغيره، فإضافته إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إضافة صفة إلىٰ موصوف.

﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ كما أكرمه الله بالكلام طمع في الرؤية، ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ أي لا تراني في الدنيا.

❖ وبهذه الآية استدل المعتزلة علىٰ أن الله لا يُرىٰ في الآخرة، ولا دلالة لهم فيها، بل هي دليل عليهم:

أولًا: لم يقل: يا موسىٰ لا أُرىٰ.

الثاني: أن موسىٰ أعلم الناس بربه ولذلك سأل شيئًا معلومًا وممكنًا.

الثالث: أن الله علق الرؤيا بممكن وهو ثبوت الجبل، فلو شاء أن يُثبت الجبل لثبت ورأىٰ موسىٰ ربه.

الرابع: أن الله تجلىٰ للجبل والجبل مخلوق، إلىٰ غير ذلك من الأوجه، وقد عاتب الله عَزَّوَجَلَّ نوح حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود:٤٥]، ولم يُعاتب موسىٰ حين قال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، وأما قولهم بأن الله تفيد التأييد فقول مردود حتىٰ قال ابن مالك:

وَمَنْ يَرَىٰ النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلَهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

ويرد عليهم بقوله: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم:٢٦]، فلما قيدته باليوم دل علىٰ أنها ستكلمهم في غده، وقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا﴾ [البقرة:٩٥]، وقد تمنوه في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف:٧٧]، وقوله: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف:٨٠]، فقيده بالإذن.

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ الذي هو أقوىٰ منك، ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ﴾ ثبت ﴿مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ إذ أن الجبل حجارة صماء فلو ثبتت لتجلي الله عَزَّوَجَلَّ فتستطيع الرؤية، وأما إذا صارت دكًا فاعلم أنك عاجز عن ذلك، وفي حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ: «**أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّىٰ تَمُوتُوا**» أخرجه أحمد (٢٢٦٦٤)، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ﴾ ظهر ﴿رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾

وفي المسند (١٢٢٦٠) عن ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قَالَ: « قَالَ: هَكَذَا، يَعْنِي أَنَّهُ أَخْرَجَ طَرَفَ الْخِنْصَرِ قَالَ: أَبِي: أَرَانَاهُ مُعَاذٌ قَالَ: فَقَالَ لَهُ حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ: مَا تُرِيدُ إِلَىٰ هَذَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرَهُ ضَرْبَةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: مَنْ أَنْتَ يَا حُمَيْدُ؟ وَمَا أَنْتَ يَا حُمَيْدُ، يُحَدِّثُنِي بِهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَقُولُ أَنْتَ مَا تُرِيدُ إِلَيْهِ» .

﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ مدكوكًا لا حجارة فيه مبسوطا علىٰ الأرض، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ أي: لشدة الصعقة ولهول الحدث، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من صعقته، ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من طلب ما لم أؤمر به، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في زماني وقيل: أنك ترىٰ يوم القيامة.

وأما رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج فلا يثبت في شيء ومعنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النجم:١١]، أنه رأىٰ ربه بفؤاده، فعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: «**قُلْتُ لِعَائِشَةَ**

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **يَا أُمَّتَاهْ هَلْ رَأَىٰ مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلاَثٍ، مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَىٰ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ**» متفق عليه.

وقد سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «**رَأَيْتُ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جُنَاحٌ**» متفق عليه، وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالوا يا رسول الله هل رأيت ربك قال: «**رَأَيْتُ نُورًا**» أخرجه مسلم (١٧٨).

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي﴾ اجتبيتك دون غيرك من الناس، ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ من أهل زمانك، ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ إذ أرسله الله إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى التوحيد ويحذرهم من الشرك والتنديد، ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ إذ كلمه الله تكليمًا بغير واسطة، ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ من التوراة بقوة، ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لعظيم نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليك، فلا أكرم من الشكر لدوام النعم، وكما قيل: النعمة إذا شُكِرت قرت، وإذا كُفِرَتْ فرت، وبيان ذلك في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم:٧]، وأمر خلص المؤمنين بشكره، وكان من الدعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**» أخرجه أحمد (٢٢١٢٦) عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ﴾ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾ التي خطها الله عَزَّوَجَلَّ بيده كما ذكر ابن عمر وجاء مرفوعًا أيضًا، ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: مما يحتاجه الناس في شؤون دينهم، ﴿مَّوۡعِظَةٗ﴾ نهيًا وزجرًا وأمرًا، ﴿وَتَفۡصِيلٗا﴾ بيانًا ﴿لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ للأوامر والنواهي، والحلال

والحرام، والحدود والأحكام إذ هذا هو المراد بالعموم في هذا الموطن، فلا يأتي من يقول: أنتم تقولون يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، ونحن لم نجد كذا وكذا في القرآن، المراد به: ما ينتفع الناس به في باب الدين، وما يصلح به الحال والمآل، وأما الدنيا فقد قال النبي ﷺ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**» أخرجه مسلم (٢٣٦٣) عن رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿فَخُذْهَا﴾ التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد إذ أن التمسك بقوة من أعظم أسباب الثبات عليها، كما قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ [مريم:١٢]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**» أخرجه مسلم(٢٦٦٤)، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ بني إسرائيل، ﴿يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَآ﴾ وهي الواجبات والمستحبات.

۞ وهذا دليل للمسألة التي ذكرها الشيخ المجدد في كتابه الأصول الثلاثة: اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل:

الأولىٰ: العلم: وهي معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الثاني: العمل به. **الثالث**: الدعوة إليه. **الرابع**: الصبر علىٰ الأذىٰ فيه.

والشاهد: أن الله أمر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأخذ التوراة بقوة في حياته العلمية والعملية، ثم: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَآ﴾ والمراد: أن يأخذوا بها فكلها حسن، فيحلوا حلالها، ويحرموا حرامها، ويتدبروا أمثالها، ويعملوا بمحكمها، ويقفوا عند متشابهها، وكان موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أشد عبادة من قومه فأُمر بما لم يؤمروا به، وقيل: أحسنها الفرائض والنوافل، ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ أي: مصيرهم في الآخرة، كما أنه وعدهم بمصرعهم في الدنيا.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ سأمنع من فهم الحجج والأدلة على عظمتي وأحكامي وشريعتي، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ على الناس وعن الحق.

فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»، ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فالكبر صفة الله فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**العِزُّ إِزارِي والكِبرِياءُ رِدائي، فَمن نَازعني بِشيءٍ مِنهُما عَذبتُه**» الأدب المفرد (٥٥٢).

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ﴾ حجة وعلامة ﴿لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ ومن عجيب حالهم: أنهم لا يستجيبون لآيات الله الكونية والشرعية؛ لشدة أعراضهم ولشدة زيغهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥]، ﴿وَإِن يَرَوْاْ﴾ المتكبرون، ﴿سَبِيلَ﴾ طريق ﴿الرُّشْدِ﴾ الخير والهدىٰ، ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ طريقًا بل يرتكبون طريق الضلالة، ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ﴾ طريق ﴿الْغَيِّ﴾ الضلالة والزيغ، ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لفساد قلوبهم وأعمالهم، ﴿ذَلِكَ﴾ السبب الذي جرهم إلىٰ الأنحراف، ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ الشرعية ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِين﴾ فلم يتدبروها ولم يتعقلوها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ الوحي المنزل على أنبيائه ورسله، ﴿وَلِقَاء الآخِرَةِ﴾ البعث والنشور، وكذبوا بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ وصارت كأن لم تكن كقوله: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان:٢٣]، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة، والعقبى ﴿إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون﴾ في الدنيا كما قال الله تعالى ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾ [النبأ:٢٦].

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾ بنو إسرائيل ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد موسى؛ وذلك حين ذهب إلى لقاء ربه، ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ الذهب والفضة التي معهم ﴿عِجْلاً جَسَدًا﴾ مصنوع من الذهب على صورة العجل، ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ قيل: بأنه كانت تدخله الريح فيخرج منه الصوت، وقيل: جسدًا أي: حيًا لحمًا ودمًا له خوار أي: صوت البقر، صنعه لهم السامري ومع ذلك أخزاه الله ونكل به كما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة طه، ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: قوم موسى، ﴿أَنَّهُ﴾ أي العجل ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ لضعفه وعجزه وخوره.

۞ وهذا دليل علىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم فما نفىٰ عنه الكلام إلا وهو يتكلم، فالكلام صفة كمال ومعطي الكمال أولىٰ به.

﴿وَلَا يَهۡدِيهِمۡ﴾ ولا يرشدهم أو يدلهم ﴿سَبِيلٗاۘ﴾ من سبيل الخير أبدًا؛ لعجزه وضعفه، ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ في عبادتهم لغير الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ كافرين.

يذكر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما كان من شأن بني إسرائيل حين اتخذوا العجل وعبدوه من دون الله، وأن الشيطان أزهم إلىٰ ذلك وزينه في نفوسهم وهذه هي طريقة الشيطان، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ [مريم:٨٣].

فإذا ما وقع الإنسان في الذنب والمعصية: سُقِطَ في نفسه وربما وجد الندامة من النفس اللوامة: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: وقعوا في عبادة العجل ندموا على عبادتهم له، ﴿وَرَأَوۡاْ﴾ علموا ﴿أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ انحرفوا عن التوحيد إلى الشرك: ﴿قَالُواْ﴾ مع ندامتهم ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾ بتوبة مقبولة، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ يتجاوز عن ذنبنا العظيم، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ والخسارة هنا الخسارة العظيمة خسارة الدنيا والآخرة، خسارة الكافرين، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾.

ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بما فعل قومه فلحقه ما يلحق الناس من الغضب ونحوه إلا أنه لما رأى ما هم فيه وقع أشد من ذلك: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ من

الميقات، من الميقات، ﴿غَضْبَانَ﴾ حال كونه مُغضبًا من صنيعهم، ﴿أَسِفًا﴾ أي: شديد الغضب: ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِئْسَمَا﴾ بئس خِلافةٌ ﴿خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي نخ﴾ يعني: بئس ما عملتم بعد ذهابي حيث خلفوه بالشر والشرك والفساد العريض، وكان الواجب أن يأخذوا بنصحه وتوجيهه الذي وجههم به قبل رحيله: ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ استبقتم ﴿أَمْرَ﴾ وعد ﴿رَبِّكُمْ﴾ الذي وعدكم من الأربعين ليلة، ﴿وَأَلْقَى﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من شدة غضبه ووِجده مما نزل بهم ﴿الأَلْوَاحَ﴾ ألواح التوراة غضبا لربه.

ويذكر في هذا الباب حديث ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَىٰ بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَىٰ الْأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ**» أخرجه أحمد (٢٤٤٧).

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ﴾ بشعر ﴿أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، كما قال هارون: ﴿تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي﴾ [طه:٩٤]، قيل أخذ شعر رأسه بيمينه وشعر لحيته بشماله.

❁ وهذا دليل علىٰ تربية اللحية والاعتناء بها.

﴿قَالَ﴾ هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ يا ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ ناداه بالأم؛ لشدة شفقتها، قال بعضهم: هو أخاه لأمه وليس بأخ له لأبيه.

❁ والصحيح: أنه أخوه لأبيه وأمه، وإنما ذكر الأم ليقع منه الرقة والعطف عليه.

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾ حين عبادتهم للعجل، ﴿ٱسْتَضْعَفُونِي﴾ احتقروني ولم يبالوا بنصحي وتوجيهي، ﴿وَكَادُواْ﴾ قاربوا ﴿يَقْتُلُونَنِي﴾ من شدة ما وقع فيهم من حب العجل والميل إلىٰ عبادته، ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ تفرح ﴿بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ بإهانتك إياي، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين عبدوا العجل في المؤاخذة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، «**كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ، وَمِنْ دَرَكِ الشَّقَاءِ، وَمِنْ شَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ، وَمِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ**» متفق عليه.

﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما صنعت بأخي ﴿وَلِأَخِي﴾ دفعا للشماتة، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ جميعًا، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ توسل إليه برحمته الواسعة التي وسعت كل

شيء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ إلهًا من دون الله، ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ في الدنيا والآخرة إن لم يبادروا بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ مما وقعوا فيه من الشرك، ﴿وَذِلَّةٞ﴾ خزي ومهانة ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ [المجادلة:٢٠]، وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**» أخرجه أحمد (٥١١٤) والبخاري معلقًا (٤٥٩)، وقد عذبوا في الدنيا بقتل أنفسهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: ٥٤]

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ الكاذبين، قال أبو قلابة: جزاء كل مفتريٍ إلىٰ يوم القيامة أن يذله الله، قال سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلىٰ يوم القيامة.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الشرك فما دونه، ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ ورجعوا وأنابوا إلى الله بشروط التوبة المعروفة قبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس من مغربها، ﴿وَآمَنُوٓاْ﴾ بالله، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال:٣٨]، «**فالتوبةُ تَجُبُّ ما قبلَها**».

وفي حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ ، كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ**» متفق عليه، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ [الفرقان:٧٠]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: من بعد توبتهم، ﴿لَغَفُورٞ﴾ متجاوز عن الذنوب السابقة ﴿رَّحِيمٞ﴾ موفق لما يأتي من الأعمال.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ

ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ ذهب وسكن، ﴿عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ الذي نزل به لشدة ما رأى من عبادة العجل المخلوق العاجز الناقص، ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ أي: جَمّعَها بعدما ألقاها، وربما ذهب بعضها؛ لأنها تكسرت وتحطمت فقل أن تُعاد كما كانت، ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾ اختلفوا فيه قيل: أراد بها الألواح؛ لأنها نسخت من اللوح المحفوظ، وقيل: إن موسى لما ألقى الألواح فنسخ منها نسخة أخرى، ﴿هُدٗى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ من العذاب، ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ يخافون ويفرقون منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ أي من قومه ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ ممن لم يعبدوا العجل ليعتذروا لقومهم عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ للوقت الذي وعدهم الله فلما أتوه قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة:٥٥]، وهذا من عجيب عنادهم أنهم ذهبوا للاستغفار والتوبة فجاءوا بطلب لا يجوز لهم، فعند ذلك: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة والصيحة فدعا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه: ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾ خروجي بهم ليعاين بنو إسرائيل هلاكهم ﴿وَإِيَّايَۖ﴾ وأهلكتني معهم، ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ تميتنا ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ الذين عبدوا العجل وأتوا الأمر الحرام، وقد يُؤخذ الصالح بجرم الطالح لقول رسول الله ﷺ: أَنَهْلَكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**» أخرجه البخاري(٣٣٤٦) عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد قال الله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥]، ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ ابتلاؤك أي: أنت الذي قدرتها فهديت من شئت وضللت من شئت، وهذا ليس احتجاج بالقدر على المعصية وإنما الواقع؛ أن الله يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا، ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾ يضل بها أهل الضلالة الذين ساءت عقائِدهم وفسدت قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، ويهدي بها من شاء ممن

علم فيه الخير، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦]، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ متولي أمورنا والولي الناصر والحافظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦]، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ تجاوز عن سيئاتنا وذنوبنا، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ وفقنا للعمل الصالح، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ وأنت خير المتجاوزين، وهذا من الأسماء المركبة التي هي من الأسماء الحسنى بالإجماع كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومنها: ﴿خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران:١٥٠]، ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٩].

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ أوجب لنا تفضلًا منك يا ربنا، ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ النعمة والعافية، نعمة الدين ونعمة الدنيا فلا يُسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، ولا تُستباح بيضتهم، ولا يُهلكون بصقعة أو زلزلة ونحو ذلك، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ حسنة وهي المغفرة والجنة، وهذا موافق لدعاء المؤمنين الذي قصه الله عَزَّوَجَلَّ علينا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كان النبي ﷺ يدعو كثيرًا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

وعنه: أن النبي ﷺ دخل على رجل وهو في مرض شديد فقال: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ لَا تُطِيقُهُ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ - أَفَلَا قُلْتَ: اللهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» أخرجه مسلم (٢٦٨٨).

﴿إِنَّا هُدْنَآ﴾ تبنا ورجعنا ﴿إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ تعذيبه من خلقي ممن هو مستحق له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾ عمت ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ فهو الرحمن الرحيم ذو الرحمة الواسعة، لكن لا ينالها الكافر لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

[الأعراف:٥٦]، والمفهوم أن الكافر مرحوم، وأعظم الرحمات: أن يوفقك الله لدين الإسلام ولسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يرزقك العلم والعمل، وأن يرزقك الرزق الحلال، وأن يعافيك من الأمراض والأسقام ونحو ذلك.

قال الحسن وقتادة: وسعت رحمته في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للمتقين خاصة.

وقال عطية العوفي: وسعت كل شيء ولكن لا تجب إلا للذين يتقون؛ وذلك أن الكافر يُرزق ويُدفع عنه بالمؤمنين؛ لسعة رحمة الله للمؤمنين فيعيش فيها، فإذا صار إلى الآخرة وجبت للمؤمنين خاصة كالمستضيء بنار غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي: في الآخرة، ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يفعلون المأمور ويجتنبون المحظور ويصبرون عن المقدور، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الصدقة المفروضة الواجبة، وهي داخلة في التقوى وإنما ذكرها لعظيم شأنها ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ يوقنون ويقرون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ومن وصف المؤمنين أنهم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ يُتابعون محمدًا ﷺ في قوله وفعله، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف:٣]، و قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، ويقول سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجدنا الأمر كله في الاتباع، ﴿الرَّسُولَ﴾ أي: محمد ﷺ، ﴿النَّبِيَّ﴾ توكيد وإلا فإن كل رسول نبي ولا عكس، ﴿الْأُمِّيَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، هذا هو المعنى الصحيح لهذه الجملة، وليس أنها نسبة إلى أم القرى كما يقول بعضهم: من أن محمدًا ﷺ كان يكتب، فلو كان يكتب كما زعموا لكانت قريش قد صدقت في قولها:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ﴾؛ ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت:٤٨].

❖ وما جاء من أن النبي ﷺ كتب في غزوة الحديبية، فإنما هي آية من آيات الله جعلها الله علىٰ يديه حيث أبىٰ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يمحو الاسم وأن يكتب بدلًا عنه؛ لأنه كان قد كتب عبد الله ورسوله فطلبت قريش محو ذلك الاسم فمحاه النبي ﷺ وكتب محمد بن عبد الله، فهذه آية من آيات الله، لا أنه كان يكتب ويقرأ المكتوب فهذا قول مكذوب علىٰ رسولنا ﷺ ويخالف المتواتر من إحكام ديننا، قال النبي ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ**» متفق عليه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ باسمه ووصفه ﴿فِى التَّوْرَاةِ وَالْأِنجِيلِ﴾ فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري: «**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلُ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو ويغفر ويصفح، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّىٰ يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا**»، فهذا وصفه في التوراة، وقد وصف الله في التوراة أيضًا أصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح:٢٩].

ومن صفات هذا النبي أنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو موافقة الكتاب والسنة والشرع الحكيم، فكل ما أمر الله به فهو معروف من التوحيد فما دونه إلىٰ إزالة الأذىٰ عن الطريق، ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وكل ما نهىٰ الله عنه فهو منكر من الشرك فما دونه، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما حرم في التوراة والأنجيل، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ من الميتة ونحوها.

۞ وقد استدل بعضهم بهذه الآية علىٰ أن كل ما استخبثه الإنسان فهو حرام.

وهذا ليس بصحيح، وإنما الحرام ما استخبثه الشرع، كما قال تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة:٣]، والزنا وما إليه من المحرمات، فكل ما أمر الله به فهو معروف، وما نهىٰ الله عنه فهو منكر.

وبهذا العموم استدل كثير من العلماء علىٰ تحريم كثير من الأمور المستخبثة إما في نتائجها، وإما فيما ينشأ عنها.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ ثقلهم فالآصار والأغلال الأمور الشديدة علىٰ الأمة، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**» أخرجه البخاري(٣٩)، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، وعن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**» متفق عليه، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فهذا دين جعله الله دين رحمة، أما بنو إسرائيل ضيقوا علىٰ أنفسهم فضيق الله عليهم، ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ مما حرموه وأوجبوه علىٰ أنفسهم فصارت كالأغلال سواءً عبادات النصارىٰ، والرهبنة، والاختصاء ونحو ذلك، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ بمحمد ﷺ وانقادوا لشرعه وأمره، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ عظموه تعظيمًا شرعيًا فلم يرفعوه إلىٰ مراتب الألوهية أو الربوبية، ولم ينزلوه إلىٰ المراتب التي تخالف النبوة، بل هو رسول كريم وعبد مقرب من الكريم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بتعزيره وتوقيره، ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي: في جهاده نحو ذلك، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ﴾ القرآن ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة بنيل المطلوب والبعد عن المرهوب.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية: أنه أرسل محمدًا ﷺ إلى الناس كافة، ويدل على هذا المعنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:١]، وقد قال النبي ﷺ: «**فُضِّلْتُ عَلَى الأنبِيَاءِ بِستٍّ**»، وفي رواية: «**بِخَمْسٍ**»، وفيها: «**وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً**» متفق عليه، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ:٢٨]، وهذا أمر لا يتم الدخول في الإيمان إلا باعتقاده والسير عليه، فمن آمن بنبوة محمد ﷺ كما هو قول بعض النصارىٰ إلا أنه رسول إلىٰ العرب فقط فهو كافر، فإن من الإيمان برسالته الإيمان بأنه مبعوث إلىٰ كافة الورىٰ من الجن والأنس قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا﴾ [الأحقاف:٢٩].

فيُخبر الله عَزَّوَجَلَّ محمدًا بقوله: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: من العرب والعجم وغيرهم، ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أرسله بالتوحيد وما هو من لوازمه ومقتضياته، ﴿إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ أي: إلىٰ العرب والعجم وإلىٰ جميع الأمم، وهذا مقتضىٰ حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، فكان يُرسل كل نبي إلىٰ قومه خاصة فلما كان محمدٌ ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين بعثه إلىٰ الناس كافة، ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وما بينهما، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ المتفرد بالألوهية كما تفرد بالربوبية، ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يحيي الخلق بعد أن كانوا عدمًا، ويميتهم ثم يحييهم، ثم إليه يرجعون، ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ يا معشر من بلغه دعوة النبي ﷺ، ﴿بِٱللَّهِ﴾ ربًا، ﴿وَرَسُولِهِ﴾ نبيًا، ويدخل في الإيمان برسول الله ﷺ تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والأنتهاء عما نهىٰ عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله عَزَّوَجَلَّ إلا بما شرع، ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ بدل من الرسول أي: هو أيضًا الرسول النبي، ﴿ٱلۡأُمِّيِّ﴾ تقدم أنه كان لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، ﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الذي من صفته أنه يؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ وبما ثبت له في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الكونية والشرعية.

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾.

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: من بني إسرائيل، ﴿أُمَّةٞ﴾ أي: جماعة، ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يرشدون ويدعون إلى الحق، وقيل: معناه يهتدون ويستقيمون عليه وهذا هو المعنى الصحيح، ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: يحكمون ويقيمون، وهذا في شأن من آمن منهم بمحمد ﷺ أو في شأن من كان في زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أما من كان بعد مبعث النبي ﷺ فلا هداية لأحد منهم وإن عمل بالتوراة التي أُنزلت على موسى ولم يؤمن بحمد ﷺ ما نفعه ذلك الإيمان ولا ذلك العمل، وإنما يُمدح من آمن بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ نبيًا.

و عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» أخرجه مسلم(١٥٣).

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾ أي: فرقنا بني إسرائيل، ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا﴾ والأمة: الجماعة، وهذا التفريق حتى تسهل سياستهم والقيام عليهم، وقيل: فيه تقديم وتقديره: وقطعناهم أسباطًا أممًا اثنتي عشرة، والأسباط: القبائل: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ طلبوا منه السُقيا والماء؛ وذلك في زمن التيه، ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ وسيكون فيه آية إذ يُخرج الله عَزَّوَجَلَّ لهم منه الماء، ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ﴾ الأنبجاس: هو بدء خروج الماء فقال هنا: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، وقال في سورة البقرة: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [البقرة:٦٠]؛ لأنَّ سورة الأعراف

مكية والبقرة مدنية، ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ على عدد أسباطهم،، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط منهم ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ مكان شربهم حتى لا يقع منهم الزحام ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ السحاب في حال التيه حتى تُقِيهم حر الشمس، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ طعاما لهم وقد تقدم في سورة البقرة، أن المن: شيء ينزل كالعسل، والسلوى: طائر يُقال له السماني وقيل غير ذلك، ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ رزقًا حلالًا طيبًا بغير كلفة ولا تعب ولا نصب، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ حين أعرضوا عن أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالمعاصي والمخالفات وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: حين فُتحت بيت المقدس، ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ المقدسة، ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ رغدًا واسعًا ورزقًا هنيًا، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: حط عنا الذنوب والآصار والأغلال؛ ولكنهم أبوا إلا أن يقولوا: حنطة أو حبة في شعرة، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ متواضعين منكسرين بين يدي الله؛ ولكنهم أبوا ذلك، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ **فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ** » متفق عليه.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ وفي قراءة: ﴿تُغْفر لكم﴾، ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم ومعاصيكم، وفي قراءة: ﴿خَطاياكُم﴾ كما تقدم، ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ إحسانًا إلىٰ إحسانهم وخيرًا إلىٰ خيرهم، وبِرًا إلىٰ بِرهم ويضاعف الله لهم الحسنات والمثوبات فهو الشكور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿فَبَدَّلَ﴾ غيَّر ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل، ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا: حنطة أو حبة في شعرة بدل حِطة، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إرسالا كونية إذ سلط الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، ﴿رِجْزًا﴾ عذابًا، ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ يفسقون ويخالفون شرعه.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ سل بني إسرائيل يا محمد، ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ﴾ بجانب البحر، كما قال تعالى: ﴿أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٩٦]، ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يعتدون ﴿فِى السَّبْتِ﴾ أي: يظلمون ويبغون ويجاوزون أمر الله؛ وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ حرم عليهم العمل في السبت، فكان منهم الحيلة كما سيأتي، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ على الماء ظاهرة كثيرة فتخرج الحيتان كأمثال الكباش السمان آمنة بأمان الله الشرعي لها، فأحست بذلك، وأخرجها الله فتنةً واختبارًا لبني إسرائيل، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ إذا كان يوم الأحد وما بعده لا يرون لها حسًا ولا يسمعون لها خبرًا وهذا من ابتلاء الله، هل يستجيبون لأمر الله أم أنهم يخالفون شرع الله؛ ولكن قد ظهرت فيهم الحيلة فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: أن هذه البلوى وهذا الاختبار وقع لهم بسبب فسوقِهم وكثرة مخالفتهم لنبيهم، وإلا لو كانوا ملتزمين لشرع الله ظاهرًا وباطنًا لتجاوز الله عَزَّوَجَلَّ عنهم، فانظروا إلى هذه الأمة كيف رفع الله عنها الأغلال والآصار ورحمهم رحمةً ليست لبقية الأمم، فبنو إسرائيل شددوا فشدد الله عليهم، وغلوا فكان وبال ذلك عليهم، نحن إن وقعت النجاسة في ثوب أو جسم أحدنا يغسلها ويكفي، وهم يلزمهم أن يقرضوها بالمقاريض؛ لأنهم تعمقوا وتنطعوا.

وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**» أخرجه مسلم (٢٦٧٠)، ونصلي حيث أدركتنا الصلاة، وهم لا يصلون إلا في كنائِسهم وبيعهم.

وكان من حيلتهم أنهم يحفرون يوم الجمعة ويخرجون منها السمك يوم الأحد، ففعلوا ذلك فكان البحر يتقدم إلىٰ اليابسة وهو ما يُسمىٰ بالمد فيلقي معه ما شاء الله من الأسماك ثم إذا جاء الجزر بقيت الأسماك في حفرها فيأخذونها.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ﴾ طائفة ﴿مِّنْهُمْ﴾ من بني إسرائيل منكرة على الآمرة بالمعروف، ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ تنهون ﴿قَوْمًا﴾ تمالؤ على الظلم و﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ بسبب فعلهم القبيح ﴿أَوْ﴾ علمتم أنه: ﴿مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ﴾ - أي الناهون - نفعل ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ يعتذرون بها أنهم ما أقروا، ولا رضوا بالباطل.

ففي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ اللهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللهُ عَبْدًا حُجَّتَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ، وَفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ**» أخرجه أحمد(١١٧٣٥)، فلا بد من إنكار المنكر علىٰ قدر المستطاع.

فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» أخرجه مسلم (٤٩)، والإنسان يفعل ما يُعذر به بين يدي الله، وهذه طريقة الرسل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعل الله أن يقذف في قلوبهم التقوىٰ فيتركون هذه المعصية وهذه البلية، ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ ترك هؤلاء المتجبرون، المتغطرسون، المتكبرون، المخالفون لدين رب العالمين، ﴿مَا ذُكِّرُواْ﴾ ما وعظوا، ﴿بِهِۦٓ أَنجَيْنَا﴾ سلمنا ﴿ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ عن الباطل، ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ شديد ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب ذنوبهم ومعاصيهم دمدم الله عَزَّوَجَلَّ عليهم.

و قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَسْمَعُ الله يَقُولُ: «﴿بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾، فَلَا أَدْرِي مَا فَعَلَ بِالْفِرْقَةِ السَّاكِتَةِ؟ قَالَ عِكْرِمَةُ: قُلْتُ لَهُ: جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ أَلَا تَرَاهُمْ قَدْ أَنْكَرُوا وَكَرِهُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَقَالُوا: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ؟ وَإِنْ لَمْ يَقُلِ اللهُ أَنْجَيْتُهُمْ لَمْ يَقِلْ: أَهْلَكْتُهُمْ، فَأَعْجَبَهُ قَوْلِي، فَرَضِيَ وَأَمَرَ لِي بِبُرْدَيْنِ فَكَسَانِيهِمَا».

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ﴾ أي: تمردوا وتجبروا في معاصيهم، ﴿عَن﴾ ترك ﴿مَّا﴾ الذي ﴿نُهُواْ عَنْهُ﴾ وأبوا أن يعرضوا عن المعاصي، ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ كونًا ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مبعدين، فمكثوا ثلاثة أيام ينظر إليهم الناس ثم ماتوا وذهب بعضهم إلى أن القردة والخنازير من هذا المسخ.

والصحيح: خلاف ذلك فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك**» أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أعلم وأخبر وتوعد، ﴿رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ﴾ يسلط ﴿عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: على اليهود، ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ يذيقهم ﴿سُوءَ﴾ شدة ﴿الْعَذَابِ﴾ فإن اليهود كانوا أذلة فقراء، وإنما نصروا في هذه الأيام ظاهرًا لا باطنًا؛ بسبب تعاون النصارى، والمكر الذي يقومون به وإلا فهم أحقر، وأجبن، وأضعف الأمم، قذف الله في قلوبهم الرعب حالهم كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، مُلئت قلوبهم حقدًا وحسدًا وبغضًا للحق وأهله على مر العصور وتقلبات الدهور، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ في انتقامه من المخالفين لدينه ووحيه، وشرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمؤمنين المسارعين إلى مرضات رب العالمين.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ فرقنا بني إسرائيل، ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فرقًا وأحزابًا، وقد أخبر النبي ﷺ أنهم افترقوا على واحد وسبعين فرقة، كما افترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وكلها فرق ضلال وهلاك لا سيما بعد مبعث النبي ﷺ، أما هذه الأمة وإن وقع فيها الافتراق فلا تزال طائفة من الأمة على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون كما دل عليه حديث معاوية وثوبان والمغيرة وغيرها، ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ من أدرك محمدًا ﷺ وآمن به، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ غير ذلك أي: ليسوا على صلاح ولا هدى ولا طريق قويم ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ اختبرناهم ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾ بالخصب والعافية، والصحة، ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الجذب والقحط والشدة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى عبادة ربهم وطاعته، ولكن هيهات إلا ما رحم ربي؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنْ الْيَهُودِ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا أَسْلَمَ**» أخرجه مسلم (٢٧٩٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَخَلَفَ﴾ جاء ﴿مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ القرن الذي يأتي بعد القرن يسمى الخَلْف والخَلَف يأتي بمعنى: المتأخر، ويأتي بمعنى: الطالح السيء، فإذا قيل على هذا السلف والخَلَف فيراد به: المتأخر الموافق للصحابة ومن إليهم، وإذا قيل: قال بهذا السلف وخالفهم الخلف فالمراد بالخلف: أهل البدعة وإن كانوا من المتقدمين في الأعوام والسنين، وأما (الخَلْف) بسكون اللام فالمراد به: السيء الطالح، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة عن آبائهم وأسلافهم، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ﴾ ما كان من الأموال سوى الدراهم والدنانير ﴿هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ المتاع الدنيوي مقابل ما يقومون به من التحريف والتغيير والتبديل لأحكام الله عَزَّوَجَلَّ، فربما راعوا الأغنياء ولم يلتفتوا لحق الفقراء، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على الرجاء ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ما فعلناه من تحريف الكتاب فعندهم أماني وهذا الذي جرأهم على ما هم فيه مع قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، وقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ﴾ [البقرة:١١١]، ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ﴾ دنيوي ﴿مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب، يقول: إذا أشرف لهم شيء من الدنيا أخذوه حلالًا كان أو حرامًا

ويتمنون على الله المغفرة، وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه، ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ العهد في التوراة على ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: مما أنزله في التوراة لا يزيدون ولا ينقصون، ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ قرأوا ما في التوراة من الأحكام والأخبار ومع ذلك خالفوها؛ لحظ الدنيا: ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وكقوله: ﴿وَلَلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

﴿وَ﴾ صنف آخر من بني إسرائيل وهم ﴿الَّذِينَ يُمَسَّكُونَ﴾ أي: يتمسكون من كان على طريق سوي وطاعة لله عَزَّوَجَلَّ فيُرجى له الخير، والمتمسك بالشيء هو الآخذ به والسائل عليه، قال النبي ﷺ، «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**» أخرجه ابن ماجه (٤٢) عن العرباض رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقال ابن أبي داود رَحِمَهُٱللَّهُ:

تَمَسَّكْ بِحَبْلِ اللهِ وَاتَّبِعِ الْهُدَىٰ ... وَلَا تَكُ بِدْعِيًا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ

﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بالقرآن، أو بالتوراة فآمنوا بمحمد ﷺ، ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا﴾ رفعناه على رؤوسهم ﴿ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ كأنه سقيف، والظلة: كلما أظلك، ﴿وَظَنُّواْ﴾ علموا واستيقنوا، ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ نازل عليهم، فقلنا لهم عند ذلك: ﴿خُذُواْ﴾ يعني: أمرهم الله بالتوبة حتى تقع لهم السلامة من معرة هذا الجبل، ﴿مَا آتَيْنَاكُم﴾ في التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد، ﴿وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ اعملوا وتمسكوا به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فرفعه الله عليهم تخويفًا لهم، فخر كل رجل منهم ساجدًا على حاجبه الأيسر ينظر بعينه اليمنى خوفًا من أن يسقط عليه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤﴾.

اختلف السلف في معنى هذه الآية إلى قولين:

القول الأول: أن الله عَزَّوَجَلَّ أخرج ذرية آدم كأنهم الذر فأخذ عليهم العهد والميثاق، وهذا قول يؤيده ظاهر القرآن مع ما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ**»، ويُستدل له بآثار في الباب منها: ما جاء عن عمر وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

الثاني: أن المراد به الفطرة التي كان الناس عليها وهذا قول ابن أبي العز وابن القيم وغيرهما من أهل العلم علىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يُخرج ذرية آدم، ولم يأخذ عليهم عهدًا وإنما هي الفطرة التي جعلها في قلوبهم، وحجتهم في ذلك أنهم قالوا: لو قلنا بهذا الإخراج للزم أن الحجة قائمة عليهم بهذه الإشهاد لا ببعثة الرسل وإنزال الكتب.

والصحيح: أن إخراجهم من صلب آدم علىٰ حقيقته، وأن الرسل جاءوا مذكرين بهذا العهد والميثاق.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ﴾ حين ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ أي: من آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: خاطبهم بخطاب يسمعونه ويفهمونه، ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ خالِقكم، وارزِقكم، ومالِككم، ومدبركم، ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: أنت ربُنا، ﴿شَهِدۡنَا﴾ على ذلك وأقررنا ظاهرًا وباطنًا، ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أن يقع منكم خلاف ذلك يوم القيامة، وفي قراءة: ﴿أَن يَقُولُوا﴾، واختلفوا فيمن قال: ﴿شَهِدۡنَا﴾ فقيل: الملائكة، وقيل: بنو آدم وهو الصحيح، ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ العهد والميثاق ﴿غَافِلِين﴾ في غفلة.

﴿أَوْ تَقُولُواْ﴾ معتذرين في تجويز شرككم وكفركم، ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: أن الشرك وقع في آبائِنا فصرنا على طريقتهم وفعلهم، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ تعذبنا ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ بجناية المبطلين من آبائنا الذين نقضوا العهد والميثاق وتُبِعوا على ذلك، والصحيح أنهم يُعذبون بفعل أنفسهم فقد وقع منهم الشرك والكفر والإجرام، وعذاب الله عَزَّوَجَلَّ لهم ليس معناه: أنه لا يعذب أسلافهم فكلهم في عذاب ونكال.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ﴾ نُبينها ونجليها، ﴿الآيَاتِ﴾ البينات الواضحات، والحجج القاهرات، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من الكفر إلى التوحيد، وهذه آية عظيمة تدل على تعين الإيمان بالقدر، وأن الناس يسيرون في قدر الله مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم لا يجاوزون ذلك ولا يخرجون عنه، وليس معنى ذلك: أن الله ظلمهم إذ خلقهم على هذا الحال فإن لله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والعذاب وغيره إنما يكون على ما هو من فعل الإنسان لا على فعل الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد خلق الإنسان من طينة الأرض فكانوا علىٰ ما في تلك الطينة منهم: البر والفاجر، والسهل والحزن، والأبيض والأسود، واقتضت حكمة الله عَزَّوَجَلَّ وجود الخير والشر فيعتلجان والعاقبة للمتقين.

۞ وفيه: أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أقام الحجج العظيمة والدلائل الواضحة علىٰ وحدانيته وأنه المتفرد بها، ويلزم من ذلك أنه الإله الحق فكما أنه لا شريك له في خلقه وملكه وتدبيره فلا شريك له في عبادته، وقد ضل الذين زعموا أن التوحيد: هو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالخلق والملك والتدبير.

۞ والصحيح: أن هذا من التوحيد، وإلا فأعظم التوحيد الذي من أجله أُرسلت الرسل وأنزلت الكتب: هو إفراد الله بالعبادة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

۞ وفي هذه الآية: بيان من الله أن يوم القيامة هو يوم الجزاء أما في الدنيا، فالحال كما قال الله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء:٨٤]، وأما في الآخرة فجزاء ولا عمل.

۞ كما أن الآية دالة علىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم بحرف وصوت يُسمع.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد، ﴿نَبَأَ﴾ خبر، ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ العلم، والمراد به: الآيات الشرعية كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة:٢٦٩]، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ انحرف عنها وخالفها، وكان حاله كمثل الرجل الذي لبس ثوبًا أو درعًا صابغًا قد ستر عورته وسوءته فقام بنزعه فانكشف كل ذلك عنه؛ ولهذا يقول العلماء: السنة ستر لأهلها، ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ لحقه ﴿الشَّيْطَانُ﴾ فيما هو فيه فزاده بعدًا وصار قرينه المطاوع له، وزين له فعله، وحبب له ضلاله، فإن الشيطان يوحي إلى أوليائه بالغرور مزينًا لهم الباطل ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ الضالين المنحرفين عن دين رب العالمين.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ﴾ مشيئةً كونية، أما المشيئة الشرعية فإن الله ما أنزل الكتب وأرسل الرسل إلا لاستقامة الناس على ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء:٦٤]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، فما

شاءهُ الله كونًا لا بد أن يقع، وما شاءه شرعًا قد يقع وقد لا يقع، وكون الله عَزَّوَجَلَّ شاء له الضلالة والغواية؛ لأنه أهل لها علم الله فيه الضلال واقتضت حكمته ذلك.

۞ وفيه: أن العلم رفعة، وهذا موافق لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة:١١]، فهو رفعة في الدنيا والآخرة.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ: وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»، أخرجه أبو داود(١٤٦٤).

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ﴾ سكن ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وعاد إليها محبًا وقد ذل لها، وقد ألف السيوطي رسالة في حكم من أخلد إلىٰ الأرض، وتكلم ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ علىٰ هذه الآية بكلام نفيس في غير موطن من كتبه؛ لأنَّ العلم رفعة والجهل ضعة، والثبات عز، والأنحراف ذل وهوان وهو أشد من الجهل، فإن الجاهل قد يُعذر بجهله أما من عرف الحق وانحرف عنه فهذا لا عذر له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ [التوبة:١١٥]، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: انقاد لما دعاه إليه الهوىٰ، وسُميَّ الهوىٰ بهذا الاسم؛ لموافقته لميل النفس وحظها، وقيل: لأنه يهوي بصاحبه إلىٰ دركات الضلالة نسأل الله السلامة والعافية؛ ولذلك سُميَّ أهل البدع بأهل الأهواء، وسماه الله إلهًا حيث قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ﴾ [الجاثية:٢٣]؛ لأنَّ ما من معصية ترتكب، أو شرك يُعمل به، أو ظلم يقع في هذه الأرض إلا كان مصدره الهوىٰ وميل النفس غالبًا، ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ صفته حيث ترك العلو إلىٰ الدنو، وترك الرفعة إلىٰ الضعة، وترك الهدىٰ إلىٰ الضلال، وترك التوحيد إلىٰ الشرك، وترك السنة إلىٰ البدعة، وترك العلم إلىٰ الجهل، ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ مثله الله بأخس البهائم الذي يلهث في شبعه وجوعه، وفي جريه وسكونه، ليس شيء من الدواب يشبه هذه الدابة المستقبحة، تراه جالسًا علىٰ مؤخرته وهو يلهث، يأكل ويشرب وهو يلهث، وقد سماه النبي ﷺ مثل السوء.

فعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ، الَّذِي يَعُودُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ**» متفق عليه.

ولا إله إلا الله بينما العالم في أعلىٰ درجات العز والكرامة، وإذا به إذا أخلد إلىٰ الأرض صار في أدنىٰ مراتب المهانة، ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي: في جميع الحالات هو علىٰ لهثه، وكذلك المعرض عن دين الله إن تُرِك علىٰ حاله لم ينزجر وإن أُنكِر عليه لم يرعوِ فهو كالكلب، وقد مثل الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا من لم يعمل بعلمه: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]، فنفعه لغيره والضرر لاحق به، ﴿ذَّٰلِكَ﴾ المثل أي: تمثيل المنحرف بالكلب، ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كفروا وأعرضوا، ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ أخبرهم بأخبار من سبق وسلف، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فينقادون ويرجعون عما هم فيه من الضلالة إلىٰ الهدىٰ، والله المستعان.

﴿سَاءَ﴾ بئس ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ مثل القوم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وأعرضوا وانحرفوا عن دين الله، ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ بهذا الصنيع كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [الزمر:٤١]، وإلا فقد أخبر ربُنا أنه الغني الحميد فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال الله تعالى: «**يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**» أخرجه مسلم(٢٥٧٧).

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ يوفقه للخير والإسلام وسلوك تلك السُبل، ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِى﴾ لأنَّ هداية التوفيق خاصة بالله كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يقدر عليه الضلالة والمهانة، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا والأخرى.

﴿وَ﴾ الله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ النار المتقدة التي وقودها الناس والحجارة، ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ بني الشيطان، ﴿وَالأنسِ﴾ بني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ تنبض وتضخ الدماء،

وربما تفكرت وصنعت الآلات العظيمة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم:٧]، ولكن: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لا يعقلون ولا يستفيدون بوجودها، وإنما هي كقلوب بقية الحيوانات البهيمة التي لا تعقل، ومع ذلك: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢]، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦]، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ مبصرة لكثير من المبصرات، وربما استطاعوا أن ينقشوا بها الشوكة التي لا تُرى، واستخدموها مع المجاهر في رؤية ما لا يُرى بالعين المجردة، ومع ذلك: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الهدى والآيات الشرعية والحجج الدينية، قد عمت قلوبهم عن الحق وعمت أبصارهم عن نظره: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ﴾ جارحة ﴿لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الحق، فيسمعون بها الأغاني، ويسمعون بها الخنا، والفجور، والزور لكنها في حال سماع الآيات الشرعية: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة:١٧١]، كما قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٧]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: من تقدم وصفهم، ﴿كَالأنعَامِ﴾ السائبة السائمة التي لا تعرف ما ينفعها ويضرها، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنَّ تلك الأنعام لا عقول لها وليست بمكلفة وهؤلاء قد جعل الله لهم من وسائل المعرفة والإدراك والعلم الشيء الكثير ومع ذلك ما انتفعوا به قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨]، فبهذا تعلم أن الكفار أشر الأشرار، وأضل الضلال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة:٦].

❁ فليكن في مثل هذه الآية دعوة للمسلمين إلىٰ البعد عن التشبه بالكافرين في عقائدهم، وأقوالهم، وأفعالهم فقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنهم أضل من الأنعام، ومن كان هذا حاله فبئس التشبه به، والسير خلفه، والاقتداء به، فلو كان من أصحاب الكرامات لكان بعيدًا عن التشبه بالحيوانات البهيمات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ عن وعد الله ووعيده، وعن خبره وحكمه فاستحقوا النار؛ لشدة غفلتهم.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾.

هذه الآية من مهمات الآي التي ينبغي أن يُعلم المراد منها لفظًا ومعنىٰ، وأن تحقق ظاهرًا وباطنًا؛ لأنَّ المخالفين لأهل السنة والجماعة في هذا الباب كُثر لا كثرهم الله، وهي عمدة في باب ما يثبت لله عَزَّوَجَلَّ إذ أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُعرف بأسمائه وصفاته كما يُعرف بآياته ومخلوقات.

فيقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: أنه يُسمى بأسماء كلها حسنى، ولا يجوز أن يُسمى بما سوى ذلك.

❁ والأسماء من حيث هي تنقسم إلىٰ أقسام:

الأول: أسماء مدح وكمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه كالعليم، والسميع، والبصير فهذه تُثبت لله عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: أسماء نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه كالأصم، والأعمىٰ، والأبكم فهذه تُنفىٰ عن الله عَزَّوَجَلَّ.

الثالث: أسماء كمال من وجه ومدح من وجه كالمكر، والكيد، والخداع ونحوه، فهذه تُثبت لله عَزَّوَجَلَّ في حال كمالها، وتُنفىٰ عن الله عَزَّوَجَلَّ في حال نقصها، فيكيد بالكائدين، ويمكر بالماكرين، ويستهزئ بالمستهزئين.

❁ وكانت أسماء الله عَزَّوَجَلَّ حسنىٰ لأمور:

الأول: أنها أسماء مدح.

الثاني: أنها أسماء دالة علىٰ الكمال.

الثالث: أن كل اسم يتضمن صفة.

الرابع: أنها مذكورة في الكتاب والسنة.

الخامس: أن الله يدعىٰ بها والتوسل بها من أسباب استجابة الدعاء.

السادس: أن شرفها بشرف المُسمىٰ بها وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السابع: أنها غير مخلوقة، بل هي أسماء سمىٰ الله عَزَّوَجَلَّ نفسه بها، وسماه بها رسوله ﷺ بما أوحاه الله إليه، والذي جعل أهل البدع يزعمون أن القرآن مخلوق التوصل إلىٰ أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته مخلوقة، والصواب الذي عليه أهل الإسلام: خلاف ما ذهب إليه أهل البدعة والإجرام، فأسماء الله عَزَّوَجَلَّ أزلية أبدية، سمىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بها نفسه أزلًا وأبدًا، وهي متضمنة للكمال المطلق أزلًا وأبدًا.

والحسنىٰ: تأنيث الأحسن كالكبرىٰ والصغرىٰ، كما قرره غير واحد من المفسرين، والتأنيث عائد إلىٰ الجماعة لا إلىٰ أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ مؤنثة تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ويُشترط في الاسم حتىٰ يُطلق علىٰ الله:

أن يدل علىٰ الذات والصفة مع ما تقدم بيانه من ورودها في الكتاب والسنة إذ لا مجال للعقل في إثبات ما يجب وما يجوز، وما يمتنع لله عَزَّوَجَلَّ مع أن العقل يدل علىٰ إثبات الكمال المُطلق؛ لكن لا نعلم تفاصيل أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ إلا بما جاء به الكتاب والسنة، ونثبت ما دلت عليه من المعاني العظيمة الجليلة بالدلالات الثلاث:

بالمطابقة: وهو دلالة اللفظ علىٰ جميع معناه:

وبالتضمن: وهو دلالة اللفظ علىٰ بعض المعنىٰ.

وبالالتزام: وهو دلالة اللفظ علىٰ معنىٰ خارج عنه، مثاله: لفظ الجلالة: الله، يدل علىٰ الذات العلية، وعلىٰ الاسم بالمطابقة، ويدل علىٰ صفة الألوهية، وعلىٰ اسم الذات العلية بالتضمن، ويدل علىٰ إثبات الكلام، والسمع، والبصر، والقدرة، والإرادة بالالتزام؛ لأنَّ الإله لا بد أن يكون قادرًا، سميعًا، بصيرًا، مريدًا، متكلمًا إلىٰ غير ذلك.

وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ غير داخلة تحت حصر معلوم لنا؛ للإطلاق الذي جاء في هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾؛ ولقول النبي ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود عند

الحاكم وغيره: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**» أخرجه الحاكم(١٩٢٩).

❖وأما ما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» متفق عليه، فليس معنىٰ ذلك: أنها محصورة بتسعة وتسعين كما ذهب إليه ابن حزم وظاهر كلام ابن كج، وإنما معناه كقول العرب: عندي مائة دينار أعددتها للصدقة، ولا يمنع أن يكون عنده أكثر من ذلك، وتمام الجملة: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، كما بين ذلك ابن القيم وشيخ الإسلام، بل نقل النووي رَحِمَهُ اللَّهُ الإجماع والاتفاق علىٰ ذلك، وهكذا الشيخ حسن آل الشيخ في شرحه علىٰ كتاب التوحيد: من أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ غير محصورة بعدد معلوم لنا، وقد بينت ما يتعلق بذلك في كُتيِبٍ بعنوان: "التبيين لخطأ من حصر أسماء الله فى تسعة وتسعين".

وباب الأسماء والصفات ينبغي أن يُشاع ويُذاع في المجالس والمحاضرات والخطب؛ لحاجة الناس إليه، ومن منع ذلك فقوله مردود عليه، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه التسعينية قريب من ثمانية عشر وجهًا يرد بها علىٰ من منع ذلك حين ألزموه بعدم التحدث في هذا الباب، وكنت قد ألفت كتابًا بعنوان: ضوابط تحديث العوام بأحاديث الأسماء والصفات، فلما انتهيت من رسمه وقفت علىٰ إجابة شيخ الإسلام فزادته حسنًا إلىٰ حسنه وتمت فائدته؛ وذلك أن سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، تُتلىٰ في كثير من الصلوات ويحفظها الخاص والعام من المسلمين دالة علىٰ هذا الباب العظيم، وهكذا آية الكرسي، وأوائل سورة طه، وآخر سورة الحشر، وغير ذلك من المواطن إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ تعرف علىٰ عبادة بأسمائه وصفاته.

۞ ولا يجوز أن يُدعىٰ الله بغير الأسماء الحسنىٰ، كأسماء الأخبار.

فلا تقول: يا المتكلم، أو يا الشائي، أو يا المريد، وإنما تدعو الله بأسمائه الحسنىٰ: يا الله، يا رحمن، يا رحيم إلىٰ غير ذلك مما سمىٰ به نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويُناسب أن تدعو مع كل طلب بما يناسبه، فإذا طلبت الرزق توسل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ باسم الرزاق، وهكذا.

۞ وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ متفاضلة علىٰ القول الصحيح؛ لورود الأدلة بتفاضل القرآن.

فالنبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلىٰ: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ**»، أخرجه البخاري (٤٦٤٧)، وقال لأبيّ بن كعب: «**أَبَا الْمُنْذِرِ، أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ؟**» أخرجه مسلم (٨١٠)، وهكذا قال في: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: «**تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**» أخرجه مسلم (٨١٢) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا كان القرآن متفاضلًا دل علىٰ أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته متفاضلة؛ وماا يدل علىٰ التفاضل الاسم الأعظم، وفي حديث بريدة وجاء عن غيره بمعناه: أن رجلًا قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، يَا مَنَّانُ، يَا بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ**» أخرجه أحمد (١٣٥٧٠).

۞ واسم الله الأعظم علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم: هو (الله)، وقيل غير ذلك، وذهب جمع إلىٰ أنه: الحي القيوم، وقد ورد في ثلاث سور من القرآن، وجاءت فيه أحاديث ضعيفة، وأما الحديث الذي فيه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ**»، أو الحديث الذي فيه: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**»، إنما دل علىٰ استجابة الله عَزَّوَجَلَّ للدعاء بهذا الاسم، فقد قال النبي ﷺ: «**أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**»، وكان في كثير دعائه يقول: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**».

۞ ولا يجوز أن تدعو الصفة، فلا تقول: يا سمع الله، أو يا بصر الله، أو يا وجه الله، أو يا يد الله، بل يُدعىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المسمىٰ بالأسماء والموصوف بالصفات، وما جاء في قوله: «**بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»، فالذي عندنا أن هذه اللفظة شاذة لا تثبت عن النبي ﷺ، وعلىٰ ثبوتها فقد قال أهل العلم: بأنه توسل برحمة الله عَزَّوَجَلَّ لا أنه دعها.

۞ وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته غير مخلوقة، بل إن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سمىٰ نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات، فمن زعم أنها مخلوقة فقد كفر عند أهل السنة والجماعة قاطبة، ولم يقل أحد من المسلمين بهذا الأمر إلا ما كان من أهل البدع والضلال المخالفين المنحرفين في هذا الباب.

۞ وتضمنت هذه الآية: الدعاء بأسماء الله الحسنىٰ ويدخل فيها الأسماء المركبة كأرحم الراحمين، ورب العالمين، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه إلىٰ غير ذلك، وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع علىٰ دعاء الله بالأسماء المركبة.

﴿وَذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون ﴿فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ عن المعنىٰ الذي أراده الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وفي الآية تحريم الإلحاد في باب الأسماء والصفات، والملحدون في هذه الباب أنواع:

الأول: إلحاد الممثلة، الذين زعموا أن أسماء الله أو صفاته عَزَّوَجَلَّ وصفاته كأسماء مخلوقاته.

الثاني: إلحاد المعطلة، الذين زعموا أن أسماء الله مخلوقة، أو أن أسماء الله لا تدل علىٰ معاني، إلىٰ غير ذلك من أنواع الإلحاد الذي وقعوا فيه.

الثالث: إلحاد المكيفة، الذين كيفوا صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويُضافون إلىٰ الممثلة إذا قيدوها بمماثل، ويخرجون عنهم إذا لم يقيدوها بمماثل.

الرابع: إلحاد النصارىٰ، الذين سموا الله عَزَّوَجَلَّ بغير أسمائه فسموه الأب، وربما سموه الابن.

الخامس: إلحاد المشركين، إذ سموا آلهتهم بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ كاشتقاق اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز، ومناة من المنان، والإلحاد في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته من أسباب انتقام الله عَزَّوَجَلَّ من الملحدين.

السادس: إلحاد المفوضة الذين زعموا أن آيات الصفات غير معلومة المعنىٰ، أو ليس لها معنىٰ.

والإلحاد: هو الميل، ومنه سُمي اللحد لحدًا، فمن مال بها عن دلالة القرآن والسنة ومنهج السلف الصالح كان ملحدًا بقدر إلحاده، والله المستعان.

۞ ومن الإلحاد: ما عليه الرافضة، والمعتزلة من أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ لا معاني لها، وقد قرروه في كتبهم فيقولون: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، مريد بلا إرادة وهكذا.

۞ ومن أشر الملحدين في الأسماء والصفات المعطلة، وهم أنواع:

الأول: الجهمية الذين يزعمون أن الله لا أسماء له ولا صفات، أتباع جهم بن صفوان.

الثاني: المعتزلة الذين يثبتون الأسماء ويعطلون الصفات.

الثالث: الأشاعرة الذين يثبتون الأسماء وبعض الصفات، وينفون بقيتها لا سيما الصفات الفعلية فلا يُثبتون لله الغضب، ولا الرضا، ولا السخط، ولا المحبة، ولا الكراهة، ولا غير ذلك من الصفات كالاستواء والعلو، محرفين لدلالة القرآن والسنة ومتابعين للعقلأنيين الذين تركوا الاستدلال بمنهج السلف واستخدموا محظ عقولهم إذ يتابعون زنادقة اليونان والهند والرومان إلىٰ غير ذلك والله المستعان.

فينبغي أن نحقق هذا الباب، وأن نتعلمه، ونعلمه، وأن نتقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه وتعلمه فإنه أشرف العلوم وأزكاها، فإن شرف العلم بشرف المعلوم.

وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ التوسل بالأسماء والصفات.

۞ **فالتوسل المشروع ثلاثة أقسام:**

الأول: التوسل بأسماء الله وصفاته للآية المذكورة.

الثاني: التوسل بدعاء الرجل الصالح، كما كان يفعل الصحابة بطلب الدعاء من النبي ﷺ.

الثالث: التوسل بالعمل الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ [آل عمران: ٥٣].

❁ وأما التوسل الممنوع، فعلىٰ نوعين:

- **الأول:** التوسل الشركي، وهو دعاء غير الله عَزَّوَجَلَّ فيما لا يقدر عليه إلا الله.

- **الثاني:** التوسل البدعي وهو التوسل بذوات المخلوقين وإن كانوا صالحين كقول بعضهم: اللهم إني أسألك بحق محمد ﷺ، فإن حق محمد ﷺ مختص به لا يتعدىٰ إلىٰ غيره، والحق الذي يُتوسل به إيماننا بمحمد ﷺ.

﴿وَذَرُواْ﴾ اتركوا، ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون في آيات الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة من الذلة والمهانة، ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بسبب ذنوبهم ومعاصيهم التي ارتكبوها، وجرأتِهم علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الباب، والله عَزَّوَجَلَّ يقول كما تقدم معنا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف:٣٣]، وقد تكلمت عن هذا الباب بتوسع بمحمد الله في كتابي: "القواعد الحسان فى أسماء وصفات الرحمن"، وفي غيرها ولله الحمد والمنة.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٨١ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٨٦ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ

أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾ طائفة، ﴿يَهْدُونَ﴾ يهتدون ﴿بِالْحَقِّ﴾ ويعملون به، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قيل: يريد بهم أمة محمد ﷺ فإنهم لازموه في ظواهرهم وبواطنهم، وأعظم العدل: هو القيام بالتوحيد، الذي هو حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على العبيد.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: كفروا وأعرضوا عنها، والآيات المراد بها هنا الآيات الشرعية، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ نأخذهم قليلًا قليلًا فيُستدرجون بما هم فيه، من النعم، وتزيين الباطل، ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا يظنون، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ﴾ [الحشر:٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ يمهلهم؛ ليتمادوا في معاصيهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ شديد لا يطاق يكيد بالكائدين، ويستهزئ بالمستهزئين ومكره شديد، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢]، والكيد من صفات المقابلة، فتُثبت لله عَزَّوَجَلَّ في حال كمالها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ يتدبر ويعلم المشركون المعرضون عن دين رب العالمين، ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ﷺ، ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ من جنون أو ضعف عقل ونحو ذلك، وهذه إحدى التهم التي يوجهونها إليه مع توجيه غيرها كقولهم ساحر وكاهن ومُعَلم، والله المستعان ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يخوفهم عذاب الله وعقابه ﴿مُّبِينٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ يتفكروا وهذا أمر آخر للدلالة على توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، لأنَّ النظر إذا عُديَّ بـ (في) فهو بمعنى التفكر، وإذا عُديَّ بنفسه فهو بمعنى: الأنتظار، وإذا عُديَّ بـ (إلى) فهو

بمعنى النظر قال الله عَزَّوَجَلَّ وقال: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ [النمل:٣٥]، أي: منتظرة، وهنا: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أولم يتفكراوفي قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، من النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فِي مَلَكُوتِ﴾ مُلك الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ الواسعات المرتفعات، ﴿وَالأَرْضِ﴾ المبسوطة، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي: من جميع المخلوقات، ففي هذا دلالة على قوة الله وقهره، وعلى عظمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وسعته، ﴿وَأَنْ﴾ أي أنه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ﴾ قرب ﴿أَجَلُهُمْ﴾ فيموتون كفارًا، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ أي بعد القرآن مع دلائله الظاهرات وحججه القاهرات ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، ينقادون ويستجيبون وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس:١٠١].

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ كتب عليه الضلالة والشقاوة، وقُرئت بالنون: ﴿نُضْلِلِ﴾، ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ لقوله تعالى: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**» أخرجه مسلم(٢٥٧٧) عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كما أنه من يهدي الله فلا مضل الله، وفي خطبة الحاجة يقولها النبي ﷺ في كل جمعة: «**مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ**»، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفها كيف شاء، إن شاء صرف قلبك على توحيده وطاعته فلو اجتمع من في أقطارها على أن يزيغه ما أزاغه، وإن شاء صرف قلبك على الإشراك به ومعصيته فلو اجتمع من بأقطارها على هدايته عجزوا عن ذلك، ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ يتركهم، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في بغيهم وعنادهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون في حيرتهم وشكهم.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: كفار قريش، ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ القيامة، ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى وقتها وقيامها وثباتها، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ لم يطلع عليها ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، فهي من مفاتح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا

تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان:٣٤]، ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ يكشفها ويظهرها ﴿لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: إذا جاء وقتها، ﴿ثَقُلَتْ﴾ عَظُم شأنها ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لهولها وشدتها،، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فجأة وعلى حين غرة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا، وَرَفَعَ لِيتًا، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ**» أخرجه مسلم (٢٩٤٠) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ عن الساعة ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ عليم بوقتها وبشأنها مع أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يطلعك علىٰ ذلك، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ الذي قدرها وخلقها وأوجدها، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب كفرهم وبغيهم وعنادهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ جلب نفع، ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ دفع ضرٍ، فإن كان ﷺ يعجز عن ذلك فمن باب أولى عجزه عن نفع غيره والدفع عن غيره.

۞ وهذه الآية من أعظم الآيات البينات ومن أظهر الأدلة الجليات في الرد علىٰ القبورين من الصوفية والرافضة والباطنيين الذين يدعون رسول الله ﷺ وينزلون به حوائجهم من دون الله، وإذا كان رسول الله ﷺ هذا حاله فكيف بغيره ممن يسمونهم بالأولياء والأصفياء، أو بالأوتاد والأقطاب فكل عاجز قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤]، فلا يجوز أن تُصرف العبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: مما أقدره الله عَزَّوَجَلَّ عليه، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ما غاب عني وهذا رد آخر، فإنهم يزعمون أن محمدًا ﷺ يعلم الغيب، وقد رد النبي ﷺ هذا الأمر حين قالت تلك المرأة: «وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ».

قال: «**لَا تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»، أخرجه البخاري(٤٠٠١) عن الربيع بنت معوذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ خير الدنيا، وإلا فقد كان مستكثرًا من الطاعات والقربات ونحو ذلك، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ لأنه سيعلم أسباب السلامة فيسلكها، ﴿إِنْ﴾ ما

﴿أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ مخوف من العذاب ﴿وَبَشِيرٌ﴾ ومبشر بالجنة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يستجيبون، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن:٢٦-٢٧]، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل:٦٥].

۞ وهذه مسألة مهمة إذ ما عُبدت القبور من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وما عُبد الأنبياء والصالحون إلا بسبب هذه الشبهة العليلة والميتة التي أوحاها إليهم الشيطان والله المستعان، حتىٰ قال البوصري في وصف النبي ﷺ:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح

وهذا من أشد الفجور وأعظم الزور، إذ جعله مشاركًا لله عَزَّوَجَلَّ عالمًا بعلمه سبحان الله عما يصفون.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم﴾ يا بني آدم، ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَجَعَلَ﴾ خلق ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا، كَسَرْتَهَا وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا**» متفق عليه

﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ ليأنس بها ويأوي إليها ويستمتع بها ويكون منهما الولد، فالمرأة للرجل لباس وسكن وفراش، ومن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل بين الأزواج مودةً ورحمة لا يعرفها ولا تعرفه وبمجرد العقد وكأن بينهما الألفة والمحبة من قديم الزمن، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ واقعها وجامعها، ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ يعني: حملًا في أوله نطفة ثم علقة ثم مضغة، مع أن الحمل ثقيل لا سيما فيما يُسمىٰ بالوحم يشتد علىٰ المرأة حتىٰ لا تستطيع الطعام والشراب، ولا تستسيغ كثيرًا مما كانت تستسغه قال تعالىٰ: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ [الأحقاف:١٥]، ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾ أي: استمرت مع هذا الحمل وقامت وقعدت، وخرجت ودخلت، ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ كَبُرَ الولد في بطنها ونُفخ فيه الروح وصُوِر، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: الأب والأم، ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ إن جعلت هذا الولد صالحًا أي: سويًا في خلقته وهيئته سالمًا من العيوب؛ لأنَّ كثيرًا من الحمل ربما يخرج مشوهًا، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك علىٰ ما أنعمت وأعطيت وأسديت.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ ولدًا ﴿صَٰلِحٗا﴾ بشرًا سويًا كما طلبا، ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ ﴿شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ أي: حظًا ونصيبًا، إما أن يعبدوه لغير الله، وإما أن يسخروه في عبادة غير الله، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ في علوه وسماه وفي ذاته وصفاته، ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ينذرون ويفترون، وقد زعم كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في آدم وحواء.

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: فَلَمَّا حَمَلَتْ حَوَّاءُ أَتَاهَا إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، فَقَالَ لَهَا: مَا الَّذِي فِي بَطْنِكِ؟ قَالَتْ: مَا أَدْرِي. قَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ بَهِيمَةً أَوْ كَلْبًا أَوْ خِنْزِيرًا وَمَا يُدْرِيكِ مِنْ أَيْنَ يَخْرُجُ مِنْ دُبُرِكِ فَيَقْتُلُكِ أَوْ من فيك ويشق بَطْنُكِ، فَخَافَتْ حَوَّاءُ مِنْ ذَلِكَ، وَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِآدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَلَمْ يَزَالَا فِي هَمٍّ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهَا فَقَالَ: إِنِّي مِنَ اللهِ بِمَنْزِلَةٍ فَإِنْ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَهُ خَلْقًا سَوِيًّا مِثْلَكِ وَيُسَهِّلَ عَلَيْكِ خُرُوجَهُ تُسَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ؟ وَكَانَ اسْمُ إِبْلِيسَ فِي الْمَلَائِكَةِ الْحَارِثَ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِآدَمَ، فَقَالَ: لَعَلَّهُ صَاحِبُنَا

الَّذِي قَدْ عَلِمْتِ، فَعَاوَدَهَا إِبْلِيسُ فَلَمْ يَزَلْ بِهِمَا حَتَّىٰ غَرَّهُمَا، فَلَمَّا وَلَدَتْ سَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ". اهـ

❖وهذا لا يستقيم؛ لأنَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي كريم يعلم لما خلقه ربه، وهو من الدعاة إلىٰ توحيد ربه فكيف يقع منه الشرك، وأيضًا زوجه حواء علىٰ أمر عظيم في هذا الباب فما كان لها أن تُشرك وتندد، وقد ظهرت نكارة هذا الحديث سندًا ومتنًا من أوجه:

- **الأول**: أن الله أخبرنا عن توبة آدم من أكله من الشجرة وهي معصية، ولم يُخبر عن توبته من الشرك إن كان وقع منه وهو أشد.

- **الثاني**: أنه قد جاء في الحديث أن الشيطان قال لهما: «**أَنَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ**»، فكيف يصدقان من قد سعىٰ في إفساد حياتهما؟

- **الثالث**: قوله: «**لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيِّ أَيِلْ**»، يعني: قرون غزال أو نوع من الغزلأن، وهذا شرك في الربوبية، والشيطان أعجز وأحقر من أن يصنع ذلك.

- **الرابع**: أن كثيرًا من المفسرين فسر هذه الآية بأنها عامة أي: فيمن وقع منه هذا الأمر، ثم إن الحسن البصري قد جاء عنه غير ما جاءت به هذه النكارات مما يدل علىٰ ردها.

وقد تكلم ابن كثير علىٰ معنىٰ هذه الآية، وسقت كلامه في رسالتي: "قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وما فيها من العقائد والآداب والأحكام"، ومن حيث سياقة الحديث فهو منكر من ثلاثة أوجه:

- **الأول**: أن عمر بن إبراهيم البصري قد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يُحتج به، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمره مرفوعًا.

- **الثاني**: أنه قد روي من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعًا كما قال ابن جرير.

- **الثالث**: أن الحسن نفسه قد فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه، حيث جاء عن الحسن عند ابن جرير من طريق وكيع عن سهل بن يوسف عن

عمر وعن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ يعني: إبليس والأصنام، ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مخلوقون كما قال الله عَزَّوَجَلَّ مبكتًا لأصنامهم: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور:٣٥].

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لِعُبَّادهم ﴿نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ لمن أراد أن يكسرهم ونحو ذلك، فربما جاء الكلب فبال على الصنم، وربما جاء المجنون فألقى ذلك الصنم على وجهه، فهم عاجزون عن نصرة غيرهم بل عاجزون عن نصرة أنفسهم، فكيف يكون مثل هذا إله؟ فالإله: الذي لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾ [الروم:٥٤].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ هذه الأصنام والأوثان ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ الإيمان والعلم ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ﴾ لا يستجيبون لدعوتكم، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الحال عندهم واحد، ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ إلى الإسلام، ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ عن دعائهم فهم لا يؤمنون، فحالهم كما قال الله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾ [البقرة:١٧١]، كما قال الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة:٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أيها المشركون المنددون المعرضون عن الإسلام والتوحيد: من الحجارة، والأصنام، والملائكة، والأنبياء وغيرهم، ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ﴾ منهم من يتقرب إلى الله، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧]، ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ إن أبيتم إلا الشرك، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ لرفع البلاء الذي نزل عليكم أو بجلب المصلحة لكم، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قيلكم أنهم ينفعون ويضرون ولن يكون منهم استجابة لعجزهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر:١٤]، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا

يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢]، هذه الأولى، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ:٢٢]، ليس لهم مشاركة، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ:٢٢]، ولا لهم عون ونصر وتأييد، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]، فَقُطِعت عن الأصنام جميع أنواع التعلقات الأربع.

ثم بين الله عَزَّوَجَلَّ ضعف هذه الآلهة إلى أبعد الحدود فقال: ﴿أَلَهُمْ﴾ لهذه الأصنام ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ﴾ أي: ليس لهم ذلك، ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ وينتصرون بها؟ فليس لهم ذلك، بل هي حجارة عاجزةٌ بكل معنى العجز، ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ ليس لهم ذلك، فإذا كانوا قد مُنِعوا من الكمال فأنى لهم أن يكونوا آلهة وهم في أسوأ درجات النقص، فالحيوان البهيم من الأبعرة، والجِمال، والغنم، والبقر أكمل من آلهتهم؛ لأنَّ فيها حياة، فيها سمع، وبصر، وأرجل، وأيادي، بخلاف الأصنام التي هي حجارة صماء، ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ كل هذا لم يكن، ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ادْعُواْ شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين تستنصرون بهم، إلى هلاكي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ امكروا بي، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فلا تؤخرون ولا تمهلون في ذلك، فإني لا أبالي بكم، وهذا من عظيم توكله على الله عَزَّوَجَلَّ وهم عاجزون.

﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٧ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ مخبراً عن محمد ﷺ: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ﴾ ناصري وحافظيّ ومؤيديّ، ﴿ٱللَّهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة:٢٥٧]، ﴿ٱلَّذِى﴾ من صفاته أنه ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن على محمد ﷺ، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ ينصر ويؤيد ويحفظ ويسدد ﴿الصَّالِحِين﴾ الموحدين، المؤمنين، المخبتين، المنيبين، وهذا من فضل الله عَزَّوَجَلَّ عليهم فيثبتهم ويسددهم ويعينهم.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أي: لا يستطيعون عونكم ولا دفع الضر عنكم، ﴿وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُون﴾ بل هم عاجزون عن نصر أنفسهم إذا جاءت الكلاب لتبول عليهم فضلًا عمن جاء لتكسيرها وإتلافها.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ هذه الأصنام ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ الدين والعلم، ﴿لَا يَسْمَعُواْ﴾ لعدم وجود صفة السمع فيهم فهي صماء بكماء حجار جامدة، ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ لا نظر عين وإنما نظر مواجهة، ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لعدم وجود العين معهم، وقيل في معنى الآية: وإن تدع الكفار إلى الهدى والإسلام لا يسمعون؛ لما في قلوبهم من القسوة والغفلة وغير ذلك كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٦-٧].

﴿خُذِ﴾ يا محمد ﴿الْعَفْوَ﴾ ممن ظلمك وأساء إليك، أو خذ الزائد مما أُعطِيت، والنبي ﷺ لم يُرفع إليه شيء إلا أمر فيه بالعفو، وقال النبي ﷺ: «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**»، وفي الحديث: «**اغْفِرُوا يُغْفَرُ لَكُمْ**»، والجزاء من جنس العمل، وفي حديث المغيرة لما مات جرير قال: استغفروا لأخيكم فإنه كان يحب العفو والتجاوز والصفح، وهذا يدل على صفاء قلب، وهدوء بالٍ، وسعة صدرٍ، وهو من الأخلاق الحميدة، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ بالتوحيد فما دونه، وحث ودل عليه، وهذا شامل للعلم والعمل، ﴿وَأَعْرِضْ﴾ تول ﴿عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ فلا تقابلهم يريد المبتدعين الضالين، وعن كل سفيه مهين إذا أراد أذيتك، اعرض بجوارحك

وكلامك وغير ذلك، والنبي ﷺ لم يكن فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا سخابًا في الأسواق، وكان لا يجزي بالسيئة السيئة؛ ولكن يعفو ويصفح.

۞ وهذه الآية من عظيم الآي الدالة علىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن القيم، لما فيها من الحث علىٰ التجاوز والعفو والصفح

وفي البخاري (٤٦٤٢) عن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «**قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَىٰ ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا**»، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «**فَاسْتَأْذَنَ الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ**»، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيْ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ وَلاَ تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّىٰ هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، «**وَاللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ**».

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ يُصيبك ويعتريك ﴿مِنَ الشَّيۡطَانِ نَزۡغٞ﴾ من وساوسه وأذاه، ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ لأنه هو المعاذ الذي لا يعجزه شيء، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لدعائك ﴿عَلِيمٞ﴾ بحالك وبما يصلح شأنك.

فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا تَحْمَرُّ عَيْنَاهُ وَتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**» فَقَالَ الرَّجُلُ: وَهَلْ تَرَىٰ بِي مِنْ جُنُونٍ؟. أخرجه مسلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ هذا خبر من الله عَزَّوَجَلَّ عن حال المتقين المؤمنين، ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ جاء في قراءة: ﴿طَيِفٌ﴾ ومعناه: الشيء يَلِمُ بك من وسوسة ونحوها، قال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله تعالى فيكظم الغيظ، ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ تذكروا

وعد الله، وتذكروا وعيده فتركوا ما نزل بهم من الغضب، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ يبصرون موقع الخطأ والصواب؛ لأنَّ الإنسان إذا غضب خرج منه ما لا يُحمد من الأقوال والأفعال، وربما خرج عن السيطرة لا سيما إذا كان غضبه مُطبقًا.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**» أخرجه البخاري (٦١١٦)، وفي رواية: قَالَ الرَّجُلُ: فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**» أخرجه مسلم (٢٦٠٩).

﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أي: إخوان الشياطين من المشركين، ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي: الشياطين يمدون أتباعهم، ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾ في الباطل والإغواء، ﴿ثُمَّ﴾ هم ﴿لَا يُقْصِرُونَ ﴾ لا يكفون عن الإيذاء، فلذلك ينبغي للمسلم أن يكون في جميع حاله لاجئًا إلى الله معتصمًا به؛ ولهذا شُرِعت أذكار الصباح والمساء، والدخول والخروج وغير ذلك؛ لأنَّ الإنسان يُكفى الشيطان.

فعن زيد بن خالد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**مَنْ صَلَّىٰ الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ**» أخرجه مسلم (٦٥٧).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَانَ لَهُ عِدْلَ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ، وَكُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَحُطَّ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكَانَ فِي حِرْزٍ مِنْ الشَّيْطَانِ حَتَّىٰ يُمْسِيَ، وَإِنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَىٰ ، كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ حَتَّىٰ يُصْبِحَ**» متفق عليه.

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّىٰ لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ**» أخرجه أبو داود (٥٠٩٥).

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾ يا محمد ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ معجزة ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ يعني: هلا احدثتها وأنشأتها، ومحمد ﷺ ما هو إلا رسول مبلغ، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ أي: ليس

إليّ الآيات وليس إليّ المعجزات، وإنما أنا رسول مبلغ، فما أمرني الله عَزَّوَجَلَّ به بلغته، وما لم لم أتكلفه كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن، ﴿بَصَآئِرُ﴾ حجج ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ واحدتها: بصيرة وأصلها ظهور الشيء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، ﴿وَهُدًى﴾ فيه هدى للمؤمنين، يُخرجون به من الظلمات إلى النور: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، فكله هدى، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ فيه رحمة، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُخرجون به من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: إذا قرأ أحدكم القرآن وأنتم حوله، لكن هذه الآية تُحمل على قراءة الفاتحة في الصلاة عند كثير من العلماء، أو على القراءة في الخطبة فيكون السماع واجبًا، وأما في غيرها فإنما هو من المستحبات، ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: للقارئ، والنبي ﷺ لما قرأ عليه عبد الله بن مسعود استمع لقراءته، ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ أي: لا تتكلموا، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تقع لكم الرحمات والمكرمات من الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن الكلام والإمام يخطب؛ لما تتضمن خطبته من القرآن وغيره، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ: أَنْصِتْ، وَالْإِمامُ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَدْ لَغَوْتَ**» متفق عليه.

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه لما سمع النبي ﷺ أناس يقرؤون خلفه قال: «**إِنِّي لَأَرَاكُمْ تَقْرَؤُونَ وَرَاءَ إِمامِكُمْ**»، قُلْنَا: نَعَمْ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لَنَفْعَلُ هَذَا، قَالَ: «**فَلَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِأُمِّ الْقُرْآنِ**» أخرجه أحمد (٢٣١٣٤).

﴿وَٱذْكُر﴾ يا محمد ﴿رَّبَّكَ﴾، وهو أمر لجميع الأمة، ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ أي: سرًا، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾أي: خوفًا من بطش الله فتتضرع إليه حال خوفك منه، ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ لا ترفع صوتك فعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «كان النبي ﷺ إذا قرأ القرآن رفع صوته فسمعه المشركون فسبوا القرآن ومن جاء به ومن أنزله، فأمره الله عَزَّوَجَلَّ بترك ذلك» أخرجه مسلم،

﴿بِالْغُدُوِّ﴾ الصباح ﴿وَالآصَالِ﴾ المساء، وهو: ما بين العصر إلى المغرب، وقيل: ما بين الظهر إلى المغرب، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الغافل يتسلط عليه الشيطان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ ولا يستحسرون، كما قال الله لأ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ يذكرونه، وينزهونه، ويحمدونه، ويكبرونه، فعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**» أخرجه مسلم (٢٧٣١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ يصلون تعظيمًا لشأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والسجود يُعتبر من أعظم العبادات؛ لما فيه من الذل والخضوع بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه أول سجدة تُذكر في القرآن.

وقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم: «**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ، اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ؛ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ؛ فَلِيَ النَّارُ**» أخرجه مسلم (٨١).

وفي حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً**» أخرجه مسلم (٤٨٨)، لكن هذا يُحمل علىٰ الصلاة الكاملة، والله أعلم.

وسجود التلاوة من المستحبات، إلا إذا كنت خلف إمام فإذا سجد تعين عليك متابعته؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ**» متفق عليه.

ولا يشترط لها الطهارة، ولا يلزم فيها التكبير، وما جاء عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كبر فمن رواية عبد الله العمري وهو ضعيف، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير

سورة الأنفال

سُورَةُ الأَنفَالِ

وهي مدنية، وآياتها خمس وسبعون آية، وتسمىٰ سورة بدر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١﴾.

يُخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن سؤال المسلمين لرسول الله ﷺ عن شأن الأنفال، ومن ذلك أن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَخَذَ مِنَ الْخُمْسِ سَيْفًا، فَأَتَىٰ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**هَبْ لِي هَذَا**»، فَأَبَىٰ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الأنفال: ١] متفق عليه.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ﴾ عن حكمه.

إذ أن الذي يؤخذ من الكفار ثلاثة:

الأول: الغنيمة: وهي المال المأخوذ في القتال.

الثاني: الفيء: وهو المال المأخوذ من الكفار في الصلح ونحوه.

الثالث: السلب: وهو ما أُخذ من قتِيل الكفار من لباسه، ومركبه، وسلاحه ونحو ذلك.

فأما الغنيمة فسيأتي بيان حكمها إن شاء الله عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال:٤١]، الآية، وأما النفل، فقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ حكمه في سورة الحشر حيث نفل النبي ﷺ مال بني النضير، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٦﴾ [الحشر: ٦]، وأما السلب فدليله في السنة حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**» متفق عليه.

واختلف العلماء في مسألة السلب، هل له سلبهُ مطلقًا؟ أم لا بد من إذن الإمام في كل معركة؟.

والذي يظهر أن له السلب مطلقًا لهذا الحديث وأما قوله: «**لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ**»، ليست بشرط، إنما تطلب في حال الاختلاف.

وما جاء عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ رَجُلًا مِنَ الْعَدُوِّ، فَأَرَادَ سَلَبَهُ، فَمَنَعَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَكَانَ وَالِيًا عَلَيْهِمْ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لِخَالِدٍ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلَبَهُ؟**» قَالَ: اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**ادْفَعْهُ إِلَيْهِ**»، فَمَرَّ خَالِدٌ بِعَوْفٍ، فَجَرَّ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتُغْضِبَ، فَقَالَ: «**لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ، لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمَرَائِي؟ إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرْعِيَ إِبِلًا، أَوْ غَنَمًا، فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا، فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا، فَشَرِعَتْ فِيهِ فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ، وَتَرَكَتْ كَدْرَهُ، فَصَفْوُهُ لَكُمْ، وَكَدْرُهُ عَلَيْهِمْ**» أخرجه مسلم (١٧٥٣)، فليس فيه تغير الحكم، ولكن هذا فيما إذا كان سيقع اختلاف علىٰ الإمام، والله أعلم.

﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي الحكم فيها للرسول ﷺ يقسمها كيف شاء، وذهب بعضهم إلىٰ أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:٤١]، فكان شأن الغنائم إلىٰ رسول الله ﷺ يومئذ يقسمها كيف شاء، فنسخها بالخمس، والأربعة الأخماس تقسم بين المقاتلين للراجل سهم، وللفارس سهمان، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل أمره واجتناب نهيه، ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ بترك المنازعة فالخلاف شر، وقد أحسن من قال:

إِنّ القُلــوبَ إذا تنــافر ودُّهــا ... شِبْهُ الزُجَاجَةِ كسْرُها لا يُشْعَبُ

والنبي ﷺ كان مبادرًا إلىٰ هذا الباب، وفي الصحيح عن سهل بن سعد: أنه أخر صلاة العصر؛ للإصلاح بين بني عمرو بن عوف، وربُنا عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾

[النساء:١٢٨]، ويقول: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ﴾ [النساء:١١٤]، ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ﴾ بفعل أمره وترك نهيه وزجره ﴿وَرَسُولَهُ﴾ ﷺ وقد قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مقرين منقادين.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

۞ هذه آيات عظيمات جليلات فيها عدة أدلة لمذهب السلف في الإيمان:

- **أولها:** أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، فذكر الله عمل اللسان وفعل القلب وعمل الجوارح، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**» أخرجه مسلم (٣٥).

- **ثانيها:** أن الأعمال داخلة في مسمىٰ الإيمان، فالصلاة والزكاة والحج من الإيمان وهكذا.

- **ثالثها:** أن الذي يوصف بالإيمان علىٰ صيغة المدح هم من توفرت فيهم هذه الصفات، وأما الفاسق الملي، وإن كان عنده أصل الإيمان إلا أنه لا يُمدح به، ولا يثنىٰ عليه به.

- **رابعها:** زيادة الإيمان ونقصانه من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، وهو مذهبٌ أجمع عليه السلف رضوان الله عليهم، وخالفهم الخوارج والمرجئة حيث زعموا أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، زيادته ونقصانه كفر، وقولهم بائر وحكمهم جائر؛ فإن الأدلة متواترة علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص.

- **خامسها:** الاستثناء في الإيمان قال ابن مهدي: ترك الاستثناء أصل الإرجاء، ولا يكون الاستثناء علىٰ الشك، ولكن علىٰ التبرك والخاتمة ومآله عند الله.

- **سادسها:** العلاقة بين مسمىٰ الإسلام والإيمان، وأنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، فعند الاجتماع: الإيمان يطلق علىٰ الأعمال الباطنة، والإسلام علىٰ الإعمال الظاهرة، وعند الافتراق: كل واحد منهما يدل علىٰ معنىٰ الآخر.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول: إنما المؤمن الصادق ظاهرًا وباطنًا: ﴿الَّذِينَ﴾ من شأنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتسبيح، أو التحميد، أو التكبير، أو التهليل، أو غير ذلك من أنواع الذكر، فالذكر أعم من ذكر اللسان ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت وانقادت وخشعت لله عَزَّوَجَلَّ، فزاد إيمانها، وأعمالها، وانقيادها.

فعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ألا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» متفق عليه.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ﴾ قرأت ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ الشرعية من القرآن والسنة، ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ إقرارًا وانقيادًا، وقبولًا وعملًا؛ وجاء عن معاذ: اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنُ سَاعَةً، فيزداد إيمانهم بالذكر وغيره من الطاعات، ﴿وَ﴾ من صفاتهم أنهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون في جلب المنافع ودفع المضار، وقد أمر الله بالتوكل عليه حيث قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة:٢٣]، وهذه أعمال قلبية.

ومن صفات المؤمنين حقًا، والمنقادين صدقًا ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة وهذا من أظهر أعمال الجوارح، وإقامتها أن يؤتى بها على الوجه الذي شرع الله، كما قال رسول الله ﷺ «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» أخرجه البخاري (٦٣١).

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ وهي الزكاة الواجبة، فيُطلق عليها الصدقة والنفقة، ويدخل فيه الصلوات المندوبات، والصدقات المستحبات.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ من تقدم ذكر وصفهم، ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المقرون والمنقادون ﴿حَقًّا﴾ صدقا لا شك في إيمانهم، لأنهم جمعوا بين صلاح الظاهر والباطن.

❁ **وبهذا يستدل أهل العلم علىٰ الاستثناء في الإيمان**، فإن سئل أحدهم أمؤمن أنت يقول: إن شاء الله، فهذا مذهب السلف والخلف من أهل السنة، كما بينه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة يرتقونها بأعمالهم ويتفاوتون في الدرجات علىٰ قدر الأعمال التي يقومون بها.

وفي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**»، فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: «**وَأُخْرَىٰ يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»، قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**» أخرجه مسلم (١٨٨٤).

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ستر وتجاوز، عن سيئاتهم وزلاتهم، ﴿وَرِزْقٌ﴾ عطاء، ﴿كَرِيمٌ﴾ حسن، وهذا في الجنة، ولا يُمنع أنهم يُرزقون في الدنيا علىٰ طاعاتهم ومبراتهم، ففي حديث أنس في مسلم: «**إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأما الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ**» أخرجه مسلم (٢٨٠٨).

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

هذا شروع في ذكر ما كان في غزوة بدر الكبرىٰ، وكانت في السابع عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة، ولم تكن نية المسلمين القتال، وإنما أرادوا أخذ عير قريش إذ أنهم قد ظلموهم وأخذوا أموالهم وضيقوا عليهم في بلدهم حتىٰ اضطروهم إلىٰ الهجرة، ولكن أبا سفيان كان رجلًا ذكيًا فغير مكان القافلة، وقبل ذلك كان قد أرسل إلىٰ قريش فخرجوا في

ألف نفس ثم أرسل إليهم أبو سفيان أنه قد سلم فأبىٰ أبو جهل إلا البغي وقال: نبقىٰ هاهنا حتىٰ تسمع بنا العرب، فكان ما سيأتي إن شاء الله.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ تقديره الأنفال لله وللرسول، وإن كرهوا: ﴿رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا﴾ طائفة ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ للخروج، إذ أن القتال مبغوض إلى النفوس؛ لما يجر إليه من القتل والجراحات ونحو ذلك. وذلك أن النبي ﷺ كان قد استشار الناس فقال بعضهم: نخرج، وقال بعضهم: لا نخرج، فكان من قول المقداد: يا رسول الله والله لو خضت بنا البحر لخضناه معك.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ يمارونك ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي﴾ في القتال، ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا﴾ فرضه ووجوبه، وتعين عليهم أن ليس غير القتال، ثم إن الذين خرجوا مع النبي ﷺ إنما كانوا ثلاثمائة وسبعة عشر، بعدة أصحاب طالوت كما في حديث البراء عند البخاري فلم تكن نيته القتال مطلقًا، وقد قال النبي ﷺ: «**فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا**»، ولم يأمر غيرهم بالمضي معه، ولشدة كراهيتهم لهذا الخروج كان حالهم ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ وهذا من أبلغ الوصف لحال الكراهة في هذا الحال.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ يا معاشر أهل الإيمان والإسلام، ﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ إما الغنيمة مع القتال، وإما القافلة، بغير قتال ﴿وَ﴾ لكنكم ﴿تَوَدُّونَ﴾ تحبون ﴿أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ غير الحرب والقتال ﴿تَكُونُ لَكُمۡ﴾ وهي أخذ القافلة دون قتال ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ كونًا لعلمه وحكمته ﴿أَن يُحِقَّ﴾ يظهر ﴿ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأمركم للقتال فيُظهر آياته العظيمات، في نصر المؤمنين ويكون فيه تثبيتًا لأهل الإسلام بكلماته الشرعية حيث أمرهم بالقتال، أو الكونية حيث كان النصر حليفهم، ﴿وَيَقۡطَعَ﴾ يستأصل ﴿دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وفعلًا أن هذه الغزوة أثخنت في الكفار، وإن كان الذين قُتِلوا إنما هم سبعون لكن الواقع أنهم طواغيت الكفر وصناديد الإجرام، وأُسر سبعون أخف منهم، وأسلم أكثرهم بعد ذلك.

﴿لِيُحِقَّ﴾ يظهر الله ﴿الْحَقَّ﴾ ويُثبت الإسلام وأهله، ﴿وَيُبْطِلَ﴾ يذهب ﴿الْبَاطِلَ﴾ الكفر وأهله، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي: تستجيرون بالله من عدوكم وتطلبون منه الغوث والمدد والنصر، فهذا باب الدعاء ويدخل تحته الاستعانة: وهي طلب العون، والاستغاثة: وهي طلب الغوث، وقد قيل:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

﴿رَبَّكُمْ﴾ خالقكم ورازقكم وممدكم ومعينكم، وذكر اسم الرب دون سواه؛ لأنه يقتضي الحفظ والكلاءة، والنصر للمؤمنين ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ دعاءكم فعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عه، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّىٰ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَىٰ مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ

تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ [الأنفال: ٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ» أخرجه مسلم (١٧٦٣).

﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ متتابعين، وفي حديث رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ، قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ**» أخرجه البخاري(٣٩٩٢).

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ هذا المدد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ بشارة بالنصر، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ تسكن ﴿بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وتعلم أن نصرها من الله، وأن الله لا يضيعها فإن نزول الملائكة تحصل به السكينة.

۞ **وفيه: أن ثبات الأبدان عائد إلىٰ ثبات القلوب**، فمن لم يثبت قلبه تزلزل، ومن ثبت قلبه سلم لا سيما في مثل هذه المواطن العصيبة التي تتطاير فيها الرؤوس وتُسفك فيها الدماء، والنفس عزيزة يخشىٰ أحدهم علىٰ نفسه أن تفارق جسده، ولكن مع ذلك يجعل الله في قلوب المؤمنين ثباتًا، فلا يتهيبون ولا يفرقون.

﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ حقًا ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ كما قال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب ولا يُقهر، ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضع الأمور علىٰ وجه التمام والكمال.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ يغطيكم ﴿النُّعَاسَ﴾، النوم ومقدماته.

۞ وهذا دليل علىٰ أمن القلوب؛ لأنَّ الخائف لا ينام، فعَنْ أَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «**كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّاهُ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ حَتَّىٰ سَقَطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا يَسْقُطُ وَآخُذُهُ وَيَسْقُطُ فَآخُذُهُ**» أخرجه البخاري.

﴿أَمَنَةً﴾ أمنًا، ﴿مِّنْهُ﴾ يعني: تكرم الله به عليكم وأمنكم به، ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطرًا مباركًا يثبت الأرض، ويبرد الجو، ويشرب أهل الإسلام فبركة مع بركة، ﴿لِّيُطَهِّرَكُم﴾ يزكيكم ﴿بِهِ﴾.

۞ بهذا استدل العلماء علىٰ أن الأصل في الماء الطهارة فهو طاهر في نفسه مطهر لغيره.

﴿وَيُذْهِبَ﴾ يزيل ﴿عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وسوسته من أن الكفار أكثر منكم عددًا وعدة، ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ يشد ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ باليقين والصبر، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾ حتىٰ لا تصوخ في الرمال بتلبيد الأرض، وقيل: هو الثبات والصبر وقوة القلب.

واذكر يا محمد ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ معية نصر وتأييد وحفظ وكلاءة، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قووا قلوبهم، وكان في حضور الملائكة مع المؤمنين تقوية للقلوب وتصبير على القتال وعون.

ففي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ المسلمين يومئذ يشتد فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أمامَهُ، إِذَا سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتُ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، إِذْ نَظَرَ إِلَىٰ الْمُشْرِكِ أمامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِّمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأنصَارِيُّ فَحَدَّثَ ذَلِكَ رَسُولَ** ﷺ **فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»** أخرجه مسلم (١٧٦٣).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ الَّذِي أَسَرَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَبُو الْيَسَرِ بْنُ عَمْرٍو، وَهُوَ كَعْبُ بْنُ عَمْرٍو، أَحَدُ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **«كَيْفَ أَسَرْتَهُ يَا أَبَا الْيَسَرِ؟»** » قَالَ: لَقَدْ أَعَانَنِي عَلَيْهِ رَجُلٌ مَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ، وَلَا قَبْلُ، هَيْئَتُهُ كَذَا، هَيْئَتُهُ كَذَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ أَعَانَكَ عَلَيْهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ**» أخرجه أحمد(٣٣١٠).

﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف والهلع، فدخل المؤمنون ا علىٰ أمل النصر، ودخل الكفار علىٰ خوف الهزيمة ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ هم بالسيوف ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ فيكون الضرب من القفا وهم يفرون ويولون الأدبار، ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ مفصل، وقد يُطلق علىٰ أطراف الأصابع وما إليها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي أصاب المشركين، ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟﴾ خالفوا ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أمر الله وأمر رسوله ﷺ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فعقوبته الذلة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة:٢٠]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: ما نزل بكم يا معاشر الكفار من العذاب يوم بدر، ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ عاجلًا، ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ وبئس القرار.

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قام النبي ﷺ علىٰ قليب بدر فقال: «**هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وعدكم ربكم حَقًّا، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟**»، قَالُوا: يَا رَسولَ اللهِ تُنَادِي قَوْمًا قَدْ صَارُوا جِيَفًا؟ قَالَ: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لما أقولُ مِنْهم**» متفق عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في معركة، ﴿زَحۡفٗا﴾ يزحفون لقتال المسلمين، ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ ظهوركم منهزمين، فيُصابر المسلم نفسه في قتال الكفار وإن اشتد عليه الأمر.

وقد كان مبدأ الأمر: أنه إذا لقي المسلم عشرة من الكفار لا يجوز له الفرار، ثم نسخ الله عَزَّوَجَلَّ ذلك؛ إلىٰ أنه إذا لقي اثنين لا يجوز له الفرار وأما إن كانوا أكثر من ذلك فلا بأس أن يُحرز نفسه علىٰ ما يأتي في آخر السورة إن شاء الله.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾ أي: حال كونه منهزمًا، فإن هذا يفت في عضد المسلمين، ويؤدي إلى تقوية الكافرين، ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ﴾ منعطفًا يرى من نفسه الأنهزام فينسحب انسحابًا يسيرًا لإعداد نفسه وتجهيز جيشه فهذا أمر لا حرج فيه، ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ أو يرى من نفسه قلة وضعف فينضم إلى غيره من المؤمنين حتى يكثر الجيش ويقوى ويكثر العدد والعدة، ﴿فَقَدۡ بَآءَ﴾ رجع ﴿بِغَضَبٖ مِّنَ اللَّهِ﴾ إن كان فراره إنما هو خشية الموت ونحو ذلك لا لما تقدم.

❁ وفيه: إثبات صفة الغضب لله عَزَّوَجَلَّ، علىٰ ما يليق بجلاله، وهذا دليل علىٰ أن الفرار من الزحف من الكبائر الموبقة.

فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: « **اجتنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ** » قيل: يا رسولَ الله، وَمَا هُنَّ؟ قال: « **الشِّرْكُ بالله، والسحرُ، وقَتلُ النفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ، وأكْلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيم، والتَّوَلِّي يومَ الزَّحْفِ، وقَذْتُ المُحْصنَاتِ الغافِلات المؤمنات** » متفق عليه.

❖ وقد ذهب أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ نسخ هذه الآية، وأنها خاصة بأهل بدر.

ℵ والصحيح: بقاء حكمها.

﴿وَمَأْوَاهُ﴾ مثواه ومصيره ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هذا إذا أراد الله أن يجازيه وإلا فالفرار من الزحف ذنب من الذنوب يغفر الله لمن شاء ويعذب من شاء، وقد فر الصحابة رضوان الله عليهم إلا القليل يوم أحد، ومع ذلك عفا الله عنهم، وفروا يوم حنين، حتىٰ لم يبقَ مع النبي ﷺ إلا العدد اليسير وعفا الله عنهم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ ممتنًا على أهل بدر في قتلهم الكفار: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ لم ينفِ تعاطي المسلمين لقتلهم وإنما أراد أن الممكن منهم هو الله فتُرِد النعمة والفضل إليه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ حيث سلطكم عليهم، وأنزل ملائكته لقتلهم، ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ أصبت ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بالحصى وذلك أن النبي ﷺ رمى عليهم الحصى فما أُصيب أحدٌ من ذلك الحصى إلا وقُتِل ذلك اليوم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ هو الذي سدد، ووفق.

❖ وبهذه الآية استدل الجبرية، علىٰ أن الفاعل هو الله، والعبد إنما هو كالريشة في مهب الريح، وفي الآية رد عليهم، حيث أثبت الله لنبيه محمدٍ ﷺ فعلًا وهو الرمي، والذي سدد ذلك الرمي هو الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ يعطي ويكرم ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً﴾ عطاءً ﴿حَسَناً﴾ يُكرِمهم بالنصر والعز والتمكين، فقد أنعم الله عليهم نعمة لا بعدها لا سيما في ذلك الوقت، وقت الشدة، وقت القلة، وقت الخوف والفزع، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم، ﴿عَلِيم﴾ بحالكم.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ﴾ الذي ذكره الله من قتل الكفار، وتسديد رمي النبي ﷺ، والكرامة العظيمة للمؤمنين، ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ مُضعِف، ﴿كَيْدِ﴾ مكر ﴿الْكَافِرِين﴾ فلا يفلحون، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه:٦٩]، فيُسلط الله عَزَّوَجَلَّ عليهم.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ تطلبون العذاب يا معشر الكفار؛ وذلك أن أبا جهل لما كان يوم بدر قال: اللهم اقطعنا للرحم، وآتانا بما لم نعرف فأحنِه الغداة أي: دعا على نفسه وعلى قومه، ولو أنه قال: اللهم اهدنا لما علمت من الحق لربما سلم وسلمه الله، ولكن كان قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

وقد قُتل أبو جهل يوم بدر قتله معاذ ومعوذ ابني عفراء ففي الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف: أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، نَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بَيْنَ غُلَامَيْنِ مِنَ الأنصارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا، تَمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا، فَقَالَ: يَا عَمِّ، هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّىٰ يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، قَالَ: فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الْآخَرُ، فَقَالَ: مِثْلَهَا، قَالَ: فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَىٰ أَبِي جَهْلٍ يَزُولُ فِي النَّاسِ، فَقُلْتُ: أَلَا تَرَيَانِ؟ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلَانِّ عَنْهُ، قَالَ: فَابْتَدَرَاهُ فَضَرَبَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا حَتَّىٰ قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ،

فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ: «**أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟**» فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُ، فَقَالَ: «**هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟**» قَالَا: لَا، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: «**كِلَاكُمَا قَتَلَهُ**».

﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ﴾ حل بكم ﴿الْفَتْحُ﴾ القضاء الذي طلبتم، ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عن كفركم وبغيكم، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ عند ربكم، وخير لكم في دنياكم وأخراكم، ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ لما أنتم فيه من الكفر والبغي، ﴿نَعُدْ﴾ بالعذاب والنكال عليكم، ﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾ تدفع ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جمعكم ﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لأنَّ كفار قريش كانوا فوق الألف، والمسلمون في غزوة بدر كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وهذا كقول النبي ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**» أخرجه الترمذي (٢٥١٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معية نصر وحفظ وعون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢٥ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ تُعرضوا، ﴿عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن ومواعظه، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ بآذاننا ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا يستجيبون من اليهود والمنافقين وغيرهم.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: شر من دب على وجه الأرض من خلق الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿الصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون شيئًا من الحق، ﴿الْبُكْمُ﴾ الذين لا يتكلمون بالحق ولا يدعون

إليه، ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فسماهم دواب؛ لقلة انتفاعهم بعقولهم، وكل ما دب على وجه الأرض فهو دابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال تعالى في بيان حال الكفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة:٦]، فليت شعري لو عقل الكافرون مقدارهم عند الله عَزَّوَجَلَّ وعند خُلص المؤمنين، لتحولوا إلى الإيمان ولكنه الجهل بدين رب العالمين، ولو عقل المؤمنون والمسلمون سوء ما عليه أهل الكفر والله ما تشبه بهم ولا اغتر بهم أحد.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ من الهداية ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سمع استفادة واستجابة، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ سمع استجابة ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ أعرضوا وانصرفوا عن الحق ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وذلك لما علم في قلوبهم من الفساد العريض.

❁ وهذه الآية في معنىٰ قولهم: إن الله يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ انقادوا لأمر الله ورسوله ﷺ، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أمركم ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما تحيون به الحياة السعيدة حياة الإيمان، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ﴾ يصرف ﴿بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ حتى لا يستجيب، فالهدى والضلال بيد الله.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ قَلْوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ** عَزَّوَجَلَّ **كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**» أخرجه مسلم (٢٦٥٤)، ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾ أي: يوم القيامة فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿وَاتَّقُواْ﴾ احذروا، ﴿فِتْنَةً﴾ اختبارًا وبلاءً، ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ أي: لا يقع شأنُها على: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ وإنما تتعداهم إلى غيرهم، وهكذا أغلب الفتن تبدأ صغيرةً ثم تكون كبيرةً، وتعم الصالح والطالح كما قالوا: يا رسو الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**» أخرجه البخاري.

وقد قال الزبير بن العوام في هذه الآية: لقد قرأنا هذه الآية زمنًا وما ظننا أننا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها وذلك ما كان يوم الجمل والله المستعان، هذا تفسير الآية ببعض معناها وإلا فهي عامة في كثير من شأن الناس، والعامة تقول: الحسنة تخص والسيئة تعم، وقبل ذلك قول النبي ﷺ: «**يَغْزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ، يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ**»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ، وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «**يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَىٰ نِيَّاتِهِمْ**» متفق عليه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفي هذا تحذير من السكوت عن المنكر، فإن الإنسان قد يسكت ويظن أن يسلم والواقع أنه يُلفح بالفتنة، ومن أعظم أسباب انتشارها: السكوت عنها، وأسوأ من ذلك الرضا بها، وأسوأ من ذلك الإعانة عليها، ﴿وَاعْلَمُواْ﴾ تيقنوا ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره وارتكب نهيه وزجره، ويدخل في ذلك العقاب الدنيوي والأخروي، والفتن أمرها عظيم وشرها مستطير؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مِنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ**» متفق عليه.

وعن أبي بكرة عند مسلم (٢٨٨٧)، قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا، فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ**»، ومن أعظم الملاجئ في هذه الأيام دور العلم إذ أن الإنسان يلجأ إليها بعد الله عَزَّوَجَلَّ من البدع والشركيات والمعاصي والسيئات، ويلجأ إليها من الجهل، ويتفرغ فيها للعلم والعبادة.

وفي حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ يقول: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**» أخرجه مسلم (٢٩٤٨).

﴿وَاذْكُرُواْ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ﴾ عَدَدُكم وقليل عُدَدَكم، ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ مكة حيث كانوا يُعذبونهم وحاصروهم في الشعب وبلغوا بهم كل

مبلغ حتى أن بعضهم من شدة العذاب ربما يمر به الجعل فيقولون له: هذا ربك فيقول: نعم، وبعضهم ربما سب النبي ﷺ وسب الدين من شدة العذاب الذي نزل بهم، وأنزل الله في شأنهم: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل:١٠٦]، ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ يأخذكم ﴿ٱلنَّاسُ﴾ الكفار فيذهبون بكم يمنة ويسرة فتنتهي دعوتكم، ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ إلى المدينة، ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ قواكم ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ يوم بدر وأمدكم بالملائكة، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الغنائم وغير ذلك من المكرمات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه الكثيرة وآلائه الغزيرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك فرائضه، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بترك سنته وطريقته، ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ مما أمنكم الله عَزَّوَجَلَّ فيدخل فيه أمانة الدين وأمانة الولاية، وما يتعاطاه الناس في بيعهم وشرائهم وجميع شؤونهم وقد قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، والخيانة خُلق المنافقين والكافرين قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ﴾ [الأنفال:٧١].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ الْأَرْبَعِ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» متفق عليه.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها أمانة قال قتادة: اعلموا أن دين الله أمانة، فأدوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ما أتمنكم عليه من فرائضه وحدوده، ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلىٰ من ائتمنه عليها.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ لكم صادة عن طاعة ربكم، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن:١٤]، وفي حديث حذيفة: «**فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ**» متفق عليه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ ثوابٌ ﴿عَظِيم﴾ أي: لمن نصح لله ورسوله ﷺ وأدىٰ الأمانات التي أوجبها الله عَزَّوَجَلَّ عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل المأمور، وترك المحظور، ﴿يَجۡعَل﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ بينكم وبين ما تخافون فيجعل لكم مخرجًا في الدنيا والآخرة، وقيل: يجعل لكم علمًا تفرقون به بين الحق والباطل، وقيل: فاصلًا بين الحق والباطل، فتجد أن المتقي لله عَزَّوَجَلَّ يوفقه الله للثبات علىٰ دين الله مع كثرة المغريات والشبهات والشهوات؛ ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ يتجاوز ويمحو ما سلف من ذنوبكم، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ بستر ذنوبكم وعيوبكم، وهذه غاية المكرمات؛ أن يجعل الله عَزَّوَجَلَّ لك فرقًا تفرق به بين الحق والباطل، وأن تُكفر عنك سيئاتُك وذنوبك وأن تُستر وتُعافى وتُكرم ﴿وَٱللَّهُ﴾ إذ يفعل الله بكم ذلك فهو ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الواسع فيُضاعف لعبده المكرمات، ويعطيه جزيل الهبات.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة ومن إليهم من اليهود، ومن تمالأ معهم، ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ أي: يسجنوك في بيتك فلا يمكنوك من خروج ولا دخول؛ لمنع انتشار الدعوة، ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ بآلة حادة فيفارق الروح الجسد فيتخلصون منك ومن

دعوتك، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من بلدك إلى غير بلدك لا مأوى ولا نصير ولا معين؛ لكنهم فشلوا في هذا المكر العظيم، وخرج النبي ﷺ من بين أظهرهم كما ذكر أهل السير وهم يغطون في نومهم، ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ مع أنفسهم ومع غيرهم، ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ الذي لا يعجزه شيء وهو شديد المحال، ﴿وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

هذه تُسمىٰ عند أهل العلم صفات المقابلة: فالمكر، والكيد، والاستهزاء، والسخرية، والمخادعة ونحو ذلك.

❁ **ومعنى ذلك: أن الصفات أقسام:**

الأول: صفات كمال من كل وجه كالعلم، والقدرة، والإرادة فهذه تُثبت لله عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: صفات نقص من كل وجه، كالصمم، والبكم، والعجز فهذه تُنفىٰ عن الله عَزَّوَجَلَّ مع إثبات كمال ضدها.

الثالث: صفات كمال من وجه ونقص من وجه، كالمكر، والكيد، والخداع فإذا كانت في مقابل فهي كمال؛ ولذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦]، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، فاحفظ هذه القاعدة وسر عليها تسلم من تخرصات المحرفين والممثلين والمعطلين في صفات رب العالمين، ومن أسماء الله الخير، كما أنه خير الماكرين، وخير الرازقين، وخير الحافظين، وخير الخالقين.

﴿وَإِذَا تُتْلَى﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآن، ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ قولك يا محمد، أو أننا سمعنا نحو هذا الكلام الذي تقوله وتُنشِؤه، وهذا من كبرهم وغطرستهم وإلا فقد استقر في قلوبهم بأنه قول الله لا يُشبه قول البشر؛ ولذلك تأرجحوا في وصف القرآن فتارة: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان:٥]، وربما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، وقالوا: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر:٢٤]، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، إلى غير ذلك مما قالوه: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ القرآن وهذا من كذبهم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ

تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨]، ثم قالوا مخاصمين: ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: حكايات الأمم الماضية، وهذا قول كذب، ففيه الأخبار وفيه الأحكام والأوامر والنواهي؟ بل إن بعض القصص لم يكن موجودًا عند الأولين مثل قصة رفع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاليهود يزعمون أنهم قتلوه، والنصارى يزعمون أنه خرج من القبر بعد ثلاث، والحقيقة ما جاء في القرآن: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ﴾ [النساء:١٥٨]، وهكذا كانت عندهم أطراف أساطير، فقص الله ما قص عليهم بأوضح عبارة كقصة أصحاب الرقيم والكهف، وقصة ذي القرنين، وقصص الأنبياء والمرسلين.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَإِذْ قَالُوا۟﴾ في استفتاحهم كبرًا وبغيًا ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا﴾ القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ أوحيته إليه ﴿فَأَمْطِرْ﴾ أنزل ﴿عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تهلكنا به ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فآتاهم الله بالقتل يوم بدر.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾.

وَجَاءَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا: ما أخرجه البخاري عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. متفق عليه.

وأخرج ابن جرير: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ**»، وَيَقُولُونَ: إِلَّا شريك هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، ويقولون: غفرانك غفران، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال:٣٣].

فقال ابن عباس: كان فيهم أمنان: نبي الله والاستغفار، قال: فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٤]، قال: فهذا عذاب الآخرة قال: وذاك عذاب الدنيا.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقول: وما يمنعهم من أن يُعذبوا بعد هجرتك يا محمد، ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون المؤمنين ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ من الطواف بالبيت ومن الحج والعمرة، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أولياء الله عَزَّوَجَلَّ لشركهم أو ما كانوا أحق الناس بالمسجد الحرام لمخالفتهم لشرع الله، ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المؤمنون الذين يتقون الشرك ويلتزمون التوحيد، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب ما على قلوبهم من الران والله المستعان.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ أي: صلاة المشركين، ﴿عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ الحرام وهو مكة، ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ صفيرًا ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقًا، فكانت عباداتهم عبارة عن لهو ولعب لا خشوع فيها ولا سكينة، ومثل هذه العبادة لا تُقرب من الله عَزَّوَجَلَّ إذ أنها ليست مبنية على التقوى والله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة:٢٧]، وأيضًا كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا الحُمس ومن لبس من لبسهم، وما نفعهم هذا الطواف؛ لشركهم وتنديدهم، وقيل: بأن التصدية: صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام، وعن الدين والصلاة، ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ يا معاشر الكافرين، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم وبغيكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٣٧﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ في الدنيا، لا لقصد التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولكن ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وليصرفوا الناس عن دين الله القويم وصراطه المستقيم ويا لله كم يُنفق الكفار في هذا الزمان من النفقات الكثيرة؟ والمليارات العظيمة؛ لصد الناس عن دينهم وإيمانهم وهيهات، وإنما يُطيعهم من ضعف دينه، وقلت أمانته، وزاد طمعه ومع ذلك قد قال رسول الله ﷺ: «**وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**» متفق عليه عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي حديث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**» أخرجه مسلم (٢٨٩٠).

وهذا من الله خبرٌ ووعد: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾ ندامة في الدنيا والآخرة، ﴿ثُمَّ يُغۡلَبُونَۚ﴾ يُهزمون، ولا يظفرون ولا ينتصرون، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في الآخرة، ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ فيعذبون فيها، والحكمة من هذا الذي يحصل ﴿لِيَمِيزَ﴾ يميز ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ﴾ الكافر، ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ المؤمن، ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي: فوق بعض، ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا﴾ يجمعه فيصير كالسحاب المركوم: وهو المجتمع الكثيف، ﴿فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾ يوم القيامة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في الدنيا لأموالهم التي أنفقوها للصد عن سبيل الله، وفي الآخرة عذلب النار وبئس القرار، رد إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾.

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قريش وغيرهم، ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عن كفرهم وبغيهم، ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾ يتجاوز الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ مضى من ذنوبهم قبل الإسلام، ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى ما هم فيه من التكذيب والكفر والبغي والعناد، ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾ ولت ﴿سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ بإعزاز الموحدين وذروتهم الأنبياء ومن إليهم، وعَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: «**مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ، لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ، أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ**» متفق عليه.

وهذه الآية دليل علىٰ أن شرط توبة الكافر شرط واحد: وهو ترك الكفر والدخول في الإسلام.

وفي حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا أَلْقَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامَ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ لِيُبَايِعَنِي، فَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: لَا أُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ اللهِ حَتَّىٰ تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي، قَالَ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **يَا عَمْرُو ظاما عَلِمْتَ أَنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، يَا عَمْرُو أما عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الذُّنُوبِ** » أخرجه أحمد (١٧٨٢٧).

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ وهذا أمر بقتال الكفار، وقتالهم على أنواع: طلب ودفع، فالطلب: في حال قوة أهل الإسلام، والدفع: في حال هجوم الكافرين على المسلمين، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شِركٌ، ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ ظاهرًا ﴿كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ وخالصًا له لا شريك له فيه، ﴿فَإِنِ انتَهَوْاْ﴾ عن كفرهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم ويُكرمهم ويرفع شأنهم.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإسلام وأبوا إلا الكفر والإجرام، ﴿فَاعْلَمُواْ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم، ومعينكم، وحافظكم، ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الذي يتولاكم ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الذي ينصركم وهذه من الأسماء المركبة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾.

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةُ: ما جاء عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ: أَصَبْتُ سَيْفًا، فَأَتَىٰ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَفِّلْنِيهِ، فَقَالَ: «ضَعْهُ»، ثُمَّ قَامَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ»، ثُمَّ قَامَ، فَقَالَ: نَفِّلْنِيهِ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «ضَعْهُ»، فَقَامَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَفِّلْنِيهِ، أَوُجْعَلُ كَمَنْ لَا غَنَاءَ لَهُ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ»، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ﴾ [الأنفال: ١].

وكانت الغنائم قبل ذلك محرمة ففي حديث أبي هريرة عند البخاري قال رسول الله ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلاَ أَحَدٌ بَنَىٰ بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلاَ أَحَدٌ اشْتَرَىٰ غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلاَدَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلاَةَ العَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّىٰ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ يَعْنِي النَّارَ لِتَأْكُلَهَا، فَلَمْ تَطْعَمْهَا فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتِ النَّارُ، فَأَكَلَتْهَا ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لَنَا الغَنَائِمَ رَأَىٰ ضَعْفَنَا، وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا»، وأباحها الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ من أموال الكافرين في حال حربهم ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ يصرفه كيف يشاء أي: أن الغنيمة تُقسم خمسة أخماس أربعة أخماس لمن قاتل عليها، والخُمس لخمسة أصناف: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر:٧]، ومعنى لله: أنه يُقسم على الوجه الذي أمر الله به وشرع.

❁ واختلفوا فذهب بعضهم: إلى أن سهم الله يُصرف للكعبة.

 والصحيح: أنه يعود في مصالح المسلمين، فبعد أن تُقسم الغنائم ويأخذ كل مقاتل ما له من الغنيمة يأتي الخُمس فيكون علىٰ ما تقدم.

﴿لِلَّهِ﴾ يكون في مصالح المسلمين، ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ يكون في نفقه أهلهِ ومصالح المسلمين، ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ والمراد بهم: قرابة النبي ﷺ فيُعطون من الغنيمة، إذا شاركوا في المعركة، ولهم في الخُمس، ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ جمع يتيم: وهو الصغير الذي فقد أباه وليس له من يأويه ويقوم عليه، ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ هم أهل الفَاقَةِ والحاجة من المسلمين، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر البعيد عن ماله، أما الأربعة الأخماس فهي لمن قاتل.

❁ وهل يدخلها السلب في المال المخمس؟

 الصحيح: أنه لا يدخله، فعن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**» متفق عليه، وهذا عام في زمن النبي ﷺ وغيره.

﴿إِن كُنتُمْ﴾ يا أهل الإسلام ﴿آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ التزمتم شرع الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ في شأن الغنيمة، ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، سُمي يوم الفرقان؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ نصر أهل الحق وأعزهم، ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين مع جمع المشركين، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في نصر المؤمنين، ولا يعجزه شيء جل في علاه.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

واذكروا ﴿إِذْ أَنتُم﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بشفير الوادي الأدنىٰ إلىٰ المدينة، ﴿وَهُم﴾ كفار قريش، ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ بشفير الوادي الأقصىٰ من المدينة، يعني:

أي أن المسلمين جاءوا من قِبل المدينة فكانوا في جهة الوادي الذي إلىٰ المدينة، والكفار جاءوا من قِبل مكة فكانوا في جهة الوادي الذي إلىٰ مكة، ﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾ العير التي خرج المسلمون من أجل أخذها، ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ في موضع أسفل منكم إلىٰ ساحل البحر، ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ﴾ لهذا اللقاء، ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ وذلك أن المسلمين خرجوا للعير والكفار خرجوا لحماية العير، وربما لم تقع بينهم تلك المواجهة، ﴿وَلَٰكِن﴾ الله جمعكم علىٰ غير ميعاد، ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ وهو التمكين لأوليائه والإعزاز لهم والإذلال لأعدائه، فكانت غزوة بدر فارق في حياة المسلمين إذ رفعهم الله عَزَّوَجَلَّ بها رفعةً عظيمة، وصارت سمعتهم في الآفاق، سمع بهم القاصي والداني، أُناس خرجوا من مكة في حالة ضعف وتشريد وقلة وذلة هزموا أقوىٰ قبيلة في جزيرة العرب، القبيلة التي تتميز بحلفائها ومالها وتجاراتها وقوتها، وسكان الحرم الذين لم يمكن الله عَزَّوَجَلَّ منهم لأحد من الناس، بل حماهم وحرسهم من جيش أبرهة الأشرم، ومع ذلك نصر المسلمين عليهم في غزوة بدر، ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ يهزم ويموت من يموت عن بينة رآها وعاينها وحجةً قامت عليه، ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ يعيش من عاش علىٰ بينة، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لدعائكم، ﴿عَلِيم﴾ بحالكم ونياتكم.

ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن عظيم نعمته على المؤمنين برؤيا رآها رسول الله ﷺ: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ﴾ نومك ﴿قَلِيلٗا﴾ حيث رأى النبي ﷺ كفار قريش قليلًا عددهم ضعيفًا عِدَدُهُم، حتى لا يقع في قلوب المسلمين الضعف والخَوّر والهوان؛ لأنَّ عدوك إذا قابلته على ضعف وخور وخوف وفزع لحقتك الهزيمة ولا بد وإن كثر جيشك وكثر عَدَدُك وعِدُدُك، ﴿وَلَوۡ﴾ أن الله ﴿أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ﴾ لحقكم الفشل بالهزيمة والجُبن، ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ اختلفتم هل نخرج أم لا نخرج؟ وربما قلتم هؤلاء أكثر منا، ونحن أضعف منهم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾ المؤمنين من هذا الفشل وهذه المخالفة، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ

بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عليم بما في صدور المؤمنين من حب الله عَزَّوَجَلَّ والتفاني لطاعته والمسارعة إلى مرضاته فأراهم هذه المبشرات.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ يريكم الكفار يا معاشر المسلمين، ﴿إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ نحو سبعين أو مائة، وهذه رؤيا حقيقة في حال القتال كان المسلمون يرون أن الكفار ليسوا بشيء، وأنهم قليل لن يتمكنوا من النصر مهما حاولوه، ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ أبتلى الكفار أيضًا بتقليل المسلمين في أعينهم حتى يظن الكفار أنهم سينصرون فلا ينهزمون ويهربون، بل يبقون في أرض المعركة يجالدون حتى تمكن المسلمون من قتلهم وأسرهم، ولو كان الكفار يشعرون بقوة المسلمين في قلوبهم لحصل منهم الأنسحاب كما هو فعل قادة الجيوش؛ لكن ثبت الله المؤمنين بأن أراهم الكافرين في حال قلة وذلة، وبقي الكافرون في معركتهم لظنهم أن المسلمين في حال قلة وضعف، فتمكن المسلمون من أسر سبعين وقتل سبعين، ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ من نصرة المؤمنين وهزيمة الكافرين ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورِ﴾ فيجازي المحسن إحسانه والمسيء بإساءته.

❁ ولو دُرست غزوة بدر دراسة مُتأنية متوسعة من جميع جوانبها لرأينا فيها العجب العُجاب:

- **أولًا:** من حيث أسبابها.
- **ثانيًا:** من حيث تداعياتها.
- **ثالثًا:** من حيث إرهاصاتها، وما جعله الله من المقدمات لحصولها.
- **رابعًا:** من حيث اختيار المكان.
- **خامسًا:** ما وقع فيه من البشارات من مثل هذه المذكورات، إلىٰ غير ذلك.

وينتهي بنتائجها العظيمة للدولة الإسلامية الكريمة؛ لأنَّ هذه المعركة قُتل فيها طواغيت الكفر ورؤوس قريش، صحيح أن المسلمين قُتِل منهم سبعون في غزوة أحد لكن بقي سُراتُهم وقاداتُهم لا سيما رسول الله ﷺ ومن إليه من الوزراء كأبي بكر، وعمر،

وعثمان، وعلي وأئمة الهدىٰ، بينما قريش قُتِل، وأُسرَ أكثر سُراتِهم، وفي هذا إضعاف للدولة في الزمن القريب أو البعيد.

ثم إن الأنتصار الذي كان في أحد ليس لقوة قريش ولكن للمخالفة التي حصلت من المسلمين، ولو ثبت المسلمون علىٰ ما أمرهم به النبي ﷺ وهُزمت قريش في الثانية كما هُزمت في الأولىٰ؛ لربما لحقهم الضرر العظيم في أموالهم وعتادهم وأنفسهم، لكن لله حكمة فكثير ممن شارك في أحد من الكفار أسلم بعد ذلك كأبي سفيان، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأبناء المطعم بن عدي، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وغيرهم.

وكثير من الجيوش تهتم بدراسة مثل هذه الوقائع، وربما قررتها في الكليات العسكرية؛ ليعرفوا مواطن القوة والضعف، ومهما حاول الكفار وغيرهم من المنافقين والحداثيين والعلمانيين أن يتنكروا للإسلام إلا أنهم يعجزون عن الاتيان بمثل ما جاء به الإسلام سواءً في باب المعارك أو الأحكام أو العقائد وحتىٰ في الأبواب الدنيوية، كثير مما وصل إليه الغرب الكافر من التطورات في باب الصناعات سواءً الطبية أو العسكرية أو المدنية أصولها من عند أهل الإسلام، لكن أهل الإسلام ضيعوا وهم أخذوا بهذا الأمر ووصلوا في دُنياهم إلىٰ مستوىٰ عظيم، لكن الحال كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٤٧ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤٨ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ﴾ جماعة كافرة أو باغية، ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ لقتالهم ومناوشتهم وصدهم، إذ أن الإنسان إذا لم يثبت في قتال عدوة يفشل، والثبات يحتاج إلى صبر، ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي: ادعوه بالنصر والظفر، ولا بأس من قول: الله أكبر، لا إله إلا الله ونحو ذلك من الأدعية، ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة؛ بنيل المطلوب والسلامة من المرهوب.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ تختلفوا، فالاختلاف يؤدي إلى المنافرة، وقد قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلاف شر ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ تَجبنوا وتضعفوا، ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ قوتكم وحدتكم على عدوكم، وانظروا حيث كَثُرت الدويلات الإسلامية ولم تكن تحت خليفة واحد يقوم بشأنها، ويلتفت لأسباب نصرها حصل بينهم التنازع، فيزرعون الدولة ويزرعون بداخلها فرقًا وأحزابًا، ويقتطعون منها جزءً؛ لتبقى الحروب ناشبة والخلافات حاصلة، والله المستعان:

تأبىٰ الرِّماحُ إذا اجتمعنَّ تكسُّرًا وإذا افترقَنّ تكسّرتْ آحادًا

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ في حال قتالكم لعدوكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معية إعانة وحفظ وكلاءة ونصر وتأييد، وفي حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**» متفق عليه.

الشاهد: أن المعركة ينال الإنسان فيها شدة، فمن صبر ظفر، ومن تأخر انكسر؛ ولذلك قال النبي ﷺ: « **فَإِنْ لَقِيتُمُوهُمْ فَاثْبُتُوا**»، حين تلمع السيوف، وتتهاوىٰ الأعضاء، وتسيل الدماء، فربما تنظر عن يمينك وأحدهم قد غُطي ثوبه بالدم، والآخر قد أُلقي إلىٰ الأرض، لكن مع تثبيت الله لعباده يثبت من ثبت وينتصر من انتصر.

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ يا معاشر أهل الإسلام ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ ككفار قريش الذين ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ مكة ﴿بَطَرٗا﴾ طغيانًا وفخرًا وأشرًا ﴿وَرِئَآءَ﴾ ومراءاة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ تسميعًا وكبرًا

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ يمنعون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دين الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا تخفىٰ عليع خافية، فيجازيهم علىٰ أعمالهم.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ﴾ للكافرين ﴿الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وكان تزيينهُ فيما يذكر أهل التفسير: أن قريشًا لما اجتمعت للسير أتاهم الشيطان على صورة شيخ من نجد أو على صورة سراقة بن جُعشم وشجعهم على ما هم فيه وقال لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مهما كثروا فأنتم أهل العدد والعُدة، وأهل القتال والخبرة، وسكان الحرم، ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: مُجير لكم من كنانة، ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ التقى الجمعان جمع المؤمنين ومن معهم من الملائكة المقربين المقاتلين وجمع الكافرين، ﴿نَكَصَ﴾ رجع الشيطان، ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ولى مُدبرًا هاربا، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ من جواركم وهذا يحصل من الشيطان في الدنيا والآخرة، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: الملائكة، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وكذب في هذا القول، فلو خاف الله خوف العبادة لتاب وأناب، ولكنه خاف على نفسه الهلكة، ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لا يُعجزه ولا يُكرثه شيء.

واذكر يا محمد: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وضعف اعتقاد، ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنين إذ خرجوا في ظنهم أنهم منتصرون مع قلتهم ﴿دِينُهُمْ﴾ استقامتهم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وما علموا أنه من يُسلم أمره إليه ويثق به، لحقه النصر والظفر، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قويٌ يفعل ما يشاء، ﴿حَكِيم﴾ إن شاء نصر المؤمنين إعزازًا لدينه، وإن شاء ابتلاهم رفعًا لدرجاتهم وتكفيرًا لسيئاتهم، وقد استشكل العلماء هذه الآية إذ أن جماهير العلماء على أن النفاق إنما كان بعد بدر.

۞ وهذه الآية تذكر قول المنافقين يوم بدر، وذكر بعض أهل العلم أن الأمر أُضيف إلىٰ المنافقين بسبب ما في قلوبهم من الشك والريب، وأما النفاق كديانة يتدين بها أو أمر يُصار عليه إنما ظهر بعد بدر أي: في أهل المدينة، لكن كانت الشكوك موجودة، عند الكافرين قبل ذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ومن معك من المؤمنين، ﴿إِذْ يَتَوَفَّى﴾ يقبض ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ بمقامع من حديد أو ما شاء الله.

۞ واستدل بهذه الآية علىٰ إثبات الحياة البرزخية، وإثبات عذاب القبر إذ أنهم عُذبوا عند موتهم، ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: في النار العذاب الأليم الموجع، فيهانون في الدنيا ويُهانون في البرزخ ويهانون في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: العذاب الذي لحقهم، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يا أصحاب الشرك والنفاق، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]، لكمال عدله، إذ أن الصفات السلبية عند أهل السنة والجماعة يُثبت بها كمال الضد، فقوله تعالى ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ لكمال حياته وقيوميته، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨]؛ لكمال قوته وقدرته، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢]؛ لكمال اطلاعه وسعة سمعه وبصره.

۞ فالقاعدة: كل صفة منفية توجد في القرآن أو في السنة فالمراد بها: إثبات كمال الضد، أما إذا كانت الصفة المنفية لا يُثبت بها كمال ضد فليست بوصف بل هي ذم؛ ولذلك قال بعض أهل العلم في قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

أنه ذم قومه بعجزهم حيث لا يستطيعون ظلم الناس، بينما لو قال في الملك بأنه لا يظلم لكان مدحا؛ لقدرته عن الظلم وتنزه عنه.

والعادة في هؤلاء ﴿كَدَأْبِ﴾ كالعادة في ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: يُصيبهم العذاب والنكال في الدنيا والآخرة ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل: عاد، وثمود، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع، ﴿كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ﴾ أعرضوا عنها وتمردوا عليها وأبوا القبول لها، والمراد بها الآيات الشرعية.

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بالعقاب والنكال ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بسبب ذنوبهم أخذهم أخذ عزيز متقدر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ في بطشه وأخذه، ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يُعاقب من عصاه بما شاء من أنواع العذاب والنكال في الدنيا كما قال تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: كون الله عَزَّوَجَلَّ عاقبهم وغير حالهم، ﴿بِأَنَّ﴾ بسبب أن ﴿ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ ومبدلا لها بالنقمة، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: من سوء المعتقد وسوء الفعل كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢].

۞ وهذه الآية عامة لا يُغيّر من نعمةٍ إلىٰ نقمةٍ إلا بذنب ارتكبه الإنسان، ولا يُغيّر من نقمةٍ إلىٰ نعمةٍ إلا بطاعة لازمها الإنسان، فعلىٰ المستقيم أن يثبت علىٰ استقامته، وعلىٰ المفرط أن يتوب من تفريطه، هذا هو الذي تقوم به الحياة وتستقيم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمن دعاه، ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من رجاه.

﴿كَدَأْبِ﴾ كالعادة في إهلاك ﴿آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم، ﴿كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الشرعية، بل وبعضهم كذب بالكونية كقول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم، ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أغرقهم في اليم

حيث لحقوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنجى الله المؤمنين والمستضعفين، كما يأتي في سورة يونس إن شاء الله، ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: كل من تقدم ذُكره ومن لم يُذكر من الكفار، ﴿كَانُواْ ظَالِمِينَ﴾ كافرين.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٨ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦١﴾.

ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن حال المشركين بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ﴾ شر من دَبَّ على وجه الأرض، ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لأنَّ بقية الدواب من القردة والخنازير والحمير والكلاب ليست بمكلفة، فصار الكفار شرٌ منهم، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بآيات ربهم ووحيه المنزل على أنبيائه ورُسله، ومن شرهم أنهم.

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أن لا يعينوا المشركين ويدخل في هذا كاليهود ومن إليهم ممن عاهدهم رسول الله ﷺ، ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ ميثاقهم ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ عاهدوا فيها ولا يفون بما التزموا به شرعا وعرفا، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله فمثل هؤلاء لا يوثق في عهودهم ومواثيقهم، ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ تجدنهم، ﴿فِي الْحَرْبِ﴾ أي: في حال القتال وأرض المعركة وأسرتهم، ﴿فَشَرِّدْ﴾ فرق ونكل وخوف ﴿بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ من المحاربين فيكون فيهم عبرة لمن ورائهم حتى لا يتجرأ المُتَجَرئ على غزو المسلمين ونقض العهود التي بينهم وبين المسلمين، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون ويعتبِرون فلا ينقضون العهد والميثاق.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ تتخوف أو تعلم، ﴿مِن قَوْمٍ﴾ عاهدوك، ﴿خِيَانَةً﴾ نقضًا للعهد والميثاق، وتلتمس منهم ذلك من آثار الغدر، ﴿فَانبِذْ﴾ فاطرح ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم، ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ واعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١]؛ ولذلك لما نكثت قريش العهد وجاء أبو سفيان لتجديده أبى النبي ﷺ قبول ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ لأنَّ الخيانة صفة ذميمة وفي الحديث: «**أَدِّ الأمانة إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**» أخرجه أبوداود (٣٥٣٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ وفي قراءة: ﴿تَحۡسَبَنَّ﴾ أنت يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ فاتوا وسلموا، ثم جاء التهديد: ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ لا يعجزون الله عَزَّوَجَلَّ فهو القدير على أن يُدمدم عليهم وأن يأتي بهم ويُدمرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَأَعِدُّواْ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿لَهُم﴾ للكفار والمحاربين، ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ ما قدرتم ﴿مِّن قُوَّةٖ﴾ من آلات الحرب كالخيل، والسيوف، والدرق، والحراب، والسهام في عهدهم، ويدخل فيه الآلات الحربية الحديثة من الطائرات، والدبابات ونحو ذلك، ففيها إذن بالصناعة الحربية، مع أن الكفار احتكروا الصناعات المتطورة علىٰ دولهم، وفي المسلمين من له القدرة علىٰ صناعة أنواع الأسلحة من طائرات، ودبابات، ومدرعات ونحو ذلك، بل منهم من كان من أصحاب الصناعات الذرية إلا أن منهم من قُتِل ومنهم من أخذوه عندهم، فاحتكر اليهود والنصارىٰ سوق السلاح لأمرين:

- الأمر الأول: أن تكون لهم القوة والغلبة، ويكون في يد المسلمين السلاح الضعيف.
- الأمر الثاني: لكسب الأموال الطائلة، فإن ما تُنفقه الدول والشعوب في باب الأسلحة أضعاف ما يُنفق في باب الدواء والطب وربما الغذاء.

ثم إن من الإعداد: الإعداد بالعقيدة الصحيحة، العقيدة السلفية ما يكون في جيشك الاشتراكي، والعلماني، والحداثي، والديمقراطي فمثل هؤلاء ينهزمون إذ أن هذه الجيوش غالبًا ينتصر فيها الجيش الذي كثرت قوته، بينما الإعداد يكون بإعداد العقيدة والتوحيد والثقة بالله والتمسك بسنة رسول الله ﷺ، فقد نصر الله عَزَّوَجَلَّ المسلمين في مواطن كثيرة والكفار أضعاف أضعاف المسلمين، فالقوة الإيمانية أعظم من القوة العسكرية الحسية، فالمؤمن يعلم أن حياته لله وموته لله.

والأمر في الآية للوجوب؛ لأنَّ عدم إعداد القوة يؤدي إلىٰ ضعف المسلمين وتسلط الكافرين، وفي حديث عقبة بن عامر: أن النبي ﷺ قال علىٰ المنبر: «**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**» أخرجه مسلم.

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ هي عامة، رباط الخيل في عهدهم، وناقلات الجُند والعتاد والعدة، والقصد من ذلك: ﴿تُرْهِبُونَ﴾ تخوفون ﴿بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ من المشركين والمنافقين والمحاربين، ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أُناس ربما يكون أحدهم في الصف ويطعن في الإسلام وأهل الإسلام، ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ بسبب تخفيهم وإظهار الخير زعموا، ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ لأنه بكل شيء عليم، قيل: بأن الآية في بني قريظة والله أعلم، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ من النفقات الحسية أو المعنوية، ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ في الجهاد وغيره من أبواب الخير، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة كاملًا موفرًا، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون من أجوركم.

﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ مالوا أي: الكفار والمحاربون، ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: للسِلم والصلح، ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي: مل إليها وصالحهم، هذا إذا كان الصلح في مصلحة المسلمين، أما إذا كان الصُلح في مصلحة الكافرين فلا، والسَلْم: والسِلم، قد يُطلق علىٰ الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨].

❖ **وقيل**: بأن هذه الآية منسوخة بآية السيف.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ أي: ثق به واعتمد عليه، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ في استجابة من دعاه ورجاه ﴿الْعَلِيمِ﴾ بحال المؤمنين فيوفقهم للخير، وعليم بحال الكافرين، فيصيبهم بالخذلأنَّ المبين.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ

فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ الكفار ﴿أَن يَخْدَعُوكَ﴾ ويخدعوا المسلمين، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافيك مكرهم وكيدهم وشرهم، فإن الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ في بدر، ويؤيدك في غيرها، ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أيدك بقتال المؤمنين معك وهم الأنصار إذ فتحوا بلادهم لرسول الله ﷺ.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بين قلوب الأنصار من الأوس والخزرج وكانت بينهم إحَن وثارات في الجاهلية فصاروا إخوانًا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣]، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ﴾ يا محمد ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الأموال ﴿مَّا أَلَّفْتَ﴾ جمعت ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ﴾ لأنَّ شأن القلوب إلى الله، والأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وفي هذا بيان أن الأُلفة بين المؤمنين من أهم المهمات إذ أن المجتمع المتناحر، المتقاطع، المتهاجر، المتدابر يلحقهُ الضرر العظيم والشر الجسيم.

۞ وفيه: أن من أعظم المؤلِفات بين القلوب الإسلام والسنة، بينما البدعة تفرق والشرك يُفرق، وكما قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤].

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: رابط بين قلوبهم وجعل بينهم المودة والرحمة والمحبة، ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجز ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه وفعله وأمره.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافيك، ﴿وَ﴾ كافي ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس المعنى: يا أيها النبي حسبك الله وحسبك المؤمنون، بل المعنى ما تقدم، من أن الله عَزَّوَجَلَّ كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حث ﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ علىٰ الجهاد في سبيل الله، ويكون التحريض بحثهم بذكر الترغيب والترهيب في هذه الشعيرة العظيمة، والتحذير من

التخاذل، والتحريض له دور عظيم في تقويم القلوب وتقويتها، ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ من الكفار، أمر في صورة خبر وكان هذا في مبدأ الأمر: أن المسلم لا يجوز له أن يفر إذا كان خصمه عشرة يقاتلهم ويثبت ويرجو من الله النصر، ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بتثبيت الله لهم وعونه، وكان هذا يوم بدر فرض علىٰ الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين، فثقلت عليهم، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ أي: الذين كفروا لا يفقهون الكتاب ولا السنة.

﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ حيث نسخ هذا الأمر، ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ جراحات وقلة ونحو ذلك، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ أي: من الكفار، فصار علىٰ المسلم أن يُقاتِل كافرين، فإذا كانوا أكثر من ذلك جاز له أن ينسحب منهم ولا يلزمه أن يقاتلهم، ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ﴾ من الكافرين، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بنصره وعونه وتأييده، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معية نصر وتأييد.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا: ما أخرج البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ [الأنفال:٦٥]، شق ذلك علىٰ المسلمين حين فُرِض ألا يفر واحد من عشرة فجاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ [الأنفال:٦٦].

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا: ما أخرجه الحاكم (٣٢٧٠) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال: استشار رسول الله ﷺ في الأسارىٰ أبا بكر فقال: قومك وعشيرتك فخل سبيلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، قال: ففداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ

أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، إلىٰ قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟﴾، قال: فلقي النبي ﷺ عمر قال: «**كَادَ أَنْ يُصِيبَنَا فِي خِلَافِكَ بَلَاءٌ**»، والحديث أخرجه مسلم.

وأخرج الطيالسي (٢٥٥١): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ تَعَجَّلَ النَّاسُ إِلَىٰ الْغَنَائِمِ فَأَصَابُوهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْغَنِيمَةَ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ سُودِ الرُّؤُوسِ غَيْرَكُمْ**»، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ إِذَا غَنِمُوا الْغَنِيمَةَ جَمَعُوهَا فَنَزَلَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَكَلَتْهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، إِلَىٰ آخِرِ الْآيَتَيْنِ.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن عمر قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، قَالَ: نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلاثُ مِائَةٍ وَنَيِّفٌ، وَنَظَرَ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَزِيَادَةٌ، فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيهِ، وَعَلَيْهِ رِدَاؤُهُ وَإِزَارُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ أَيْنَ مَا وَعَدْتَنِي؟ اللهُمَّ أَنْجِزْ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلامِ فَلا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا**» قَالَ: فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ، وَيَدْعُوهُ حَتَّىٰ سَقَطَ رِدَاؤُهُ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ **فَرَدَّاهُ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ**. وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُئِذٍ، وَالْتَقَوْا فَهَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ وَعَلِيًّا وَعُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هَؤُلَاءِ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةُ وَالْإِخْوَانُ، فَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ، فَيَكُونُ مَا أَخَذْنَا مِنْهُمْ قُوَّةً لَنَا عَلَىٰ الْكُفَّارِ، وَعَسَىٰ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ فَيَكُونُونَ لَنَا عَضُدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا تَرَىٰ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟**» فَقَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ مَا أَرَىٰ مَا رَأَىٰ أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَىٰ أَنْ تُمَكِّنَنِي مِنْ فُلانٍ - قَرِيبٍ لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنَ حَمْزَةَ مِنْ فُلانٍ أَخِيهِ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، حَتَّىٰ يَعْلَمَ اللهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ، هَؤُلاءِ صَنَادِيدُهُمْ وَأَئِمَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ. فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَأَخَذَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، قَالَ عُمَرُ: غَدَوْتُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا هُوَ قَاعِدٌ وَأَبُو بَكْرٍ، وَإِذَا هُمَا يَبْكِيَانِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي مَاذَا يُبْكِيكَ أَنْتَ وَصَاحِبَكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **الَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنَ الْفِدَاءِ، وَلَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَىٰ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ** » - لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ - وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾، مِنَ الْفِدَاءِ، ثُمَّ أُحِلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمُ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عُوقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَفَرَّ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَىٰ رَأْسِهِ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ» أخرجه مسلم (١٧٦٣).

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ معاتبًا نبيه محمد ﷺ في قبوله للفداء: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ أي: في بدء قتاله ودعوته، ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: يُبالغ في قتال المشركين وأسرهم، فعند ذلك يتهيب منه المشركون ومن إليهم من المنافقين، ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ نصيبًا من الدنيا ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ بالثواب وبقهركم للمشركين وإذلالهم، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

❁ قد يقول قائل: أيهما كان الأصوب؟ مشورة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأخذ الفداء أم مشورة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالقتل.

فإذا نظرنا إلىٰ الحال فمشورة عمر هي الأصوب؛ ليقع بكفار قريش النكال العظيم، وإن نظرنا إلىٰ المآل فمشورة أبي بكر مع اختيار رسول الله ﷺ هو الأفضل والأقرب؛ لأنَّ أغلب الذين أُخذ منهم الفداء في ذلك اليوم دخلوا في الإسلام بعد ذلك.

وكانت الغنائم حرامٌ علىٰ الأنبياء والأمم، فكانوا إذا أصابوا شيئًا من الغنائم حرقوه كما في حديث أبي هريرة عند البخاري في الرجل الذي قال: «**فِيكُمُ الغُلُولُ، فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ،**

فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا».

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحل لهم الغنائم، ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أصابكم، ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا أو في الآخرة.

لكن عفا الله عَزَّوَجَلَّ عنهم فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ يعني: كلوه حلالًا طيبًا هنيئًا مريئًا، بل ذكر أهل العلم أن من أفضل المكاسب، مكسب الغنيمة والفيء وما إلىٰ ذلك؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ اختاره لنبيه ويُنال بقوة الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فأُحلت الغنيمة وهي من خصائص النبي ﷺ كما في حديث جابر قال رسول الله ﷺ: «**وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ**» متفق عليه، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ متجاوز، ﴿رَّحِيمٌ﴾ موفق لمن أطاعه واتقاه ولزم رضاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ وفي قراءة: ﴿الأَسَارَى﴾ أي: الذين أُخذوا يوم بدر وكانوا سبعين وأُلزموا بالفداء، ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ من محبة الإسلام ونحو ذلك، ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ يعوضكم ﴿خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم؛ لأنَّ الإسلام يهدم ما قبله كما في حديث عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأناب.

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟﴾ أي: الأسارىٰ، ﴿خِيَانَتَكَ﴾ يا محمد، ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ حيث تمالأوا علىٰ الكفر واستمروا عليه، فهذه من أعظم الخيانات؛ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ يوم بدر قتل من قتل، وأُسِرَ من أُسِر، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بحال الجميع، ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع ما يكون في هذا العالم، فمن علمه أهلًا للهداية وفقه لها، ومن علمه علىٰ غير ذلك خذله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم

مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا ونبيًا، وانقادوا لذلك ظاهرًا وباطنًا، ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ من بلدهم إلى مدينة رسول الله ﷺ فرارًا بدينهم وتكثيرًا لسواد المسلمين، فإن الهجرة كانت واجبة في أول الأمر ولما كان يوم الفتح قال النبي ﷺ: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**» متفق عليه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَجَاهَدُواْ﴾ الكافرين إما بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم أو بأحدها؛ لحديث أنس: أن النبي ﷺ قال: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**» أخرجه أبو داود (٢٥٠٥).

﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ وهو البذل؛ لإعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يقل فضل الجهاد بالمال عن الجهاد بالنفس إذ أن الله قد قرن بينهما، فكم للمال من أثر في تجهيز الجيوش وإعداد المقاتلين؛ وعن عقبة بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ في شأن عثمان: «**مَن جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ**» متفق عليه.

وقال لذلك الرجل الذي أعطىٰ ناقة مخطومة: «**لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ**» أخرجه مسلم (١٨٩٢).

﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي: بذلوها في إعلاء كلمة الله، فمن قُتِل منهم قُتِل شهيدًا، ومن عاش منهم عاش حميدًا، ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ شرط في الإخلاص؛ ففي حديث أبي موسىٰ سئل النبي ﷺ: الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً ويقاتل حمية أي ذلك في كتاب الله؟ قال: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**» متفق عليه.

﴿وَالَّذِينَ آوَواْ﴾ الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وآووا المهاجرين، ﴿وَّنَصَرُواْ﴾ بأموالهم وأنفسهم، وقد أخذ عليهم البيعة بذلك، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَىٰ أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَىٰ أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَىٰ أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ**» متفق عليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ أي: أن المهاجرين والأنصار وقعت بينهم المولاة بسبب طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وكانت بينهم الموارثة بسبب هذه المولاة، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسول الله ﷺ نبيًا ورسولًا، ﴿وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ إلى المدينة، ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ يعني: الميراث مع أنهم أهل إسلام إلا أنهم لم تكن ولايتهم كولاية الذين هاجروا، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ إلى مدينة رسول الله ﷺ، ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾ هؤلاء الذين استضعفوا من المؤمنين ﴿فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ إن استطعتم إلى ذلك سبيلًا، فإن المؤمن أخو المؤمن لا يُسلمه ولا يظلمه ولا يخذله، بل يجب أن يُنصر ويُعان كما قال رسول الله ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، أخرجه البخاري (٢٤٤٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ﴾ فلا تنصروهم عليهم أتموا ميثاقهم؛ لأنَّ هؤلاء المسلمين ما دخلوا في المواثيق، ولو دخلوا في المواثيق كبني بكر حيث دخلوا في حلف النبي ﷺ في ميثاق الحديبية فلما نكث قريش عليهم نكثوا، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسالاته، ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَاءُ بَعۡضٍ﴾ يتناصرون ويتحابون ويتعاونون، ويرث بعضهم بعضًا، وفي حديث أسامة قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ**» متفق عليه.

﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ ما أمركم الله به، وقيل: تأخذوا الميراث الذي شرعه الله لكم، لكن الذي يظهر: البراءة من الكفار، والمولاة بين المسلمين: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ﴾ شر ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ وذلك أن التفرق والتمزق والتحزب من أسباب ذلة المسلمين وهوانهم علىٰ أعدائهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ الأنصار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩]، ولذلك قال فيهم النبي ﷺ: «**لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ**» متفق عليه.

وقال ﷺ: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الأنصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأنصَارِ» متفق عليه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿أُولَـٰئِكَ﴾ أي: الذين هاجروا وآمنوا وجاهدوا ونصروا، ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ ظاهرًا وباطنًا، ويدل هذا علىٰ أنهم قد زاد إيمانهم وحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل المال لنصرة الدين، ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ بالتجاوز عن سيئاتهم وزلاتهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة وما يلحقهم من رفع الدرجات، ونيل المكرمات، وجزيل الهبات، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ﴾ أي: آمنوا من بعد المتقدمين السابقين، ﴿وَهَاجَرُوا﴾ إلىٰ المدينة أيضًا، ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ فأشركوهم في الأجر والجهاد والهجرة، ﴿فَأُولَـٰئِكَ مِنكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، فإن كان ثمة مواريث فلهم من المواريث، وإن كانت مناصرة فلهم من المناصرة، ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ يتناصرون ويتآزرون ويتوارثون. وفي مسند الطيالسي (٢٧٩٨) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: « آخَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، وَوَرَّثَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّىٰ نَزَلَتْ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فَتَرَكُوا ذَلِكَ وَتَوَارَثُوا بِالنَّسَبِ ».

❁ النَّسْخُ: وهذه الآية ناسخة لما تقدم من الموارثة بين المهاجرين والأنصار، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: « آخَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، وَوَرَّثَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّىٰ نَزَلَتْ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]، فَتَرَكُوا ذَلِكَ وَتَوَارَثُوا بِالنَّسَبِ ».

فإن الله عَزَّوَجَلَّ جعل الميراث في الأصول والفروع والحواشي وهم أولوا الأرحام، فآيات المواريث تضمنتها سورة النساء، وأولوا الأرحام تضمنته هذه الآية في آخر سورة الأنفال، ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكم الله الشرعي، في القرآن والسنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وبكل شيء محيط لا تخفىٰ عليه خافية.

تفسير

سورة التوبة

سُورَةُ التَّوْبَةِ

۞ وهي مدنية بالإجماع، ولها أسماء، منها: التوبة، وبراءة والفاضحة.

۞ سُميت التوبة؛ لما قصة الله عَزَّوَجَلَّ علينا من توبة الثلاثة الذين خُلِفوا وهم: (كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع) علىٰ ما يأتي ذكرهم في آخرها.

وسُميت براءة؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ افتتحها بالبراءة من المشركين، وسميت: الفاضحة؛ إذ أظهر الله عَزَّوَجَلَّ فيها كثيرًا من صفات المنافقين، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قَالَ: آلتَّوْبَةِ قَالَ: «**بَلْ هِيَ الْفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حَتَّىٰ ظَنُّوا أَنْ لَا يَبْقَىٰ مِنَّا أَحَدٌ، إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا**»، قَالَ: قُلْتُ: سُورَةُ الأنفَالِ، قَالَ: «**تِلْكَ سُورَةُ بَدْرٍ**» قَالَ: قُلْتُ: فَالْحَشْرُ قَالَ: «**نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ**» متفق عليه.

۞ ولم تذكر فيها البسملة، وذلك لأنَّ شأن القرآن توقيفي.

فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رتبوا القرآن علىٰ وفق الترتيب الذي كان في عهد النبي ﷺ، وأثبتوا ما حفظه الله عَزَّوَجَلَّ من الوحي، فلو كانت البسملة من التوبة لحُفظت كما حُفظ غيرها، إذ أن الصحابة رضوان الله عليهم ما كان لهم أن يتصرفوا في مثل هذا الأمر إلا بشرع سمعوه واستفادوه، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩] وقد وجه العلماء عدم ذكر البسملة في هذه السورة لأمور منها أن التوبة سورة عذاب، والبسملة متضمنة للرحمة، لكن يُشكل علىٰ هذا أن كثيرًا من السور التي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيها أحوال الكافرين قد افتتحها الله عَزَّوَجَلَّ بالبسملة، وقيل: لأنَّ التوبة والأنفال كالسورة الواحدة، وهذا لا يستقيم بل هما سورتان منفصلتان، يدل علىٰ ذلك صنيع الصحابة رضوان الله عليهم،

ويدل عليه السياقة، وشأن القرآن توقيفي علىٰ ما تقدم، فما وجده الصحابة أثبتوه وما لم يكن محفوظًا وقد نُسخ لفظه، أو حكمه ولفظه لم يكتبوه.

❖ وأما ما أخرجه أحمد (٤٩٩) ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَىٰ أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَىٰ الأنفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي، وَإِلَىٰ بَرَاءَةٌ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينَ، فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ، فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ؟، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّوَرِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ لَهُ، فَيَقُولُ: «**ضَعُوا هَذِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**»، وَإِذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ، قَالَ: «**ضَعُوا هَذِهِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا كَذَا**»، وَإِذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ، قَالَ: «**ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**»، قَالَ: وَكَانَتِ الأنفَالُ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَرَاءَةُ مِنْ آخِرِ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ: فَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهًا بِقِصَّتِهَا، فَظَنَنَّا أَنَّهَا مِنْهَا، وَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرًا: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ» فهذا حديث ضعيف السند منكر المتن، ففي سنده يزيد الفارسي مجهول.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ
ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ
أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ٦﴾.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ عاقدتم ﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: قد برئ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ من العهود والمواثيق التي كانت قبل نزول هذه السورة حيث كانت العهود والمواثيق بينهم وبين رسول الله ﷺ، وهذا على معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال:٥٨]، فنبذ إليهم رسول الله ﷺ عهدهم وميثاقهم بصورة سمع بها القريب والبعيد حتى لا يُقال بأن محمدًا ﷺ أخفر العهود ونقض الوعود.

❁ وفيه: أن الصلح بين المسلمين والكفار إن وقع يكون إلىٰ أمد حتىٰ لا يتعطل باب الجهاد.

❁ وفيه: جواز الصلح مع الكافر، وقد صالح النبي ﷺ كفار قريش في الحديبية، وصالح اليهود في المدينة حتىٰ نقضوا العهود فعند ذلك أجلاهم وحاربهم وقتلهم، فلفظة المشركين عامة في عباد الأصنام وأهل الكتاب.

﴿فَسِيحُوا۟﴾ سيروا يا معاشر الكفار ومن إليهم ممن بيننا وبينهم مواعيد ومواثيق، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين، ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ معدودة معلومة أي: منذ البلاغ، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي: غير فائتين ولا سابقين بل يدرككم ويهلككم متى شاء، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ مذل ﴿الْكَافِرِينَ﴾ بالقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة، على رؤوس الأشهاد حيث ينادى بهم: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ [هود:١٨].

❁ واختلفوا في هذا التأجيل هل هو عامٌ في كل كافر مشرك أم أنه خاص بمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهودٌ ومواثيق.

وتفصيل ذلك من كان له عهدٌ مطلق فمدته أربعة أشهر ومن كان له دون ذلك فمدته ما في صلحه، ومن كان لا عهد له ولا ميثاق يخلي في الشهر الحرام، وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن من كان دون أربعة أشهر يكمل له أربعة أشهر، والله أعلم.

﴿وَأَذَٰنٌ﴾ إعلام للبراءة ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى﴾ الكفار ومن إليهم فقد أرسل بها رسوله ﷺ أبا بكر وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُبلغون بها الناس الذين حضروا الموقف وهم

يبلغون من ورائهم، ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ في رواية ابن عباس: أنه يوم عرفة، وقيل: هو يوم النحر، وقد جاء مرفوعًا: «**أَعْظَمُ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللهِ يَوْمُ النَّحْرِ، ثُمَّ يَوْمُ الْقَرِّ**» أخرجه أحمد (١٩٠٧٥)، ولعلهم بلغوها في يوم عرفة ويوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وسُميَّ بيوم الحج الأكبر؛ لكثرة الأعمال فيه ففيه ذكر الله عند المشعر الحرام والرمي، والحلق، والذبح، وطواف الإفاضة، والسعي لمن لم يكن قد سعى، وقبل ذلك، ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ورسوله بريء من المشركين، وقُرِئت أيضًا: ﴿وَرَسُولَه﴾، أي أن الله بريء من المشركين، وأن رسوله بريء من المشركين، أما إذا قُرئت على كسر رسوله فلا يستقيم المعنى بل سيكون فاسدًا بمعنى: أن الله بريء من المشركين وبريء من رسوله، فلينبه العوام إلى مثل هذا الخطأ الفاحش، ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ﴾ أي: من الكفر إلى الإسلام، ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في الدنيا والآخرة فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**قَدْ أَفْلَحَ مِنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**» أخرجه مسلم (١٠٥٤).

﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أعرضتم عن الإسلام، ﴿أَنَّكُمۡ﴾ يا معاشر الكافرين والمعرضين، ﴿غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ فائتي ﴿وَبَشِّرِ﴾ أو فارين منه، بل هو القوي الذي لا يُقهر، والعزيز الذي لا يُغلب، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعرضوا، ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الدنيا بالقتل والنكال ونحوه، وفي الآخرة بعذاب النار الموجع.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ أي ويستثنى من هذه البراءة ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ هذا استثناء من قوله: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة:١]، ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ ينقضوا ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مما بينكم من العهود والعقود والمواعيد، ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾ يعاونوا، ﴿عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ ممن قاتلكم من المشركين، ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾ أكملوا ﴿إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ﴾ ما بينكم وبينهم من العهد والميثاق وأوفوا به، ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ أي: إلى الأجل الذي عاهدتموهم عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ إثبات صفة

المحبة لله وهي صفةٌ فعليةٌ تليق بجلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]، يُحِب ويُحَب، ﴿الْمُتَّقِين﴾.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ انقضت، ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ رجب، وذو العقدة، وذو الحجة، والمحرم فقد جمعها النبي ﷺ في حديث أَبِي بَكْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبٌ شَهْرُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ**» متفق عليه، وقد حرم الله عَزَّوَجَلَّ فيهن ابتداء القتال، وكانت معظمة عند الجاهلية، وسُميَّ رجب مُضر؛ لأنهم كانوا يعظمونه أكثر من غيره، ﴿فَاقْتُلُواْ﴾ قاتلوا ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ الكافرين وهذه من آيات السيف، ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحل أو في الحرم، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرًا، ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ حبسًا،﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ كل طريق يخرجون منه، وهذا إذن من الله عَزَّوَجَلَّ بتشديد الوطأة على الكافرين؛ لأنهم: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة:١٠]، ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ من كفرهم، ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة، ﴿فَخَلُّواْ﴾ اتركوا ﴿سَبِيلَهُمْ﴾ إذ أنهم صاروا منكم لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأناب.

﴿وَإِنْ﴾ استجارك ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نزل بك وطلب المجورة واستأمنك على نفسه وماله، ﴿فَأَجِرْهُ﴾ يا محمد ومن يقوم مقام النبي ﷺ في هذا الأمر.

فعن أُمَّ هَانِئٍ بِنْتَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تَقُولُ: ذَهَبْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ، وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ بِثَوْبٍ، قَالَتْ: فَسَلَّمْتُ، فَقَالَ: «**مَنْ هَذِهِ؟**» قُلْتُ: أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: «**مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ**»، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ، قَامَ فَصَلَّىٰ ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا أَجَرْتُهُ، فُلَانٌ ابْنُ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ

قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ: وَذَلِكَ ضُحًى» أخرجه مسلم (٣٣٦)، ﴿حَتَّىٰ﴾ إلىٰ أن ﴿يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ القرآن فيسمع ما يُرجىٰ له به التوبة إذ يسمع الثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

وبهذه الآية استدل أهل العلم علىٰ أن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله أنزله علىٰ محمد ﷺ وليس بمخلوق إذ أن الإضافة هنا إضافة صفة إلىٰ موصوف، والأدلة علىٰ إثبات صفة الكلام كثيرة تقدم الإشارة إلىٰ بعضها في سورة الأعراف، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ﴾ أوصله ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ حيث يأمن إلا إذا نكث وقاتل، وأما إذا أسلم فقد رُفِعَتْ عنه المطالبة، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإجارة حتىٰ يسمع كلام الله ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ دين الله تعالىٰ وتوحيده فهم محتاجون إلىٰ سماع كلام الله.

قال الحسن: وهذه الآية محكمة إلىٰ يوم القيامة أي: إقامة الحجة علىٰ الكافرين، وكان الدعوة في عهد النبي ﷺ قبل القتال، وما جاء أنه قاتل قبل الدعوة فهذا محمول علىٰ أُناس قد بلغتهم الدعوة.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾.

﴿كَيْفَ﴾ على سبيل التعجب، ﴿كَيْفَ يَكُونُ﴾ المحاربين لدين رب العالمين ﴿عَهْدٌ﴾ ميثاق ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ يأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وهم على كفرهم وبغيهم وحرابتهم وغدرهم، فمثل هؤلاء لا عهد لهم ولا ميثاق، فإن استطاع المسلمون أن يقيموا عليهم بجهاد الطلب فعلوا، وإن عجزوا فلا أقل من جهاد الدفع؛ لإزالة شرهم وبغيهم، ثم استثنى الله عَزَّوَجَلَّ منهم: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ﴾ عاقدتم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قيل: قريش إذ أن

النبي ﷺ عاهدهم يوم الحديبية، فأمر الله أن يمضي لهم عهدهم إلى أربعة أشهر، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أقاموا ﴿لَكُمْ﴾ على العهد، ﴿فَاسْتَقِيمُواْ﴾ أقيموا ﴿لَهُمْ﴾ على العهد، وإن نقضوا كما هو الحال فلا عهد لهم ولا ميثاق،﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يلزمون فعل المأمور ويتركون فعل المحظور.

﴿كَيْفَ﴾ على سبيل التعجب والمعنى كيف تعاهدوهم وتعاقدوهم، ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ﴾ يظفروا بكم، ﴿لَا يَرْقُبُواْ﴾ لا يراعوا ﴿فِيكُمْ إِلًّا﴾ رحما ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهدا وأمنا وضمانًا، ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعطونكم بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم، والحال:

يُعطيكَ مِن طَرَفِ اللِسانِ حَلاوَةً وَيَروغُ مِنكَ كَما يَروغُ الثَعلَبُ

﴿وَتَأْبَىٰ﴾ ترفض وترد ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ الإيمان؛ لشدة بغضهم لرسول الله ﷺ ودينه، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتُرِكَ حَتَّىٰ كَانَ الغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّىٰ كَانَ بَعْدَ الغَدِ، فَقَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**» فَانْطَلَقَ إِلَىٰ نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَىٰ الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلاَدِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ العُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَىٰ؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ، قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ وَاللهِ، لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ، حَتَّىٰ يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ» متفق عليه.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ معرضون عن دين رب العالمين وينقضون العهود والمواثيق.

﴿اشْتَرَوْاْ﴾ أي: الكفار، ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ وهو ما يتحصلون عليه من حطام الدنيا، ﴿فَصَدُّواْ﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ طريقه ودينه الإسلام حيث منعوا المسلمين من الدخول في الدين وآذوهم وحاربوهم، ﴿إِنَّهُمْ سَاء﴾ بئس، ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الأفعال القبيحة السيئة الناتجة عن الظلم والحيف.

وكيف لا تقاتلونهم وحالهم أنهم ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ يراعون ﴿فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهد، فإن تمكنوا من أهل الإسلام فلا يرحمونهم ولا يتجاوزون عنهم، ﴿وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ بنقض العهود والمواثيق، والمعتدون في الأفعال والأقوال، وقد قال الله لأ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٢٩]، فهذا حال الكافرين في كل زمن وحين، فلو تأملت ما يفعله الغرب الكافر والرافضة مع المسلمين لوجدت العجب العجاب من قتل، وسجن، وظلم يخالف الدين القويم والفطرة السليمة، بل وما يتبجحون به من الإخوة الإنسانية وإنما يقصدون بها أنفسهم، فإذا كان الأمر متعلقًا بالمسلمين لا تجد عندهم رحمة ولا هوادة.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾ من كفرهم وشركهم، ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي صاروا مسلمين واستدل العلماء بهذه الآية على أن تارك الصلاة ليس بأخٍ لنا، وعلى أنه من المشركين المنددين؛ فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**» أخرجه مسلم، وقد جمع الله بين الصلاة والزكاة في مواطن كثيرة من كتابه، ويقول أبو بكر: «**والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فالزكاة حق المال**» متفق عليه.

إلا أن تارك الزكاة بخلًا لا يكفر؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: « **مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَىٰ بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي**

يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَىٰ سَبِيلُهُ إما إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَإما إِلَىٰ النَّارِ» متفق عليه، والكافر ليس له سبيل غير النار، ومما يدل علىٰ عِظم دين الإسلام؛ أن الإخوة فيه أعظم من إخوة النسب، فوقعت الإخوة الدينية بين الأحمر والأبيض والأسود، وبين العرب والعجم، ﴿وَنُفَصِّلُ﴾ نبين ونوضح ﴿الآيَاتِ﴾ الحجج الشرعية من القرآن والسنة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون شرع الله ويعملون به.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ نقضوا ﴿أَيۡمَٰنَهُم﴾ عهودهم، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ وعقدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين، ﴿وَطَعَنُواْ﴾ قدحوا وعابوه ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾ الحق.

۞ وهذا دليل علىٰ أن الذمي إذا طعن في دين الإسلام ظاهرًا ينتقض عهده وعقده.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ رؤساء الكفر وطواغيته، ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ﴾ لا عهود ﴿لَهُمۡ﴾ ولا مواثيق؛ ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ بقتالكم لهم ﴿يَنتَهُونَ﴾ عن كفرهم أو عن بيغهم عليكم والطعن فيكم، فمن عرف العقوبة قل شره وضعف خطره.

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محرضًا المؤمنين على قتال الكافرين: ﴿أَلَا﴾ للتنبيه ﴿تُقَاتِلُونَ﴾ تجاهدون ﴿قَوْمًا﴾ وهم كفار قريش ومن إليهم حين نقضوا العهد والميثاق، ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ نقضوا ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ عهودهم، ﴿وَهَمُّواْ﴾ عزموا ﴿بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة حين تمالأوا عليه في دار الندوة، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ﴾ بالقتال، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: يوم بدر، ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ استفهام إنكاري أترهبون منهم وتخافونهم فتتركون قتالهم، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ﴾ أوجب وأحرى

﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ تراقبوه فقد أمركم بقتال الكافرين إعلاءً لكلمته وإعزازًا لدينه، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ منقادين لرب العالمين.

﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالقتل ونحوه، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ بالهزيمة والأسر والقهر، ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يمكن لكم منهم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ﴾ [الأنفال:١٠]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، ﴿وَيَشْفِ﴾ يبرئ ﴿صُدُورَ﴾ قلوب ﴿قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ مما كان قد لحق قلوبهم من شدة الكفار عليهم، فضاقت صدور المسلمين، فإذا مكن الله من المشركين شفى الله صدور المؤمنين.

﴿وَيُذْهِبْ﴾ يزيل ﴿وَيُذْهِبْ﴾ كرب وحنق ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ بسبب تمالؤ المشركين على المسلمين، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بدخولهم في الإسلام، فقد هدى الله عَزَّوَجَلَّ أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمر، وصفوان بن أمية، وجمع ممن كانوا رؤوسًا في الكفر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهلٌ للهداية، ﴿حَكِيمٌ﴾ في توفيقه وتسديده وفي جميع فعله.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ بل ظننتم، هذا خطاب للمنافقين وقيل للمؤمنين الذين تخلفوا عن الجهاد، ﴿أَن تُتْرَكُواْ﴾ على حالكم تظهرون الإيمان وتبطنون النفاق، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ علم وقوع ﴿الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ﴾ في سبل إعلاء كلمته فجعل الاختبار والابتلاء لذلك، كما قال: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُون وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين﴾ [العنكبوت:١-٣]، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانة وأولياء يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم وقيل: خيانة، وهذا هو حال أهل النفاق ربما جلسوا مع النبي ﷺ وأصحابه وأظهروا الإيمان والاستقامة، والشجاعة والبسالة، وإذا جلسوا مع بعضهم أظهروا الخيانة والنذالة، وجعلوا يلتمسون الأعذار التي يقدمونها إلى رسول الله ﷺ كذبا، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾ عليمٌ بظواهركم وبواطنكم.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨﴾.

وقد تفاخر الكفار بعمارة البيت الحرام حسًا فرد الله عليهم بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ﴾ عمارةً معنوية بالتوحيد والطاعة ﴿مَسَاجِدَ الله﴾، المسجد الحرام إذ أنهم كانوا يقومون عليه ﴿شَاهِدِينَ﴾ مقرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ﴾ إن قاموا بذلك، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الكفار، ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت وذهبت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ولا أجر لهم، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [سورة البقرة:٨١]، ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أبد الآباد، كما قال تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣﴾ [النبأ:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة:١٦٧].

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ حسًا ومعنى، ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ ربًا معبودًا ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ معادًا، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة، ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ يخف خوف تعظيم ﴿إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ﴾ وعسى في حق الله موجبة أي: أنها ستكون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين عمروا مساجد الله مع إيمانهم بالله واليوم الآخر، ومحافظتهم على الصلاة، وإيتائهم للزكاة، وخوفهم من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ المنقادين لدين الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَتَعَاهَدُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ**»، لكنه من رواية دراج عن أبي الهيثم، وهي ضعيفة، وفي الصحيح عن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**مَنْ غَدَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ**».

وبناء المساجد أجرها عظيم، فعن عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ: «**مَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ - يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ - بَنَىٰ اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**» متفق عليه، وعن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول

الله ﷺ: «مَنْ بَنَىٰ لله مَسْجِدًا وَلَوْ كمِفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَىٰ اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» أخرجه أبو داود الطيالسي (٤٦١).

سَبَبُ النُّزُولِ: وفي صحيح مسلم (١٨٧٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ، وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ، فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ، وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٩]، الْآيَةَ إِلَىٰ آخِرِهَا.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ صيرتم، ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ سقي الحجيج بالماء مع ما فيها من الأجر العظيم، ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ العمارة الحسية والمعنوية من العكوف والبقاء فيه، ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ظاهرًا وباطنًا، ﴿وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله فلا سواء، فإن المجاهد أجره أعظم، والماكث في البيت الحرام إن كان من أهل الإسلام فأجره لنفسه وعمله لا يتعداه، أما المجاهد في سبيل الله فنفعه للمسلمين وجهاده من أعظم القربات إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لفضل المجاهد على القاعد فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ» متفق عليه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ

ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ، حَتَّىٰ يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىٰ**» متفق عليه، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين.

وكانت السِّقاية في بني العباس، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ جاء إلىٰ السِّقاية فاستسقىٰ فقال العباس: يَا فَضْلُ اذْهَبْ إِلَىٰ أُمِّكَ فَأْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِشَرَابٍ مِنْ عِنْدِهَا، فَقَالَ: «**اسْقِنِي**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ أَيْدِيَهُمْ فِيهِ، قَالَ: «**اسْقِنِي**»، فَشَرِبَ مِنْهُ ثُمَّ أَتَىٰ زَمْزَمَ وَهُمْ يَسْقُونَ وَيَعْمَلُونَ فِيهَا، فَقَالَ: «**اعْمَلُوا فَإِنَّكُمْ عَلَىٰ عَمَلٍ صَالِحٍ**»، ثُمَّ قَالَ: «**لَوْلَا أَنْ تُغْلَبُوا لَنَزَلْتُ حَتَّىٰ أَضَعَ الْحَبْلَ عَلَىٰ هَذِهِ**»، وَأَشَارَ إِلَىٰ عَاتِقِهِ. أخرجه البخاري (١٦٣٥).

وعن بكر بن عبد الله الْمزني قال: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فَأَتَاهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَا لِي أَرَىٰ بَنِي عَمِّكُمْ يَسْقُونَ الْعَسَلَ وَاللَّبَنَ وَأَنْتُمْ تَسْقُونَ النَّبِيذَ؟ أَمِنْ حَاجَةٍ بِكُمْ؟ أَمْ مِنْ بُخْلٍ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا بِنَا حَاجَةٌ وَلَا بُخْلٌ، قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ وخلفه أُسَامة بن زيد فَاسْتَسْقَىٰ فَأَتَيْنَاهُ بِإِنَاءٍ مِنْ نَبِيذٍ فَشَرِبَ وَسَقَىٰ فَضْلَهُ أُسَامَةَ، وَقَالَ: «**أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ كَذَا فَاصْنَعُوا**»، فَلَا نُرِيدُ تَغْيِيرَ مَا أَمَرَ بِهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. أخرجه مسلم (١٣١٦).

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا، ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ من مكة إلى المدينة، ﴿وَجَاهَدُواْ فِى سَبِيلِ اللّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله، ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ بالبذل والعطاء في إعداد الجيش المسلم، ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ ببذلها للقتال والمبارزة والمسايفة، ﴿أَعْظَمُ﴾ أعلى ﴿دَرَجَةً﴾ منزلة ﴿عِندَ اللّهِ﴾ أي: من عمارة المساجد وسقي الحاج مع أن ذلك فضله عظيم، ﴿وَأُوْلَـئِكَ﴾ الذين يجاهدون في سبيل الله ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الناجون من النار، والمبشرون

بالجنة كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ البشارة في الغالب تكون في الخير، وربما تكون في الشر، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤]، ﴿رَبُّهُم﴾ مالكهم وخالقهم ورازقهم، وناصرهم ومؤيدهم ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: أنه سيرحمهم جزاء أعمالهم، ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ في دنياهم وحين يدخلون جنته، ففي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**» أخرجه مسلم (٢٨٢٩).

والله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ جمع جنة، ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة، ﴿نَعِيمٌ﴾ تنعم، ﴿مُّقِيمٌ﴾ ثابت دائم لا يزول كقوله: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة:٣٣]، وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ دليل على أبدية الجنة خلافًا لما ذهب إليه المعتزلة والجهمية ومن إليهم، من أنها تفنى وتبيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثواب ﴿عَظِيم﴾ للمؤمنين الموحدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾ في النسب وليسوا على الإسلام، ﴿أَوْلِيَاء﴾ من دون المؤمنين، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ أمر بولاية المؤمن فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ﴾ اختاروا ﴿ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ فأبوا أن ينقادوا لشرع الله ودينه وهديه، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ يناصر الكفار ﴿مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إن كانت التولية لهم في جميع شأنهم بنصرتهم، ومحبتهم، ومظاهرتهم، وعونهم فهذا كفر أكبر مُخرج من الملة، وإن كان لاتقاء شرهم فذلك معفوٌ عنه فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران:٢٨]، وإن كان يتولاهم لدنيا مع عدم مناصرتهم على المؤمنين وعدم محبته لدينهم والركون إليهم فهذا عاصي لإظهاره القُرب من اليهود والنصارى من أجل الدنيا، فالواجب على المسلم البعد عنهم، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١].

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمتخلفين عن الهجرة: ﴿قُلْ إِن كَانَ﴾ الذين خرجتم من أصلابهم، ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الذين خرجوا من أصلابكم، ﴿وَإِخْوَانُكُمْ﴾ في النسب، ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ سواءً كان الأمر للمرأة أو للرجل، ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي: قبيلتكم التي ترجعون إليها، ﴿وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ تجارة جمعتموها، ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ الخسارة فيها، ﴿وَمَسَاكِنُ﴾ قصور ومنازل ﴿تَرْضَوْنَهَآ﴾ تحبونها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ وأرغب عندكم ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بحيث آثرتم الفاني على الباقي، والحقير على العظيم، ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ انتظروا، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بقضائه ومنه: فتح مكة وهذا على التهديد، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة.

❁ وهاتان الآيتان من أشهر الآيات التي يستدل بها أهل السنة والجماعة علىٰ وجوب موالاة المؤمنين والبُعد عن موالاة الكافرين، ونرىٰ كثيرًا ممن يتأثر بالكافرين إما في عقائدهم، وفي ألبستهم، وإما في كثير من معاملتهن، والحال كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝٥٢﴾ [المائدة:٥٢]، ومع ذلك فإن هذا الموطن يقع فيه

خلطٌ فإن الخوارج ومن إليهم، ربما استدلوا بهذه الآيات علىٰ تكفير الحكَّام مطلقًا لبعض المعاهدات التي بينهم وبين الكفار، وهذا ليس علىٰ إطلاقه، وإنما يكفر من كان توليه لهم محبة أو نصرة لدينهم الباطل، ومظاهرة ومعاونة لهم علىٰ المسلمين.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ﴾ غزوات ﴿كَثِيرَةٍ﴾ مثل بدر، والأحزاب، وفي بدء غزوة أحد، وغير ذلك من المواطن كفتح مكة، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي: المشهد الذي كان بين المسلمين وهوازن وثقيف في حُنين بين الطائف ومكة قريب مما يُسمى بذي المجاز، وقد كان خروج النبي ﷺ إلى حُنين في شهر شوال من السنة الثامنة من الهجرة بعد أن فتح مكة ودانت له، فخرج لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفًا وقيل أكثر، وهو أكثر عدد إلى حينه كان في معركة من المعارك الدائرة بين المسلمين والكفار، ثم إن بعض حدثاء العهد بالإسلام قالوا: لن نُغلب اليوم عن قلة، فكانت هذه الكلمة من أسباب ما لحق المسلمين حيث أن المشركين رموهم بالنبل ففروا وانهزموا حتى لم يبقَ إلا رسول الله ﷺ مع العباس وأبي سفيان بن الحارث والعباس يجر ببغلة رسول الله ﷺ خشية أن تدخل بين الكفار، فقال رسول الله ﷺ: «**أَيْ عَبَّاسُ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ**»، أي: أصحاب بيعة الرضوان، فقال العباس: أَيْنَ أصحاب السّمرة؟ قال: فو الله لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ، قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ وَالدَّعْوَةُ فِي الأنصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الأنصَارِ يَا مَعْشَرَ الأنصَارِ، ثُمَّ قَصُرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ: «**هَذَا حِينُ حَمِيَ الْوَطِيسُ**»، ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: «**انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ**»، فكان بعد ذلك أمرهم مدبرًا وحدهم كليلًا متفق عليه.

وفي هذا النهي عن العُجب، فإذا كان قد أثر علىٰ سير معركة فيها رسول الله ﷺ وخيرة الصحابة فكيف بغيرهم فإن العُجب يحمل علىٰ الأشر والبطر، والإنسان مأمور بالخضوع لله عَزَّوَجَلَّ والتذلل بين يديه والأنكسار له فهو القوي الذي ينصر عباده المؤمنين ويمكن لهم، والعبد ضعيف إن لم يوفقه الله ويعينه.

﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ تدفع ﴿عَنكُمْ﴾ تلك الكثرة ﴿شَيْـًٔا﴾ بل كانت الهزيمة من قبلها، فلما نُوديَّ أصحاب بيعة الرضوان الذين هم قلة في العسكر وإذا بسير المعركة يتغير، وقد كان أصحاب طالوت أعدادًا كثيرة فما نفعت تلك الأعداد، ونفعه الله بثلاثمائة وبضعة عشر ثبتوا معه، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ لشدة ما لحقهم من الأنكسار، وما حل بهم من الهم والغم بسبب ترك النبي ﷺ فصارت الأرض الفساح ضيقة، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ منهزمين.

وقد جاء عن بعض الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُم نفي الهزيمة، وجاء عن بعضهم ذكر الهزيمة، وجاء إثبات الفرار ونفي الفرار، ومن أثبتها نظر إلىٰ مبدئها، ومن نفاها نظر إلىٰ آخرها، ومن نفىٰ الفرار نظر إلىٰ من بقي من الصحابة، ومن أثبت الفرار نظر إلىٰ من قد ذهب منهم، ومنهم سلمة بن الأكوع قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُنَيْنًا، فَلَمَّا وَاجَهْنَا الْعَدُوَّ تَقَدَّمْتُ فَأَعْلُو ثَنِيَّةً، فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ مِنَ الْعَدُوِّ، فَأَرْمِيهِ بِسَهْمٍ فَتَوَارَىٰ عَنِّي، فَمَا دَرَيْتُ مَا صَنَعَ، وَنَظَرْتُ إِلَىٰ الْقَوْمِ فَإِذَا هُمْ قَدْ طَلَعُوا مِنْ ثَنِيَّةٍ أُخْرَىٰ، فَالْتَقَوْا هُمْ وَصَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَوَلَّىٰ صَحَابَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَرْجِعُ مُنْهَزِمًا، وَعَلَيَّ بُرْدَتَانِ مُتَّزِرًا بِإِحْدَاهُمَا مُرْتَدِيًا بِالْأُخْرَىٰ، فَاسْتَطْلَقَ إِزَارِي فَجَمَعْتُهُمَا جَمِيعًا، وَمَرَرْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُنْهَزِمًا وَهُوَ عَلَىٰ بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ رَأَىٰ ابْنُ الْأَكْوَعِ فَزَعًا**»، فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ، ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ، فَقَالَ: «**شَاهَتِ الْوُجُوهُ**»، فَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلَأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَهَزَمَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَقَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَنَائِمَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ » أخرجه مسلم.

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ: يَا أَبَا عُمَارَةَ، أَفَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ، مَا وَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَكِنَّهُ خَرَجَ شُبَّانُ أَصْحَابِهِ، وَأَخِفَّاؤُهُمْ حُسَّرًا، لَيْسَ عَلَيْهِمْ سِلَاحٌ - أَوْ كَثِيرُ سِلَاحٍ -، فَلَقُوا قَوْمًا رُمَاةً لَا يَكَادُ يَسْقُطُ لَهُمْ سَهْمٌ، جَمْعَ هَوَازِنَ وَبَنِي نَصْرٍ، فَرَشَقُوهُمْ رَشْقًا مَا يَكَادُونَ يُخْطِئُونَ، فَأَقْبَلُوا هُنَاكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَقُودُ بِهِ، فَنَزَلَ فَاسْتَنْصَرَ، وَقَالَ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**»، ثُمَّ صَفَّهُمْ» أخرجه مسلم.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: بعد الهزيمة، ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ الطمأنينة والأمنة ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقويت قلوبهم وزادت شجاعتهم وثبتت أبدانهم، ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ملائكة لتجبين الكفار وتثبيت المؤمنين إذ لم يُذكر أن الملائكة قاتلوا مع النبي ﷺ في غير بدر، ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر والسبي وسلب الأموال، فإن النبي ﷺ حَصّلَ من الغنائم في حُنين ما لم يقع في غيرها من الفتوحات والحروب، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الدنيوي وفي الآخرة عذاب النار.

ثم إن النبي ﷺ خيرهم بعد أن استأنا بهم بين الذرية والمال فاختاروا الذرية ففي البخاري من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ، وَأَحَبُّ الحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ: إما المَالَ وَإما السَّبْيَ**»، قَالُوا: فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فِي النَّاسِ، فَأَثْنَىٰ عَلَىٰ اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**أما بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ حَظِّهِ حَتَّىٰ نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ**»، فَقَالَ النَّاسُ: طَيَّبْنَا لَكَ ذَلِكَ، قَالَ: «**إِنَّا لاَ نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّىٰ يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ**»، فَرَجَعَ النَّاسُ، فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ: أَنَّهُمْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا.

وحصل النعم الكثيرة حتىٰ لربما أعطىٰ رسول الله ﷺ الرجل الغنم بين الجبلين، وتألف صفوان بن أمية بثلاثمائة من الإبل، وأعطىٰ عيينة بن حصن مائة من الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأبا سفيان بن حرب مائة من الإبل، وأعطىٰ عباس بن مرداس خمسين من الإبل ثم قال له عباس بن مرداس:

فَمَا كَانَ بَدْرٌ وَلَا حَابِسٌ ... يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ
أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ ... بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا ... وَمَنْ يُخْفَضِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

فأعطاه النبي ﷺ مائة أخرجه مسلم، وعن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لَمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَّمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يُعْطِ الأنصارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجِدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَهُ النَّاسُ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الأنصارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي**»، كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «**مَا يَمْنَعُكُمْ أن تجيبوا رَسُولِ اللهِ ﷺ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ؟ قَالَ: «لَوْ شِئْتُمْ قلتم كذا وكذا»**، قال: «**ألا ترضون أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وتذهبون بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ رِحَالِكُمْ؟ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرًا مِنَ الأنصارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكَتْ وَادِيَ الأنصارِ وَشِعْبَهُمْ، الأنصارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوْنِي عَلَىٰ الْحَوْضِ**» متفق عليه.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد وقعة حنين ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فيهديه للإسلام ويوفقه للاستقامة على أمر النبي عليه الصلاة والسلام، فتاب الله على كثير منهم وأتوا رسول الله ﷺ تائبين مسلمين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ يعفوا عن ذنوب التائبين ويتجاوز عما سلف وسبق ﴿رَّحِيمٞ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾.

يُخبر الله في هذه الآية عن نجاسة المشركين المعنوية التي لا تنفك عنهم، وإن غسلوها بماء البحار والأنهار، واستخدموا جميع الأشنان فنجاستهم لازمة، ولا يخرجون من هذه النجاسة إلا بدخولهم في دين الإسلام الحق؛ ولذلك قال النبي ﷺ في شأن المسلم: «**الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ**» متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ وقد استدل بعض العلماء بحديث: «**لَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلاَّ طَاهِرٌ**»، أي: إلا مؤمن مسلم، وليس معناه إلا متطهر متوضئ، وهذا هو القول الصحيح في المسألة.

﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ الحرم كله، ومن باب أولى أن لا يُمكن من دخول مسجد الكعبة، ﴿بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ وذلك أن البراءة وقعت في السنة التاسعة من الهجرة، وأرسل النبي ﷺ أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم ألحقه بعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقولوا في الناس: «**لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ**» أخرجه الترمذي، ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ﴾ فقرًا بسبب قلة التجارات ونحو ذلك، ﴿فَسَوۡفَ﴾ على التحقيق ﴿يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ الواسع، فالله هو الغني الحميد، الرزاق ذو القوة المتين، ﴿إِن شَآءَ﴾ أعطاكم وإن شاء منعكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بما يصلحكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وقدره.

۞ تُسمىٰ هذه الآية عند جماهير العلماء: بآية السيف وهي ناسخة عند بعضهم لجميع الآيات الدالة علىٰ الصبر علىٰ المشركين، وكقوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون:٦].

والصحيح: أن الآية علىٰ عمومها.

ولكن هل قتال الكفار لحرابتهم أم لكفرهم؟

الجواب: الذي رجحه شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم وغيرهم: أن قتال الكفار لحرابتهم لا لكفرهم؛ وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بقتال اليهود والنصارىٰ ومن إليهم من الكفار إلىٰ أن يدخلوا في الإسلام فإن أبا فإلىٰ أن يُعطوا الجزية، فإذا أعطوا الجزية بقوا علىٰ كُفرهم وقُبِلت منهم وكُفَ عنهم، فلو كان القتال علىٰ كفرهم لما قُبل منهم غير الإسلام، ولكن المراد: أن يعملوا بأحكام الإسلام التي حكم بها علىٰ من كان حاله مثلهم فيعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وهكذا إذا نقضوا العهد والميثاق بأي صورةٍ من صور نقض العهود والمواثيق تلحقهم المعرة، فإن قتلوا قُوتلوا، وإن سبَّوا النبي ﷺ أو القرآن أو سبُّوا الله عَزَّوَجَلَّ قبل ذلك انتقض عهدهم وميثاقهم، واستوجبوا حكم الله فيهم.

﴿قَاتِلُواْ﴾ جاهدوا ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ﴾ وهذا أمر من الله لرسول الله ﷺ ومن معه: أن يقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، قد يقول قائل: اليهود والنصارىٰ يؤمنون بالله وباليوم الآخر؟ نقول: هم يؤمنون بالله وباليوم الآخر لا كإيماننا الإيمان الذي أوجبه الله وشرعه، فقد زعموا أن عُزيرًا ابن الله، وزعموا أن المسيح ابن الله، وفي اليوم الآخر يزعمون أنهم لن يلبثوا في النار إلا قليلًا ثم يخلفهم أهل الإسلام في عقائد زائفة، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾ يمنعون ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فلا بد لدخول الإسلام أن يُحرم المرء ما حرمه الله ورسوله، وأن يستحل المرء ما أحله الله ورسوله، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: لا يتدينون لله بالإسلام، وهذا بيان لما تقدم أنه لو قال يهودي: أنا أتعبد لله بما أنزل علىٰ موسىٰ، أو قال نصراني: أنا أتعبد لله بما أُنزل علىٰ عيسىٰ نقول: هذا شرعٌ منسوخ وأصبحت بفعلك هذا لا تدين بدين الحق، والنبي ﷺ يقول: « **لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** » أخرجه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقاتلوا الكفار ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارىٰ، ﴿حَتَّى﴾ إلىٰ أن ﴿يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ وهو الخراج المضروب علىٰ رقابهم، ﴿عَن يَدٍ﴾ قهرٍ وذل، ﴿وَهُمْ صَاغِرُون﴾ أذلاء مقهورون، وقيل: بأنه يُعطي الجزية وهو قائم ويأخذها الساعي وهو جالس، وقيل: أن تكون يد الساعي من أعلىٰ، ويد اليهودي أو النصراني من أسفل.

والصحيح: أن (الصَّغَار): هو جريان أحكام الإسلام عليهم.

وقد اختلف العلماء فيمن تُؤخذ منه الجزية؟.

فذهب جمهورهم: إلىٰ أنها تؤخذ من اليهود والنصارىٰ لهذه الآية.

وذهب بعضهم: إلىٰ أنها تؤخذ من اليهود والنصارىٰ والمجوس؛ لما جاء أن عبد الرحمن بن عوف شهد عند عمر بن الخطاب: أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر أخرجه البخاري، وقد ذكروا أن المجوس كان لهم كتابًا.

وذهب بعض أهل العلم: إلىٰ أنها تؤخذ من جميع الكفار واستدلوا بحديث بُريدة عند مسلم، وفيه قال رسول الله ﷺ: «**وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَىٰ دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَىٰ الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ**

أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا».

وبهذا تعلم معنىٰ حديث: «**الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَىٰ عَلَيْهِ**»، أي لا بد أن يبقىٰ الإسلام عاليًا ولا يعلوه غيره من الأديان المحرفة المبدلة، وما يدعوا إليه أصحاب وحدة الأديان من أن الديانات الثلاث في معنىٰ واحد فهذا قول غير صحيح، ولا يُمكن أن يكون صحيحًا بحال؛ لأننا لو رضينا هذا القول لزم تخطئة الله عَزَّوَجَلَّ، وتخطئة رسوله ﷺ، وتخطئة الصحابة رضوان الله عليهم، ولزم أن ما نزل باليهود والنصارىٰ في الصدر الأول بسبب حرابتهم وبغيهم وإعراضهم عن دين رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان فعل غير صحيح هذا لازم لا ينفك عنه، الذين يدعو إلىٰ مساواة اليهودي والنصراني بالمُسلم، وقد ذكرت في كتابي: «**الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان**» أكثر من مائة وعشرين لازمًا يلزم دعاة الوحدة والتقارب بين الأديان، مثل حديث: «**لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ**» متفق عليه عن أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذا يُلغىٰ عند أصحاب وحدة الأديان، ومثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ﴾ [الحشر:٢٠]، ومثل حديث: «**وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**»، لأنهم حكموا لليهودي والنصراني بأنه صاحب دين صحيح.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣١﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ أي: طائفة منهم، ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ رجل منهم أتاه الله علم التوراة وهذا موافق لقول النصارى في دعوى البنوة أيضًا للمسيح، وقد رد الله عَزَّوَجَلَّ هذه التهمة في مواطن من كتابه، كقوله عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣]، فإن اتخاذ الصاحبة والولد ينافي القيومية والحياة الأزلية الأبدية، إذ أن الذي يحتاج

إلى الولد المخلوق الذي يموت ويضعف فيحتاج إلى من يرثه ويسانده ويقوم عليه، ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يولد حتى يحتاج إلى أن يلد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، ومن أقبح الدعاوى وأسوئها: دعوى الولد لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٠-٩٢]، وذُكِر في شأن عزير: أنه الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، فجدد لبني إسرائيل التوراة، والله أعلم.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾ هذا اسمهم الشرعي: النصارىٰ فلا يُسمون بالمسيحيين؛ نسبة إلىٰ المسيح، فالمسيح يبرأ منهم ومن أفعالهم، ﴿الْمَسِيحُ﴾ قيل: لأنه ممسوح أخمص القدمين وقيل غير ذلك، ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ تعالىٰ الله عن قولهم، فقد أخبر الله عنه أنه: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠]، فلم يقل أنا ابن الله، وجاء في الشهادة: «**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ**» متفق عليه عن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: دعوىٰ البنوة لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يقولونه بألسنتهم بغير علم، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يشابهون، ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: أن النصارىٰ ضاهوا قول اليهود، واليهود ضاهوا قول أُناس من قبلهم فإن هذا أمر تتابع عليه كثير من الكفار، ومنهم كفار مكة إذ زعموا أن الملائكة بنات الله عَزَّوَجَلَّ، تعالىٰ الله عن قولهم ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لعنهم وطردهم من رحمته؛ لسوء صنيعهم، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرفون عن الحق بعد قيام الحجة عليهم.

ومن شأن اليهود والنصارى أنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾ علماء اليهود ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ عباد النصارى؛ ولهذا قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا ففيه شبةٌ من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبة بالنصارى، ورحم الله عبد الله بن المبارك إذ يقول:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّيْنَ إِلاَّ المُلُوْكُ ... وَأَحْبَارُ سَوْءٍ وَرُهْبَانُهَا

﴿أَرْبَابًا﴾ أطاعوهم في معصية الله واستحلوا ما حرم الله، ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وقد جاء عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ، فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ﴾** [التوبة:٣١]، **حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»** قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**» أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، في سنده غُطيف بن أعين ليس بمعروف، ولكن الآية تشهد لهذا الحديث.

﴿وَ﴾ اتخذوا ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ إلهًا من دون الله وأشركوا ونددوا به، وهو بريءٌ من هذا الأمر حيث يقول: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن﴾ [المائدة:١١٦].

﴿وَمَا أُمِرُوٓاْ﴾ اليهود والنصارىٰ ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ﴾ يوحدوا ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾وهو الله عَزَّوَجَلَّ لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته فهو المتفرد بالخلق والمُلك والتدبير كما أنه المتفرد بالعبادة الحقة، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ عما ادعاه في حقه المبطلون من الصحابة والولد، ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ينددون، ويضاهون، ويمثلون، وغير ذلك من المعاني.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾.

﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا الصنيع وهذا الفعل القبيح، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ﴾ الإسلام ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بأقوالهم وألسنتهم تكذيبًا، ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ يُعلي دينه ويُظهر كلمته، فعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ، وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ**» أخرجه أحمد (٢١٢٢٠)، ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ أبغض ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ هذا الأمر وفعلوا

الأفعال الكثيرة التي تؤدي إلى ضعف الإسلام وضعضعته، فيبقى الإسلام عزيزًا منيعًا ظاهرًا قويًا.

﴿هُوَ الَّذِى﴾ أي: الله، ﴿الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ العلم النافع، ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ العمل الصالح، ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ يعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جميع الملل السابقة، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون﴾ لذلك، فكرههم وبغضهم وشدتهم لا تقدم ولا تؤخر، فعن المقداد بن الأسود قال النبي ﷺ: «**لا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، إما يُعِزُّهُمْ اللهُ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُونَ لَهَا**» أخرجه أحمد (٢٣٨٦٥).

وهذه الآية تكون إلىٰ حيث شاء الله، ففي حديث عائشة في مسلم (٢٩٠٧) قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون﴾ [التوبة:٣٣]، أَنَّ ذَلِكَ تامًا قَالَ «**إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّىٰ كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَىٰ مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِمْ**».

۞ وفي هذه الآية دليل علىٰ أن ظهور الدين يكون بأمرين: بالعلم والعمل.

وعن معاوية وغيره قال النبي ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاسِ**» متفق عليه، فإذا أردت ظهور الدين، فعليك بملازمة: العلم والعمل، إذ أن العلم بدون عمل حُجه علىٰ الإنسان كما قال النبي ﷺ: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**» أخرجه مسلم (٢٢٣) عن الحارث الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وغضب الله علىٰ اليهود لهذا السبب: عَلِموا فما عَملوا، وضل النصارىٰ لأنهم: عَمِلوا ولم يعلموا، وكان ظهور الطائفة المنصورة الفرقة الناجية بأنهم: عَلِموا وعملوا.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾.

يذكر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية حال أحبار اليهود ورهبان النصارىٰ مع الأموال، فإنهم يظهرون للناس الزهد والتزهد، وهم في واقع الحال يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، وفي قصة سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: فَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا، فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ، اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ، حَتَّىٰ جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ، قَالَ: وَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ، ثُمَّ مَاتَ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَىٰ لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا، قَالُوا: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟، قَالَ: قُلْتُ أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ كَنْزِهِ، قَالُوا: فَدُلَّنَا عَلَيْهِ، قَالَ: فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، قَالَ: فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا، قَالَ: فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللهِ لَا نَدْفِنُهُ أَبَدًا فَصَلَبُوهُ، ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ» أخرجه أحمد (٢٣٧٣٧).

وليس كلهم لكن النادر لا حُكم له، ﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ﴾ علماء اليهود، ﴿وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ عباد النصارى، ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ من الرشاوى ونحوها، فيحرفون الكَلِم عن مواضعه ويكتبون بأيديهم ما يحلون به الحرام ويحرمون به الحلال إرضاءً لأهل الباطل، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ يصرفون الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ الكنز: هو المال الذي لا تؤدىٰ زكاته علىٰ تفسير ابن عمر وغيره، أما ما أُودي زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونًا وإن كان مدخرًا، والذي عليه أبو ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أن المال المدخر يُعتبر من المكنوز، ولهذا كان في قوله: يا معشر قريش والله لا أسألكم دنيا ولا أستفتيكم عن دين، وما وقع بينه وبن معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من المصارمة بسبب هذا القول، وقد أخذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بما قاله النبي ﷺ: «**إِنَّ الْمُكْثِرِينَ هُمُ**

الْمُقِلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا فِي حَقٍّ»، لكن الصواب ما عليه بقية الصحابة رضوان الله عليهم: من أن المال إذا أُديت زكاته فليس بكنز وما لم يؤدَ زكاته فهو كنز ويكون حاله ما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَىٰ بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَىٰ سَبِيلَهُ، إما إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإما إِلَىٰ النَّارِ»**، الحديث أخرجه مسلم(٩٨٧)، وفي الرواية الأخرىٰ: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا:** ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾**،الآيَةَ**» أخرجه البخاري (١٤٠٣) ومسلم(٩٨٧).

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: النفقة الواجبة من الأنفاق علىٰ أنفسهم وعلىٰ أبنائهم ومن تجب النفقة عليه، والأنفاق لنصرة دين الله إذا تعين ذلك، ولا يؤدون الزكاة المفروضة فيها، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موجع يوم القيامة.

واذكر: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾ يسخن ويوقد ﴿عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وقد صُفِحت صفائح نسأل الله السلامة والعافية، ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ وذلك أن صاحب المال إذا جاء الفقير يسأله أول ما يتغير وجهه، ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ وذلك أن صاحب المال أول ما يبدأ في الإعراض عن الفقير بالالتفاف، ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ وذلك أنه يوليه دُبره فيقع الكي في ظهره، فالجزاء من جنس العمل، ﴿هَٰذَا﴾ جزاء ﴿مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ من الأموال ولم تنفقوها في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿فَذُوقُوا۟﴾ هذا العذاب الشديد، ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: بسبب ما كنتم تكنزون.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ أي: عدد شهور السنة، ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي: المحرم، وصفر، وربيع أول، وربيع الآخرة، وجماد الأولى، وجماد الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القَعدة، وذو الحِجة، ﴿فِى كِتَابِ اللهِ﴾ في حُكم الله، ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والمراد به: الشهور الهلالية: وهي الشهور التي يعتد بها المسلمون في صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أمورهم، وبالشهور الشمسية تكون السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا وربع يوم، والهلالية تنقص عن ثلاثمائة وستين يومًا بنقصان الأهلة والغالب أنها تكون ثلاثمائة وأربعة وخمسين يومًا، ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي رجب بين جمادى وشعبان، وذو القَعدة، وذو الحِجة، ومحرم، ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الحساب المستقيم، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بالقتال ونحوه، كما أن الظلم لا يجوز في جميع السنة إلا أن هذه الشهور خُصت بمزيد نهي حتى أن القتال المباح كالجهاد إذا استعطت ألا يكون فيها فهو أحسن، فإن وقع فيها على وجه يُعلى فيه الكتاب والسنة فلا حرج، ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ جميعًا وعامة، فيهن أوفى وغيرهن ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ كما أنهم يقاتلونكم جميعًا فيهن أو في غيرهن إذا تعين القتال.

❖وذهب بعضهم إلىٰ أن هذه الآية منسوخة.

 والصحيح: عدم النسخ.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ معية نصر وتأييد، وهو علىٰ عرشه ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ التأخير ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ وذلك أن الكفار كانوا يُنسِؤون مُحرم إلىٰ صفر ويقدمون

صفر فيستحلون ما يحرم عليهم في الشهر الحرام، وهذا من أسوأ أنواع النسا قيل: هو من النسيان، وقيل: المتروك، وقيل: تأخير تحريم شهر إلىٰ شهر آخر وهذا هو الصحيح، وهذا الاستحلال زيادة في كفرهم بسبب استحلال ما حرم الله، ﴿يُضَلُّ﴾ يزداد ﴿بِهِ﴾ ضلال وبعد ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فإنهم ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ أي: في عام يجعلون محرمًا بدلًا عن صفر، وفي عام يجعلون محرمًا في موطنه، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ العُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ مِنْ أَفْجَرِ الفُجُورِ فِي الأَرْضِ، وَيَجْعَلُونَ المُحَرَّمَ صَفَرًا، وَيَقُولُونَ: إِذَا بَرَا الدَّبَرْ، وَعَفَا الأَثَرْ، وَانْسَلَخَ صَفَرْ، حَلَّتِ العُمْرَةُ لِمَنِ اعْتَمَرْ، قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ مُهِلِّينَ بِالحَجِّ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً، فَتَعَاظَمَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الحِلِّ؟ قَالَ: «**حِلٌّ كُلُّهُ**» متفق عليه.

والسبب في ذلك: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ يوافقوا ﴿عِدَّةَ﴾ عدد ﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ من الشهور وهي أربعة أشهر، ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ شهر محرم، ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ﴾ زينت لهم الشياطين ذلك، وخذلهم الله عَزَّوَجَلَّ ليزدادوا بُعدًا وضلالًا؛ لعلمه بحالهم، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ لا يوافق ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لعلمه أنهم ليسوا أهلًا للهداية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ أخرجوا ﴿فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الجهاد، ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: لزمتم أرضكم مستشعرين ثقل السفر والخروج، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وما فيها من الزخارف والشهوات كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿زُيِّنَ

لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤]، الآية، ﴿مِنَ الآخِرَةِ﴾ كيف ترغبون في الدنيا وتزهدون في الآخرة التي هي خيرٌ وأبقى كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧]، وقال: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي تتسابقون إليه، ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لا أثر له بل لا يكاد يُذكر، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**» أخرجه مسلم(٢٨٠٧).

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ إلا تخرجوا للجهاد، تحضيض للخروج مع النبي ﷺ، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بتسليط أعدائكم عليكم وفعلًا حين ترك المسلمون الجهاد سُلِّطَ عليهم أعداؤهم يسومونهم سوء العذاب، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: خيرًا منكم وأطوع لله عَزَّوَجَلَّ، قيل: هم أبناء فارس وأبناء اليمن كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:٥٤].

لكن المراد بأهل فارس أولئك الذين نصر الله بهم الدين من أهل الحديث وحملته، وأما إيران الأنَّ فهي دولة رافضية لا تنصر دينًا بل هي من أسباب ذلة وضعف المسلمين، والله المستعان، ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ تنقصونه ﴿شَيْئًا﴾ بإعراضكم؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو القادر الغني القوي لا يُقهر ولا يُغلب ولا يلحقه فقرٌ ولا قلة، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء في جميع شأنه وتقريره.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ محمدًا ﷺ، ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ في موطنٍ لم يكن له ناصر سواه؛ وذلك حين الهجرة، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة، ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ غار ثور جنوب مكة وليس إلا هو وأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أبي

بكر: ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾ لا تبتأس فسيأتي فتح الله، وذلك حين قال أبو بكر: لو أبصر أحدهم تحت قدميه لرآنا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ معية حفظ ونصر وكلاءة، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ الطمأنينة وهدوء البال وصفاء الصدر، ﴿عَلَيۡهِ﴾ على رسوله ﷺ ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ ملائكة يثبتونه بتثبيت الله له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ جهل الشرك ومرادهم أسفل من كل شيء، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ التوحيد، ﴿هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ الظاهرة، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾، لا يُغلب، ﴿حَكِيمٞ﴾ في فعله.

وقد جاء قص شأن الهجرة في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الصحيحين: قَالَتْ: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، طَرَفَيِ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَقِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لاَ يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ، عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلاَةِ وَالقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلاَنَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَىٰ ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِما أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَإِما أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لاَ أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَىٰ بِجِوَارِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ: «**إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لاَبَتَيْنِ**» وَهُمَا الحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ إِلَىٰ المَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَلَىٰ رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» فَحَبَسَ أَبُو

بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ وَهُوَ الخَبَطُ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ، قَالَ: عُرْوَةُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ**» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ - بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ - إِحْدَىٰ رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بِالثَّمَنِ**». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَىٰ فَمِ الجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا، يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَىٰ عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، مَوْلَىٰ أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حَتَّىٰ يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ، هَادِيَا خِرِّيتًا، وَالخِرِّيتُ المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ العَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَىٰ دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ» متفق عليه.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤١﴾.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ محرضًا عباده على الجهاد في سبيل الله: ﴿انْفِرُواْ﴾ اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله، ﴿ٱنفِرُواْ﴾ شبانًا، ﴿وَثِقَالًا﴾ شيوخًا، وقال ابن عباس: نشاطًا وغير نشاط، وقيل: ركبانًا ومشاة، بمعنى أن الإنسان يجاهد في سبيل الله على استطاعته وقدرته، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾ قدم الأموال؛ لأنَّ الجهاد لا يقوم إلا بها، فيحتاج الإنسان إلى شراء السلاح وإلى إعالة أُسر المجاهدين وغير ذلك مما يحتاجه المجاهدون في حال جهادهم، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ وفي بعضها يُقدم الأنفس على الأموال وكلٌ بحسبه، فعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**» أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، ﴿فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله، وقد سُئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً ويقاتل حميةً ويقاتل رياءً أي: ذلك في سبيل الله قال: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**» متفق عليه عن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: خروجكم للجهاد في سبيل الله، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حُكم الله القدري والشرعي.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

يذكر ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال المنافقين مع رسول الله ﷺ حين دعاهم للخروج إلى غزوة تبوك، وكانت عادة النبي ﷺ أن يوري بغزواته، ولكن لما كانت غزوة تبوك بعيدة المسافة وعدوها شديد تحتاج إلى العدد والعدة، أخبرهم النبي ﷺ بالحال حتى يستعدوا للنفرة في سبيل الله، إلا أن المنافقين كانوا أصحاب أعذار، فيقول الله عنهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي: هذا السفر، ﴿عَرَضًا﴾ غنيمة ﴿قَرِيبًا﴾ قريبة المتناول، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسط بين القريب والبعيد أو قريبا هينًا، ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ وخرجوا معك بغية المال والغنيمة لا إخلاصًا لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ أي: المسافة، فالشقة: السفر البعيد؛ لما يلحق الإنسان من المشقة والعناء، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**» متفق عليه، ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ لرسول الله ﷺ كذبًا وزورًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤]، يقولون ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ إلى الجهاد ولكنهم ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ بهذه الأيمان الفاجرة إذ أن اليمين الغموس من الكبائر وتدع الديار بلاقع، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في أيمانهم ودعواهم عدم الاستطاعة والقدرة.

﴿عَفَا﴾ تجاوز ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾ يا محمد ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ بسبب إذنك لهم في البقاء والقعدة خلف من خرج للجهاد، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ يظهر ﴿لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ بإقامة الحُجة، ﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ إذ لم تكن لهم حجة وعذر صحيح.

﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾ في البقاء والقعود والتخلف ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ بل يحرصون على الخروج فإن بعضهم كان يبكي حزنًا ألا يجد ما ينفقه وما يكون سببًا في إخراجه للجهاد، والداعي لهم إلى ذلك إيمانهم بالله عَزَّوَجَلَّ ورجاؤهم لوعده وخوفهم من وعيده، ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ ببذلها في أوجه الخير والجهاد بشراء العُدد والمراكب، ﴿وَأَنفُسِهِمۡ﴾ يبذلونها لإعلاء كلمة الله، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ المراقبين المنقادين لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ يا محمد، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ربًا، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ موعدًا، ﴿وَٱرْتَابَتْ﴾ شكت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ في خبر الله ووعده ووعيده، ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ في شكهم، ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ لشدة حيرتهم؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ**» أخرجه مسلم (٢٧٨٤) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهم في كل خبرٍ وأمرٍ على هذا الحال في الأخبار يُكذبون وفي الأوامر يكسلون ويفترون.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟﴾ أي: المنافقون، ﴿ٱلْخُرُوجَ﴾ في سبيل الله والغزو، ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ وتجهزوا بما يلزم من المركب والعتاد والعُدة، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ﴾ فيه: إثبات صفة الكراهة لله عَزَّوَجَلَّ وهي من الصفات الفعلية، ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ خروجهم؛ لعلمه أنهم يثبطون وأنهم يفتنون في كل أحوالهم، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ منعهم وحبسهم عن الخروج، ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟﴾ أي: تخلفوا عن الجهاد بالقدر الكوني لا الشرعي، ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ ممن أُذِنَ له شرعًا كالمرضى والنساء والزمنى ومن إليهم.

﴿لَوْ خَرَجُوا۟﴾ المنافقون ﴿فِيكُم﴾ يا معاشر أهل الإسلام، ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فسادًا وشرًا بالتثبيط والتخويف، وربما انهزموا في المعركة فيُسبب لكم ذلك بعض القلق، والهزيمة، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟﴾ أسرعوا، ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ وسطكم، ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ بنقل الكلام من هاهنا وهاهنا، وفعلًا فإن الذين خرجوا مع النبي ﷺ من المنافقين منهم من أراد قتل النبي ﷺ، واتفقوا على أنه إذا عاد يلتقونه في العقبة وينفرون ناقته حتى يسقط ويموت، ولكن فضحهم الله وسلمه، فعن أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعَقَبَةِ؟ وَبَيْنَ حُذَيْفَةَ بَعْضُ مَا يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ كَمْ كَانَ أَصْحَابُ الْعَقَبَةِ؟ قَالَ فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: أَخْبِرْهُ إِذْ سَأَلَكَ، قَالَ: كُنَّا نُخْبَرُ أَنَّهُمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ خَمْسَةَ عَشَرَ، وَأَشْهَدُ بِاللهِ أَنَّ اثْنَيْ عَشَرَ مِنْهُمْ حَرْبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، وَعَذَرَ ثَلَاثَةً، قَالُوا: مَا سَمِعْنَا مُنَادِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا عَلِمْنَا بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ، وَقَدْ كَانَ فِي

حَرَّةٍ فَمَشَى فَقَالَ: «إِنَّ الْمَاءَ قَلِيلٌ، فَلَا يَسْبِقْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ» فَوَجَدَ قَوْمًا قَدْ سَبَقُوهُ، فَلَعَنَهُمْ يَوْمَئِذٍ» أخرجه مسلم (٢٧٧٩).

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ﴾ مطيعون ﴿لَهُمْ﴾ ربما من غير أن يكونوا منهم ولكن لما بينهم من القرابة ولعدم علمهم بنفاقهم وإلا فإن الصحابة أكمل المؤمنين ولاءً وبراءً، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكافرين والمنافقين.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ﴾ طلبوا ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ ورجوها، ﴿مِن قَبْلُ﴾ وذلك في يوم أحد حيث رجعوا من الطريق لقصد هزيمة المسلمين، وفي يوم الأحزاب حيث تمالأوا مع اليهود وغيرهم، ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ أجالوا ﴿لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ الأعذار فمنهم من يقول: ﴿ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة:٤٩]، ومنهم من يقول: ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب:١٣]، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر وبان، ﴿وَظَهَرَ﴾ علا وارتفع ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ دين الله،﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لرفعته، بل يحبون إذا انتصر الكُفر ويشمئزون إذا انتصر الإسلام فما أسوأ ما هم عليه من الحال.

﴿وَمِنْهُم﴾ من أصناف المنافقين، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن﴾ في القعود وعدم الخروج؛ ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ ببنات بني الأصفر ويُذكر أن رجلًا من المنافقين قال: يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بالنساء وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن أتأذن لي في القعود، ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ فتنة الشرك والكُفر، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يصلونها وبئس المصير.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾.

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا محمد، ﴿حَسَنَةٌ﴾ خيرٌ، وخصبٌ، ونصرٌ، وعزٌ وغير ذلك، ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتتغير وجوههم وتحزن قلوبهم ويظهر ذلك في أحوالهم، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ هزيمة

ونحوها، ﴿يَقُولُواْ﴾ مادحين لرأيهم: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا﴾ بالحزم في القعود عن الغزو ﴿مِن قَبۡلُ﴾ الخروج، ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن رسول الله ﷺ ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ مسرورون بما حصل لمحمد ﷺ من الهزيمة ونحوها، وهذا خُلقٌ ذميم إذ يكون في وسطك ويتمنى هزيمتك، ويكون في جيشك ويفرح بهزيمتك، فلا أسوأ من المنافقين يتمنون نصرة أهل الكفر على الإسلام، ومع ذلك أبقى الله ما يسوؤهم.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح المحفوظ وقدره علينا، ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ ناصرنا وحافظنا ويتولى جميع أمرنا، ﴿وَعَلَى اللهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ يعتمد في جميع شأنهم ﴿الْمُؤْمِنُون﴾ المنقادون.

﴿قُلْ﴾ لهم يا معاشر المنافقين، ﴿قُلۡ هَلۡ﴾ تنتظرون، ﴿بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ إما النصر والغنيمة، وإما الشهادة وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: «**تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا الجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ، أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ إِلَى مَسْكَنِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**»، ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ﴾ ننتظر، ﴿بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إحدى السوءتين إما أن يصيبكم ﴿بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ في الدنيا فيهلككم به وإما أن يسلط الله عَزَّوَجَلَّ عليكم المؤمنين، وقد كان ربنا عَزَّوَجَلَّ قد أغرى نبيه بهم ثم لم يقع منه القتال لهم حيث قال: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٠-٦١]، ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ انتظروا، ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ منتظرون لوعد الله للمؤمنين بالتمكين، ووعيده على الكافرين والمنافقين بالقطيعة والخذلأنَّ ونحوهما.

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿أَنفِقُواْ﴾ في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿طَوْعًا﴾ عن رضى ومحبة، ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ عن كراهة، ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ والسبب: سوء السريرة وعدم الإخلاص، ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ كافرين.

ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن السبب في عدم قبول صدقتهم ونفقاتهم مع أن الصدقات والنفقات من أعظم ما يُقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾ أي: حال بينهم وبين ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ مع كثرتها إن وجدت، ﴿إِلَّآ﴾ بسبب ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ فلم يخلصوا لله عَزَّوَجَلَّ ولم يتابعوا رسول الله ﷺ، والكافر حاله كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة والمفروضة، ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ ولولا أن يتفطن الناس لهم ما خرجوا وما صلوا، ولهذا كانوا يتخلفون عن صلاة العشاء والفجر لعدم التفطن لهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ**» متفق عليه.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ يخرجون الزكاة ونحوها ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ مبغضون لذلك حيث يعدونها مغرمًا ومصيبة، ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ أي: لا يكون السبب في سرورك ما عندهم من الأموال والأولاد، ولا تتطلع إليها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر:٨٨]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بهذه الأموال والأولاد التي فتنهم بها، ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما يقع فيها من المصائب والنقم والمحن إما بموت الولد أو بفقد المال، ﴿وَتَزْهَقَ﴾ تخرج ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ ويلحقهم الموت، ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فيُعذبون في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ لك يا محمد ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ ظاهرًا باطنًا وهم في قولهم كاذبون، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي: في عقائدهم وأخلاقهم وتمسكهم بدينهم، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ يخافون فيظهرون الإسلام ويبطنون الكفر والإجرام.

﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ أي: المنافقون، ﴿مَلْجَـًٔا﴾ حرزًا وحصنًا ومعقلًا أو مهربًا، ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ كهوف في الجبال يأوون إليها، ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ نفقًا وموضعًا في الأرض يدخلونه ويتحرزون فيه، ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ بأدبارهم هربًا منكم، ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يُسرِعون في هروبهم وجنوحهم عن الحق، وهذا من أعظم الوصف لحال المتملقين والمنافقين في كل زمنٍ وحين.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين، ﴿وَمِنْهُم مَّن﴾ يُعيبك: ﴿فِى الصَّدَقَٰتِ﴾ في تفريقها، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟﴾ همهم وبغيتهم المال، إن أعطوا فرحوا وإن منعوا سخطوا ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

فعن جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ بَيْنَا هُوَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ النَّاسُ، مُقْبِلًا مِنْ حُنَيْنٍ، عَلِقَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ الأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّىٰ اضْطَرُّوهُ إِلَىٰ سَمُرَةٍ، فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ العِضَاهِ نَعَمًا، لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلًا، وَلاَ كَذُوبًا، وَلاَ جَبَانًا**» أخرجه البخاري (٢٨٢١).

وفي الصحيحين: عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَيْنَما النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ، جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ ذِي الخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ، فَقَالَ: اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ**»، قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ، قَالَ: «**دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا، يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ فِي قُذَذِهِ فَلاَ**

يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي رِصَافِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَضِيِّهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ، أَوْقَالَ: ثَدْيَيْهِ، مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأَةِ، أَوْقَالَ: مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يَخْرُجُونَ عَلَىٰ حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا، قَتَلَهُمْ، وَأَنَا مَعَهُ، جِيءَ بِالرَّجُلِ عَلَىٰ النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة:٥٨].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ المنافقون، ﴿رَضُواْ﴾ قبلوا، ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من الصدقات والنفقات، ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافينا، وهنا تنبيه الحسب قيده بالله؛ لأنها عبادة خاصة به، والعطاء أطلقه في حق الله عَزَّوَجَلَّ وحق رسوله الله ﷺ، ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ﴾ يرزقنا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الواسع، ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ يؤتينا مما أنعم الله به عليه، ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ راجعون ندعوه أن يوسع علينا ما ضاق من معائشنا ونحو ذلك.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

بين الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية سهمان الصدقات المفروضات وجعلها في ثمانية أصناف، فلا يجوز أن تُصرف في غيرهم ولا أن تتجاوزهم، والزكاة تؤخذ من أغنياء المسلمين ممن بلغ ماله النصاب وتُدفع إلىٰ فقرائهم ومن في بابهم كما في حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين بعث رسول الله ﷺ معاذًا إلىٰ اليمن: «**فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**» متفق عليه.

وتكون الزكاة من تسعة أصناف: في النقدين: الذهب والفضة، وفي الغراس: الزبيب والتمر، و في الزروع الحبوب: الحنطة والشعير، وفي بهيمة الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم علىٰ تفاصيلٍ يأتي في بابه إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ وهذا حصرٌ لها، ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.

❁ **وقد اختلف العلماء في صفة الفقير والمسكين.**

فقيل: الفقير: الذي لا يسأل، والمسيكين: الذي يسأل، وقيل: الفقير: المحتاج الزمِن، والمسكين: الصحيح المحتاج، وقيل: الفقير: من لا مال له ولا حرفة، والمسكين: من كان له مال وحرفة لا تبلغ حاجته، وقيل غير ذلك.

❁ والصحيح: أن الفقير والمسكين قد يُطلق بعضهما علىٰ الآخر إذا افترقا، ويقع بينهما الافتراق إذا اجتمعا فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَىٰ النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًىٰ يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ، فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ**» متفق عليه.

وهذان الصنفان من أشهر مصارف الزكاة، ولا يُشترط فيهما عدم وجود المال بالكلية بل إذ لم يكن لهما ما يكفيهما تتعين عليهما الزكاة، فربما كان له بيتًا وأرضًا ولكن لا مال له لأكله وشُربه، أو ربما كان له مالٌ لأكله وشربه لكنه يعجز عن إجار السكن والعلاج ونحوه أو ربما عجز عن الزواج، ولو أن المسلمين قاموا بما أمر الله به من أداء الزكوات إلىٰ أهلها لرأيت فقراء المسلمين في حالٍ حسن؛ ولكن كثيرًا من الناس يتلاعبون بالزكوات.

❁ **وقد اختلف العلماء فيما يُعطاه هذا الصنف، فذهب بعضهم إلى أنه يُعطى خمسين درهمًا، على ما جاء عن ابن مسعود: مع أنه لا يثبت، وما جاء عن رجل من بني أسد:** «مَنْ سَأَلَ وَلَهُ أُوقِيَّةٌ أَوْ عَدْلُهَا فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافًا»، أخرجه أبو داود (١٦٢٧).

❁ ويُعطىٰ ما يكفيه سنة علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم.

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم السعاة الذين يعملون لجمعها وتفريقها، و عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ نَاسًا مِنَ الْمُصَدِّقِينَ يَأْتُونَنَا فَيَظْلِمُونَنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْضُوا مُصَدِّقِيكُمْ**» قَالَ جَرِيرٌ: «**مَا صَدَرَ عَنِّي**

مُصَدِّقٌ، مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِلَّا وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ» أخرجه مسلم (٩٨٩)، قال الضحاك ومجاهد: لهم الثُمن من الصدقة.

والعامل عليها يعطىٰ ولو كان هاشميًا علىٰ الصحيح، فيُؤخذ أجر سعايته وعمله.

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الذين يحبب إليهم الإسلام، أو يثبت في قلوبهم.

❁ **وهم قسمان:**

- **الأول**: صنفٌ من أهل الإسلام يُتألفون؛ لتثبيت قلوبهم علىٰ الإيمان.
- **الثاني**: صنفٌ من أهل الكف

وهم قسمان:

- **الأول**: من يُرجىٰ إسلامه فيُعطىٰ من الزكاة عله أن يدخل في الإسلام.
- **الثاني**: قومٌ من أولي البطش والشدة فيُعطون من الزكاة؛ لدفع ضرَّهم عن الإسلام.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: أصحاب المكاتبات من الأرقاء والإماء، فيُعانون علىٰ فك رقابهم، ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ أي: أصحاب الديون والحمالات فيُعطون من الزكوات ما يقضون به ديونهم وما يرفعون به حمالاتهم.

فعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: أَقِمْ حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: « **يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ، تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَ قِوَاما مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّىٰ يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَ قِوَاما مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا** » أخرجه مسلم(١٠٤٤).

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: كل ما هو من الخير فهو في سبيل الله حتىٰ جوز أصحاب هذا القول بناء المساجد وإجراء الطُرق وبناء المدارس من أموال الزكاة.

والصحيح: أن المراد بقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الجهاد، ولا بأس أن يُعان طُلاب العلم من هذا الباب فهم في سبيل الله؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّىٰ يَرْجِعَ**» أخرجه الترمذي (٢٦٤٧).

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع سُمي بابن السبيل؛ لكثرة أسفاره:

فيُعطىٰ من الزكاة ما يوصله إلىٰ بيته ومطلوبه.

فتلخص لنا: أن الأصناف الزكوية:

منهم من يعطىٰ لفقره.

ومنهم من يُعطىٰ مع غناه.

ومنهم من يُعطىٰ بغير حد محدود.

ومنهم من يُعطىٰ بقدر حاجته فقط.

فالعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، والغارمون، وفي سبيل الله، وابن السبيل، تدفع لهم وإن كانوا أغنياء، ومن كان في سبيل الله وابن السبيل فيُعطىٰ بقدر حاجته، فما فَضُل عنها فليس له، ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ حُكم من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾، في تصريف شؤونهم.

وذهب بعضهم: إلىٰ أن زكاة كل فرد توزع علىٰ الأصناف الثمانية وليس بشرط، وإنما تُجمع ويُعطىٰ كل صنف ما يحتاج إليه، ولا تُخرج الزكاة من البلد إلىٰ بلدٍ آخر إلا لحاجة، فعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن زيادًا، بَعَثَ عِمرانَ بن حُصينٍ علىٰ الصدقة، فلما رجع قال لعِمران: أينَ المالُ؟ قال: وللمالِ أرْسَلْتَني؟ أخَذْنَاها مِن حيثُ كنا نأخُذُها علىٰ عهدِ رسولِ الله ﷺ، ووضعناها حيثُ كنا نضعُها علىٰ عهدِ رسولِ الله ﷺ» أخرجه أبو داود (١٦٢٥).

هذا من حيث أصنافها وإما من حيث نصابها، فنصاب الذهب عشرون دينارًا، أي ما يعادل خمسة وثمانون جراما، إذا حال عليه الحول يخرج ربع العشر، ومثله نصاب الفضة من حيث إخراج ربع العشر، ونصابها خمسة أواق أي ما يعادل خمسة وتسعون وخمسمائة جرام، وأما نصاب الإبل فإذا بلغت خمس وحال عليها الحول ففيها شاة، وهكذا إلىٰ أربعة

وعشرين ففي كل خمس شاة، ويأتي بقية تفاصيلها في حديث أنس، وأما الغنم فنصابها أربعون شاة ففيها شاة إذا حال عليها الحول، ويأتي تفصيل ما زاد علىٰ ذلك في الحديث، وأما البقر فإذا بلغت ثلاثين ففيها تبيع أو تبيعة علىٰ تفصيل يأتي في الأحاديث، وأما الحبوب والغراس فإذا بلغت النصاب وهي خمسة أوسق فيخرج عشرها إن كانت تسقىٰ بالمطر ونصف عشرها إن كانت تسقىٰ بالسانية.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ لَهُ: «هَذِهِ فَرِيضَةُ الصَّدَقَةِ الَّتِي فَرَضَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَالَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا رَسُولَهُ:

فِي أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ مِنَ الْإِبِلِ فَمَا دُونَهَا الْغَنَمُ: فِي كُلِّ خَمْسٍ شَاةٌ، فَإِذَا بَلَغَتْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ إِلَىٰ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ فَفِيهَا بِنْتُ مَخَاضٍ أُنْثَىٰ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَابْنُ لَبُونٍ ذَكَرٌ.

فَإِذَا بَلَغَتْ سِتًّا وَثَلَاثِينَ إِلَىٰ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ فَفِيهَا بِنْتُ لَبُونٍ أُنْثَىٰ.

فَإِذَا بَلَغَتْ سِتًّا وَأَرْبَعِينَ إِلَىٰ سِتِّينَ فَفِيهَا حِقَّةٌ طَرُوقَةُ الْجَمَلِ.

فَإِذَا بَلَغَتْ وَاحِدَةً وَسِتِّينَ إِلَىٰ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ فَفِيهَا جَذَعَةٌ.

فَإِذَا بَلَغَتْ سِتًّا وَسَبْعِينَ إِلَىٰ تِسْعِينَ فَفِيهَا بِنْتَا لَبُونٍ.

فَإِذَا بَلَغَتْ إِحْدَىٰ وَتِسْعِينَ إِلَىٰ عِشْرِينَ وَمِائَةٍ فَفِيهَا حِقَّتَانِ طَرُوقَتَا الْجَمَلِ.

فَإِذَا زَادَتْ عَلَىٰ عِشْرِينَ وَمِائَةٍ فَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ بِنْتُ لَبُونٍ، وَفِي كُلِّ خَمْسِينَ حِقَّةٌ.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا أَرْبَعٌ مِنَ الْإِبِلِ فَلَيْسَ فِيهَا صَدَقَةٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا.

وَفِي صَدَقَةِ الْغَنَمِ سَائِمَتِهَا إِذَا كَانَتْ أَرْبَعِينَ إِلَىٰ عِشْرِينَ وَمِائَةِ شَاةٍ شَاةٌ.

فَإِذَا زَادَتْ عَلَىٰ عِشْرِينَ وَمِائَةٍ إِلَىٰ مِائَتَيْنِ فَفِيهَا شَاتَانِ.

فَإِذَا زَادَتْ عَلَىٰ مِائَتَيْنِ إِلَىٰ ثَلَاثِمِائَةٍ فَفِيهَا ثَلَاثُ شِيَاهٍ.

فَإِذَا زَادَتْ عَلَىٰ ثَلَاثِمِائَةٍ فَفِي كُلِّ مِائَةٍ شَاةٌ.

فَإِذَا كَانَتْ سَائِمَةُ الرَّجُلِ نَاقِصَةً مِنْ أَرْبَعِينَ شَاةٍ شَاةً وَاحِدَةً فَلَيْسَ فِيهَا صَدَقَةٌ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا.

وَلَا يُجْمَعُ بَيْنَ مُتَفَرِّقٍ وَلَا يُفَرَّقُ بَيْنَ مُجْتَمِعٍ خَشْيَةَ الصَّدَقَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ خَلِيطَيْنِ فَإِنَّهُمَا يَتَرَاجَعَانِ بَيْنَهُمَا بِالسَّوِيَّةِ.

وَلَا يُخْرَجُ فِي الصَّدَقَةِ هَرِمَةٌ وَلَا ذَاتُ عَوَارٍ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الْمُصَّدِّقُ.

وَفِي الرِّقَةِ رُبُعُ الْعُشْرِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا تِسْعِينَ وَمِائَةً فَلَيْسَ فِيهَا صَدَقَةٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا، وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ مِنَ الْإِبِلِ صَدَقَةُ الْجَذَعَةِ.

وَلَيْسَتْ عِنْدَهُ جَذَعَةٌ وَعِنْدَهُ حِقَّةٌ، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ الْحِقَّةُ، وَيَجْعَلُ مَعَهَا شَاتَيْنِ إِنِ اسْتَيْسَرَتَا لَهُ، أَوْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا.

وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ الْحِقَّةِ وَلَيْسَتْ عِنْدَهُ الْحِقَّةُ، وَعِنْدَهُ الْجَذَعَةُ، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ الْجَذَعَةُ، وَيُعْطِيهِ الْمُصَّدِّقُ عِشْرِينَ دِرْهَمًا أَوْ شَاتَيْنِ» أخرجه أبو داود (١٥٦٧) وجاء في البخاري مفرقًا في (١٤٤٨) و(١٤٥١) و(١٤٥٣) و(١٤٥٤) و(١٤٥٥) و(٢٤٨٦) و(٦٩٥٥).

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «**بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ ثَلَاثِينَ بَقَرَةً تَبِيعًا أَوْ تَبِيعَةً، وَمِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ مُسِنَّةً، وَمِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عَدْلَهُ مُعَافِرِ**» أخرجه البخاري (١٤٩٦).

وعن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسَاقٍ مِنْ تَمْرٍ وَلَا حَبٍّ صَدَقَةٌ**» أخرجه مسلم (٩٧٩).

﴿وَمِنْهُمُ﴾ أي: من المنافقين، ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ ﷺ بالقول والفعل وسوء الظنون، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ أي: يتلقف كل يما يُلقىٰ إليه، وهذا من أشد الطعن معناه: أنه لا يتثبت وأنه مُسير من غيره، وما قالوا هذا القول إلا لفساد قلوبهم ولسوء سريرتهم، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: مستمع خير وصلاح لكم لا مستمع شر وفساد، وفي قراءة: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، يعني: أن يسمع منكم ويصدقكم خيرٌ لكم من أن يُكذبكم ولا يقبل قولكم، ثم رد قولهم بأنه أُذن بقوله: بل ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يؤمن بالله ربًا ويصدق المؤمنين؛ لأنَّ المؤمن صادقٌ في قوله، وفعله، واعتقاده، والله عَزَّوَجَلَّ إنما أمرنا بالتثبت في أخبار الفاسقين ورد أخبار الكذابين، وأما المؤمن الصادق فلا، ﴿وَرَحْمَةٌ

﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ رحمة يُعلمهم الإيمان والحكمة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ من المنافقين والكافرين، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع في الدنيا بالقتل ونحوه، وفي الآخرة في جنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ومن صنع المنافقين أنهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ كذبًا، ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ وذلك أنهم أهل رياء لا يهمهم رضا الله بقدر ما يهمهم أن يرضى عنهم الناس، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ لأنه إذا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ صلحت دنياهم وأخراهم، ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسله، ولكنهم كانوا على خلاف ذلك.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ﴾ أي: المنافقون الذين يخافونكم ويسعون في إرضائكم، ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ﴾ يخالف المحادة: المخالفة، ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا﴾ يوم القيامة، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الفضيحة التي لا بعدها، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران:١٩٢]، فأشد.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يخاف، ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ آيات على رسول الله ﷺ، ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ تخبرهم ﴿بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الحقد والعداوة البغضاء للمؤمنين، ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ على التحدي لا على الإباحة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ مُظهرٌ، ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ ما تتخوفون إظهاره، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد:٢٩-٣٠].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ أي: سألت المنافقين الذين وقعوا في الطعن في الصحابة والنبي الكريم، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ معتذرين ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾ نتلهى بالحديث قطعا للطريق، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿أَبِٱللَّهِ﴾ ربكم، ﴿وَآيَاتِهِ﴾ كتابكم، ﴿وَرَسُولِهِ﴾ إليكم، ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وتسخرون.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ عن هذا الفعل القبيح بما هو أقبح منه، ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾.

۞ وهذا دليل علىٰ أن الاستهزاء بالدين كُفر أكبر مُخرج من الملة.

وقد قال شيخ الإسلام في قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾، دليل علىٰ أن بعضهم لم يكن من المنافقين؛ لأنهم لو كانوا كلهم من أهل النفاق لقال: قد كفرتم بعد إسلامكم.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ ونقبل منهم التوبة، ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ أخرىٰ؛ لتوغل النفاق فيهم، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ كافرين.

📖 سَبَبُ النُّزُولِ: وعند ابن أبي حاتم (١٠٠٤٧) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ يَوْمًا: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاءِ لَا أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ قال عبد الله: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَنْكُبُهُ الْحِجَارَةُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾».

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أي: على دين واحد وطريق واحد،، يتناصرون، وفي هذا قطع المؤمنين عن مودتهم والطمع فيهم، ومن صفاتهم أنهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ قد تمالأوا عليه رضًا ومحبةً وأمرًا، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ قد تمالأوا عليه بُغضًا وردًا، ﴿وَيَقْبِضُونَ﴾ يُمسكون ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الأنفاق في أوجه الخير بمنع الزكوات الواجبات والنفقات المتعينات، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ تركوا طاعته، ﴿فَنَسِيَهُمْۗ﴾ تركهم الله عَزَّوَجَلَّ، من توفيقه وهدايته، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكافرون.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ﴾ يصلونها فبئس المصير، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْۚ﴾ أي: يكفيهم ما فيها من العذاب الأليم والخزي المبين، ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم.

۞ وهذا من الأدلة علىٰ أبدية النار.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي أن حالهم كحال الذين من قبلهم من المعرضين من الأمم السالفة، ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ في أبدانهم وأموالهم، ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾ تمتعوا، ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ بما معهم من القوى والأموال، أمَا استمتعتم بخلاقكم بما معكم من القوى والأموال، ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: بأموالهم وما معهم من عرض الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢]، ﴿وَخُضْتُمْ﴾ جادلتم ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ﴾ كما جادلوا والمعنى أنكم وقعتم فيما وقعوا فيه من الجدال، والخوض بالباطل الذي يؤدي إلى البدع والخرافات والشركيات،

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتۡ﴾ بطلت وذهبت ﴿أَعۡمَالُهُمۡ﴾ وهذا دليل على كُفرِهم، ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فلم تبقَ لهم حسنة وإنما تلبسوا بالخسران المبين، ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الكافرون الذين خسروا الدنيا والآخرة.

❁ وفي هذه الآية جمع الله عَزَّوَجَلَّ بين سببين من أسباب ضلال الأمم السابقة، ومن يوافقهم من هذه الأمة:

الأول: سبب الشهوات، وبه وقعوا في المعاصي والسيئات.

الثاني: سبب الشبهات، وبه وقعوا في البدع والخرافات.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾ يعني: المنافقين، ﴿نَبَأُ﴾ خبر، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من العصور السالفة، ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ وهو أول رسول إلى أهل الأرض، ﴿وَعَادٖ﴾ أُرسل إليهم هودٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وكانوا في أرض الأحقاف، ﴿وَثَمُودَ﴾ أُرسل إليهم صالحٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ حيث أرسله الله عَزَّوَجَلَّ إلى قومه والنمرود ومن إليه، ﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾ يعني: قوم شعيب، ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِ﴾ قوم لوط، سموا بهذا الاسم؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعل عاليها سافلها، وكل هؤلاء الذين تقدم ذكرهم: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ بالآيات الواضحات فكذبوا بذلك وأبوا الأنقياد لشرع الله عَزَّوَجَلَّ فأهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ ودمدم عليهم، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ لكمال عدله، ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، بشركهم وذنوبهم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠].

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾.

ولما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ حال المنافقين وما حل بالأمم السالفة من الكافرين ذكر حال المؤمنين كالمرغب في سلوك هذا السبل والمحضض عليه فقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: ولايتهم في الدين ينصر بعضهم بعضًا ويحفظ بعضهم بعضًا، ومن صفاتهم أنهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة والخير، فالمعروف: كلمة عامة، فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ**» أخرجه مسلم، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعصية وكلما أنكره الشرع، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا بسلامتهم من البدع ومن معرات الفتن، وفي الآخرة بالسلامة من العذاب المهين، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب ﴿حَكِيم﴾ في فعله.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ووعده لا يُخلف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩]، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ بيوتًا وقصورًا ومنازل فيها الخير العظيم من مأكولات، ومطعومات، وملبوسات، ومشروبات، ومنكوحات وغير ذلك، ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: بساتين خُلد وإقامة، يقال: عَدنَ بالمكن إذا أقام به، ويذكرون أنها أوسط الجنة وقيل: أعلى الجنة، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ يرضى عنهم وهذا هو الفضل العظيم لحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَفَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الكبير الذي ما بعده فوز حيث سلموا من المرهوب وحصلوا المطلوب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بسيفك ولسانك، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بلسانك إذ لم يقاتلهم النبي ﷺ بسيفه، ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في الكلام؛ لشدة حالهم فلا ينفع فيهم المعروف ولا يستفيدون من رفقٍ وغيره، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ مستقرهم في الآخرة، ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ مصيرهم حيث أنهم في عذاب دائم واصب وتسمى هذه الآية بآية السيف، وقد جاء مثيلها في سورة التحريم، قال عطاء: فنسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: المنافقون، ﴿مَا قَالُوا﴾ يوضح ذلك ما أخرجه ابن جرير في تفسيره: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظل شجرة فقال: «**يَجِيئُكُمْ رَجُلٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَلَا تُكَلِّمُوهُ**»، فَجَاءَ رَجُلٌ أَزْرَقُ، فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ دَعَاهُ، فَقَالَ: «**عَلَامَ تَشْتُمُنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟**» قَالَ: كَمَا أَنْتَ حَتَّى آتِيَكَ بِهِمْ، قَالَ: فَذَهَبَ، فَجَاءَ بِهِمْ، فَجَعَلُوا يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا، وَمَا فَعَلُوا، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ﴾ [المجادلة:١٨]، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي: بسبهم لمحمدٍ ﷺ فإن سبه كفرٌ أكبر مخرج من الملة، ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ إذ كانوا يُظهرون الإسلام ويُبطنون النفاق، ولهم أقوال دون هذه قالها عبد الله بن أُبيّ، وفي هذا تصبير الدعاة إلىٰ الله إن حصل لهم شيء من السب أو الشتم أو التنقص ونحو ذلك، وقد قال ابن الوزير:

مـــا ســـلم الله مـــن بريتـــه ... ولا نبـــي الهـــدىٰ فكيـــف أنـــا؟

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من قتله ﷺ أو من قتل الذي بلغ عليهم وفضحهم، وقد هموا بقتل النبي ﷺ في غزوة تبوك فسلمه الله، ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ ما كرهوا علىٰ محمد ﷺ وأصحابه: ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ففتحت الفتوح ومُصرت الأمصار، وكان أحدهم ينال الغنيمة كما ينالها المسلم لكن هؤلاء لا يعرفون المعروف لأهله، فالمنافقون من أشد الناس بُعدًا عن رد الجميل والمعروف:

ومن يَصنَعِ المَعرُوفَ في غَيْر أهلهِ ... يُـلاقِ كمـا لاقَـىٰ مجيـرُ أم عَـامرِ

فهم أهل لؤمٍ وخسة وضعة مهما أُكرموا لا ينفع معهم:

إِنْ أَنْتَ أَكرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكتَهُ وَإِن أَنتَ أَكرَمتَ اللَئِيمَ تَمَرَّدا

﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ من نفاقهم وكُفرهم، ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ يعرضوا عن الإيمان ويلتزموا طريق الكُفر والعصيان: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بأخذ أموالهم إن ظهرت عداوتهم وحاربوا المسلمين، أو بالخزي حيث أخزاهم الله وأصبحوا لا يستترون عن بليةٍ ورزية، ﴿وَالآخِرَةِ﴾ بالعذاب المهين في النار بل إنهم في دركها، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥]، ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في المدينة، أو أنه عام، ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يتولاهم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ بل هم مخذولون ظاهرًا وباطنًا.

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: المنافقون: ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ أعطىٰ العهد والميثاق ونذر، ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ وسع علينا في الرزق والخير، ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لنبذلن المال في أوجهه من الصدقات والهبات، ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في تعاملنا مع هذا المال، والواقع أنه إذا رزقهم الله كان منهم أسوأ الحال، فلا يشكرون الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عطيته، ولا يُنفقونها حيث أمرهم وشرع لهم.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وفتح عليهم الأموال، ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ منعوا الواجبات، ﴿وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ تولوا عن التزام أمر الله في حال إعراضهم، وهذا حال كثير من الناس،

فمنهم من يعزم علىٰ الصدقات والهبات وعلىٰ الطاعات والقربات، فإذا ما أعطاهم الله عَزَّوَجَلَّ وإذا بهم يتنكرون لنعمة الله.

❖ ويذكر أهل العلم في هذا الموطن حديثًا لا يثبت وفيه نكارة: من أن رجلًا من الصحابة كان يُقال له: ثعلبة، عاهد الله إذا آتاه من فضله علىٰ النفقة، فلما فتح الله عليه تخلف عن الجمعة والجماعة ومنع الزكاة، ثم جاء تائبًا إلىٰ رسول الله ﷺ فأبىٰ رسول الله ﷺ أن يقبله، ثم جاء تائبًا إلىٰ أبي بكر فأبىٰ أبو بكر أن يقبله، ثم جاء إلىٰ عمر فأبىٰ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يقبله، وهذه فيها نكارة؛ لأنَّ التوبة تهدم وتجب ما قبلها مع ما فيها من الضعف ففيها: علي بن زيد بن جدعان: متروك، ومعان بن رفاعة: لين الحديث.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ أخلفهم الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي﴾ مستمرا لا يرتفع، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ إلىٰ أن يموتوا علىٰ هذا الحال فلا توبة لهم، ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ وكان سبب ذلك؛ خلفهم للوعد ونقضهم للعهد، والسيئة تجر إلىٰ أسوأ منها، والحسنة تدل علىٰ خير منها، ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ في أقوالهم ومعتقداتهم، والكذب من أظهر علامات النفاق فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ كما في الصحيح: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ**» متفق عليه.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ﴾ أي: المنافقون ومن إليهم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما يخفون في مجالسهم، ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يُظهرون من شأنهم مع بعضهم، وذكر علمه بالسر؛ ليبين أنه لما سواه أعلم، فالسر: ما يكون في صدر أحدهم، والنجوى: ما يكون بين اثنين أو ثلاثة ونحو ذلك، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ لا تخفى عليه خافية.

في البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ، كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مُرَائِي، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا، فَنَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ﴾، الآيَةَ» متفق عليه.

﴿الَّذِينَ﴾ أي: المنافقون، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يعيبون المتصدقين بالقول أو بالفعل، ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ هو الذي يتطوع بنوافل العبادة، وقد يُطلق علىٰ من يأتي بالفريضة، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عام في الرجال والنساء، ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ الواجبات والمندوبات، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ للصدقة والبذل ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طاقتهم؛ لقلة ذات اليد، ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ يستهزئون ﴿مِنْهُمْ﴾ وهذه طريقة أهل النفاق إن أتيت بخيرٍ قالوا: هذا يُرائي لا تصدقوهم، وإن أتيت بقليل قالوا: الله غني عن هذا، ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾.

۞ إثبات صفة السخرية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهي صفةٌ فعلية من صفات المقابلة، وإما من فسر سخرية الله: بالمجازاة فهذا تفسير باللازم وهو خلاف منهج السلف، فالذي ينبغي علينا أن نفسر الصفة بما تدل عليه من إثباتها ثم نذكر لازمها إذا احتجنا إلىٰ ذلك.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع في الآخرة، وفي الدنيا قد يُسلط الله عليهم الهموم والغموم وضيق الصدور، وهذه الأقوال التي تصدر من المنافقين تصدر عن حسدٍ وبغضٍ للإسلام وأهله.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ للمنافقين، ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وإن تركت الاستغفار لهم فالحال سواء، ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنهم كفار والكافر لا يغفر الله ذنبه وهل العدد مراد أم أن العدد علىٰ التكثير، حتىٰ وإن استغفرت لهم أكثر من سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، فالعرب كانوا إذا أرادوا المبالغة يقولون: لو تفعل سبعين، كقوله: «**إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحُكم الذي انطبق عليهم: ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الكافرين.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟

وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المتخلفون عن غزوة تبوك، وهم المتروكون في المدينة، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بقعودهم، ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعد رسول الله ﷺ وقيل: المعنى مخالفة لرسول الله ﷺ، ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مع أن جهادهم خيرٌ لهم لو كانوا يفقهون، ﴿وَقَالُواْ﴾ منفرين لغيرهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ، ﴿لَا تَنفِرُواْ﴾ لا تخرجوا ﴿فِى ٱلْحَرِّ﴾ فإن غزوة تبوك كانت في شقة بعيدة وفي حر شديد، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ من حر الدنيا فادفع الحر الكثير بالحر القليل، ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ يعلمون ولكنهم في بُعد عن ذلك، ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ في الآخرة، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ ردك من غزوة تبوك، ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: ممن تخلف منهم، ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ مرة أخرى وفي غزوة تالية، ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾ في سفرٍ وغزوة؛ لما عُلِم من فسادهم، ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ لأنهم مخذولون مُخذِّلون، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]، ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ بالتخلف عن الغزو في سبيل الله ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في غزوة تبوك، ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ مع الخوالف من النساء، والصبيان، ومع الذين تخلفوا بغير عُذر.

﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ من المنافقين، ﴿مَّاتَ أَبَدًا﴾ لأنَّ الصلاة على الكافر لا تجوز، ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ أي: مُصليًا مستغفرًا لما تقدم، والسبب في النهي عن الاستغفار لهم ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ماتوا على كُفرهم.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا: ما أخرجه الشيخان: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ لَمَّا تُوُفِّيَ، جَاءَ ابْنُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْطِنِي قَمِيصَكَ أُكَفِّنْهُ فِيهِ، وَصَلِّ عَلَيْهِ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ، فَقَالَ: «**آذِنِّي أُصَلِّي عَلَيْهِ**»، فَآذَنَهُ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ

يُصَلِّيَ عَلَيْهِ جَذَبَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَلَيْسَ اللهُ نَهَاكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ؟ فَقَالَ: «**أَنَا بَيْنَ خِيَرَتَيْنِ**» قَالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾.

محصل الجواب: أن عمر فهم من قوله: ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]، منع الصلاة عليهم، فأخبره النبي ﷺ أن لا منع، وأن الرجاء لن ينقطع اهـ من الفتح.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ تفرحك يا محمد ومن كان معك، ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ الكثيرة، ﴿وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ الذين حصّلوهم في الدنيا، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بما يلحقهم من النقص ونحو ذلك، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ بأن يموتوا على الكفر.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ آية فيها، ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ لغزو الكافرين، ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أهل الغنى والجِدة والسعة، وكان الأولى أن تكون المبادرة منهم، ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا﴾ اتركونا ﴿نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ مع المتخلفين في رحالهم.

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ من النساء والأطفال، وهذا لدناءتهم وسفالة طريقتهم وإلا فإن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما كان من المنزلة بمكان حين أمره النبي ﷺ أن يبقى على المدينة قال: يا رسول الله تجعلني مع الخوالف، فقال له رسول الله ﷺ: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**» متفق عليه، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بسبب هذا الصنيع منهم، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعقلون؛ ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ خلاف هؤلاء، ﴿جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في سبيل الله، فبذلوا المُهج ونفيس الأموال، وهم في

ذلك في غاية السرور والبهجة والأنشراح، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ الحسنات العظيمات في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ بسبب حُسن أعمالهم جزاهم الله بذلك.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: في الآخرة، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهَارُ خَالِدِينَ﴾ أبدًا﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الواسع.

۞ وهذه الآية دليلٌ علىٰ وجود الجنة الآن.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٠ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٩٣ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ المقصرون ﴿مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ وفي قراءة : ﴿والمُعْذُرُونَ﴾ بالتخفيف يعني: الذين يأتون بالأعذار، أو أنهم رهطٌ قد عُذِروا لكن السياقة تدل على أنهم قعدوا بدون عذر شرعي، ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ في العقود والتخلف ﴿وَقَعَدَ﴾ تخلف ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ موجع، وهؤلاء أشد من الطائفة الأولى، الطائفة الأولى جاءوا إلى النبي ﷺ يعتذرون بأعذار واهية، وأما هؤلاء عندهم جُرأة على الله وعلى رسوله ﷺ بحيث قعدوا بدون عُذرٍ.

ثم ذكر الله عَزَّوَجَلَّ المعذورين حقًا وصدقًا: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ الزَّمْنَى والمشايخ والعجزة والصبيان، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ أصحاب الأمراض المعهودة، ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ الفقراء، ﴿حَرَجٌ﴾ مأثم من تأخرهم وقعودهم، ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ﴾ في مغيبهم وأخلصوا له الإيمان والعمل، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ كانوا صادقين أيضًا مع رسوله ﷺ، وقعودهم كان عن عذر، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مريد الخير والمتعاون عليه ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ إلى العقوبة والذم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ متجاوز عنهم.

۞ ويستدل بعموم هذه الآية: علىٰ أن أي مُحسن في مسألة من المسائل لا يلحقه تبعات، فلو أرسلت مع أحدهم برسالة وحملها بدون إجارة فإن ضاعت منه لا يلزمه الضمان، وأما إذا أرسلت مع من يأخذ الإجارة فيلزمه الضمان.

﴿وَلَا﴾ سبيل لك ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ﴾ جاءوك، ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ تأتيهم بالدواب التي يُحملون عليها، ﴿قُلْتَ﴾ لهم متعذرًا ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ﴾ أي: رجعوا، ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ بكاءً ومنهم: العرباض بن سارية، ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ مع أنهم قد عُذروا من الله ومع ذلك لشدة طاعتهم لله ومحبتهم لرسول الله ﷺ شق عليهم الحال حتى لحقهم البكاء، وهذا دليل على عظيم الشدة التي نزلت بهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ العقوبة والمؤاخذة، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في التخلف، ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ يستطيعون الخروج، ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ مع النساء والصبيان، ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ينفعهم ولا ما يضرهم، وهذا لسوء اعتقاداتهم وسوء فعالهم.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزوتكم، ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم، ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾ أخبرنا ﴿ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ صفاتكم وأفعالكم مما يدل على كذبكم، ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ هل تقع منكم التوبة حقًا

أم أنكم على نفاقكم، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ ترجعون ﴿إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه بسوء الحال.

ومن طريقهم أنهم: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ الأيمان البالغة، ﴿إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ رجعتم، ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: لتصفحوا وتتجاوزا عنهم، وعدم المطالبة لهم بسوء صنيعهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يعني: اتركوهم وشأنهم لا تنفع معهم موعظة ولا يستجيبون لدعوة ولا ينزجرون عن باطل، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ نجس كحال الكفار، حيث قال الله لأ فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يوم القيامة، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعملون.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي: إذا رجعتم إليهم، ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ مع ما هم فيه من الباطل، ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بسبب ما أظهروا لكم من الخير، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ لعلمه بهم ظاهرًا وباطنًا.

و ذكر ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذه الآية: أن عبد الله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يقول: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلىٰ الله، وصدقته حديثي فقال كعب: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة:٩٥]، إلىٰ قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة:٩٦].

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ

عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ أي: أهل البدو، ﴿أَشَدُّ﴾ أعظم ﴿كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ من أهل الحضر؛ لما في قلوبهم من الغلظة والشدة والجفاء، ﴿وَأَجۡدَرُ﴾ أخلق وأحرى، ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ لبعدهم عن سماع القرآن؛ وعدم حضورهم أماكن الذكر، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في قلوب خلقه، ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما فرض من شرائعه.

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ﴾ من: للتبعيض، ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي: إذا أنفق شيئًا مما أوجبه الله عَزَّوَجَلَّ عليه يعتبر ذلك مغرمًا وكلفة بما لا استطاعة له عليه، بينما المؤمن إذا أنفق في سبيل الله ينشرح صدره ويعتبر ذلك طاعةً ومبرة، ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ ينتظر ﴿بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾، صروف الزمان التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ حيث يهلكون على الكفر والنفاق فيلحقهم الضرر في الدنيا والآخرة، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيم﴾، بأفعالهم.

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ﴾ صنفٌ آخر، ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وهؤلاء هم أهل الإيمان والإسلام مثل: أسلم، وغُفار، وجهينة، ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تقربهم من الله ويرفع الله لهم بها الدرجات، ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ أي: دعوات الرسول يطلبونها ويرجون بركتها، ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ﴾ وسيلة ﴿لَّهُمۡ﴾ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد أمر نبيه أن يستغفر لمن هاجر إليه، ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ وهذا وعد على التأكيد، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر الذنب ﴿رَحِيم﴾ فيما يأتي من الأعمال فيوفق ويُسلم، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**أَسْلَمُ وَغِفَارٌ وَشَيْءٌ مِنْ جُهَيْنَةَ ومُزَيْنَةَ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَمِيمٍ وَأَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ وَهَوَازِنَ وغَطَفَانَ**».

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ ممتدحا خلص المؤمنين من الصحابة والتابعين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ في الإسلام والإيمان وإلى الخيرات والمبرات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة:١٠-١١]، وإن كان أولئك قد سبقوا حالًا ومقالًا فما زال ميدان السباق حاضرًا فما عليك إلا أن تبادر بالطاعات والقربات والمبرات، ومن أعظم أسباب السبق: التأسي بالسابقين الأولين الذين أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بعدم المشاقة لهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء:١١٥].

﴿مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: الذين هاجروا من بلدانهم وأوطانهم وأموالهم إلىٰ الله ورسوله ﷺ، ﴿وَالأنصارِ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ﴾ [الحشر:٩]، وهم الأوس والخزرج نصروا النبي ﷺ بأموالهم وأنفسهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ أي: من أهل الإيمان والإسلام في كل زمن وحين، لكن بشرط: الإتباع بإحسان، ومن الإحسان: الدعاء لهم والترحم عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر:١٠]، ولما ترجم الحافظ لعمر بن سعيد حين غزىٰ مكة قال: ليس من الصحابة ولا من الذين اتبعوهم بإحسان، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ وهذا خبرٌ ليس في غير الصحابة رضوان الله عليهم حتىٰ وإن وجدت بعضهم يقول: الإمام أحمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، إنما هو من باب الدعاء والرجاء، وأما الصحابة فخبر الله المؤكد: أنه قد رضي عنهم وعن أفعالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: يوم القيامة.

۞ وهذا دليل علىٰ أن الجنة موجودة الأن، وفي قراءة ابن كثير: ﴿مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارِ﴾، وهذه القراءة أشهر أي: تجري فيها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمِ﴾.

۞ وهذه الآية من أشهر الأدلة علىٰ وجوب ملازمة منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ أثنىٰ عليهم وأثنىٰ علىٰ طريقتهم ومن سار علىٰ سيرهم، ووعدهم بالخير العظيم وأخبر أن الفوز في هذا السبيل.

ولذلك قال ابن عبد البر كما في جامع بيان العلم وفضله: من ترك سبيلهم عامدًا ضل، ومن تركه جاهلًا زل، فلا يمكن أن يكون العبد علىٰ صراط مستقيم وطريق قويم وهو مخالف للصحابة الكرام في عقيدتهم، وأفعالهم، وأقوالهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، بفهمهم وعملهم بالقرآن والسنة.

وإننا لنجد انشراحًا في صدورنا، وطمأنينة في قلوبنا، وصلاح حالٍ في أعمالنا وأقوالنا؛ لمتابعتنا لهم وإلا فإن الذين سلموا أنفسهم إلىٰ أهوائهم وعقولهم صاروا هكذا وهكذا، تشعبت بهم الآراء والأفكار ومُزقوا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء:٨٢]، فلا أبرك علىٰ المسلمين من سلوك منهج السالفين من الصحابة والتابعين إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ اصطفاهم لنصرة نبيه ولتبليغ دينه، وقد قال النبي ﷺ في وصفهم: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» متفق عليه عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وإذا رأيت من يطعن في صحابة رسول الله ﷺ فاتهمه علىٰ الإسلام، فإنهم قوم بهت لا خير فيهم، وفساد ظاهرهم دليل علىٰ فساد باطنهم.

﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ حول المدينة ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ أي: من مزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم، وغِفار، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: ومن الأوس والخزرج منافقون، ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: تمرنوا عليه وصار شعارهم ودثارهم، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أنت يا محمد، ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لأنَّ الله بكل شيء عليم.

۞ وهذا دليل علىٰ أن النبي ﷺ لم يعلم جميع المنافقين وإنما علم بمن أعلمه الله إياه.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قيل: المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا، وعذاب الآخرة في الأُخرىٰ، وقيل: عذاب القبر في الأخرىٰ، وإقامة الحدود عليهم في الدنيا، وقيل: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام، وقيل: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والأخرىٰ عذاب القبر، ولا يُبعد أنهم يُعذبون مرتين في القبر والآخرة، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ يرجعون ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب النار وبئس المصير.

﴿وَآخَرُونَ﴾ من أهل المدينة ومن الأعراب، ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أقروا، ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ بخطاياهم، ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ من التوبة والاستغفار والعمل الصالح، ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ ومنه: تخلفهم عن رسول الله ﷺ، ونحو ذلك ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ لما علم من حال صدقهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ متجاوز عمن تاب وأناب ﴿رَّحِيمٌ﴾ موفق لهم وفعلًا تاب الله عَزَّوَجَلَّ على كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

﴿خُذْ﴾ يا محمد ومن قام مقامه من الخلفاء والأمراء ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ الزكاة المفروضة، ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ بها من ذنوبهم، ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ يصلح حالهم وتُرفع درجاتهم وتنمو أموالهم، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ادعُ لهم واستغفر لهم، فعن عبد الله بن أبي أوفى أنه أتى بصدقته إلى رسول الله ﷺ فقال: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**» متفق عليه ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ دعاءك ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: رحمة وطمأنينة وسكون تثبت به القلوب، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصلحهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ الذين بُعثت فيهم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ ويتجاوز عن سيئاتهم ويرفع درجاتهم، ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ بيمينه.

ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ عَبْدٍ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا يَصْعَدُ إِلَىٰ السَّمَاءِ إِلَّا طَيِّبٌ، فَيَضَعُهَا فِي حَقٍّ، إِلَّا كَانَ كَأَنَّمَا يَضَعُهَا فِي يَدِ الرَّحْمَنِ، فَيُرَبِّيهَا لَهُ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، أَوْ فَصِيلَهُ**» متفق عليه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ لمن تاب وأناب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لعباده المؤمنين.

﴿وَقُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ يا معاشر من اعتذرتم بهذه الأعذار، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ وصدقكم، ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يرون ذلك منكم، فإن كان باطنكم خلاف ظاهركم كانت الفضيحة في الدنيا والآخرة، ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ بعد موتكم وبعثكم، ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الأعين، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما ظهر للأعين، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يُخبركم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في هذه الدنيا من خير أو شر، ويجازي كل واحد على عمله.

﴿وَآخَرُونَ﴾ من المعتذرين ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ مؤخرون ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في شأنهم وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، فأرجأ الله عَزَّوَجَلَّ وأخر أمرهم، ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بسبب تخلفهم عن نصرة رسول الله ﷺ، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن علم صدقهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بحال الإنسان، ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعله وأمره.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم أخبر الله بما حصل عند قفول النبي ﷺ من تبوك حيث كان قد واعد بعض المنافقين الذين بنوا مسجدًا يزعمون أنهم يتعبدوا لله عَزَّوَجَلَّ فيه، ومنهم: أبو عمر الفاسق، وكان قصدهم من بناء هذا المسجد المكر والكيد بالإسلام وأهله، ففضحهم الله وأمره بإحراقه: ﴿وَالَّذِينَ﴾ من المنافقين ﴿اتَّخَذُواْ﴾ بنوا، ﴿مَسْجِدًا﴾ ظاهرًا وباطنًا يكون ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا﴾ بنوه لمضارة المؤمنين ولتفريق جماعتهم، ولإظهار ما يبيتون من الكفر والمكر بالإسلام وأهله، ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يوقعون بينهم العداوة والبغضاء والشحناء؛ لأنَّ الأبدان تتنافر بسبب تنافر القلوب.

﴿وَإِرْصَادًا﴾ يعني: مكان مُرصد لكل من حارب الله ورسوله يجتمعون فيه ويتمالؤون فيه، ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: لمن خالف دين الله ودين رسوله ﷺ أو حارب الله بمحاربة أوليائه، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بناء مسجد الضرار، وهو مستمر علىٰ هذا الفعل، ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ يقسمون ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ بهذا البناء، ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الفعلة الحسنة من الرفق بالمسلمين والتوسعة علىٰ أهل الضعف والعجز عن المسير إلىٰ مسجد رسول الله ﷺ، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ يُخبر، ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم واعتقادهم.

﴿لَا تَقُمْ﴾ لا تصلِ ﴿فِيهِ﴾ يا محمد، ﴿أَبَدًا﴾ على التأبيد، ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهو مسجد النبي ﷺ ومسجد قباء، ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ فكلاهما أُسس على التقوى، وفي حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النبي ﷺ سُئل: أي المسجدين أُسس على القوى فأخذ كفًا من حصى فضرب بها على الأرض وقال: «**هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ**» متفق عليه.

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ للصلاة والقيام والاجتماع مع المؤمنين، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ وهؤلاء أهل قباء، وقد سأل النبي ﷺ عن تطهرهم فأخبروا أنهم يتطهرون بالماء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ قُبَاءَ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] «قَالَ: كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ» أخرجه أبو داود، وجاء: أنهم يجمعون بين الماء والحجارة، ولم يثبت، ولو جُمِعَ بينهما

فحسن؛ لأنَّ الحجر يُزيل العين والماء يُزيل الأثر، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ من الأحداث والجنابات والنجاسات وكذلك من الذنوب والمعاصي البليات.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ في قراءة: ﴿أُسِّسَ﴾، ﴿بُنْيَٰنَهُۥ﴾ أي: المسجد الذي أُسس: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ طاعة ورضى، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ وهو هائر ساقط مسجد الضرار، ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يريد بناء هذا المسجد كالبناء على شفير جهنم، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين والمنافقين المعرضين.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ﴾ لهذا المسجد الذي هدمه النبي ﷺ، ﴿ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ وشيدوا، ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ شكًا ونفاقًا في قلوبهم، يحسبون أنهم كانوا في بنيانه محسنين وهم كانوا على إساءة ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ وهذا يكون بالموت، فهم لا يزالون في شك حتى يلحقهم الموت والهلكة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

يقول عَزَّوَجَلَّ مُخبرًا عن الصفقة الرابحة بين المؤمنين وبين ربهم إذ لا صفقة أربح منها فهي مبايعة جزاؤها الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والشراء قد يُطلق بمعنى البيع، والبيع قد يُطلق بمعنى الشراء، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ أي: أبدانهم وما فيها من القوى ونحو ذلك، ﴿وَأَمْوَٰلَهُم﴾ التي حصلوها وأنفقوها في الخير، ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: أن جزاء هذه الصفقة الرابحة الجنة من المؤمن النفس والمال ومن الله عَزَّوَجَلَّ الجنة، لكن شرط هذا البيع والشراء أن يكون على ما يأتي: ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ أي: يقاتلون الكافرين ومن في حكمهم جهادًا، ﴿فِى سَبِيلِ اللهِ﴾ لأعلاء كلمة الله، ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ المخالفين، ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ هم بإزهاق أنفسهم في سبيل الله فينالون الشهادة، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: أن هذا الشراء والبيع وعدًا من الله عَزَّوَجَلَّ عليه

حقًا لازمًا وهو حقٌّ أوجبه الله على نفسه تفضلا وهذا الوعد، ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ التي أنزلها على موسى، ﴿وَالْأَنجِيلِ﴾ الذي أنزله على عيسى، ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ الذي أنزله على محمد ﷺ؛ لعظيم شأن هذا الوعد وعظيم نفعه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ ميثاقه ووعده ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُخلف وعده ولا يُنقض عهده، وفي حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ**» متفق عليه، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ يا معاشر المؤمنين، ﴿بِبَيْعِكُمُ﴾ بمعاوضتكم، ﴿الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ أي: عاوضتم به وهي الجنة، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا بعده إذ به سعادة الدنيا والآخرة، قال قتادة: ثامنهم الله عَزَّوَجَلَّ فأغلى لهم.

ثم وصف الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء الذين تمت المبايعة بينهم وبين الله عَزَّوَجَلَّ وكان الجزاء الجنة أنهم: ﴿التَّائِبُونَ﴾ وهم العائدون الراجعون إلى الله عَزَّوَجَلَّ من ذنوبهم التي عاقروها ومن أعظمها الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وفي الحديث: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ**»، ﴿التَّائِبُونَ﴾ المطيعون الذين وحدوا الله وأخلصوا له في القول والفعل، ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله عَزَّوَجَلَّ في السراء والضراء بلسان الحال والمقال، ﴿السَّائِحُونَ﴾ قيل: الصائمون، وقيل: طلاب العلم، وقيل: المجاهدون في سبيل الله ومن في بابهم، وهي كلمة جامعةٌ لأوجه الخير الكثيرة، ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾، المصلون وإنما ذكر الركوع والسجود؛ لأنهما أظهر أركانها، ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠]، والمعروف الذي يأمرون به: التوحيد وما دونه، والمنكر الذي ينهون عنه: الشرك وما دونه، ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ويلزم منه العلم والعمل ﴿وَالْحَافِظُونَ﴾ حفظوا الله عَزَّوَجَلَّ في السراء والضراء في جوارحهم وجميع شأنهم.

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ: «**كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**» أخرجه الترمذي، ﴿لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: لحرمات الله، فلم يقعوا فيها، وإن وقعوا تابوا وعادوا ويطبقون الأوامر ويجتنبون النواهي، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما لهم من الخير العظيم إذا اتصفوا بهذه الصفات العظيمة والمنن الكريمة فإنها تمت لهم المبايعة وربحت الصفقة.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦﴾.

سَبَبُ نُزُولِ قَولِه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

نزلت في شأن أبي طالب كما في صحيح البخاري ومسلم: عن سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ المَقَالَةِ حَتَّىٰ قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أما وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿مَا

كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ [التوبة:١١٣]، ونزلت أيضًا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص:٥٦].

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾ أي: يطلبوا المغفرة، ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ كأبي طالب ومن في سبيله، ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ ولو كانوا من أقرب الأقربين؛ لأنهم مشركون منددون، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر ﴿لَهُمْ﴾ للمؤمنين ﴿أَنَّهُمْ﴾ الأموات ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ من أصحاب النار، حيث ماتوا على الكفر.

❁ وفي هذا بيان لمسألة العذر بالجهل فإنهم لا يؤاخذون قبل علمهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥].

فإن احتج محتج على جواز الاستغفار لهم بقول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، كان الجواب ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر، ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ وهي المذكورة في سورة مريم ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ له﴾ ظهر، ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ حيث مات على الكفر، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨].

❁ وهذا دليل علىٰ أن الكافر عدو لله عَزَّوَجَلَّ.

وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعَلَىٰ وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَىٰ الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ»، وفي رواية:

«تَبَرَّأَ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ»، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ كثير الدعاء، وقيل: الرحيم، وقيل: التواب، وقيل: الموقن، ﴿حَلِيمٌ﴾ رحيم، وقيل: الحليم السيد، وقيل غير ذلك وهذه صفات عظيمة وصف الله بها إبراهيم.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ ما كان الله ليحكم عليهم بالضلالة بترك الأوامر واجتناب النواهي، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ﴾ يظهر ﴿لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ ويحذرون وتقام عليهم الحجة الرسالية؛ ولهذا أرسل الله عَزَّوَجَلَّ الرسل وأنزل الكتب.

۞ وهذا من أدلة العذر بالجهل، فمن وقع عليه الجهل وتُقين ذلك عُذر به، وأما من بلغته الرسالة بلوغًا لو أراد العلم لعلم ثم تمرد وأعرض فإنه لا ينفعه جهله إذ أنه من المعرضين.

۞ وفي هذه الآية: دلالة علىٰ أن الهدىٰ والضلال من الله، فيهدي من يشاء فضلًا ويضل من يشاء عدلًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه ما يُصلح العباد في دنياهم وأخراهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ وما بينهما وما فيهما فيحكم بما يشاء ويقضي ما شاء، لا راد لفعله ولا معقب لقضائه من شأنه أنه ﴿يُحْيِۦ﴾ من شاء ﴿وَيُمِيتُ﴾ من شاء، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ، ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ ناصر قريب يحوطكم ويعينكم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ يُخبر الله عَزَّوَجَلَّ على امتنانه على عباده المؤمنين بتجاوزه والصفح عنهم، وكونه تاب على النبي ﷺ أي: بإذنه للمنافقين في التخلف وفي ذلك مصالح، فلو خرج المنافقون لحصل منهم الشر العريض، كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ

فِيكُمْ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة:٤٧]، ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هجروا أوطانهم وبلدانهم؛ لنصرة دين الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي: في غزوة تبوك؛ لشدة المؤمنة وضيق الحال وشدة الحر وبُعد السفر، وهذا من أشد ما يكون السفر بعيد، والقلة حاصلة، والعدو شديد ومع ذلك لم يكن منهم إلا أن بادروا وسارعوا للاستجابة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ ينحرف ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ﴾ طائفة ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: ممن تأخر وحصل منهم التخلف، ولم يرد هنا الميل عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلف والأنصراف؛ من أجل الراحة، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ عفا عنهم وتجاوز؛ وذلك أنه ذكر الذنب ثم أعاد ذكر التوبة، والمراد هنا القبول، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن رأفته ورحمته أنه مَنَّ عليهم بالتوبة وقبلها منهم.

﴿وَ﴾ تاب ﴿عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ خُلفوا في قبول توبتهم، وعذرهم وليس المعنى: أنهم تخلفوا عن الغزو، فالذين تخلفوا أكثر من ذلك، ولكن هؤلاء الثلاثة خُلِفَ شأنهم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ مع سعتها من شدة الهجر الذي لحقهم حتى أن النبي ﷺ أمرهم بهجر نسائهم، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ من شدة الهجر والذنب، ﴿وَظَنُّوا﴾ استيقنوا، ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ مهرب ﴿مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ بالتوبة والأنابة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ وقبل توبتهم، ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ليستقيموا على التوبة، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فيتجاوز عن المؤمنين ويرحمهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أمر بملازمة أهل الصدق والصلاح، وقيل: بأن المؤمنين هنا: المهاجرون، والصادقين: الأنصار.

❁ وبهذه الآية استدل أبو بكر وغيره علىٰ أن الخلافة في قريش.

وعن أَبِي كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ، إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّىٰ جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ، عَلَىٰ غَيْرِ

مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا، وَكَانَ مِنْ خَبَرِي، حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَىٰ وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَاللهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ، حَتَّىٰ جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَغَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَا لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ - يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيوَانَ - قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ، يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَىٰ لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَغَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ، فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَىٰ ذَلِكَ، إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَىٰ بِي حَتَّىٰ اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَىٰ بِي حَتَّىٰ أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ لِي، فَطَفِقْتُ، إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ، بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَحْزُنُنِي أَنِّي لَا أَرَىٰ لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ: وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ «**مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟**» قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يَا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ رَأَىٰ رَجُلًا مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ**» فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الأنصَارِيُّ، وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ، حَضَرَنِي بَثِّي، فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَىٰ ذَلِكَ

كُلَّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ لِي: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، حَتَّىٰ عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَصَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَىٰ اللهِ، حَتَّىٰ جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَ**» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّىٰ جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «**مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي، وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ، لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَىٰ بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَىٰ اللهِ، وَاللهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ، وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَىٰ وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أما هَذَا، فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ**» فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ، اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّىٰ أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، قَالَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ، قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ، قَالَ قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِمَا أُسْوَةٌ، قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، قَالَ وَنَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا، أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ، مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، قَالَ: فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَقَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّىٰ تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ

أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ، أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَىٰ صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّىٰ إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ، مَشَيْتُ حَتَّىٰ تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ قَالَ: فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ، حَتَّىٰ تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَىٰ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ، حَتَّىٰ جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا، فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ: أما بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، قَالَ فَقُلْتُ: حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَامَمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا، حَتَّىٰ إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ، وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، قَالَ: فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا، فَلَا تَقْرَبَنَّهَا، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَىٰ صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ**» فَقَالَتْ: إِنَّهُ، وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَىٰ شَيْءٍ، وَوَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، إِلَىٰ يَوْمِهِ هَذَا، قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ؟ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، قَالَ: فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمُلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا، قَالَ ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ

الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، عَلَىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَىٰ الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَىٰ عَلَىٰ سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، قَالَ: فَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا، حِينَ صَلَّىٰ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا، وَسَعَىٰ سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي، وَأَوْفَىٰ الْجَبَلَ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ: لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ حَتَّىٰ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّىٰ صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَاللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، قَالَ فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ وَيَقُولُ: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**» قَالَ فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَقَالَ: «**لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ**» وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ، قَالَ: فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَىٰ اللهِ وَإِلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**» قَالَ: فَقُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْبَرَ، قَالَ: وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ، مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ يَوْمِي هَذَا، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللهُ بِهِ، وَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، إِلَىٰ يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيَ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾، قَالَ كَعْبٌ: وَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ، بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللهُ لِلْإِسْلَامِ، أَعْظَمَ فِي نَفْسِي، مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، إِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا، حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ، شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ. وَقَالَ اللهُ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾، قَالَ كَعْبٌ: كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّىٰ قَضَىٰ اللهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: وَعَلَىٰ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا، تَخَلُّفَنَا عَنِ الْغَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا، عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ» أخرجه مسلم(٢٧٦٩).

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

هذا خبرٌ متضمن الأمر إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ أمرهم أن لا يتخلفوا عن رسول الله ﷺ والخروج معه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: من المهاجرين والأنصار، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أعراب المسلمين، ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ إذا غزى، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ﴾ في راحتها وبقائها وسكونها ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ الكريمة الزكية بحيث يسارعون في حفظ أنفسهم غير مبالين بما يتعرض له رسول الله ﷺ، فينبغي أن يكون حظهم ذلك، بل إن النبي ﷺ أعظم من فُديَّ ونُصِرَ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا التحضيض للمجاهدين، ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: في سفرهم وهو العطش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعبٌ، كما قال النبي ﷺ: «مَا

يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا سَقَمٍ، وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في حال سفرهم في الجهاد، ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ أرضًا ﴿يَغِيظُ﴾ يغضب ﴿الْكُفَّارَ﴾ لأنَّ الكفار يتألمون من نصرة المسلمين وأخذهم بدينهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ يصيبون ﴿مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ قتلًا أو أسرًا أو غنيمةً أو هزيمة، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ وجدوا أجره ومثوبته، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، وفي البخاري من حديث أبي عبس: «مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ»، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾ يذهب ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يحفظه لهم إلى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ أي: في غزوهم هذا، ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ حقيرًا ولا عظيمًا، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ للمشي، ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ أجرٌ بذلك الأمر، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يثيبهم ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بل ويتجاوز عن سيئاتهم، وفي مسلم عن أبي مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ».

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٢٣﴾.

ثم حضض المؤمنين على النفرة للجهاد ومنه طلب العلم: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ أي: للخروج في الجهاد وفي طلب العلم؛ لأنَّ هذا قد يؤدي إلى تضييع

كثير من المصالح، ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا، ﴿نَفَرَ﴾ خرج وذَهبَ، ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ مجموعة من الناس، ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أقلها الواحد، ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ لطلب العلم والاستفادة من ذلك، ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ يخوفوا ويبلغوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ العلم ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ما يكون سببا لخسارهم.

قال الحسن: هذا التفقه والأنذار راجعٌ إلىٰ الفرقة النافرة، ومعناه: هلا نفر فرقة ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ أي: ليتبصروا بما يريهم الله من الظهور علىٰ المشركين ونصرة الدين، ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ من الكفار، ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ من الجهاد فيخبروهم بنصر الله رسولَه ﷺ والمؤمنين، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أن يعادوا النبي ﷺ فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار.

❁ وهذه الآية يستدل العلماء علىٰ وجوب الخروج لطلب العلم الواجب.

وفي حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» أخرجه البخاري، وعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» متفق عليه، وعن أبي هريرة: «**تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**» متفق عليه.

❁ **والعلم منقسم إلى قسمين:**

- **الأول**: **فرض عين**: وهو ما يتعين علىٰ كل عبدٍ من المكلفين كمعرفة التوحيد، والصلاة وما في بابها.

- **الثاني**: **فرض كفاية**: إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.

ولا أفضل من طلب العلم؛ لأنه سبيل الأنبياء والمرسلين، وسبيل الأولياء والصالحين، وسبيل المجددين والصديقين، وفي حديث أبي الدرداء قال النبي ﷺ: «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أَدنَاكُم**»، «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبِيَاءِ، إِنَّ الأنبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**» أخرجه أبو داود وله طرق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ﴾ جاهدوا جهاد طلبٍ ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ يجارونكم ﴿مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ وذلك لما في قربهم من بلاد المسلمين من الفتنة ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ قوة وشدة في حال قتالهم من أجل إرهابهم ودفع شرهم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بعونه ونصره وهذه معية خاصة.

❁ النَّسْخُ: هذه الآية ناسخة لكل آيةٍ فيها الأمر بالصبر علىٰ الكفار وتُسمىٰ بآية السيف كسابقتها، وهذا في حال قوة المسلمين واستطاعتهم، وأما إذا لحقهم الضرر والضعف فعليهم أن يتحلوا بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ من الصبر، ﴿يَلُونَكُم﴾ يقربون منكم ﴿مِّنَ الْكُفَّارِ﴾.

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: مثل بني قريظة والنضير وخيبر، وقيل أراد بهم الروم ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ شدة وحمية كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم:٩]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأن هذا: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٥٤] ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ينصرهم ويؤيدهم ويعينهم، فإن المعية هنا معية خاصة مقتضية للنصر والتأييد، وفي هذا إثبات صفة المعية لله عَزَّوَجَلَّ وهي معيةٌ تليق بجلاله وهو علىٰ عرشه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ:١١].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ على محمد ﷺ، ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: ممن يسمع كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ ازداد بها يقينه وتصديقه وانقياده، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لأنهم ينقادون لأمر الله ويعملون به ويفرحون بآيات القرآن المنزلة على محمد ﷺ، وفي هذا دليل لمذهب أهل السنة والجماعة بأن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية على ما تقدم في سورة الأنفال.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق وشك وريب، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ أي: شكًا ونفاقًا وكفرًا، ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ لعلم الله أنهم ليسوا أهل للهداية، وهكذا حال الناس مع أدلة الوحي بين مستجيب فيزداد إيمانه، وبين معرضٍ فيضعف إيمانه.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ فيكون الخطاب للمنافقين، وفي قراءة حمزة ويعقوب: ﴿أَوَلَا تَرَوْنَ﴾، فيكون الخطاب للمؤمنين، ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يُبتَلَون، ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بالأمراض والشدائد أو بالقحط وغيره أو بالغزو، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا ينزجرون عن باطلهم الذي هم فيه، وعن نقضهم العهود وخلفهم المواعيد، ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون مما يسلط الله عَزَّوَجَلَّ عليهم من المسلمين فيسومونهم سوء العذاب بسبب كفرهم وإعراضهم، فربما سُبيت نساؤهم وأُخذت أموالهم غنيمة للمسلمين.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ عليك يا محمد، ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: المنافقون ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ لأنهم يراؤون الناس في جميع أعمالهم كما قال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ معرضين عن الإيمان، ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أضلهم عن الإيمان؛ لعلمه بهم، وفي هذا دليل على الإيمان بالقدر، فإن الهدى والضلال من الله، يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون عن الله دينه ولا يستجيبون إلا على مقتضى الهوى، والله المستعان، وحالهم كما قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا﴾ [البقرة:١٠].

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾.

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿رَسُولٞ﴾ وهو محمدٌ ﷺ، ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: من العرب وليس من غيرهم، بل من أَنْفَسِ العرب فعن وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**» أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، وقد سأل هرقل أبا سفيان: ما نسبه فيكم؟ قال: من خيارنا، قال: كذلك الرسل تُبعث في نسب قومها متفق عليه.

﴿عَزِيزٌ﴾ أي: يعز عليه، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عنتكم: وهو المشقة والمضرة، وكم ترك ﷺ من الاختيارات رأفةً بأمته ورحمةً لهم، فترك الوصال ونهاهم عنه خشية أن يفرض عليهم، وترك قيام الليل في جماعة خشية أن يُفرض عليهم، ولم يأمرهم بالسواك عند كل صلاة خشية أن يُفرض عليهم، وحين أنزل الله عَزَّوَجَلَّ القرآن علىٰ حرفٍ ما زال يسأل الله الزيادة حتىٰ قال علىٰ سبعة أحرف، فكان يشق عليه ﷺ أن ينال الأمة التعب والنصب؛ ولهذا كان دين الإسلام دين اليسرية، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**» أخرجه البخاري (٣٩)، ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ أي: حريص علىٰ المؤمنين يرشدهم إلىٰ كل خير ويحذرهم من كل شر وضير، ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بشدة الرأفة والرحمة فيتجاوز ويعفو ويصفح ويدعو.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الإيمان والإسلام وأعرضوا عنه ونصبوا العداء لدين محمد ﷺ، ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾ الله كافيني، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ المعبود بحق، ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتمدت في جميع شأني، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الكريم الواسع، فالعرش أعظم المخلوقات، وأوسعها،

ومن دعا، بهذا الدعاء إذا رأى الإعراض لا يُنكر عليه لكن لا يجعله ديدنًا أو يخصصه بوقت دون وقت، فالتخصيص يحتاج إلى دليل وإلا فهو دعاء جميل.

وكان شأن هذه الآية أنها وجدت عند خزيمة بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففي البخاري (٤٦٧٩) عن زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الأنصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الوَحْيَ - قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ فِي المَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَىٰ أَنْ تَجْمَعَ القُرْآنَ «، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: «**كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ** ﷺ؟» فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَىٰ عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلاَ نَتَّهِمُكَ، «**كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ** ﷺ»، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ، قُلْتُ: «**كَيْفَ تَفْعَلاَنِّ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ** ﷺ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ، وَالعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّىٰ وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الأنصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٨]، إِلَىٰ آخِرِهِمَا، وَكَانَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا القُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ».

والحمد لله رب العالمين.

تفسير

سورة يونس

سُورَةُ يُونُسَ

۞ مَكِّيَّةٌ قيل: إلا ثلاث آيات: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [يونس:٩٤]، وما بعدها.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾.

﴿الٓر﴾ تقدم بيان معاني هذه الحروف المقطعة في أول سورة البقرة، وتلخص لنا: أنها أحرف لا معاني لها إنما ذُكرت لتحدي المشركين أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي يتركب من هذه الحروف، أو أنها ذُكرت للتنبيه فيقال: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ﴾ فإذا ما صغت آذانهم جيء بما بعدها، ﴿تِلۡكَ﴾ اسم إشارة للآيات المذكورات بعد، ﴿آيَاتُ﴾ دلائل وحجج ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿الْحَكِيمِ﴾ المُحكم البين الواضح الذي: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت:٤٢]، محكمٌ في أحكامه كما أنه محكم في خبره ووعده ووعيده لا خلف فيه ولا تناقض.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ أي تعجب الناس من إيحاء الله عَزَّوَجَلَّ هذا القرآن إلىٰ محمد ﷺ، وقد قال من قبلهم متعجبين كحالهم: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن:٦]، ﴿إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ من أنفسهم من قريش، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أعلمهم وخوفهم عذاب الله حتىٰ يستجيبوا لداعي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَبَشِّرِ﴾ اخبر

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما لهم من الثواب عند الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أجرًا حسنًا بما قدموا من أعمالهم، وقيل: ثواب صدق وهو بمعناه، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ حين سمعوا هذا القرآن وما فيه من العجائب، ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ محمدٌ ﷺ ﴿لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ بأن سحره، وفي قراءة: ﴿لَسحرٌ مُبِينٌ﴾ أي: القرآن، فتارة يذكرون القرآن بأنه سحر، وتارة يذكرون محمدًا ﷺ بأنه ساحر كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وما بينهما وما فيهما، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وما مسه من لغوب أو لحقه من فتور، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وعلا وارتفع وصعد وزاد بعضهم واستقر، واستواء الله عَزَّوَجَلَّ على العرش كان بعد خلق السماوات والأرض، وبهذا عُلِمَ أن صفة الاستواء صفة فعلية، وقد دل عليها القرآن والإجماع، وهي دلالة على أن الله عَزَّوَجَلَّ في السماء على عرشه كما تقدم في تفسير سورة الأعراف، ﴿يُدَبِّرُ﴾ يصرف ﴿الأَمْرَ﴾ أمر عباده وأمر السماوات والأرَضين، وما فيها ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ يوم القيامة، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿ذَلِكُمُ﴾ الذي تقدم ذكر بعض وصفه هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خالقكم ورازقكم والمتصرف فيكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدوه، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ بعثكم ﴿جَمِيعًا﴾ يوم القيامة حين تُخرجون من قبوركم حفاةً عراةً غرلًا، ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ صدقا لا يُخلف فالله عَزَّوَجَلَّ، لا يُخلف وعده ولا يُنقض عهده، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، صدقًا في الأخبار عدلًا في الأحكام ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ فيوجده من العدم، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ فيحييهم بعد إماتتهم: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ يثيب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل فيكرمهم ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أعرضوا عن الإيمان والإسلام، ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حار يشوي الوجيه، كما قال تعالى ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة:٥٥]، ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:٢٠]، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ شديد موجع، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفرهم وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، فيدخل الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين الجنة برحمته لهم، وكان سبب ذلك أعمالهم الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢]، ويدخل الكافرين النار بسبب إعراضهم وكفرهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ بالنهار، ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ بالليل، ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي: القمر.

❁ ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلة وأسماؤها:

الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنصر، والطوف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزبانا، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعايم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرع الدلو المقدم، وفرع الدلو المؤخر، وبطن الحوت.

❁ وهذه المنازل مقسمة علىٰ البروج وهي اثنا عشر برجًا:

الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

ولكل برجٍ منزلأنَّ وثلث منزل فينزل القمر كل ليلة منزلًا منها، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعًا وعشرين فلليلةٍ واحدة، فيكون تلك المنازل ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يومًا، فيكون انقضاء السنة مع انقضائها.

والحكمة من تقدير منازل القمر: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ لأنَّ الشمس شأنها واحد، أما القمر يتغير في أوله وآخر، فتُعلم به السنين دخولها وانقضاءها، فتؤدى الزكوات وتنجز الوعود ﴿وَالْحِسَابَ﴾ حساب الشهور والساعات والعُدَدِ وغير ذلك، ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ مما تقدم ذكره ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ الصدق بعيدا عن العبث، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف:٣]، ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يبينها ويوضحها: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾ شرع الله.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ﴾ تعاقب ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من عظيم الأجرام وبديع المخلوقات، ﴿لآيَاتٍ﴾ عظات بينات، وعلامات ظاهرات، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور وترك المحظور.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يؤملون ﴿لِقَاءنَا﴾ يوم القيامة والبعث والنشور من الكافرين والمنافقين، ﴿وَرَضُواْ﴾ فرحوا ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ واختاروها وعملوا لها فلم يؤمنوا بالآخرة، ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ سكنوا إليها كأنهم سيخلدون فيها، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ الشرعية والكونية ﴿غَافِلُون﴾ لا يعتبرون ولا يتفكرون بل إنهم معرضون.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ من تقدم ذكرهم، ﴿مَأْوَاهُمُ﴾ مستقرهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ فيها يُخلدون ومنها لا يُخرجون، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ذنوبهم وكفرهم وتكذيبهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ يرشدهم ويوفقهم ويدلهم، ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: بسبب إيمانهم بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وذلك يوم القيامة.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ دعاؤهم وهجيرهم وكلامهم في الجنة: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ كما قال رسول الله ﷺ: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ الْحَمْدَ وَالتَّسْبِيحَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ**»رواه مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ يحي بعضهم بعضًا ﴿سَلَامٌ﴾ أي: فيما بينهم يسلم بعضهم على بعض، وكذلك يُسلم الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم، وتُسلم عليهم الملائكة، فيدخلون دار السلام ويُحيون بالسلام،﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ في كل مرةٍ يُسبحون ويحمدون،﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمون بالحمد، وكان ختم المجالس في الدنيا به.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا كَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، ثُمَّ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**»، وله شاهد من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند أبي داود.

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ ما استعجلوه من العذاب، ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ بالنعمة والسعة ﴿لَقُضِيَ﴾ عاجل ﴿إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ وحصل لهم الهلاك، ولكنه تعالى يمهلهم كما

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، ﴿فَنَذَرُ﴾ فنترك، ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا﴾ الكفار ومن إليهم من المنافقين، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في تجاوزهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتيهون.

﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسان﴾ الكافر ﴿الضُّرُّ﴾ المرض والفقر والشدة والجهد والضيق، ﴿دَعَانَا﴾ دعا ربه عَزَّوَجَلَّ، ﴿لِجَنْبِهِۦٓ﴾ حال كونه مضطجعًا، ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: في جميع الحالات يكون متضرعًا راجيًا خاشعًا بخلاف حاله إذا أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه ووسع، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ رفعنا ودفعنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ الجهد والبلاء، ﴿مَرَّ﴾ معرضًا ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ شدة وفقر ﴿مَّسَّهُۥ﴾ نزل به فنسيَّ ما كان عليه من الحال الأول.

وهذا حال المعرضين من الكافرين وإلا فإن المؤمن حاله ما رواه صهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ: « **عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**» أخرجه مسلم(٢٩٩٩).

والذي يكشف الضر ويرفع البلاء هو الله، وفي حديث أبي جُريّ جابر بن سُليم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**أَنَا رَسُولُ اللهِ الَّذِي إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ أي: دعوت الله** عَزَّوَجَلَّ **كَشَفَهُ عَنْكَ، وَإِنْ أَصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَهُ، أَنْبَتَهَا لَكَ**» أخرجه أبو داود (٤٠٨٤)، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر:٣٨].

وفي حديث الثلاثة عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: « إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَىٰ، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَىٰ الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ - أَوْ قَالَ الْبَقَرُ، شَكَّ إِسْحَاقُ - إِلَّا أَنَّ الْأَبْرَصَ، أَوِ الْأَقْرَعَ، قَالَ أَحَدُهُمَا: الْإِبِلُ، وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ، قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ:

فَأَتَىٰ الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَىٰ الْأَعْمَىٰ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَىٰ الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ بَعِيرًا، أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ، قَالَ: وَأَتَىٰ الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَىٰ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ، قَالَ: وَأَتَىٰ الْأَعْمَىٰ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَىٰ فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيْكَ » أخرجه مسلم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زين أعمال المؤمنين إليهم ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الكفر والمعصية، ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الباطل كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [سورة الحجرات:٧].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ الأمم ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين وغيرهم، ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ كفروا، ووقع منهم ظلمٌ سوى ذلك، ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على صدقهم، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ

﴿رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مهما حرص الرسل على هدايتهم؛ لما علم الله في قلوبهم من الكفر والنفاق والإعراض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٦-٧]، ﴿نَجْزِى﴾ كما أهلكنا أولئك ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين، والجزاء من جنس العمل يجازيهم بالنكال والخزي والوبال.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ يا معشر قريش ومن إليهم، ﴿خَلَائِفَ﴾ خلفاء يخلف بعضكم بعضًا، ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ أرض مكة ﴿مِن بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد القرون التي أُهلكوا، ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيها وهو أعلم بهم ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يؤاخذهم بجرائرهم وجرائمهم، وإلا فهو عالم بحال الناس أزلًا وأبدًا.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَى﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على أهل مكة ﴿آيَاتُنَا﴾ القرآن وما أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه عليه الصلاة والسلام، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ جليات لا لبس فيها ولا تمويه، بل هي بلسان عربي مبين، ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾ كفروا الذين ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا﴾ لا يؤمنون بالبعث والنشور، ﴿ائْتِ﴾ جئنا يا محمد ﴿بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ من تلقاء نفسك و اجعل آية مكان آية ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَا يَكُونُ﴾ ما ينبغي ﴿لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ أغيره ﴿مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ﴾ ما ﴿أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ فهو عبدٌ متبع لأمر الله، بغير زيادة ولا نقصان، ﴿إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ في أمره ونهيه، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ موجع ومؤلم وشديد.

﴿قُل﴾ يا محمد، ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا﴾ قرأته ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أي القرآن، ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أعلمتكم به، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ﴾ بقيت ﴿فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ حيث لبث فيهم أربعين سنة لم يحدثهم عن قرآن ووحي حتى جاءه وحي الله، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا يكون في ذلك دليل على أني لم أأتي به من نفسي، ولو كان من نفسه لجاء به قبل ذلك.

﴿فَمَنْ﴾ فلا ﴿أَظْلَمُ﴾ لنفسه، ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ اختلق ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ وقال هو من عند الله وما هو من عند الله، كما هو حال مدعي النبوة ومن إليهم، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ التي أوحاها الله، فكما لا يجوز لك أن تفتري الكذب على الله عَزَّوَجَلَّ لا يجوز لك أن ترد آيات الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ لا ينجوا ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون من عذاب يوم أليم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي: المشركون المنددون، ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ غير الله عَزَّوَجَلَّ من الأصنام والأوثان، ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ ما لا يملك لهم ضرًا فيتقون بعبادتهم له الضر، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ ولا يملك لهم نفعًا فيستجلبون بعبادتهم له النفع، بل يعبدون حجارةً صماء بكماء لا حراك لها ولا نفع، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ معتذرين عن عبادتهم لهم ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ الأصنام ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ يشفعون لنا ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ والله عَزَّوَجَلَّ قد رد هذا بقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فقطع الله عَزَّوَجَلَّ عنهم جميع أنواع التعلقات كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا

لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣]، ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ أتخبرون ﴿ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من أن له شركاء وشفعاء بغير إذنه، ﴿سُبْحَانَهُۥ﴾ تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ تعظيم لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول المنددون المخالفون.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خبرٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على الإسلام وهو الدين الحق الذي أوحاه الله إلى أنبيائه ورسله، ﴿فَٱخْتَلَفُواْ﴾ تحزبوا وتفرقوا إلى مؤمن وكافر، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ وهي الكلمة الكونية، ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في انقسام الناس إلى فريق في الجنة وفريق في السعير لبقوا على ما هم عليه أمة واحدة، ﴿لَقُضِىَ﴾ حكم وفصل ﴿بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وعُجِلَ لهم العذاب أو النعيم في الدنيا، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ قضى أن الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المشركون المنددون، ﴿لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ علامة على صدق نبوته ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الذي أرسله، وقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ آيات شرعية عظيمة، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» أخرجه مسلم، لكن كأنهم يريدون الآيات الكونية، ﴿فَقُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ﴾ ما غاب عن العباد أمره والحكمة منه ﴿لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ وعد الله عَزَّوَجَلَّ إن آمنتهم أو وعيده إن كفرتم وأعرضتم، ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ حتى يقضيَ الله بالحق وهو خير الفاتحين.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ

يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ يعني: الكفار، وهم هنا كفار مكة ﴿رَحْمَةً﴾ مطرًا وخصبًا ورخاءً ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ بؤسٍ وشدةٍ وبلاء، ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ بالتكذيب والاستهزاء وبالرد والإيباء، ولا يُضيفون النعمة إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإنما يضيفونها إلى غيره كما قال ﷺ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأما مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأما مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**» متفق عليه عن زيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿اللَّهُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القوي الذي لا يعجز: ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ بهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وهذه تُسمىٰ بالصفات المقابلة إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ يمكر بمن مكر، ويكيد من كاد، ويستهزئ بمن استهزأ، ويخادع من خادع، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ الذين يكتبون أعمال العباد، ﴿يَكْتُبُونَ﴾ في صحائف أعمالكم ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ ما يُبيتون من المكر، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ وفي قراءة ﴿ينشركم﴾ ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ على الأقدام والأنعام وما في حكمها في هذا الزمان مثل السيارات ونحوها ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ على السفن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة الكبيرة، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ جرت بهم السفن ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة لا شدة فيها فتلقيهم في البحر؛ فبعض الرياح قد تؤدي إلى فساد حال من يركب البحر، ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ بالريح لأنها تمشي بهم على ما يريدون، ﴿جَآءَتْهَا﴾ الفُلك، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب، شديدة الحركة ربما تجعل الأمواج كأنها الجبال العاتية، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ لشدتها ولتغير اتجاهاتها، ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ استيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أحاط بهم الهلاك وعند ذلك الحال، ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أخلصوا له الدعاء والرغبة ومنه الرهبة، ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ سلمتنا يا

ربنا، ﴿مِنْ هَـذِهِ﴾ العاصفة والأهوال، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الذاكرين الطائعين، المنقادين بالإيمان والطاعة، ولكن الواقع أن أكثرهم يكون على خلاف ذلك بعد السلامة.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ من هذه الشدة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ يجاوزون ﴿فِي الأَرْضِ﴾ بالشرك ونحوه فيظلِمون ويتجاوزون أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بالفساد، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ تهديد لهؤلاء الذين يقع منهم البغي، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ ظُلمكم ووبال ذلك عائدٌ: ﴿عَلَى أَنفُسِكُم﴾ بالخزي والدمار والوبال الذي تستمعون به إنما هو ﴿مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الزائل، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ نُخبركم ونعلمكم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وتتعاطون فتتجازون عليه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ﴾ صفة ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في فنائها وزوالها، ﴿كَمَاء﴾ مطر ﴿أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء﴾ السحاب، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ من عشبها وشجرها، وأخرجت الأرض ثمرتها، ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ سواءً كان من العشبيات أو من الفواكه الجميلات النضرات، ﴿وَالأنعَامُ﴾ البقر، والغنم، والإبل وما في بابها، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حسنها وبهجتها وظهر الزهر أخضر وأحمر وأصفر وأبيض، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ بما خرج فيها من الثمر والعُشب، ﴿وَظَنَّ﴾ استقين ﴿أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكنون من جذاذها وعلى القيام بشأنها، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ إما بريح أو ببرد، وهذا يعلمه من يُعاقر الزراعة، فربما تكون المزرعة في أوجِ حسنها وبهائها وعطائها، فإذا بها يمر بها ريح عاصف أو بارد فتُصبح كأن لم تغنَ بالأمس، وهكذا بعض الثمر إذا دخل عليها المطر أفسدها، ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي زرعها ﴿حَصِيدًا﴾ محصودة مقطوعة لا خير فيها ولا بركة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ تكن ﴿بِالأَمْسِ﴾ خضراء، ﴿كَذَلِكَ

﴿نُفَصِّلُ﴾ نبين ﴿ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويغفلون فهذا مثل الحياة الدنيا، بينما هي بهية زهية وأحدنا يتنعم بجسمه ولونه وماله وجميع شأنه فيصبح لا شيء، قد تذهب صحته أو بعض جوارحه أو حياته، فلا ركون إلى الدنيا بحال من الأحوال، وما أحسن وصف ابن الوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لها في لاميته:

كتب الموت على الخلق فكم ... فل من جيش وأفنى من دول
أين نمرود وكنعان ومن ... ملك الأرض وولى وعزل
أين عاد أين فرعون ومن ... رفع الأهرم من يسمع يخل
أينَ من سادوا وشادوا وبَنَوا ... هَلَكَ الكلُّ ولم تُغنِ القُلَلْ
أينَ أربابُ الحِجَى أهلُ النُّهى ... أينَ أهلُ العلمِ والقومُ الأوَلْ
سيُعيدُ الله كلًّا منهمُ ... وسيَجزي فاعلًا ما قد فَعَلْ

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟﴾ يرغبكم ﴿إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ دار السلامة، وقيل: الجنة، فالله اسمه السلام، والجنة داره، وإما أن يكون المراد أنها دار السلامة من الأنكاد والأنصاب، ولا يبعد أن تُسمى بالأمرين، فهي دار السلام الذي هو الله، ودار السلامة من الآفات، ﴿وَيَهْدِى﴾ يوفق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ممن علمه أهلًا للهداية ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق قويم.

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ بالإيمان فآمنوا ووحدوا الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ النظر إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد جاءت مفسرة بحديث صهيب عند مسلم (١٨١): أن النبي

الله عليه وسلم قال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارِ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ - يَعْنِي إِلَيْهِ - وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ**» وفي رواية: ثم قرأ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦]، وهكذا فسرها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ ومسألة الرؤية مسألة مهمة فاثباتها طريقة السلف، وطريقة مرضية، إذ دل علىٰ ثبوتها الكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب مع هذه الآية: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

ومن السنة حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَىٰ القَمَرِ لَيْلَةً - يَعْنِي البَدْرَ - فَقَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩﴾ [ق: ٣٩]، والإجماع منقول علىٰ إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة.

❁ **واختلف العلماء في الكافرين.**

❁ والصحيح: أنهم يرونه ثم يحتجب عنهم، ورؤيتهم له لا رؤية تنعم ولكن كرؤية اللص للسجان.

❁ **واختلف في رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا.**

❁ والصحيح: أنه لم يره بعين رأسه كما هو مذكور عند أهل التحقيق كشيخ الإسلام وغيره.

﴿وَلَا يَرۡهَقُ﴾ يغشىٰ ﴿وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ﴾ غبار وسواد، ﴿وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ كآبة وهوان بعد نظرهم إلىٰ ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يُنعمون.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عملوا ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ وأشدها الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ أي: جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات، ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ﴾ تغشاهم ﴿ذِلَّةٞ﴾ هوان وقترة، ووجوههم مسودة، ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ يمنع عنهم سخطه وعذابه، لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قضى وقدر أن العصمة للمؤمنين: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾ [آل عمران:١٠١]، ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ تغطت وجوههم وألسنتهم، ﴿قِطَعٗا﴾ جزءً ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ فصارت مسودة بعد أن كانت بيضاء في الدنيا، وهذا والله شدة الهوان: أن الإنسان يكون على حالة في الدنيا أحسن منها في الآخرة، بينما المؤمن في حالة الآخرة أحسن منها في الدنيا، فقد يكون أسود اللون من خلقته ولكنه أبيض بإيمانه وعمله، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من تقدم وصفهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ الخلق ﴿جَمِيعٗا﴾ من المؤمنين والكفار، ومن الأبرار والفجار، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ كفروا بالله عَزَّوَجَلَّ ونددوا في يوم لا تنفع الندامة، الزموا ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ يعني: الأوثان والأصنام ومن أشركوا به ممن رضي بذلك، ولا تبرحوا هذا المكان، ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾ ميزنا وفرقنا ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ بين المشركين وشركائهم، وقُطع ما كان بينهم من التواصل؛ وذلك حين يتبرأ كل واحدٍ من صاحبه كما قال: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ معبوداتهم من الأصنام والأوثان، متبرئة منهم ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ كقوله: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾ [سبأ:٤١].

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ في الدنيا ويوم القيامة، ﴿شَهِيدَۢا﴾ مطلقا عالمًا مخبرًا حاكما ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: بين المشركين وبين أوثانهم التي عبدوها من دون الله، ﴿إِن كُنَّا عَنۡ

عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ غير مُبصرين، ولا نسمع لكم كلامًا ولا نرى لكم فعلًا، وهذا هو الواقع كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٤].

﴿هُنَالِكَ﴾ يوم القيامة، ﴿تَبْلُوا۟﴾ تُخبر وتعلم ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ ما وقع منها في غابر الدهر وزمانه، ﴿وَرُدُّوٓا۟﴾ رجعوا، ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ الثابت الدائم فهو الحق في جميع شأنه؛ ولذلك جاء في الحديث: «**أَنْتَ الحَقُّ**»، فالحق في حكمه، وألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، ﴿وَضَلَّ﴾ غاب، وضاع، وولى، وزال، وبطل ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من المعبودات والأصنام التي قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ من يعطيكم، فالرزق هو العطاء، ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر ﴿وَالأَرْضِ﴾ بالنبات والثمار إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ﴾ سمعكم الذي تسمعون به، ﴿والأَبْصَارَ﴾ التي تبصرون بها، ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ النطفة من الحي، وقيل: البيضة من الدجاجة، وقيل: الحبة يخرج منها الزرع، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يقضيه في السماء والأرض، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ مقرين بالربوبية، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فتؤمنون وتنزجرون عن شرككم وتستجيبون لدعوة ربكم في الإقرار بالألوهية؛ لأنَّ إثبات الربوبية يلزم منه إثبات الألوهية، والألوهية تتضمن الربوبية.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ الذي يفعل هذه الأشياء ويُنعم، ويمنع، ويرفع، ويخفض، ويحيي، ويميت، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ الثابت ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ وهذه الدلائل والبينات الواضحات، ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ الكفر والضياع، ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ عن الإيمان مع وجود هذه الأدلة البينة الظاهرة الجلية.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما صرف هؤلاء عن الإيمان، ﴿حَقَّتۡ﴾ وقعت وثبتت ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ الكونية والحكم السابق، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ كفروا، ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لا يستجيبون لأنَّ الكلمات الكونية تكون في المحبوب وغير المحبوب، أما الكلمات الشرعية فلا تكون إلا في المحبوب، فينبغي للمسلم أن يتفطن لهذا الأمر؛ لأنَّ كثيرًا من المخالفين ربما يقول: قد أراد الله مني الكفر فلمَ يُعذبني عليه، نقول: أراده كونًا لا شرعًا؛ لعلمه بك أنك لست أهلًا للهداية، وللتوفيق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣٤ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد، ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ من أوثانكم وأصنامكم، ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ يُنشئه من غير أصل ولا مثال، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد موته واندثاره، فإن أجابوك ف: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ الذي تشركون وتنددون به ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ تُصرفون عن الحق، والبدأة والإعادة إليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

﴿قُلۡ﴾ يا محمد، ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ من أصنامكم وأوثانكم، ﴿مَّن يَهۡدِيٓ﴾ من يرشد ويدل ويوفق: ﴿إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ فسيخصمون ولا يُجيبون، وإن حاولوا

فمن باب المكابر، ﴿قُلِ﴾ لهم أنت يا محمد: ﴿اللَّهُ﴾ الذي، ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ فيوفق ويرشد ويدل، ثم خاصمهم مرة أخرى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو الله، ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ أحق بالاتباع والطاعة، ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ لا يهتدي من هذه الأصنام العاجزة عن هداية نفسها وغيرها، ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ من غيره، ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أن شركاؤكم لهم قدرة وقوة واستطاعة.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في عبادة الأصنام من المشركين والمنددين، ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ظن سيء، حيث ظنوا في آلهتهم الخير فضلوا حيث زعموا أنها تشفع لهم وأنها تقربهم إلى الله، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ الحدس ﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ لا يدفع عنهم العذاب ولا يجلب لهم النعيم، وقيل لا يقوم مقام العلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ويصنعون.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الذي أنزله الله على محمد ﷺ، ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ أن يكون مكذوبًا وما ينبغي له ذلك؛ لأنه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، ﴿مِن

دُونِ اللهِ﴾ إذ أنه كلام الله، فيستحال أن يؤتى بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة مثله، ﴿وَلَـكِن﴾ هذا القرآن والوحي المنزل ﴿تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة: كالتوراة، والأنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، ﴿وَتَفْصِيلَ﴾ وتبيين ﴿الْكِتَابِ﴾ ما كتبه الله من الأحكام ففيه بيانٌ للحلال والحرام والتوحيد والأحكام، ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك، ﴿فِيهِ﴾ بل هو تنزيل ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ اختلقه محمد ﷺ، ﴿قُلْ﴾ إن كنتم تزعمون أني افتريته: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فأنتم في البشرية مثلي، فإن كنت قد افتريته من نفسي فلا يعجزكم أن تأتوا بمثله إذا تمالأتم أو إذا افترقتم فأنتم أفصح العرب، ﴿وَادْعُواْ﴾ لإعانتكم على ذلك ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ من شركائكم وأعوانكم، ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ غير الله ليعينوكم على ما عزمتم عليه من الاتيان بمثل القرآن، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنه افتراء، بل هم عاجزون كاذبون.

﴿بَلْ﴾ إن السبب في ضلالهم أنهم ﴿كَذَّبُواْ﴾ أعرضوا وردوا وتولوا، ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ القرآن، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ عاقبة وحقيقة ما وعد وتوعد الله عَزَّوَجَلَّ به، فالتأويل يأتي بمعنى التفسير، وبمعنى الحقيقة، والمآل، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التكذيب الواقع منهم ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة فأعرضوا عن آيات الله وشريعته، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ بتكذيب الرسل فقد دمر الله عليهم كما قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس:١٤-١٥].

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من قومك يا محمد، ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، فيدخل في الإسلام ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أبدًا فيموت على الكفر ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠].

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد، ﴿فَقُل﴾ لهم مُظهرًا للبراءة منهم: ﴿لِّى عَمَلِى﴾ الذي أعمله وأتقرب به إلى الله وسأنال جزاؤه، ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ التي تُشركون فيها وتنددون، ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ

مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون:١-٦].

وقيل بأن هذه الآية منسوخة بآية السيف، بل إن الآية ليست على التقرير، ولكنها على الأنكار والتهديد.

﴿وَمِنۡهُم﴾ من الكفار ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ﴾ بآذانهم ولكن قد علا قلوبهم الران فلا يستجيبون، ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ عن سماع الحق، ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ ما يُلقى إليهم من الذكر الحكيم.

﴿وَمِنۡهُم﴾ من الكفار ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ﴾ بأبصارهم الظاهرة؛ ولكن قد عمت قلوبهم، ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ عن المعرفة ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ الحق والهدى كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج:٤٦].

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ٤٦ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٤٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٤٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٥٢ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ فهو في جميع أفعاله بين الفضل والعدل، فمن هداه فبفضله، ومن عذبه أو أضله فبعدله، وقد أحسن من قال:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

إِنْ عُـــذِّبُوا فَبِعَدْلِـــهِ أَوْ نُعِّمُـــوا فَبِفَضْـــلِهِ وَهُـــوَ الْكَـــرِيمُ الْوَاسِـــعُ

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بشركهم ومعاصيهم ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢]، والظالم لنفسه يخشىٰ عليه من انتقام الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقد حرم الله الظلم علىٰ نفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وعن أبي ذر في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فلَا تَظَالَمُوا**» أخرجه مسلم(٢٥٧٧).

﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ فيحشر الثقلين، ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا والقبور ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ لهول ما رأوا، ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضا، ثم ينقطع التعارف لشدة الأهوال ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ﴾ بالبعث والنشور، ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ لعلم الله أنهم ليسوا أهلًا للهداية.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد، ﴿بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ونحوه، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم، وهذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ إذا أراد بالأمة خيرًا قبض نبيها قبلها، وإذا أراد بها غير ذلك عذبها ونبيها حيٌ ينظر إليهم، حتى يقر عينه بهلاكهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ مطلعٌ، ويحكم ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الأعمال والأقوال والاعتقادات.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم السابقة ﴿رَّسُولٌ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالحق والهدى وكذبوه، ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل أي: فيعُذبون في الدنيا ويهلِكون بالعذاب وينجي الله الرسول ومن معه، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

۞ وهنا فائدة: وهي أن الصفات السلبية تتضمن كمال الضد، فنفي الظلم عن الله يلزم منه إثبات العدل.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الكفار، ﴿مَتَى﴾ يكون ويحل ﴿هَـذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا به سواءً القيامة أو العذاب، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إخباركم.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ من قحطٍ ومرضٍ ونحوه، ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ من صحةٍ وعافية ونحوها، ﴿إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ﴾ فالمُلك مُلكه والأمر أمره، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ممن سبقكم، ﴿أَجَلٌ﴾ مدة مضروبة لم يجاوزوها، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨]، ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ وقت فنائهم وعذابهم وإهلاكهم وموتهم: ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ يتأخرون ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُون﴾ يتعجلون، فالأمر عائد إلى ما قد سطره الله عليهم في اللوح المحفوظ وهو على مقتضى علمه وحكمته.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني يا معاشر المشركين، ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بَيَاتًا﴾ بالليل، ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وأنتم في مزارعكم وفي شأنكم، ﴿مَّاذَا﴾ ما الذي ﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾ أي العذاب ﴿الْمُجْرِمُون﴾ المعنى: ما الذي يعمله المجرمون حين يقع بهم هذا العذاب الأليم؟ لا يستطيعون شيئًا، بل ربما جأروا إلى الله حين لا ينفعهم الدعاء.

﴿أَثُمَّ﴾ أهنالك، وحينئذ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا﴾ العذاب، ﴿آمَنْتُم بِهِ﴾ بمحمد ﷺ، ﴿آلأن﴾ حين لا تنفع التوبة ولا الندم، ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ بالعذاب الأليم ﴿تَسْتَعْجِلُون﴾ استهزاءً وسخرية.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ اشركوا وذلك يوم القيامة، ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ النار لا يخرجون منها ولا ينالهم راحة بعدها، ﴿هَلْ﴾ ما ﴿تُجْزَوْنَ﴾ العذاب، ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كنتم تعملون من الذنوب والمعاصي وأعظمها الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ يستخبرونك يا محمد، ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ قيل: القرآن، وقيل: البعث، وقيل: العذاب، ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ الذي خلقني وأوجدني وقد أمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يقسم على البعث والساعة في ثلاثة مواطن من القرآن: هنا وفي سورتي سبأ والتغابن، ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ ثابت أي: البعث والنشور، ﴿وَمَا أَنتُمْ﴾ يا معشر الكافرين ﴿بِمُعْجِزِين﴾ بهاربين، وفائتين من العذاب

حُجج قوية أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه لو تدبرها مثل هؤلاء وبادروا إلى التزام شرع الله لَسَلمْهُم الله من العذاب الأليم والخزي العظيم، ولكن الهداية من الله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أشركت، ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ جميعًا من الأموال وغيرها ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [المعارج:١١-١٥]، وفي حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ**» متفق عليه.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أظهروا الندامة علىٰ تركهم الإيمان إذ أن يوم القيامة ليس بيوم تصبر وتصنع، وقيل معناه: أخفىٰ الرؤساء الندامة من الضعفاء خوفًا من ملامتهم وتعييرهم، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ إذ أن النار يؤتىٰ بها معها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء:٩٠-٩١]، ﴿وَقُضِيَ﴾ حُكِمَ ﴿بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وفرغ من القول فيهم كما قال تعالىٰ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورىٰ:٧]، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لكمال عدل الله.

﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه، ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وما بينهما، ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وهو الساعة، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لكفرهم وإعراضهم ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أوجدكم من العدم، ثم يميتكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، يبعثكم يوم القيامة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾ تذكرة، ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ خالقكم، ﴿وَشِفَآءٞ﴾ وجاءكم دواء ﴿لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ القلوب من داء الشرك والجهل، والصدر بمعنى القلب، والموطن الذي فيه القلب، والقرآن شفاء من الأمراض الحسية والمعنوية كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا﴾ [الإسراء:٨٢]، ﴿وَهُدٗى﴾ فيه هداية، وهو كتاب دلالة إلى طريق الحق، ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: رحم الله به المؤمنين من الشرك والبدع في الدنيا، كما يرحم الله عَزَّوَجَلَّ به المؤمنين في الآخرة بالسلامة من النيران والكرامة بأعالي الجنان.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد، ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ﴾ وهو القرآن، وقيل: الإيمان، ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ الجنة، وقيل: الإيمان، وقيل: السنن، ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ أي: أن الفرح بها أعظم من الفرح بالدنيا وما فيها من الأموال، بينما الكفار فرحهم بالدنيا، كما قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٨١]، والمؤمنون بكوا من تخلفهم عن رسول الله ﷺ.

وقد استدل بهذه الآية الصوفية والرافضة ومن إليهم من أصحاب الموالد: علىٰ أن الفرح المراد به العيد، وهذه مقولة لا دليل عليها.

فإن هذه الآية نزلت علىٰ محمدٍ ﷺ ولم يؤثر أنه والصحابة عملوا هذه الموالد المُحدثة والمبتدعة، وإن فُسرت الآية بأن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ هي محمد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فليس المراد بالفرح ما يحدثونه من الأعياد والموالد، إنما الفرح بشكر الله عَزَّوَجَلَّ والأنقياد لأمره وبمتابعة محمد ﷺ،

وأصحاب الموالد بين ضلالتين فمن كان فعله مجرد الاحتفال وإظهار الزينة والإجتماع فهي من البدع، وإن كان يقارن ذلك اعتقاد دعوىٰ حضور النبي ﷺ وسؤاله الرحمة وغير ذلك فهذا شرك أكبر مخرج من الملة، ومما سطر عليهم قول بعضهم:

قد اشرقت وابتهجت منها الدنيا ... ما بين حر جوها وبرد
من ليلة القدر نراها أحسنا ... قد جمعت أفراحنا وأنسنا
وأوسعتنا نعما ومننا ... وبلغتنا كل قصد ومنىٰ

﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿أَرَأَيْتُم﴾ أخبروني يا معاشر المشركين، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ من مطرٍ ونحوه إذ تُدّر به الضروع وتنمو به الزروع، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا﴾ ما حرموه على أنفسهم من الحرث والأنعام كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام:١٣٦]، ﴿وَحَلَـٰلًا﴾ كالميتة ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ إذنًا شرعيًا بالتحليل والتحريم، ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ تكذبون، وهذا للرد على قولهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨].

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي أي شيء ظنهم به ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أنه لا يحاسبهم ولا يجازيهم هذا لا يكون، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ المؤمنين الذين دخلوا في الإسلام وحققوه وعلى غيرهم بإنزال الكتب وأرسال الرُسل، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ينقادون، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد،﴿فِي شَأْنٍ﴾ من الشؤون الليلة والنهارية، ﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾ تقرأ ﴿مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ نازل، ثم جعل الخطاب للأمة: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ مطلعين فيشهد الله عَزَّوَجَلَّ لكمال علمه، وتشهد الملائكة التي تكتب، وتشهد الجوارح، ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تدخلون وتخوضون، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ يغيب عن ربك، ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: من ذرة فما دونها وما فوقها، ﴿فِي الأَرْضِ﴾ المترامية الأطراف، ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ الواسعة الأرجاء، ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ قد سطره الله عَزَّوَجَلَّ في اللوح المحفوظ.

❁ وهذا دليل علىٰ ما يُسمىٰ بالكتابة في باب القدر.

وقد نظم السفريني مراتب القدر بقوله:

علـــمٌ كتابـــةُ مَولأنـــا مَشِـــيئتُه وخلقُـــه وَهـــو إيجـــادٌ وتكْـــوينٌ

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَلا﴾ حرف تنبيه، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ﴾ من فعلوا المأمور وتركوا المحظور، وذروتهم الأنبياء ويليهم أهل الإيمان الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢]، وكونهم أولياء لله ينصرهم، ويعينهم، ويحفظهم، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يقدمون عليه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مما فاتهم.

وأولياء الله هم ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ ورسله وحققوا التوحيد والعلم والعمل، ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور وترك المحظور، وعند أبي يعلى: من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ: « **إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، وَلا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ بِقُرْبِهِمْ وَمَقْعَدِهِمْ مِنَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، قَالَ: وَفِي نَاحِيَةِ الْقَوْمِ أَعْرَابِيٌّ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ،

وَرَمَى بِيَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: حَدِّثْنَا يَا رَسُولَ اللهِ عَنْهُمْ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: فَرَأَيْتُ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ الْبِشْرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هُمْ عِبَادٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ مِنْ بُلْدَانٍ شَتَّى، وَقَبَائِلَ شَتَّى مِنْ شُعُوبِ الْقَبَائِلِ، لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ يَتَوَاصَلُونَ بِهَا، وَلا دُنْيَا يَتَبَاذَلُونَ بِهَا، يَتَحَابُّونَ بِرُوحِ اللهِ، يَجْعَلُ اللهُ وُجُوهَهُمْ نُورًا، وَيَجْعَلُ لَهُمْ مَنَابِرَ مِنْ لُؤْلُؤٍ قُدَّامَ الرَّحْمَنِ، يَفْزَعُ النَّاسُ وَلا يَفْزَعُونَ، وَيَخَافُ النَّاسُ وَلا يَخَافُونَ**».

۞ فالولي: هو المؤمن التقي، وليست الولاية بقميص يفصله الشخص كيف يريد كما هو صنيع الصوفية، فتجد أن الولي عندهم أبعد الناس عن دين الله، بل ربما قد استباح المحظورات، وترك المأمورات؛ لاعتقادهم أن الإنسان إذا وصل إلىٰ درجة الولاية أُبيح له كل شيء، ويستدلون بقول الله عز جل: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر:٩٩]، مع أن اليقين: الموت.

وأولياء الله ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالثبات والتمكين والعز المبين وقد اختلف في عدد البشارات للمؤمن، فقيل: ثلاث بشارات، وقيل: بشارتان.

۞ **لكن الصحيح أن لهم ثلاث بشارات:**

الأولىٰ: بشرىٰ في الدنيا: وهي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرىٰ له ففي حديث ابن عباس عند مسلم: قَالَ كَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ السِّتْرَ وَرَأْسُهُ مَعْصُوبٌ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ: «**اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا يَرَاهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ**».

الثانية: ثناء المسلمين عليه: كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَىٰ الْمُؤْمِنِ**»

الثالثة: البشرىٰ في القبر وفي الآخرة: حين يُبشر العبد بروحٍ وريحان وربٍ راضٍ غير غضبان كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ

بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَىٰ رَوْحِ اللهِ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ الْمِسْكِ، حَتَّىٰ أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» أخرجه النسائي، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ لهم البشرىٰ حين يُبعثون، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصلت:٣٠]، ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ لا تغيير ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ الكونية، وهكذا أخباره لا تُغير ولا تُبدل، وإنما يقع النسخ في الأحكام في الآيات الشرعية، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمِ﴾ أي: هذه البشارات بالمكرمات العظيمات هي الفوز العظيم.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا محمد، ﴿قَوْلُهُمْ﴾ السيء، الرديء أنك جئت لتفريقهم وجئت بدين جديد، وابشر بالنصر والتمكين: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ فهو القوي العزيز الذي لا يُغلب ولا يُقهر، وهذا وعد من الله عَزَّوَجَلَّ بنصرة رسوله ﷺ، ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعائك، ﴿الْعَلِيم﴾ بحالك.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ لا يخرج عن ملكه شيء، ولا يعزب عن علمه شيء، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أصناما واتخذوهم ﴿شُرَكَاء﴾ له على الحقيقة، وهذا من كذبهم فليس له شريك، وقيل: هو استفهام معناه: وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، وقيل: ما يتبعونها حقيقةً؛ لأنهم يعبدونها على

ظن أنهم شركاء فيشفعون لهم، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ أنها تقربها من الله كما قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُون﴾ يكذبون.

﴿هُوَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿الَّذِى جَعَلَ﴾ صير ﴿لَكُمُ﴾ مِنَّة منه وفضل ﴿اللَّيْلَ﴾ بظلمته ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ وهذا من عظيم آياته الكونية، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لطلب المعاش ونحوه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ﴾ في تعاقب الليل والنهار، ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُون﴾ سمع اعتبار وتعقل.

﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ النصارى واليهود ومن وافقهم، بل إن المشركين زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ عن هذه التهمة الشنيعة، ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ إنما يحتاج الولد المخلوق الذي يموت ويضعف وإلا فإن الله عَزَّوَجَلَّ غناه ذاتي فهو الغني كيف يكون له ولد؟ ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَاوَات وَمَا فِى الأَرْضِ﴾ وما بينهما وما فيهما، ﴿إِنْ﴾ ما ﴿عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ حجة ﴿بِهَـذَا﴾ القول، ﴿أَتقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُون﴾ فإن هذا من أعظم الإجرام.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون ﴿عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ من أن له صاحبة وولدًا، ﴿لَا يُفْلِحُون﴾ لا ينجون ولا يُنصرون ولا يُمتعون ولا يسعدون.

إنما لهم: ﴿مَتَاعٌ﴾ قليل ﴿فِى الدُّنْيَا﴾ مدة حياتهم، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت فيُحشرون حفاةً عراةً غرلًا، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ الموجع، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُون﴾ بسبب كفرهم.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿ وَاتْلُ﴾ واقرأ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أهل مكة ومن إليهم، ﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿نُوحٍ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أول رسول إلى أهل الأرض، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ الذين كفروا بالله عَزَّوَجَلَّ وتمردوا على شرعه ودينه، ﴿يَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ عَظُمَ وثَقُلَ وشق، ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ طول مكثي فيكم إذ مَكَثَ يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ألف سنة إلا خمسين عاما، ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ ووعظي إياكم، ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بحججه وبيناته، وكنتم قد عزمتم على قتلي وأذيتي ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت، ولن يقع منكم ضررٌ عليَّ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا حفظ العبد حفظه، ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ اعزموا على ﴿أَمْرَكُمْ﴾ وهو قتلي ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ يعني: اشتركوا أنتم وشركاؤكم فيما عزمتم عليه من قتلي وأذيتي، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ خفيًا مُبهمًا، بل ليكن أمركم ظاهرًا للعيان فلست بخائف منكم، ولست بمتخوف من مكركم مع أنهم قد مكروا مكرًا عظيما كما قال الله لأ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح:٢٢]، ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ امضوا ما عزمتم عليه من القتل أو الإخراج كقوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٢]، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ تؤخروني، وهذا من عظيم ثقته واعتماده على الله عَزَّوَجَلَّ، ومن عجيب توكله وقد حصل هذا الموقف بعينه والقول بنصه مع محمد ﷺ وهود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن قولي وقبول نصحي وتذكيري، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ طلبتكم ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ ثوابا على دعوتي لكم إلى دين الله وتبليغي لشرع الله، وهكذا هو شأن الرُسل وأتباع الرُسل: أنهم لا يسألون أجرًا على فعلهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، والناس إذا سُئلوا الأجر والمثوبة يوشك أن يتنكروا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد:٣٦-٣٧]، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى

اللهِ﴾ ألقاه يوم ألقاه، ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أمرني الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين له بالتوحيد، والمنقادين له بالطاعة، والمتبرئين من المشركين.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: قومه، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي﴾ في السفينة العظيمة التي صنعها نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو أبو البشرية الثاني، وسيأتي ذِكر ذلك في سورة هود إن شاء الله، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ في الأرض للقوم الهالكين، وأصبحت ذرية بني آدم من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن نسله، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ كفروا، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الشرعية، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ عقوبة ﴿الْمُنذَرِينَ﴾ المدعوين حيث لم يستجيبوا للنذارة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح، ﴿رُسُلاً﴾ متكاثرة يلي ويعقب بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون:٤٤]، ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ إلى أممهم إذ أن كل رسول كان يُبعث في قومه خاصة، ﴿فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالهدى والكتاب المنزل والوحي المبين، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لينقادوا لشرع الله ودينه، ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ بسبب تكذيبهم، يعني: أبوا الأنقياد والإيمان بسبب ما ابتلوا به من التكذيب والإعراض، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما طبع عليهم فلم يؤمنوا ﴿نَطْبَعُ﴾ نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ الكافرين فلا تنفع فيهم موعظة ولا ينزجرون لزجرٍ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا ﴿مِن بَعْدِهِم﴾ من بعد هؤلاء الرسل الذين تكاثر عددهم، ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ وهم من رُسل بني إسرائيل، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر الجبار الذي ادعى الربوبية بقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿وَمَلَإِيْهِ﴾ قومه لا سيما الأشراف منهم، ﴿بِآيَاتِنَا﴾

الوحي المنزل وهو التوراة، ﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾ أعرضوا وتجبروا وتكبروا عن الإيمان، ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين.

﴿فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: قوم فرعون، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بينٌ واضح، حين رأوا الآية العظيمة وهي عصا موسى حيث ألقاها فإذا هي حيةٌ تسعى، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ ردًا لهذه التهمة، ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ المنزل، ﴿لَمَّا جَآءَكُمْۖ﴾ أتاكم، ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ مفترى، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ في الدنيا ولا في الآخرة ولا يتم لهم أمر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩]، فكيف تزعمون أن هذا سحر وقد أتمه الله وأكمله.

ثم أتوا بحجةٍ أوهى من خيط العنكبوت: ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: فرعون وقومه، ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا موسى، ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرفنا: ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أنت وهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ الملك والسلطان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد أنهم لن ينقادوا ولن يصدقوا.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَ﴾ عند ذلك: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ كبرًا وبغيًا ﴿ائْتُونِي﴾ يا معاشر الحرس ومن إليكم، ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾ من سحرة مصر ﴿عَلِيمٍ﴾ بفنون السحر، وكان قد فشا فيهم.

﴿فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ﴾ إلى فرعون وعدهم بأن لهم المكنة والعزة والغلبة، ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى﴾ بعد أن قالوا له: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]: ﴿أَلۡقُواْ مَا أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ من الحبال والعصيّ لمواجهة الآية العظيمة التي آتاه الله بها.

﴿فَلَمَّا أَلۡقَواْ﴾ حبالهم وعصيهم، وكان قد وقع في قلبه بعض الشيء من التخوف كما قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه:٦٨-٦٩]، فبعد أن ثبته الله: ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم﴾ ما أتيتم، ﴿بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ﴾ يعني: ما هو إلا سحر لا ينفعكم بل هو مبتور، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ سيتلفه ويهزمه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عمل السحرة والكافرين.

۞ وهذه الآية بعمومها تدل: علىٰ أن كل عمل يخالف الكتاب والسنة لا صلاح فيه.

﴿وَيُحِقُّ﴾ يُظهر ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾، الكونية والشرعية ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ ذلك ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ الكافرون، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ مع دعوته بالحجج الظاهرة والآيات البينة القاهرة، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٞ﴾ قليلة، ﴿مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ من بني إسرائيل، ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ﴾ حين مخافة، ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ إذ كانوا يبطشون بالمؤمنين ويقهرونهم، ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ في دينهم، وقد قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩]، ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ﴾ متكبر ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ المتجاوزين، ومن أعظم تجاوزه أنه قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ومنها: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ ربًا وصدقتم بوعده، ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ اعتمدوا واصدقوا في ذلك، ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ مستسلمين لله بالتوحيد منقادين له بالطاعة.

﴿فَقَالُواْ﴾ ملتزمين لأمر نبيهم الكريم: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ واعتمدنا في جميع شؤوننا، ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً﴾ يقهروننا ويبطشون بنا، ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين.

﴿وَنَجِّنَا﴾ سلمنا يا ربنا، ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ التي وسعت كل شيء، ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ من بطشهم وبغيهم.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون، ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ اتخذا، ﴿لِقَوۡمِكُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿بِمِصۡرَ﴾ البلد المعروف، ﴿بُيُوتًا﴾ أماكن يأوون إليها، ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ مصلى وقيل تكون في جهة قبلتهم، قال أكثر المفسرين: كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في كنائسهم وبيعهم وكانت ظاهرة، فلما أُرسل موسى أمر فرعون بتخريبها ومنعهم من الصلاة فأُمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلون فيها خوفًا من فرعون، هذا قول إبراهيم وعكرمة وابن عباس، وقال مجاهد: خاف موسى ومن معه من فرعون أن يصلوا في الكنائس الجامعة فأُمروا بأن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة بيت المقدس، وقيل: بأن الكعبة كانت قبلة موسى والله أعلم، ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، وقيل: هذا أمر لبني إسرائيل، وقيل: أمر للنبي ﷺ ومن معه، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والتمكين، وقد بشر رسول الله ﷺ أمته بقوله: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ**» أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ في دعائه على فرعون بعد أن كثر تجبره وعظم خطره، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ﴾ أعطيت ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ زبانيته ومن إليه، ﴿زِينَةً﴾ من الأبناء والملابس الحُليّ، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ من الأنعام وغيرها، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟﴾ بعد ذلك ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾ اختلفوا في هذه اللام قيل: هي لام كي، معناه: آتيتهم كي تفتنهم فيَضِلوا ويُضِلوا كقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن:١٦-١٧]، وقيل: هي لام العاقبة يعني: فيضلوا وتكون عاقبة أمرهم الضلال كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ الطمس: المحق، ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ اطبع عليها يعني: دعا عليهم من كثر بغيهم أن يستمروا على ما هم عليه من الكفر والبعد، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ لا ينقادوا، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الموجع والهلاك المفسد، وفعلًا بقوا على ما هم فيه حتى وجدوا الغرق.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ دعاؤكما مع أن الداعي واحد وهو موسى والمؤمن هارون، لكن لما كان شأنهم واحد كانت دعوة الجميع، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على شرع الله ودينه، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ﴾ طريق ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا نهي عن البدعة، ونهي عن الضلال بعد العلم بسبيل الاستقامة.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَجَاوَزْنَا﴾ عبرنا ﴿بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ حين خرجوا من مصر فارين بدينهم، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا﴾ حال بغيهم، ﴿وَعَدْوًا﴾ حال اعتدائهم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ﴾ لحقه ﴿الْغَرَقُ﴾ أي: فرعون وقومه؛ فكان شأن موسى حين وصل البحر: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ

أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الشعراء:٦١-٦٥]، فدخل موسى وقومه وكانت الأرض يابسة لا أثر فيها لماء، فلما جاوزا البحر أطبقه عَزَّوَجَلَّ فأخذ فرعون وقومه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ﴾ لحقه ﴿ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ فرعون ﴿ءَامَنتُ﴾ أيقنت وصدقت وأقررت ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يعني الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المنقادين المستسلمين.

فكان الجواب بعدم قبول توبته: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ قلت ذلك، ﴿وَقَدۡ﴾ وأبيت الإسلام والأنقياد، ﴿قَبۡلُ﴾ حصول الغرق وتيقن الهلاك ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ الكافرين المعرضين.

❁ ومعلوم أن الإيمان في حال الغرغرة وحال طلوع الشمس من مغربها لا ينفع، وإنما ينتفع العبد بالتوبة ما لم يُغرغر.

❖ وأخرج الترمذي (٣١٠٧) والحاكم (١٨٩) وغيرهما حديثًا: عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ قَالَ**: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، **فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ البَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ**»، والذي يظهر أن هذا الحديث فيه نكارات لا يستقيم القول بثوبته؛ لأنه لو كان الزمن زمن توبة فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، وقد أسلم كثير من الكفرة وقبل الله توبتهم، لكن هذا في غير زمن توبة.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: يوم الغرق، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ نسلمك ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بجسدك لا روح فيه، ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ أي: لأتباعك عبرة وعظة والمعنى: أنه كان يدعي الربوبية، فلو أخذه البحر وذهب معه لقال أصحابه: عُرِجَ به أو ذهب لميقاته أو نحو هذا من الأقوال التي يقولها المشركون والمنددون، وربما فتن به بنو إسرائيل أيضًا، لكن جعله الله لهم على

مرتفع يراه الجميع ويعلمون ضعفه وعجزه وخوره وأنه ليس بإله، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ سواءً الآيات الكونية أو الشرعية.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعد هلاك فرعون، ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزل صدق قيل: الأردن وفلسطين، وقيل: الأرض المقدسة، وقيل: مصر والشام، ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الحلالات، ﴿فَمَا اخْتَلَفُواْ﴾ بل بقوا على قول واحد في كثير من الشأن ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ التوراة والبيان، فصاروا مخالفين له مختلفين فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي﴾ يحكم ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من شأن محمدٍ ﷺ وغير ذلك مما وقع منهم الخلاف فيه.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿فَإِن كُنتَ﴾ يا محمد، ﴿فِي شَكٍّ﴾ ريب، ولا شك عنده ﷺ لكن الخطاب له، والمراد من اتبعه، ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من الوحي والقرآن، ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ اليهود والنصارى ممن عندهم علم عن حقيقة ما أوحي إليك، فيخبرونك أنه مكتوب في التوراة والأنجيل، ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الوحي والقرآن الذي لا ريب ولا شك فيه، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية وهي: القرآن والسنة، ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وهذا خطاب مع النبي ﷺ والمراد به غيره؛ لأنَّ النبي ﷺ بعيد عن الشك والريب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ﴾ وقعت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الكونية من أنهم في النار، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا ينقادون ولا يقرون، ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ سواءً من الآيات الشرعية، أو المعجزات والدلائل البينة الكونية، ﴿حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ ومع ذلك لا يؤمنون.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ

أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾ أريد أهلها بالعذاب ﴿آمَنَتْ﴾ قبل نزول العذاب بها ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ حين قرب منهم العذاب تابوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأنابوا، ويونس بن مَتَّى، كان قومه بنينوي من أرض الموصل، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا، فخرج مغاضبًا لهم فاستيقنوا أن العذاب واقعٌ بهم فتابوا وأنابوا، ﴿كَشَفْنَا﴾ رفعنا ﴿عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالهم، وقد اختلفوا هل رأوا العذاب عيانًا أم رأوا دلائله، والأكثرون على أنهم رأوا العذاب عيانًا بدليل: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ والكشف يكون بعد الوقوع، وهذه رحمة من الله عَزَّوَجَلَّ لما علم صدق توبتهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد، ﴿لَّءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ ولكنه أعلم بأهل الهداية، والحال كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:٦٩]، فالأمر إلى الله، ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ تأطرهم وتلزمهم على الإيمان، ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ فهذا لا يكون والحال إنما هو كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى:٩-١١]، واقتضت حكمة الله عَزَّوَجَلَّ وجود الأبرار والفجار، ووجود المؤمنين والكفار.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ مهما حرصت، ﴿أَن تُؤْمِنَ﴾ تقر وتنقاد، ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ الكوني، أما الشرعي فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد أمر الجميع بطاعته وعبادته، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل لذلك، ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أمر الله وأمر نبيه ﷺ.

﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين المعرضين: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ في الدلائل والبينات التي ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الآيات العظيمات والنجوم السائرات، والشمس المنيرة، والقمر وما فيها من الحكم، الدالة على إفراد الله بالوحدانية.

❁ وهذا دليل علىٰ أن النظر إذا عُديَّ بنفسه فهو بمعنىٰ: التفكر.

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ﴾ الدلائل والحجج ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ الرسل، ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ لا ينقادون.

﴿فَهَلْ﴾ فما ﴿فَهَلْ﴾ هؤلاء الذين كفروا وتمردوا، بتكذيبك ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ﴾ عذاب وهلاك ﴿الَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ مضوا، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ العذاب، ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: هذا على التهديد كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥]، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق:٤٥].

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٢]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١]، فالنجاة لهم في الدنيا والآخرة، وقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧٢]، ﴿كَذَلِكَ﴾ الأنجاء ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين صحبوا النبي ﷺ وساروا على طريقته وهذا حق أوجبه الله عَزَّوَجَلَّ على نفسه.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المتمردين المعرضين: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ أهل مكة ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ ريبٍ ﴿مِّن دِينِي﴾ الذي جئتكم به، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ الواحد القهار، ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يقبض أرواحكم، ولا يعجزه شيء من تصريف الليل والنهار، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون من المنقادين لرب العالمين.

﴿وَ﴾ قيل لي ﴿أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أخلص عملك، ويدخل فيه إقام الصلاة، ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد موحدًا لرب العالمين، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لأنَّ من أشرك حبط عمله، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥].

﴿وَلَا تَدْعُ﴾ تعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ بجلب الخير، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بجلب الشر، ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ عبادة غير الله، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين الذين ضروا أنفسهم وأردوها.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ يصبك ﴿اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ في جسدك أو مالك أو ولدك، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ لا رافع له: ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ من رخاءٍ، ونعمةٍ، وسعة، وولد، ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾ لا مانع لرزقه، وفي حديث المغيرة: «**اللهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**» متفق عليه، ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ الرزق والخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المتجاوز، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الموفق للخير.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ﴾ القرآن والرسول، ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بهداية القرآن، ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ﴾ يثاب عليه وإلا فإن الله غني عن العالمين،

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ من حادَ وانحرف إنما ضر نفسه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ بكفيل أحفظ أعمالكم، بل إن الله عَزَّوَجَلَّ قد حفظها ويجازيكم عليها، وقيل: بأن هذه الآية نسختها آية القتال.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ يا محمد ومن تبعك، ﴿وَاصْبِرْ﴾ على الدعوة وعلى أذاهم وهذا كان في أول الأمر، وأما في آخره فالحال كما قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ﴾ [التوبة:١٢٣]، ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ يقضي الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قضى بجهادهم وقتلهم إن أبوا إلا الاستمرار في كفرهم، وكان الحال أنه صبر ﷺ حتى حكم الله على المشركين بالقتال واليهود والنصارى ومن في حكمهم بالجزية ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أعدلهم، والله المستعان.

تم تفسير سورة يونس بحمد الله ومنته.

تفسير

سورة هود

سُورَةُ هُودٍ

❁ مكية، إلا قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا﴾ [هود:١١٤].

❁ وهي مائة وثلاثة وعشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ﴾ القرآن الكريم، ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ فُصِلَت وبُينت ووضحت آياته الشرعية، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بيُنت وجليت، ﴿مِن لَّدُنۡ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ فيما يفعل ﴿خَبِيرٍ﴾ بما يُصلح الناس.

❁ **وهذه الآية من أقوىٰ الأدلة في رد مذهب المفوضة الذين يزعمون:** أن آيات الصفات غير معلومة المعاني، فيخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن هذا الكتاب قد أُحكم وبُين ووضح، وأنه قد فصله فأظهر حلاله وحرامه، وبين الوعد والوعيد، وليس بين أدلته تعارض ولا تناقض؛ لأنه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت:٤٢] مما يدل علىٰ ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُون﴾ [الأنعام: ٨٠] ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُون﴾ [البقرة: ٤٤]، ونحو ذلك من الآي والأمر بتدبره وفهمه، دليل علىٰ أنه معلوم المعاني وإن التفويض في كيفية الصفات إذ لا يعلم كيف هو إلا هو، مع أن ما من صفة إلا ولها كيفية لكن يعلمها الله عَزَّوَجَلَّ،

لأنَّ الكيفية تعرف بالنظر إلىٰ المكيف أو إلىٰ مثيله أو إخبار من رآه عنه وكلها ممتنعة في حق الله عَزَّوَجَلَّ.

ومما فصله الله في هذا الكتاب ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ توحدوه ففي هذا الكتاب: الدعوة إلىٰ التوحيد، ونبذ الشرك والتنديد أي: ودعاكم أن تعبدوا الله وتفردوه بذلك، وهذا معنىٰ لا إله إلا الله، ﴿إِنَّنِي﴾ محمد ﷺ، ﴿لَكُم﴾ يا معشر قريش ﴿مِّنْهُ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿نَذِيرٌ﴾ للعاصين، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ للمطيعين.

وفي هذا الكتاب ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ طلب المغفرة المقترن بالتوبة، ﴿رَبَّكُمْ﴾ الذي خلقكم وأوجدكم من العدم، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ارجعوا إليه من معاصيكم وذنوبكم بالاستغفار والإقلاع والندم، فإن فعلتم ذلك: ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ في دنياكم ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ فيفتح عليكم الأرزاق الكثيرة البهية العظيمة، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو الموت، ﴿وَيُؤْتِ﴾ يعطي ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ في العمل ﴿فَضْلَهُۥ﴾ الجنة فيؤتي المؤمنين الطائعين فضله العظيم وهو جنة النعيم، وهذا وعد لا يُخلف وعهد لا يُنقض، ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ تعرضوا يا معشر قريش بعد هذه النذارة والبشارة، ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾ في أهواله وفي مدته.

﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بعثكم ونشوركم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجز ولا يغلب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ هذا خبر عن بعضهم، ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يخفون ما في صدروهم من الشحناء والعداوة، وفي البخاري: عن ابن عباس يقرأ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنُونِي صُدُورُهُمْ﴾، قال سألته عنها فقال: أُنَاسٌ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ، وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ فَنَزَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ، وفي لفظ: قَرَأَ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ﴾ قُلْتُ: يَا أَبَا العَبَّاسِ مَا تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يُجَامِعُ امْرَأَتَهُ فَيَسْتَحِي أَوْ يَتَخَلَّى فَيَسْتَحِي، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ﴾.

ويفعلون ذلك ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ أي: من الله عَزَّوَجَلَّ ألا يراهم مع أن الله هو: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩]، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يتغطون بها ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ يكتمون، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون فلا يغني استخفاؤهم، وبدأ بذكر

الإسرار قبل الإعلان؛ ليبين أنه لا يخفىٰ عليه شيء، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب وفي مسلم (٢٧٧٥): عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ وَقَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ، إِنْ جَهَرْنَا، وَلَا يَسْمَعُ، إِنْ أَخْفَيْنَا وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ، إِذَا جَهَرْنَا، فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢] الْآيَةَ.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧﴾.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كل ما دب من الحيوان والإنسان والطير والوحوش والأسماك في البحار، ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هو المتكفل بذلك فضلًا، ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ مسكنها وقيل: الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ﴾ قيل: أصلاب الرجال، وقيل الرحم وقيل: بعد الموت، ﴿كُلٌّ﴾ مما ذكر ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهذه آية عامة تدعوك أيها المسلم إلى حسن الظن بالله والثقة فيه، فإنه قد تكفل لك برزقك، فلا تبع آخرتك بدنياك وهو دليل على عظيم قدرة الله النافذة، وعلى قوته الغالبة، وأنه لا يعجزه شيء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: «**خَلَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ**» فقد أعله أهل العلم على أنه من قول كعب الأحبار ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: قبل أن يخلق السماوات والأرض، وكان

الماء على الريح كما ذكر أهل التفسير، فلما خلق السماوات والأرض استوى على العرش، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩]، استواءً يليق بجلاله، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ حيث خلق السماء في يومين، وخلق الأرض في يومين، وقدر في الأرض أقواتها في يومين فصارت ستة، وفي البخاري (٣١٩١) عن عمران بن حصين: أن أهل اليمن سألوا النبي ﷺ عن أول هذا الأمر فقال: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**»، ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ ليختبركم: ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ ولم يقل أكثر ويكون حُسن العمل بموافقة الكتاب والسنة، كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ أخلصه وأصوبه، وقال العمل لا يقبل حتى يكون صوابًا، فالخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السنة ﴿وَلَئِن قُلۡتَ﴾ لهم يا محمد، ﴿إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ مخرجون من قبوركم من بعد موتكم، ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ تكذيبًا وردًا، ﴿إِنۡ﴾ ما ﴿هَٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ واضح جلي، وفي قراءة: ﴿إِنْ هَذَا إلا سَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ ، يريدون محمدًا ﷺ.

﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ﴾ مجيء ﴿أُمَّةٖ﴾ فترة ﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾ معلومة، ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ سخرية واستهزاءً ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾ ما يؤخره ويمنعه أن يصيبنا إذ كانوا يستعجلون به، ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾ العذاب، ﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا﴾ مدفوعًا أو مرفوعًا ﴿عَنۡهُمۡ﴾ بل ينكل الله عَزَّوَجَلَّ بهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ حل بهم ونزل، ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يسخرون.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الكافر ﴿مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ نعمةً وسعة ورزقًا حسنًا، ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ رفعناها منه؛ بسبب ذنوبه ومعاصيه أو للاختبار والابتلاء، ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ قنوط،

﴿كَفُورٌ﴾ بالنعمة، وهذا حاله في الحالين: إن أصابته الشدة قنط، وإن أصابته النعمة كفر، بخلاف المؤمن إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾ رخاءً وخيرًا ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ﴾ شدةٍ وعناءٍ، ﴿مَسَّتْهُ﴾ أصابته ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أشرا بَطِرًا ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ﴾ المصائب ﴿عَنِّي﴾ ويرد الأمر لنفسه، كما قال مجاهد: يقول هذا لي أُوتيته على علم مني، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أشرٌ بطر، وعن البراء النبي ﷺ يقول: «**وَالْأَشَرَةُ شَرٌّ**» أخرجه أحمد(١٨٥٣٠).

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا﴾ على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ الكونية والشرعية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّين﴾ [المعارج:١٩-٢٢].

﴿الصَّالِحَاتِ﴾ بادروا بالأعمال الصالحات المحبوبات إلىٰ رب البريات، ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين عملوا بما تقدم، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ تجاوز، ﴿وَأَجْرٌ﴾ ثواب ﴿كَبِيرٌ﴾ يلقونه يوم القيامة، تضاعف لهم الحسنات ويُكرمون برفع الدرجات في الجنات العاليات.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ﴾ من القرآن فلا تبلغه، وهذا لا يكون؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧]، ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ بتلاوتك عليهم خوفًا منهم كما قال النبي ﷺ في حديث عِياض بن حمار: «**وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ**»، أخرجه مسلم(٢٨٦٥).

﴿أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ يعني: لا نؤمن حتى يأتينا بكنز يُنفقه، ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ يشهد على نبوته ورسالته، ويصدقه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ فلا عليك غير البلاغ، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، فلا تسمع كل ما يطلبونه، ولا تطبق كل ما يريدونه منك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر:٨]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ مطلع لا تخفى عليه خافية.

﴿أَمۡ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: الكفار، ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ اختلقه واخترعه، ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد، ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ في الفصاحة والبلاغة لأنه كان قد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا، وقد تقدم في سورة يونس: أنه تحداهم أن يأتوا بسورة مثله، ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ مكذوبات، ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ نادوا ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان ونحوهم لمساعدتكم وإعانتكم في هذا الذي ترجونه وتؤملونه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ وهيهات فإنهم عاجزون عن ذلك.

﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾ في دعوتكم لهم إلى الإيمان بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا ونبيًا، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ القرآن ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ وليس افتراءً عليه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ يفعل ويتصرف كيف شاء، لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ مستسلمون منقادون لرب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بعد هذه الحجج القاطعة والأدلة الدامغة.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله الصالح، ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وما فيها من الزخارف والملهيات، ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أجور أعمالهم التي عملوها من أجل الدنيا، ﴿فِيهَا﴾ في الدنيا، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا يُنْقَصُونَ من أجورهم شيئًا، واختلف في معني هذه الآية فقيل: بأنهم أهل الريا.

لكن معلوم أن الرياء ينقسم إلىٰ قسمين:

- **الأول:** رياء أكبر مخرج من الملة، وهذا لا يصدر إلا من منافق، كما قال تعالىٰ: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

- **الثاني:** رياء أصغر: وهو الذي تخوفه علينا رسول الله ﷺ بقوله: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ**» أخرجه أحمد(٢٣٦٣٠) عن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما المؤمن فإنه يعمل العمل الصالح لله، وقد يطرأ عليه المراءة، فيدفعها إما أن يكون عمله الصالح للدنيا فلا يُصلي، ولا يزكي، ولا يصوم، ولا يحج، ولا يعتمر ولا يفعل شيئًا من هذه الأعمال إلا للدنيا فهذا لا يصدر إلا من منافق.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾ يعملون الأعمال الصالحة لإرادة الدنيا، ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ يُخلدون فيها، ﴿وَحَبِطَ﴾ بطل وذهب ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ في الدنيا من الأعمال، ﴿وَبَاطِلٌ﴾ ذاهب ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠]، وهذه تُحمل على هذا المعنى، أما من عمل عملًا يريد الآخرة وربما رجى شيئًا من الدنيا فعن أنس بن مالك قال النبي ﷺ يقول: «**إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأما الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ**» أخرجه مسلم(٢٨٠٨)، والكافر ليس له في الآخرة من حسنة؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

فالشاهد: أن الرياء الأكبر لا يصدر من مسلم، وإنما هو طريق المنافقين والكافرين، وأما الرياء الأصغر فقد يطرأ علىٰ المسلم؟

❁ وله فيه حالات ذكرها أهل العلم:

- **الأولىٰ**: إن كانت العبادة متصلة واستمر في الرياء تبطل.

- **الثانية**: إن كانت العبادة منفصلة، فما أخلص فيه لله عَزَّوَجَلَّ قُبِلَ، وما شَرَّكَ مع الله عَزَّوَجَلَّ غيره رُدَّ، وذكر ابن رجب في شرحه علىٰ الأربعين، أن المؤمن حتىٰ وإن راءىٰ فإن أصل العمل لله، فيبقىٰ له الأجر علىٰ أصل العمل، ثم يحبط ما راءىٰ فيه، وهذا معنىٰ حسن.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ بيان وإيضاح، ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ قيل: في الآية حذف ومعناه: فمن كان على بينة من ربة كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، أو كمن هو في الضلالة والجهالة، والمراد بالذي هو على بينة من ربه: النبي ﷺ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قيل: جبريل هو الذي يتلو القرآن على محمد ﷺ، ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ قبل مبعث النبي ﷺ وقبل القرآن، ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ وهو التوراة، ﴿إِمَامًا﴾ أي: شاهدًا ومصدقًا للقرآن، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به واتبعه في حينه، ﴿أُوْلَـٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، وهكذا أصحاب محمد ﷺ يؤمنون بالكتاب المنزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جملةً، وأما بعد تحريفه وتغييره وتبديله فلا يجوز الإيمان بما فيه؛ لعدم معرفتنا بالمغير والمبدل من الثابت، ولكن نؤمن أن الله أنزل كتابًا اسمه التوراة وتكلم به وخطه بيمينه، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: بمحمد أو بالقرآن، ﴿مِنَ الأَحْزَابِ﴾ الكفار والملل المختلفة، ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ يوم القيامة، ﴿فَلَا تَكُ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ وهو عام لجميع الأمة، ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ في شكٍ ﴿مِّنْهُ﴾ في صدق القرآن وبيانه ووضوحه، ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الحق من الحق، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا ينقادون بسبب إعراضهم وكفرهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ولا ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ اختلق ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ من زعمهم أن له شريكًا وولدًا وله صاحبه، والمعنى: لا أحد أظلم من ذلك؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان:١٣]، وفي حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: سُئل النبي ﷺ: ما أعظم الذنب قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**» متفق عليه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين يفترون على الله الكذب، ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ يوم القيامة، ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ الذين يشهدون عليهم حيث تشهد عليهم الملائكة، وجوارحهم، والأنبياء، وكتبهم، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ فيما ادعوه، من أن له شريكًا ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين.

﴿الَّذِينَ﴾ من شأنهم أنهم: ﴿يَصُدُّونَ﴾ يمنعون الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ عن دين الله، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ الملة ﴿عِوَجًا﴾ عوجاء وهي الشرك والبدع وما إليها، وقد يكون الصد بلسان الحال وقد يكون بلسان المقال، فبلسان الحال: هم الذين يعترضونهم في طرقهم ويحاربونهم بسيوفهم وأسلحتهم، وبلسان المقال: التحذير من أهل الحق، ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ينكرون البعث والنشور.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكفار، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ﴾ سابقين، وهاربين، وفائتين ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غيره ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من أنصار وأعوان يحفظونهم ويعينونهم، ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ في الآخرة، وقيل: تُضاعف لهم الضلالة، ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ صمٌّ عن سماع الحق وعُمْيٌ عن بصره، ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: الكفار، ﴿الَّذِينَ خَسِرُواْ﴾ غبنوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿وَضَلَّ﴾ بطل ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُون﴾ يشركون فيزعمون من أن الملائكة والأصنام تشفع لهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا، وقيل: بلى، وقيل: لا محالة، ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أعمالًا، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ رجعوا وأنابوا وخشعوا واطمأنوا، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾ يوم القيامة ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمن والكافر، ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ﴾ ذاهب البصر ﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾ ذاهب السمع وهذا مثل الكافر ﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ وهذا مثل المؤمن ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ لا يستويان، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُون﴾ أفلا تتفكرون وتعقلون.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ وهو أول رسول إلى أهل الأرض، ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ وكانوا هم أهل الأرض في حينه، فلا يتعارض مع كونه أرسل إلى قومه خاصة فقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أنذركم: وأخوفكم من عذاب الله وبطشه، ﴿مُّبِين﴾ وأُبين لكم ما أدعوكم إليه من وعد الله ووعيده، ومن وجوب تحقيق عبادته.

ودعوتي: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تفردوه بالعبادة قولًا وفعلًا واعتقادًا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقد كان قوم نوح يعبدون الأصنام والأوثان، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن بقيتم في كفركم وإعراضكم، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وقد يكون كذلك العذاب في الدنيا بالخزي والنَّكال والطوفان، وقد لبث عَلَيْهِ السَّلَامُ فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وهم معرضون، وله مكذبون، والله المستعان.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ رؤساء القوم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ استكبروا، عن الدخول في الدين ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ آدميًا، ﴿مِّثْلَنَا﴾ لست من الملائكة، كقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ علىٰ دعوتك ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ يعني: سقط القوم وسفلتهم من الحاكة، والأساكفة ونحو ذلك، وهؤلاء هم أتباع الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان: هل يتبعه الضعفاء أم الأغنياء، قال: بل الضعفاء، قال: كذلك هم أتباع الرسل، ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أي: أنهم يتبعونك في بدء الأمر بدون تفكر أو تعقلٍ لما يسمعون، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ منزلة وعلو، وهذا لنظرهم القاصر وإلا فإن المؤمن خير من ملئ الأرض من الكفار.

كما في البخاري من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟**» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟**» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**»، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ نستيقن أنكم، ﴿كَٰذِبِينَ﴾ في دعواكم بأن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل نوحًا بالنبوة والرسالة.

﴿قَالَ﴾ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ رادًا عليهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ آية واضحة لا لبس فيه ولا إشكال، ﴿مِّن رَّبِّيَ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ هدىٰ ونورًا وضياءً، ﴿فَعُمِّيَتْ

﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ بحيث لم تهتدوا لهم بسبب كفركم وإعراضكم، وما في قلوبكم من الران الذي كان سببه الإجرام، ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ أنلزمكم البينة والرحمة، ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ مبغضون وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة:٢٥٦].

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ أطلبكم ﴿عَلَيۡهِ﴾ علىٰ الوحي الذي أوحاه الله إليَّ: ﴿مَالٗاۖ﴾ ثوابًا وأجرًا، ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾ ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ الكريم المنان، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ إذ أنهم شرطوا عليه للإيمان: أن يطرد المستضعفين كما شرط كفار مكة علىٰ رسول الله ﷺ حيث قال أبو جهل ومن إليه: اطرد عنا هؤلاء لا يجترؤون علينا، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ﴾ [الأنعام:٥٢]، ﴿إِنَّهُم﴾ أي الكفار ﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ أي: يوم القيامة فيجازيهم علىٰ أعمالهم، ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ لوحي الله وشرعه ولحكمته في اختيار هؤلاء واصطفائهم ليكونوا هم أتباع الرسل.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي﴾ يمنعني ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أن يُسلط عليَّ عذابه وأليم عقابه ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ أبعدتهم من مجلسي، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وترعوون عن باطلكم.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ بحيث أعطيكم ما تطلبون وتؤملون، ﴿وَلَآ﴾ أقول لكم إني: ﴿أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ إلا ما أطلعني الله عَزَّوَجَلَّ عليه، ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ كريم من ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما أنا بشر؛ ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ﴾ تحتقر وتستصغر ﴿أَعۡيُنُكُمۡ﴾ من المؤمنين، ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ توفيقًا وإيمانًا وأجرًا في الدنيا والآخرة، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ من الخير؛ ولذلك وفقهم له، ولو علم فيهم الشر والضير لصرفهم عنه، ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لو قلت هذا وطردتهم وأخذت بكلامكم.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾.

﴿قَالُواْ﴾ قوم نوح، رادين على ما تقدم من كلامه: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ﴾ خاصمتنا، ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولك.

﴿قَالَ﴾ نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن﴾ فالأمر أمره والحُكم حكمه، إن يشأ عاجلكم بالعذاب، وإن يشأ أخره إلى أجلٍ، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ [الرعد:٣٨]، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بفائتين.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾ أي: نصيحتي لكم بتقوىٰ الله وتوحيده، والاستجابة لأمره والبعد عن نهيهِ وزجره، ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ يريد أن يضلكم ويفتنكم؛ لعلمه بكم أنكم لستم أهلًا للهداية، ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾ له الحكم والأمر يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم.

﴿أَمۡ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: قوم نوح، ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ أي: افترىٰ هذه الدعوىٰ كذبا، ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ عليَّ جريرتي وإثمي وذنبي، ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ من ذنوبكم فلا أؤاخذ بها.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ لعلم الله عَزَّوَجَلَّ بالناس جميعًا، ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ لا تحزن، ولا تقلق، ولا يلحقك اليأس، ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ بسبب أفعالهم وذنوبهم ومعاصيهم فإنهم سيجازون علىٰ ذلك، إما في الحال، وإما في المآل، وبعد أن يأس من إيمانهم دعا بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح:٢٦].

فاستجاب الله دعوته إلا أنه أمره بأسباب السلامة فقال له: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفينة ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ بمرأى منا، ونحن نراك ونحوطك ونحفظك.

❁ مع إثبات صفة العينين لله عَزَّوَجَلَّ كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

فالفُلك كانت تُصنع في الأرض، والله عَزَّوَجَلَّ على عرشه ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ بتعليمنا لك ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾ لا تشفع ﴿فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ طالبًا الإمهال أو تسأل لهم السلامة، ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ بالطوفان العظيم الذي أرسله الله عَزَّوَجَلَّ عليهم.

﴿وَيَصۡنَعُ﴾ نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾، السفينة الكبيرة، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾ جماعة ﴿مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ استهزأوا به يعني: كيف يصنع سفينة في البر، ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ اليوم، ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ حين يأتي الغرق، ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ والجزاء من جنس العمل.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ وهو الغرق العظيم، ﴿وَيَحِلُّ﴾ ينزل ﴿عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي: عذابنا الذي توعدناهم به، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ خرج الماء من التنور، وهذه هي العلامة التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ لنوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقد اختلفوا في معنىٰ هذا فقيل: خروج الماء علىٰ وجه الأرض، وقيل: طلوع الفجر ونور الصبح، وقيل: هو التنور الذي يُخبز فيه وهذا الأظهر؛ ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ أي: في السفينة، ﴿مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ﴾ من الحيوان ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ ذكرا وأنثىٰ غير الإنسان، أما الإنسان فقد أمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يحمل فيها كل من آمن، ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ يعني: الأبناء ومن إليهم، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بعذابهم وهم أهل الكفر كامرأته وولده، ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ معه من قومه، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ وهكذا في كل زمن القليل هم أتباع الرسل.

﴿۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرِىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم كان شأن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن التزم أمر الله وركب في السفينة هو ومن معه ممن أمره الله عَزَّوَجَلَّ بحمله: ﴿وَقَالَ﴾ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مستعينين بالله في ﴿مَجْرِىٰهَا﴾ في حال جريها ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وفي حال توقفها، فالجري: مضيها في الماء، والرسي: توقفها، ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ﴾ متجاوز ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمؤمنين حيث لم يهلكهم مع من هلك.

﴿وَهِىَ﴾ السفينة ﴿تَجْرِى﴾ تمخر ﴿بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ حين ارتفعت المياه مع كثرة تدفقها مما هو نازلٌ من السماء ومما هو خارج من الأرض، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ الكافر، قيل: كنعان، وقال بعضهم: سام، والذي يظهر غير سام، فإن كثير من الأمم نسبتها إلى سام بن نوح، والله أعلم، ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عن السفينة حيث انعزل عن أبيه وعن الركوب؛ وهذا لشدة بغضه للإسلام وأهله، ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة، ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فتهلك.

﴿قَالَ﴾ أي: الابن الكافر، ﴿قَالَ﴾ سأصير ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ مرتفع، ﴿يَعْصِمُنِى﴾ يمنعني ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ من الغرق، وهذا لما عليه أهل الكفر من الإعراض وإلا فإن هذا الطوفان سيغطي الأرض ويُهلك به البرية إلا ما شاء الله استجابةً لقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح:٢٦]، ﴿قَالَ﴾ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لَا عَاصِمَ﴾ لا منجي، ﴿ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ من عذاب الله، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ وهم من ركبوا في السفينة، ﴿وَحَالَ﴾ فصل ﴿بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ المتلاطم المرتفع، ﴿فَكَانَ﴾ الابن ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ الهالكين.

﴿وَقِيلَ﴾ للأرض بعدما تناهى أمر الطوفان وأهلك الله عَزَّوَجَلَّ أهل الكفر والإجرام، والقائل هو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ الذي خرج منكِ، ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أمسكي عن إنزال المطر، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص وراح في باطن الأرض، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ بإهلاك الكافرين وسلامة المؤمنين، ﴿الأَمْرُ﴾ استقرت السفينة وعلت ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ جبل، يذكرون أنه قرب الموصل وقيل في بلاد تركيا، والله أعلم، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ هلاكا وسحقا ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ﴾ دعا، ﴿نُوحٌ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿رَّبَّهُ﴾ تعالى، ﴿فَقَالَ رَبِّ﴾ أي: يا رب، ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ الذين وعدتني بنجاتهم حيث ظن عموم اللفظ في الذرية، وإلا فالأنبياء أحرص الناس على خيرٍ وأعظمهم استجابة لأمر الله، وأعظمهم براءة من الكفار والمعرضين والمنافقين، ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ بإنجاء أهلي، فكيف غرق ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فيما شئت أن تقضي، فحكمت على من شئت بالنجاة، وحكمت على من شئت بالهلاك، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ بلى.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ﴾ الذي وعدت بإنجائهم فليس من أصحاب الأهلية الإيمانية، وإن كان من أصحاب الأهلية النسبية فالكافر: ليس بأخٍ لنا في الدين وقد يكون أخًا في النسب، ﴿إِنَّهُ﴾ أي الدعاء بسلامة الكافرين ﴿عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ وفي قراءة: ﴿عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾ والمعنى: أن عمله الشرك والكفر والإلحاد، وسؤال النجاة لمثل هذا مع دعائك: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح:٢٦]، لا يستقيم، ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾ يا نوح ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾ أذكرك وأنهاك ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ المخالفين لحكم الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿قَالَ﴾ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ معتذرًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ﴾ ألجئ إليك وأستعيذ بك، ﴿أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ لأنَّ الإنسان إذ لم يعصمه الله قد يهلك من حيث لا يدري:

إِذَا لَـم يَكُـنْ عَـونٌ مِـنَ اللهِ لِلفَتـىٰ فَـأَوَّلُ مَـا يَجنِـي عَلَيـهِ اجتِهَـادُهُ

﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ ما صدر مني، ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ تتجاوز عني، ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ في الدنيا والآخرة.

بهذه الآية استدل العلماء: علىٰ أن سؤال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه أن يريه نفسه لم يكن بالأمر المنكور؛ إذ أن الله لم يعاتبه كما عاتب نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سأل ربه نجاة ابنه.

وبعد أن أُهلك الكفار كان النداء لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾ انزل من السفينة ﴿بِسَلَٰمٖ﴾ بأمنٍ وسلامة، ﴿مِّنَّا﴾ أي: من الله عليه، ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ في الأموال وعظيم الهبات، وقيل البركة أن جعل الله ذريته هم الباقين ﴿عَلَيۡكَ﴾ خاصة لأخذك بدين الله وعلى ذريتك، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ أي: ممن هم في السفينة، ﴿وَأُمَمٞ﴾ ممن يأتي بعدك ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ أي: في الدنيا قبل إهلاكهم؛ بسبب كفرهم وعنادهم، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ ينالهم، ﴿مِّنَّا﴾ يوم القيامة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ موجع.

﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾.

﴿تِلۡكَ﴾ أي: ما تقدم من القصص، ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ﴾ أخبار، ﴿ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ نُخبرك ونطلعك عليها، ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾ يا محمد، ﴿أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾ قريش، ﴿مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾ الوحي، ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على كفرهم وبعدهم وعلى تبليغ دين ربك، ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ آخر الأمر من السعادة والنصرة يكون ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ الطائعين لرب العالمين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه:١٣٢].

﴿وَ﴾ اذكر إذ أرسلنا ﴿إِلَى عَادٍ﴾ وكانوا بالأحقاف من أرض حضرموت ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ في النسب، ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ﴾ أي: وحدوه وأفردوه بما يستحق في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ توكيد للأمر بالتوحيد، ﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَنتُمْ﴾ في شرككم ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ إلا كاذبون مخالفون.

﴿يَقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أطلبكم على تبليغ هذا الدين، ﴿أَجْرًا﴾ مثوبةً وجزاءً وجُعلا، ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ ثوابي ﴿إِلاَّ عَلَى﴾ الله ﴿الَّذِى فَطَرَنِى﴾ خلقني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُون﴾ شرع الله.

﴿وَيَقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ من الشرك والتنديد، وسواه من المعاصي ﴿ثُمَّ تُوبُواْ﴾ ارجعوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بالطاعة، فإن فعلتم ذلك ﴿يُرْسِلِ السَّمَاء﴾ السحاب ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ بالأمطار الغزيرة فينبت به الثمار وتشربون من مائه، وتتنعم النعم فتأكلون من لحمها، ويحصل لكم من ذلك الخير العظيم، ﴿وَيَـزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ شدة ﴿إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ مع شدتكم، فقد كانوا أهل قوة وشدة وبطش، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ مشركين، مستكبرين عن عبادته.

﴿قَالُواْ﴾ رادين لقوله: ﴿قَالُواْ يَـهُودُ مَا جِئْتَنَا﴾ ببرهان واضح وحجة على دعواك، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا﴾ التي نعبدها، ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بقولك، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين ومنقادين.

﴿إِن نَّقُولُ﴾ في السبب الذي جعلك تزهد من آلهتنا وتدعو إلى ما أنت عليه، ﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أصابك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ بجنون أو خبال: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون﴾ [المنافقون:٤]، وهذه دعواهم على الأنبياء في كل حين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات:٥٢]، ﴿قَالَ﴾ حين سمع منهم هذه المقولة البائرة، ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ عليكم بسبب بغيكم وكفركم، ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ أخبركم أن تشهدوا على نفسي: ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ براءة في المقال والفعال، ففيهما معنى: لا إله إلا الله،

فجمعت بين البراءة من الشرك، والدعوة إلى التوحيد، فعن طارق بن أشيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**» أخرجه مسلم (٢٣) ﴿مِن دُونِهِ﴾ غيره من الأصنام والأوثان.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ امكروا بي واحتالوا في أذيتي جميعًا ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تؤخروني ولا تؤجلون.

۞ وهذا التحدي صدر من ثلاثة من الأنبياء، وهم: نبينا محمد ﷺ، ونوح عليه السلام، وهود عليه السلام كما تري، ومن أعظم أسباب هذا القول والتحدي للكافرين ما بعده من قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت في جلب المنافع ودفع المضار، ﴿عَلَى اللهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ، ﴿رَبِّي﴾ الذي يحيطني ويحفظني، ﴿وَرَبِّكُم﴾ الذي خلقكم ويتصرف فيكم، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ مما يدب علىٰ وجه الأرض من حيوان بهيم أو غيره، ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ مالكها والقائم عليها يحييها ويميتها متىٰ شاء، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق الحق والعدل.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن هذه الدعوة ولم يستجيبوا لنداء نبيهم، ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ يا قوم، ﴿مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ من التوحيد، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ يستبدلُ ﴿رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه ويوحدونه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨]، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ سواءً بهلاككم أو بإعراضكم فهو الغني الحميد، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ حافظ فيحفظ أولياءه أن يصيبهم أذى إن شاء من أعدائهم، ويحفظ أعمال العباد.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا﴾ عذابنا لهم، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾ النبي الكريم، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ﴾ من هذه الريح، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ رحمهم وتجاوز عنهم وسلمهم وغنمهم، ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد، وهي الريح التي أهلك الله بها عادًا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ

فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:٤-٨].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أي: لكم فيها عبرة وعظة يا معاشر قريش، ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا وأعرضوا، وقالوا مكابرين: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بآية واضحة علىٰ صدق دعواك، وهذا كذب منهم فإن كل رسول آتاه الله من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ عصوا رسولا واحدًا فكان كمن عصا جميعهم، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ متعاظم متكبر ﴿عَنِيد﴾ طاغ معاند للحق مجانب له، من رؤسائهم وكبرائهم وسفلتهم ومن إليهم وتركوا أمر نبيهم.

﴿وَأُتْبِعُواْ﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ أتبعهم وأردف لهم، ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ بعد هلاكهم، ﴿لَعْنَةً﴾ بُعدًا وطردًا من رحمته، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ينالهم أيضًا اللعن والطرد من رحمة الله، والسبب في ذلك ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾: وأنكروا نبوة نبيهم، ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ هلاكًا ﴿لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ عن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر لهم إذ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ من النسب، ﴿صَالِحًا﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يدعوهم إلى عبادة الله فـ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ دعاهم إلى التوحيد وحذرهم من الشرك والتنديد، وهكذا دعوة جميع الرُسل، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾ خلقكم وأوجدكم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فهم على ذلك

منهم الأحمر، والأسود، والطيب، والخبيث، والسهل، والحزن، ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ جعلكم عُمارًا وسكانًا لها، ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ وحدوه وتوبوا إليه، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بطاعته واقلعوا عن ذنوبكم ومعاصيكم، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ من المؤمنين ﴿مُّجِيبٞ﴾ لدعائهم، ومع قربه تعالى فهو في علوه، كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وفي تسبيح المؤمنين في سجودهم: «**سبحان ربي الأعلى**»، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى:١]، وفي حديث أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال يقول النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ**» متفق عليه، أي وهو في علوه، فالله منزه عن الحلول في مخلوقاته أو الاتحاد والاختلاط بها.

﴿قَالُواْ﴾ معترضين على دعوته ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا﴾ يرجونه أن يكون لهم سيدًا لكن على طريقتهم ودينهم ﴿قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ الذي صدر منك، ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان التي وجدنا عليها الآباء من قبل، وهذه دعوى أغلب الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ﴾ من أمرك ونهيك، ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ وهذا الريب بسبب ما في قلوبهم من الشك والكفر والإعراض وإلا فإن دين الأنبياء بعيد عن الريب، بعيد عن التهمة والشك كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

فـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ ردًا عليهم ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أخبروني، ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ بيان وحجة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ وهو الوحي الذي أوحاه الله إليَّ، ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ وهي النبوة والرسالة، ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ يمنعني، ﴿مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ وتمردت علىٰ أمره، ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ أي: بطاعاتي لكم، ﴿غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ خسارة وبُعد، وهذا من عظيم المحاججة إذ أن صالحًا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ يدعوهم إلىٰ عبادة الله عز جل وإفراده بما يجب له، وهم يدعونه إلىٰ عبادة الأصنام والأوثان، ويزعمون مع ذلك أن طريقة صالح فيها الريب، فأخبرهم أن الريبة فيما هم فيه من البُعد عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ أُضيفت إلى الله عَزَّوَجَلَّ من باب إضافة التشريف.

وهنا قاعدة: أن ما أُضيف إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ مما يقوم بنفسه كبيت الله، وناقة الله، وعبد الله فإضافته إلىٰ الله إضافة تشريف أو إضافة مُلك أو خلق وإيجاد، وما أُضيف إلىٰ الله من الأعيان أو المعاني التي تقوم بغيرها كوجه الله، وسمع الله، ويد الله، وغضب الله فالإضافة إلىٰ الله إضافة صفات.

فتأمل هذه القاعدة وسر عليها فإن المبتدعة قد خالفوا في هذا الباب جدًا، وعطلوا الله من صفاته ﴿لَكُمۡ﴾ فيها ﴿آيَةً﴾ حجة وبينة علىٰ صدق نبوتي ورسالتي، إذ أنها كانت تعطيهم من اللبن ما يشربونه في يوم وتكفيهم مع أنها ناقة واحدة، ﴿تَأۡكُلۡ﴾ اتركوها، ﴿فِي أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ ولا تمنعوها مما ذهبت إليه، ﴿تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾ فلا تعترضوها أو تصيبوها بقتل أو نحوه، ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ إن عقرتموها ولكنهم تمالأوا علىٰ عقرها بل علىٰ قتل صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لولا أن سلمه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقرها قدار وأضاف الفعل إليهم لأنهم رضوا بفعلة، فلذلك إذا تمالأت أمة علىٰ المعصية بالفعل والرضا أهلكهم الله، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ النَّاقَةَ، وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ: «**إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا: انْبَعَثَ بِهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ**» متفق عليه، ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ عيشوا، ﴿فِي دَارِكُمۡ﴾ في قريتكم وبلادكم، ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ معدودة، ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ فيه فهو وعد الله والله عَزَّوَجَلَّ لا يخلف الميعاد، ويذكر أهل التفسير: أنه أخبرهم أنهم في اليوم الأول تصبح وجوههم مصفرة، وفي اليوم الثاني محمرة، وفي اليوم الثالث مسودة، وفي اليوم الرابع يأتيهم العذاب، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾.

﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا﴾ العذاب، ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ النبي الكريم، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ﴾ من الموحدين، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ رحمهم الله وسلمهم وغنمهم، ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: سلمهم الله من خزي الدنيا وهم سالمون من خزي الآخرة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد، ﴿هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يعجز، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالكفر وما إليه، ﴿الصَّيْحَةُ﴾ العظيمة إذ صاح عليهم جبريل صيحةً واحدة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة:٥]، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ صرعى هلكا.

﴿كَأَن لَّمْ﴾ كأنهم ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ يقيموا ﴿فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ قوم صالح، ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ بربهم، ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ هلاكًا ﴿لِّثَمُودَ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ في هذا بيانٌ من الله عَزَّوَجَلَّ لما كان من شأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث مرت به رُسل الله وهم في طريقهم إلى لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لنصرته والدمدمة على أمته.

واختلفوا في عدد هؤلاء الملائكة.

فقالوا: كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

وقيل: كانوا تسعة.

وقيل: كانوا اثني عشر ملكًا.

وكل هذا لا دليل عليه، ونحن نؤمن أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل رُسلًا من الملائكة مروا علىٰ إبراهيم وكان من شأنهم ما قصه الله في هذه الآيات.

﴿بِالْبُشْرَى﴾ أي: بشروه بإسحاق من امرأته سارة ، ﴿قَالُواْ سَلاما﴾ أي: سلموا عليه سلاما، ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ وعليكم السلام، ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ لكرمه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ سمين، ﴿حَنِيذٍ﴾ مشويٌّ علىٰ الحجارة.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ للأكل منه، ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أي: أضمر في نفسه، ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: خوفًا؛ وذلك لما رأى من عجيب صنيعهم فإن المسافر حين يُقدم إليه الطعام يبادر إلى أكله، وهؤلاء لم يكن منهم ذلك مع ما هم فيه من بهاء الصور وحُسن الهيئة كما في حديث جبريل قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ**» أخرجه مسلم(٨)، ﴿قَالُواْ﴾ عند ذلك، ﴿لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم، ﴿إِنَّا﴾ رُسل ربك من الملائكة، ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ بالعذاب والدمار والنكال.

﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ سارة بنت هارون على ما يذكرون، ﴿قَآئِمَةٌ﴾ من وراء الستر تسمع الكلام، أو قيل: كانت قائمة تخدم الرُسل، وربما لم يكن قد فُرض الحجاب، ﴿فَضَحِكَتْ﴾ على ظاهره، وذهب كثير من المفسرين أن الضحك هنا بمعنى: الحيض، وكان ضحكها بسبب زوال خوفها أو لما أخبروا به من تدمير قوم لوط الأمة التي غضب الله عليهم لسوء أفعالهم، ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ ابن إبراهيم، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق بن إبراهيم، وجعل الله عَزَّوَجَلَّ في ذريته النبوة والكتاب.

﴿قَالَتْ يَوَيْلَتَىٰٓ﴾ نداء ندبة وهي كلمة يقولوها الناس حين يتعجبون من أمرٍ قد يكون فيه بُعد، ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ قد كَبُرَ سِنُها وظهر اليأس في حالها، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ زوجي ﴿شَيْخًا﴾

قيل: كان عمره مائة وعشرين سنة، وقيل: مائة سنة، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ أن يولد ولد لِهَرِمَيْنِ.

﴿قَالُواْ﴾ الملائكة، ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ﴾ حكمه وقدرته فإن الله على كل شيء قدير: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾ دعاء بالرحمة والتجاوز، ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ دعاء بحصول البركة وهي وضع الخير الإلهي في الشيء الذي يؤدي إلى النماء والثبات، ﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ دليل على أن أزواج النبي ﷺ من أهل بيته فإن الله سمى سارة وهي زوج إبراهيم أهل البيت، ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ محمودٌ في أفعاله، ﴿مَّجِيد﴾ واسعٌ في عطائه وإفضاله وفي ذاته وصفاته، ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ الخوف، ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بإسحاق ويعقوب، ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ يخاصم الملائكة ﴿فِي قَوۡمِ لُوطٖ﴾ أن يستأنوا بهم ويطلب تأخير العذاب عنهم ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ شديد الرحمة، ﴿أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾ رجاعٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مُّنِيب﴾ طائع له.

قالت الملائكة ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ المقال ودع عنك الجدال، ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ القدري الكوني بعذابهم وهلاكهم، وقيل: حكم ربك، ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ﴾ نازل بهم، ﴿عَذَابٌ﴾ شديد، ﴿غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ غير مصروف عنهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ يعني: الملائكة الذين تقدم ذكرهم، ﴿لُوطًا﴾ على صورة غلمان، ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: حزن خوفًا عليهم من قومه الذين تنكست فطرهم وتغيرت أحوالهم بإتيانهم للفاحشة المستقبحة، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق صدره لما يخشى عليهم من قومه إذ كانوا حسان الوجوه، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، بهذا استدل العلماء على أن الإخبار بما في اليوم ليس من سب الدهر، ولا يدخل في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**» متفق عليه، وإنما المذموم في سب الدهر التسخط أو على اعتقاد أنه المدبر المتصرف في العالم، أما قول القائل: هذا يوم حار، وليلة باردة فلا حرج من ذلك.

﴿وَجَاءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ﴾ يُسرعون ﴿إِلَيْهِ﴾ لخبث أنفسهم، ولسوء أحوالهم، ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: قبل مجيئهم إلى لوط، ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يأتون الرجال في أدبارهم، وهذه من أسوأ الأفعال الخبيثة التي ما انتشرت في بلدٍ إلا قل حياؤهم، وساءت أخلاقهم، وتنكست فطرهم، فلا أسوأ من الرجل يؤتى كما تؤتى المرأة إذ أنه لم يُخلق لهذا الفعل، فالمرأة الزانية مع فجورها وخبثها أهون حالًا من هذا السيء، وقد جعلوا لهذا الشر والبلاء في هذا الزمن جمعيات ومنظمات تدعو إليه، وقلبوا التسمية الشرعية لهم فسموهم بالمثليين تقليلًا من شرهم ودعوة إلى فعلهم، ووضعوا القوانين في جواز زواجهم واستمتاعهم ببعضهم، فلا أقبح من هذه الفعلة الشنيعة بعد الشرك وقد سماها الله فاحشة، ﴿قَالَ﴾ لهم لوط ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ لعله أراد بنات قومه للزواج بهن؛ لأنَّ النبي للقوم كالأب، أو أراد تزويج بناته منهم وكان في عهده جواز زواج الكافرة من المسلم والمسلمة من الكافر، وقد نُسخ في ديننا، فمن ظن أنه عرض عليهم بناته للزنا فهذا لجهله ولسوء ظنه، فما كان له أن ينهاهم عن فاحشة ويأذن لهم بأخرى، ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ من حيث أنهن خُلقن لهذا الأمر، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من هذه الفعلة القبيحة، ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ تسوؤوني ولا تفضحوني ﴿فِى ضَيْفِىٓ﴾ أضيافي، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ صالح سديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

﴿قَالُواْ﴾ متبجحين بباطلهم ومصرحين بفعلتهم القبيحة: ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ﴾ حاجة، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من إتيان الرجال.

﴿قَالَ﴾ عند ذلك متحسرًا ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ﴾ طاقة البدن أو قوة الأتباع، ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ إلى عشيرة منيعة تنصرني، وفي حديث أبي هريرة قال النبي ﷺ: «**يَغْفِرُ اللهُ لِلُوطٍ، إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**» متفق عليه، أي: لاستنصار بالله ورجوعه إليه.

۞ وفيه: جواز طلب النصرة وأهمية ذلك، فإن الداعي إلىٰ الله إذا لم يجد من ينصره يُستضعف.

﴿قَالُواْ﴾ الملائكة ﴿يَٰلُوطُ﴾ إنَّا ركنك لشديد، و ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أرسلنا إلى قومك بالعذاب، فـ ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ بسوء حيث منعهم الله عَزَّوَجَلَّ بقدره الكوني كما مُنعوا بالشرعي فأبوا، ﴿فَأَسۡرِ﴾ امضِ وأخرج ﴿بِأَهۡلِكَ﴾ من هذه القرية ﴿بِقِطۡعٖ﴾ بطائفة ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أو بقية من الليل، قيل: بأنه السحر، ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ لأنَّ الالتفاتة مع رؤية العذاب قد تؤدي إلى الهلكة والعذاب، ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾، فلا تسرِ بها، وقيل: بأنها ستلتفت ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ من العذاب والنكال؛ لأنها خانت لوطًا في دينه ودلت على أضيافه، ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ أي: بعد الفجر وعند طلوع الشمس، ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ عذابنا، ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قيل: بأن جبريل أدخل جناحيه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهي خمس مدائن، فرفعها حتى سمع الملائكة في السماء نباح كلابهم، ثم أسقطها على نفسها.

۞ وقد ذهب بعض أهل العلم بأن صاحب اللواط يُرجم من أعلىٰ شاهق ويُلحق بالحجارة، وقال بعضهم: يُقتل، وقال بعضهم: يُحرق بالنار، وقال بعضهم: يُرجم كما يُرجم الزناة، وقد اتفق الصحابة علىٰ قتله.

﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ أنزلنا ﴿عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ طين يابس كما قال تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣]، ﴿مَّنضُود﴾ متتابع بحيث لا يبقى منهم أحد، ولا تسلم منهم عين.

وهذه الحجارة من شأنها أنها، ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ﴾ معلمة، ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ الكافرين من أهل مكة ﴿بِبَعِيد﴾ لو أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُنكل به.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿ وَ﴾ اذكر إذ أرسلنا ﴿إِلَى﴾ قوم ﴿مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ من حيث النسب لا الدين، ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ ولا تشركوا معه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾ تطففوا ﴿الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين:١-٤]، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ بخير حالٍ من حيث النعمة والسعة ومع ذلك يطففون ويحتالون، ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بسبب كفركم وصنيعكم بالتطفيف ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ يحيط بكم فلا يسلم منكم أحد، ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ﴾ في المكيلات ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ في الموزونات ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ تنقصوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾ في بيعهم وشرائهم، ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ تنتشروا ﴿فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وتنشروا الفساد معكم، كما قال بعضهم:

لـولاَ الحيـاءُ وأنَّ رَأسِـي قـدْ عَثـا ... فِيـهِ المَشِـيْبُ لَـزُرْتُ أُمَّ القَاسِـمِ

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ما أبقى الله من الحلال فيه خير وبركة، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بوعد الله، ﴿وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ بوكيل، إن آمركم وأنهاكم فمن استجاب فلنفسه ومن عميَّ فعليها.

﴿قَالُواْ﴾ ردًا على دعواه بدعوتهم إلى التوحيد وترك الشرك والتنديد، ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ﴾ أي: عبادتك وصلاحك، وقيل: قراءتك، ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأوثان والأصنام، ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ من التطفيف وغير ذلك، ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ فالوقار لك خلق ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾ والرشد لك سجية قالوا هذا من باب السب والسخرية.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني، ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بصيرة وبيان ﴿مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي﴾ أعطاني ﴿مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالًا كثيرًا، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ يعني: ما أُريد أن أنهاكم عن التطفيف، والبخس ثم أعمد إليه، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ أي:

بنصحي وتوجيهي لكم، ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي: اعتمادي في تسديد قولي وفعلي على الله، ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتمدت، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أرجع إما بالتوبة، وإما حين يُبعث الناس من قبورهم.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ لا يحملنكم، ﴿شِقَاقِيٓ﴾ مخالفتي، ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ من الغرق، ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ من الريح التي أتت عليهم، ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ من الصيحة التي اجتثتهم، ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ حيث جعل الله عَزَّوَجَلَّ عاليها سافلها.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي: وحدوه وعودوا إليه، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بالطاعة وارجعوا من معاصيكم وذنوبكم، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ بعباده، ﴿وَدُودٞ﴾ محبٌ لهم، ولكنه مع ذلك شديد العقاب لمن عصاه وتمادى في بغيه وإعراضه.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ﴾ لا نفهم ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ من باب المكابرة، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ قيل: كان ضعيف البصر، أو أنه كان قليل الأتباع، ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ قبيلتك وعشيرتك، ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ قتلناك بالحجارة، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ عندنا ﴿بِعَزِيزٖ﴾ بقوي أو ذو عزة.

﴿قَالَ﴾ رادًا قولهم ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ عشيرتي ﴿أَعَزُّ﴾ أهيب ﴿عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: تركتموني من أجل رهطي ونسيتم ربكم الذي أحاط بكل شيء ولا يعجزه شيء، ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ نبذتموه أي: الدين وأمر الله عَزَّوَجَلَّ تركتموه، ﴿وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ وراء ظهوركم فعن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال النبي ﷺ: «**الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ**» أخرجه البيهقي في الشعب (١٨٥٥)، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ علمًا وقدرة فيجازيكم وهذا على التهديد إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه ولا يخفى عليه شيء.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ تمكن وتؤده فاعملوا ما أنتم فيه من العمل السيء، ﴿إِنِّي عَامِلٞ﴾ بالتوحيد والصلاح، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦۖ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾ [الإسراء: ٨٤] ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ حين لا ينفع الندم، ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ﴾ من ربه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ﴿يُخۡزِيهِ﴾ يُذله في الدنيا والآخرة، ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ في دعواه أنا أم أنتم، ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ عذاب الله، ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ مرتقب منتظر.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ عذبنا بإهلاكهم، ﴿نَجَّيۡنَا﴾ سلمنا ﴿شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ رحمهم، ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ بأن جبريل صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم، وقيل: أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم، ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ ميتين.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾ يقيموا ﴿فِيهَا﴾ والحال كما قال بعضهم:

كأنْ لم يَكُنْ بَيْنَ أنِيسٌ ولَمْ يَسْمُرْ بِمَكّةَ سَامِرُ

﴿أَلَا بُعۡدٗا﴾ هلاكًا ﴿لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ أُهلكت ﴿ثَمُودَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به كالعصا واليد ونحوها ﴿وَسُلْطَانٍ﴾ برهان ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾ وهم قومه القبط الذين مالؤوه على الباطل، ﴿فَاتَّبَعُوٓاْ﴾ أخذوا، ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ﴾ الكفر والضلالة، ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ بسديد، فمن أين له السداد وهو يقول: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ويقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ يتقدمهم حين حشرهم، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ﴾ أدخلهم ﴿ٱلنَّارَ﴾ وهو مقدمهم وقائدهم.

۞ وهذا ردٌ علىٰ من زعم لسوء فهمه وعلمه: أن معنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، أنه ليس معهم، وقد تداركه الله برحمته حين قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

والصحيح: أنه لم يُسلم.

﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ بئس المدخل الذي دخلوه.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ﴾ أي: أتبعهم الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا، ﴿لَعْنَةً﴾ وطردًا، وذلًا، وهوانًا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ﴾ العون ﴿ٱلْمَرْفُودُ﴾ رفدهم وعونهم، وقيل: العطاء والمُعطي؛ وذلك أنها ترادفت عليهم اللعنتان: لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ ما تقدم يا محمد، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ الأمم، ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَۖ﴾ نخبرك به، ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ عامرٌ، ﴿وَحَصِيدٌ﴾ خرابٌ.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب والهلاك، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ﴾ بالكفر والمعاصي فكان جزاؤهم ما تقدم، ﴿فَمَآ أَغْنَتْ﴾ دفعت ﴿عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ أصنامهم وأوثانهم المزعومة المعبودة مع بيان ضعفها وهوانها، ﴿ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾ يعيدونها سواءً كان بدعاء العبادة أو دعاء المسألة، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غير الله، ﴿مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ﴾ أخذ ربك وعذابه، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بعبادتهم لها ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ تخسير وتدمير؛ لأنَّ من تعلق شيئًا وكل إليه وفي حديث عقبة: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ**»، وهكذا من تعلق بالأصنام والأوثان كان تعلقه من أسباب خسارته.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما فعل بتلك الأمم، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ للقرى والأمم العاتية، ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ كافرة معرضة، ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ﴾ بطشه وعذابه، ﴿أَلِيمٌ﴾ موجع ﴿شَدِيدٌ﴾ صادر من قوي لا يعجز.

وفي حديث أبي موسىٰ في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، ثم قرأ النبي ﷺ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، والآية علىٰ عمومها يحذرها كل ظالم حتىٰ ولو كان ظالمًا لنفسه فقد يُدمدم الله عليه ويأخذه بسوء فعله.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور، ﴿لَءَايَةً﴾ موعظةً بينة وعبرة، ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ورجى رحمة الله، ﴿ذَٰلِكَ﴾ يوم القيامة، ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ يحشر فيه البر والفاجر، والمؤمن والكافر، والصغير والكبير، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم:٩٣-٩٥]، ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ مشهودٌ من الله ومشهودٌ من الملائكة، وتشهد فيه الأمم، وتشهد فيه الأعضاء، فهو يومٌ مشهودٌ محضور، وكذلك يوم تنطلق فيه الشهادات: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء:٤٢].

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: هذا اليوم، وفي قراءة: ﴿وَمَا يُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: ولا يؤخره، ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ وقت ﴿مَّعْدُودٍ﴾ معلوم، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات:٤٢-٤٤].

ومن شأنه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ أي: لا تتكلم نفسٌ من أنفس المُكلفين، بل حتى الملائكة والرسل الكرام، ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[المرسلات:٣٥-٣٦]، وكقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[طه:١٠٨]، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ كافر قد كُتِبَ في بطن أمه، ﴿وَسَعِيدٌ﴾ مؤمن قد كُتِبَ وهو في بطن أمه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا
مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا
دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ
مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن
تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ أي: بالكفر، ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ يُعذبون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ الزفير: كأول نهيق الحمير، ﴿وَشَهِيقٌ﴾ كآخره أي: يخرج من أجوافهم، وقيل: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، قاله أبو العالية.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في هذا العذاب، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ قيل: ما دامت سماوات الجنة والنار وأرضهما، وكل ما علاك وأظلك فهو سماء، وهذا عند العرب يدل على التأبيد.

۞ **لا كما ذهبت المعتزلة ومن إليهم من أن هذه الآية دليل علىٰ فناء النار،** فإن قولهم مبتدع لا توافقه الأدلة وإنما هو مبنيٌ علىٰ الهوىٰ والرأي الفاسد، ﴿إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ﴾ قيل: هذا الاستثناء علىٰ التبرك بذكر اسم الله، وقيل بأن الاستثناء للفترة التي كانت قبل دخولهم النار، وقيل: هذا الاستثناء من المتشابه ويُعاد إلىٰ المحكمات في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٥]، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، كما قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، وكما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦].

وكذلك في الجنة من يدخل ينعم لا يبأس، لا تبلىٰ ثيابه ولا يفنىٰ شبابه، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**» أخرجه مسلم(٢٨٣٧)، فلا يجوز أن يُعمد إلىٰ آية أُشكِلَ معناها علىٰ بعضهم فترد به آيات صريحات واضحات مع أن التوجيه ما ذكرناه: بأن العرب ربما يُطلقون التوقيت ولا يريدونه، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبأ:٢٣]، فليس المراد أنهم يلبثون أحقابًا ثم يخرجون، ولكن أحقابًا متتابعة ومتتالية.

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ صيغة مبالغة من الفعل لا يعجزه شيء ولا يمنعه شيء.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ بالإيمان ورزِقوا السعادة من الملك الديان، ﴿فَفِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ يُنعمون، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ﴾ على المعنى الأول، وقيل: بأن هذا الاستثناء معناه: إلا ما مكثوا في النار حتى أُدخلوا الجنة، وقال قتادة: الله أعلم بِثُنْيَاهُ، ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ غير مقطوع أو منقوص.

﴿فَلَا تَكُ﴾ يا محمد، ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾ في شك، ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ المشركون إنهم ضُلال منحرفون عن الصراط المستقيم والطريق القويم، ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ﴾ أي: كما كان يعبد: ﴿ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾ من الحجارة الصماء والآلهة البكماء التي لا تنفع ولا تضر، ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ حظهم من الجزاء الذي وعدوا به، ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ منه شيء، بل يُعذبون على كفرهم وضلالهم، ويعذبون على دعوتهم إلى الضلالة.

﴿وَلَقَدۡ آتَيۡنَا﴾ أعطينا، ﴿مُوسَى الۡكِتَابَ﴾ التوراة، ﴿فَاخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ من بني إسرائيل بعد أن جاءهم الحق بغيًا بينهم، ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ﴾ كونية ﴿سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عنهم، ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: لعُذِبوا في الحال وفُرِغَ من عذابهم وإهلاكهم، ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ أي المكذبين ﴿لَفِي شَكّٖ﴾ ريب، ﴿مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ وقع بهم موقع التهمة والريبة.

﴿وَإِنَّ كُلّٗا﴾ من الأولين والآخرين ﴿لَّمَّا﴾ إلا ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ أي جزاءها جاءت علىٰ التشديد وعلىٰ التخفيف، يقول: وقد وفىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الكل أعمالهم من خير أو

شر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عليم.

﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ علىٰ العمل الصالح ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ يا محمد، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ ليستقيموا علىٰ الإسلام والعمل به، ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ الطغيان: مجاوزة الحد، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم علىٰ عملكم، وفي حديث سفيان بن عبد الله قال قلت يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، قَالَ: «**قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**» أخرجه مسلم (٣٨)، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠]، وأنت ترىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر نبيه محمدًا ﷺ بالاستقامة مع ما هو فيه من الاستجابة وأداء الأمانة، فكيف بنا وعندنا من التفريط والتقصير ما الله به عليم، وأكثر ما يصرف عن الاستقامة اتباع الهوىٰ والطغيان، ولذلك حذر الله منه بقوله: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾ [الشورىٰ:١٥].

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى﴾ بالميل والمحبة والرضا: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كفروا وأجرموا، ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ فتصيبكم، ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أعوان يمنعونكم من عذابه، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لا تسلمون.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَأَقِمِ﴾ يا محمد ومن معك من المؤمنين، ﴿الصَّلَاةَ﴾ المفروضة المكتوبة، ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الغدوة والعشي أو الصبح والغروب، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ صلاة المغرب والعشاء، ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ﴾ الأعمال الحسنة والصفات الحسنة كالصلوات ﴿يُذۡهِبۡنَ﴾ يكفرن ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الأعمال السيئة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما تقدم من وجوب الاستقامة وعدم الطغيان وعدم الركون إلىٰ المبطلين وإقام الصلاة ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ موعظة وعبرة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ المتذكرين المنتفعين بأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي البخاري(٥٢٦) ومسلم (٢٧٦٣): عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود:١١٤]، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلِي هَذَا؟ قَالَ: «**لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ**» وأخرجه الترمذي (٣١١٤) بنحوه.

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد علىٰ ما تلقىٰ من الأذىٰ، وقيل: علىٰ الصلاة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾ يذهب ﴿أَجۡرَ﴾ ثواب ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بل يحفظ أعمالهم ليوم هم أحوج إلىٰ مثل مثاقيل الذر، والمحسن: هو المحسن مع الله بتوحيده والمحسن بأعماله.

﴿فَلَوۡلَا﴾ فهلا، ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ﴾ التي أهلكناهم، ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الأمم السالفة، ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ أولوا تمييز أو طاعة أو خير حتىٰ يسلموا من الهلاك، ﴿يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقيل ينهون عن البغي ما كان فيهم ذلك ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ وهم أتباع الأنبياء كانوا أولوا بقية نهوا فنجوا، ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالفساد وترك النهي، ﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ نعموا وأعطوا، من الخصب والسعة ﴿وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ كافرين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمد، ﴿لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الكافرة التي أهلكها، ﴿بِظُلۡمٖ﴾ بطرًا وبغيًا، ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ فإن الله عَزَّوَجَلَّ حرم علىٰ نفسه الظلم، ووعد المصلحين بالسلامة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾ [النور:٥٥].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد، ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ علىٰ قلبٍ واحد من الإيمان أو الكفر والإجرام فالأمر أمره والشأن شأنه، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ علىٰ أديانٍ شتىٰ بين اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وغيرهم.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أهل الإسلام، وأهل السنة الذين حفِظوا من الاختلاف والزيغ والأنحراف، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: خلقهم للاختبار والابتلاء والاختلاف، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، وإلا لو أرادهم علىٰ غير الاختلاف لكانوا، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ الكونية، أي: تم حُكم ربك الذي لا يُخلف ولا يُنقض، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ الجن منهم العفاريت والشياطين، ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ ذرية آدم، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ولا تزال يُلقىٰ فيها حتىٰ يضع الجبار قدمه فيها فتقول: قط قط، كما يأتي عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق:٣٠].

وعن أبي سعيد وأَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ؟ قَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأما النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ اللهُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، رِجْلَهُ، تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأما الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا**» متفق عليه.

﴿وَكُلًّا﴾ معناه: وكل الذي تحتاج إليه، ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نخبرك يا محمد، ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ من أخبارهم مع أممهم، ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ ما يكون سببًا لتثبيت قلبك، فترىٰ من صبرهم واحتمالهم للأذىٰ ما يكون سببًا لثباتك واستبشارك بالعاقبة التي حلت لهم، ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ جاءك في هذه الموعظة الحق، وقيل: جاءك في هذه الدنيا الحق، ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تذكير ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بحسن العاقبة والخير.

﴿وَقُل﴾ يا محمد، ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله ربًا، ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ علىٰ طريقتكم، وهذا أمر تهديد ووعيد، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ بأمر الله منتهون عن نهيه.

﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لعقاب الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل ما يحل بنا من رحمة الله ﴿إِنَّا مُنتَظِرُون﴾ ما يحل بكم من عذاب الله، ﴿وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ما غاب عن العباد، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فيقضي بين العباد ويعلم ما كانوا عليه من الأعمال، ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحده، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ اعتمد عليه وثق به، ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمد، ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون﴾ بل مطلع علىٰ أعمال العباد، فيجازي المؤمن بعمله والكافر بعمله.

والحمد لله.

تفسير

سورة يوسف

سُورَةُ يُوسُفَ

۞ مكية، وجاء عن ابن عباس وقتادة: مكية إلا ثلاثة آيات من أولها، ونقل القرطبي عنهما: إلا أربع آيات.

والذي يظهر أنها مكية جميعها، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ﴾ هذه ﴿آيَاتُ﴾ حجج وبينات، ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن، ﴿الْمُبِينِ﴾ البين الواضح في حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه، فهو النور، والضياء، والفرقان، والشفاء، وهو الرحمة إلىٰ غير ذلك.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب، ﴿قُرْآنًا﴾ يُقرأ، ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلسان عربي مبين، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تفهمون ما فيه من الآيات البينات، والحجج الواضحات القاهرات، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿نَحْنُ﴾ علىٰ التعظيم، ﴿نَقُصُّ﴾ نقرأ ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أحسن الآثار فيما كان من الأمم السابقة، وهل المراد السورة بعينها أم أنه جميع القرآن والذي يظهر أنه جميع القرآن ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: بإيحائنا لهذا القرآن، ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾

من قبل نزول القرآن، ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ لمن الساهين الذي لا يعلم، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ:٧].

وفي المطالب العالية: أخرج ابن رهويه عن سعد بن أبي وقاص في قوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ﴾ [يوسف:٣]، قال: أنزل الله القرآن علىٰ رسوله ﷺ فتلاه عليهم زمنًا فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:١]، إلىٰ قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]، الآية، فتلاها رسول الله ﷺ زمنًا فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]، كل ذلك يؤمرون بالقرآن.

واذكر يا محمد: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ النبي الكريم وهو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ فُسِرت بإخوانه، ﴿وَالشَّمْسَ﴾ فُسرت بأبيه، ﴿وَالْقَمَرَ﴾ فُسرت بأمه، ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ ويكون هذا في آخر الأمر، ولعل السجود للآدميين كان في عهدهم مشروعًا ومباحًا؛ علىٰ سبيل التحية، وقد قال بعضهم في سجود الملائكة لآدم أنهم: سجدوا لله، وإنما جعلوا آدم بينهم وبينه وهذا كلام غير مستقيم يخالف ظاهر القرآن، بل سجدوا لآدم بأمر الله فهم عابدون لله بامتثال أمره.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ ليوسف، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ لا تُخبر، ﴿رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ وهذا من حكمته؛ لأنَّ أغلب الناس يأتيهم الحسد إن رأوا الخير في غيرهم، والرؤيا من الله وشأنها عظيم ففي حديث أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: أن النبي ﷺ قال: « **الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ شَيْئًا يَكْرَهُهُ، فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ**» فَقَالَ: «**إِنْ كُنْتُ لَأَرَىٰ الرُّؤْيَا أَثْقَلَ عَلَيَّ مِنْ جَبَلٍ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، فَمَا أُبَالِيهَا**»، وجاء في الحديث: «**وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»، كما في حديث أنس وغيره، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ**» قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟

قَالَ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ**» متفق عليه، ومع ذلك المؤمن تسره الرؤيا ولا تضره، ﴿فَيَكِيدُواْ﴾ من الكيد والمكر، ﴿لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ لسلب النعمة عنك، ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ ظاهر العداوة فهو الذي يَؤزُهم علىٰ هذا الكيد والمكر، والشيطان شأنه التحريش لحديث جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»، أخرجه مسلم (٢٨١٢)، فحرش بين أخوة يوسف تحريشًا بليغًا حتىٰ هموا بقتله لولا أن سلمه الله.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ﴾ أي: يصطفيك، ﴿رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ من تفسيرها، ويُضرب به المثل في تعبير الرؤيا فإنها واقعة كما عبرها؛ ولذلك يذكرون أن من يرىٰ يوسف في المنام ربما كان مُعبرًا للرؤيا علىٰ حال حسن، ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بالنبوة والرسالة، ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ إذ جعل في ذريته النبوة والرسالة، ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾ أجدادك، فالجد أب، ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ هو الجد الأعلىٰ، ﴿وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ الجد القريب، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح عباده، ﴿حَكِيمٞ﴾ في جميع أمره.

﴿ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾.

﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ﴾ ابن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَإِخۡوَتِهِۦٓ﴾ يُذكر أنهم إخوة غير أشقاء، وكانوا اثني عشر، ﴿ءَايَٰتٞ﴾ عبرة وعظة وعجب، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لمن سأل عن قصصهم أو لمن سأل عن أحسن القصص، إذ ذكر بعض أهل العلم: أن اليهود سألوا النبي ﷺ عن شأن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقيل غير ذلك.

ويذكرون في أسمائهم: روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، وقيل: زبلون، وآشر، وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وولد له من سريتين له، اسم إحداهما زلفة والأخرىٰ يلهمة أربعة أولاد: دان، ونفتالي، وقيل: نفتولي، وجاد، وأشير. ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أختها راحيل فولدت له يوسف

وبنيامين، وقيل: وابن يامين، فكان بنو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اثني عشر رجلًا، وهذه التسميات مشهورة ولكن تحتاج في ثبوتها إلىٰ دليل صحيح وأسانيد ثابته، ومع ذلك يذكرها أهل التأويل.

﴿إِذْ قَالُواْ﴾ إخوة يوسف، ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ من حيث أنهم صغار والصغير قد يُحب، ومن حيث أنهم أهل بر، وغير ذلك، وكون أبيهم يُحبهم أكثر منهم غير مذموم، إنما المذموم إن كان الأب لا يعدل في أبنائه ولا يُحسن إلىٰ بعضهم، ومع ذلك لو قُدِّرَ أن الأب قصر وهذا ممتنع في حق يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ الأنبياء والرُسل أحرص الناس علىٰ عدلٍ فلا يجوز للابن أن يعق أباه من أجل أنه قدم أحد إخوانه عليه فالوالد وإن لم يُعطك فحقه عليك عظيم قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦]، أي: وأحسنوا إلىٰ الوالدين إحسانًا.

ثم إن هذا الفعل منهم قام علىٰ الظن والحدس، وما أسوأ سوء الظن في إفساد ذات البين، فسوء الظن يُفسد بين الأهل والعشيرة، وبين الأصحاب، والأصهار، وبين الشيخ وطلابه، والطلاب وشيخهم؛ وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، فالظن إثم إلا ما كان بقرائن تدل عليه، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول النبي ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ**»، متفق عليه.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة، قيل: العصبة العشرة فما زاد، ومعنىٰ عصبة: يتعصب بعضهم لبعض بالنصرة والإعانة ونحوها، ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ بهذا الصنيع، ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ خطأ، ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّن وواضح، فانظر أساءوا الظن ثم أطلقوا الحُكم وأكدوه إذ قد استقر في قلوبهم، وقد اختلف في إخوة يوسف هل هم أنبياء؟ فجوزَ كثير من أهل العلم كونهم أنبياء وأن النبوة كانت لهم بعد التوبة، ومنع بعض أهل العلم هذا، إذ وقع منهم العقوق وإرادة القتل والكذب مرارًا في هذه القصة، والذي يظهر عدم القول بثبوت نبوتهم.

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ أي: تخلصوا منه، قيل: القائل شمعون، وقيل: دان، ﴿أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ يعني: ألقوه في أرض بعيدة تأكله السباع، وهذا دليل على شدة الغيظ الذي لحقهم في شأن أخيهم، يعني: اقتلوه فإن عجزتم عن قتله فألقوه في مفازة تأكله السباع، وربما يموت بالعطش والجوع، ﴿يَخۡلُ﴾ يخلص ويصفو، ﴿لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ عن شغله بيوسف، ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد قتله، ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ تائبين، وما أدراهم فإن النبي ﷺ يقول: «**لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حرامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حرامًا بَلَّحَ**» أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذا فعل العصاة يقول أحدهم: أزني وأتوب، وأسرق وأتوب، وأشرب الخمر ثم أتوب، وأقتل ثم أتوب، ما أدراك أن يحال بينك وبين التوبة؛ لجراءتك على فعل المعصية.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ قيل: يهوذا، ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ أي: أن هذا أمر عظيم كبير، ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ﴾ أسفل ﴿ٱلۡجُبِّ﴾ البئر فيكون في ظلمته لعله أن ﴿يَلۡتَقِطۡهُ﴾ أي: يأخذه على أنه لقطة، ﴿بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بعض المسافرين فيأخذونه إلى مكان بعيد فتستريحون منه، ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن عزمتم على فعلكم من التخلص من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا وإن كان أمرا عظيما إلا أنه فرج وسلامة حيث سلم من القتل.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٥﴾.

﴿قَالُواْ﴾ إخوة يوسف ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ ليعقوب، ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا﴾ تُقرأ: ﴿تَأمننا﴾، وتقرأ: ﴿تَأمنَّا﴾ بالإشمام، ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أخيهم، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ يعني: يعلمونه ما يكون سبب لحفظه وسلامته، لكن الواقع أنهم خالفوا هذا.

﴿أَرْسِلْهُ﴾ ابعثه، ﴿مَعَنَا﴾ إلى الصحراء، ﴿غَدًا يَرْتَعْ﴾ أي: اتساع في الملاذ، يقال رتع فلأنَّ في ماله إذا أنفقه في شهوته ﴿وَيَلْعَبْ﴾ أي: اللعب المشروع الذي يلعبه الصبيان من الجري خلف الغنم ونحو ذلك، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من الهوام وغيرها.

﴿قَالَ﴾ أي: يعقوب، ﴿قَالَ إِنِّي﴾ أي: يقع له الحزن، وكأنه كان متخوفًا على ولده منهم لقرائن تدل على بغضهم له، ﴿أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ معكم إلى الصحراء بعيدًا عن أبيه وديرته، ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وذلك أن يعقوب كان رأى في المنام: أن ذئبًا شد على يوسف، وهذه مقالة لا دليل عليها، بل إن بعضهم قال: بأن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه المقولة جعل لهم شبهة عُذرًا فيما نزل بعدُ، فإنهم ألقوه في غيابة الجب ثم اعتذروا بهذا الأمر.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ عشرة أو أكثر، ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ عجزة ضُعفاء.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ معهم إلى المرعى، ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ عزموا، ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ يلقوه، ﴿فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ في ظلمته وأسفله، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا من رحمة الله به حتى لا يلحقه الضرر النفسي والتخوف من بطشهم ومكرهم، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ لتخبرنهم، ﴿بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ بصنيعهم من مكرهم بك لقتلك، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك أنت يوسف.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ أي: في العشي، وقيل: في ظلمة العشاء، ﴿يَبْكُونَ﴾ يُظهرون الندامة على ما حصل لأخيهم، وهذا البكاء كذبٌ ومكرٌ.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ معتذرين، ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نترامى وننتضل، وقيل: نشتد على أقدامنا، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿عِندَ مَتَاعِنَا﴾ أي: عند ثيابنا وأقمشتنا وشأننا، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ خبرٌ كاذب، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بمصدق لنا، ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ وإن كنا،

﴿صَادِقِينَ﴾ في هذا الخبر، وهذا قول منهم غير صحيح، كيف لا يُصدق الصادق، فلو كانوا صادقين في قولهم لصدقهم، ولكن القرائن قد دلت على كذبهم، ومما يذكرونه: أن القميص الذي جاءوا به ليس فيه شيء من آثار أكل الذئب له كما يزعمون.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ قيل: ذبحوا شاةً فلطخوا الثوب بدمها، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زينت، ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وهو التخلص من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يعني: الذي لا شكوى فيه ولا جزع، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: أستعينه: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الكذب والبهتان.

وبهذه الآية استدلت عائشة حين اتهموها بما برأها الله منه فَقُلْتُ: «وأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ: لاَ أَقْرَأُ مِنَ القُرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ: لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الحَدِيثَ حَتَّىٰ اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، لاَ تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي، فَوَاللهِ لاَ أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾» متفق عليه.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: قافلة تريد مصر سموا بالسيارة؛ لأنهم يسيرون في الأرض، ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ فرطهم الذي يتقدم الركب إلى الماء، ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ﴾ أي: أرسلها في البئر، وتعلق به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ﴾ الذي أرسل الدلو ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ أي هذه بشرى وليس معناه أن اسمه بشرى ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌۚ﴾ حين رأى الغلام؛ لأنه وجده قد تمسك بالدلو، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ﴾ أخفوه بضاعة من التجار الذين معهم، وقالوا: هو بضاعة استبضعها بعض أهل

الماء إلى مصر خفية أن يطلبوا منهم فيه المشاركة، وقيل: بأن إخوة يوسف أسروا شأن يوسف وقالوا: هذا عبدٌ لنا أبق، والله أعلم إذ لا دليل يدل على ذلك، ولكن سياقة الكلام: أنها للسيارة وليست لإخوة يوسف، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَشَرَوۡهُ﴾ ابتاعوه، أي: أهل السيارة، ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنٍ﴾ قليل، ﴿دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ نبي يُباع بدراهم قليلة ذات عدد، ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ﴾ وهو العزيز، ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ يوصيها به قيل اسمها راعيل وقيل زليخة والله أعلم: ﴿أَكۡرِمِي﴾ أحسني إليه، ﴿مَثۡوَىٰهُ﴾ أي: منزلته ومقامه، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أن ننتفع به بحيث بيعه بربحٍ أو يستمتع بخدمته، ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ ويكون حكمه حكم اللقيط، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: أنجاه الله عَزَّوَجَلَّ وأنقذه من القتل، ومكنه في الأرض بأن صار في بيت الملك، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ﴾ تفسير ﴿الأَحَادِيثِ﴾ الرؤيا فكان من المُعبرين، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ يقضي ما شاء ويمنع ما شاء، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ النَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لا يدرون حكمته في خلقه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى شبابه وشدته وقوته، قيل: ثلاثًا وثلاثين سنة كما هو قول مجاهد، وقيل: ثلاثين سنة كما هو قول السدي، وقيل: عشرين سنة كما هو قول الضحاك، وقال الكلبي: الأشد ما بين ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة، وسُئل مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الأشد قال: هو الحُلم، ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ النبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ الفقه في الدين، وقيل: المراد بالحُكم: إصابة القول، والعلم: تأويل الرؤيا، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بالتوحيد وغيره، يُكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ بعظيم الكرامات وجزيل الهبات والعطيات.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا

ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ أي: طلبت منه الفعل المستقبح، ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن﴾ امرأة العزيز، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ أطبقت الأبواب حتى لا يدخل داخل، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: تعال أو هلم، وفي قراءة: ﴿هِيئتُ لَك﴾ أي: تهيأت لك، ولها عدة قراءات: ﴿هَيْتَا﴾، و﴿هِيتَا﴾، و﴿هَيتُ﴾، و﴿هِيئْتُ﴾.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللّهِ﴾ أي: أعوذ بالله وأعتصم به أن أجيب إلى ما دعوتموني إليه، ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ أي زوج المرأة ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أكرم منزلي وأصلح حالي، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُون﴾ الخائنون، أي: إذا فعل هذه الفعلة لا يناله الفلاح؛ لأنتهاكه لعرض سيده؛ ولقيامه بما لا يجوز له، وهذا من كرمه ﷺ.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ الهم: هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، فهمها عزمها على المعصية والزنا، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾.

❁ اختلف المفسرون في ذلك:

قال بعضهم: هم بضربها.

وقال بعضهم: هم بإتيانها وقيل غير ذلك.

وظاهر القرآن: أنه هم بالفعل معها وهو بشر حفظه الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك، والهم لا يؤاخذ عليه الإنسان ما لم يعمل أو يتكلم، فالخواطر قد تطرأ على الصالح والطالح، ثم إن همه لم يظهر إنما كان طارئًا بالقلب، ثم أراه الله عَزَّوَجَلَّ البراهين التي أدت إلى بعده وزهده في هذا الباطل.

وقيل: فيه تقديم وتأخير: **(لولا أن رأى برهان ربه لهم بها)**؛ ولكنه رأى البرهان فلم يهم وأنكره النحاة.

وقيل: هم بها أن تكون له زوجة، والشاهد: أن هذه أقاويل كلها تحتاج إلىٰ ما يعضدها بسند صحيح ثابت عن معصوم ولا سبيل هنا.

فالقول الأظهر: أنه همَّ بغشيانها ولا طعن في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهي خاطرة وردت عليه ثم صرفها؛ لما رأىٰ من البراهين الجليلات علىٰ قبح هذه المعصية السيئة.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ اختلفوا في البرهان فقال أكثر المفسرين:

أنه رأىٰ صورة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يقول له: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء.

وقال بعضهم: انفرج له سقف البيت فرأىٰ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عاضًا علىٰ أصبعه.

وقال ابن عباس: مُثل له يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله.

وقال السُّدِّي: نودي يا يوسف تواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جوف السماء لا يُطاق، ومثلك أن تواقعها مثله إذا مات وقع علىٰ الأرض أن يدفع عن نفسه.

وكلها أقاويل من الإسرائيليات، ولم يأتِ عن النبي ﷺ فيها شيء، فيبقىٰ أن الله أراه علامةً أو أن الله عَزَّوَجَلَّ بين له بعض شيء حتىٰ لا يقع في هذا الأمر المستقبح، والله المستعان وهذا من توفيق الله عَزَّوَجَلَّ له.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ أراه هذا البرهان، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الأعمال السيئة، ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنا، إذا أُظهِرَ وإلا فالسوء داخلٌ في الزنا، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ المختارين المصطفين.

﴿وَٱسْتَبَقَا﴾ يوسف والمرأة ﴿ٱلْبَابَ﴾ تسابقًا إليه يريد الخروج وهي تمنعه وذلك أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأى البرهان قام مبادرًا إلى الباب هاربًا، وتبعته المرأة تريد أن تمنعه من

الخروج ولشدة حرصها عليه أخذت بقميصه، ﴿وَقَدَّتْ﴾ شقت وقطعت ﴿قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ من الخلف، ﴿وَأَلْفَيَا﴾ وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ زوجها ﴿لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ عند الباب، فعند ذلك بادرت بالتهمة ليوسف مبرئة لنفسها، ﴿قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوۤءًا﴾ فاحشة، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ يُحبس ويُعمى عن الأنظار، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ضربٌ بالسياط وغير ذلك من أنواع التأديب.

﴿قَالَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ مدافعًا عن نفسه: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن﴾ طلبت مني هذا الأمر المستقبح فأبيت عليها، ﴿وَشَهِدَ﴾ حكم ﴿شَاهِدٌ﴾ حاكم ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: بعد أن مثلوا للحكم في القضية.

❁ واختلفوا في معنى الشاهد.

فقيل: بأنه تكلم بعض صغارهم، جاء هذا عن ابن عباس عند أحمد وغيره بسند قابل للتحسين، وقيل: بأن المراد بالشاهد الحاكم، وهذا أظهر.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ﴾ قطع ﴿مِن قُبُلٍ﴾ قدام ﴿فَصَدَقَتْ﴾ فهو الذي قدم عليها بقرينة أنها تدافعه وتصده فانشق قميصه، ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

❁ وهذه الآية حجة في العمل بالقرائن، ومن هذا الباب اللوث فقد جعله العلماء حجة في باب القسامة.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ﴾ قُطِعَ وشق ﴿مِن دُبُرٍ﴾ الخلف، ﴿فَكَذَبَتْ﴾ في تهمتها حيث دل على أنه كان هاربًا موليًا، ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ الزوج أو الحاكم، ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: من الخلف، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ﴾ أي: استقين أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بريء، وقال: إن هذا الصنيع شيء من الكيد الذي تكيد به النساء الرجال، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وذلك لشدة كذبها ولسرعة بكائها، ولشدة مكرها.

فقال العزيز يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الصنيع والفعل المستقبح، وقيل عن هذا الحديث فلا تذكره وقيل معناه لا تكترث له فقد بان عذرك، ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ توبي إلى الله من طلب الفاحشة ثم رمي البريء وهذا من أشد الزور وأعظم الفجور، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١١٢]، ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ المذنبين حيث راودت الشاب عن نفسها وأرادت هتك حرمة زوجها، ثم اتهمته بما هو براءٌ منه، فشاع الخبر فإما أن يكون قد نقله بعض الخدام أو نقلته المرأة بنفسها إلى من تثق فيه، أو نقله العزيز إلى بعض جلسائه على ظن كتم السر، والواقع: أن السر إذا جاوز شاع، وكما قيل:

كُلُّ سِرٍّ جَاوَزَ الاثْنَيْنِ شَاعَ ... كُل عِلْمٍ لَيسَ في القِرطَاس ضَاعَ

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

وتحدث الناس به حتى بلغ الأمر إلى زوجة العزيز مرةً أخرى بقول بعض النسوة: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ زوجة العزيز، ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ عبدها، ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ وتطلب منه الفاحشة: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ شق حبه سوداء قلبها، ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا﴾ في هذا الصنيع، ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في خطأ ظاهر، حيث يصل الحال بالمرأة أن تعرض نفسها على عبدٍ من عبيدها أو على عاملٍ من عمالها يدل على ضعف شديد.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ بقولهن وحديثهن، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ لتبرر صنيعها، ولتظهر حجتها، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أعدت، ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ مكانًا يجلسن فيه، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليكون في يديها، ولعلها قربت لهن طعاما مع السكاكين لقطع الطعام، ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾

وهو عبدٌ مملوك في ذلك الوقت ما معه إلا امتثال الأمر، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ﴾ ورأين ما هو عليه من الجمال، فقد أُوتيَّ شطر الحُسن، ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ قيل: حضن.

والصحيح غير ذلك: وإنما أعظمنه وهالهن أمره وبُهِتنَ فإن الجمال يأخذ بلب المرأة كما أن الرجل قد يأخذ بلبه الجمال؛ ولشدة تعظيمهن لشأنه وذهولهن بخروجه: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ باشرن تقطيع الأيادي دون شعور مر السكين، ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ من باب تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ أي: معاذ الله، ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ ليس من البشر، فهذا جمال لم يكن في البشر، ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾ من الملائكة، ﴿كَرِيمٌ﴾ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

فعند ذلك: ﴿قَالَتْ﴾ مدافعة عن نفسها ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى﴾ فقد طرأ أمرٌ لا صبر لها عنه، ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لرغبتها فيه، ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ امتنع، وإنما أخبرتهن بذلك؛ لعلمها أن الملامة قد ارتفعت عنها، فإنهن رأينَ ما لا صبر عنه إلا لمتقي، ثم قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ من هذا الصنيع السيء، ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ يعاقبن بالسجن على تمرده ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ يلحقه الصغار بسبب معصيته، وهذا من عظيم كبرها، فإن غالب نساء الملوك عندهن من الكبر والعناد ما الله به عليهم، وإلا كان الأولى لها أن تستر نفسها، وأن تستغفر لذنبها، وأن تترك يوسف في حاله، ولكن هو شيء أراده الله.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ﴾ من الوقوع في الفاحشة، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ مكرهن ﴿أَصْبُ﴾ أميل ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ وأتابعهن فيما يؤملنه ويرجونه، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الخاطئين المذنبين.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أجاب دعوته وحقق رغبته، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ ومكرهن، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمن دعاه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحال من رجاه.

﴿ثُمَّ بَدَا﴾ ظهر ﴿لَهُم﴾ أي: للعزيز وأصحابه بعد فشو الأمر لتعميته وتغييبه، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالة علىٰ براءة يوسف من قد القميص ونحو ذلك، ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ إلىٰ مدة يرون فيه رأيهم، وقيل: إلىٰ أن تنقطع مقالة الناس، وقيل: سبع سنين.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ مع يوسف ﴿ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ أي: غلامان كانا لملك مصر، وذكروا في سبب ذلك: أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فضمنوا مالًا للعبدين علىٰ أن يضعا السم للملك في طعامه وشرابه ثم إن الساقي نكل عنه وقبل الخباز فسم الطعام، فلما أُحضر الطعام والشراب قال الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي اشرب: فشرب فلم يضره، وقال للخباز: كل من طعامك فأبىٰ فجُربَ ذلك الطعام علىٰ دابة فأكلته فهلكت فأمر الملك بحبسهما، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ أي: بعد أن عَلِمَ أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يؤول الرؤىٰ والأحلام، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: في المنام، ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ عنبًا للملك، سُميَّ العنب خمرًا؛ لأنه يُصنع منه، ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا﴾ وهو الخباز، ﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾

تقتات عليه، ﴿نَبِّئْنَا﴾ أخبرنا، ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ بتفسيره، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العالمين بالرؤىٰ والمحسن إلىٰ غيره.

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لهم: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ قيل: لا يأتيهما في المنام، وقيل: لا يأتيهما رزق حتىٰ ينبئهم بتأويله، ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ أخبرتكما، ﴿بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ قبل أن يصل إليكما، وقيل: يُخبرهم بما يصل إليهم من الطعام، قبل أن يصل ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي: العلم، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ فتأويل الرؤيا يُعتبر علمًا والسبب الذي أوصله إلىٰ هذا العلم وأن الله علمه واختصه وامتن عليه بمثل هذه النعم، ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ﴾ دين ﴿قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ربًا، ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ويُنكرون البعث والنشور.

﴿وَاتَّبَعْتُ﴾ أي: انقدت وأخذت، ﴿مِلَّةَ﴾ دين، ﴿آبَاءِي﴾ لأنَّ الجد أب، ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ لا أكبر ولا أصغر، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الهداية إلىٰ دين الإسلام ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ الواسع، ﴿عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ يؤتيه من يشاء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤].

ثم دعاهم إلىٰ الإسلام فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أضافهما إلىٰ السجن لكونهما فيه كما يقال لسكان الجنة: أصحاب الجنة، ولسكان النار: أصحاب النار، ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ آلهة شتىٰ ومتفرقة، ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ إله واحد لا إله إلا هو عظيمٌ في أسمائه وصفاته وأفعاله، والجواب: أن الله خير؛ ولكنه حُذف للعلم به.

﴿مَا﴾ الذي ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن﴾ أي: المخلوقات المربوبات، والأصنام والأوثان ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾ آلهة وأربابًا وهي خالية من هذه المعاني، ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ يقلد بعضكم بعضًا وهذا هو التقليد المذموم كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ علىٰ عبادتها ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ من حجة وبرهان، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يقضي ما شاء أمرًا ونهيًا، وخلقًا وإيجادًا، ﴿أَمَرَ﴾ طلب؛ ﴿أَلَّا

﴿تَعْبُدُواْ﴾ توحدوا ﴿إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ فيها معنىٰ لا إله إلا الله فيفرد بالعبادة، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم، ﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لبعدهم عن الهداية وعن الكتاب والسنة.

ثم فسر لهم الرؤيا بقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ﴾ أي: يعود إلىٰ عمله؛ لما ثبت من براءته، ﴿وَأَمَّا ٱلْأَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ﴾ لعظيم جرمه إذ أنه قد عزم علىٰ خيانة الملك وقتله، ﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: فُرِغَ منه ولا سبيل إلىٰ خُلفه، ﴿ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ الذي عنه تسألان.

﴿وَ﴾ عند ذلك طَمِعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في خروجه من السجن بشفاعة هذا الرجل الذي سيعود إلىٰ خدمة الملك فـ: ﴿قَالَ﴾ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَقَالَ لِلَّذِي﴾ علم واستقين، ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ سالم ﴿مِّنْهُمَا﴾ وهو الساقي، ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: سيدك ومليكك، وقل له: إن في السجن غلاما محبوسًا ظُلمًا طال حبسه، ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ انسي الساقي ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أن يذكر ربه بهذا الأمر الذي طُلِبَ منه، وقيل: أنسىٰ الشيطان يوسف ذِكر ربه حين ابتغىٰ الفرج من غيره واستعان بمخلوق، والذي يظهر: أن الضمير يعود إلىٰ الغُلام؛ فقد نسي لشغله بخدمة الملك وعوده إلىٰ ما كان عليه، ﴿فَلَبِثَ﴾ بقي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ قيل: سبع سنين، والله المستعان.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ أي: ملك مصر، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ أي ممتلئات، وتُفسر البقرة بالسنة، ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ نحيفات بسبب الجوع، ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ وهي ما يكون فيها الحب، ﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ قد يبس فيهن الحب.

۞ ومن باب الفائدة: قد يرىٰ النائم رؤيا طويلة جدًا وتكون رموزها يسيره، فالمعبر الماهر هو الذي ينظر إلىٰ رموز الرؤيا دون الحواشي، ولذلك يقول ابن الوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَإِنْ تَرَىَ الطَّنْبُورَ وَسْطَ المَسجِدِ فَأَوُل المَسْجد وَاتْرُكِ الرَدِي

﴿يَاأَيُّهَا الْمَلأُ﴾ نادىٰ جلسائه، ﴿أَفْتُونِي﴾ نبئوني وأفيدوني وأخبروني، ﴿فِي رُءْيَىَ﴾ التي رأيتُها، ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ تفسرون.

﴿قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أخلاط أحلام وأهاويل: وهي ما تأتي من الشياطين؛ لأنَّ النبي ﷺ ذكر أن ما يُرى في المنام ثلاثة، رؤيا من الله، حُلم من الشيطان، ما يُحدث به الإنسان نفسه في نهاره فيراه في ليله.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ﴾ بتفسير ﴿الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ لأنَّ التي تؤول هي الرؤىٰ، فعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ رَأْسِي ضُرِبَ فَتَدَحْرَجَ فَاشْتَدَدْتُ عَلَىٰ أَثَرِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْأَعْرَابِيِّ: «**لَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بِكَ فِي مَنَامِكَ**»، وَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدُ، يَخْطُبُ فَقَالَ: «**لَا يُحَدِّثَنَّ أَحَدُكُمْ بِتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بِهِ فِي مَنَامِهِ**» أخرجه مسلم.

﴿وَقَالَ﴾ العبد ﴿وَقَالَ الَّذِي﴾ سلم ﴿مِنْهُمَا﴾ من صاحبي السجن، ﴿وَادَّكَرَ﴾ أي: تذكر ما كان من شأن يوسف، ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ فترة من الزمن، قيل: سبع سنين والله أعلم، ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم وأعلمكم ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ بتفسيره، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى من يؤوله، يعني: يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فجاء إلى يوسف فقال ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ كثير الصدق، ﴿أَفْتِنَا﴾ أخبرنا، ﴿فِي﴾ رؤيا ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ ممتلآت لحمًا، ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ نحيفات ضعيفات ﴿وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ إلى الملك ومن إليه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تفسير هذه الرؤيا.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ سيكون من شأنكم أن الأرض تُمطر وتأتي بخير عظيم، فازرعوا سبع سنين على عادتكم في الزراعة واجتهدوا في ذلك، فالدأب: الاجتهاد، ﴿فَمَا

﴿حَصَدتُّمْ﴾ من الزرع، ﴿فَذَرُوهُ﴾ اتركوه ﴿فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ حتى لا يأكله الدود أو يتغير طعمه، بل يُدخر على هيئته، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ مما يحتاجه الناس لأكلهم.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٌ شِدَادٞ﴾ سبع سنين شديدة مُجدبة، ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ أي: ما ادخرتم من الحبوب، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ إلا قليلًا مما تدخرون، قيل: تحرزون وتدخرون للبذر.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ﴾ سنة، ﴿فِيهِ يُغَاثُ﴾ يُمطر ﴿ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ في قراءة: ﴿تَعْصِرُونَ﴾، يعصرون العنب خمرًا، والزيتون زيتًا، والسمسم دهنًا، وأراد به: كثرة النعيم والخير.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ عند ذلك: ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ أي: جيئوني بيوسف، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ أن أجب الملك، ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيدك، ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ﴾ شأن ﴿ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ حيث أردن كيدي والمكر بي ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبًا واحتراما، ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ يعني: بحيث كِدْنَهُ واتهمنه بما هو بريء منه.

فأرسل ليهن فلما حضرن بين يديه ﴿قَالَ﴾ الملك مخاطبًا لهن، ﴿قَالَ مَا﴾ شأنكن ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ﴾ طاوعتن ﴿يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ لم يكن هذا منا معاذ الله، ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ خيانة، ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ﴾ ظهر وتبين ﴿الْحَقُّ﴾ من براءة يوسف

عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: بأن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فأقررنها فأقرت، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ أي: في قوله: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن﴾ [يوسف:٢٦].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الطلب من يوسف ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بالزنا قيل: هذا قول يوسف قال ذلك من باب التواضع والإخبار أنه ضعيف الحال لولا أن الله عَزَّوَجَلَّ سلمه وعافاه، وقيل: بأنه قول المرأة اعترفت بما كان حتى لا يظن أنها وقعت في الفاحشة، والذي يظهر أنه قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾.

ثم قال معتذرًا لنفسه ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ من الخطأ والزلل فأزكيها فـ ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ﴾ آمرة ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالمعصية والنفوس ثلاثة: مطمئنة، ولوامة، وإمارة بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ فعصمه وعافاه، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ متجاوز عما يقع فيه العباد إن تابوا وأنابوا وأخلصوا.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ بعد أن سمع الخطاب وظهرت براءة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ﴾ أجعله خالصًا ﴿لِنَفۡسِي﴾ يقوم بشأني وخدمتي؛ لأمانته وصدقه، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ الرسول وقال له: أجب الملك فأجاب، ﴿قَالَ﴾ له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي متمكن عظيم المكانة، شفاعتك مقبولة، ومشورتك غير مردودة، ﴿أَمِينٞ﴾ صادق، فصار في حظوة الملك، وبدأ الناس في الزراعة.

﴿قَالَ﴾ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ﴾ أي: الطعام والأموال التي تخرج من الأرض، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ للخزائن وللأمانات، ﴿عَلِيمٞ﴾ بطريق تصريفها.

❁ وفي هذه الآية دليل: علىٰ أن الإنسان إن كان أهلًا للولاية ويخشىٰ من ضياعها إن سُلمت لغيره فلا بأس أن يزكي نفسه، وإلا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم:٣٢].

وفي حديث عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لاَ تَسْأَلِ الإِمارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**» متفق عليه، وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «**إِنَّا وَاللهِ لا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ**» متفق عليه.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ أي: ينزل فيها، ﴿حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ فنرفعه ونمكن له، والله هو الرحيم الرحمن يرحم بالنعمة، والهداية من شاء، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الصابرين.

﴿وَلَأَجْرُ﴾ ثواب ﴿الْآخِرَةِ﴾ يوم القيامة، ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ لأنه يُدخر له يلقاه في: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، فمهما قدم الإنسان من الخير فهو الرابح، ومهما أُوتي من خير الدنيا وإن كان حلالًا فسينفذ ويذهب إلا أن أجر الآخرة أنفع قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، ورحم الله والدي كان كثيرًا ما يقول: يا بُني لم يقل الله عَزَّوَجَلَّ من عمل الحسنة، ولكن قال: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ﴾ [الأنعام:١٦٠]، لأنَّ الذين يعملون الحسنات كثير، وفعلًا الذين يعملون الحسنات كثير من المؤمنين وغيرهم، إلا أن الكافر حسنته تذهب، وإذا جوزيَ عليها بطعمة في الدنيا، والمؤمن قد تذهب عليه كثير من حسناته لذنوب ونحوها.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: « **أتدرون من المفلس قالوا المفلس من لا دينار له ولا متاع قال: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**» أخرجه مسلم.

وعن ثوبان: «**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاما مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللهُ** - عَزَّوَجَلَّ - **هَبَاءً مَنْثُورًا**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «**أما إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا**» أخرجه ابن ماجه.

إذًا الحسنة النافعة هي الحسنة التي يحافظ عليها العبد ابتداءً بالإخلاص في عملها، والمتابعة لرسول الله ﷺ، ثم بعدم العُجب والمرآة فيها، ثم بعدم المجيء بالسيئات التي تؤدي إلى بطلأنها وذهابها، فينبغي لنا أن نرعى حسناتنا كما نرعى المقل وأكثر حتى نلقى الله عَزَّوَجَلَّ بها فيكرمنا ويضاعفها لنا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾ [النمل:٨٩].

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ﴾ وكانوا عشرة، ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ على يوسف، ﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾ يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: لم يعرفوه، قيل: كان بين أن قذفوه في البئر، وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، وقيل: لم يعرفوه؛ لأنه على سرير الملك وعلى رأسه التاج، وفي الكلام محذوف أنهم سألوه الزاد والطعام ووقع بينهم المبايعة.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ أي: حمَّل لكل واحد بعيرًا بعدتهم، ﴿قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ يعني: بنيامين، يذكر المفسرون: أنه سألهم قبل ذلك عن شأنهم حتى لا يفطنوا له، فاستعمل الحيلة الشرعية ليتوصل إلى معرفة الأخ، ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾ قد رأيتم من حالي أني أتم الكيل ولا أبخس منه شيئًا، وربما حصل أخوكم على حمل بعير تتقوتونه وتستفيدونه، ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ قال مجاهد: خير المضيفين، وقد كان أحسن ضيافتهم.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾ بأخيكم، ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ ليس لكم عندي طعام أكيله لكم، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: لا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: نطلبه ونسأله أن يرسله معنا، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ما أمرتنا به.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لعبيده ومواليه الذين يقومون على الشأن، ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ ما جاءوا به من الأموال والقيمة لهذا الزاد ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ فرد لهم القيمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ يعرفون هذا الإحسان ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ انصرفوا، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجعون إلى مصر، وفعلًا كان هذا الأمر من أسباب ودواعي إرسال بنيامين معهم حيث رد لهم متاعهم وأكرمهم بالزاد والناس في حال مجاعة، وهذا من كرمه عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن إكرامه لأبيه وإخوانه وعدم المؤاخذة لهم مع ما فعلوه فيه:

وظلمُ ذَوِي القُربَىٰ أشدُّ مَضَاضَةً ... عَلَىٰ المرءِ مِن وَقْعِ الحُسَامِ

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ من رحلتهم إلى مصر ومعهم الزاد، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ﴾ سيمنع ﴿مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي: في المرة القادمة لا نستطيع أن نذهب ونكتل إلا بحضور أخينا معنا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيمين حتى ﴿نَكْتَلْ﴾ فيحصل لنا الكيل، وبعض العامة يظن أن نكتل اسم لأخ يوسف وليس كذلك، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ يعني: وعدوه قبل أن يطالبهم بالضمان لما قد وقع منهم.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبۡلُ﴾ فخنتم الأمانة ولم تردوه إليَّ، ومع ذلك سأرسله معكم ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ يحفظه إن شاء، ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ بي وبكم.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾ ما حملوه من مصر، ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ ثمن الطعام، ﴿رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ كما أمر يوسف عبيده ومواليه بذلك، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ أي: ماذا نبغي أكثر من هذا الكرم وهذا الخير والناس في قلة وحاجة وهو يُكرمنا بالزاد ثم يكرمنا برد القيمة و كان هذا من دواعي إرسال يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لولده حين رأى الإحسان والإكرام فإن الإحسان له أثر بليغ في تأليف القلوب، ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾ أموالنا التي حملناها لنشتري بها الطعام ﴿رُدَّتۡ﴾ رجعت ﴿إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ من الميرة وهي: الطعام، نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم، ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ مما تخافه عليه، ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ بدل عشرة أبعرة يصير لهم أحدى عشر بعيرًا، ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ أي: ما حملناه قليل لا يكفينا وأهلنا، وقيل معناه: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ لا مؤنة فيه ولا مشقة.

❖وقال مجاهد: البعير هاهنا هو الحمار، والمعنىٰ أنه حمل حمار، وهي لغة يقال للحمار بعير وهم كانوا أصحاب حُمر.

والأول أصح: من أنه البعير المعروف.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ﴾ أي: بنيامين، ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا﴾ عهدًا، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ ولا تخونوا الأمانة كما خنتم في أخيه يوسف، ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ ينزل بكم أمرًا لا تتحملونه، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾ عهدهم، ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ مطلع ورقيب ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب:٣].

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ

حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾.

﴿وَقَالَ﴾ يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يوصيهم: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ﴾ ذكر العلماء: أنه خاف عليهم العين؛ لأنهم كانوا أُعطوا جمالًا وقوة وامتداد قامة، وكانوا ولد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم؛ لأنَّ لا يصابوا بالعين فإن العين حق، ﴿وَمَآ أُغْنِي﴾ أدفع ﴿عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أراده وقضاه فالأمر لله عَزَّوَجَلَّ في قضاء ما أراد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ القدري والشرعي، فالقدري يُصبر عليه، والشرعي يُلتزم، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت في جميع شأني، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعتمد المؤمنون.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: من أبواب متفرقة، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أشفق عليهم شفقة الوالد على الولد، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو﴾ صاحب ﴿عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور لخفاء أسبابها.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في رحلتهم الثانية إلى مصر، ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ ضم ﴿إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين، بعد أن سأله عن اسمه وما يكون الشأن والترحيب، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف،

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ لا تحزن، ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بشيء فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا، وفعلًا صار رسولًا وملكًا يحتاجون إلى عطفه.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أعد متاعهم الذي وعدهم به، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ المشربة التي كان الملك يشرب منها ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ في وعاء بنيامين، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى منادٍ، ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ أراد أصحاب القافلة، ومن يرى المجاز يقول: نادى العير والمراد بهم أصحاب القافلة.

والصحيح: أن لا مجاز في القرآن ولا في اللغة كما هو قول المحققين، ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ سرقتم صواع الملك.

﴿قَالُواْ﴾ أي: إخوة يوسف، ﴿قَالُواْ﴾ عطفوا ورجعوا ﴿عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ ما الذي ضل عنكم وضاع منكم حتى قلتم هذا القول.

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: الذي يشرب فيه، ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ منكم، مكرمة ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من طعام، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيل وضامن.

﴿قَالُواْ﴾ إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ﴾ والله؛ فحروف القسم: الواو، والتاء، والباء، ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ نسرق في أرض مصر، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ من قبل.

﴿قَالُواْ﴾ أي: المؤذن أو أصحاب الملك، ﴿قَالُواْ فَمَا﴾ عقوبته، ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في قولكم ودعواكم.

﴿قَالُواْ﴾ أي: إخوة يوسف، ﴿جَزَاؤُهُۥ﴾ عقوبته ﴿مَن وُجِدَ﴾ الصواع ﴿فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ﴾ أي: جزاؤه أن يسلم نفسه بسرقته إلى المسروق منه فيسترقه سنة، قيل: كان هذا في حكم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الفاعلين لما ليس من شأنهم.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ لإزالة التهمة حتى لا يقال: هذا أمر بُيت بليل؛ ﴿قَبْلَ وِعَآءِ﴾ إناء ﴿أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ففتشت الأوعية فلما جاء إلى وعاء أخيه وجدها فيه،

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر، ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ ليأخذ أخاه، فكما كادوا بيوسف وأضاعوه كاد الله عَزَّوَجَلَّ ليوسف حتى أخذ أخاه منهم، أضاعوا يوسف وهم يرغبون في ذلك، وفقدوا بنيامين وهم في كره لذلك فوجدوا حسرة وفي نفس الوقت خوفًا من أبيهم بأي وجه يلاقونه وقد فعلوا به ما فعلوا، ولم ينسَ يوسف في السنين الطويلة فكيف إذا جاء الخبر ببنيامين، ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ﴾ حكم وسلطان ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ ملك مصر؛ لأنَّ ملك مصر لم يكن على الإسلام، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ حيث يسر ليوسف هذا الأمر لأخذ أخيه، ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم والعمل في الدنيا والآخرة، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة:١١]، ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾.

۞ وهذه آية بعمومها علىٰ أن الإنسان ينبغي له أن يسأل غيره فيما أشكل عليه من المسائل، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد فاوت بين العلماء في العلم والفهم والفضل، وَرُبَّ مسألة تكون عندك من المتشابه المشكل، وعند العالم الآخر من البين الواضح، وهذا معنىٰ قول أهل العلم: بأنه لا يوجد في القرآن مشكل علىٰ وجه العموم أو متشابه علىٰ وجه العموم، إنما قد يكون التشابه نسبي، عند زيد من المتشابه، وعند عمرو من المحكم، فينبغي لمن وقع في التشابه أن يسأل، فبعض الآية تُفسر بخصوصها، وأكثر الآي تُفسر بعمومها.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾.

﴿قَالُواْ﴾ إخوة يوسف بعد أن ظهر لهم أن السقاية في رحل أخيهم بنيامين؛ لدفع التهمة عن أنفسهم: ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾ بنيامين، ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يعنون: يوسف.

۞ واختلفوا في السرقة التي أُضيفت إلى يوسف.

والذي يظهر أن هذه من كذباتهم ولم يكن قد سرق شيئًا والله أعلم، مع أن أهل التفسير يذكرون بعض شيء.

﴿فَأَسَرَّهَا﴾ كتمها ﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾ أي: أضمر هذا القول، ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ﴾ لم يقل لهم: أنتم وأنتم، ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ﴾ حيث ذممتونا بما وقعتم في شر منه قيل: بأن هذا القول في نفسه، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تقولون.

﴿قَالُواْ﴾ إخوة يوسف ﴿يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ طالبين منه الصفح والعفو، ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ قد كبر سنه وكثر بلاؤه ومثل هذا يُرحم، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ بدلًا منه رهينة، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في أفعالك وأقوالك ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله، ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل إلا من سرق تحرزًا من الكذب؛ لأنه لم يسرق أصلًا، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ إذا أخذنا بريئًا بجرم آخر.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ﴾ يئسوا ﴿مِنْهُ﴾ من إطلاق أخيهم معهم، ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ﴾ خلا بعضهم إلى بعض يتناجون، والمناجاة تكون بصوت خافت: وهي المشاورة فيما بينهم، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في العقل والعلم والحكمة، ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: ألم تذكروا ما كان من شأنكم مع أبيكم، ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ميثاقًا غليظًا وعهدًا أن تردوا ولده إليه، ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ﴾ قصرتم في حقه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ مصر، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ

﴿أَبِيٓ﴾ بالرجوع، ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ﴾ يقضي ﴿ٱللَّهُ لِيٓ﴾ برد أخي معي أو بموت أو غير ذلك، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ الفاصلين والفاتحين.

۞ وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة: أن لن لا تفيد التأبيد.

وذلك أنه قيد البروح بإذن أبيه، فلو كانت تفيد التأبيد ما جاز له أن يبرح أذنَ أو لم يأذن، وأما المبتدعة فقد ذهبوا إلىٰ أن: لن تفيد التأبيد؛ ولذلك جعلوا معنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُرىٰ وهذا تفسير باطل قد رُدَّ عليه في تفسير سورة الأعراف ولله الحمد والمنة.

ثم قال لإخوانه: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ﴾ له معتذرين ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ﴾ بنيامين، ﴿سَرَقَ﴾ كما هو ظاهر الحال، ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ إذ أن الصاع أُخرِجَ من متاعه فلسنا بمفتئتين عليه ولا بكاذبين فيه، ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١﴾ ما كنا نعلم أن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا، ولو علمنا هذا ما ذهبنا إليه.

﴿وَٱسۡـَٔلِ﴾ لتتثبت في أمرنا وخبرنا؛ لأنه قد علم من حالهم لا سيما في شأن يوسف ما يدل على كذبهم؛ ولذلك أرادوا أن يرفعوا التهمة عن أنفسهم، ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ أي: أهل القرية، والذي يرى أنه يجوز استخدام المجاز يقول: هذا من المجاز، والمراد أهل القرية.

والصحيح: أن القرية لها عدة إطلاقات في لغة العرب، فيُراد بها المساكن، ويراد بها الناس، ويراد بها مجموع الناس والبنيان.

﴿ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي: مصر، ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ القافلة، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في قولنا الذي ذكرناه لك، ولكن الحال أن من أُثِرَ عليه الكذب قد لا يُصدق، وقد قيل في هذا:

مَن سارَروهُ فَأَبدىٰ السِرَّ مُجتَهِدًا ... لَم يَأمَنوهُ عَلىٰ الأَسرارِ مَا عَاشَا

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ

ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زينت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ الأمَّارة بالسوء، ﴿أَمْرًا﴾ يعني: مكرًا جديدًا، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ بغير تسخط ولا تشكي، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يوسف وبنيامين، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحزني ووجدي على فقدهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه.

﴿وَتَوَلَّى﴾ انصرف ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ﴾ والأسف شدة الحزن، فكان عَلَيْهِ السَّلَامُ شديد الحزن على يوسف، حتى انطمس بصره، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي: عمي، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ مكظوم مملوء حزنًا لاسيما إذا لم يستطع الإنسان أن يُبدي ما في صدره ربما اشتد حزنه وغيظه وحنقه.

﴿قَالُواْ تَاللهِ﴾ والله، ﴿تَفْتَؤُاْ﴾ لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا تفتر عن حبه، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ دفنًا، وقيل: قريب الموت، وقيل: فاسد العقل، وقيل: ذاهبًا من الهم، وأصل الحرض: الفساد في الجسم والعقل من الحزن، أو الهرم، أو العشق، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ الميتين، ونسأل الله السلامة لو أنهم تعاملوا مع أبيهم معاملة المصبر ويدخلون عليه الأمل مع أنه مؤمل في الله عَزَّوَجَلَّ لكان أحسن من هذا الخطاب، لكن مثل هذا الخطاب مما يزيد الحزن في القلب، تأتي تعاتبه فيرد عليك بأسوأ مما ترجوه منه، فعند ذلك يزداد حزنك، فالنصيحة لنا جميعًا لاسيما مع الأباء والأمهات ومن في حكمهم أنه إذا عاتبك أن يكون ردك مؤدبًا حتى وإن عاتب لظن في نفسه على غير الصواب رد عليه بردٍ تطمئن به نفسه وتهدأ به حاله، ثم بعد ذلك توضح له.

فانصرف يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عنهم و﴿قَالَ﴾ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى﴾ وجدي وشدة حزني والبث: شدة الحزن، سُميَّ بذلك؛ لأنَّ صاحبه لا يصبر عليه حتى

يبثه أو يظهره، والحزن: ما في القلب من الهم والغم على فوات خير أو حصول شر، والشكوى إلى الله عَزَّوَجَلَّ أبلغ من الشكوى إلى غيره، والله عَزَّوَجَلَّ سميع عليم عسى أن يجعل فرجًا، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من أنه لا زال على قيد الحياة، وأن الَّلُقِيَّ سيكون متى شاء الله، لكن الأمر لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ﴾ إلى مصر، ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ تخبروا ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ والتحسس يقولون في الخير، والتجسس في الشر، وربما أُطلق بعضهم على بعض، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾ لا تقنطوا، ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾ من رحمة الله وفرجه، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ اليأس المطلق ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ على يوسف، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الشدة والجوع والحاجة، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ قليلة رديئة كاسدة لا تكفي في قيمة الطعام، بمعنى: أنك أنت الكريم الذي تجازي على القليل بالكثير، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ اعطنا ما كنت تعطينا قبل بالثمن الجيد الوافي، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ﴾ زيادة على الثمن، وقيل: برد أخينا إلينا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يُثيب، ﴿ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال النبي ﷺ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**» أخرجه مسلم.

﴿قَالَ﴾ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ نقل البغوي: أنه لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة فانفض دمعه فباح بالذي كان يكتم منهم، ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ مخطئون.

﴿قَالُواْ﴾ إخوة يوسف ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ﴾ في قراءة: ﴿إِنَّكَ﴾، على الخبر؛ لأنه لا يعلم بما حصل ليوسف إلا الله وهو وإخوانه، فلما أخبرهم الخبر: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ بنيامين، ﴿قَدْ مَنَّ﴾ أنعم ﴿اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بأن جمع بيننا، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، ﴿وَيَصْبِرْ﴾ عما حرم الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى أقدار الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾ يذهب ﴿أَجْرَ﴾ ثواب ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يجازيهم الجزاء الأوفى ويكرمهم بكرامة الصالحين ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾ اختارك وفضلك واصطفاك، ﴿عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي: فيها صنعناه بك ﴿قَالَ﴾ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وكان حليمًا رقيقًا: ﴿قَالَ لَا﴾ لا تعيير ﴿عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ولا تأنيب ولا لوم ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، وهذا من تمام العفو، ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ما صدر منكم من خطأ وزلل، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ أي: خذوا هذا القميص أمارة وعلامة وسبب أيضًا لشفاء أبيهم، ﴿فَأَلۡقُوهُ﴾ اطرحوه ﴿عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ أي: مُبصرًا، ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ حتى ينتقلوا من تلك الدار التي هم فيها ولحقهم ما لحقهم من التعب والنصب إلى المُلك الذي رزقه الله عَزَّوَجَلَّ يوسف، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ﴾ فارقت ﴿ٱلۡعِيرُ﴾ عريش مصر متجهة إلى كنعان، ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ يعني: كأنه يجد ما يدل على يوسف، ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تسفهونهي وتجهلونهي.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ خطئك القديم لا تنسى يوسف مع بعد العهد.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ أي: المبشر عن يوسف: وهو الذي يسبق القافلة، ﴿أَلۡقَىٰهُ﴾ طرح القميص ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ وجه يعقوب، ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ مُبصرًا، ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في الحياة وسيكون اللقاء.

﴿قَالُواْ﴾ عند ذلك مقرين ومعترفين، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ مذنبين مخالفين ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ قال كثير من العلماء: أخر الاستغفار إلى السحر؛ لأنه أدعى للإجابة، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ المتجاوز الساتر ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الموفق لعباده.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ جميع الأهل ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ﴾ ضم ﴿إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ يعقوب وأمه، هذا ظاهر القرآن، وهو اختيار ابن جرير وابن كثير وكثير من المفسرين يقولون: زوجة الأب، وأبعدها قولهم إن الله أحيا أمه له ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ كالذي يقول لهم: حلو على الرحب والسعة وما ستجدون إلا الأمن والخير، وقد اختلفوا في هذا الاستثناء فقيل على الأمن، وقيل على التبرك بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل بأنه قال ذلك لما تلقاهم خارج مصر.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ﴾ وهذا تأكيد على أن الذي جاء أبوه وأمه حقيقة، ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: السرير الذي يجلس عليه الملك، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ أي: إخوته مع أبيه وأمه، وكانت تحيتهم، وقيل: خروا لله سجدًا شُكرًا على هذه النعمة بين يدي يوسف، والمعنى الأول أصح،

﴿وَقَالَ﴾ يوسف، ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: هذه حقيقة الرؤيا التي قصصتها عليك من قبل، ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ صدقًا واقعًا، ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ ربي، ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ بعد طول مكث، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ البادية وجمعني معكم بعد طول فراق، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ وهذا من عجيب شأنه: أنه لم يضف الفعل إلى إخوته، بل أضاف النزغ إلى الشيطان وهذا من تمام العفو والصفح، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ من أسماء الله اللطيف، وهو إيصال الإحسان إلى الغير بالرفق ويأتي على معنى العلم بكل ما لطف ودق وجل، وأنه يلطف بعباده فينالون من عظيم هباته وعطائه الشيء العظيم.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع فعله، وذكر المفسرون عن أبي عثمان أن بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة والله أعلم.

قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ داعيًا لربه: ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ مُلك مصر، ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ تفسير الرؤيا والنبوة والرسالة، ﴿فَاطِرَ﴾ خالف ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يتوسل إليه بخلقه للسماوات والأرض، والمعنى: يا فاطر السماوات والأرض، ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ ولاية العون والتأييد والحفظ والنصر، ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ اقبضني إليك على الإسلام، ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ بآبائه من النبيين والمرسلين.

قال بعضهم: بأن هذا دعاء من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالموت وليس كذلك، إنما دعا الله عَزَّوَجَلَّ أن يثبته علىٰ الإيمان حتىٰ يلقاه كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨]، وكقول النبي ﷺ: «**يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِيْنِكَ**» أخرجه أحمد عن أم سلمة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بهذا ينتهي ما قصه الله عَزَّوَجَلَّ من شأن يوسف وإخوته وأبيه، ولا ندري ما حصل بعد ذلك من طول مكثهم أو حصول الموت لهم، وهل عاد يعقوب من أرض مصر إلىٰ كنعان أم لم يعد، والمعلوم: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مات ودُفِنَ بأرض مصر؛ فعَنْ أَبِي مُوسَىٰ، قَالَ: أَتَىٰ النَّبِيُّ ﷺ أَعْرَابِيًّا فَأَكْرَمَهُ، فَقَالَ لَهُ: «**ائْتِنَا**» ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَلْ حَاجَتَكَ**»،

فَقَالَ: نَاقَةً نَرْكَبُهَا، وَأَعْنُزًا يَحْلُبُهَا أَهْلِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجَزْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟**»، قَالَ: « إِنَّ مُوسَىٰ لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ: إِنَّ يُوسُفَ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللهِ أَنْ لَا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّىٰ نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ، قَالَ: عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا فَأَتَتْهُ، فَقَالَ: دُلِّينِي عَلَىٰ قَبْرِ يُوسُفَ، قَالَتْ: حَتَّىٰ تُعْطِيَنِي حُكْمِي، قَالَ: مَا حُكْمُكِ؟ قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا، فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَىٰ بُحَيْرَةٍ: مَوْضِعِ مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ، فَقَالَتْ: أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ، فَأَنْضَبُوا، قَالَتِ: احْتَفِرُوا وَاسْتَخْرِجُوا عِظَامَ يُوسُفَ، فَلَمَّا أَقَلُّوهَا إِلَىٰ الْأَرْضِ إِذَا الطَّرِيقُ مِثْلُ ضَوْءِ النَّهَارِ».

قوله وجدوا عظام يوسف، ومعلوم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، فالمعنىٰ: إنما ذُكر علىٰ الغالب، وإلا المراد به الرفات أو المراد بها العظام المكسوة باللحم، وإنما قصدوا أن الميت في الغالب توجد عظامه، والله أعلم.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من أول السورة إلى هذا الموطن، ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ﴾ أخبار ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ التي لا تعلم إلا بالوحي﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ أولاد يعقوب، ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ عزموا على إلقاء يوسف في الجُب، ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ بيوسف، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ مطلع على مكرهم.

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يا محمد، ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ على هدايتهم، ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ بمقرين لله عَزَّوَجَلَّ بما له، ومنقادين لدعوتك، وهذا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على الدعوة ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من مال وثواب، ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا الدين والقرآن العظيم، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظةٌ وموعظة وتذكير، ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ العالم المُكلف، من الجن والأنس.

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: وكم، ﴿مِّنْ آيَةٍ﴾ آيات بينات ودلائل عظيمات قاهرات تدل على تفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالربوبية، ومن لوازم ذلك تفرده بالألوهية، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ﴾ أهل مكة ﴿عَلَيْهَا﴾ في سفرهم وعودتهم ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ غير معتبرين ولا متفكرين، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم:٤٢]، ويقول: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، ويقول: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾ [الغاشية:١٧-١٨]، الآيات.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ أي: ما يؤمن أكثر الناس بالله عَزَّوَجَلَّ ربوبيةً: أنه هو الخالق، الرازق، المالك، المدبر، ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في ألوهيته فيرجون غيره، ويذبحون لغيره، ويحلفون بغيره، وربما دعوا واستغاثوا واستعانوا فيما لا يقدر عليه إلا الله بغيره، وفي صحيح مسلم: عن ابن عباس: أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، فيقول النبي ﷺ: «**قَدْ، قَدْ**»، أي: يكفي يكفي، فيقولون: إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ كفار مكة، ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ صاعقة أو بلاء يعمهم: ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ من القتل ونحوه ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة، ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها فربما لم تقع منهم التوبة النصوح، ففي مسلم عن عبد الله بن عمرو: « **ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ**».

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ﴾ طريقي، ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ إلى إفراده بما يجب كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم﴾ [النحل:١٢٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة:٦٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ﴾ [الجن:١٩]، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ علم وهدى، ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ كلنا ندعو إلى الله على علم، وقيل: أدعو إلى الله على بصيرة، ومن اتبعني وآمن بي على بصيرة وعلم.

❁ وفيه: فضيلة الاتباع، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا﴾ [الأعراف:٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ﴾ [آل عمران:٣١]، في أدلة غير هذه، وقال سفيان: وجدنا الأمر كله بالاتباع.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن الشريك، والنظير، والمثيل، والمعين وجميع أنواع النقائص والعيوب، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المنددين، بل هو ﷺ من الموحدين المنقادين لدين رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ وفي هذه الآية معنىٰ لا إله إلا الله حيث أنها تضمنت: النفي والإثبات فقوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ إثبات، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نفي.

❁ وفي هذه الآية: تَعَيُّن الدعوة إلىٰ التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد؛ لكثرة المخالفين في هذا الباب؛ ولأنه حق الله المعظم، والواجب المفخم الذي لا يجوز أن يُهمل في كل وقت وحين.

وما زال النبي ﷺ يدعو إلىٰ التوحيد منذ بعثه الله عَزَّوَجَلَّ وحتىٰ قبضه إليه، وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بالتأسي بالنبي ﷺ بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، ومن هذا التأسي به في الدعوة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»، ولما خطبهم يوم عرفات قال: «**أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**» متفق عليه، فلو قام الناس بالدعوة إلىٰ الله بعلم وبصيرة لزال الشر العظيم، وثبت الخير الكثير، ولكن إلىٰ الله المشتكي فمن الناس من ترك الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ولزم الجهل ومنهم من يدعو لكن إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ بل إلىٰ حزبه وطريقه ومذهبه، ومنه من يدعو إلىٰ البدع والضلالات، والله المستعان.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ بعثنا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد، ﴿إِلاَّ رِجَالاً﴾ لا ملائكة، ﴿نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ بالكتاب المنزل والوحي الذين يؤمرون بتبليغه، ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ من أهل الأمصار دون البوادي.

قال البغوي: لأنَّ أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم.

وقال الحسن: لم يبعث الله نبيًا من بدو ولا من الجن ولا من النساء.

وهذا هو الصحيح من قوله: ﴿إِلاَّ رِجَالاً﴾ ذكورًا، وقد ذهب ابن حزم والقرطبي: إلىٰ أن مريم نَبِيَّة، وجوزوا نبوة النساء.

والصحيح: أن قولهم غير صواب، فقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ مريم بالصديقة، ولو كانت نَبِيَّة لوصفها بالوصف الأعلىٰ، والقول بعدم نبوة النساء قد يكون إجماعًا.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ أهل مكة ﴿فِي الأَرْضِ﴾ متفكرين في آيات الله العظيمات والدلائل الباهرات، ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ نظر تفكر وتعقل، ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ نهاية ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دمر الله عليهم ودمدم وأهانهم وأذلهم، ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ الجنة، وأما النار فلا خير فيها، ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ﴾ بهذا القيد أي: راقبوا الله بفعل المأمور، وترك المحظور، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما يلقىٰ إليكم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ مخففة ومثقلة، ففي البخاري عن ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ [يوسف: ١١٠] خَفِيفَةً، وَتَلاَ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤]، فَلَقِيتُ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ قَالَتْ عَائِشَةُ: «**مَعَاذَ اللهِ وَاللهِ مَا وَعَدَ اللهُ رَسُولَهُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا عَلِمَ أَنَّهُ كَائِنٌ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، وَلَكِنْ لَمْ يَزَلِ البَلاَءُ بِالرُّسُلِ، حَتَّى خَافُوا أَنْ يَكُونَ مَنْ مَعَهُمْ يُكَذِّبُونَهُمْ**» فَكَانَتْ تَقْرَؤُهَا: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ مُثَقَّلَةً.

وفي رواية للبخاري: عن عُرْوَة: أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ: أَرَأَيْتِ قَوْلَهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ أَوْ كُذِبُوا؟ قَالَتْ: «بَلْ كَذَّبَهُمْ قَوْمُهُمْ»، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَقَدِ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ، وَمَا هُوَ بِالظَّنِّ، فَقَالَتْ: «يَا عُرَيَّةُ لَقَدِ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ»، قُلْتُ: فَلَعَلَّهَا أَوْ كُذِبُوا، قَالَتْ: «مَعَاذَ اللهِ، لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا، وَأما هَذِهِ الآيَةُ، قَالَتْ: «هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ البَلاَءُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ، حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَتْ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللهِ».

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: ﴿فَلَمَّا﴾، اسْتَفْعَلُوا، مِنْ يَئِسْتُ مِنْهُ مِنْ يُوسُفَ، ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ مَعْنَاهُ الرَّجَاءُ».

فيكون المعنىٰ: حتىٰ إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، أو أنهم استبطأوا النصر، كما تقدم قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث تَلاَ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وعلىٰ قراءة التثقيل يكون المعنىٰ ظاهر. فيكون الإشكال علىٰ قراءة التخفيف.

❁ **فقد اختلف أهل التفسير في معناها إلى ثلاث أقوال:**

- **الأول:** ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ أي: ظن الرسل أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم وارتدوا عن دينهم؛ لشدة المحنة والبلاء عليهم.

- **الثاني:** أيقن الرسل أن الكفار قد كذبوهم تكذيبا لا يرجىٰ بعده إيمانهم، وهذا معنىٰ قول قتادة.

- **الثالث:** أن هذا ظن الكافرين حيث ظنوا أن رسلهم قد كذبتهم، فلا يفهم من الآية أن الرسل هم الذين ظنوا بالله عَزَّوَجَلَّ أنه قد كذبهم فهذا لا يليق بهم ولا يجوز، كما قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا.

﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ من حيث لا يظنون ولا يؤملون، ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ يُنجي الله عَزَّوَجَلَّ من شاء من عباده وهم أهل الإيمان، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾ الأنتقام، ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ أي: في خبر يوسف وإخوته، ﴿عِبۡرَةٞ﴾ عظة، ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لأصحاب العقول، ﴿مَا كَانَ﴾ هذا القرآن، ﴿حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ يُختلق، ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من التوراة والأنجيل، ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال، والحرام، والأمر، والنهي، والخبر وغير ذلك، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ بيانًا ونعمة، ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ينقادون لأمر ربهم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ولا يُعرضون، والحمد لله.

تفسير

سورة الرعد

سُورَةُ الرَّعْدِ

❁ **اختلف العلماء في نزولها:**

فذهب جمهورهم: إلىٰ أنها مدنية.

وذهب بعضهم: إلىٰ أنها مكية سوىٰ بعض آيات، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد:٣١]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ﴾ [الرعد:٤٣].

❁ وهي ثلاثة وأربعون آية.

❁ والذي يظهر من سياقتها: أنها مكية من حيث ذكر: الدلائل الواضحات والحجج الدامغات علىٰ إثبات وحدانية الملك العلام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ﴾ هذه، ﴿آيَاتُ﴾ حجج وبينات ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن البين الواضح، وقيل: التوراة والأنجيل والكتب المتقدمة، ﴿وَ﴾ هذا القرآن ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ الصدق الذي لا شك فيه فاعتصم به، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أهل مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بأن هذا القرآن هو الحق من الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ والمعنىٰ ليس لها عمد مطلقًا ﴿تَرَوْنَهَا﴾ السواري، واحدها عمود، وزعم بعضهم: إلىٰ أن لها عمد لا تُرىٰ، وهذا قول ضعيف ليس عليه دليل﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: علا وارتفع وظهر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فهو العلي العظيم، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ تجري لمنافع الناس وحاجاتهم، ﴿كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلىٰ وقت معلوم وهو فناء الدنيا ثم بعد ذلك تكور الشمس والقمر فتُلقىٰ في النار، ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أمور العباد العلوية والسفلية، من علوه، كما قال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يبينها ويوضحها ويجليها، ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ورؤيته يوم القيامة ﴿تُوقِنُونَ﴾ تؤمنون بوعده ووعيده.

﴿وَهُوَ﴾ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ﴾ وأوسعها، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ﴾ جبالًا عالية يثبتها بها، ﴿وَأَنْهَارًا﴾ تجري فيها، ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ تخرج في حال زراعتها، ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ صنفين أحمر وأصفر، وحلوًا وحامضًا، ﴿يُغْشِى﴾ يغطي ﴿اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يُلبس النهار بظلمة الليل، ويُلبس الليل بضوء النهار، ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ علامات واضحات ودلالات قاهرات، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، فيستدلون بهذه الآيات على وحدانيته.

﴿وَفِى الأَرْضِ﴾ أيضًا علامات على وحدانية الله ومنها ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ متقاربات، ومع هذا تجد أن هذه طيبة وهذه خبيثة، وهذه تُنبت وهذه لا تُنبت، وهذه قليلة الثمر وهذه عظيمة الثمر، وهذا من الدلائل البينات على قدرة الله وإرادته، ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ بساتين، ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ الصنوان: المجموعات، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ المفردة بأصلها، ومع ذلك: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ﴾ لا اختلاف فيه ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ فتختلف من حيث طعمها وجودتها، وبهاء طلعتها، مع اتحاد مائها ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ﴾ الاختلاف المذكور في ثمار الأشجار ﴿لآيَاتٍ﴾ حجج بينات، وعلامات ظاهرات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بل ربما تجد عذقًا فيه نوع من الثمار، وبعضها حلو، وبعضها مُرٌّ، وبعضها مُرٌّ وتجد في بني آدم هذا

التفضيل فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ» أخرجه أبو داود.

﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾.

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ يا محمد من تكذيب هؤلاء المشركين وردهم لهذه الحجج الواضحة الجلية، ﴿فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ فاعجب من قولهم الذي يدل على ضعف عقولهم ومداركهم، ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ بعد الموت، ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ بعث ونشور، وكان الأولى أن يستدلوا بخلقتهم على بعثتهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة:٣٧-٤٠]، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٨-٧٩]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين تقدم قولهم، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ لم يقروا به ربًا، ومالكًا، وخالقًا، ورازقًا، ومدبرًا، ومعبودًا وإن أقروا ببعضها في الجملة إلا أنهم كفروا بألوهية الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ يوم القيامة تُغل أيديهم وأرجلهم إلى أعناقهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢]، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وما هم منها بمخرجين.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾ أي: كفار قريش، ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ العقوبة ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ العافية، ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ﴾ ولت ﴿مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ العقوبات الفاضحات في الأمم السابقات ممن دمر الله عَزَّوَجَلَّ عليهم كما قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم﴾ [العنكبوت:٤٠]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ

﴿لِّلنَّاسِ﴾ تجاوز وعفو وصفح ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، بغيهم وكفرهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن كفر به وأعرض عن دينه.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ معجزة ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ مع توارد الآيات عليهم لكنهم لا يؤمنون، وعن أبي هريرة قال النبي ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» متفق عليه، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مخوف كما قال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢-٢٣]، ولا تواتيهم لكل ما طلبوا، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى:٩-١١]، ولو تأملت القصص القرآني كم طلبوا من النبي ﷺ من الحجج ويأتيهم بها ومع ذلك يأبون إلا الكفر، ومن الآيات الكونية أنهم طلبوا انشقاق القمر فانشق القمر حتى رُؤيَ فلقتين فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢]، أي ملازم لهم، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبيٌ يدعوهم إلى الله.

وفيها أربعة أقوال:

- **الْأَوَّلُ**: أَيْ دَاعٍ يَدْعُوهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ إما إِلَىٰ خَيْرٍ كَالأنبياء، وَإما إِلَىٰ شَرٍّ كَالشَّيَاطِينِ.
- **الثَّانِي**: أن الله هادي العباد فمن شاء وفقه ومن شاء خذله.
- **الثَّالِثُ**: أَيْ لكل قوم قَائِدٌ، وَعَلَىٰ هَذَا فَالْمَعْنَىٰ: وَلِكُلِّ قَوْمٍ عَمَلٌ يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ مَا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، الرَّابِعُ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْقَوْمِ الْأُمَّةُ وَالْمُرَادَ بِالْهَادِي النَّبِيُّ.

فَيَكُونُ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ أَيْ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيٌّ، وهذا الأظهر، والله أعلم.

أفاده الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ في بطنها سواءً أنثى الإنسان أو الحيوان، ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾ تنقص ﴿الأَرْحَامُ﴾ فربما مات، ﴿وَمَا تَزْدَادُۖ﴾ قال أهل التفسير: غيض الأرحام: الحيض على الحمل، فإذا حاضت الحامل كان نقصًا في الولد؛ لأنَّ دم الحيض غذاء الولد في الرحم، فإذا أهرقت الدم ينقص الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم، فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني: على وفق تقديره لا يجاوزه إلى زيادة ولا إلى نقصان، كما قال تعالى: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات:٢٣]، وفي حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « **إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**» متفق عليه.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ ما غاب عنكم، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما ظهر لكم، ﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وأفعاله وصفاته، ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته وذاته وصفاته.

وهو تعالى قد أحاط بجميع خلقه ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم﴾ يستوي عنده ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾ فلم يبده، ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أظهره، فالأمر عنده على السواء لا تخفى عليه خافية، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، ﴿وَ﴾ يستوي عنده في علمه ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ أي: مكتوم، وقيل: ظاهر، مع أن الليل موطن الظلمة والخفاء ﴿وَ﴾ يستوي عنده وفي علمه من هو ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ قيل: متوار داخل سرب، فلو ذهب إلى السراديب و الأماكن المحفورة والكهوف المغمورة لعلمه الله.

﴿لَهُۥ﴾ للإنسان ﴿لَهُۥ﴾ ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار على حراسته وحفظه: ﴿مِّن بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ من أمامه، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ بأمر الله، وقيل: بأن المراد بالمعقبات الملائكة الذين يتعاقبون بالليل والنهار.

ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين، قال رسول الله ﷺ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»، وفعلًا كم من الأشياء التي تُصرف عن الإنسان بما جعله الله عَزَّوَجَلَّ من هذه المعقبات، فربما يُحفظ من سقوط في جبل أو من تردي في هاوية أو من حريق بالنار أو غير ذلك مما ينوب الإنسان، ويصرف الله عَزَّوَجَلَّ عنه كثيرًا من الهوام، فربما يمشي الثعبان بجانبه ويسلمه الله، وربما تكاد سيارته أن تنقلب في منحدر فيسلمه الله، فالله عَزَّوَجَلَّ يحفظ الإنسان، فإذا كان قد حل وقت المصيبة التي قدرها الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن من هذه الحفظة له حفظ بأمر الله الكوني، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من خير إلىٰ شر أو من شر إلىٰ خير، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ فإن كانت أنفسهم محلًا للشر فلا يُغير إلىٰ خير حتىٰ يُغير نفسه بالخير، وإن كانت نفسه متحليه بالخير فلا يُغير ما هو فيه من الخير إلىٰ الشر حتىٰ يُغير نفسه إلىٰ الشر، وهذه آية عامة فيها من الوعد والوعيد ما الله به عليم، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ إرادة كونية كائنة، ﴿بِقَوۡمٍ سُوٓءٗا﴾ ما يلحقهم من القحط والسنين والأمراض والأسقام، ﴿فَلَا مَرَدَّ﴾ صارف، ﴿لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: من دون الله، ﴿مِن وَالٍ﴾ ولي يحوطهم ويحفظهم وينصرهم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ وَلِيِّـَٔ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ١٥﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ وهو ما يكون مع السحاب من الأضواء الخاطفة، وربما صاحبته الأصوات المخيفة ويُسمى بالصاعقة والرعد، ﴿خَوْفًا﴾ يخوفكم من بأسه وعقابه، ﴿وَطَمَعًا﴾ تطمعون في رحمته وسقياه، ﴿وَيُنشِئُ﴾ يخلق ويهيء ﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بالمطر، وذهب الطبائعيون وربما وافقهم بعض العلماء: إلى أن المطر يتبخر من البحر، وهذا القول ليس على إطلاقه فلو قلنا بأن البحر أصل الماء لا كل الماء؛ على التسليم بذلك فقد وافقهم بعض علماء الشريعة وقالوا: بأن البحر أصل الماء لا كل الماء، وإنما مبدؤه ما يتبخر من البحر ثم يجعل الله عَزَّوَجَلَّ فيه البركة العظيمة التي شاء فتنزل تلك الأمطار الغزيرة الكثيرة.

وأما الطبائعيون فيزعمون: أن الماء جميعه متبخر من البحر وهذا لا يقول به مستقيم؛ لأننا نرىٰ أن البحر يمكث السنين الطويلة والأراضي من حوله ليس فيها ماء، وإذا أراد الله أن ينزل المطر تنزل أمطار غزيرة ربما في موسم الشتاء والشمس حرارتها يسيرة وما تبخره يسيرًا، وفي الصحيحين ما يدل علىٰ خلاف ما ذكروه فعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ بَابِ الْقَضَاءِ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يُغِيثَنَا قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا ، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا ، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**»، قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللهِ مَا نَرَىٰ فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزْعَةٍ، وَلَا مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ - يَعْنِي السَّمَاءَ - انْتَشَرَتْ ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سَبْعًا، أي: اسبوعًا كاملًا لم تأتِ هذه السحابة من بحر ولا نهر، وإنما هو الله عَزَّوَجَلَّ الذي أنشأها.

﴿وَيُسَبِّحُ﴾ ينزه اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَيُسَبِّحُ﴾ الصوت الذي يكون مع البرق، ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ بعظيم شأنه، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يسبحون أيضًا، ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ خوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ، وفي الباب عن مجموعة من الصحابة مرفوعًا وموقوفًا عند حصول الرعد والبرق أن يقال: «**سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**»، وأصحها ما جاء عن ابن الزبير وما في بابه، فلا

بأس بالعمل والله أعلم، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ المحرقة والمهلكة، ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ممن تمرد على شرعه أو ممن أراد الله عَزَّوَجَلَّ له غير ذلك، ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ﴾ يخاصمون ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ في آياته، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ المكر والمغالبة والأخذ.

وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا: عند البزار من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ يَدْعُوهُ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَقَالَ: أَيْش رَبُّكَ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ؟ مِنْ نُحَاسٍ هُوَ؟ مِنْ حَدِيدٍ هُوَ؟ مِنْ فِضَّةٍ هُوَ؟ مِنْ ذَهَبٍ هُوَ؟ فَأَتَىٰ النَّبِيّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَعَادَهُ النَّبِيّ ﷺ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: مِثْلَ ذَلِكَ فَأَتَىٰ النَّبِيّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ الثَّالِثة فَقَالَ: مِثْلَ ذَلِكَ فَأَتَىٰ النَّبِيّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَرْسَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ صَاعِقَةً فَأَحْرَقَتْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ أَرْسَلَ عَلَىٰ صَاحِبِكَ صَاعِقَةً فَأَحْرَقَتْهُ**»، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

﴿لَهُۥ﴾ أي: لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ﴾ دعوة التوحيد والصدق، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأوثان التي يعبدونها من دون الله، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ لا يفرجون عنهم كربة ولا يقضون لهم حاجة وإن دقت، وحالهم: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ والماء في البئر، فيبسط يديه يريد أن يشرب، ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ ولن يبلغه؛ لأنَّ الأسباب منقطعة، ﴿وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ﴾ لأصنامهم وأوثانهم، ﴿إِلاَّ فِى ضَلَال﴾ تباب وهلاك لا يستفيدون منه دنيا ويضرهم في الآخرة.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ الواحد القهار، مصرف الليل والنهار، العزيز الغفار، ﴿مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الملائكة والمؤمنين، بل وكل شيء علىٰ عمومها، كما قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء:٤٤]، ﴿طَوْعًا﴾ وهم أهل الإيمان، ﴿وَكَرْهًا﴾ وهم أهل النفاق والكفران، ﴿وَكَرْهًا﴾ أي: ظلهم أيضًا يسجد لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ الصباح، ﴿وَالآصَال﴾ ما بين العصر إلىٰ غروب الشمس، وهو معنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة:١].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَن رَّبُّ﴾ مالك ومصرف، ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ الذي له الملك المطلق لا يعجزه ولا يُكرثه شيء، وليس له من نصير ولا معين ولا نظير ولا سمي ولا كفؤ، ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ تعبدونهم وترجونهم وتوالونهم مع ضعفهم حيث ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا﴾ رزقًا وعافيةً، ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ ولا دفع ضر، فكيف ينفعونكم وحالهم هذا ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى﴾ الكافر، ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ المؤمن، ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ﴾ الكفر، ﴿وَالنُّورُ﴾ الإيمان، يعني: هذا هو المقصود من هذه الأمثلة، فكما لا يستوي الأعمىٰ والبصير في شأن الدنيا كذلك لا يستوي المؤمن والكافر، وكما لا يستوي الظلمة والنور كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، ﴿أَمْ﴾ بل، ﴿جَعَلُوا﴾ صيروا، ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يشاركونه في ملكه، وهل ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ وهذا لا يكون؛ لأنَّ الله هو الخالق الرازق المالك المدبر، ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ حتىٰ ظنوا أن هذا إله وهذا إله، ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خلق العباد وأفعال العباد، خلق السماوات والأرَضين وما فيهما وما بينهما، ولا يلزم من قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أن يكون القرآن مخلوقًا كما هو قول المعتزلة، حيث قالوا القرآن شيء، وهو داخل في مخلوقات الله، وكان الرد عليهم: أن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله ليس بمخلوق منه بدأ وإليه يعود، والمعنىٰ أنه: خالق كل شيء مخلوق، فإن كل تفيد العموم بحسبها، فالله شيء وليس بمخلوق، ويقول تعالىٰ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ولم تؤت ملك سليمان، ولكن المعنىٰ مما يؤتاه الملوك، وهكذا ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ في ذاته

وصفاته وأفعاله ﴿الْقَهَّارِ﴾ القاهر لعباده المتسلط عليهم، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ:١١].

ثم ضرب الله مثلين للحق والباطل فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ السحاب، ﴿مَاءً﴾ مطرًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ بالسيول، ﴿بِقَدَرِهَا﴾ في الصغر والكبر، ﴿فَاحْتَمَلَ﴾ حمل ﴿السَّيْلُ﴾ الماء الذي يجري في الأرض، ﴿زَبَدًا﴾ الخبث الذي يظهر علىٰ وجه الماء، ﴿رَّابِيًا﴾ عاليًا مرتفعًا، ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ وحمل من الأخشاب والحطب ونحوه، مما يوقدون عليه ﴿ابْتِغَاءَ﴾ طلب صنع ﴿حِلْيَةٍ﴾ من الذهب والفضة ليتزينوا بها، ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ ابتغاء متاع يعني: من الحديد والنحاس وغير ذلك مما يستفيدونه، ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أي: أنه زبد قليل النفع، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ الإسلام ﴿وَالْبَاطِلَ﴾ الكفر فالحق في الماء السائل الجاري الذي تنتفع به المزارع، والباطل: في هذا الزبد، فالتوحيد ينتفع به العبد في الدنيا والأخرىٰ، والشرك والتنديد حاله كحال الزبد لا يُنتفع به لا في الدنيا ولا في الأخرىٰ، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ متفرقًا تفرقه الريح ولا يحتاجه الإنسان، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ إما أن يبقىٰ في الأرض ظاهرًا تشرب منه الدواب والأنعام ويسقون منه، وإما أن ينزل إلىٰ باطن الأرض فيحفرون الآبار ويستخرجونه، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ التي يتعقلها العالمون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣].

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ انقادوا لدينه وشرعه في هذه الدنيا وأطاعوه بامتثال أمره واجتناب نهيه، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ بل كفروا وأعرضوا، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ من الأموال والأمتعة، ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ يعني: شروا به أنفسهم وعاوضوا به عن أنفسهم حتىٰ لا يدخلوا النار، كما قال تعالىٰ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾ [المعارج:١١-١٤]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ سيء الحساب، فيجازون ويحاسبون علىٰ جميع أعمالهم السيئة، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مصيرهم ونزلهم، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ بئس الفراش الذي يُمهد لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ﴾ [الأعراف:٤١].

يقول تعالى مفرقًا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من الوحي والقرآن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الصدق فيؤمن به ويعمل بما فيه، ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ﴾ معرض عنه لا يعلمه ولا يعمل به، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ ﴿أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦]، وكقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠]، فمن عَلِمَ الحق وانقاد له وعمل به هو الممدوح الموعود بالحسنى، ومن أعرض عنه فهو المذموم في الدنيا والآخرة والموعود بالعسرى كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل:٥-١٠].

ثم ذكر أوصاف الذين يعلمون الحق ويعملون به فهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يأتون ويلتزمون بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وميثاقه: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ لا ينكثون ﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾ العهد الذي أُخذ عليهم سواءً كانت العهود المكتوبة بينهم وبين خصومهم، أو كان الميثاق المأخوذ علىٰ بني آدم في توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ولزوم شرعه، كما قال بعض أهل التفسير عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ

رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢].

﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا معنى عام يدخل فيه صلة الأرحام والإحسان إلى الجيران، ويدخل فيه الإيمان بجميع ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ وأوحاه.

وفي هذا الموطن تُذكر عدة أحاديث في صلة الرحم منها ما في الصحيحين: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، فَقَالَ: أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَىٰ يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكِ لَكِ**»، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ [محمد:٢٢].

وفي حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» متفق عليه، وفي حديث جبير بن مطعم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ**» متفق عليه.

وفي حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ**»، ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ يخافونه ويعظمونه، ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ سوء العاقبة والحساب علىٰ أعمالهم.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ وكان من شأنهم أنهم صبروا على أوامر الله عَزَّوَجَلَّ فعملوها، وعن نواهي الله عَزَّوَجَلَّ فاجتنبوها، وعن المصائب التي نزلت بهم فصبروا عليها، وكان ذلك منهم: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ طلبًا لرضا الله وإخلاصًا له عَزَّوَجَلَّ ورجاء الثواب الذي وعدهم الله عَزَّوَجَلَّ به.

۞ وفيها: إثبات صفة الوجه لله عَزَّوَجَلَّ، وهو من الصفات الذاتية الخبرية.

﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَاهُمۡ﴾ سواءً كانت الزكاة المفروضة أو الصدقة المستحبة ﴿سِرّٗا﴾ عن أعين الناظرين، ﴿وَعَلَانِيَةٗ﴾ وهم ينظرون.

۞ **وقد اختلف أهل العلم في أفضلها:**

فذهب جمع من أهل العلم: إلىٰ أن الأفضل في الصدقة المستحبة أن تكون سرًا إلا إذا كانت من باب التحضيض للناس علىٰ الصدقة، والأفضل في الزكاة أن تكون جهرًا؛ لأنها من شعائر الله عَزَّوَجَلَّ، وقد تقدم نحو هذا الكلام في تفسير سورة البقرة، وعن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ: «**الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ**» أخرجه أبو داود (١٣٣٣) عن عُقبة بن عامر الجُهني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يدفعون، ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ الفعل الحسن والعمل الصالح، ﴿السَّيِّئَةَ﴾ النقمة والعذاب، وفي حديث معاذ وأبي ذر قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**» أخرجه الترمذي، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود:١١٤]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بهذه الصفات ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ الجنة، سُميت عقبىٰ؛ لأنها تكون في آخر الزمان، ويُكرم المؤمن فيها بغاية الكرامة، ويدخل في قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾: أنهم لا يُجازون الحسنة بسيء العمل، فعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**» أخرجه أبو داود، وإذا أراد الأنتقام كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ:٤٠]، ومن أحسن إلىٰ الناس أحسن الله إليه.

وعاقبة الدار التي ينالوها هي: ﴿جَنَّاتُ﴾ بستانين ﴿عَدْنٍ﴾ إقامة، ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يوم القيامة، ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ آمن ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يُنعمون معهم؛ لحسن عملهم وعمل آبائهم وذرياتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ المكرمون، ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم﴾ يوم القيامة وهم في جنتهم، ﴿مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب الجنة، وقيل: من أبواب القصور.

وهذا هو الأظهر.

يقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ وقد اختلف في معنىٰ السلام فقيل: سلام الله عليكم، وقيل: سلمكم الله من الآفات، ﴿بِمَا صَبَرْتُمْۚ﴾ بسبب صبركم، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي نِعم

الموطن والمكان، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: « **فيها مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ** » متفق عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾.

فلما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ شأن المؤمنين ثنىٰ بذكر الكافرين والمعرضين وهذا في القرآن كثير: ﴿وَالَّذِينَ لَا﴾ أي: من شأنهم أنهم، ﴿يَنقُضُونَ﴾ ينكثون ﴿عَهْدَ﴾ ميثاق ﴿اللهِ﴾ وهي ما أُخذت عليهم من العهود والمواثيق سواء في ذلك عهد الله الذي هو مأخوذ علىٰ ذرية آدم، أو العهد الذي أخذه الله في الكتب المنزلة أو اليمين.

قال أبو العالية: هِيَ سِتُّ خِصَالٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِذَا كَانَتْ فِيهِمُ الظَّهْرَةُ عَلَىٰ النَّاسِ أَظْهَرُوا هَذِهِ الْخِصَالَ، إِذَا حَدَّثُوا كَذَبُوا، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِذَا اؤْتُمِنُوا خَانُوا، وَنَقَضُوا عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَقَطَعُوا مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا كَانَتِ الظَّهْرَةُ عَلَيْهِمْ أَظْهَرُوا الْخِصَالَ الثَّلَاثَ: إِذَا حَدَّثُوا كَذَبُوا، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِذَا اؤْتُمِنُوا خَانُوا. وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ أَيْضًا، وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادِهِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ قَالَ: هُوَ مَا عَهِدَ إِلَيْهِمْ فِي الْقُرْآنِ، فَأَقَرُّوا بِهِ ثُمَّ كَفَرُوا فَنَقَضُوهُ.

﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ المغلظ عليهم في الطاعة ولزومها، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من الأرحام والأوامر والنواهي، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بأنواع الفساد من الشرك والزنا، واللواط، وشرب الخمر وغير ذلك من المعاصي، ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ الطرد من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ سوء المنقلب وهي النار وبئس القرار نسأل الله السلامة والعافية.

ففي هذه الآيات مع ضميمها من آيات سورة البقرة وما في بابها تعلم أن المؤمن يُمدح لما هو عليه من العلم والعمل بمرضات الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الكافر يُذم بما هو عليه من سوء

العلم والعمل، فإنما يُكرم الإنسان بعلمه وعمله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، أما الجمال فرُبَ جميل الوجه ليس بجميل الخصال والفعال، وُربَ جميل وجه يكون يوم القيامة وجهه من أسوأ الوجوه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦].

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ﴾ يوسع، ﴿الرِّزْقَ﴾ العطاء، ﴿لِمَنْ يَشَاء﴾ من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ له أي: يضيق عليه إن شاء، وكل هذا لحكمة علمها، ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي: المشركون ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وما فيها من الأمتعة الزائلة، والنعيم البائد، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التي فرح بها من فرح، ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ في الدار الآخرة والحياة الأبدية، ﴿إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ يُقال: كمثل القصعة والقدح من الأشياء التي يُتمتع بها ثم تذهب ولا يُستفاد من كثير منها، وهذا من تزهيد الله عَزَّوَجَلَّ عباده في الدنيا التي فتنتهم وألهتهم عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]،

وفي حديث المستورد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟**» أخرجه مسلم.

وفي حديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لأنهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**» أخرجه مسلم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كفار مكة معترضين علىٰ وحي الله عَزَّوَجَلَّ وهم، ﴿لَوْلَا﴾ هلا، ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ علامة وبينة علىٰ صدق دعوته، ولو جاءتهم الآيات ما انتفعوا بها كما

قال: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ يصرفه عن الهدىٰ، ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ من كان رجاعًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ مُنيبًا تائبًا، إذًا الهداية تتحصل لأهلها لمن طلبها وسعىٰ في تحصيلها.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ﴾ تسكن ﴿قُلُوبُهُم﴾ ويزداد يقينها: ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ﴾ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ويدخل فيه: ذكر اللسان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ سبب لأنشراح الصدور، وهدوء البال، وحسن الحال، وهو سبب لذكر الله للعبد، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، وسبب لرفعة العبد في الدرجات العُلىٰ والنعيم المقيم كما دل رسول الله ﷺ فقراء المهاجرين علىٰ التسبيح والتحميد والتكبير، وفضائل الذكر كثيرة: فهو مطردة للشيطان، ومن أسباب رضا الرحمن، وهو الباقيات الصالحات، وبه غراس الجنة، ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وتهدأ وتسكن، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، وقد قيل:

بِـــذِكرِ الله تَرتَـــاحُ القُلُـــوبُ وَدُنْيَانَـــا بِـــذكرَاهُ تَطِيـــبُ

فكلما كان الإنسان أكثر ذكرًا لله كلما كان إليه أقرب، وكلما كان هادئ النفس مستريح البال منشرح الصدر يصرف الله عَزَّوَجَلَّ عنه كثيرًا من الخطوب، ويكفر عنه كثيرًا من الذنوب، بل جاء في شأنه عن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**»، قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**ذِكْرُ اللهِ**» أخرجه أبو داود.

﴿ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا، ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ في الآخرة.

❁ **وقد اختلف في طوبى.**

فقيل: شجرة في الجنة وقيل: هي الجنة، وقيل: فرح وسرور، وما جاء: «**إن شجرة يقال لها طوبىٰ يمشي الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**»، لا يثبت، وأما ما جاء في الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا**» فهي شجرة مطلقة لم يصح في تسميتها شيء.

﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ حسن مرجع يرجعون إليه، ومنقلب ينزلون فيه.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أرسلنا الأنبياء إلىٰ الأمم ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ﴾ طائفة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: ولت ومضت، ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ جماعات وقبائل، والسبب في إرسالنا لك: ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القرآن، ﴿وَهُمْ﴾ الحال أن قومك ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ففي الصحيحين من حديث المسور: لما قال النبي ﷺ: «**اكْتُبْ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، قَالَ سُهَيْلٌ: أما بِاسْمِ اللهِ، فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ بِاسْمِكَ اللهُمَّ، وقد جاء في بعض أشعار العرب: أنهم كانوا يذكرون الرحمن كقولهم:

ألا قضب الرَّحْمَنُ رَبِي يَمْينَهَا _____

فقيل: إما أن يكون الكفار قالوا هذا علىٰ سبيل المكابرة، وإما أن يكون بعضهم يعرف اسم الرحمن وبعضهم لا يعرفه.

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ أي: الرحمن، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود غيره كما لا رب سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ توبتي ومرجعي وإيابي، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ

حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾ [يونس:٤١].

ثم يقول تعالىٰ مبينا فضل القرآن: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ مقروءً ومكتوبًا، ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ وزحزحت عن أماكنها، ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ شُققت فَجُعِلت أنهارًا وعيونًا ونحو ذلك، ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ في قبورهم والمعنىٰ: لكان هذا القرآن الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ محمد عليه الصلاة والسلام، إذ أنه الوحي المبين والقول القويم والصراط المستقيم، الذي فيه خبر من قبلنا ونبأ من بعدنا، وهو القول الفصل، وليس بالهزل: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت:٤٢]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في هذا المعنىٰ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، ﴿بَلۡ لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ فيأتي بما تقتضي حكمته من الآيات والأدلة الواضحات وهذا رد علىٰ كثرة اقتراحاتهم وتشرطهم ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾ أفلم يعلم، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وانقادوا لربهم، ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ إلىٰ التوحيد والسنة، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ حكيم عليم يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا، فيهدي من علمه أهلًا للهداية، ويضل من علمه أهلًا للغواية، ومعنىٰ الهداية: أن يوفق العبد لطاعته، والإضلال: أن يخذله من التوفيق، وما سلب أحدًا حقه.

وقد أحسن من قال:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مع كفرهم وبغيهم: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ مصيبة أو داهية أو زلزلة أو هزيمة، ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ تنزل ﴿قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ لعلهم يتقون أو ينزجرون، وقيل: ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ تنزل أنت يا محمد بنفسك قريبًا من ديارهم، والمعنىٰ الأول أليق، ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ بفتحه ونصره وظهور الكتاب والسنة، وقيل: يوم القيامة، وكلاهما داخل في

المعنىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ إذ أن خُلف الوعد مذموم، وخلف الوعيد ممدوح، فما وعد الله عَزَّوَجَلَّ به لا يُخلف ولا يتخلف.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ سخر الكفار ﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: كما استهزئ بك يا محمد، ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ أخرت وأمهلت وأطلت لهم المدة، ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعرضوا وجحدوا، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أهلكتهم وعاقبتهم، وكان عقابه لهم في الدنيا بالقتل ونحوه، وفي الآخرة بالعذاب الأليم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: كيف كان عقابي بهم؟ عذاب شديد وخزي عظيم أكيد نسأل الله السلامة والعافية.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي: حافظ لرزقها، وعملها، وأجرها، ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ مكلفة، ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ عملت، يعني: هل يستوي مع من لا يفعل ذلك ولا يعلم ذلك؟ لا يستوون كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٦٣]، ومن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: الحي القيوم، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان يقول في قيام الليل: «**اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**» متفق عليه، والمعنىٰ: أنه قائم بنفسه مقيم لغيره لا غنىٰ للعباد عن عونه، ﴿وَجَعَلُواْ﴾ أي: كفار مكة ومن إليهم من الكفار، ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ نظراء ومثلاء، ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ يعني: بينوا أسمائهم وأوصافهم هل هم أهل للمشاركة أم لا؟ ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ﴾ أم تخبرونه، ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فإنه بكل شيء عليم، ولا يعلم له شريكًا ولا مثيلًا ولا نظيرًا، ﴿أَمْ﴾ يتعلقون في باطلهم ﴿بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ بباطل وظن من القول لا علم لهم بحقيقته ولوازمه فهم يتكلمون بكلام باطل يتشبثون به مع بعده.

وكما يُقال:

وَعَيَّرَها الوَاشُونَ أَنّي أُحِبُّها وَتِلكَ شَكاةُ ظاهِرٌ عَنكَ عَارُها

أي: حين يُعير الإنسان بما ليس فيه، أو بما هو فيه وكان ممدوحًا فيه إنما هم يظنونه باطلًا، ﴿بَلْ﴾ السبب الذي جعلهم يزدادون كفرا أنه ﴿زُيِّنَ﴾ زُوِّق وحُسِّن ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ ليزدادوا كفرًا إلىٰ كفرهم، وبُعدًا إلىٰ بُعدِهم، وبغيًا إلىٰ بغيهم، ﴿وَصُدُّواْ﴾ صُرِفوا، ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ الصراط المستقيم والطريق القويم، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يصرفه عن الهدىٰ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ولو اجتمع من بأقطارها، فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**» أخرجه مسلم(٢٥٧٧)، وهذه هداية التوفيق خاصة بالله عَزَّوَجَلَّ لا يُشركه فيها غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا.

﴿لَّهُمْ﴾ للكفار المعرضين ﴿عَذَابٌ﴾ شديد، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل وغيره، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ في نار جهنم يصلونها وبئس المهاد، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ من ناصر ومعين ومُسَلِم ومانع.

﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي: وصف الجنة، ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وعدها الله عَزَّوَجَلَّ أن يسكنها المتقون، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ﴾ أي: تجري فيها الأنهار، ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ غير مقطوع، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي: ليس فيها شمس ولا برد، كما قال تعالىٰ: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٣-١٤].

وفي هذا رد علىٰ الجهمية الذين يزعمون أن الجنة تفنىٰ وتبيد، فالله عَزَّوَجَلَّ خلق الجنة والنار للبقاء لا للفناء.

﴿تِلْكَ﴾ أي ذلك النعيم ﴿عُقْبَى﴾ أي: عاقبة: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ راقبوا الله بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ يعذبون فيها وبئس القرار، ﴿وَالَّذِينَ﴾ وهم أصحاب محمد ﷺ، ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن، ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الوحي، ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ الكفار الذين تحزبوا علىٰ رسول الله ﷺ من كفار قريش واليهود والنصارىٰ ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ كوصف محمد ﷺ ونحوه وربما أنكروه كله، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ أمرني الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ وهذا معنىٰ لا إله إلا الله لجمعها بين النفي والإثبات ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ أي: إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أدعو ببيان الحق الذي أوحاه وأنزله، ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ المرجع، وهذا يكون بعد الموت.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما أنزلنا إليك الكتاب، وفرح به المؤمنون، وأنكره الكافرون، وقيل كما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب أنزلنا عليك القرآن، ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ القرآن، ﴿حُكْمًا﴾ محكمًا بينًا حال كونه ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلسان العرب، والمبلغ له هو محمد ﷺ، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، وإلا فالقرآن هو كلام الله ووحيه وتنزيله، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم﴾ تابعت طريقهم الباطل، ﴿بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الوحي، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ فينصرك ويحوطك، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ من ناصر ولا حافظ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ هذا قسم: والله لقد أرسلنا عُرِفَ باللام، ﴿رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ﴾ إلىٰ أممهم، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا﴾ يتبعلون معهن، ﴿وَذُرِّيَّةً﴾ أبناء، وهذا رد علىٰ الذين يطلبون أن يكون الرسول ملكًا، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ علامة أو حجة، ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والمراد بالإذن هنا: الإذن الشرعي وهو داخل تحت الإذن القدري كما قال تعالىٰ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، فليس الأمر إلىٰ النبي بحيث إذا طُلِب شيء أتىٰ به، فكم من مسائل كانت تأتي إلىٰ النبي ﷺ فيسكت حتىٰ يأتيه الوحي،، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل أمر قضاه الله عَزَّوَجَلَّ كتاب ووقت محدد مبين.

❁ وفي هذا رد علىٰ المعتزلة الذين يقولون: بخرم الأجل، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ﴾ [آل عمران:١٤٥].

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأقدار ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء منها ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ أي اللوح المحفوظ.

❁ **واختلفوا في معنى هذه الآية:**

فقال سعيد بن جبير وقتادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه.

وقيل: بأن الأمر عائد إلىٰ الآجال قال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت الأرزاق والآجال والسعادة والشقاوة.

لكن من قال بهذا القول قال بأن المحو يتعلق بما في يد الملك، وأما ما في علم الله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يتغير ولا يتبدل، ويُشكل علىٰ هذا: ما جاء عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه كان يقول: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ فَأَثْبِتْنِي فِيهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَ عَلَيَّ الذَّنْبَ وَالْغَضَبَ فِي الشَّقَاءِ، فَامْحُنِي وَأَثْبِتْنِي فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ، وجاء بنحوه عن ابن مسعود.

والذي يظهر أن المعنىٰ الأول هو الثابت: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ﴾ مما في يد الملك، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما في علمه الأزلي الأبدي، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللوح المحفوظ الذي لا يُغير ولا يُبدل ما فيه؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لما خلق القلم قال: « **اكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: الْقَدَرُ قَالَ: فَكَتَبَ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**» أخرجه أبو داود عن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب والنكال في الدنيا، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وليس عليك هداهم كما قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ الجزاء يوم القيامة.

وفي حديث أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ، قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ، عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ**» أخرجه مسلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعني: أهل مكة الذين يسألون محمدًا ﷺ هذه الآيات، ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بإهلاك المكذبين وفتح بلدانهم وظهور الإسلام، وقال بعضهم: هم العلماء يموتون ويُقبضون.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَرَابُهَا بِمَوْتِ فُقَهَائِهَا وَعُلَمَائِهَا وَأَهْلِ الْخَيْرِ مِنْهَا. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: هُوَ مَوْتُ الْعُلَمَاءِ وَفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ رَوَىٰ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَبِي الْقَاسِمِ الْمِصْرِيِّ الْوَاعِظِ سَكَنَ أَصْبَهَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ طَلْحَةُ بْنُ أَسَدٍ الْمَرْئِيُّ بِدِمَشْقَ، أَنْشَدَنَا أَبُو بَكْرٍ الْآجُرِّيُّ بِمَكَّةَ.

قَالَ: أَنْشَدَنَا أَحْمَدُ بْنُ غَزَالٍ لِنَفْسِهِ:

الْأَرْضُ تحيَا إِذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا ... مَتَىٰ يمُتْ عَالم مِنْهَا يمُت طَرفُ

كَالْأَرْضِ تحْيَا إِذَا مَا الْغَيْثُ حَل بِهَا ... وَإِنْ أَبَىٰ عَاد فِي أكنافهَا التَّلَفُ

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَىٰ، وَهُوَ ظُهُورُ الْإِسْلَامِ عَلَىٰ الشِّرْكِ قَرْيَةً بَعْدَ قَرْيَةٍ، وكَفْرًا بَعْدَ كَفْرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا﴾ [الأحقاف:٢٧] الْآيَةَ، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. أفاده ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ يقضي، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ فلا راد لقضائه ولا ناقض لحكمه، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ المحاسبة لهم فيقضي بين العباد في نصف نهار والله أعلم.

﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ بالمؤمنين ﴿الَّذِينَ﴾ كفروا واشركوا ونددوا﴿ مِن قَبْلِهِمْ﴾، من قبل كفار قريش ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ يمكر بهم ويأتيهم من حيث لم يحتسبوا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن اليهود: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر:٢]، وفي الآية: إثبات صفة المكر لله عَزَّوَجَلَّ وهي من صفات المقابلة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]،وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦]، فلا يُسمىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بالماكر ولا بالكائد، ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ﴾ تعمل ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ويقيدها عليهم ملائكة، وتشهد عليهم بها جوارحهم، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ﴾ يوم القيامة، ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عاقبة الدار الحميدة، والمراد بالدار هنا: الجنة، فالألف واللام للعهد، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مكابرةً ومعارضة، ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا﴾ حكمًا، ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أيضًا يشهد علىٰ هذا كعبد الله بن سلام ومن إليه من أهل العلم، وانظر إلىٰ هذه الحجج الكثيرة فلم يستفيدوا منها ولم ينتفعوا بها، ولا ارعووا وتركوا ما هم فيه، فالأمر لله عَزَّوَجَلَّ توفيقًا وتسديدًا وهداية وتعليمًا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٥].

والحمد لله رب العالمين.

تفسير

سورة إبراهيم

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

۞ مكية، وآياتها اثنان وخمسون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾.

﴿الٓرۚ﴾ تقدم في أول تفسير سورة البقرة خلاف أهل العلم في هذه الحروف، وما ذكر يغني عن الإعادة، ﴿كِتَابٌ﴾ أي: هذا كتابٌ ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ وهو القرآن، ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد، ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ به وبهدايته ودلالته، ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الشرك، ﴿إِلَى النُّورِ﴾ التوحيد، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: ٩]، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمره الكوني والشرعي، الكوني؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل محمدًا ﷺ مبلغًا، والشرعي؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُحب ذلك: ﴿إِلَى صِرَاطِ﴾ دين، ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب، ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود علىٰ جميع أفعاله وأقواله المستحق للحمد.

﴿اللَّهِ﴾ وجاء في قراءة: ﴿اللَّهُ﴾، فعلىٰ الرفع تكون للابتداء، وعلىٰ الخفض يكون من باب عطف البيان، أي: أن العزيز الحميد هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وما بينهما المُلك المطلق، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ موجع يوم القيامة، وربما يكون في الدنيا بالقتل ونحوه.

هم ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ﴾ يختارون، ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ﴾ يمنعون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ يطلبونها، ﴿عِوَجًا﴾ زيغًا وميلًا وضلالًا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ في هلكة شديدة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ ممن تقدم، ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ بلغتهم وهو منهم، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ يوضح ويُجلي ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ من الوحي المبين، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في محمد ﷺ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل:٤٤]، فالسنة مبينة للقرآن وموضحة له ومجلية له، ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ بعد هذا البيان، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ممن علمه أهلًا للضلالة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ [التوبة:١١٥]، ﴿وَيَهۡدِي﴾ يوفق، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إلىٰ الإيمان والإسلام، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في جميع فعله وشأنه.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾ إلىٰ بني إسرائيل، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التوراة وفيها ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الشرك، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ التوحيد، ﴿وَذَكِّرۡهُم﴾ أخبرهم، ﴿بِأَيَّىٰمِ﴾ عقوبات ﴿ٱللَّهِ﴾ التي أهلك بها المخالفين لدين رب العالمين، أو بنعم الله التي يهبها لمن يشاء، ويستحق عليها الحمد والثناء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإخبار، ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ علامات بينات، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ كثير الصبر، ﴿شَكُورٖ﴾ كثير الشكر، وهذا وصف خُلص المؤمنين.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ نعم الله الكثيرة عليكم، ومنها: ﴿إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ بحيث كان يستعبد الرجال ويقتل الأطفال

ويستخدم النساء، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يُذيقونكم، ﴿سُوءَ﴾ شدة ﴿الْعَذَابِ﴾ بالاستخدام والامتهان بالأعمال الشَّاقَّة: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ لأنَّ فرعون كان قد تكهن أن يخرج ولدٌ من بني إسرائيل يأخذ ملكه، فجعل يذبح أبناءهم ثم خشو هلاك بني إسرائيل، فكان يذبح أبناء سنة ويترك أبناء أخرىٰ وذبحهم مرة أخرىٰ بعد أن بعث الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يستبقوهن فلا يتعرضون لقتلهن فيستخدموهن ويمتهنوهن، ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ الأمر الذي يقومون به، ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قيل شدة، وقيل نعمة، وقيل اختبار عظيم من باب قوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أعلم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه الكثيرة وآلائه العظيمة، ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ منها، ومن يشكر الله يلقىٰ المزيد، ومن يكفر الله يلقىٰ الغَيَّر، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ جحدتم النعمة ولم تشكروها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ في الدنيا بإذهابها، وفي الآخرة في النار نسأل الله السلامة، وأعظم النعم التي أنعم الله عَزَّوَجَلَّ بها علىٰ الإنسان هي نعمة الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ يا بني إسرائيل، ﴿أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الأنس والجن، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ عنكم وعن عباداتكم، ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود بكل لسان وفي كل زمان، كما قال تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر:١]، وفي هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**» أخرجه مسلم(٢٥٧٧).

فالله عَزَّوَجَلَّ لا يضره كفر الكافرين ولا ينفعه إيمان المؤمنين فهو الغني الحميد، وغناه ذاتي، كما أن فقرهم ذاتي قال تعالىٰ: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيد وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يا أمة محمد، ﴿نَبَأُ﴾ خبر، ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ في الأعوام المديدة والأزمنة البائدة، ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]؛ لكثرة تتابعهم؛ ولأنهم من علم الغيب، ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ إذ أنه الخالق المدبر لهم، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، ﴿جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالدلالات الواضحات والآيات القاهرات الجليات، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال ابن مسعود: عضوا علىٰ أيديهم غيظًا كما قال عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عنهم: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران:١١٩]، ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ من الوحي، ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ ريب، ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ مقلق وموقع في الريبة وهذا لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد طبع علىٰ قلوبهم فلم يستجيبوا ولم يستفيدوا من عظة وعبرة، فلما أظهروا الشك فيما جاءت به الرسل.

﴿ قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ﴾ عند ذلك رادين علىٰ دعواهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ ريب، ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالق السماوات والأرض ومُوجِدهُن من العدم.

وإثبات وجوده فطري، وإثبات ألوهيته لازم من اثبات ربوبيته، وذلك أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية.

فمن شأنه تعالىٰ أنه ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلىٰ عبادته وتوحيده ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ يتجاوز عن سيئاتكم إن تبتم وأنبتم، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ يمتعكم ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت استيفاء العذاب إن أبيتم إلا الكفر والعناد، فما كان منهم إلا أن ردوا دعوة الرسل بقولهم: ﴿قَالُواْ﴾ أي: الكفار، ﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكلون وتشربون، وتذهبون إلىٰ الأسواق، وتتزوجون، ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾ تصرفونا، ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ برهان ﴿مُّبِين﴾ بين واضح، وقد جاؤوهم بحجج قاهرة ظاهرة، فأبوا إلا الكفر.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ الأنبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» متفق عليه.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ رادين دعواهم وقولهم، ﴿إِن﴾ ما ﴿نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فيما ذكرتم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾ يتفضل ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالنبوة والحكمة كقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران:٣٣]، فيجعلهم رُسلًا وأنبياء، ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ بحجة وبرهان من أنفسنا، إذ أنهم عبيد لله عَزَّوَجَلَّ ليس لهم من الأمر شيء، ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ الكوني والشرعي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون﴾ يعتمدون عليه في جلب المنافع ودفع المضار فهو نعم المولىٰ ونعم المصير، ومن تولاه الله عَزَّوَجَلَّ حين توكله عليه أكرمه بأنواع الكرامات وبأنواع الهبات والعضات، ثم قال رسل الله رادين علىٰ الكافرين قولهم.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ نعتمد ﴿عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ وفقنا وسددنا في سبيل الخير، وبَيّنَ الرشد من الغي، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ اللام لام القسم: والله لنصبرن علىٰ ما آذيتمونا، سواء كان الإيذاء بالضرب أو الشتم أو الطرد، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أكدها؛ لأنَّ التوكل عبادة جليلة من أسباب النصر والعز.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ﴾ معارضين لدعوة رسلهم، ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ أي: مطرودين مذمومين، ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ بالردة علىٰ الأدبار، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ مبشرًا لأوليائه مخوفًا لأعدائه ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والله لنهلكن الكافرين كما قال تعالىٰ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أردوا إخراجكم منها، ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ من بعد هلاكهم وتقيمون فيها شرع الله، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ [الأعراف:١٣٧]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الوعد بالعز، والنصر، والتمكين، ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ عقابي وخاف الله عَزَّوَجَلَّ في عظمته، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ خاف وعيد الله عَزَّوَجَلَّ بإهلاك الظالمين ونصر المؤمنين.

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ أي: دعوا علىٰ أنفسهم، كما قال الكفار: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال:٣٢]، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن﴾ [الأنفال:١٩]، يعني: دعوا علىٰ أنفسهم، ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ لحقته الخيبة والخسارة، ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ متجبر لا يرىٰ فوقه أحدًا، ﴿عَنِيدٖ﴾ معاند للحق لا يقبل غير قوله، كقوله: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ﴾ [ق: ٢٤].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلاَثَةٍ، بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالمُصَوِّرِينَ**» أخرجه الترمذي (٢٥٧٤).

وهذا الجبار العنيد ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ أمامه كما كان ابن عباس يقرأ في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾ [الكهف:٧٩]، ﴿جَهَنَّمُ﴾ يوم القيامة، ﴿وَيُسۡقَىٰ﴾ يُشرب، ﴿مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾ وهو ما يسيل من قيح الكفار ودمائهم في النار، كما قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٧-٥٨].

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يتحساه ويشربه لا مرة واحدة بل جرعةً جرعة؛ لمرارته وحرارته، ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ﴾ لا يستطيع لكن هو عذاب الله، ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾ لشدة العذاب، ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ جهة وناحية ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة:١٦٧]، ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أمامه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ شديد وهو الخلود في النار، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤١].

يقول تعالىٰ ضاربًا الأمثال لعباده لعلهم يتفكرون أو يتذكرون كما قال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ أي: مثل: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ في أجرها وثوابها، ﴿كَرَمَادٍ﴾ في مكان مفتوح، ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ شديد هبوب الريح فأخذته هاهنا وهاهنا ولم تبقِ منه شيئًا، ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ أي

الكفار ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ عملوا في الدنيا ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ في الآخرة، من أعمالهم في الدنيا إلا كما قدروا علىٰ جمع هذا ، وكقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ﴾ الهلاك ﴿ٱلْبَعِيدُ﴾ عن طريق الحق، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «**لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**» أخرجه مسلم (٢١٤)، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١]، لا يُبقي الله عَزَّوَجَلَّ لهم حسنة وتبقىٰ علهم الآثام مضاعفة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الواسعة المرتفعة، ﴿وَالأَرْضَ﴾ المبسوطة، ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدق لم يخلقهما باطلًا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص:٢٧]، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يهلككم أيها الناس، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ خير منكم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ الفعل، ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ منيع شديد؛ لأنه تعالىٰ كما قال عن نفسه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر:٤٤].

﴿وَبَرَزُواْ﴾ ظهروا يوم القيامة، ﴿لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ في صعيد واحد وظهرت أعمالهم، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ معتذرين عن صنيعهم ومؤنبين لمن أضلهم، ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ من الكفار، ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ أتباعًا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨]، والواقع أن: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨]، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ يعني تصدون وتمنعون عنا، ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ من قليله أو كثيره، ﴿قَالُواْ﴾ المستكبرون الُمتبَعون ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وفقنا إلىٰ الحق والإسلام، ﴿لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ كما هدانا، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ يعني: هذا إخبار الواقع الذي هم فيه، حالنا علىٰ السواء، ﴿أَجَزِعۡنَآ﴾ حزنا وتألمنا وتسخطنا، ﴿أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ رضينا، ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ من منجىٰ وملجا؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد قال: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [البقرة:٨٦].

وهذه المرادة تقع في مواطن كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يوم القيامة، وهو إبليس الذي لعنه الله وأقصاه وطرده وأشقاه، ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ فُرِغَ منه، فأُدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، كما في حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ العِبَادِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**» أخرجه أحمد، ﴿إِنَّ

ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ فوفى لكم به وأنجز لكم وعده فلا يُخلف الميعاد، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ لأنه كاذبٌ في اعتقاده، وكاذبٌ في قوله، وكاذبٌ في فعله، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ﴾ وهذه براءة شديدة، ﴿عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ من حجة، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلىٰ الكفر والشرك، ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ من جراء أنفسكم كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُون قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات:٢٧-٣٠]، فإبليس ما كان له علىٰ الناس من سلطان: من حجة أو قوة ظاهرة إنما هي الوسوسة والأماني والغرور فأطاعه من أطاعه، قال تعالىٰ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:٢٠-٢١]، بل: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ علىٰ ما حصل لكم، ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ لأنكم فعلتموه بمحض إرادتكم، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمنقذكم مما أنتم فيه من الخزي والعذاب، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ منقذي ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ كفر بما كان يدعو إليه من الشرك، لكن هذا في حال لا ينفع الندم وحال لا ينفع في التوبة، ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع في النار وبئس القرار.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۝٢٣ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أدخلهم الله برحمته؛ وبسبب أعمالهم الصالحة: ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾

الكوني، ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يُحيي بعضهم بعضًا بالدعاء بالسلامة، ويحييهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالسلامة، قال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وتحييهم الملائكة: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للمؤمنين والكافرين، ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي: لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض، ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، وهذا يدل علىٰ رسوخها.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ ثمارها، ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ كل وقت، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ الكوني، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ العبر، ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون، فيستجيبون ويرعوون عن الباطل.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الشرك، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الحنظلة، ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ انقلعت ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ من أصلها، ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ ثبات، ففعلًا المؤمن كالنخلة، والكافر حاله كحال الحنظلة لا يُستفاد من ساقه، ولا من ورقه، ولا من ثمره، والنخلة يُستفاد من ساقها وثمرها وجميع شأنها؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ فَقَالَ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»

متفق عليه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في قبورهم وحياتهم، ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ كلمة التوحيد وهي قول لا إله إلا الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني قبل الموت ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ يعني في القبر.

فعَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضىٰ الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**»، **فَذَلِكَ قَوْلُهُ:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾» متفق عليه.

وسؤال القبر يسمىٰ الفتنة، ولا يسلم منه إلا الأنبياء لقول رسول الله ﷺ: «**فَبِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ**» أخرجه أحمد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والصنف الثاني: الشهداء، فقد أخرج النسائي عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: «**كَفَىٰ بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَىٰ رَأْسِهِ فِتْنَةً**».

الثالث: المرابطون: لحديث سلمان عند مسلم قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَىٰ عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**».

وفي القبر ضمة لا يسلم منها إلا الأنبياء، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً، ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ**» أخرجه النسائي.

وقد تقدم حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف الاحتضار، وما يليه في سورة الأعراف، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الترمذي (١٠٧١) قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ، أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولأن: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولأن: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَىٰ أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولأن: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لاَ يُوقِظُهُ إِلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لاَ أَدْرِي، فَيَقُولأن: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: التَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاَعُهُ، فَلاَ يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّىٰ يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ**».

۞ واعلم أن عذاب القبر ونعيمه ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، ولم يخالف في ذلك إلا الزنادقة والمبتدعة الضلال، ومن الأدلة علىٰ ثبوته قال الله تعالىٰ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ﴾: "وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلىٰ الجحيم، فإن أرواحهم تعرض علىٰ النار صباحًا ومساءً إلىٰ قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر:٤٦]، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة علىٰ عذاب البرزخ في القبور" اهـ.

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الفتح" (٣/ ٢٩٩): "قال القرطبي: الجمهور علىٰ أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر، وقال غيره: وقع ذكر عذاب القبر في هذه الآية مفسرًا؛ لكنه حجة علىٰ من أنكر عذاب القبر" اهـ.

وقال تعالىٰ: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ٤٥ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧].

قال في شرح الطحاوية: "وهذا يحتمل أن يراد به القتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأنَّ كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا، أو أن المراد أعم من ذلك" اهـ.

وقد بوب البخاري في صحيحة: عَزَّوَجَلَّ باب ما جاء في عذاب القبر، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [التوبة:١٠١]، ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح الآية الأولىٰ (٣/ ٢٩٩):"وهذا وإن كان قبل الدفن، فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة، وإنما أضيف العذاب إلىٰ القبر لكون معظمه يقع فيه، ولكون الغالب علىٰ الموتىٰ أن يقبروا، وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة، يعذب بعد موته، ولو لم يدفن، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا من شاء الله. وفي تفسير الآية الأخرىٰ قال: روي عن الحسن من طريق محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر". اهـ.

وقال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقال الطبراني بعد أن ذكر اختلافًا: والأغلب أن إحدىٰ المرتين عذاب القبر، والأخرىٰ تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع، أو السبي، أو الإذلال أو غير ذلك "هـ.

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كما في "أهوال القبور" (٥٨): وأما نعيم القبر فقد دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٨٨-٩١]، وأقول: عذاب القبر يدل عليه في هذه الآية أيضًا: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٤].

واستدل كذلك ابن القيم في كتابه "الروح" بهذه الآية علىٰ النعيم والعذاب في القبر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في كتابة** "الروح" ومنها: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة:٢١]، وقد أحتج بهذه الآية جماعة منهم: عبد الله بن عباس علىٰ عذاب القبر. اهـ

۞ ومذهب أهل السنة والجماعة أن النعيم والعذاب واقع علىٰ الروح والجسد، كما صحت به الأدلة، وقد استفيت ما يتعلق بنعيم القبر وعذابه في مؤلف مستقل ولله الحمد والمنة، ولا حجة لمبتدع في نفي ما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع.

﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ﴾ غيروا ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: كفروا به، ﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أنزلوا، ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين تبعوهم في دينهم، ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ الهلاك.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يوم القيامة، ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ المستقر.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ نظراء ومثلاء، ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ يفتنوا، ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ عن طريق الإسلام الصحيح، أضافه إلىٰ نفسه تشريفًا وتكريمًا وهو طريق واحد بخلاف طرق الكفر والإلحاد فهي سبل كثيرة، ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ في دنياكم بأكلكم وشربكم وتبعلكم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢]، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ مقركم ورجوعكم، ﴿إِلَى النَّارِ﴾.

﴿قُلْ﴾ قل لهم يا محمد، ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ﴾ أضافهم إلىٰ نفسه إضافة تشريف، فإن العبودية تنقسم إلىٰ عبودية قهر، وهذه عامة، يدخل فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر، وعبودية المؤمنين لربهم، وهذه خاصة،﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة، ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ الزكاة المفروضة، والصدقات المستحبة، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فأما ما يتعلق بالزكاة المفروضة فإخراجها في العلانية أفضل؛ لأنها شعيرة، وأما ما يتعلق بالصدقة فالإسرار بها أفضل، فعن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ: «**الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ**» أخرجه أبو داود، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**» متفق عليه، وفعلوا الصالحات ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: لا معاوضة، ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ولا صداقة وصحبة، فلا ينفع في ذلك اليوم إلا الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٨].

﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ من شأنه ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي وما بينهما، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ السحاب ﴿مَاءً﴾ مطرا ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ من ثمرات الأشجار والزروع، ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ طعاما لكم، بل ولدوابكم، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ السفن العظام التي تحمل آلاف

الأطنان، ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ الكوني، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ لتشربوا من مائها، وتسقوا زروعكم وتستمتعوا بها، فيخرج منها اللحم الطري.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ﴾ المشرقة المحرقة، ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ المنير، ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ من باب أنهما يدأبان في سيرهما ويستمران في ذلك.

وقد جاء عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: «**أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟**» فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهَا تَجْرِي حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ طَالِعَةً، فَتَرْجِعُ فَتَطْلُعُ مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي فَاطْلُعِي مِنْ مَغْرِبِكِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَتَىٰ ذَاكُمْ؟ ذَلِكَ حِينَ:** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]» متفق عليه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان والزيادة، ولكم في ذلك كل من المصالح ما يربوا عن العد والإحاطة.

﴿وَآتَاكُم﴾ أعطاكم ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا﴾ دعوتموه وطلبتموه، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ نكرها لكثرتها، ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تحصوا لها عدًا، ولا تطيقوا عدها ولا القيام بشكرها، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جنس الإنسان، ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ظالم لنفسه بالمعاصي، ﴿كَفَّار﴾ جاحد لنعم الله عَزَّوَجَلَّ وعظيم مننه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعد أن أسكن هاجر وولدها إسماعيل بوادي مكة، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ مكة، ﴿ءَامِنًا﴾ يأمن كل من فيه ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ أبعدني وسلمني ﴿وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ من عبادة الأصنام.

وبهذه الآية استدلوا علىٰ عظيم شأن الشرك، قال إبراهيم التيمي: من يأمن الشرك بعدك يا إبراهيم.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنام، ﴿أَضْلَلْنَ﴾ حرفنَّ، ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ عن الهدىٰ إلىٰ الشرك والإلحاد، ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ من ذريتي، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني، ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وتمرد وأشرك، ﴿فَإِنَّكَ﴾ إن تاب وأناب ﴿غَفُورٌ﴾ متجاوز ﴿رَّحِيمٌ﴾ موفق للخير، وأما من لم يتب من المشركين فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعض ذريته، ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ مكة، إذ أنه في جبال قاحلة كثيرة الأحجار، قليلة الأشجار، شديدة الحر، بعيدة الماء، ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي: عند مكان بيتك المحرم؛ لأنه لم يكن قد بناه مع اختلافهم من الذي بنىٰ البيت فقيل: الملائكة، وقيل: آدم، وقيل: إبراهيم.

والصحيح: أن البناء لإبراهيم، والملائكة وآدم لعلهم حددوا القواعد والله أعلم، سماه محرمًا؛ لأنه يحرم عنده ما لا يحرم عند غيره.

وقصة هاجر مع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أسكنها البيت الحرام مذكورة في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيها من العبر والعظات ما الله به عليم، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَىٰ سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّىٰ وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَىٰ المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّىٰ إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ

شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ - حَتَّىٰ بَلَغَ - ﴿يَشۡكُرُونَ﴾، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّىٰ، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَىٰ أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنسان المَجْهُودِ حَتَّىٰ جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَىٰ أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا**»، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَىٰ المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَهٍ - تُرِيدُ نَفْسَهَا -، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّىٰ ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ -، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**»، قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلاَمُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ وَكَانَ البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَىٰ مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي المَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَلْفَىٰ ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الأنسَ**»، فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الغُلَامُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ» أخرجه البخاري.

وكان القصد من وضعي لهم في مكة ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ليقيموا شرعك ودينك فيه، ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ﴾ مجموعة وأمة، ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تشتاق إليهم، وهم المسلمون، ﴿وَٱرۡزُقۡهُم﴾ أطعمهم، ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ما رزقت من القرىٰ ذوات الماء ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ نعمتك.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ من أمورنا، ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ مما في الصدور ومن غيره، ﴿فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إذ أنه بكل شيء عليم وبكل شيء محيط.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي﴾ أعطاني، ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ بعد الشيخوخة والضعف، ﴿إِسۡمَٰعِيلَ﴾ من زوجه هاجر، ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ من زوجه سارة، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ لمن دعاه وطلب قربه ورضاه.

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي﴾ صيرني، ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المفروضة، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ كذلك يا رب، ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ أي: استجِبه، وتقبل عملي وقد قال رسول الله ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**» أخرجه أحمد عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي حديث أنس «**الدعاء مخ العبادة**» أخرجه الترمذي، ولكنه ضعيف في سنده ابن لهيعة.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي﴾ بالتجاوز عن ذنوبي وتوفيقي في حياتي، ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ استغفر هذا الاستغفار قبل أن يوحي الله عَزَّوَجَلَّ له بالنهي عن الاستغفار لأبيه، ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جميعًا، ﴿يَوۡمَ يَقُومُ﴾ يوضع، ﴿ٱلۡحِسَابُ﴾ وذلك يوم القيامة.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ لا تظن أيها المكلف أن: ﴿اللَّهَ﴾ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غَٰفِلًا﴾ غير عالم، ﴿عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ المشركون ومن تشبه بهم، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخر العقوبة ﴿لِيَوْمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وحال الناس فيها أنها ﴿تَشْخَصُ﴾ ترتفع ﴿فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: بنظرها إلىٰ السماء من شدة الهول والخوف، فالخائف لا يغمض بصره يخشىٰ أن يؤتىٰ من هذا المكان في لحظة الإغماض وحين يخرجون من قبورهم.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين لا يلتفتون يمنةً ولا يسرة، وقيل: مديم النظر وهذا هو الأظهر، ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي﴾ أي: يرفعون رؤوسهم إلىٰ السماء، ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾ يرجع ﴿إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ﴾ أبصارهم من شدة النظر والخوف، ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ قلوبهم ﴿هَوَآءٌ﴾ خالية من شدة الهول حيث صارت قلوبهم لدىٰ الحناجر.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خوفهم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الأليم الشديد، ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا، ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ عن العذاب، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ مدة يسيرة نؤمن بك كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ رسالتك التي أرسلت بها الرسل، ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فيما جاءوا به من الشرع، فيكون الجواب: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم﴾ حلفتم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ في دار الدنيا، ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ تحول أي: لا تبعثون، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل:٣٨].

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ من الكافرين والمجرمين الذين كان في هلاكهم عبرة، ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ ظهر وبان، ﴿لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من الدمار والعذاب والشدة، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ علىٰ مكر الله وكيده بهم حتىٰ أهلكهم ودمرهم.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ مكروا بأنبيائهم وبالدعاة الذين يدعونهم إلىٰ توحيد الله وإفراده بالعبادة، ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ فهو مطلع عليهم ويجازيهم علىٰ سوء فعلهم، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وإِنْ كَاد مَكْرُهُمْ﴾؛ لشدته وكثرته، ﴿لِتَزُولَ﴾ تتحرك وتنهد، ﴿مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ الرواسي الشامخات العظيمات مع ثقلها لكنها لشدة مكر الكفار كادت أن تزول، فأقوالهم سيئة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٠-٩١]، وهكذا يبيتون أنبيائهم بمكر الليل والنهار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٢-٢٣].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ أيها المكلف بأن: ﴿اللَّه﴾ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُخْلِفَ﴾ مؤخر، ﴿وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ بالقيامة والبعث والنشور، ﴿إِنَّ اللَّه عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب، ﴿ذُو انْتِقَام﴾ شديد الأنتقام.

وسيكون هذا: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ كما في حديث أبي سعيد قال رسول الله ﷺ: «**تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّأُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ، كَمَا يَتَكَفَّأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نُزُلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ**» متفق عليه، ﴿وَالسَّمَاوَاتُ﴾ بحيث يطويها الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧].

وجاء عن ثوبان وعائشة: أن النبي ﷺ سُئل: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ**»، أخرجه مسلم ﴿وَبَرَزُواْ﴾ ظهروا وخرجوا من قبورهم، وأُقِفوا في مكان يبلغه الداع وينفذه البصر: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه:١٠٧]، ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الذي يفعل فيهم ما يشاء.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**يَطْوِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْأُخْرَىٰ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»، وما جاء: أنه يأخذا لأرض بشماله، انفرد بها مسلم من طريق عمر بن حمزة وهو ضعيف، فهي زيادة منكرة، وفي حديث عبد الله بن عمر: «**وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ**» أخرجه مسلم.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مشدود بعضهم إلىٰ بعض، الدعاة والأتباع، ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ في القيود والأغلال، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]، وقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣]، فيكون الإنسان مع قرينه.

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قمصهم واحدها: سربال، ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن﴾ الذي تُدهن به الإبل لونه سيء، ورائحته سيئة، وينزل علىٰ جلود معذبة محرقة فيزيدها عذابًا إلىٰ عذابها، وفي حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**»، أخرجه مسلم.

﴿وَتَغْشَىٰ﴾ تغطي ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ التي كانوا يزينونها في الدنيا، ﴿النَّارُ﴾ فتغطيهم وتعلوهم، فلا يبقىٰ من أجسامهم شيء سالم من النار، بخلاف المؤمن فوجهه أبيض حتىٰ وأن دخل النار لكبائر عملها فإن الله حرم علىٰ النار أن تأكل مواطن السجود.

وهذا العذاب والهوان كله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ﴾ ما عملت من خير أو شر في هذه الحياة، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يُكرثه ولا يعجزه كثرة الناس وكثرة الأعمال التي يجازي عليها.

﴿هَـٰذَا﴾ القرآن، ﴿بَلَٰغٌ﴾ تبليغ وعظة وعبرة، ﴿لِّلنَّاسِ﴾ جميعًا.

۞ وهذا من الأدلة علىٰ عموم نبوة النبي ﷺ، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» أخرجه مسلم .

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ وليخوفوا به، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يُعبد فلا يُشرك معه غيره، لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، فالقرآن دليل علىٰ الوحدانية، وعلىٰ الألوهية، وعلىٰ الأسماء والصفات، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لِيَتَّعِظَ أولوا العقول السليمة والفطر المستقيمة.

والحمد لله.

تفسير

سورة الحجر

سُورَةُ الحِجْرِ

الجُزْءُ ١٤

مكية، وآياتها تسعة وتسعون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن وقيل التوراة والأنجيل، ﴿وَ﴾ هو ﴿قُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ بين واضح وفيه بيان الحلال من الحرام والحق من الباطل، مقروء ومكتوب.

﴿رُّبَمَا﴾ بالتخفيف والتشديد وهما لغتان، ورب للتقليل وتدخل علىٰ الاسم وربما علىٰ الفعل، ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنىٰ، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ وهذا التمني عند الموت وفي الآخرة.

﴿ذَرۡهُمۡ﴾ اتركهم يا محمد يعني الذين كفروا، ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ في الدنيا، ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ في لذاتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢]، ﴿وَيُلۡهِهِمُ﴾ يشغلهم، ﴿ٱلۡأَمَلُ﴾ فيأملون طول العمر فيشغلهم عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة، ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ من الأمم السابقة، ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أي أجل مضروب لا يتقدم ولا يأتيهم العذاب حتىٰ يبلغوه فلا يتأخر عنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿مَّا تَسْبِقُ﴾ تتقدم ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ طائفة ﴿أَجَلَهَا﴾ وقتها الذي أجل لها للعذاب ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عن وقتهم المعلوم فالموت أو العذاب أو الأجل المضروب لا يتقدم ولا يتأخر.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ كفار مكة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ يعنون محمدا ﷺ ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ القرآن، ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ لا عقل لك، وذكروا تنزيل الذكر علىٰ سبيل الاستهزاء، والرمي بالجنون قد توارد عليه الكفار، حتىٰ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

﴿لَّوْ مَا﴾ هلا ﴿تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ شاهدين لك بالصدق علىٰ ما تقول إن الله أرسلك، وهذه دعوىٰ تتكرر منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]، وقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنك نبي قال الله عَزَّوَجَلَّ رادًا علىٰ طلبهم ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعذاب ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ مؤخرين إن جاء وقت عذابهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ محفوظ من الزيادة والنقصان، وهذه آية عظيمة من آيات الله البينات والدلائل القاهرات أن القرآن حق فقد حفظ الله لفظه ومعناه بأهل السنة والجماعة، وكما حُفظ من الأنس فهو محفوظ من الشياطين أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه أو يُبدل بغيره، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقيل: الهاء في ﴿لَهُ﴾ راجعة إلىٰ محمد ﷺ أي: إنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء كما قال جل ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

والمعنىٰ الأول أصح.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَ﴾ الله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ بعثنا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد رسلًا، ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ في الأمم والقرون الماضية، والشيعة: هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم علىٰ رأي واحد.

﴿وَ﴾ حالهم أنهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾ يسخرون كما فعلوا بك، وهذه تسلية للنبي ﷺ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما سلكنا الكفر والتكذيب في قلوب المتقدمين من أعداء الرسل، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ندخل الشك والريب، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين من أهل مكة فلا تنفع فيهم موعظة أو ذكرىٰ.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ مضت، ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ طريقة الله في إهلاك الأمم الخالية يخوف بهذا أهل مكة، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ يعني: علىٰ الكفار الذين يقولون لو ما تأتينا بالملائكة، ﴿بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا﴾ الكفار ﴿فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون وقيل فظلت الملائكة يعرجون فيه وهم يرونها عيانا.

والأول أصح.

﴿لَقَالُوا﴾ الكفار عند رؤية ذلك ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ سدت، وقيل: سحرت وقيل أخذت، وقيل: عميت ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي: عمل فينا محمد السحر حتىٰ رأينا ذلك، كما قالوا حين أراهم انشقاق القمر ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ البروج النجوم الكبار مأخوذة من الظهور، يقال: تبرجت المرأة أي: ظهرت، وأراد بها المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة، وهي اثنا عشر برجا: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

وقال عطية: هي قصور في السماء عليها الحرس ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي السماء بالشمس والقمر والنجوم، ﴿لِلنَّاظِرِين﴾.

﴿و﴾ أي السماء ﴿حَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيم﴾ مرجوم، وقيل: ملعون، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وفي الصحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ. فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ. قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ. فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا.

فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا. فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ - وَهُوَ بِنَخْلٍ عَامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ - فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ. وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَرَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ. فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَىٰ الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ**» أخرجه مسلم.

﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ﴾ حين تكلُّمْ الملائكة به، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ لحقه ﴿شِهَابٌ﴾ شعلة من النار ﴿مُّبِين﴾ ظاهر.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: « إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ » أخرجه مسلم.

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالا ثوابت، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الزروع والثمار وغيرها ﴿مَّوْزُونٍ﴾ بقدر معلوم، وقيل: يعني في الجبال من الجواهر والذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ خلقنا وصيرنا ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مَعَايِشَ﴾ جمع معيشة، وهي المطاعم والمشارب والملابس. وقيل: ما يعيش به الآدمي في الدنيا، ﴿وَمَن﴾ وما ﴿لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ من الدواب والأنعام، وقيل العبيد والإيماء، أي: جعلنا لكم وكفيناكم رزقها.

﴿وَإِن﴾ وما ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ من المخلوقات، ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي مفاتيح خزائنه. وقيل: أراد به المطر، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ الرزق أو المطر ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ بتقدير ﴿مَّعْلُومٍ﴾ فالزيادة قد تفسد والنقصان كذلك.

۞ وهذا دليل علىٰ علم الله المحيط بكل شيء، ودليل علىٰ القدر السابق.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ تلقح السحاب فترد الماء، وتلقح الأشجار. قال عبيد بن عمير: يبعث الله الريح المبشرة فتقم الأرض قما ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلىٰ بعض فتجعله ركاما، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر. وقال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه،

فالصبا تهيجه والشمال تجمعه والجنوب تذره والدبور تفرقه، ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطرًا ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلنا المطر لكم سقيا، ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ بمانعين، ويحتمل بحافظين بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معينا وينابيع في الأرض، ولو شاء الله عَزَّوَجَلَّ لجعله غورًا، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ إخبارًا بقدرته علىٰ الخلق والإعادة، ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، والورث من صفات الله عَزَّوَجَلَّ وهو البقاء بعد الفناء وذكره بعض أهل العلم اسمًا، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الخلق والموت ونحوه ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ في الخلق والموت ونحوه، فعلم الله الأولين والآخرين لا تخفىٰ عليه خافية.

❖ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كَانَتِ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ تُصَلِّي خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَكَانَ بَعْضُ الْقَوْمِ يَسْتَقْدِمُ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ لِئَلا يَرَاهَا، وَيَسْتَأْخِرُ بَعْضُهُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ فِي الصَّفِّ الْمُؤَخَّرِ، فَإِذَا رَكَعَ نَظَرَ مِنْ تَحْتِ إِبْطَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي شَأْنِهَا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾»، وهذا حديث ضعيف ومنكر في سنده عمر بن مالك النكري ضعيف.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يجمعهم يوم القيامة ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في فعله وشرعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن
رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ
ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن
صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥
قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ

﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يعني: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، سمي إنسانا لظهوره وإدراك البصر إياه. وقيل: من النسيان لأنه عهد إليه فنسي ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ الطين اليابس الذي إذا نقرته سمعت له صلصلة، ﴿مِّنۡ حَمَإٖ﴾ الطين المنتن الأسود، ﴿مَّسۡنُونٖ﴾ متغير، وقد تقدم الجمع فيما ظاهره التعارض في سورة البقرة والأعراف.

﴿وَٱلۡجَآنَّ﴾ أبو الجن ﴿خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾ آدم ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ قيل من لهب النا، وفي حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**» أخرجه مسلم.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا﴾ سأخلق بشرًا، ﴿مِّن صَلۡصَٰلٖ﴾ طين يابس كالفخار﴿مِّنۡ حَمَإٖ﴾ أسود ﴿ مَّسۡنُونٖ﴾ مصور صورة إنسان أجوف ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ وعدلت صورته، وأتممت خلقه، ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ من الأرواح التي عنده فصار بشرًا حيًا والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان، وأضافه إلىٰ نفسه تشريفا، ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ سجود تحية لا سجود عبادة.

وفي حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ صَوَّرَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ فِي الْجَنَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ، عَرَفَ أَنَّهُ خَلْقٌ لَا يَتَمَالَكُ**» أخرجه الترمذي.

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ طاعة لربهم ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ كبرًا وعنادًا وحسدًا ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ عند ذلك: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدم ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ أراد الخبيث أنه أفضل منه لأن آدم طيني، وهو ناري، والنار تأكل الطين، كما قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿قَالَ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ طريد ملعون.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ متصلة ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم القيامة.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد الخبيث أن لا يموت.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ من المؤخرين ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي: الوقت الذي يموت فيه الخلائق وهو النفخة الأولىٰ.

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضًا مكابرًا ﴿رَبِّ بِمَآ﴾ أضللتني. وقيل: خيبتني من رحمتك، ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ لذرية آدم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ حب الدنيا ومعاصيك، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأضلنهم هذه أمنيته ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ لعجزه عن ذلك، وإلا فهو حريص علىٰ إغواء الجميع، وهم المؤمنين الذين أخلصوا لك بالطاعة والتوحيد وهي هنا بفتح اللام أي من أخلصته بتوحيدك فهديته واصطفيته.

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ مهددًا ومتوعدًا ﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ معتدل موصل إليَّ وإلىٰ دار كرامتي، وإليَّ مرجعكم كلكم فأجازيكم بأعمالكم، وقيل هذا كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وقال قتادة كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ الذين قدرت لهم الهداية ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قوة وقدرة فتميلهم عن الحق ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع بمعنىٰ إن فتنتك علىٰ من اتبعك من الغاوين المنحرفين عن دين رب العالمين، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ النار المحرقة ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يوم القيامة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يعني إبليس ومن تبعه.

﴿لَهَا﴾ للنار ﴿لَهَا سَبْعَةُ﴾ أطباق. كل باب أسفل من الآخر، قال ابن جريج: النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظىٰ ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية. ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ دركة ﴿مِّنْهُمْ﴾ من الكافرين ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ نصيب ﴿مَّقْسُومٌ﴾ معلوم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الموحدين ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار متنوعة.

ويقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا﴾ الجنة، ﴿بِسَلَامٍ﴾ أي: سلامة من كل منغص ﴿آمِنِينَ﴾ من الموت والخروج والآفات، ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أخرجنا، ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾ قلوبهم ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾ من حقد وحسد.

ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ**» أخرجه مسلم.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ**»، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**» أخرجه ابن ماجه.

وحالهم أنهم صاروا: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ جمع سرير ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ يقابل بعضهم بعضا لا ينظر أحد منهم إلىٰ قفا صاحبه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨].

﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ لا يصيبهم، ﴿فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخبر ﴿عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ المتجاوز ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن تاب منهم وأناب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

﴿وَ﴾ أخبرهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ الموجع.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ**» أخرجه البخاري (٦٤٦٩).

فجمع بين الترغيب والترهيب ليبقىٰ العبد بين الخوف والرجاء.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾.

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أخبرهم ﴿عَن﴾ قصة ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ وهم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالىٰ ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ في مجلسه ﴿فَقَالُواْ سَلَامًا﴾ سلموا عليه فرد عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٥ - ٢٨]، ﴿قَالَ﴾ إبراهيم، ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون لأنهم لم يأكلوا طعامه.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف، ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: غلام في صغره عليم في كبره يعني إسحاق، فتعجب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف يولد له مع من كبره وكبر امرأته.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ﴾ أصابني ﴿الْكِبَرُ﴾ الشيخوخة ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فبأي شيء تبشرون ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصدق، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ اليائسين ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ من ييأس، ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الخاسرون الكافرون، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩] ﴿قَالَ﴾ إبراهيم لهم، ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ ما شأنكم، ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ من رب العالمين.

﴿قَالُواْ﴾ الملائكة ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ مشركين كافرين كما قال تعالىٰ: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣، ٣٤]، ويعذبون كلهم.

﴿إِلَّآ آلَ لُوطٍ﴾ أتباعه وأهل دينه، ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من العذاب الذين نزل بالكافرين ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ امرأة لوط، ﴿قَدَّرْنَا﴾ قضينا، ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب، لخيانتها ونفاقها.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الملائكة.

﴿قَالَ﴾ لوط لهم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ لا أعرفكم.

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ﴾ أتيناك ﴿بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكون في أنه نازل بهم وهو العذاب لأنه كان يوعدهم بالعذاب ولا يصدقونه، ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين، الذي ليس بالهزل، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما قلنا لك.

﴿فَأَسْرِ﴾ أخرج ﴿بِأَهْلِكَ﴾ من هذه القرية الظالمة ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ بطائفة منه ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ سر خلفهم، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ حتىٰ لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بقومهم. وقيل: جعل الله ذلك علامة لمن ينجو من آل لوط، ﴿وَٱمْضُوا۟﴾ اذهبوا ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني الشام. وقال مقاتل: يعني زغر. وقيل: الأردن.

﴿وَقَضَيْنَا﴾ أوحينا ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ﴾ أمر العذاب ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ آخرهم والمراد جميعهم وقيل أصلهم، ﴿مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ مستأصل، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ إذا دخلوا في الصبح، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ

﴿٨٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨١-٨٣].

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يعني قرية سدوم، ﴿يَسْتَبْشِرُون﴾ بأضياف لوط فيبشر بعضهم بعضا طمعا في ركوب الفاحشة منهم عياذًا بالله.

﴿قَالَ﴾ لوط لقومه، ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وحق علىٰ الرجل إكرام ضيفه، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فيهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّه﴾ راقبوا الله واتركوا هذا الباطل ﴿وَلَا تُخْزُون﴾ ولا تخجلون، وإنما قال لهم ذلك قبل أن يعلم أنهم رسل الله ففي الآيات تقديم وتأخير.

﴿قَالُوا﴾ قومه ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن تضيف أحدا من العالمين. وقيل: ألم ننهك أن تدخل الغرباء المدينة فإنا نركب منهم الفاحشة.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ لوط محذرا لهم من الفاحشة ﴿هَؤُلاء بَنَاتِي﴾ أزوجهن إياكم إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام، وأكثر المفسرين أنه أرشدهم إلىٰ نسائهم فإن الرسول لهم بمنزلة الوالد أما أنه دلهم علىٰ الزنا بهن معاذ الله، ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِين﴾ ما آمركم به.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ يا محمد أي وحياتك، والله عَزَّوَجَلَّ يقسم بما شاء من مخلوقاته، وأما غير الله فلا يجوز الحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ تعالىٰ.

فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « **مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ** » أخرجه الترمذي، روي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال: ما خلق الله نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ وما أقسم الله تعالىٰ بحياة أحد إلا بحياته، ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ حيرتهم وضلالتهم ﴿يَعْمَهُون﴾ يترددون، قال قتادة: يلعبون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الصاعقة ﴿مُشْرِقِينَ﴾ حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا وتمامه حين أشرقوا، ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي قُلبت عليهم بعد رفعها، وذكر أن جبريل رفعها بجناحه ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين محمي لا يعلم كيفيته إلا الله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ القصص المذكور ﴿لَآيَاتٍ﴾ حجة وسلطان ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للناظرين.

وقيل: للمتفرسين.

وقيل: للمعتبرين.

وقيل: للمتفكرين، وهي أقوال متقاربة المعنىٰ.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي قرى قوم لوط، ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ بطريق واضح، ﴿مُّقِيمٍ﴾ يمر عليها كفار مكة في ذهابهم إلى الشام ورجوعهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي قصصنا عليك من شأنهم ﴿لَآيَةً﴾ عظة وعبرة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنقادين لرب العالمين، فهم المنتفعون بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ولكن حال الكافرين: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ﴾ وقد كان ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ الغيضة، وهو الشجر الملتف ﴿لَظَالِمِينَ﴾ كافرين واللام للتأكيد وهم قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف، وكانت عامة شجرهم الدوم وهو المقل.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب وذلك أن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجئوا إليها يلتمسون الروح، فبعث عليهم منها نارا فأحرقتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة

﴿لَبِإِمَامٍ﴾ طريق ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح مستبين، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهي مدينة ثمود قوم صالح وهي بين المدينة والشام، ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أراد صالحا وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع لأنَّ من كذب رسولا فقد كذب جميعهم، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

﴿وَآتَيْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم لبيان صدق رسولهم ﴿آيَاتِنَا﴾ يعني: الناقة وولدها والبئر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]، ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ من الخراب ووقوع الجبل عليهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحة العذاب، ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: داخلين في وقت الصبح، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ دفع ﴿عَنْهُم﴾ العذاب ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يعملون من الشرك والأعمال الخبيثة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، بل خلقهما لحكمة بالغة ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامة ﴿لَآتِيَةٌ﴾ لا ريب فيها فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿فَٱصْفَحِ﴾ اعف عنهم وتجاوز ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ الذي لا عتاب فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ صفة مبالغة لكثرة مخلوقاته ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بخلقه وما يصلحهم، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أعطيناك يا محمد ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ وهي الفاتحة تثني في كل ركعة

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ أي: وهي القرآن العظيم؛ لأنَّ معاني القرآن تعود إليها، على قول جمهور المفسرين.

ودليله حديث أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟**» قَالَ: فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَخْرُجَ، فَأَذْكَرْتُهُ، فَقَالَ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**» أخرجه البخاري.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ يا محمد، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافا ، ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من الكفار متمنيا لما أعطاهم الله إياه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا وقيل: هذه الآية متصلة بما قبلها وذلك أنه لما منَّ الله تعالى عليه بالقرآن نهاه عن الرغبة في الدنيا: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ لين جانبك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وارفق بهم والجناحان من ابن آدم جانباه، كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، ﴿وَقُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنذركم النار وبطش الله ﴿الْمُبِينُ﴾ البين الواضح.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ العذاب ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل المعنى: أنذركم عذابا كعذاب المقتسمين، الذين تحالفوا على قتل الأنبياء وإيذاءهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، وحكي عن ابن عباس أنه قال: هم اليهود والنصارى.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ جزأوا كتبهم المنزلة عليهم، فجعلوها أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

وقال مجاهد: هم اليهود والنصارىٰ قسموا كتابهم ففرقوه وبدلوه.

وقيل: المقتسمون قوم اقتسموا القرآن، فقال بعضهم: سحر.

وقال بعضهم: شعر. وقال بعضهم: كذب. وقال بعضهم: أساطير الأولين.

وقيل: الاقتسام هو أنهم فرقوا القول في رسول الله ﷺ فقالوا: ساحر كاهن شاعر.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الكفار ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يوم القيامة.

﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا قال محمد بن إسماعيل: قال عدة من أهل العلم عن قوله لا إله إلا الله.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن: ٣٩].

قيل: قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم لأنه أعلم بهم منهم ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟.

واعتمده قطرب فقال: السؤال ضربان: سؤال استعلام وسؤال توبيخ، فقوله تعالىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، يعني: استعلاما. وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: توبيخًا وتقريعًا. وقال عكرمة عن ابن عباس في الآيتين: إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف مختلفة يسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها، نظير ذلك قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥]، وقال في آية أخرىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

والقول الثاني أقرب، والله أعلم.

﴿فَٱصْدَعْ﴾ اجهر ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا﴾ من الوحي وأظهره وهو معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الصَّفَا، فَقَالَ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ**» متفق عليه، و عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «**يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ**» - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ- حَتَّىٰ اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**».

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾، متفق عليه.

۞ وهذا أمر للخروج من الدعوة السرية إلىٰ الجهرية، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ نسختها آية القتال.

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: فاصدع بأمر الله ولا تخف أحدا غير الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله كافيك من عاداك كما كفاك المستهزئين، كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، قيل بأن المستهزئين خمسة نفر من رؤساء قريش: الوليد بن المغيرة المخزومي - وكان رأسهم- والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن عبد المطلب بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة، والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، والحارث بن قيس بن الطلاطلة، وشأنهم أنهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ﴾ يصيرون ﴿مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا آخَرَ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فساد صنيعهم إذا نزل بهم بطش الله عَزَّوَجَلَّ وعذابه.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ قلبك ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ من الكلام الباطل، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فصل بأمر ربك، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ من المصلين المتواضعين، الذاكرين لله عَزَّوَجَلَّ الداعين له.

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ الموت، نقله البخاري عن سالم بن عبد الله بن عمر، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦-٤٧].

و عَنْ أُمِّ العَلاَءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بَايَعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: طَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي السُّكْنَىٰ، حِينَ اقْتَرَعَتْ الأنصَارُ عَلَىٰ سُكْنَىٰ المُهَاجِرِينَ، فَاشْتَكَىٰ فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّىٰ تُوُفِّيَ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ فِي أَثْوَابِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ، قَالَ: «**وَمَا يُدْرِيكِ**» قُلْتُ: لاَ أَدْرِي وَاللهِ، قَالَ: «**أما هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ، إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ مِنَ اللهِ، وَاللهِ مَا أَدْرِي -وَأَنَا رَسُولُ اللهِ- مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ**» قَالَتْ أُمُّ العَلاَءِ: فَوَاللهِ لاَ أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ» أخرجه البخاري، ويكون الحال كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

واستدل بهذه الآية غلاة الصوفية ومن إليهم علىٰ أن اليقين درجة من بلغها رفعت عنه التكاليف وأحلت له المحرمات، وهذا والعياذ بالله زندقة وكفر ظاهر ومخالفة لطريقة النبي ﷺ، فما زال يعبد ربه حتىٰ لحقه الموت، والله المستعان.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير

سورة النحل

سُورَةُ النَّحْلِ

۞ مكية، وآياتها مائة وثمانية وعشرون آية ونزلت ثلاث آيات من آخرها بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۖ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾.

﴿أَتَىٰ﴾ دنا وقرب، وعبر بالماضي لتيقن وقوعه ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ الساعة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، تقول العرب: أتاك الأمر وهو متوقع بعد، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقوعا، واستعجالهم العذاب، ذكره الله في آيات منها قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه**» متفق عليه، وقال قوم: المراد بالأمر هاهنا عقوبة المكذبين بالعذاب والسيف.

والأول أظهر.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزه عن كل نقص ﴿وَتَعَالَى﴾ تعاظم بالأوصاف الحميدة ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عما يصفه به المشركون.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ الوحي سماه روحا لأنه يحيي به القلوب قال أبو عبيدة: يعني مع الروح وهو جبرائيل، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ من قوله ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ أعلموا وأخبروا، كما قال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ فاعبدون كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، والمعنىٰ: مروهم بقول لا إله إلا الله منذرين مخوفين بالقرآن إن لم يقولوها.

۞ وفي هذه الآية وما في بابها تعين الدعوة إلىٰ التوحيد، فإنها لب الدعوة الرسالية كما سيأتي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]، ولا يستقيم شأن العبد إلا بتحقيق هذا المقصد العظيم لوجود المكلفين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ لا العبث ﴿تَعَالَى﴾ تعاظم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ومن شأنه أنه ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ضعيفة كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ شديد الخصومة ويجادل بالباطل، ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهرًا الخصومة إما بالتكذيب بالبعث أو جحد النبوة إلىٰ غير ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٨-٧٩].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۖ﴾ الإبل والبقر والغنم، ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ يعني: من أوبارها وأشعارها وأصوافها ملابس ولحفا تستدفئون بها، ﴿وَمَنَافِعُ﴾ بالنسل والدر والركوب

والحمل وغيرها، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني لحومها، بل وتشربون من ألبانها وتأتدمون بسمنها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ﴾ [النحل: ٦٦].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الأنعام ﴿جَمَالٌ﴾ زينة، ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردونها بالعشي من مراعيها إلى مباركها التي تأوي إليها، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تخرجونها بالغداة من مراحها إلى مسارحها، وقدم الرواح لأنَّ المنافع تؤخذ منها بعد الرواح، ومالكها يكون أعجب بها إذا راحت، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: ٣٠- ٣١].

﴿وَ﴾ بعضها ﴿تَحْمِلُ﴾ وهي الإبل والبغال والحمير ﴿وَتَحْمِلُ﴾ أحمالكم، ﴿إِلَى بَلَدٍ﴾ آخر غير بلدكم. ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ راحلين إليه ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ أي: بالمشقة والجهد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩- ٨٠]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ الذي سخر لكم هذه الأنعام ﴿لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بخلقه حيث سخر لكم هذه المنافع.

﴿وَ﴾ خلق ﴿الْخَيْلَ﴾ وهي اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والنساء والسماء. ﴿وَ﴾ خلق ﴿الْبِغَالَ﴾ جمع بغل، وهو الحيوان المتولد بين الفرس والحمار، ويلحق بالحمار من حيث الحرمة، ﴿وَالْحَمِيرَ﴾ جمع حمار، والمراد بها الحمر الأنسية، وفي حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ**» أخرجه مسلم.

﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وجعلها زينة لكم مع المنافع التي فيها، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من وسائل الأنتقال وأسباب الزينة، وقيل: يعني ما أعد الله في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر علىٰ قلب بشر.

❖وقد ذهب الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ تحريم لحم الخيل مستدلا بهذه الآية، من أن الله خلقه زينة ومركوب، ولا دلالة له فيها، فإن الإبل زينة وهي حلال، وقد ثبت النص عن

النبي ﷺ في حل الخيل عن جابر: « **نهانا رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأنسية وأذن في لحوم الخيل**» متفق عليه، وعن أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت نحرنا علىٰ عهد رسول الله ﷺ فرسا فأكلناه» متفق عليه.

وأما حديث خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير فهو ضعيف السند، في سنده صالح بن يحيىٰ بن المقدام ضعيف، وأبوه مجهول، وقال أبو داود: منسوخ.

﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ بيان ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ طريق الهدى من الضلالة. وقيل: بيان الحق بالآيات والبراهين، والقصد: الصراط المستقيم، ﴿وَمِنْهَا﴾ ومن السبل ﴿جَآئِرٌ﴾ عن الاستقامة معوج، فالقصد من السبيل دين الإسلام، والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر. قال جابر بن عبد الله: قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض.

وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله. قصد السبيل السنة. ومنها جائر: الأهواء والبدع، دليله قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الأنصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَىٰ بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ** » أخرجه أحمد.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وفقكم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ نظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب ﴿مَاء﴾ مطرًا ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربونه، ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: من ذلك الماء شراب أشجاركم وحياة نباتكم، ﴿فِيهِ﴾ يعني: في الشجر، ﴿تُسِيمُونَ﴾ ترعون مواشيكم ودوابكم.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ﴾ الماء الذي أنزل وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ نُنْبِتُ﴾ بالنون. ﴿ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ لنومكم وراحتكم ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لطلب معاشكم ﴿وَ﴾ سخر ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ دائبين ولكم فيها مصالح كثيرة ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ مذللات، ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه القدري الكوني، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي تقدم ذكره ﴿لَآيَاتٍ﴾ حجج وبينات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ شرع الله وأمره.

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ خلق، ﴿لَكُمْ﴾ لأجلكم، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من الدواب والأشجار والثمار وغيرها، ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وطعمه منه الحلو والمر والمز والرطب واليابس إلىٰ غير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ علامة وحجة ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعتبرون.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ﴾ لكم ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ المالح والعذب ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: اللؤلؤ والمرجان، ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواري فيه مقبلة ومدبرة، وهو أنك ترىٰ سفينتين إحداهما تقبل والأخرىٰ تدبر تجريان بريح واحدة، وقيل: مملوءة. وقيل هي التي تشق الماء بجؤجؤها، وأصل (المَخْرُ): الرفع والشق.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ تطلبوا الله ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ كالتجارة، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله علىٰ ما سخر لكم، ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالا ثوابت، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ تتحرك والميد: هو الاضطراب والتكفؤ ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ تجري فيها المياه فتسقي الزروع ﴿وَسُبُلًا﴾ طرقا مختلفة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ ما تريدون فلا تضلون.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ يعني: معالم الطرق ودلائله من جبال كبار وآكام صغار مما يستدل به المسافر، قال بعضهم: ها هنا تم الكلام ثم ابتدأ، ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ في ظلام الليل ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في حال سيرهم وقال مجاهد: أراد بالكل النجوم منها ما يكون علامات ومنها ما يهتدون به.

وبعد أن ذكر الدلائل على وحدانيته وقدرته استدل بها على وجوب عبادته فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هذه الآيات وغيرها، وهو الله تعالى، ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ بل هو مخلوق مربوب وهي الأصنام والأوثان، كقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون أن لا سواء، فالخالق هو المستحق للعبادة.

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ نعمه الكثيرة ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ عدًا فضلًا عن شكرها ومع ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لتقصيركم في شكر نعمه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بالتقصير والمعاصي بل يرضىٰ سبحانه باليسير من الشكر مع انعامه الكثير.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا

سُورَةُ النَّحْلِ

يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ في أنفسكم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أمام غيركم، لا تخفى عليه خافية.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام، والأوثان، ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ وإن صغر ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥- ٩٦]، وحال هذه الأصنام أنها: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي جماد لا روح فيه ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني الأصنام ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ متىٰ تكون الساعة، فكيف يرتجىٰ منها نفع أو ضر وهذا حالها في العجز.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله غيره ولا رب سواه وهو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ جاحدة، ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ متعاظمون في أنفسهم عن الهدىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في أنفسهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لغيرهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ بل يبغضهم ويبغض أفعالهم.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» **قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»** أخرجه مسلم (٩١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ أي لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم مشركو مكة ومن إليهم، ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ من الوحي ﴿قَالُواْ﴾ معرضين عن الجواب لم ينزل شيئًا وإنما هذه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأباطيلهم مأخوذة من كتب المتقدمين، وأقوالهم مضطربة مختلفة في القرآن منها أنه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥]، ومنها أنه سحر ومنها أن رسول الله ﷺ ساحر، ومنها أنه شعر وأنه قول بشر، إلىٰ غير ذلك من الأقوال البائرة والأفهام الحائرة.

﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ ذنوب أنفسهم، ﴿كَامِلَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يضاف إليها ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ يفتنونهم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ بغير حجة فيصدونهم عن الإيمان، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ما يحملون، وقد: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**» أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ برسلهم وبنوا مع مكرهم قصورا عظيمة، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ أي: قصد تخريب بنيانهم من أصولها، ﴿فَخَرَّ﴾ سقط ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾ أي أعلىٰ البيوت ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ المهلك الموجع ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ من مأمنهم وهم لا يظنون ذلك.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يهينهم بالعذاب، ﴿وَيَقُولُ﴾ الرب مقرعًا وموبخًا لهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ الذين زعمتم من الأوثان والأصنام ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ تخالفون، المؤمنين فيهم وتعادونهم من أجلهما ما لهم لا يحضرونكم فيدفعون عنكم العذاب، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم المؤمنون، ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾ الهوان، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب والفضيحة، ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

ومن حالهم أنهم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ تقبض أرواحهم ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ ملك الموت وأعوانه، قرأ حمزة ﴿ يَتَوَفَّاهُمْ ﴾ بالياء، حال كونهم ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر فتوفتهم في حال كفرهم، ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وانقادوا وقالوا كذبا، ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ شركًا كما قالوا: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وكما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٣٧]، فقال لهم الملائكة، ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود.

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ وهي سبعة ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ مأوىٰ ومستقر ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ﴾ من الوحي ﴿قَالُوا۟﴾ أنزل ﴿خَيْرًا﴾ رحمة وبركة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ بالتوحيد والعمل الصالح ﴿فِى هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كرامة من الله. وهو الرزق

الحسن، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ وحالهم يوم القيامة: ﴿خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ كما قال: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

ثم فسرها فقال: ﴿جَنَّٰتُ﴾ بساتين ﴿عَدْنٍ﴾ إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ينعمون فيها بأنواع النعم ومنه ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ من مطعوم ومشروب وملبوس إلى غير ذلك ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الموحدين.

وهم: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ تقبضهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ مؤمنين طاهرين من الشرك. قال مجاهد: زاكية أفعالهم وأقوالهم. وقيل: معناه إن وفاتهم تقع طيبة سهلة.

ففي حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ**» أخرجه أحمد.

﴿يَقُولُونَ﴾ الملائكة لهم، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ أي التحية الكاملة لكم وأيضا السلامة لكم، ويبلغونهم سلام الله، ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالكم، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

ثم قال عن الكافرين: ﴿هَلْ﴾ ما ﴿يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بعذابهم وهلاكهم وقيل يوم القيامة، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار فتسلطت عليهم الغفلة، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتعذيبه إياهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك فما دونه.

﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ حل بهم ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ عقوبات ﴿مَا عَمِلُوا۟﴾ من كفرهم وأعمالهم الخبيثة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نزل بهم، ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يسخرون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن

تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ يعنون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فلولا أن الله رضيها لنا لغيَّر ذلك وهدانا إلىٰ غيرها، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الاحتجاج بالقدر علىٰ كفرهم، وقد أكذبهم الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فلا يجوز الاحتجاج بالقدر علىٰ المعاصي والشركيات ولا يستقيم إلا بعد التوبة.

ففي حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ، قَالَ مُوسَىٰ: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَىٰ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ، قَالَ مُوسَىٰ: بِأَرْبَعِينَ عاما، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَىٰ أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟**».

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ**» متفق عليه.

﴿فَهَلْ﴾ ما ﴿عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليس إليهم الهداية إنما إليهم التبليغ.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ طائفة من الناس ﴿رَّسُولًا﴾ أي: كما بعثنا فيكم يقول: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحدوه وأفردوه بالعبادة.

۞ وهذه الآية عمدة في بيان أن جميع الرسل يدعون إلىٰ التوحيد ويحذرون من الشرك والتنديد.

﴿وَاجْتَنِبُواْ﴾ ابتعدوا واحذروا ﴿الطَّاغُوتَ﴾ ما هو معبود من دون الله، وقد تقدم القول فيه ﴿فَمِنْهُم﴾ من الناس ﴿مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلىٰ دينه القويم والصراط المستقيم، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ﴾ وجبت ﴿عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ بالقضاء السابق حتىٰ مات علىٰ كفره، لعلم الله به أنه ليس أهلا لهداية التوفيق ﴿فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ﴾ لتتفكروا ﴿فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ مآل أمرهم وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ الكافرين.

﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ توفيقهم واستجابتهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ يوفق ﴿مَن يُضِلُّ﴾ من أضله الله وحرفه عن الصراط المستقيم كما قال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مانعين من العذاب.

﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ حلفوا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ﴾ بلغة ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾ بقولهم ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ﴾ يحشر يوم القيامة ﴿مَن يَمُوتُ﴾ وهم منكرو البعث قال الله تعالى ردا عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ حقًا إن بعثهم ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ ثابتًا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لكفرهم وبغيهم.

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ليظهر ﴿لَهُمُ﴾ الحق ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ حين يرون العذاب ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في قولهم وفعالهم.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ ومنه بعثهم ونشورهم ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ في الحال.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ۚ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ

ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ تركوا أوطانهم ﴿فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ عذبوا وأوذوا في الله، قال قتادة: هم أصحاب النبي ﷺ ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتىٰ لحق منهم طائفة بالحبشة ثم بوأ الله لهم المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لننزلنهم ﴿فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ المدينة، وقيل: معناه لنحسنن إليهم في الدنيا. وقيل: الحسنة في الدنيا التوفيق والهداية. ﴿وَلَأَجْرُ﴾ ثواب ﴿الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وأعظم.

فعن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَأَلَ مُوسَىٰ رَبَّهُ، مَا أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً.**

قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ.

فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ.

فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟.

فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ.

فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ.

فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ.

فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ.

قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟.

قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ﴾ [السجدة: ١٧]، الْآيَةَ». أخرجه مسلم.

﴿لَوْ كَانُواْ﴾ الكفار ﴿يَعْلَمُون﴾ ذلك، وهذا الأجر والجزاء العظيم يناله.

﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ في الله على ما نالهم، صبروا على طاعته وعن نواهيه وعلى أقداره ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون﴾ يعتمدون في جلب المنافع ودفع المضار.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ بعثنا ﴿مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ من أهل القرى لا البوادي فليس من النساء نبية ﴿نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد ﷺ، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فهلا بعث إلينا ملكا، ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب، ﴿إِن كُنتُمْ لاَتَعْلَمُون﴾ أسباب المصالح الدنيوية والأخروية، والأمر بالعودة إلى أهل العلم مطلوب في المسائل العلمية والعملية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، ولا سلامة للمجتمع في حياتهم إلا بالعودة إلى أهل العلم الصادقين المخلصين لا علماء الضلالة والبدعة.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ قيل المعنىٰ وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر غير رجال يوحىٰ إليهم ولم نبعث ملائكة. وقيل: تأويله وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحىٰ إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر، ولهذا قال ابن حزم: "إنما يسأل أهل العلم عن الذكر"، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الذِّكْرَ﴾ القرآن والسنة ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ تظهر وتوضح ﴿لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وكان النبي ﷺ مبينا للوحي وبيان الكتاب يطلب من السنة.

۞ وفي هذه الآية رد علىٰ من يسمون أنفسهم بالقرآنيين وينكرون حجة السنة.

فرسول الله ﷺ كان مبينًا للقرآن وموضحًا له، فعن أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا أُلْفِيَن أحدَكُم مُتَّكئًا علىٰ أريكَتِهِ يأتيه الأمرُ من أمري مِمَّا أمرْتُ به أو نَهَيتُ عنه، فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتَّبعناه**» أخرجه أبو داود، فلا يستطيع أن يصلي أحدهم صلاة بغير الرجوع إلىٰ بيان السنة، وهكذا القول في بقية الأعمال، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ﴾ عملوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الشرك والمعاصي، ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ يزلزل ﴿ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يظنون، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ بالعذاب، ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ تصرفهم في الأسفار.

وقيل: في اختلافهم.

وقيل: في إقبالهم وإدبارهم، ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ سابقين وفائتين من الله.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ والتخوف: النقص، أي: ينقص من أطرافهم ونواحيهم شيئا بعد شيء حتىٰ يهلك جميعهم، يقال: تخوفه الدهر وتخونه إذا نقصه وأخذ ماله وحشمه، ويقال: هذا لغة بني هذيل. وقال الضحاك والكلبي: هو من الخوف، أي: أن يعذب طائفة ليتخوف الآخرون أن يصيبهم مثل ما أصابهم. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾ بكم ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حين لم يعجل بالعقوبة.

ففي الصحيحين عَبْدُ اللهِ بْنُ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ**» أخرجه مسلم.

﴿أَوَلَمْ﴾ الذين مكروا السيئات ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ من جسم قائم له ظل، ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي: تميل وتدور من جانب إلىٰ جانب فهي في أول النهار علىٰ حال ثم تتقلص ثم تعود في آخر النهار إلىٰ حال أخرىٰ، ويقال للظل بالعشي: فيء لأنه فاء أي رجع من المغرب إلىٰ المشرق، فالفيء الرجوع، والسجود الميل. يقال: سجدت النخلة إذا مالت، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أول النهار ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا﴾ آخر النهار، ﴿لِلَّهِ وَهُمْ﴾ منقادة لحكمه وتسخيره في ميلأنها ودورانها تسجد الظلال لله. وقيل: المراد من الظلال سجود الأشخاص فإذا قيل: لم وحد اليمين وجمع الشمائل؟ قيل: من شأن العرب في اجتماع العلامتين الاكتفاء بواحدة، كقوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إنما أخبر بـ(ما) لغلبة ما لا يعقل على من يعقل في العدد، والحكم للأغلب كتغليب المذكر على المؤنث، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من كل حيوان يدب. ويقال: السجود الطاعة والأشياء كلها مطيعة لله عَزَّوَجَلَّ من حيوان وجماد، قال الله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقيل: سجود الأشياء تذللها وتسخرها لما أريدت له وسخرت له.

وقيل: سجود الجمادات وما لا يعقل ظهور أثر الصنع فيه علىٰ معنىٰ أنه يدعو الغافلين إلىٰ السجود عند التأمل والتدبر فيه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ خص الملائكة بالذكر مع كونهم من جملة ما في السماوات والأرض تشريفا ورفعا لشأنهم.

وقيل: لخروجهم من الموصوفين بالدبيب إذ لهم أجنحة يطيرون بها.

وقيل: أراد ولله يسجد ما في السماوات من الملائكة وما في الأرض من دابة، وتسجد الملائكة. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يتعاظمون ويترفعون.

وحالهم أنهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يثبت بها علو الله عَزَّوَجَلَّ على خلقه، كقوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ من غير تأخير أو اعتراض كقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ﴾ معبودين ﴿ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ﴾ معبود ﴿وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ خافون.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ خلقًا وملكًا وتدبيرًا، ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ الطاعة والإخلاص ﴿وَاصِبًاۚ﴾ دائما ثابتا، معناه: ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك غير الله عَزَّوَجَلَّ فإن الطاعة تدوم له ولا تنقطع. ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي: تخافون، استفهام على طريق الأنكار، ﴿وَمَا بِكُم﴾ ما يكن ﴿مِّن نِّعۡمَةٖ﴾ لكم ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ﴾ أصابكم ﴿ٱلضُّرُّ﴾ القحط والمرض، ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ تضجون وتصيحون بالدعاء والاستغاثة ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ﴾ أزال ﴿ٱلضُّرَّ﴾ المرض والقحط والشدة ﴿عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ﴾ طائفة ﴿مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ ويندون.

فعن عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: « قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَما مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأما مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » أخرجاه.

﴿لِيَكۡفُرُواْۚ﴾ ليجحدوا، ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أي: حاصل أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم وأعطيناهم من النعماء وكشف الضراء والبلاء، ﴿فَتَمَتَّعُواْۖ﴾ عيشوا في الدنيا المدة التي ضربتها لكم، ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم حين بعثكم وعذابكم.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي الكفار ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا﴾ له حقا من الأصنام، ﴿نَصِيبًا﴾ حظًا ﴿مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال وهو ما جعلوا للأوثان من حروثهم وأنعامهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ﴿تَاللَّهِ﴾ والله ﴿لَتُسْأَلُنَّ﴾ يا معاشر الكفار يوم القيامة، ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ تكذبون في الدنيا وتعاقبون عليه.

﴿وَ﴾ من حالهم أنهم ﴿يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ وهم خزاعة وكنانة، قالوا: الملائكة بنات الله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَ﴾ يجعلون ﴿لَهُمْ﴾ لأنفسهم ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾ من البنين الذكور، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ أخبر ﴿أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ﴾ صار ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ متغيرا كئيبا من الغم والكراهية، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكت من شدة ما فيه من الحزن فيمسكه ولا يظهره.

﴿يَتَوَارَىٰ﴾ يختفي، ﴿مِنَ الْقَوْمِ﴾ من الناس لكراهيته أن يروه ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ من الأنثى ثم يتفكر ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ أي يبقيها ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ على مهانة لا يورثها ولا يعطيها ﴿أَمْ يَدُسُّهُ﴾ يخفيه ﴿فِي التُّرَابِ﴾ فيؤودها ويدفنها حية، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس ما يقضون لله البنات ولأنفسهم البنين، وقيل: بئس حكمهم وأد البنات، وهذه الأفعال التي يقومون بها تدل على ضعف عقولهم ومداركهم وتسلط الشيطان عليهم، فخالفوا المعقول والمنقول والله المستعان.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني: لهؤلاء الذين يصفون لله البنات ولأنفسهم البنين ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفة السوء من الاحتياج إلى الولد وكراهية الأناث وقتلهن خوف الفقر، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ الصفة العليا وهي التوحيد وأنه لا إله إلا هو.

وقيل: جميع صفات الجلال والكمال.

وقيل: الإخلاص، فله المثل الأعلى في ذاته وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣١): "فمن سلب صفات الكمال عن الله وعلوه علىٰ خلقه وكلامه وعلمه وقدرته ومشيئته وحياته وسائر ما وصف به نفسه فقد جعل له مثل السوء ونزهه عن المثل الأعلىٰ فإن مثل السوء هو العدم وما يستلزمه وضده المثل الأعلىٰ وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلىٰ من غيره ولما كان الرب تعالىٰ هو الأعلىٰ ووجهه الأعلىٰ وكلامه الأعلىٰ وسمعه الأعلىٰ وبصره وسائر صفاته عليا كان له المثل الأعلىٰ وكان أحق به من كل ما سواه بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلىٰ اثنان لأنهما إن تكافئا لم يكن أحدهما أعلىٰ من الآخر وإن لم يتكافئا فالموصوف بالمثل الأعلىٰ أحدهما وحده يستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلىٰ مثل أو نظير وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال علىٰ استحالة التمثيل والتشبيه فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة" اهـ.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في فعله وأمره.

۞ ويستدل أهل العلم بهذه الآية علىٰ إثبات قياس الأولىٰ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التدمرية (٢/ ٣٣): "والله سبحانه لا تضرب له الأمثال التي فيها مماثلة لخلقه فإن الله لا مثيل له، بل له المثل الأعلىٰ، فلا يجوز أن يُشرَّك هو والمخلوقات في قياس تمثيل، ولا في قياس شمول تستوي أفراده؛ ولكن يستعمل في حقه المثل الأعلىٰ، وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أولىٰ به، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولىٰ بالتنزيه عنه، فإذا كان المخلوق منزها عن مماثلة المخلوق مع الموافقة في الاسم: فالخالق أولىٰ أن ينزه عن مماثلة المخلوق" اهـ.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ فيعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وعصيانهم، ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض، ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ قال قتادة في الآية: قد فعل الله ذلك من زمن نوح فأهلك من على الأرض إلا من كان في سفينة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وقيل: إن معنى الآية لو يؤاخذ

الله آباء الظالمين بظلمهم انقطع النسل ولم توجد الأبناء فلم يبق في الأرض أحد. ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يمهلهم بحلمه ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ وقت ﴿مُّسَمًّى﴾ منتهى آجالهم وانقطاع أعمارهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ شيئًا كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ يصيرون ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا﴾ لأنفسهم من البنات، ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ﴾ أي: تقول: ﴿الْكَذِبَ﴾ حيث يزعمون ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ الجنة في المعاد إن كان محمد صادقا بالوعد في البعث.

ففي الصحيحين عَنْ خَبَّابٍ، قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي عَلَىٰ العَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، قَالَ: لاَ أُعْطِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقُلْتُ: «**لاَ أَكْفُرُ حَتَّىٰ يُمِيتَكَ اللهُ، ثُمَّ تُبْعَثَ**»، قَالَ: دَعْنِي حَتَّىٰ أَمُوتَ وَأُبْعَثَ، فَسَأُوتَىٰ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٧-٧٨]. ﴿لا جَرَمَ﴾ حقًا، ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ في الآخرة، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ فتح الراء وكسرها فبالكسر منسيون في النار، قاله ابن عباس، وقال سعيد بن جبير: مبعدون، وقال مقاتل: متروكون. قال قتادة: معجلون إلىٰ النار. قال الفراء: مقدمون علىٰ النار، ومنه قوله ﷺ: «**أنا فرطكم علىٰ الحوض**» متفق عليه أي: متقدمكم.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ كما أرسلنا إلى هذه الأمة، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الخبيثة، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ في الدنيا لطاعتهم له، مع براءته منهم في الآخرة ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة.

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾ تظهر وتوضح ﴿لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ من الدين والأحكام، ﴿وَهُدٗى﴾ للقلوب ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ لمن تمسك به ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ينقادون وبه يأخذون.

۞ وهذه الآية من أصرح الأدلة أن النبي ﷺ مبين للقرآن لعقائده وأحكامه ومعاملاته، فلا سبيل لفهمه والأخذ به والعمل به إلا بأخذ السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ المطر، ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالنبات، ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ يبوستها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ علامة على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى البعث والنشور ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ سمع استجابة وهو سمع القلوب لا سمع الآذان.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ لعظة، ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ شرابًا ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ كقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١]، ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ﴾ وهو ما في الكرش من الثقل فإذا خرج منه لا يسمى فرثا، ﴿وَدَمِ﴾ يخرج ﴿لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ ليس عليه لون دم ولا رائحة فرث، ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ هنيئا يجري على السهولة في الحلق.

﴿وَ﴾ يرزقكم ﴿مِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ فاكهة تتفكهون بأكلها و ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ﴾ شرابًا، ﴿سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ قال قوم: السكر: الخمر، والرزق الحسن الخل والزبيب والتمر والرب.

قالوا: وهذا قبل تحريم الخمر، وإلىٰ هذا ذهب ابن مسعود وابن عمر وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد.

وقال الشعبي: السكر ما شربت، والرزق الحسن: ما أكلت.

وروىٰ العوفي عن ابن عباس: أن السكر هو الخل بلغة الحبشة، وقال بعضهم: السكر النبيذ المسكر، وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد والمطبوخ من العصير، وهو قول الضحاك والنخعي.

ومن يبيح شرب النبيذ ومن حرم يقول: المراد من الآية الإخبار لا الإحلال وأولىٰ الأقاويل أن قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ منسوخ، روي عن ابن عباس قال: السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما أحل. وقال أبو عبيدة: السكر الطعم يقال: هذا سكر لك أي: طعم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾ [يس: ٣٤].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي: ألهمها وقذف في أنفسها ففهمته، والنحل زنابير العسل واحدتها نحلة. ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أوكارا تبنيها لتعسل فيها ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يبنون ويرفعون، وقد جرت العادة أن أهلها يبنون لها الأماكن فهي تأوي إليها.

﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ليس معنى كل العموم، وإنما عموم كل شيء بحسبه أي من كل ما يزهر وتتنوع أنواعه بتنوع زهوره، ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي: مطيعة منقادة بالتسخير. يقال: إن أربابها ينقلونها من مكان إلى مكان ولها يعسوب إذا وقف وقفت وإذا سار سارت، ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يعني: العسل ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أبيض وأحمر وأصفر. ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: في العسل.

وقال مجاهد: أي في القرآن والأول أولىٰ؛ لحديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**اسْقِهِ عَسَلًا**» فَسَقَاهُ، ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقَالَ لَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فَقَالَ: «**اسْقِهِ عَسَلًا**» فَقَالَ: لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَدَقَ اللهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ**»، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ» أخرجه مسلم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلًا وهو حار تحللت، فأسرعت في الأندفاع فزاده إسهالًا، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ «**يُعْجِبُهُ الْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ**» هذا لفظ البخاري: وفي صحيح البخاري من حديث سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال: قال رسول الله ﷺ: « **الشِّفَاءُ فِي ثَلاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَىٰ أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ** ».

وقال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة، سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - أَوْ: يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - خَيْرٌ، فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**»" اهـ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظيم قدرة الله، وعجيب خلقه فيعتبرون.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ من العدم، ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ صبيانا أو شبانا ﴿وَ﴾ أو ﴿مِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أردئه وأخسه، يعني الهرم، ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ يعود إلىٰ الجهل والنسيان بتقدم العمر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

وعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ وَالهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ**» أخرجه البخاري.

﴿وَ﴾ من أدلة التوحيد أن ﴿اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ العطاء حيث يبسط لمن شاء، ويضيق علىٰ الآخر ويقلل ويكثر، ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ في الرزق ﴿بِرَادِّي﴾ معطي ﴿رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من العبيد، ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: حتىٰ يستووا هم وعبيدهم في ذلك، فكما لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم الله سواء فكيف وقد جعلوا عبيد الله له شركاء في ملكه وسلطانه، وهذا حجة علىٰ المشركين، ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]، بالإشراك به، كما قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعني: النساء خلق من آدم زوجته حواء، وقيل: من أنفسكم أي: من جنسكم أزواجا، وهذا الأظهر، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ﴾ من الذكور والأناث أو من أحدهما.

﴿وَحَفَدَةً﴾ قال ابن مسعود والنخعي: الحفدة أختان الرجل علىٰ بناته، وعن ابن مسعود أيضا أنهم الأصهار، فيكون معنىٰ الآية علىٰ هذا القول: وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهم فيحصل بسببهم الأختان والأصهار.

وقال عكرمة والحسن والضحاك: هم الخدم.

قال مجاهد: هم الأعوان من أعانك فقد حفدك.

وقال عطاء: هم ولد ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه.

وقال قتادة: مهنة تمتهنونهم ويخدمونكم من أولادكم.

قال الكلبي ومقاتل: البنين الصغار والحفدة كبار الأولاد الذين يعينونه علىٰ عمله.

وروىٰ مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس: أنهم ولد الولد.

وروىٰ العوفي عنه: أنهم بنو امرأة الرجل ليسوا منه، قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنىٰ الحفد وهو (الخَدَمَةُ).

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الحلال، ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ الأصنام، ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ التوحيد والإسلام ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجحدونها ويضيفونها إلىٰ غيره.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ﴾ يعني المطر، ﴿وَالأَرْضِ﴾ يعني النبات، ﴿شَيْئًا﴾ أي أنهم لا يملكون من أمر الرزق شيئًا قليلًا ولا كثيرًا، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون علىٰ شيء البتة من إيصال نفع أو دفع ضر.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ الأشباه والنظائر فتشبهونه بخلقه وتجعلون له مثيل منهم تعالىٰ الله عن قولهم وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ خطأ وضلال ما تضربون له من الأمثال.

ثم ضرب مثلا للمؤمن والكافر، فقال جل ذكره، ﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ هذا مثل الكافر رزقه الله مالا فلم يقدم فيه خيرًا ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ﴾ أعطيناه ﴿مِنَّا

رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالًا ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ هذا مثل المؤمن أعطاه الله مالًا فعمل فيه بطاعة الله وأنفقه في رضا الله سرًا وجهرًا فأثابه الله عليه الجنة. ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ لا يستوون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وفضله.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ أخرس لا يتكلم ومن عجزه أنه ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ﴾ عمل ﴿شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ﴾ عبء وثقل ﴿عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ ابن عمه وأهل ولايته، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ يرسله، ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ لأنه لا يفهم ما يقال له ولا يفهم عنه، فهذا مثل الأصنام لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، فعابده يحتاج إلىٰ أن يحمله ويضعه ويخدمه، ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ هذا الصنم والوثن ﴿هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ يعني: الله فإنه قادر متكلم يأمر بالتوحيد، ﴿وَهُوَ﴾ يدلكم ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقيل: هو رسول اللهﷺ يأمر بالعدل وهو علىٰ صراط مستقيم. وقيل: كلا المثلين للمؤمن والكافر.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا: ما أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله عَزَّوَجَلَّ ﴿۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبده، وفي قوله ﴿مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ إلىٰ قوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال هو عثمان بن عفان، قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأتي بخير، ذاك مولىٰ عثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء لكمال علمه ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ وقت وقوعها، ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ إذا قال له كن فيكون، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ بل هو أقرب، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجز لكمال علمه وقدرته.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أطفالا صغارًا ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ مما يصلح شأنكم فضلا عن غيركم، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ القلوب ، وهذه آلات العلم التي بها يدرك ويتحصل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله عليكم.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مذللات، ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الهواء بين السماء والأرض، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الهواء ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التذليل والتسخير ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلالات وحجج على قدرة الله ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ﴾ صَيَّرَ وخلق ﴿لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي من الحجر والمَدَرِ، ﴿سَكَنًا﴾ مأوى تسكنونه، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ يعني الخيام والقباب والأخبية والفساطيط من الأنطاع والأدم، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ يخف عليكم حملها، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ رحلتكم في سفركم، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ في بلدكم لا تثقل عليكم في الحالين، ﴿وَ﴾ تتخذون ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ يعني من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز، ﴿أَثَاثًا﴾ متاع البيت من الفرش والأكسية، ونحوها ﴿وَمَتَاعًا﴾ بلاغًا ينتفعون بها، ﴿إِلَى حِينٍ﴾ الموت. وقيل: إلى حين تبلى.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ تستظلون بها من شدة الحر وهي ظلال الأبنية والأشجار، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ الأسراب والغيران واحدها كن ﴿وَجَعَلَ

﴿لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ قمصا من الكتان والقز والقطن والصوف، ﴿تَقِيكُمُ﴾ تمنعكم، ﴿الْحَرَّ﴾ قال أهل المعاني: أراد الحر والبرد اكتفاء بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه. ﴿وَسَرَابِيلَ﴾ دروع من الحديد ونحوها ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ البأس: الحرب، ﴿كَذَلِكَ﴾ كما أوجد لكم هذه النعم ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾ نعمه الكثيرة ﴿عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ تستسلمون له وتخلصون له الطاعة.

قَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: «إِنَّمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ قَدْرِ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ وَمَا جَعَلَ لَكُمْ مِنَ السَّهْلِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ جِبَالٍ ؟ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وَمَا جَعَلَ لَكُمْ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ وَبَرٍ وشَعَر، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ [النُّور: ٤٣]، لِعَجَبِهِمْ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا أَنْزَلَ مِنَ الثَّلْجِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَهُ؟ أَلَّا تَرَىٰ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وَمَا بَقِيَ مِنَ الْبَرْدِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ حَرٍّ».

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ولا يلحقك عتب ولا تقصير، وليس عليك من هدايتهم شيء.

ومن شأن الكفار أنهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ الإسلام وقيل محمد ﷺ ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ يكذبون أو يضيفونها إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ، وقال مجاهد وقتادة: يعني ما عد لهم من النعم في هذه السورة يقرون أنها من الله، ثم قيل لهم: تصدقوا وامتثلوا لأمر الله فيها ينكرونها فيقولون ورثتها من آبائنا. وقال الكلبي: قالوا: هذه كلها من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا. وقال عوف بن عبد الله: هو قول الرجل لولا فلأنَّ لكان كذا وكذا ولولا فلأنَّ لما كان كذا، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿يَوْمَ﴾ القيامة حين ﴿نَبْعَثُ﴾ نخرج ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ طائفة ﴿شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم وعلىٰ أفعالهم، وهو الرسول وغيره من الشهود، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا

جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، ويشهد الملائكة: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في الاعتذار، وقيل: في الكلام أصلا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يسترضون، ربهم فلا يرضىٰ عنهم.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كفروا، ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ يعني جهنم، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ من عذابها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يؤخرون حتى يتمكنوا من العمل الصالح.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ يوم القيامة، ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ أوثانهم، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ أربابًا ونعبدهم، ﴿فَأَلْقَوْا۟﴾ ردوا يعني الأوثان، ﴿إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: قالوا لهم، ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في تسميتنا آلهة ما دعوناكم إلى عبادتنا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

﴿وَأَلْقَوْا۟﴾ يعني المشركين ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ﴾ استسلموا وانقادوا لحكمه فيهم، ولم تغن عنهم آلهتهم شيئا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ زال، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أنها تشفع لهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ۝٨٨ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنفسهم ﴿وَصَدُّوا﴾ منعوا غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن طريق الحق ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾ في النار ﴿فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ الذين يعذبونه والسبب ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ في الدنيا بالكفر وصد الناس عن الإيمان.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني نبيها لأنَّ الأنبياء كانت تبعث إلىٰ الأمم منها، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ الذين بعثت إليهم بل

ويشهدون لجميع الأمم كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وفي حديث أبي سعيد في البخاري (٣٣٣٩) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ، هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لاَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ وَالوَسَطُ العَدْلُ**».

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿تِبْيَٰنًا﴾ بيانا، ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام، ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بما لهم عند الله من الخير العميم والفضل الواسع.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ القسط، ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ التوحيد وحسن المتابعة وبذل المعروف للناس فهو لفظ عام شامل لكل خير ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صلة الرحم، ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ ما قبح من القول والفعل. ويدخل فيه الزنا، ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما لا يعرف في شريعة ولا سنة، ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ الكبر والظلم، ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون. قال ابن مسعود: إن أجمع آية في القرآن هذه الآية.

۞ وفيها بيان أن الإسلام دين جامع فيه الدعوة إلىٰ كل فضيلة والتحذير من كل شر ورذيلة فلا تستقيم حياة البشرية بمثل الإسلام مهما وضعوا من القوانين والدراسات، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤].

﴿وَأَوْفُواْ﴾ أي: التزموا الوفاء ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا﴾ والعهد اليمين، وقيل العقد، وهو داخل فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تشديدها فتحنثوا فيها بلا تكفير، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ﴾ شهيدًا بالوفاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: من بعد غزله وإبرامه وإحكامه، ﴿أَنكَٰثًا﴾ ما نقض بعد الفتل غزلا كان أو حبلا. ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ بهذا النقض ﴿أَيْمَٰنَكُمْ﴾ عهودكم ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ مفسدة وخيانة وخديعة ومكرًا ﴿أَن تَكُونَ﴾ أي: لأنَّ تكون، ﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة ﴿هِيَ أَرْبَىٰ﴾ أي: أكثر وأعلىٰ، ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ من طائفة قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قوما أكثر منهم وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر، فمعناه: طلبتم العز بنقض العهد، ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ﴾ يختبركم ﴿ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ بأمره إياكم بالوفاء بالعهد، ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ وليظهرن ﴿لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢﴾ في الدنيا فيجازي كل عامل بعمله.

﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ﴾ كونا ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ صيركم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ علىٰ ملة واحدة وهي الإسلام، ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بخذلأنه إياهم عن الهدىٰ عدلًا منه، ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقه إياهم للإسلام فضلا منه، ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٩٤ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٦ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ

بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ حلفكم وعهودكم ﴿دَخَلَۢا﴾ خديعة وفسادًا، ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ وتكون علىٰ أهوائكم متىٰ شئتم وفيتم ومتىٰ شئتم نقضتم فتغرون بها الناس فيسكنون إلىٰ أيمانكم ويأمنون ثم تنقضونها، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتهلكوا بعد ما كنتم آمنين والعرب تقول لكل مبتلىٰ بعد عافية أو ساقط في ورطة بعد سلامة زلت قدمه، ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب السيء ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾ منعتم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طريق الله قيل: معناه سهلتم طريق نقض العهد علىٰ الناس بنقضكم العهد، ﴿وَلَكُمۡ﴾ يوم القيامة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ﴾ بميثاق ﴿اللَّهِ﴾ وأيمانكم ﴿ثَمَنٗا﴾ عوضًا﴿قَلِيلًا﴾ بنقضها تبتغون بذلك عرضًا قليلًا من الدنيا، ولكن أوفوا بها. ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب لكم علىٰ الوفاء بالعهد، ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ وفي حديث أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» أخرجه مسلم.

﴿مَا عِندَكُمۡ﴾ من عرض الدنيا ﴿يَنفَدُ﴾ يفنى، ﴿وَمَا عِندَ اللهِ﴾ من الأجر والثواب ﴿بَاقٖۗ﴾ محفوظ ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ﴾ نثيب، ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على الوفاء في السراء والضراء، ﴿أَجۡرَهُم﴾ ثوابهم ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ الحسنة بعشر أمثالها ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ مخلصًا منقادًا ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ في الدنيا براحة البال وسكون الحال وطمأنينة القلب وانشراح الصدر وغير ذلك، وأحسن ذلك أن يكون مع العلم والعمل به، ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم﴾ يوم القيامة ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فيدخلهم الله الجنة، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ

«إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأما الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ» أخرجه مسلم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: إذا أردت قراءة القرآن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟﴾ [المائدة: ٦] والاستعاذة سنة عند قراءة القرآن، وأكثر العلماء علىٰ أن الاستعاذة قبل القراءة. وقال أبو هريرة: بعدها، ولفظه أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ﴾ حجة وولاية، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون قال سفيان: ليس له سلطان علىٰ أن يحملهم علىٰ ذنب لا يغفر ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ ولايته وتسلطه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يطيعونه ويدخلون في ولايته، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي: بالله مشركون.

وقيل: الكناية راجعة إلىٰ الشيطان، ومعناه الذين هم من أجله مشركون بالله، والحال كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠-٢١].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾ غيرنا بالنسخ ﴿ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ بما هو أصلح لخلقه فيما يغير ويبدل من أحكامه، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد، ﴿مُفْتَرٍ﴾ مختلق وذلك كما يقول أهل التفسير إن المشركين قالوا: إن محمدًا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدًا ما هو إلا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه، قال الله رادًا عليهم: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن، وبيان الناسخ والمنسوخ، وفي هذا دليل علىٰ وقوع النسخ في القرآن خلافًا لما ذهب إليه اليهود والرافضة بزعمهم أن النسخ يلزم منه إثبات البداء لله عَزَّوَجَلَّ، وقد تقدم بيان فساد قولهم في تفسير سورة البقرة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿نَزَّلَهُ﴾ يعني القرآن، ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ جبريل، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ حيث سمعه من الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق، ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ليثبت قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا ويقينًا، ﴿وَهُدًى﴾ دلالة وإرشاد للخير ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بما لهم عند الله في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ﴾ أي الكفار ﴿يَقُولُونَ﴾ طعنا في القرآن ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ آدمي وما هو من عند الله.

📖 سَبَبُ نُزُولِ الآيَةِ: وقد أخرج ابن جرير عن عبد الله بن مسلم الحضرمي أنه كان لهم عبدان من أهل غير اليمن وكانا طفلين وكانا يقال لأحدهما يسار والآخر جبر فكانا يقرآن التوراة وكان رسولﷺ ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما يتعلم منهما، فأنزل اللهسُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

قال الله تعالىٰ تكذيبا لهم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ يميلون ويشيرون إليه، ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ لا يفصح، ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ فصيح بين فلا يستقيم لهم إضافته إلىٰ الأعجمي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية ﴿لَا يَهۡدِيهِمۡ﴾ لا يوفقهم، ﴿ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي﴾ يختلق ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ على الله ورسله ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لا يقرون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ المفترون وليس محمد ﷺ الذي جاء بالصدق وصدقا به، ففي الصحيحين عن أبي سفيان أن هرقل سأله: «**قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا،..... ثم قال: وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ**».

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ علىٰ الكفر فنطق بكلمة الكفر بلسانه ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ﴾ موقن ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عمار وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرا وأمه سمية وصهيبًا وبلالًا وخبابًا وسالمًا فعذبوهم، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجئ قبلها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها، فأتىٰ عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال رسول الله ﷺ: « **مَا وَرَاءَكَ ؟**» **قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا تُرِكْتُ حَتَّىٰ نِلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ قَالَ: كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟**.

قَالَ: مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ قَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ». المستدرك (٣٤٢٠) قال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ (ت/ الشيخ مقبل الوادعي).

﴿وَلَٰكِن﴾ الذي يؤاخذ ويكون مرتدًا ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ أي: فتح صدره بالكفر بالقبول فاختاره، ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بسبب كفرهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ بسبب كفرهم، وأجمع العلماء علىٰ أن من أكره علىٰ كلمة الكفر، يجوز له أن يقولها بلسانه، وإذا قال بلسانه غير معتقد لا يكون كفرًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب والغضب الذي لحقهم ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ آثروا، ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ لا يوفق ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المعرضين.

﴿أُولَـٰئِكَ﴾ الذين كفروا وارتدوا هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ﴾ ختم ﴿اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فجعلها غلفًا لا تعقل الحق ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾ فلا يسمعون الهدى ﴿وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فلا يبصرون الحق ﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عما يراد بهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦-٧].

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي المغبونون، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ عذبوا ومنعوا من الإسلام ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ على الإيمان والهجرة والجهاد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ من بعد تلك الفتنة والغفلة ﴿لَغَفُورٌ﴾ متجاوز عنهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

📖 وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم وقتل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ إلىٰ آخر الآية، قال: وكتب إلىٰ من بقي بمكة من المسلمين هذه الآية لا عذر لهم قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾ إلىٰ آخر الآية. فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا وأيسوا من كل خير ثم نزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فكتبوا إليهم بذلك إن الله قد جعل لكم مخرجا، فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم ثم نجا من نجا وقتل من قتل.

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ
مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ
حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

واذكر لهم يا محمد ﴿يَوْمَ﴾ القيامة حيث ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ تخاصم وتحتج، ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ بما أسلفت من خير وشر مشتغلة بها لا تتفرغ إلى غيرها، ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾ تؤتى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لكمال عدل الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ يعني. مكة كانت آمنة لا يهاج أهلها ولا يغار عليها، ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ قارة بأهلها لا يحتاجون إلى الأنتقال للأنتجاع كما يحتاج إليه سائر العرب، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ كثيرًا مفيدًا متنوعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يحمل إليها من البر والبحر، نظيره: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ ولم تدخل في الإسلام، ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ ابتلاهم الله بالجوع سبع سنين، وغير ذلك ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾

يعني: بعوث النبي ﷺ وسراياه التي كانت تطيف بهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ من الكفر والفساد.

۞ وفي هذا دلالة علىٰ أن المعاصي سبب لذهاب النعم وحصول النقم.

وقد أحسن من قال:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله شديد النقم

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يعرفون صدقه ونسبه، وهو محمد ﷺ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ حال كفرهم.

﴿فكلوا﴾ على الإباحة والامتنان ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ توحدون.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ الأشياء المضرة منها: ﴿الْمَيْتَةَ﴾ ويدخل في ذلك ما لم يسم الله عليه ﴿وَالْدَّمَ﴾ المسفوح ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ لقذارته ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ ذبح لغير الله ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ إلى أكل شيء منها ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ غير طالب للمحرم وللذة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا مجاوز ما بدر منه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ متجاوز، ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ يا معاشر الكفار ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ لوصف ﴿أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي لا تحلوا وتحرموا من أنفسكم وتضيفونه إلى الله، ويدخل في ذلك كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي أو حلل وحرم بمجرد الهوى والرأي الفاسد ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ يعني البحيرة والسائبة، ﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فتقولون إن الله أمرنا بهذا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون ويقولون ﴿عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من عذاب الله.

والذي هم فيه من التنعم إنما هو ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعني في سورة الأنعام. وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريم ذلك عليهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمخالفة شرع الله عَزَّوَجَلَّ فحرمناه عليهم ببغيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ بتعدي وجهلًا بعاقبتها ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾ رجعوا عن الذنب ﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الذنب والمخالفة ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ يعني: بالإصلاح والاستقامة على التوبة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد الجهالة، ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ متجاوز.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ ابن آزر عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿كَانَ أُمَّةً﴾.

سئل عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْأُمَّةِ الْقَانِتِ، فَقَالَ: الْأُمَّةُ: مُعَلِّمُ الْخَيْرِ، وَالْقَانِتُ: الْمُطِيعُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَعَنْ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: الْأُمَّةُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ.

والمعنىٰ: أنه كان معلم الخير، يأتم به أهل الدنيا، وقد اجتمع فيه من الخصال الحميدة ما اجتمع في أمة.

قال مجاهد: كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار.

قال قتادة: ليس من أهل دين إلا يتولونه ويرضونه.

﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعًا. وقيل. قائما بأوامر الله تعالىٰ، ﴿حَنِيفًا﴾ مستقيمًا علىٰ دين الإسلام. وقيل: مخلصًا. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المنددين.

وكان ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ قائم بشكر نعم الله الكثيرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، ﴿اجْتَبَاهُ﴾ اختاره، واصطفاه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰٓ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، ﴿وَهَدَاهُ﴾ وفقه ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام دين الحق والدين الخالص، ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ مع هذا الفضل والخير الذي هو فيه ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني الرسالة والخلة. وقيل: لسان الصدق والثناء الحسن. وقال مقاتل بن حيان. يعني الصلاة عليه في قول هذه الأمة: اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وآل إبراهيم. وقيل: أولادًا أبرارًا علىٰ الكبر. وقيل: القبول العام في جميع الأمم، وهو شامل لجميع ما ذكر ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في الجنة ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ مسلما موحدًا، مائلا عن الشرك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿إِنَّمَا جُعِلَ﴾ يوم ﴿السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: خالفوا فيه. قيل: معناه ما فرض الله تعظيم السبت وتحريمه إلا علىٰ الذين اختلفوا فيه، يعني اليهود، استحله بعضهم وحرمه بعضهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ﴾ يفصل ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل واحد بما يستحقه ﴿ادْعُ﴾ من الدعوة إلىٰ الخير، وهي واجبة علىٰ قدر الاستطاعة.

فعن عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» أخرجه البخاري (٣٤٦١).

وقد تقدم قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ﴾ طريق ﴿رَبِّكَ﴾ وهو الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالقرآن والسنة، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾ يعني مواعظ القرآن. وقيل: الموعظة الحسنة هي الدعاء إلىٰ الله بالترغيب والترهيب. وقيل: هو قول اللين الرقيق من غير تغليظ ولا تعنيف، كما قال تعالىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، وفي حديث: أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا**» متفق عليه.

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التي هي أحسن أي أعرض عن أذاهم ولا تقصر في تبليغ الرسالة والدعاء إلىٰ الحق، قيل نسختها آية القتال. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ انحرف ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الإسلام ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الثابتين علىٰ دين رب العالمين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٦): "ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو فإنه إما أن يكون طالبًا للحق راغبًا فيه محبًا له مؤثرا له علىٰ غيره إذا عرفه فهذا يدعىٰ بالحكمة ولا يحتاج إلىٰ موعظة ولا جدال وإما أن يكون معرضا مشتغلًا بضد الحق ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه فهذا يحتاج مع الحكمة إلىٰ الموعظة بالترغيب والترهيب وإما أن يكون معاندًا معارضًا فهذا يجادل بالتي هي أحسن فإن رجع إلىٰ الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلىٰ الجلاد إن أمكن.

❁ فلمناظرة المبطل فائدتان:

- أحدهما: أن يرد عن باطله ويرجع إلىٰ الحق.
- الثانية: أن ينكف شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل .

وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف فإنه كفيل بذلك علىٰ أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهما فيه وحججه مع أنها في أعلىٰ

مراتب الحجج وهي طريقة أخرىٰ غير طريقة المتكلمين وأرباب الجدل والمعقولات فهي أقرب شيء تناولًا وأوضح دلالة وأقوىٰ برهانًا وأبعد من كل شبهة وتشكيك" اهـ.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾.

سَبَبُ النُّزُولِ: أخرج الترمذي عن أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنَ الأنصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ مِنْهُمْ حَمْزَةُ، فَمَثَّلُوا بِهِمْ، فَقَالَتِ الأنصَارُ: لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فَقَالَ رَجُلٌ: لاَ قُرَيْشَ بَعْدَ اليَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كُفُّوا عَنِ القَوْمِ إِلاَّ أَرْبَعَةً».

قال ابن عباس والضحاك: كان هذا قبل نزول براءة حين أمر النبي ﷺ بقتال من قاتله ومنع من الابتداء بالقتال، فلما أعز الإسلام وأهله نزلت براءة، وأمروا بالجهاد ونسخت هذه الآية.

قال النخعي والثوري ومجاهد وابن سيرين: الآية محكمة نزلت فيمن ظلم بظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظالم منه، أمر بالجزاء والعفو ومنع من الاعتداء.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بمعونة الله وتوفيقه، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ في إعراضهم عنك، ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: مما فعلوا من الأفاعيل، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ معية حفظ وكلاءة ونصر وتأييد، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ بالتوحيد والأعمال الحسنة.

والحمد لله.

تفسير

سورة الإسراء

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

الجزء ١٥

❁ مكية وآياتها مائة وإحدىٰ عشر.

❁ ومن أسمائها سورة سبحان وسورة بني إسرائيل.

فعن ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالكَهْفِ، وَمَرْيَمَ، وَطه، وَالأنبِيَاءِ: «**إِنَّهُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي**» أخرجه البخاري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾.

﴿سُبْحَانَ﴾ تمجيد الله عَزَّوَجَلَّ لنفسه وتنزيهه عن كل نقص وعيب ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أي: سيره، وسرىٰ به، والعبد هو: محمد ﷺ، وصفه الله بالعبودية في أشرف المواطن إذ أن النبي ﷺ عبدٌ فلا يعبد ورسول فلا يكذب، ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: كان الإسراء من مسجد مكة. وقال قوم: عرج به من دار أم هانئ بنت أبي طالب ومعنىٰ قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: من الحرم. قال مقاتل: كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة، وقيل بثلاث سنين، ويقال: كان في رجب. وقيل: كان في رمضان، والله أعلم ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ يعني: بيت المقدس، وسمي أقصىٰ لأنه أبعد المساجد التي تزار. وقيل: لبعده من المسجد الحرام. ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ بالأنهار والأشجار والثمار، وقال مجاهد: سماه مباركًا؛ لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي، وفيه الصخرة ومنه يحشر الناس يوم القيامة، ومن بركته تفضيله علىٰ غيره من المساجد سوىٰ المسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ ومضاعفة الصلاة فيه.

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: « أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ ﷺ لَمَّا بَنَىٰ بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَأَلَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خِلَالًا ثَلَاثَةً: سَأَلَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حِينَ فَرَغَ مِنْ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ أَنْ لَا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » أخرجه النسائي (٦٩٣)

وقد كان قبلة للأمم السابقة وصلىٰ إليه رسول الله ﷺ قبل تحويل القبلة.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ من عجائب قدرتنا، وقد رأىٰ الأنبياء والآيات الكبرىٰ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ ذكر السميع لينبه علىٰ أنه المجيب لدعائه، وذكر البصير لينبه علىٰ أنه الحافظ له في ظلمة الليل، وقد ذكر الله ما يتعلق بالمعراج في قوله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم:١٣-١٨]. والإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد يقظة لا مناما، وإلا لما أنكرته قريش واستعظمته، وهذا الذي تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ.

منها حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: « لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَسْجِدِ الكَعْبَةِ: جَاءَهُ ثَلاثَةُ نَفَرٍ، قَبْلَ أَنْ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَسْجِدِ الحَرَامِ.

فَقَالَ أَوَّلُهُمْ: أَيُّهُمْ هُوَ؟.

فَقَالَ أَوْسَطُهُمْ: هُوَ خَيْرُهُمْ.

وَقَالَ آخِرُهُمْ: خُذُوا خَيْرَهُمْ.

فَكَانَتْ تِلْكَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّىٰ جَاءُوا لَيْلَةً أُخْرَىٰ فِيمَا يَرَىٰ قَلْبُهُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ نَائِمَةٌ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَذَلِكَ الأَنبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلاَ تَنَامُ قُلُوبُهُمْ، فَتَوَلَّاهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ».

ومنها حديث: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهِ.

قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّىٰ أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ.

قَالَ: فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنبِيَاءُ.

قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ.

فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ.

فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟. قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟.

قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟.

قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟. قَالَ: جِبْرِيلُ.

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ.

قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟.

قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الْخَالَةِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّاءَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ.

فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟. قَالَ: جِبْرِيلُ.

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ.

قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟.

قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ، إِذَا هُوَ قَدِ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ.

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ.

قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ.

قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. فَقَالَ: جِبْرِيلُ.

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ.

قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟.

قَالَ: مُحَمَّدٌ.قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟.

قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ ﷺ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ.

فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ.قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟.

قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ.قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟.

قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَىٰ السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ «.

قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَىٰ، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ ﷺ.

فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟.

قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً.

قَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ».

قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي.

فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفِّفْ عَلَىٰ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ.

فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ.

قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَبَيْنَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ

بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً.

قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي حَتَّىٰ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ» متفق عليه.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾.

﴿وَآتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿مُوسَى﴾ ابن عمران ﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى﴾ هاديًا ومرشدًا ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قائلا لهم ﴿أَلَّا﴾ أي لئلا، ﴿تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢﴾ غيري ﴿وَكِيلا﴾ وليًا ولا نصيرًا ولا كفيلًا، قرأ أبو عمرو: ﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا﴾ بالياء لأنه خبر عنهم.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ قال مجاهد: هذا نداء يعني: يا ذرية من حملنا، ﴿مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة فأنجيناهم من الطوفان، ﴿إِنَّهُ﴾ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ كثير الشكر لربه على نعمه وآلائه.

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا» أخرجه مسلم.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا».

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب أنهم سيفسدون، والقضاء على وجوه: يكون أمرا كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] ويكون حكما كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٩٣]، ويكون خلقا: كقوله ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، وقال ابن عباس وقتادة: يعني وقضينا عليهم، فإلى بمعنى على، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ بالمعاصي والمخالفات، ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أرض الشام وبيت المقدس ﴿مَّرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ﴾ ولتستكبرن ولتظلمن الناس، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ مفرطًا مفسدًا.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ يعني أولى المرتين، قال قتادة: إفسادهم في المرة الأولى ما خالفوا من أحكام التوراة وركبوا المحارم. ﴿بَعَثْنَا﴾ سلطنا ﴿عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ يعني جالوت الخزري وجنوده، وهو الذي قتله داود. وقيل: يعني سنجاريب من أهل نينوى.

وقيل: بختنصر البابلي وأصحابه، وهو الأظهر.

﴿أُوْلِي﴾ أصحاب ﴿بَأْسٍ﴾ بطش وقوة، ﴿شَدِيدٍ﴾ في الحرب، ﴿فَجَاسُواْ﴾ فطافوا وداروا، ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ وسطها يطلبونكم، والجوس: طلب الشيء بالاستقصاء. قال الفراء: جاسوا قتلوكم بين بيوتكم، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ قضاء كائنا لا خلف فيه، وقد ذكر المفسرون في هذا الموطن أحاديث كثيرة موضوعة وضعيفة لا تذكر لما فيها من النكارات وعدم الحاجة إليها.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا﴾ أرجعنا ﴿لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ الدولة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ورددنا ملككم وسلطانكم ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ عددا، أي: ممن ينفر معهم وعاد البلد أحسن مما كان.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ بطاعة ربكم ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ فلها ثوابها، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فعليها عقابها وإثمها، وقيل: فلها الجزاء والعقاب، ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ﴾ المرة ﴿الآخِرَةِ﴾ من إفسادكم وذلك قصدهم قتل عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين رفع وقتلهم يحيىٰ بن زكريا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فسلط الله عليهم الفرس والروم حتىٰ قتلوهم وسبوهم ونفوهم عن ديارهم، فذلك قوله تعالىٰ:

﴿لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي: تحزن وجوهكم وسوء الوجه بإدخال الغم والحزن. قرأ الكسائي ويعقوب: ﴿لِنَسُوءَ﴾ بالنون وفتح الهمزة علىٰ التعظيم، ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ﴾ أعداؤكم ﴿ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ بيت المقدس ونواحيه، ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ في عهد بختنصر ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ وليهلكوا، ﴿مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرٗا﴾ أي: ما استولوا وغلبوا عليه من بلادكم ﴿تَتۡبِيرٗا﴾ إهلاكًا، وهذا دليل علىٰ شدة عداوتهم لبني إسرائيل.

﴿عَسَىٰ﴾ في حق الله موجبة ﴿رَبُّكُمۡ﴾ يا بني إسرائيل، ﴿أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ بعد انتقامه منكم فيرد الدولة إليكم، ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ﴾ إلى إفسادكم ومعاصيكم ﴿عُدۡنَا﴾ إلى العقوبة.

قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمدا ﷺ فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ صيرنا ﴿جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ سجنًا ومحبسًا من الحصر وهو الحبس. وقال الحسن: حصيرًا أي: فراشًا، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٠ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الذي أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ محمد ﷺ وحفظه من عبث العابثين وتحريف المبطلين ﴿يَهۡدِي﴾ يدل ويرشد ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ أي: إلىٰ الطريقة التي هي أصوب، في جميع أبواب العلم والدين والأخلاق والمعاملات والترغيب والترهيب فما من شيء يصلح به العباد في الدنيا والمعاد إلا وتجد في القرآن الهداية إلىٰ أقومه وأصوبه

وأحسنه، وقيل: الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ القرآن، ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم، ﴿أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ وهو الجنة وما فيها من النعيم.

وقد تكلمت بحمد الله علىٰ هداية القرآن للتوحيد في مؤلف مستقل بعنوان "فتح الحميد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد" فلله الحمد.

﴿وَأَنَّ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ فينكرون البعث والنشور ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا.

۞ وهذا دليل علىٰ وجود النار الأنَّ ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجع.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على ماله وولده ونفسه، ﴿بِالشَّرِّ﴾ فيقول عند الغضب: اللهم العنه وأهلكه ونحوهما، ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: كدعائه ربه بالخير أن يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك، ولكن الله قد لا يستجيب بفضله.

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ**» أخرجه مسلم.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ ضجرًا لا صبر له علىٰ السراء والضراء، وهذا عام في أغلب أحواله، والعجلة مذمومة إلا في باب المسارعة إلىٰ الخيرات والمبرات، فقد حث الشرع عليها ورغب فيها.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ علامتين دالتين على وجود الله عَزَّوَجَلَّ ووحدانيته وقدرته، ﴿فَمَحَوْنَآ﴾ طمسنا ﴿ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فكانت مظلمة حيث جعله الله لباسا كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠]، وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[القصص: ٧١ - ٧٣]، ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ منيرة مضيئة، يعني يبصر بها، ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ رزقًا وخيرًا في حال عملكم.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ بجريانها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، وقت الحج ودخول رمضان والفطر والعدد وغير ذلك. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ مما يقع في العالم العلوي والسفلي ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ قدرناه ﴿تَفْصِيلًا﴾ تقديرًا محكمًا.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان. قيل: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسبه به. وقيل: يمنه وشؤمه. وكله داخل في ذلك.

والمعنى: أنه أراد بالطائر ما قضى الله عليه أنه عامله وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة سمي طائرا على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها.

وقال أبو عبيدة والقتيبي: أراد بالطائر حظه من الخير والشر من قولهم طار سهم فلأنَّ بكذا وكذا، وخص العنق من بين سائر الأعضاء لأنه موضع القلائد والأطواق وغيرهما مما يزين أو يشين، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ للإنسان، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ فيه أعماله فالمؤمن يأخذه بيمينه، والكافر بشماله، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩]، ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قد جمع فيه عمله ﴿مَنشُورًا﴾ مفتوحًا.

ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ الذي فيه أعمالك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ محاسبا. قال الحسن: لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك. قال قتادة: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا في الدنيا.

وعن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟فيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**» أخرجه الترمذي.

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ للعلم والهدىٰ ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ له ثوابها، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدىٰ، ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ لأنَّ عليها عقابه، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أي: لا تحمل حاملة حمل أخرىٰ من الآثام، فلا يؤخذ أحد بذنب أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [فاطر:١٨].

وعن أَبِي رِمْثَةَ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مَعَ أَبِي فَقَالَ: «**مَنْ هَذَا مَعَكَ؟**» قَالَ: ابْنِي، أَشْهَدُ بِهِ، قَالَ: «**أما إِنَّكَ لَا تَجْنِي عَلَيْهِ، وَلَا يَجْنِي عَلَيْكَ**» أخرجه النسائي.

ولا منافاة بين هذه الأدلة وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، لأنَّ الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم إضلال غيرهم من غير أن ينقص من آثامهم شيئا.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**» أخرجه مسلم.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ هذا إخبار عن عدله تعالىٰ، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

❁ **وذكر ابن كثير هنا مسألة أبناء المشركين.**

والصحيح: أنهم في الجنة لحديث سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**وَأما الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**». قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَأَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ**» أخرجه البخاري.

وأما ما جاء ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، عَنْ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ إِذْ خَلَقَهُمْ**» متفق عليه، فلعله قبل أن يوحىٰ إليه بشأنهم والله أعلم.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ﴾ كونًا ﴿أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ بالعذاب ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قرأ مجاهد: ﴿أمَّرنا﴾ بالتشديد أي: سلطنا شرارها فعصوا، وقرأ الحسن وقتادة ويعقوب ﴿آمرنا﴾ بالمد، أي: أكثرنا. وقرأ الباقون بالقصر، أي أمرناهم بالطاعة فعصوا.

ويحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء ويحتمل أن تكون بمعنىٰ أكثرنا، يقال: أمرهم الله أي كثرهم الله واختار أبو عبيدة قراءة العامة وقال: لأنَّ المعاني الثلاثة تجتمع فيها يعني الأمر والإمارة والكثرة. ﴿مترفيها﴾ منعميها وأغنياءها ﴿فَفَسَقُواْ﴾ عصوا ﴿فِيهَا فَحَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ العذاب، ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي: خربناها وأهلكنا من فيها.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ المكذبة.

❁ **واختلفوا في القرن:**

فقيل مائة سنة، وهو قول الأكثر، وقيل ثمانون سنة، وقيل أربعون.

﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ يخوف كفار مكة، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي أنه عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها، وهذا علىٰ التهديد والوعيد.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ

كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ
عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾
وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي
نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا
﴿٢٧﴾﴾.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ الدنيا ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ المنقضية الزائلة التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

فعن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ شَائِلَةٍ بِرِجْلِهَا، فَقَالَ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَىٰ صَاحِبِهَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ هَذِهِ عَلَىٰ صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا**» أخرجه ابن ماجه.

والأدلة علىٰ حقارتها كثيرة، ﴿عَجَّلْنَا﴾ قدمنا ﴿لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ من البسط والتقتير، ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أن نفعل به ذلك، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ﴾ في الآخرة، ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ يدخل نارها، ﴿مَذْمُومًا﴾ مطرودًا ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعدًا.

﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ الدار ﴿الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ﴾ عمل ﴿لَهَا سَعْيَهَا﴾ عملها، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط في قبول العمل ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولًا، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿كُلًّا﴾ من المؤمنين والكافرين ﴿كُلًّا﴾ نعطي من الدنيا ﴿هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ﴾ رزق ﴿رَبِّكَ﴾ أي: يرزقهم جميعًا ثم يختلف بهما الحال في المآل، فالمؤمن يكرم والكافر

يعذب ويهان، ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ﴾ رزق ﴿رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعا عن عباده فالمراد من العطاء العطاء في الدنيا وإلا فلا حظ للكفار في الآخرة.

ويدل علىٰ هذا المعنىٰ: حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ**» أخرجه ابن ماجه.

﴿انظُرْ﴾ يا محمد، ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ﴾ ميزنا ﴿بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق والعمل الصالح، والجمال وعدمه يعني: طالب العاجلة وطالب الآخرة، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أعظم ﴿دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا سواء في من قدم الفاني على الباقي.

﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ أيها الإنسان ﴿مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ من الأصنام وغيرها، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ لا تحمد ﴿مَّخْذُولًا﴾ لا توفق.

۞ وهذا دليل علىٰ خطر الكفر وضرره وشؤمه علىٰ صاحبه في الدنيا والآخرة.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أمر وأوصى، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ توحدونه، وهذا معنى لا إله إلا الله ﴿وَ﴾ أمركم ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ برا بهما وعطفا عليهما، والأدلة على برهما كثيرة منها أن الله ذكر حقهما مع حقه، ومنها: قوله تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ﴾ [الرعد: ٢١]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سألت النبي ﷺ: «أيُّ العَمَلِ أحَبُّ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ؟ قَالَ: «**الصَّلاةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا**»، قُلْتُ: ثُمَّ أي؟ قَالَ: «**بِرُّ الوَالِدَيْنِ**»، قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: «**الجِهَادُ في سبيلِ الله**». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**لاَ يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلاَّ أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيهُ فَيُعْتِقَهُ**» رواه مسلم.

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جاء رجل إِلَىٰ رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُول الله، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**أَبُوكَ**». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ. والأدلة في الباب كثيرة.

﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ﴾ الهرم ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ أحد الأبوين ﴿أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ كلا الأبوين ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ أي لا تسمعهما قولًا سيئًا، حتىٰ ولا التأفيف الذي هو أدنىٰ مراتب القول السيء وهذا أدنىٰ العقوق ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ ولا تزجرهما، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ حسنًا جميلًا لينا قال مجاهد: لا تسميهما ولا تكنيهما وقل لهما يا أبتاه يا أماه. وقال مجاهد: في هذه الآية أيضًا إذا بلغا عندك من الكبر ما يبولأنَّ فلا تتقذرهما ولا تقل لهما أف حين تميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيرًا.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ألن جانبك لهما واخضع لهما. ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ من الشفقة، ﴿وَقُل﴾ في دعائك ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ تجاوز عنهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ أراد إذا كانا مسلمين، وأما إذا كانا كافرين فالدعاء لهما ممنوع، إن ماتا علىٰ الكفر كما قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣].

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ من بر الوالدين وعقوقهما، ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أبرارا مطيعين بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين وغير ذلك، ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ جمع أواب وهو الرجاع إلىٰ الخير بعد المعصية، وقيل هم المسبحون، دليله قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وقيل: هم المصلون مطلقا وقيل: هم الذين يصلون صلاة الضحىٰ، لحديث زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ، رَأَىٰ قَوْمًا يُصَلُّونَ مِنَ الضُّحَىٰ، فَقَالَ: أما لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الصَّلَاةَ فِي غَيْرِ هَذِهِ السَّاعَةِ أَفْضَلُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفِصَالُ**» أخرجه مسلم. ﴿غَفُورٗا﴾ متجاوزًا.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ يعني صلة الرحم، وأراد به قرابة الإنسان، وعليه الأكثرون، وعن علي بن الحسين: أراد به قرابة الرسول ﷺ.

والصحيح الأول، وقرابة رسول الله ﷺ الصالحين داخلة في الآية بالعموم، وأما الرافضة ومن إليهم فلا حظ لهم في حق، حيث مرقوا من دين الله عَزَّوَجَلَّ وحكمهم حكم الزنادقة والمنافقين، ويعرف فساد حالهم من القراءة في كتب العقائد والمقالات.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ الفقير ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الضارب في الأرض يحتاج إلىٰ نفقة ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ تسرف في النفقة ﴿تَبْذِيرًا﴾ أي: لا تنفق مالك في المعصية، وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال: إنفاق المال في غير حقه.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ﴾ المسرفين ﴿كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: أولياءهم، والعرب تقول لكل ملازم سنة قوم هو أخوهم. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ جحودا لنعمه، وحال المؤمن ضد هذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وفي المسند عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: أَتَىٰ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي ذُو مَالٍ كَثِيرٍ، وَذُو أَهْلٍ وَوَلَدٍ، وَحَاضِرَةٍ، فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ أُنْفِقُ؟ وَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ، فَإِنَّهَا طُهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ، وَتَصِلُ أَقْرِبَاءَكَ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ، وَالْجَارِ، وَالْمِسْكِينِ**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَقْلِلْ لِي، قَالَ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ فَقَالَ: حَسْبِي يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا أَدَّيْتُ الزَّكَاةَ إِلَىٰ رَسُولِكَ، فَقَدْ بَرِئْتُ مِنْهَا إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ، إِذَا أَدَّيْتَهَا إِلَىٰ رَسُولِي، فَقَدْ بَرِئْتَ مِنْهَا، فَلَكَ أَجْرُهَا، وَإِثْمُهَا عَلَىٰ مَنْ بَدَّلَهَا**» وسنده صحيح.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ

كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾، وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم، ﴿ابْتِغَاءَ﴾ طلب ﴿رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ تنتظر رزق الله أن يأتيك، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ لينًا عدهم وعدًا جميلًا. تقول إذا جاء شيء سنعطيكم ونحوه.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ يعني: ولا تمسك يدك عن النفقة في الحق كالمغلولة يده لا يقدر على مدها، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ بالعطاء، ﴿كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فتعطي جميع ما عندك، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ يلومك سائلوك بالإمساك إذا لم تعطهم، ويلومك الناس إن أذهبت جميع المال ﴿مَّحْسُورًا﴾ متحسرًا نادمًا منقطعا لا شيء عندك تنفقه نادما على ما فرط منك.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ مَثَلُ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، إِذَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ، حَتَّىٰ تُعَفِّيَ أَثَرَهُ، وَإِذَا هَمَّ الْبَخِيلُ بِصَدَقَةٍ تَقَلَّصَتْ عَلَيْهِ، وَانْضَمَّتْ يَدَاهُ إِلَىٰ تَرَاقِيهِ، وَانْقَبَضَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ إِلَىٰ صَاحِبَتِهَا**» قَالَ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**فَيَجْهَدُ أَنْ يُوَسِّعَهَا فَلَا يَسْتَطِيعُ**» متفق عليه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ﴾ يوسع ﴿الرِّزْقَ﴾ العطاء ﴿لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقتر ويضيق، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ عالمًا ﴿بَصِيرًا﴾ في جميع شأنهم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ فقر، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة فنهوا عنه، وأخبروا أن رزقهم ورزق أولادهم على الله تعالى، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا﴾ إثمًا ﴿كَبِيرًا﴾ عظيما، فالوأد من كبائر الذنوب وعظيم الآثام.

فعن عَبْدُ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨]» متفق عليه.

❁ ويحسن التنبيه هنا إلى مسألة الإجهاض، وهو إنزال الجنين من بطن أمه قبل الولادة، وقد توسع الناس فيه لأدنى الأسباب.

والصحيح: المنع منه سواء كان قبل نفخ الروح أو بعده، فأما إن كان بعد النفخ فهو شبه الوأد والقتل، والله المستعان.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ ذنبًا عظيمًا ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس الطريق مسلكًا.

وقد أخرج أحمد عَنْ أَبِي أمامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ.

فَقَالَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا. قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟.قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ.قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟.

قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ.

قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟. قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ.

قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟.قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ.

قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟. قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ.

قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ. وَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ.

قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ».

وقد جاء في الوعيد فيه حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الحاكم: «ثُمَّ انْطَلِقَا بِي، فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدِّ شَيْءٍ انْتِفَاخًا، وَأَنْتَنِهِ رِيحًا، وَأَسْوَئِهِ مَنْظَرًا، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي».

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ﴾ المعصومة ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهي نفس المسلم والمعاهد والمستأمن ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وحقها: ما جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل كفر بعد إيمانه أو زنى بعد إحصانه أو قتل نفسا بغير نفس فيقتل بها**» متفق عليه، وقد ذكرنا بقية من يجوز قتلهم في تفسير سورة الأنعام.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ من عاقلته ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: قوة ولاية علىٰ القاتل بالقتل، وسلطانه أنه يتخير فإن شاء استقاد منه وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا عنه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ: إما أَنْ يُفْدَىٰ، وَإما أَنْ يُقْتَلَ**» متفق عليه.

﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ لا يقتل غير القاتل، ولا يمثل بالمقتول ﴿إِنَّهُۥ﴾ ولي المقتول ﴿كَانَ مَنصُورًا﴾ ما لم يسرف علىٰ قاتله، باستيفاء القصاص منه أو الدية. وعن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ ثَلاَثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**» أخرجه البخاري.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ﴾ الذي مات أبوه في الصغر ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالإتيان بما أمر الله به والأنتهاء عما نهى الله عنه كتنميتها ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ رشده ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ الذي يلتزم الإنسان به على نفسه، ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ كان مطلوبًا. وقيل: العهد يسأل عن صاحب العهد، فيقال: فيما نقضت كالموءودة تسأل فيم قتلت.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» غَيْرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ سُفْيَانَ: «**وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ**» متفق عليه.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ في حال بيعكم المكيل ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لغيركم ﴿وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ﴾ الميزان صغيرًا كان أو كبيرًا أي: بميزان العدل. قيل هو لفظ رومي. وقيل: هو عربي مأخوذ من

القسط وهو العدل ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ الذي لا اعوجاج فيه ﴿ذَلِكَ﴾ الفعل ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾عاقبة ومآلا، وقد قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ١ - ٥]، و عَنْ سُوَيْدِ بْنِ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَلَبْتُ أَنَا وَمَخْرَفَةُ الْعَبْدِيُّ بَزًّا مِنْ هَجَرَ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ بِمِنًى، وَوَزَّانٌ يَزِنُ بِالْأَجْرِ، فَاشْتَرَى مِنَّا سَرَاوِيلَ، فَقَالَ لِلْوَزَّانِ: «**زِنْ وَأَرْجِحْ**» أخرجه النسائي.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ لا تقل وهو في اللغة اتباع الأثر، يقال: قفوت فلأنا أقفوه وقفيته وأقفيته إذا اتبعت أثره ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ حيث تقول: رأيت ولم تره وسمعت ولم تسمعه وعلمت ولم تعلمه. وقال مجاهد: لا ترم أحدا بما ليس لك به علم.

قال القتيبي: لا تتبعه بالحدس والظن.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ عن القول بلا علم ﴿مَسْـُٔولًا﴾ يوم القيامة، وبهذا تعلم أن الكلام في الجرح والتعديل خطير ويحتاج من المتكلم إلىٰ علم وبينة وورع ومعرفة بأسباب ذلك، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي بطرًا وكبرًا وخيلاء، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ﴾ تقطع ﴿الْأَرْضَ﴾ بكبرك حتىٰ تبلغ آخرها، ﴿وَلَن تَبْلُغَ﴾ توازي ﴿ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ لا تقدر أن تطال الجبال وتساويها بكبرك، وقد قال الله مخبرًا عن قول لقمان لولده: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان: ١٩].

وعن ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلَاءِ، خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» أخرجه البخاري.

وعن ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**» أخرجه أحمد.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم ذكره والتحذير منه من قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ أي: سيئ ما عددنا عليك من الخصال؛ لأنَّ فيما تقدم أمورًا حسنة كقوله:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ﴾، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ وغير ذلك، وقرأ الآخرون ﴿سَيِّئَةً﴾ منصوبة منونة يعني: كل الذي ذكرنا من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ﴾ إلى هذا الموضع سيئة لا حسنة فيه، إذ الكل يرجع إلى المنهي عنه دون غيره، ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ مبغوضًا.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرناه، ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ﴾ وكل ما أمر الله به أو نهى الله عنه فهو حكمة، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ شريكا لله عَزَّوَجَلَّ والخطاب للنبي ﷺ في هذه الآيات والمراد منه الأمة، ﴿فَتُلْقَىٰ﴾ تطرح ﴿فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ من نفسك ويلومك الله والخلق ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مبعدًا من كل خير.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ اختاركم ﴿رَبُّكُم﴾ فجعل لكم الصفوة ولنفسه ما ليس بصفوة، يعني اختاركم، ﴿بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ لأنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله، ﴿إِنَّكُمْ﴾ بقولكم هذا القبيح ﴿لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ سيئًا إذ تصفون الله بالنقص والعيب، يخاطب مشركي مكة، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ﴾ من العبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والإعلام، ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ليتذكروا ويتعظوا، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تصريفنا وتذكيرنا وتكريرنا، ﴿إِلاَّ نُفُورًا﴾ ذهابًا وتباعدًا عن الحق.

﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين، ﴿قُل لَّوْ كَانَ﴾ أي مع الله ﴿آلِهَةٌ﴾ شركاء ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ وهم الكافرون، ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا﴾ لطلبوا يعني الآلهة ﴿إِلَى ذِي﴾ صاحب ﴿الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ليقاتلونه بالمغالبة والقهر ليزيلوا ملكه، كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض. وقيل: معناه لطلبوا إلى ذي العرش سبيلا بالتقرب إليه. قال قتادة: لعرفوا الله بفضله وابتغوا ما يقربهم إليه. والأول أصح.

ثم نزه نفسه فقال عز من قائل: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشركاء، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ لكماله وعظمته وتفرده.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ تقدس له ﴿السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ من المخلوقات إما بلسان الحال أو المقال أو بهما، ﴿وَإِن﴾ ما ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ من المخلوقات ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ لكمال صفاته، وتنزهه عن كل نقص وعيب، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لأنها بخلاف لغتكم، قال بعضهم: تسبح السموات والأرض والجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء ما دامت تدل بلطيف تركيبها وعجيب هيئتها على خالقها، فيصير ذلك بمنزلة التسبيح منها وقال بعضهم: تسبيحهم على ظاهره لقوله تعالى ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ بعباده فلا يعاجلهم بالعقوبة ﴿غَفُورًا﴾ متجاوز عن ذنوبهم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ يحجب قلوبهم عن فهمه والأنتفاع به، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ لئلا يفقهوه، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقلًا لئلا يسمعوه، ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ يعني إذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه، ﴿وَلَّوْا﴾ رجعوا وذهبوا ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ جمع نافر، كناية عن إعراضهم كما قال تعالى ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧].

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ يطلبون سماعه، ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وأنت تقرأ القرآن، ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ يتناجون في أمرك. وقيل: ذو نجوى، فبعضهم يقول: هو مجنون، وبعضهم

يقول: كاهن، وبعضهم يقول: ساحر، وبعضهم يقول: شاعر. ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون ﴿إِن﴾ ما ﴿تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ مطبوبًا.

وقال مجاهد: مخدوعًا. وقيل: مصروفًا عن الحق.

﴿انظُرْ﴾ يا محمد، ﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ الأشباه، قالوا: شاعر وساحر وكاهن ومجنون، ﴿فَضَلُّواْ﴾ فحاروا وحادوا، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وصولًا إلى طريق الحق.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ معارضين للبعث ومنكرين له ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ بعد الموت. قال مجاهد: ترابًا. وقيل: حطاما. والرفات: كل ما يكسر ويبلى من كل شيء ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ مخرجون من قبورنا ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ مع أن البدأة لو كانوا يفقهون أشد من الإعادة، فمن قدر عليها لم يعجز عن إعادتها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٤٠].

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ في الشدة والقوة، وهما أشد امتناعًا من العظام، والرفات، ﴿أَوْ﴾ كونوا ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي﴾ السماء والأرض والجبال.

وقال مجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين: إنه الموت، فإنه ليس في نفس ابن آدم شيء أكبر من الموت، أي: ولو كنتم الموت بعينه لأمتناكم وبعثناكم.

والأول أظهر.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ من يبعثنا بعد الموت، ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ومن قدر علىٰ الأنشاء قدر علىٰ الإعادة، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ يحركون ﴿إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ إذا قلت لهم ذلك مستهزئين، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: البعث والقيامة، ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ أي: هو قريب، لأنَّ عسىٰ من الله واجب، نظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وسيكون هذا ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للخروج من قبوركم إلىٰ موقف القيامة، كقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، وقال تعالىٰ ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج:٤٣-٤٤]، ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته، وقيل: مقرين بأنه خالقهم وباعثهم ويحمدونه حين لا ينفعهم الحمد. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في الدنيا أو في القبور، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ [طه: ١٠٣].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ المؤمنين ﴿يَقُولُوا۟﴾ للكافرين ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولا يكافئوهم بسفههم، وكان هذا قبل الإذن في الجهاد والقتال. وقيل: أمر الله المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا التي هي أحسن وقيل: الأحسن: كلمة الإخلاص لا إله إلا الله. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفسد ويلقي العداوة بينهم.

فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**» أخرجه مسلم، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهر العداوة شديد التربص حريص علىٰ إفساده.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ يوفقكم فتؤمنوا، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ يميتكم على الشرك فتعذبوا، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حفيظًا وكفيلًا. قيل: نسختها آية القتال.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فجعلهم مختلفين في صورهم وأخلاقهم وأحوالهم، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والمعنىٰ: جعل أهل السموات والأرض مختلفين كما فضل بعض النبيين علىٰ بعض، كما قال تعالىٰ: ﴿الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وكان محمد ﷺ هو أفضلهم وسيده، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» متفق عليه.

❁ وأما جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» متفق عليه، **فقد ذهب العلماء إلى أوجه في بيانه:**

- **الأول:** أنه قال ذلك علىٰ سبيل التواضع.
- **الثاني:** أنه قاله قبل أن يوحىٰ إليه أنه أفضلهم.
- **الثالث:** أن المنع من المفاضلة إذا كانت تفضي إلىٰ الاحتقار لغيره، والله أعلم.

﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ قال قتادة: اتخذ الله إبراهيم خليلا وكلم الله موسىٰ تكليما وقال لعيسىٰ كن فيكون، وآتىٰ سليمان ملكا عظيما لا ينبغي لأحد من بعده، وآتىٰ داود زبورا والزبور كتاب علمه الله داود كله دعاء وتمجيد وثناء علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿قُلِ﴾ يا محمد للمشركين ﴿ادْعُوا﴾ دعاء مسألة ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها آلهة وعبدتموها ﴿مِّن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ﴾ رفع ودفع ﴿الضُّرِّ﴾ القحط والجوع، ﴿عَنكُمْ وَلَا﴾ يملكون ﴿تَحْوِيلًا﴾ له إلىٰ غيركم أو تحويل الحال من العسر إلىٰ اليسر.

﴿أُولَـٰئِكَ﴾ الآلهة ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ وهم عيسىٰ وأمه وعزير والملائكة، والشمس والقمر والنجوم، ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ القربة. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ معناه ينظرون أي الأعمال التي تقربهم إلىٰ الله فيتوسلون بها، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ جنته، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ ناره ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي يطلب منه الحذر.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « نزلت الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجن ولم يعلم الأنس الذين كانوا يعبدونهم بإسلامهم، فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله وأنزل هذه الآية» متفق عليه، وقرأ ابن مسعود ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ بالتاء.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وما من قرية ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ مخربوها ومهلكوا أهلها ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بأنواع العذاب من القتل والأسر والقحط إذا كفروا وعصوا، ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ العذاب ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ، ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبًا.

وعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ: مَا كَانَتْ وَصِيَّةُ أَبِيكَ عِنْدَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: دَعَانِي أَبِي فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، اتَّقِ اللهَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّقِيَ اللهَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنْ مُتَّ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ القَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ الأَبَدِ**» أخرجه أبو داود.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ التي اقترحها أهل مكة ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الأمم السابقة.

قال ابن عباس: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ رسوله ﷺ: إن شئت أن أستأني بهم فعلت، وإن شئت أن أوتيهم ما سألوا فعلت، فإن لم يؤمنوا أهلكهم كما أهلكت من كان قبلهم، فقال النبي ﷺ: «**لا بل تستأني بهم**» أخرجه أحمد.

فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ التي سألها كفار قريش ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ فأهلكناهم، فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم، لأنَّ من شأننا في الأمم إذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم، وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة في العذاب، كما قال جل ذكره: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] ثم قال: ﴿وَآتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿ثَمُودَ﴾ قوم صالح ﴿النَّاقَةَ﴾ آية لهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ مضيئة بينة، ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي: جحدوا بها أنها من عند الله كما قال: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] أي: يجحدون، ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: العبر والدلالات، ﴿إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ للعباد ليؤمنوا. ومن تلك الآيات الكسوف.

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي، فَأَطَالَ الْقِيَامَ جِدًّا، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ جِدًّا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ جِدًّا، وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ جِدًّا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ قَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبِّرُوا، وَادْعُوا اللهَ وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ إِنْ مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**». وَفِي رِوَايَةِ مَالِكٍ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ**» متفق عليه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ﴾ علمًا وحكمًا ﴿بِالنَّاسِ﴾ أي: هم في قبضته لا يقدرون على الخروج عن مشيئته فهو حافظك ومانعك منهم، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ عيانا ليلة الإسراء ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ لأهل مكة فالأكثرون على أن المراد منه ما رأى النبي ﷺ ليلة المعراج من العجائب والآيات.

قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها النبي ﷺ، أخرجه البخاري، ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ أي شجرة الزقوم.

والفتنة في الشجرة الملعونة من وجهين:

- أحدهما: أن أبا جهل قال: إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنه ينبت فيها شجرة، وتعلمون أن النار تحرق الشجرة.

- والثاني: أن عبد الله بن الزبعرىٰ قال: إن محمدا يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر، وقال أبو جهل: يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بالتمر والزبد، فقال: يا قوم تزقموا فإن هذا ما يخوفكم به محمد، فوصفها الله تعالىٰ في الصافات بقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات:٦٢-٦٨].

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف، ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ أي: تمردا وعتوا عظيما بسبب كبرهم وعنادهم ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾ حين خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ﴾ معارضًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي: خلقته من طين.

﴿قَالَ﴾ يعني إبليس، ﴿قَالَ﴾ أي أخبرني، ﴿هَٰذَا﴾ آدم ﴿ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: فضلته علي: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أمهلتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: لأستأصلنهم

بالإضلال، وهو من قول العرب حنك الدابة يحنك إذا شد في حنكها الأسفل حبلا يقودها، أي لأقودنهم كيف شئت. وقيل: لأستولين عليهم بالإغواء، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني المعصومين الذين استثناهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

ولذلك كان شأن الشيطان ما أخرجه مسلم عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللُّقْمَةُ، فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى، ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، فَإِذَا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ تَكُونُ الْبَرَكَةُ**».

﴿قَالَ﴾ الله ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ﴾ على طريقتك، ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: جزاؤك وجزاء أتباعك، ﴿جَزَآءً﴾ نصيبًا ﴿مَّوْفُورًا﴾ وافرا مكملا تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ويذوقون فيها سوء العذاب، ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ واستخفف، ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ أي: من ذرية آدم، ﴿بِصَوْتِكَ﴾ بالغناء والمزامير وقيل: بدعائك إلى معصية الله، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قيل: اجمع عليهم مكايدك وخيلك، قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ الربا وما كان المشركون يحرمونه من الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. ﴿وَالأَوْلَادِ﴾ قيل من الزنا، وقيل من لم يسم الله عَزَّوَجَلَّ.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا**» أخرجه البخاري.

وروي عن جعفر بن محمد أن الشيطان يقعد علىٰ ذكر الرجل فإذا لم يقل بسم الله أصاب معه امرأته وأنزل في فرجها كما ينزل الرجل والله أعلم، ﴿وَعِدْهُمْ﴾ مواعيد الغرور من أنه لا جنة ولا نار ولا بعث، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ والغرور تزيين الباطل بما يظن أنه حق.

❁ **فإن قيل: كيف ذكر الله هذه الأشياء وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ؟**

قيل: هذا علىٰ طريق التهديد، له ولمن سلك سبيله كقوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠].

ومع ذلك أعلم الله بحفظ عباده المؤمنين من مكر إبليس اللعين فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المؤمنين المخلصين ﴿لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَانٞ﴾ حجة وقوة ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ أي حافظًا ومؤيدًا ونصيرًا ﴿رَّبُّكُمُ﴾ خالقكم ومعبودكم هو ﴿ٱلَّذِي﴾ يسوق ويجري ﴿لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفينة ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ﴾ لتطلبوا ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ من رزقه، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ إذ سخر لكم سبل المعاش وغيره.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ﴾ أصابكم ﴿ٱلضُّرُّ﴾ الشدة وخوف الغرق، ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ﴾ بطل وسقط، ﴿مَن تَدۡعُونَ﴾ من الآلهة، ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلا الله فلم تجدوا مغيثًا سواه، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ﴾ أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وأخرجكم، ﴿إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ عن الإيمان والإخلاص والطاعة كفرا منكم لنعمه، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورٗا﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾ بعد ذلك، ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ﴾ يغور بكم، ﴿جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ ناحية البر وهي الأرض، ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ أي: يمطر عليكم حجارة من السماء كما أمطر على قوم لوط. وقيل: الحاصب الريح التي ترمي بالحصباء، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ مانعًا وناصرًا ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ﴾ يعني في البحر، ﴿تَارَةً﴾ مرة، ﴿أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا﴾ عاصفا ﴿مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ وهي الريح الشديدة ﴿فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ بسبب كفركم وإعراضكم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ تابع يأخذ بثأركم، ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ [التين: ٤]، ومن ذلك أنهم يغطون سوأتهم ويأكلون بالأيدي وغير الآدمي يأكل بفيه من الأرض، وميزهم بالعقل. والنطق، وتعديل القامة وامتدادها، والدواب منكبة على وجوهها، وبحسن الصورة. والرجال باللحى والنساء بالذوائب، وسخر لهم سائر الأشياء، وغير ذلك.

﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ﴾ علىٰ الدواب والسيارات والقطارات في هذه الأزمنة المتأخرة ﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾ علىٰ السفن، بل وفي الجو بالطائرات ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الحلال من لذيذ المطاعم والمشارب. ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾ رفعناهم ﴿عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ فضلوا علىٰ الخلائق كلهم فيما تقدم.

❁ **وإما مسألة تفضيلهم على الملائكة.**

فالصواب في المسألة: أن صالح البشر أفضل من الملائكة مآلًا، والملائكة أفضل حالًا، وهذا تفصيل شيخ الإسلام.

❁ **وملخص المسألة أن للعلماء فيها أربعة أقوال:**

- **الأول:** من فضل الملائكة.
- **الثاني:** من فضل صالح البشر.
- **الثالث:** الوقف.

- **الرابع**: التفصيل، وهو الأقرب، والله أعلم.

واذكر ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ مع إمامهم وقيل نبيهم. وقيل: بكتابهم الذي أنزل عليهم. وقيل: بأعمالهم. وقيل: بكتابهم الذي فيه أعمالهم، بدليل سياق الآية، ويسمى الكتاب إماما وهذا ترجيح ابن كثير، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] وقيل: بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وقيل: بمعبودهم.

وعن سعيد بن المسيب قال: كل قوم يجتمعون إلىٰ رئيسهم في الخير والشر.

وقال محمد بن كعب: (بإمامهم)، قيل: يعني بأمهاتهم.

❁ **وفيه ثلاثة أوجه من الحكمة:**

- **أحدها**: لأجل عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- **والثاني**: لشرف الحسن والحسين.
- **والثالث**: لئلا يفتضح أولاد الزنا، وهو أبعد الأقوال.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠] ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: لا ينقص من حقهم قدر فتيل، وهو الخيط الأبيض الصغير في شق نواة التمر.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا كافرًا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن الحق فلم يقبله ولم ينقد له، بل اتبع الضلالة، ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ عن سلوك سبيل الجنة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي أخطأ طريقًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٤-١٢٥].

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ قاربوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ليصرفونك ﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿لِتَفْتَرِيَ﴾ لتختلق، ﴿عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا﴾ لو فعلت ما دعوك إليه ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي:

والوك وصافوك، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ علىٰ الحق بعصمتنا لك، ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾ قاربت ﴿تَرْكَنُ﴾ تميل، ﴿إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي قريبًا من الفعل.

ولو ملت إليهم كان الأمر ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ﴾ أصبناك ﴿ضِعْفَ﴾ عذاب ﴿ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ﴾ عذاب ﴿ٱلْمَمَاتِ﴾ سمي ضعفا لتضاعف الألم فيه. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أي: ناصرا يمنعك من عذابنا، ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ يستخفونك ويزعجونك ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، حيث هم المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه حتىٰ أمره بالهجرة، فخرج بنفسه، ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ فيها ﴿خِلَٰفَكَ﴾ بعدك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مدة يسيرة، وهذه معاجلة لهم بالعقوبة، وفي الآيتين دليل علىٰ حرص الكفار ومن إليهم من أهل الضلال، علىٰ إزاغة أهل الاستقامة، إما بالشبهات والشهوات، وإما بقهرهم والتسلط عليهم، ومع ذلك يحفظ الله أولياءه، ويذل أعداءه.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن﴾ إذا كذبتهم الأمم ألا يعذبهم ما دام نبيهم بين أظهرهم، فإذا خرج نبيهم من بين أظهرهم عذبهم. ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ لطريقنا في إهلاك الظالمين ﴿تَحْوِيلًا﴾ أي تبديلًا.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لزوال الشمس وقيل لغروبها، فالدلوك الميل والشمس تميل إذا زالت وغربت، والحمل علىٰ الزوال أولىٰ القولين لكثرة القائلين به، ولأنا إذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، فيدخل فيه صلاة الظهر والعصر ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ ظهور ظلمته، وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ صلاة الفجر، ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: « **يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ** » متفق عليه.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ أي: قم بعد نومك، فالتهجد لا يكون إلا بعد النوم، وكانت صلاة الليل فريضة على النبي ﷺ، وعلى الأمة، في الابتداء كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٢]، ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخا في حق الأمة بالصلوات الخمس، وبقي الاستحباب: في قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] وبقي الوجوب في حق النبي ﷺ على قول بعض أهل العلم ﴿نَافِلَةً﴾ زيادة ﴿لَّكَ﴾ على سائر الفرائض، وذهب قوم إلى أن الوجوب صار منسوخا في حقه كما في حق الأمة، فصارت نافلة، وهو قول مجاهد وقتادة، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ ولم يقل عليك، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، وهذا أظهر والله أعلم، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ﴾ يوم القيامة وعسى من الله تعالى موجبة ﴿رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، مقام الشفاعة العظمى إذ يحمده فيه الأولون والآخرون.

❖ومن فسره بأن الجلوس علىٰ العرش فهو تفسير باطل للنصوص التي جاءت مصرحة بأنه الشفاعة، وهو تفسير الصحابة.

فعن ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: « **إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، يَا فُلَانُ اشْفَعْ، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ** » أخرجه البخاري.

وفسرها جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالشفاعة، ففي صحيح مسلم عن يزيد الفقير، قَالَ: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ، فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ، ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَىٰ النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَالِسٌ إِلَىٰ سَارِيَةٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ، مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ؟ وَاللهُ يَقُولُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ﴾ [آل عمران:١٩٢]، وَ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟ قَالَ: فَقَالَ: «**أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ** عَلَيْهِ السَّلَامُ - **يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ** -؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ**»، قَالَ: ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ، وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، - قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ - قَالَ: غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، قَالَ: - يَعْنِي - فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ، قَالَ: «**فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ الْقَرَاطِيسُ**».

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: قال مَعْبَدُ بْنُ هِلَالٍ الْعَنَزِيُّ: انْطَلَقْنَا إِلَىٰ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَتَشَفَّعْنَا بِثَابِتٍ فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي الضُّحَىٰ، فَاسْتَأْذَنَ لَنَا ثَابِتٌ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وَأَجْلَسَ ثَابِتًا مَعَهُ عَلَىٰ سَرِيرِهِ، فَقَالَ: لَهُ يَا أَبَا حَمْزَةَ، إِنَّ إِخْوَانَكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَسْأَلُونَكَ أَنْ تُحَدِّثَهُمْ حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: اشْفَعْ لِذُرِّيَّتِكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ خَلِيلُ اللهِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ، فَيُؤْتَىٰ مُوسَىٰ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ

رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيُؤْتَىٰ عِيسَىٰ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَأُوتَىٰ، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الأن، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ، أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَىٰ رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَىٰ رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ «، هَذَا حَدِيثُ أَنَسٍ الَّذِي أَنْبَأَنَا بِهِ، فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ، فَلَمَّا كُنَّا بِظَهْرِ الْجَبَّانِ، قُلْنَا: لَوْ مِلْنَا إِلَىٰ الْحَسَنِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ مُسْتَخْفٍ فِي دَارِ أَبِي خَلِيفَةَ، قَالَ: فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَقُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَا مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَبِي حَمْزَةَ، فَلَمْ نَسْمَعْ مِثْلَ حَدِيثٍ حَدَّثَنَاهُ فِي الشَّفَاعَةِ، قَالَ: هِيهِ، فَحَدَّثْنَاهُ الْحَدِيثَ، فَقَالَ: هِيهِ قُلْنَا: مَا زَادَنَا، قَالَ: قَدْ حَدَّثَنَا بِهِ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً وَهُوَ يَوْمَئِذٍ جَمِيعٌ، وَلَقَدْ تَرَكَ شَيْئًا مَا أَدْرِي أَنَسِيَ الشَّيْخُ، أَوْ كَرِهَ أَنْ يُحَدِّثَكُمْ، فَتَتَّكِلُوا، قُلْنَا لَهُ: حَدِّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء:٣٧]، مَا ذَكَرْتُ لَكُمْ هَذَا إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمُوهُ.

ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَىٰ رَبِّي فِي الرَّابِعَةِ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ لَكَ - أَوْ قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ - وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي، لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، «، قَالَ: فَأَشْهَدُ عَلَىٰ الْحَسَنِ أَنَّهُ حَدَّثَنَا بِهِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ أُرَاهُ قَالَ: قَبْلَ عِشْرِينَ سَنَةً وَهُوَ يَوْمَئِذٍ جَمِيعٌ.

والأخبار في الشفاعة متواترة كثيرة وأول من أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة.

❁ وهي أنواع:

- فمنها الشفاعة العظمىٰ: وقد اتفقت الأمة علىٰ إثباتها، ومن أدلتها حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَىٰ قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ، فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ ﷺ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَىٰ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَىٰ ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ ﷺ، فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَىٰ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ،

وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَىٰ ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الأَنبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَىٰ ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَىٰ» متفق عليه.

- ومنها الشفاعة في أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ: فعَنْ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» أخرجه الترمذي(٢٤٣٥) وغيره، وتقدم في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله .

وفي حديث أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لأنها أَعَمُّ وَأَكْفَىٰ، أَتَرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لا، وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ» أخرجه ابن ماجه.

- ومنها الشفاعة في فتح باب الجنة: فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» أخرجه مسلم.

- ومنها الشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب ولا عذاب: كما هو الحال في عكاشة ابن محصن رضيث الله عنه.

- ومنها الشفاعة في رفع درجات المؤمنين في الجنة: وهذه يثبتها المعتزلة والخوارج.

- ومنها الشفاعة في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب: عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**».

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي﴾ المدينة ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي﴾ من مكة ﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ إخراجا لا التفت بقلبي إليها ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ قوة وحجة ﴿نَّصِيرٗا﴾ تنصرني بها.

﴿وَقُلۡ﴾ عند دخول مكة ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ القرآن والإسلام، ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ الشرك والشيطان، ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ ذاهبًا.

فعن أبي معمر عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾** [سبأ: ٤٩] » متفق عليه.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ لبيان الجنس وليس للتبعيض ﴿مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ أي كله شفاء، ففيه: بيان من الضلالة والجهالة يتبين به المختلف ويتضح به المشكل ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة، وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها وشفاء لكثير من الأسقام الحسية من المس والعين والسحر، والأسقام المعنوية، كالبدعة والكفر والضلالة والحيرة والغفلة والقسوة وغير ذلك، أهم شيء أن يأخذه على طريقة السلف وفهمهم.

فعن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَهْطًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ انْطَلَقُوا فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّىٰ نَزَلُوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ قَدْ نَزَلُوا بِكُمْ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، فَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللهِ إِنِّي لَرَاقٍ، وَلَكِنْ وَاللهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّىٰ تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَىٰ قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ فَجَعَلَ يَتْفُلُ وَيَقْرَأُ: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَتَّىٰ لَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي مَا بِهِ قَلَبَةٌ، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ

عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَىٰ: لاَ تَفْعَلُوا حَتَّىٰ نَأْتِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ**» متفق عليه.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لكفرهم به ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ لأنَّ الظالم لا ينتفع به والمؤمن ينتفع به فيكون رحمة له، قال قتادة: لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضىٰ الله الذي قضىٰ شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان﴾ الكافر ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا ودعائنا، ﴿وَنَأَى﴾ تباعد ﴿بِجَانِبِهِ﴾ بنفسه، أي ترك التقرب إلىٰ الله بالدعاء. وقيل: تعاظم وتكبر، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الشدة والضر، ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ قنوطًا، وهو من الكبائر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «**أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ**» أخرجه عبد الرزاق.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿كُلٌّ﴾ منا ومنكم ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ طريقته التي اختارها لنفسه، ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ أقوم منا أو منكم ﴿سَبِيلا﴾ طريقًا فيثيبه عليها ويقبلها منه.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أي اليهود ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ﴾.

❁ واختلفوا في الروح الذي وقع السؤال عنه اختلافًا كثيرًا.

 وأولىٰ الأقاويل: أن يوكل علمه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وهو قول أهل السنة. قال عبد الله بن بريدة: إن الله لم يطلع علىٰ الروح ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ قيل: من علم ربي، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: في جنب علم الله قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ. وقيل: خطاب لليهود لأنهم كانوا يقولون: أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما أنا أمشي مع النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم في ضرب المدينة وهو يتوكأ علىٰ عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه لا يجيء فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم: لنسألنه، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت إنه يوحىٰ إليه، فقمت فلما انجلىٰ عنه فقال: « ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ » متفق عليه.

﴿وَلَئِن﴾ لام القسم ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ﴾ يعني القرآن، بأن نمحوه من صدرك ومن المصاحف، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: من يتوكل برد القرآن إليك.

وما بقاؤه في صدرك وتثبيتك عليه ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني ولكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك. ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ بالرسالة والعلم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فإن قيل كيف يذهب القرآن وهو كلام الله عَزَّوَجَلَّ؟ قيل: المراد منه محوه من المصاحف وإذهاب ما في الصدور منه.

فعن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّىٰ لَا يُدْرَىٰ مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ. وَلَيُسْرَىٰ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَىٰ فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَىٰ طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ، الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا**». **فَقَالَ لَهُ صِلَةُ مَا تُغْنِي عَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ وَلَا صِيَامٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: يَا صِلَةُ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ، ثَلَاثًا**» أخرجه ابن ماجه.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ

لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ﴾ لا يقدرون على ذلك، ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ عونًا ومظاهرًا، نزلت حين قال الكفار: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ فكذبهم الله تعالى، فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق، لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بينا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها، ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ جحودًا.

﴿وَقَالُواْ﴾ الكفار معارضة للدعوة ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لن نصدقك يا محمد، ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ مكة ﴿يَنْبُوعًا﴾ عيونًا وأنهارًا، ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بستان، ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ تشقيقًا، ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قطعًا، ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ معك ﴿قَبِيلًا﴾ فنراهم مقابلة، ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب، وأصله الزينة، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ تصعد، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ بسلم أو غيره، ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ﴾ نصدق ﴿لِرُقِيِّكَ﴾ لصعودك، ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ من السماء ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ نؤمر فيه باتباعك، ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ على سبيل التعجب والتنزيه، ﴿هَلْ﴾ ما ﴿كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ وما سألتم ليس في طوق البشر، واعلم أن الله تعالى قد أعطى النبي ﷺ من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله، فمنه القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الأصابع وما أشبهها، لكنهم كانوا متعنتين.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الأَنبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ» متفق عليه.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ الكفار ﴿أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى﴾ العلم ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ﴾ جهلًا منهم، ﴿أَبَعَثَ﴾ أرسل ﴿ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ وهلا بعث الله إلينا ملكًا.

فأجابهم الله تعالى: ﴿قُل﴾ لهم ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي﴾ بدل البشر ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ مستوطنين مقيمين، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ من جنسهم ويمكنهم مخاطبته ونحو ذلك لأنَّ القلب إلى الجنس أميل منه إلى غير الجنس.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا﴾ مطلعًا على صدقي ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أني رسوله إليكم، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ وعالما بظواهرهم وخفاياهم ﴿بَصِيرًا﴾ يبصر أفعالهم وأحوالهم.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ يوفق ويسدد ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ﴾ إلى الإسلام ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يخذل ويزيغ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ناصرًا ومعينًا ﴿مِن دُونِهِ﴾ يهدونهم، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ نجمعهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر علىٰ وجهه يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: «**إن الذي أمشاه علىٰ رجليه قادر علىٰ أن يمشيه علىٰ وجهه**» أخرجه مسلم.

﴿عُمْيًا﴾ لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ لا يتكلمون ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون، فإن قيل كيف وصفهم بأنهم عمي وبكم وصم. وقد قال: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ﴾ [الكهف: ٥٣] وقال: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] فأثبت الرؤية والكلام والسمع؟ قيل: يحشرون علىٰ ما وصفهم الله ثم تعاد إليهم هذه الأشياء، وجواب آخر: قال ابن عباس: عميا لا يرون ما يسرهم بكما لا ينطقون بحجة صمًا لا يسمعون شيئًا يسرهم. وقال الحسن: هذا حين يساقون إلىٰ الموقف إلىٰ أن يدخلوا النار. وقال مقاتل: هذا حين يقال لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، ﴿مَّأْوَاهُمْ﴾ مثواهم ومستقرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سكن لهيبها. وقيل: طفئت وقيل: كلما خبت أي أرادت أن تخبو، وهذا الأظهر لأنَّ حالهم كما قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ وقودًا، وقيل: كلما نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا فيها إلىٰ ما كانوا عليه وزيد في تسعير النار لتحرقهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم﴾ يوم القيامة ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ بعد موتنا ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

فأجابهم الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ في عظمتها وشدتها كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف:٣٣]، ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في صغرهم وضعفهم، نظيره قوله تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ وقتا لعذابهم، ﴿لَّا رَيْبَ﴾ لا شك ﴿فِيهِ﴾ أنه يأتيهم، قيل: هو الموت، وقيل: هو يوم القيامة، ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحودًا وعنادًا.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ﴾ نعمة ربي. من الرزق والمطر، ﴿إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾ لبخلتم وحبستم، ﴿خَشۡيَةَ﴾ خوف ﴿ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ والنفاد، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ أي: بخيلًا ممسكًا عن الأنفاق.

وفي ذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ، أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللهُمَّ، أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**» متفق عليه.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾.

﴿وَلَقَدۡ آتَيۡنَا﴾ أعطينا ﴿مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ أي: دلالات واضحات، فهي الآيات التسع، قال ابن عباس والضحاك: هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. وقال عكرمة وقتادة ومجاهد وعطاء: هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص الثمرات، وهي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وقد جمعها بعضهم بقوله:

عصا سنة بحر جراد وقمل ... دم ويد بعد الضفادع طوفان

﴿فَاسۡأَلۡ﴾ يا محمد، ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ مطبوبًا سحروك، وقيل: مخدوعًا. وقيل: مصروفًا عن الحق، وقال محمد بن جرير: معطىٰ علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ كقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

[النمل: ١٤-١٥]، ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هذه الآيات التسع، ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ جمع بصيرة أي حججا وأدلة على صدق ما جئت به وقرأها بعضهم برفع التاء، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ ملعونا هالكا. وقيل: مصروفا ممنوعا عن الخير.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون بعد هذه المحاججة ﴿فَأَرَادَ أَن﴾ يخرجهم، ﴿مِّنَ الأَرْضِ﴾ يعني أرض مصر، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ ونجينا موسى وقومه.

﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي من بعد هلاك فرعون، ﴿لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أرض مصر والشام، ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ يعني يوم القيامة، ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ جميعا إلى موقف القيامة.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ١٠٩ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: القرآن نزل متضمنا للحق ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ وصل إليك محفوظا محروسًا لم يشب بغيره، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا﴾ للمطيعين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصين.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾ قيل: أنزلناه نجوما لم ينزل مرة واحدة، بدليل قراءة ابن عباس: ﴿وَقُرْآنًا فَرَّقْنَاهُ﴾ بالتشديد، أي: فصلناه. وقيل: بيناه. وقال الحسن: معناه فرقنا به بين الحق والباطل. ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: على تؤدة وترسُّل في ثلاث وعشرين سنة، ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ أي شيئًا بعد شيء.

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ بالقرآن ﴿أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ هذا على طريق الوعيد والتهديد، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ قيل: هم مؤمنو أهل الكتاب وهم الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول

الله ﷺ ثم أسلموا بعد مبعثه، مثل زيد بن عمر بن نفيل وسلمان الفارسي وأبي ذر وعبد الله بن سلام وغيرهم ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ يسقطون على الأذقان، قال ابن عباس: أراد بها الوجوه، ﴿سُجَّدًا﴾ لله تعالى، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في سجودهم ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ تنزيه الله ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ ببعث محمد ﷺ ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أي: كائنا واقعا.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ -أو- أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ**» أخرجه مسلم.

﴿وَيَخِرُّونَ﴾ على الوجوه ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ يقعون ﴿يَبْكُونَ﴾ والبكاء مستحب عند قراءة القرآن، فعن عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ**» أخرجه النسائي.

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ نزول القرآن، ﴿خُشُوعًا﴾ خضوعًا لربهم، نظيره قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾ عَزَّوَجَلَّ ﴿أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ومعناه: أنهما اسمان لواحد ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ من هذين الاسمين ومن جميع أسمائه، ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الكثيرة التي لا يعلم عددها إلا هو ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ولكن بين ذلك.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، قَالَ: نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ، فَكَانَ إِذَا صَلَّىٰ بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ «**فَيَسْمَعَ الْمُشْرِكُونَ قِرَاءَتَكَ**» ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ «**عَنْ أَصْحَابِكَ أَسْمِعْهُمُ الْقُرْآنَ وَلَا تَجْهَرْ ذَلِكَ الْجَهْرَ**» ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ «**يَقُولُ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمُخَافَتَةِ**» متفق عليه، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ

﴿ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أسمعهم ولا تجهر حتىٰ يأخذوا عنك القرآن. وقال قوم: نزلت الآية في الدعاء. فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أنزل ذلك في الدعاء. أخرجه مسلم.

﴿وَقُلِ﴾ يا محمد وهو أمر للأمة ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ﴾ بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ﴿وَلَم يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ بل هو المتفرد بملكه، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ﴾ ناصر ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال مجاهد: لم يذل حتى يحتاج إلى ولي يتعزز به ولكنه اتخذهم أولياء إكراما لهم، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: وعظمه عن أن يكون له شريك أو ولي.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**» أخرجه البخاري.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير

سورة الكهف

سُورَةُ الكَهْفِ

❁ مكية، وآياتها: مائة وعشرة.

وجاء في فضلها حديث أبي الدرداء قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**».

❖ وأما ما جاء أنه: «**مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ**» أخرجه مسلم عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد شذ بها شعبة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هذه ثالث سورة من سورة القرآن افتتحها الله عَزَّوَجَلَّ بالحمد له: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ.

❁ وقد وصفه الله بالعبودية في أشرف المواطن:

- في موطن الدعوة فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩].
- وفي موطن الإسراء فقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١].
- وفي موطن الوحي فقال تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم:١٠].
- وفي موطن الامتنان بالكتاب فقال تعالىٰ: كما في هذه الآية ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن العظيم الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢]، ﴿وَلَمْ

﴿يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ أي: ليس فيه عوج ولا قصور، بل هو كتاب كما قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ﴾ أي: مستقيمًا، عدلًا، مصدقًا؛ لما بين يديه من الكتب وناسخًا لشرائعها، وليس فيه اختلاف لأنه علىٰ ما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء:٨٢]، وقيل: لم يجعله مخلوقًا، وروي عن ابن عباس في قوله: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ [الزمر:٢٨]، أي: غير مخلوق.

❁ وهذا هو الواقع أن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله غير مخلوق منه بدأ قولا وإليه يعود في آخر الزمان حيث يرفعه الله من الصدور والصحف.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ يُخوف الله عَزَّوَجَلَّ به، ﴿بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾ بطشًا وغضبًا ونقمةً، ﴿مِن لَّدُنۡهُ﴾ من عنده لمن أعرض عن ذكر الله وطاعته، ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾ الجنة، وفي الدنيا الحياة الطيبة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

﴿مَّٰكِثِينَ﴾ مقيمين: ﴿فِيهِ﴾ في النعيم ﴿أَبَدٗا﴾ دائمًا لا ينقطع ولا يُمنع، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأن الجنة: ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة:٣٣]، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق:٣٥].

﴿وَيُنذِرَ﴾ يُخوف الكفار من اليهود والنصارى وعباد الأصنام: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ [المؤمنون:٩١]، وقال مخبرًا عن الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣﴾ [الجن:٣].

فإن اتخاذ الولد يُنافي القيومية، وينافي الغنىٰ وكمال الحياة.

❁ **والذين ادعوا لله عَزَّوَجَلَّ الولد أصناف:**

١- اليهود: زعموا أن عزيرًا ابن الله.

٢- والنصارىٰ: زعموا أن المسيح ابن الله.

٣- والمشركون: حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ لهذا القول: ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ من حجة إنما قالوه بأهوائهم، وتلقوه من شياطينهم، ﴿وَلَا﴾ حجة كذلك ﴿لِّآبَآئِهِمْ﴾ الذين قالوا هذا القول من قبلهم فتلقوه عنهم، ﴿كَبُرَتْ﴾ عَظُمت: ﴿كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بزعمهم: أن لله ولدًا، ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ وزورًا وبهتًا، ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد: ﴿بَٰخِعٌ﴾ مُهْلِكَ: ﴿نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ من بعدهم، ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ القرآن، ﴿أَسَفًا﴾ حزنًا وغضبًا، بل كن كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ صيرنا، ﴿مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من النباتات ونحو ذلك: ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ زينة يلبسون من ثيابها ويأكلون من ثمارها.

قال مجاهد: أراد به الرجال خاصة وهم زينة الأرض، وقيل: أراد بهم العلماء والصلحاء، وقيل: الزينة بالنبات والأشجار والأنهار.

وهذا الأظهر.

﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾ لنختبرهم، ﴿أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ أصوب ﴿عَمَلاً﴾ وحسن العمل يكون: بالإخلاص والمتابعة.

﴿وَإِنَّا﴾ علىٰ التعظيم، ﴿وَإِنَّا﴾ مصيرون، ﴿مَا عَلَيۡهَا﴾ من الأشجار وغير ذلك من المخلوقات، ﴿صَعِيدٗا﴾ الصعيد: ما صعد علىٰ وجه الأرض، وقيل: هو التراب، ﴿جُرُزًا﴾ يابسًا أملس لا ينبت شيئًا، وهذا عند نهاية الحياة.

﴿أَمۡ﴾ بل ﴿أَمۡ﴾ يا محمد ﴿أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ﴾ الفتية الذين آووا إلىٰ الكهف: وهو الغار الذي يكون في الجبل، ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ الكتاب، ﴿كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي: يُتعجب من الآيات التي جعلها الله فيهم من أن حفظهم هذه السنوات الطويلة والأعوام المديدة في كهف ليس لهم أنيس ولا جليس، وقد ذكر العلماء آثارًا وأقوالًا في مثل هذه القصص أكثرها من الإسرائيليات؛ ولذلك نضرب عنها.

واذكر يا محمد: ﴿إِذۡ أَوَى﴾ لجئ ﴿ٱلۡفِتۡيَةُ﴾ أي: لم يكونوا شيوخًا بل كانوا شبيبة متقاربون في السن، ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ إلىٰ الغار، ﴿فَقَالُوا﴾ داعين ربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا﴾ اعطنا، ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك، ﴿رَحْمَةً﴾ بالحفظ، والكلاءة، والرزق، والثبات علىٰ الإيمان فهي كلمة عامة، ﴿وَهَيِّئۡ﴾ سخر ﴿لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا﴾ والرَشد والرُشد: هو موافقة الحق، والسلامة من الشرور والآثام، ومن الرحمة الهداية في الدين والرزق الحسن، والسلامة من المتربصين، ومن الرُشد: سلوك ما يؤدي إلىٰ رضا الله عَزَّوَجَلَّ، ومنه: السلامة مما ينوب الإنسان.

﴿فَضَرَبۡنَا﴾ النوم، ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ﴾ فلا يسمعون صوتًا ولم ينتبهوا من شيء، ﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ كثيرة، ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ من نومهم، ﴿لِنَعۡلَمَ﴾ علم وقوع ومشاهدة وإلا فإن الله بكل شيء عليم؛ ﴿أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾ الطائفتين الذين اختلفوا فيهم، ﴿أَحۡصَىٰ﴾ الإحصاء يأتي بعدة معاني: الحفظ، والإطاقة، ويأتي بمعنىٰ العقل، لكن المراد به هنا: الحفظ لأيام مكثهم، ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ في الكهف، ﴿أَمَدًا﴾ غاية وعددًا.

﴿نَحْنُ﴾ علىٰ التعظيم، ﴿نَقُصُّ﴾ نخبرك، ﴿نَبَأَهُم﴾ خبر أصحاب الكهف، ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شُبان، ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ والذي عليه أكثر أهل التفسير: أنهم آمنوا بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ إيمانًا وبصيرة.

۞ وهذا من الأدلة علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه، وهي مسألة يقررها أهل العلم في كتب أهل السنة، وإنما يخالف فيها الخوارج، والمرجئة، والمعتزلة ومن سلك مسلكهم، حيث زعموا أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، والذي عليه أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص المعصية.

﴿وَرَبَطْنَا﴾ شددنا، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالصبر والتثبيت، ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ من نومهم، ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا﴾ معترفين بفضل الله عَزَّوَجَلَّ مقرين بألوهيته لهم،﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خالق ومدبر السماوات والأرض، ﴿لَن نَّدْعُوَاْ﴾ نشرك: ﴿مِن دُونِهِ﴾ غيره من الأصنام والأوثان، ﴿إِلَٰهًا﴾ فهو الإله الحق المعبود بحق، ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ إذا دعونا غيره، ﴿شَطَطًا﴾ مجاوزة القدر، والإفراط، وهو الجور.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا﴾ إشارة إلىٰ قومهم الذين أشركوا ونددوا، ﴿اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿لَّوْلَا﴾ هلا، ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ﴾ بحجة، ﴿بَيِّنٍ﴾ ظاهر، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أظلم: ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وجعل له شريكًا، ومعينًا، ونصيرًا تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

وقال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: اعتزلوا قومهم، ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ في قراءة ابن مسعود: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ، وعلىٰ القراءة المعروفة: أنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه الأوثان، يقولون: وإذ اعتزلتموهم وجميع ما يبعدون إلا الله، فإنكم لم تعتزلوا عبادته، ﴿فَأْوُواْ﴾ الجؤوا ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ الغار، ﴿يَنشُرْ﴾ يبسط: ﴿لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ من الثبات والعون والتسديد، ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ يسهل لكم، ﴿مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ الذي

عزمتم عليهم بالفرار بدينكم، ﴿مِّرْفَقًا﴾ أي: ما يعود عليه يسركم ورفقكم، تُقرأ بالفتح وبالكسر.

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تميل، ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: جانب اليمين، ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تتركهم وتعدل عنهم فلا تصيبهم: ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جانب الشمال، ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: متسع من الكهف، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ العظيمات البينات إذ سخر الشمس لإفادتهم وعدم مضرتهم، ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ يوفق، ويعين ويسدد ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الموفق إلىٰ الحق والهدىٰ، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يزيغ، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ يرشده إلىٰ الخير ويعينه عليه ولو اجتمع من بأقطارها، كما قال النبي ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**» أخرجه الترمذي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ وهذا من أدلة الإيمان بالقدر فالهدىٰ والضلال من الله عَزَّوَجَلَّ يهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عدلًا.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ تظنهم: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ منتبهين، ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وإنما اشتبه حالهم؛ لأنهم كانوا مفتحي الأعين يتنفسون ولا يتكلمون، ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ يعني: يتحولون من علىٰ جنوبهم

حتىٰ لا تأكلهم الأرض، ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ جهة اليمين، ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ جانب الشمال، ﴿وَكَلْبُهُم﴾ الذي كان حارسًا لهم، ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ أي: جالس علىٰ باب الكهف كحالهم مُفتح العين، وهل كان نائمًا؟ الذي يظهر أن حاله كحالهم، ومن آيات الله العظيمات أنهم لم يحتاجوا في هذه المدة الطويلة التي يأتي بيانها إلىٰ طعام وشراب، ولم يتعرض لهم شيء من الدواب والهوام، ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ﴾ أشرفت: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وهم في كهفهم، ﴿لَوَلَّيْتَ﴾ مضيت، ﴿مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ هاربًا والسبب في ذلك: أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل هيئتهم كهيئة المستيقظ وجعل لهم هيبة في قلوب من يراهم، ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ خوفًا وهذا من أسباب عدم التعرض لهم، لو قُدِرَ أن أحدًا جاء إلىٰ هذا الكهف فرآهم علىٰ هذا الحال لولىٰ هاربًا منهم ولا يُريد القُرب منهم، وهذا أمر قد جعله الله عَزَّوَجَلَّ في أمة محمد ﷺ.

فعن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**» أخرجه مسلم، ويذكر العلماء في مثل هذا الموطن من أوصاف كلبهم شيئًا لا دليل عليه، ويذكرون: أنه يكون في الجنة، وهذا أمر لا دليل عليه، وإنما تلقاه الناس من الإسرائيليات.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما حفظناهم، ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أحييناهم ورددناهم، ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضًا؛ لإظهار قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: في هذ النومة، ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ لأنهم دخلوا في الشروق وقاموا في الغروب، ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالوا ذلك علىٰ سبيل الاحتياط لعلها طالت بهم النومة إذ رأوا طول شعورهم وتغير شيئًا من أبشارهم، عند ذلك: ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: بمدة لبثكم في هذا الكهف، ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟﴾ أرسلوا، ﴿أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ بشيء من الفضة؛ ليشتروا بها ما يحتاجونه ويتمولونه، ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قيل: بأنها طرسوس والله أعلم، ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ ينظر طعاما طيبًا حلالًا لا مغصوب ولا مذبوح علىٰ غير طريقة أهل الاستقامة والإسلام، ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ بشيء منه تأكلونه وتتمولونه، ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ يترفق في الطريق حتىٰ لا يُتفطن لشأنه، وهذه الكلمة هي وسط في القرآن، يقولون: اللام بعد التاء وقبل الطاء من حيث الأحرف، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ ولا يُعلمن، ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ وإن كان قريبًا حتىٰ لا يقوم عليهم الكفار.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار، ﴿إِن﴾ يعلوا ويطلعوا: ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بالحجارة، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ في دينهم مرتدين؛ لشدة العذاب والفتنة، ﴿وَلَن تُفْلِحُوا۟﴾ إذا ارتددتم، ﴿إِذًا أَبَدًا﴾ لا في دنياكم ولا في أُخراكم.

۞ وهذا دليل علىٰ قوع الردة ممن كان قد أسلم، وأن الفلاح في الإسلام كما قال النبي ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ» أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رجل: يَا مُحَمَّدُ فَأَجَابَهُ فَقَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ، قَالَ: «لَوْ قُلْتَ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ» أخرجه مسلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أخبرناك من شأنهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ أطلع الله عليهم قومهم؛ ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ أي: هؤلاء أنفسهم وكذلك قومهم، ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بإقامة الساعة، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ ولا شك وإنما يُنكر ذلك المشركون المنددون، ثم كان من شأنهم بعد أن قبضهم الله عَزَّوَجَلَّ إليه: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ يختلف قومهم في شأنهم، كلٌ يُدلي بشوره ورأيه، ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ اجعلوا عليهم حائطًا يُغيبهم من الناس فلا يُتعرض لهم، ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي: بما كان من شأنهم، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ظهروا وكانت لهم القوة، ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فبعضهم يقول: بأن الذين بنوا عليهم المسجد هم أهل الإيمان، والذين أمروا ببناء الجدار هم الكفار.

والذي استظهره ابن كثير: أن الذين أمروا ببناء المسجد عليهم هم المتغلبون بالمُلك والسلطان، وبناء المسجد علىٰ القبور قد ذمه النبي ﷺ ولعن فاعله كما في حديث عائشة

وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**لَعْنَةُ الله عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» متفق عليه.

فالشاهد: أن بناء المسجد عليهم ليس بممدوح ولا حجة لُعباد القبور الذين يستدلون بهذه الآية علىٰ جواز بناء المساجد علىٰ القبور أو اتخاذ القبور مساجد، ففي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أُولَئِكَ**»، أي: اليهود والنصارىٰ: «**إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» متفق عليه.

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**وَشِرَارُ النَّاسِ الَّذِينَ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ أَحْيَاءً، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ قُبُورَهُمْ مَسَاجِدَ**» أخرجه أحمد.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: الذين يتنازعون في شأنهم من أهل مكة وغيرهم بأن عددهم: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ﴾.

❁ قيل: ﴿رَّابِعُهُمْ﴾؛ لأنه ليس من جنسهم، وإلا لو كان من جنسهم سيقول أربعة ورابعهم كلبهم، أو خمسة وخامسهم كلبهم، ومثله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، لم يقل: إلا هو ثالثهم؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بائن من خلقه علىٰ عرشه، وهذا من باب الفائدة والنكتة العلمية.

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾ علىٰ الشك، ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي: أن هذا القول يُقال علىٰ غير دليل، وعلىٰ غير حجة وبرهان وإنما هو علىٰ الحدس والظن، ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وهذا علىٰ اليقين وهو الذي استقر عليه القول، ﴿قُل﴾ يا محمد: ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ لا يخفىٰ عليه خافية، ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ممن أطلعهم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ذلك ووافقوا الشرع، وجاء عن ابن عباس أنه كان يقول: أنا من القليل الذين أعلمهم، وذكر أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ تُجادل، ﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً﴾ جدالًا ﴿ظَاهِرًا﴾ بما أخبرك الله في القرآن لا تزد ولا تنقص، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ لا تسأل، ﴿فِيهِم﴾ في شأن أهل الكهف،

﴿مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ من أهل مكة ولا من غيرهم من أهل الكتاب؛ لأنَّ الكلام زيادة علىٰ ما في القرآن سيكون من باب الحدس والظن؛ إذ أن أمرهم كان مُعمًا حتىٰ جاء القرآن بذكرهم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

ويذكرون: أن النبي ﷺ لما سأله أهل مكة عن قصة أصحاب الكهف والرقيم، قال: سأخبركم بها ولم يقل إن شاء الله، فعاتبه الله بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾، لأنه لا علم له بما يكون.

كما في حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ**»

أخرجه البخاري.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ تريد فعله غدًا ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ بدون استثناء بل قل في كل ما عزمت عليه في المستقبل القريب أو البعيد الاستثناء وهو قوله: ﴿إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ﴾ مستثنًا ومتبركًا بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وما جاء عن ابن عباس: أن الاستثناء إلىٰ سنة، إنما يُروىٰ من طريق الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس، والأعمش لم يسمع من مجاهد إلا أحاديث يسيرة وليس هذا منها والواسطة ليث بن أبي سُليم، وهو ضعيف مدلس، فلابد أن يكون الاستثناء متصلًا بالكلام أو في حُكم الاتصال.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ بِمِائَةِ امْرَأَةٍ، تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ غُلاما يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ المَلَكُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَأَطَافَ بِهِنَّ، وَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ**

لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ أَرْجَىٰ لِحَاجَتِهِ» متفق عليه، ويكون الاستثناء علىٰ ما في المستقبل لا في الماضي.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء، لكن ليس له حُكم الاستثناء إلا إذا كان متصلًا، ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ﴾ وعسىٰ في حق الله موجبة، ﴿أَن يَهْدِيَنِ﴾ يوفقني، ﴿رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ يثبتني علىٰ طريق هو أقرب إليه وأرشد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (١٧/ ٦٤٦): «وأولىٰ القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ إذا تركت ذكره؛ لأنه أحد معاني النسيان في كلام العرب، فإن قال قائل: أفجاز للرجل أن يستثني في يمينة إذا كان معنىٰ الكلام ما ذكرت بعد مدة من حال حلفه، قيل: بل الصواب أن يستثني ولو بعد حنثه في يمينة فيقول: إن شاء الله ليخرج بقيله ذلك مما ألزمه الله في ذلك بهذه الآية، فيسقط عنه الحرج بتركه ما أمره بقيله من ذلك، فأما الكفارة فلا تسقط عنه بحال إلا أن يكون استثناؤه موصولًا بيمينه" اهـ.

﴿وَلَبِثُواْ﴾ أي: أصحاب الكهف، ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ شمسية، ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ قمرية؛ وذلك أن اليهود والنصارىٰ يحسبون سنتهم بالشمس، وأهل الإسلام يحسبون السنة بالقمر، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ الحالين.

﴿قُلِ﴾ يا محمد: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا﴾ مع أنه والله أعلم يظهر أنَّ مدة مكثهم ما تقدم؛ لكن رد العلم إلىٰ الله من الأمور المتعينة، فإن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما سُئل من أعلم أهل الأرض؟ قال: أنا، عتِب الله عليه، ﴿لَهُۥ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ما غاب، ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ فبصره محيط بجميع المبصرات، ﴿وَأَسْمِعْ﴾ به فسمعه محيط بجمع المسموعات لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ ناصر ومعين، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ القدري والكوني، وهكذا الشرعي، ﴿أَحَدًا﴾ فالأمر أمره أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾.

﴿وَاتْلُ﴾ عليهم يا محمد: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ﴾ من القرآن والوحي المنزل، ﴿لَا مُبَدِّلَ﴾ مغير، ﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾ الكونية وكذلك حُكمه الشرعي إلا أن ينسخه بشرع، كما قال تعالى: ﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة:١٠٦]، ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال ابن عباس: حرزًا، قال الحسن: مدخلًا، وقال مجاهد: ملجئًا، وقيل: معدلًا، وقيل: مهربًا وأصله من الميل، فلا مانع أن يدل على جميع المعاني.

﴿وَاصْبِرْ﴾ احبس، ﴿نَفْسَكَ﴾ يا محمد، ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ من المؤمنين كعمار، وصهيب، وبلال؛ لأنَّ الكفار طلبوا من النبي ﷺ أن يغيبهم عنهم، ﴿بِالْغَدَاةِ﴾ الصبح، ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ المساء، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يطلبون رضاه ويريدون الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ وفي الآية: إثبات صفة الوجه لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

❁ وفيها: مدح المؤمنين الموحدين، ودعوة إلىٰ ملازمة أهل الإحسان في المجالسة، والمؤانسة ونحو ذلك، لما يقع فيها من زيادة الإيمان والبر والإحسان.

﴿وَلَا تَعْدُ﴾ تُميل، ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ عن المؤمنين إلىٰ غيرهم، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أتفعل ذلك تريد زينة الحياة الدنيا، فالله عَزَّوَجَلَّ عنده المكارم العظيمة والهبات الجزيلة، ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ تطاوع في شأنهم، ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ يعني: جعل قلبه غفلًا لا يعي ولا يعقل، ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ عن طاعتنا ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في طلب الشهوات والشبهات، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ شأنه ﴿فُرُطًا﴾ ضائعًا، وقيل: ندامة، وقيل: سرفًا حيث أسرف علىٰ نفسه، والذي يظهر: أن أمره صار فرطًا كما تُفرط المسبحة لا يستقم له حال، وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ

يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

وفي صحيح مسلم (٢٤١٣) عن سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «**كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**».

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهذا الذي طلب منك البُعد عن مجالسة المؤمنين والميل إليهم، ﴿ٱلْحَقُّ﴾ القرآن والإسلام، ﴿مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ﴾ منكم: ﴿فَلْيُؤْمِن﴾ وله من الله الجزاء الأوفىٰ، ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ وله من الله العذاب الأليم، وهذا ليس علىٰ التخيير وإنما هو علىٰ التهديد، ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾ أسوارها، كالحجرة التي تطوف بالفسطاط، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾ يطلب الكفار الغوث وهم في النار، ﴿يُغَاثُوا۟﴾ يُجاب طلبهم، لكن: ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ الحار إذ أنهم في حال شدة عطش، والمهل: عكر الزيت، فإذا قُرب إليهم سقطت وجوههم، ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ شرابهم، ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ مرتفعًا، مع أنه لا رفعة في النار؛ لكن سيأتي أن الجنة وصفها الله بالمرتفق فناسب أن يجعل ذلك علىٰ هذا الحال، وقيل: المرتفق المنزلة، وقيل: المتكأ.

ولما ذكر الله حال الكافرين ثنى بحال المؤمنين، وهذا في القرآن كثير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا﴾ على التعظيم، ﴿لَا نُضِيعُ﴾ نذهب ونبطل، ﴿أَجْرَ﴾ مثوبة، ﴿مَنْ أَحْسَنَ

﴿عَمَلًا﴾ بل يحفظه الله لهم إلى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، فيجازيهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل الإيمان، ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ﴾ بساتين، ﴿عَدْنٍ﴾ إقامة لا زوال عنها، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: حليتهم؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أباح لهم الذهب والحرير في الآخرة، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وهو ما يُوضع على اليد، ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾ ما رق من الديباج، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غَلُظ من الديباج، وكله من الحرير، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن:٥٤]، فإذا كان بطائنها من استبرق فكيف بظاهرها، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ الخمائل والسرر والحجال، ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ أي: نعم الجزاء جزاؤهم، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ الجنان التي يسكنونها، ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي: مجلسًا ومقرًا.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٤٢ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝٤٣ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾.

﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ يا محمد ﴿لَهُم﴾ لهؤلاء المشركين المعارضين المنددين، ﴿مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ أحدهما مؤمن والآخر كافر، ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا﴾ أحطنا بهما، ﴿بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾ يستفيده لأكل الدواب، وربما خرج منه شيء من الثمر كالحب وغيره.

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ أعطت ما فيها من الخير والثمر، ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم﴾ تنقص: ﴿مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا﴾ أجرينا وشققنا، ﴿خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ بينهما: ﴿نَهَرٗا﴾ وفي قراءة: ﴿نُهُرًا﴾ وفي قراءة: ﴿نُهْرًا﴾.

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ لهذا الكافر، ﴿ثَمَرٞ﴾ في جنتيه، ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يجادله ويناظره مستعظمًا لنفسه متعاليًا عليه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾ سواءً من المال الصامت أو من المال العقار، ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ أكرم وأعظم، ﴿نَفَرًا﴾ قبيلة، ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ مع المؤمن، ﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ مُتعاظم، ﴿قَالَ﴾ كبرًا وعنادًا: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾ تهلك، ﴿أَبَدًا﴾ سيستمر عطاؤها وخيرها.

ثم أنكر البعث فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ وهذا أمر توارد على إنكاره أغلب المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية:٢٤]، ثم استدرك: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ رجعت، ﴿إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ كما أعطاني في الدنيا هذه الجنة سيعطيني خيرًا منها في الآخرة، وقد عُلِم أن الكافر في الآخرة في عذاب أليم وخزي عظيم.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المسلم، ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يُجادله لرده إلى الحق والهدى، ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ﴾ أي: خلق أباك آدم من تراب وهو أصل البشرية، ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ بالتزاوج بين الذكر والأنثى، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ أكملك وأتمك: ﴿رَجُلًا﴾ سويًا.

ثم بيّن المؤمن أنه على إيمان: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ الذي خلقني وأعانني، ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ﴾ أندد، ﴿بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، وهذا معنى لا إله إلا الله، فقوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ﴾ إثبات، وقوله: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ نفي، ﴿وَلَوۡلَآ﴾ هلا، ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ﴾ حديقتك

وبستانك، ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مُبركًا من أن الأمر لله إن شاء أن يقيمها أقامها، وإن شاء غير ذلك كان ذاك، ﴿لَا قُوَّةَ﴾ لك ولا تحول ولا حفظ ولا كلاءة: ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فالأمر أمره، ﴿إِن تَرَنِ﴾ إن رأيتني، ﴿أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فهو الذي أعطاك ومنعني، فعليَّ أن أصبر وعليك أن تشكر، فإن الجمع بين الصبر والشكر في الحالين من سيما المؤمنين.

فعن صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**» أخرجه مسلم.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ﴾ يعطيني، ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ ذكر جنة واحدة؛ فذكرها يُغني عن ذكر الأخرىٰ، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ علىٰ جنتك بسبب كفرك وبغيك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿حُسْبَانًا﴾ أي: طائفًا وعذابًا ونارًا، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالصاعقة، ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرض يابسة لا خير فيها، ﴿زَلَقًا﴾ تنزلق فيها الأقدام، من شدة البلة وفعلًا كم من حديقة غناء وجنة عظيمة إذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ تغيير حالها أصبحت كأرض جدباء ولا أبلغ من ذلك من أرض مأرب التي كانت فيها من الحدائق الشيء العظيم، حتىٰ ذُكِر أن المرأة تخرج بالأناء علىٰ رأسها فما تخرج من الحديقة إلا وقد امتلأ بأنواع الثمار والفواكه، ثم دمدم الله عليهم بسيل العرِم، وصارت صحراء قاحلة ليس فيها إلا الشيء اليسير من السدر وقليل من الإثل ونحو ذلك.

﴿أَوْ﴾ يُسلط الله عَزَّوَجَلَّ عليها فـ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ﴾ الذي يجري في أنهارها: ﴿غَوْرًا﴾ قد ذهب وولىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك:٣٠]، أي: بعيد المنال، وبعيد الوصول إليه، ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ ولا يقول قائل: قد نطلبه بالآلات الحديثة، ربما تطلبه ولا تجده، أو ربما كان مالحًا لا يستفيد منه النبات، فالأمر إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في إصلاح حالها.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: العذاب الذي أحرقها، ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ ندمًا وحسرةً، ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ ليس عليها فقط، بل ويتألم على ما أخرج من المال في إصلاحها، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة، ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ على سقفها، فلعها كانت من الكرم والعنب، فحين وقع لها ما وقع تساقطت أخشابها التي تحملها فأصبحت خاوية، ﴿وَيَقُولُ﴾ عند ذلك: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ لكن هيهات ساعة مندم، كما فعل أصحاب الجنة ندموا بعد فوات الأوان كما قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:١٧-٢٨].

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ﴾ جماعة، ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ يمنعونه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ لأنه كافر ومثله لا يؤيد، وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ هو الخصم فمن ذا الذي ينتصر، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ [الإسراء: ٢٢].

﴿هُنَالِكَ﴾ يعني: يوم القيامة، ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ أي: النصرة، وإذا قيل: (الوِلاية) بمعنى: المُلك، ﴿لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ على الكسر: الحقِّ اسم لله عَزَّوَجَلَّ ووصف له، وعلى الرفع، الولاية الحقة والنصرة الحقة تكون من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾ أفضل جزاءً لأهل طاعته، ﴿وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ عاقبة فتكون عاقبته خير عاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور:٥٥]، فعاقبتهم في الدنيا: النصر والتمكين والعز والعلو، وعاقبتهم في الآخرة: الجنة، وهذا وعد الله عَزَّوَجَلَّ لهذه الأمة.

وفي حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ**» أخرجه أحمد (٢١٢٢٠).

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمد: ﴿لَهُم﴾ لكفار قريش، ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في تغيرها وسرعة زوالها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المطر، ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ عُشبها وعلفها، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابسًا متكسرًا متفتتًا، ﴿تَذْرُوهُ﴾ تحمله ﴿ٱلرِّيَٰحُ﴾ وتحركه وتُذهبه وتنسفه فلا يستقر ولا يبقى، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ لا يُعجزه شيء فإنه قادر، والمعنى: أن الحياة الدنيا بما فيها من الزينة والزخارف كمثل الأرض الخضراء اليانعة الجميلة، فبينما هي على هذا الحال أنزل الله عَزَّوَجَلَّ مطرًا كثيرًا فأغرق المزرعة، وأذهب خضرتها، وأحال ثمرتها، وبدد خيرها كما هو الحال مع الطوفان والأعاصير تأتي على المزارع فتحيلها لا شيء، فهكذا الحياة الدنيا بينما هي عامرة تصبح خرابًا لا تفيد ولا ينتفع بها.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ ممتنًا على عباده: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٤-١٥]،

فالمال والبنون زينة وبهجة في الحياة الدنيا للصالح والطالح، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ من الصلوات والتسبيحات والتحميدات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أجرًا، ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ما يؤمله الإنسان في ذلك اليوم من الأجر والمثوبة.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإنسان انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عَمَلٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» أخرجه مسلم.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَىٰ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَىٰ عَمَلُهُ**» أخرجه مسلم.

وعن أبي برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ، عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَشَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ**» أخرجه الترمذي.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ**».

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا محمد: ﴿يَوْمَ﴾ القيامة حين ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ﴾ الثابتة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣].

❁ ولها أحوال:

- الحالة الأولىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨].

- الحالة الثانية: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣]، من أماكنها.

- الحالة الثالثة: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات:١٠]، وبُدلت أجزاؤها.

- الحالة الرابعة: تُرىٰ الجبال كالسراب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

الحالة الخامسة: تُصبح الأرض مبسوطة لا أثر فيها لشيء ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧]، وعن سهل بن سعد قال رسول الله ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لِأَحَدٍ**» أخرجه مسلم.

﴿وَتَرَى الأَرْضَ﴾ يوم القيامة، ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرة لا يسترها شيء، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: جميع المُكلفين بل وجميع المخلوقات، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ لم نترك، ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ لا يفوتنا منهم أحد ويُجازون علىٰ أعمالهم، وحشرهم يكون للحساب، والعذاب للكافرين، والنعيم للمؤمنين، وهو يوم شديدة أهواله، كثيرة أحواله نسأل الله السلامة.

﴿وَعُرِضُواْ﴾ في ذلك اليوم، ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ صفوفًا وأفواجًا، ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ يا معاشر المُكلفين من الجن والأنس والشياطين، ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حفاة عرة غرلا بهما، كما قال النبي ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»، وفي رواية: «**بُهْمًا**»، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، «**وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ**» متفق عليه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ ظننتم وشككتم، ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وهو القيامة والبعث والنشور، فخاب زعمكم وظنكم.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ ثَلَاثِ طَرَائِقَ، رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَىٰ بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَىٰ بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَىٰ بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَىٰ بَعِيرٍ،**

وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ تَبِيتُ مَعَهُمْ، حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا» متفق عليه.

﴿وَوُضِعَ﴾ في ذلك اليوم، ﴿ٱلْكِتَابُ﴾ أُفرد ويفيد العموم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥]، وأيضًا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩]، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عند ذلك، ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين، ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ مما عملوه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وفي حديث البطاقة عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُؤْتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَجُلٍ إِلَىٰ الْمِيزَانِ، وَيُؤْتَىٰ بِتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فِيهَا خَطَايَاهُ وَذُنُوبُهُ، فَتُوضَعُ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، ثُمَّ يُخْرَجُ بِطَاقَةٌ بِقَدْرِ أُنْمُلَةٍ فِيهَا: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَتُوضَعُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَىٰ، فَتَرْجَحُ بِخَطَايَاهُ وَذُنُوبِهِ» أخرجه الترمذي.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند ذلك: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ يا ويلنا، ﴿مَالِ﴾ ما شأن ﴿هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ﴾ يترك ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ حفظها، ﴿وَوَجَدُوا۟﴾ في ذلك الكتاب، ﴿مَا عَمِلُوا۟﴾ من الأعمال، أو فعلوا من الأفعال، أو قالوا من الأقوال، ﴿حَاضِرًا﴾ مكتوبًا مثبتًا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: لا ينقص ثواب أحد عمل خيرًا ولا يزيد في إثم أحد عمل شرًا، وإنما يُجازىٰ الناس بأعمالهم، ويكافئ المؤمن بالمضاعفة كرمًا ومنة وفضلًا فهو الشكور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر: ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ حين خلق الله آدم، ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ كرامةً له؛ لما فضله الله به من العلم، ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ جميعهم، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال بعضهم: كان من الملائكة من فصيل الجن.

والصحيح: أن الاستثناء هنا منقطع، فإبليس ليس من الملائكة.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**» أخرجه مسلم.

﴿فَفَسَقَ﴾ أي: خرج من الطاعة، ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ عن طاعة ربه، حيث أمره بالسجود، فأبىٰ مستكبرًا ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ يا معاشر الكفار والمنافقين والمعرضين، ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أبناءه، ومن هذه الآية قد يُستدل علىٰ أن إبليس أبو الجن، وذهب بعضهم؛ إلىٰ أنه من الجن وليس بأبيهم: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ نصراء، ﴿مِن دُونِي﴾ من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ يتربصون بكم ويسعون في إغوائكم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ بئس من استبدل طاعة الله بطاعة الشيطان، فالشيطان حريص علىٰ إغواء الإنسان، وعلىٰ إذلاله، وعلىٰ إفساده، ولا يتركه حتىٰ في الصلاة.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِذَا نُودِيَ بِالْأَذَانِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ الْأَذَانَ، فَإِذَا قُضِيَ الْأَذَانُ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوِّبَ بِهَا أَدْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ يَخْطُرُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّىٰ يَظَلَّ الرَّجُلُ إِنْ يَدْرِي كَمْ صَلَّىٰ، فَإِذَا لَمْ يَدْرِ أَحَدُكُمْ كَمْ صَلَّىٰ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ**» متفق عليه.

ويشغله عن الذِكر، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَلَّتَانِ مَنْ حَافَظَ عَلَيْهِمَا، أَدْخَلَتَاهُ الْجَنَّةَ، وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ**.

قَالُوا: وَمَا هُمَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَنْ تَحْمَدَ اللهَ وَتُكَبِّرَهُ وَتُسَبِّحَهُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشْرًا، عَشْرًا، وَإِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ مَضْجَعِكَ تُسَبِّحُ اللهَ وَتُكَبِّرُهُ وَتَحْمَدُهُ مِائَةَ مَرَّةٍ، فَتِلْكَ

خَمْسُونَ وَمِائَتَانِ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفَانِ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ، وَخَمْسَ مِائَةِ سَيِّئَةٍ؟ .

قَالُوا: كَيْفَ مَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؟.

قَالَ: « يَجِيءُ أَحَدَكُمُ الشَّيْطَانُ فِي صَلَاتِهِ، فَيُذَكِّرُهُ حَاجَةَ كَذَا وَكَذَا، فَلَا يَقُولُهَا، وَيَأْتِيهِ عِنْدَ مَنَامِهِ، فَيُنَوِّمُهُ، فَلَا يَقُولُهَا .

قَالَ: وَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْقِدُهُنَّ بِيَدِهِ» أخرجه أحمد.

ويقول الله تعالىٰ وهؤلاء الذين عبدتموهم من دوني عبيدًا أمثالكم، ﴿مَّآ أَشۡهَدۡتُهُمۡ﴾ أي: اطلتعهم، ﴿خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ فأستعين بهم علىٰ خلقها وأشاورهم فيها، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ أي: الشياطين أنصارًا وأعوانًا، بل هو الغني الحميد لا يحتاج إلىٰ معين ولا إلىٰ ظهير ولا نصير.

﴿وَ﴾ اذكر، ﴿يَوۡمَ﴾ القيامة حين ﴿يَقُولُ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾ الأصنام، ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ أنهم شركائي، ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ أي: الكفار استغاثوا بهم، ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ لم يجيبوهم ولم ينصروهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٢]، ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ صيرنا، ﴿بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾ مهلكًا، قيل: وادي في جنهم والله أعلم.

﴿وَرَءَا﴾ في ذلك اليوم، ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ قد أُزلفت وقُربت، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا» أخرجه مسلم، ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ استيقنوا، ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ واقعون فيها وداخلوها، ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ معدلًا ومهربًا؛ لأنها أحاطت بهم من كل جانب.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بيّنا، ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الكريم الذي أُنزل على محمد ﷺ، ﴿لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ من الأمثال المضروبة؛ ليتذكروا ويتعظوا، ومع ذلك لم يستجب أكثرهم؛ والسبب في ذلك: ﴿وَكَانَ الإنسان﴾ جنس الإنسان ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ خصومة بالباطل.

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة ليلًا فقال: «**أَلاَ تُصَلِّيَانِ؟**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾

متفق عليه.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا﴾ يقروا بربهم وينقادوا لنبيهم، ﴿إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى﴾ القرآن الكريم والوحي المبين، ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ يتوبوا إليه من ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ تحل بهم ﴿سُنَّةُ﴾ طريقة الله في إهلاك ﴿الأَوَّلِينَ﴾ الكافرين والدمدمة عليهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المهلك المستأصل ﴿قُبُلاً﴾ مواجهة فيرونه، وعند ذلك لا يستطيعون رجعةً ولا يجدون نصرة.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ مخوفين للكافرين، ﴿وَيُجَادِلُ﴾ يُخاصم، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ من قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤]، وقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، وما أشبه ذلك مثل كقولهم: ساحر وكاهن، وهذا الصنيع منهم: ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾ ليبطلوا، ﴿بِهِ الْحَقَّ﴾ الذي أوحاه الله وأنزله، ﴿وَاتَّخَذُواْ آيَاتِي﴾ الشرعية، ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ خُيفوا به، ﴿هُزُوًا﴾ استهزاءً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ولا ﴿أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الشرعية ودُعِيَّ إليها، ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ تولى عنها، ﴿وَنَسِيَ﴾ ترك، ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الباطل والأعمال السيئات، أو أن النسيان على ظاهره فيكون قد نَسيَّ ذنوبه ومعاصيه التي قدمها، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ صيرنا، ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية وأغلفة، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ هذا القرآن ويعلموه، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ حِملًا؛ بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، فصار حالهم: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ التوحيد، ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ﴾ أو يستجيبوا، ﴿إِذًا أَبَدًا﴾ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة:٧]، فلا يمكن أن تقع منهم الاستجابة، وما ختم الله عَزَّوَجَلَّ على قلوبهم إلا لعلمه بفساد حالهم وقبح فعالهم، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه ذنب عظيم.

ففي البخاري من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأما أَحَدُهُمَا: فَرَأَىٰ فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأما الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأما الثَّالِثُ: فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أما أَحَدُهُمْ فَأَوَىٰ إِلَىٰ اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وأما الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأما الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**».

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد، ﴿الْغَفُورُ﴾ الذي يستر على عباده المؤمنين، ﴿ذُو﴾ صاحب، ﴿الرَّحْمَةِ﴾.

۞ وهذا من الأدلة علىٰ أن كل اسم يتضمن صفة، إذ أن ذو الرحمة هو الرحيم، وذو القوة هو القوي، وذو العزة هو العزيز.

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ يعاقبهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب والمعاصي، ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ﴾ في الدنيا، ﴿بَل﴾ لكن الواقع أن: ﴿لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهي الساعة، ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ منجىٰ وملجأ ومخلصًا، وهذه سنة الله في الأولين والآخرين أن لا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الكافرة القريبة منكم، وهذا على التهديد لقريش، يقول: قد أهلكنا قبلهم قرى كثيرة مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دمرنا عليهم، ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ كفروا، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي: لوقت هلاكهم موعدًا، وإذا قُرئ بالضم: ﴿لُمِهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ يكون لإهلاكهم موعدًا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر ما كان من شأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع خضر عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع بن نون عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال أسير، ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ ملتقى البحرين، يقولون: لعله بحر السويس وبحر العقبة والله أعلم، ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ دهرًا طويلًا.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: ما جاء في الصحيحين عن سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا البِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَىٰ صَاحِبَ الخَضِرِ، لَيْسَ هُوَ مُوسَىٰ صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ -لم يرد أنه كافر ولكن من باب ذم المخالفة-، حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ مُوسَىٰ قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ، فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.**

قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ فَكَيْفَ لِي بِهِ.

قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَاما، وَاضْطَرَبَ الحُوتُ فِي المِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي البَحْرِ: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف:٦١]»، أي: بقي أثره في البحر لم ييبس، «**وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ**»، عقد البناء، «**فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا حَتَّىٰ إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ.**

قَالَ مُوسَىٰ: ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:٦٢]»، والغداء أول النهار، «**قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَىٰ النَّصَبَ حَتَّىٰ جَاوَزَا المَكَانَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ:** ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَىٰ وَلِفَتَاهُ عَجَبًا»، تعجبوا من نسيانهم وتعجبوا من الآية التي جعلها الله.

فَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، **انْتَهَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّىٰ ثَوْبًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ.**

فَقَالَ الخَضِرُ: وَأَنَّىٰ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ.

قَالَ: أَنَا مُوسَىٰ.

قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟.

قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا.

قَالَ: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، **يَا مُوسَىٰ إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لاَ أَعْلَمُهُ، فَقَالَ مُوسَىٰ:** ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:٧٠]، **فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ البَحْرِ فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بِالقَدُومِ.**

فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: قَوْمٌ قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾»، - والواقع أن الأمر شديد علىٰ موسىٰ لما رأىٰ رجلًا صالحًا بل في غاية الصلاح أمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يذهب إليه ويطلب العلم عنده، ثم يركب في السفينة فيكرمونه ويرحبون به، فإذا ما تمكن قلع منها لوحًا، ربما لو ركبت في سيارة وأبعدت لصقة منها لتنكر لك الناس، فكيف بلوح سفينة ربما يؤدي إلىٰ تلفها-.

«قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَكَانَتِ الأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا، قَالَ: وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي البَحْرِ نَقْرَةً.**

فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْ هَذَا البَحْرِ، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الخَضِرُ غُلاما يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ.

فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾»- يعني: عظيم، يعني: قتل النفس أعظم من الأول «﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأُولَىٰ: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ - **قَالَ: مَائِلٌ - فَقَامَ الخَضِرُ فَأَقَامَهُ بِيَدِهِ.**

فَقَالَ مُوسَىٰ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، **فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ صَبَرَ حَتَّىٰ يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»**.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: ﴿وَكَانَ أمامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا﴾ وَكَانَ يَقْرَأُ: ﴿وَأما الغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: موسى ويوشع، ﴿مَجْمَعَ﴾ ملتقى، ﴿بَيْنِهِمَا﴾ بين البحرين، ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جعله الله عَزَّوَجَلَّ آية لوجود الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ الحوت، ﴿سَبِيلَهُ﴾ طريقه، ﴿فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ يعني: صار شأنه واضحًا لا يمس شيئًا من البحر إلا يبس حتى صار صخرةً، هكذا يقول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأما ما يتعلق بذكر عين الحياة وأن خضر شرب منها فلا دليل يدل عليها من وجه يثبت مثله.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ موسى ويوشع عليهما السلام ذلك الموضع، ﴿قَالَ﴾ موسى، ﴿لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون الذي يمشي معه ويخدمه: ﴿آتِنَا﴾ اعطنا، ﴿غَدَآءَنَا﴾ وهو طعام الصبح، ﴿لَقَدْ لَقِينَا﴾ وجدنا، ﴿مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ تعبًا، فلم يجد موسى ويوشع النصب إلا بعد أن جاوزا المكان.

۞ وهذا دليل علىٰ أن الهمة يذهب معها التعب، فإذا ما انزاحت تلك الهمة يتعب من أدنىٰ شيء، فإن الدواعي تشد القوىٰ.

﴿قَالَ﴾ يوشع: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى﴾ جلسنا وبتنا عندها، ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ تركته وفقدته، ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ يعني: أنسانيه؛ لأنَّ لا أذكره، ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ الحوت، ﴿سَبِيلَهُ﴾ طريقه، ﴿فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ هذا من قول يوشع، يقول: طفر الحوت إلى البحر فاتخذ فيه مسلكًا فعجبت من ذلك عجبًا.

﴿قَالَ﴾ موسى، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي حصل من شأن الحوت، ﴿مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ نطلب، ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ رجعا، ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمَا قَصَصًا﴾ يمشيان على موضع أقدامهما حتى لا يفوتهما الطريق، ﴿قَصَصًا﴾ يقصانه قصًا.

﴿فَوَجَدَا﴾ موسى ويوشع عليهما السلام ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ﴾ وهو خضر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِرَ أَنَّهُ جَلَسَ عَلَىٰ فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ**» أخرجه البخاري (٢٤٠٢).

❁ وهل هو نبي أو رجل صالح؟ خلاف بين أهل العلم.

والصحيح: أنه نبي؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أوحىٰ إليه بما تقدم ذكره.

ويذكرون أنه حي، و يقوم هذا القول علىٰ إسرائيليات وقصص واهيات، وأحاديث ضعيفات أو موضوعات لا حقيقة لها، فلو كان حيًا للزمه المناصرة والمؤازرة للنبي ﷺ؛ وأصبح عباد القبور يدعون الخضر من دون الله إذا اشتد بهم الحال، وإذا رأوا رجلًا قد قُطعت ثيابه وحاله كالمجنون زعموا أنه الخضر، مع أن الله يقول عن محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]، فكيف بغيره.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً﴾ علمًا: ﴿مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ يعني: امتن الله عليه بعلم الباطن إلهاما؛ ونحن مطالبون أن نتعبد لله عَزَّوَجَلَّ بالعلم الموجود لا العلم المفقود، فمن زعم أنه يسعه الخروج من شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسىٰ فهو كافر كفر أكبر مُخرج من الملة، وأما من حيث الفضيلة فموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أفضل من الخضر، إذ أنه من أولي العزم من الرسل.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ عند ذلك، ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أصحبك، ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ علمك الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿رُشْدًا﴾ صوابًا وعلمًا تُرشدني به.

﴿قَالَ إِنَّكَ﴾ الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ لأنه سيرى أمورًا منكرة في نظره ولا يجوز للأنبياء السكوت على المنكرات.

ثم بيّنَ عذره بترك الصبر فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا﴾ أمر ﴿لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي: علمًا، أمَا لو علم أن قلعه للسفينة سيكون لحكمة ما غضب، ولو علم أن قتله للغلام لحكمة لما غضب.

﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ فيه الاستثناء أي: لا أخالفك فيما تأمر به، وهذا عزم منه قبل أن يرى ما رأى.

﴿قَالَ﴾ خضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ فَإِنِ﴾ لحقتني، ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ مما يقع، ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ﴾ أبين ﴿لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ خبرًا يتبين وجهه وسبب فعله.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِىٓ ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَانطَلَقَا﴾ سارا، ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: أحدث فيها خُرقًا يُعيبها ويشينها، ﴿قَالَ﴾ موسى منكرًا عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ لأنَّ خرق السفينة يؤدي إلى ذلك، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ منكرًا، والإمر في كلام العرب: الداهية.

﴿قَالَ﴾ له خضر: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ من وعدي لك ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾ تغشني وتحملني، ﴿مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ مشقة، فالعفو مطلوب منك، ﴿فَانطَلَقَا﴾ جميعًا، ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا﴾ يمشي ويلعب مع الغلمان، ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ الخضر، ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ يعني: ظاهرها الزكاة لم تستحق القتل، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

وبهذا استدل الطحاوي: علىٰ أن الغلام كان بالغًا؛ لأنَّ موسىٰ احتج علىٰ خضر بقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ معناه: لو كان قد قتل يجوز لك أن تقتله، وهذا لا يكون إلا علىٰ مكلف.

❁ وقد اختلف العلماء في شأن هذا الغلام:

- فقال بعضهم: بأنه كافر حتىٰ قبل بلوغه، ثم أشكل عليهم كيف يعذبه الله ويدخله النار وهو غير مُكلف.

فقال ابن عبد البر: هو مستثنىٰ من بقية الولدان؛ لأنَّ أبناء المؤمنين في الجنة، وأبناء الكافرين الصحيح: أنهم في الجنة.

- وقال بعضهم: أن الغلام ليس بكافر، لكن إن عاش سيكون كافرًا؛ لما جاء في بعض الروايات من حديث أُبيّ: «**إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ، طُبِعَ كَافِرًا وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا**».

- وقال بعضهم: بل هو كافر لكن لا يلزم أن قتله كان قبل البلوغ، فالعرب قد تطلق علىٰ كبير السن غلام فقد كان أبو لهب يلحق النبي ﷺ في عُكاظ ويرجمه بالحجارة ويقول: لا تتبعوا غُلام عبد المُطلب، ولما جاوز رسول الله ﷺ موسىٰ ليلة المعراج بكىٰ موسىٰ فقالوا له ما يبكيك قال علىٰ أن هذا الغلام جاء بعدي ويدخل من أمته أكثر مما يدخل من أمتي الجنة.

❀ وهذا المعنىٰ أقرب: أنه كان كافرًا بمعنىٰ: أنه قد بلغ، وأصبح من أهل التكليف وعلىٰ هذا قراءة ابن عباس: ﴿وَأما الغُلامُ فَكَانَ كَافِرًا﴾، ولي في ذلك جزءٌ بعنوان: "فتح البر بحال الغلام الذى قتله الخضر".

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ يعني: معصومة لم تذنب، ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ قصاص وجب عليها، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ منكرًا عظيمًا.

﴿قَالَ﴾ الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ يا موسى، ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا﴾ أي: قد أعذرت فيما بيني وبينك، واتضح لك العذر في مفارقتي.

وفي هذا: عن أُبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ مُوسَىٰ، لَوْلَا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَىٰ الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ**: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف:٧٦]، **عُذْرًا وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَىٰ الْعَجَبَ - قَالَ: وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا مِنَ الأَنبِيَاءِ بَدَأَ بِنَفْسِهِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ أَخِي كَذَا**» أخرجه مسلم.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ الغاية التي تعذر فيها على ترك مصاحبتي، ﴿فَانطَلَقَا﴾ سارا ذاهبين ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ﴾ قيل: أنطاكية، وقيل: الأُبُلة، وقيل: برقة، وقيل: بلدة بالأندلس والله أعلم، ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ أي: طلبا منهم الطعام؛ لحاجتهما إلى ذلك، ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ لبخلهم، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يسقط، ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ وعدله حيث مسح عليه بيده، وهذا من دلائل نبوته ومن توفيق الله عَزَّوَجَلَّ له، ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ثوابًا من طعام ونحوه.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي﴾ فراقٌ بيننا، ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أُخبرك، ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ حقيقة، ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ لعدم علمك بحقيقته.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها، ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ فقراء، ﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي: لاستخراج الصيد، أو أنهم يؤجرونها لحمل الناس، ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ أمامهم، ﴿مَّلِكٌ﴾ جبار ظالم غاشم، ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ صالحة ﴿غَصْبًا﴾ كما جاء في بعض القراءات، والسفينة المعيبة يتركها، وهذا من الحكمة التي أعطاها الله عَزَّوَجَلَّ الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ أن إفساد بعض المال للمحافظة على بقيته أولى من إهدار جميعه.

ومثاله: لو أن رجلًا كان به سرطان في رجله أو في يديه أو في بعض جسمه وقرر الأطباء أما الاستئصال وأما أن يلحقه الضرر أجمع، فاستئصال ذلك العضو الفاسد أولىٰ من إبقائه؛ لأنَّ بقاؤه سيؤدي إلىٰ فساد الجسم وإلىٰ هلاكه، وهكذا دفع بعض المال للصوص ونحوهم للحفاظ علىٰ الروح وبقية المال.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتله الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ على الإيمان والاستقامة، ﴿فَخَشِينَآ﴾ تخوفنا بإعلام الله له، ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ يغشاهما ويكلفهما، ﴿طُغْيَانًا﴾ مجاوزة، ﴿وَكُفْرًا﴾ ربما جرهم إلى الكفر لحبهم له فيتابعانه في دينه.

﴿فَأَرَدْنَآ﴾ بفعلنا ذلك، ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا﴾ لعلهما أن يسترجعا ويدعوان الله عَزَّوَجَلَّ بالولد فيكون حاله خيرًا من هذا، ﴿زَكَاةً﴾ طهرًا، وصلاحًا، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ عطفًا على أبويه وصالًا للرحم والقرابة، فالأبناء إنما يُفرح بهم إذا كانوا على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، أما إذا كانوا على غير ذلك لا سيما إن كانوا كافرين فلا فرح بهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود:٤٦].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مات أبوهما وهما صغيران، ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مالٌ قد دُفِن لهما من ذهب أو فضة، وقيل: صحف، لكن الذي يظهر: أن الكنز من الذهب والفضة، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ من أصحاب الصلاح والطاعة.

۞ وبهذا الآية استدل العلماء: علىٰ أن صلاح الآباء من أسباب حفظ الأبناء، فلا أنفع لأبنائك إن أردت لهم العز الدنيوي والأخروي من أن تكون صالحًا طائعًا لربك، ملتزمًا

لشرعه ودينه، فانظر إلىٰ هذين الغلامين اليتيمين اللذين لا قدرة لهما علىٰ إصلاح شأنهما كيف سخر الله عَزَّوَجَلَّ لهما خضرًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فأقام لهما جدارهما وحفظ لهما بفضل الله أموالهما.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ قوتهما وعقلهما، ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ لعله قد أوصى لهم في ورقة أو نحو ذلك، وفعلت ذلك، ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بالأيتام، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ﴾ لم أفعله من جهتي بل فعلته بأمر الله وإلهامه، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ حقيقة، ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

۞ ﴿تَسْطِع﴾ بمعنىٰ: تستطع؛ لكن قال العلماء: لما كان الأمر مُغيبًا عن موسىٰ قال: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ﴾ [الكهف:٦٧]، لتثقيل الكلمة الدال علىٰ ثقل الأمر، ولما علم حقيقة الأمر كان الشأن دون.

فهذه قصة خضر مع موسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وما سوىٰ ذلك من الإسرائيليات التي تزعم: أنه حي بسبب شربه من عين الحياة، وأنه يظهر لمن دعاه ورجاه من دون الله فيصبح من يدعوه من المشركين المنددين والعياذ بالله، فلا يُلتفت إلىٰ ذلك، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤]، وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ؟ فَإِنَّ عَلَىٰ رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَىٰ مِمَّنْ هُوَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ**» متفق عليه، ولو كان الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ حيًا لكان لا يعيش بعدها.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد، قيل: اليهود، وقيل: كفار قريش، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى﴾ رجل اختلف فيه سُميَّ بذي القرنين؛ لأنه بلغ مطلع الشمس ومغربها.

وقيل: لأنَّ قومه ضربوه حتىٰ سال الدم من قرونه.

وقيل: لأنَّ عاش حتىٰ صارت له قرون، وامتد مُلكه إلىٰ أنحاء المعمورة، ويغلط كثير من المؤرخين فيجعلونه الإسكندر المقدوني وهذا غلط بينه ابن كثير في البداية والنهاية وغيره، فإن الإسكندر المقدوني كان مُلحدًا مشركًا مندًا، وذو القرنين كان موحدًا داعيًا إلىٰ الله، وهل كان مَلَكًا أم نبيًا، الذي يظهر أنه لم يكن نبيًا ولا مَلكًا، ولكن كان عبدًا صالحًا أحب الله عَزَّوَجَلَّ وأحبه الله عَزَّوَجَلَّ، نصح لله فنصحه الله وأيده ونصره.

"وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي اسْمه فروىٰ بن مرْدَوَيْه من حَدِيث بن عَبَّاسٍ وَأَخْرَجَهُ الزُّبَيْرُ فِي كِتَابِ النَّسَبِ عَنْ إِبْرَاهِيم بن الْمُنْذر عَن عبد الْعَزِيز بن عِمْرَانَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي حَبِيبَةَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ بن عَبَّاسٍ قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَبْدُ اللهِ بْنُ الضَّحَّاكِ بْنِ مَعْدِ بْنِ عَدْنَانَ وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ جِدًّا لِضَعْفِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَشَيْخِهِ.

وَهُوَ مُبَايِنٌ لِمَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ إِبْرَاهِيمَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ لَا سِيَّمَا عَلَىٰ قَوْلِ مَنْ قَالَ كَانَ بَيْنَ عَدْنَانَ وَإِبْرَاهِيمَ أَرْبَعُونَ أَبًا أَوْ أَكْثَرَ وَقِيلَ اسْمُهُ الصَّعْبُ وَبِه جزم كَعْب الْأَحْبَار وَذكره بن هِشَام فِي التيجان عَن بن عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ حَبِيبٍ فِي كِتَابِ الْمُحَبَّرِ هُوَ الْمُنْذِرُ بْنُ أَبِي الْقَيْسِ أَحَدُ مُلُوكِ الْحِيرَةِ، وَأُمُّهُ مَاءُ السَّمَاءِ مَاوِيَّةُ بِنْتُ عَوْفِ بْنِ جُشَمَ قَالَ وَقِيلَ اسْمُهُ الصَّعْبُ بْنُ قَرْنِ بْنِ هُمَّالٍ مِنْ مُلُوكِ حِمْيَرَ.

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ هُوَ إِسْكَنْدَرُوسُ بْنُ فِيلْبُوسَ، وَقِيلَ فِيلِبْسُ وَبِالثَّانِي جَزَمَ الْمَسْعُودِيُّ، وَقِيلَ اسْمُهُ الْهَمَيْسَعُ ذَكَرَهُ الْهَمْدَانِيُّ فِي كُتُبِ النَّسَبِ قَالَ وكنيته أَبُو الصعب وَهُوَ بن عَمْرِو بْنِ عَرِيبِ بْنِ زَيْدِ بْنِ كَهْلانَّ بْنِ سبأ وَقيل بن عَبْدِ اللهِ بْنِ قَرِينِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْأَزْدِ.

وَقِيلَ بِإِسْقَاطِ عَبْدِ الله الأول وَأما قَول بن إِسْحَاق الَّذِي حَكَاهُ بن هِشَامٍ عَنْهُ أَنَّ اسْمَ ذِي الْقَرْنَيْنِ مَرْزُبَانُ بْنُ مُرْدَيْهِ بِدَالٍ مُهْمَلَةٍ وَقِيلَ بِزَايٍ فَقَدْ صُرِّحَ بِأَنَّهُ الْإِسْكَنْدَرُ وَلِذَلِكَ اشْتُهِرَ

عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ لِشُهْرَةِ السِّيرَةِ لِابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ السُّهَيْلِيُّ وَالظَّاهِرُ مِنْ عِلْمِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُمَا اثْنَانِ أَحَدُهُمَا كَانَ عَلَىٰ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ وَيُقَالُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ تَحَاكَمَ إِلَيْهِ فِي بِئْرِ السَّبْعِ بِالشَّامِ فَقَضَىٰ لِإِبْرَاهِيمَ وَالْآخَرُ كَانَ قَرِيبًا مِنْ عَهْدِ عِيسَىٰ.

قُلْتُ لَكِنَّ الْأَشْبَهَ أَنَّ الْمَذْكُورَ فِي الْقُرْآنِ هُوَ الْأَوَّلُ بِدَلِيلِ مَا ذُكِرَ فِي تَرْجَمَةِ الْخَضِرِ حَيْثُ جَرَىٰ ذِكْرُهُ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ قَرِيبًا أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ مُقَدِّمَةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَقَدْ ثَبَتَتْ قِصَّةُ الْخَضِرِ مَعَ مُوسَىٰ وَمُوسَىٰ كَانَ قَبْلَ زَمَنِ عِيسَىٰ قَطْعًا، وَتَأْتِي بَقِيَّةُ أَخْبَارِ الْخَضِرِ هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ فَهَذَا علىٰ طَرِيقَةِ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ الْإِسْكَنْدَرُ وَحَكَىٰ السُّهَيْلِيُّ أَنَّهُ قِيلَ إِنَّهُ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ يُونَانَ بْنِ يَافِثَ اسْمُهُ هَرْمَسُ وَيُقَالُ هِرْدِيسُ وَحَكَىٰ الْقُرْطُبِيُّ الْمُفَسِّرُ تَبَعًا لِلسُّهَيْلِيِّ أَنَّهُ قِيلَ إِنَّهُ أَفْرِيدُونُ وَهُوَ الْمَلِكُ الْقَدِيمُ لِلْفُرْسِ الَّذِي قَتَلَ الضَّحَّاكَ الْجَبَّارَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الشَّاعِرُ:

فَكَأَنَّهُ الضَّحَّاكُ فِي فَتَكَاتِهِ ... بِالْعَالَمِينَ وَأَنْتَ أَفْرِيدُونُ

وَلِلضَّحَّاكِ قِصَصٌ طَوِيلَةٌ ذَكَرَهَا الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ وَالَّذِي يُقَوِّي أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ مِنَ الْعَرَبِ كَثْرَةُ مَا ذَكَرُوهُ فِي أَشْعَارِهِمْ قَالَ أَعْشَىٰ بْنُ ثَعْلَبَةَ:

وَالصَّعْبُ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَمْسَىٰ ثَاوِيًا ... بِالْحِنْوِ فِي جَدَثٍ هُنَاكَ مُقِيمُ

وَالْحِنْوُ بِكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ النُّونِ فِي نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ ضُبَيْعٍ:

وَالصَّعْبُ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَمَّرَ مُلْكَهُ ... أَلْفَيْنِ أَمْسَىٰ بَعْدَ ذَاكَ رَمِيمًا

وَقَالَ قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ:

وَالصَّعْبُ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَصْبَحَ ثَاوِيًا ... بِاللَّحْدِ بَيْنَ مَلَاعِبِ الْأَرْيَاحِ

وَقَالَ تُبَّعُ الْحِمْيَرِيُّ:

قَدْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ قَبْلِي مُسْلِمًا ... مَلِكًا تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ وتحشد

مِنْ بَعْدِهِ بَلْقِيسُ كَانَتْ عَمَّتِي ... مَلَكَتْهُمُ حَتَّىٰ أَتَاهَا الْهُدْهُدُ

وَقَالَ بَعْضُ الْحَارِثِيِّينَ يَفْتَخِرُ بِكَوْنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ مِنَ الْيَمَنِ يُخَاطِبُ قَوْمًا مِنْ مُضَرَ سَمُّوا لَنَا وَاحِدًا مِنْكُمْ فَنَعْرِفُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِاسْمِ الْمَلِكِ مُحْتَمِلًا:

كَـالتُّبَّعَيْنِ وَذِي الْقَـرْنَيْنِ يقبلـه أهـل الحجـىٰ وَأَحَـقُّ الْقَـوْلِ مَـا

وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ بشير الأنصَارِيّ الصَّحَابِيّ بن الصَّحَابِيِّ:

وَمَنْ ذَا يُعَادِينَا مِنَ النَّاسِ مَعْشَرٌ كِـرَامٌ وَذُو الْقَـرْنَيْنِ مِنَّـا وَحَـاتِمُ

انْتَهَىٰ وَيُؤْخَذُ مِنْ أَكْثَرِ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ أَنَّ الرَّاجِحَ فِي اسْمِهِ الصَّعْبُ وَوَقَعَ ذِكْرُ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَيْضًا فِي شِعْرِ امْرِئِ الْقَيْسِ وَأَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ وَغَيْرِهِمْ وَأَخْرَجَ الزُّبَيْرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُنْذِرِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الضَّحَّاكِ بْنِ عُثْمَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ قَالَ بَلَغَنِي أَنَّهُ مَلَكَ الدُّنْيَا كُلَّهَا أَرْبَعَةٌ مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ سُلَيْمَانُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذُو الْقَرْنَيْنِ، وَنُمْرُودُ، وَبُخْتَنَصَّرُ وَرَوَاهُ وَكِيعٌ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ سَمِعْتُ مُجَاهِدًا يَقُولُ مَلَكَ الْأَرْضَ أَرْبَعَةٌ فَسَمَّاهُمْ" أفاده الحافظ في فتح الباري.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم﴾ سأقرأ عليكم وأُخبركم، ﴿مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ مما أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إليَّ إذ أن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه الناس إلا بوحي.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا﴾ أوطأنا وسخرنا ﴿لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من أسباب العز والتمكين والنصر، ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ أعطيناه ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يتعلق به حكمه، ﴿سَبَبًا﴾ طريقًا من أسباب النصر والتمكين.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ علمًا يتسبب به إلى كل ما يُريد.

❖ وقد ذهب بعضهم إلىٰ معنىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أنه كان يربط خيله في الثريا، وهذه أقوال باردة بائرة من الإسرائيليات لا يُلتفت إليها، ولا تُذكر إلا علىٰ سبيل الرد.

و(السبب) قيل: البلاغ، وقيل: قرب إليه أقطار الأرض، المهم: أنه اتخذ أسبابًا للنصر والتمكين من إعداد الجيوش، والمراكب والأغذية والسلاح ونحو ذلك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: المكان الذي يرىٰ منه غروب الشمس في البحر المحيط، وليس معنىٰ ذلك: أنه وصل إلىٰ المكان الذي فيه الشمس حقيقة، فالشمس علىٰ الصحيح في الفلك الرابع كما يذكر ابن كثير وغيره، ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ مثل العين الحمئة الحمراء التي تُشعل فيها النيران وتُصنع منها الخزف ونحوه، ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند

تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ كانوا علىٰ مخالفة، وكفر ﴿قُلْنَا﴾ أي: قال الله له بالإيحاء أو نحو ذلك، وهذا علىٰ التخيير، ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ تقتلهم إن لم يدخلوا الإسلام، ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ تعفو وتصفح عنهم، وقيل: تأسرهم فتعلمهم الهدىٰ، خيره الله بين الأمرين.

فكان جوابه: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ بالكفر، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل ونحوه، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة، ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ في نار تلظى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل:١٥-١٦].

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ انقاد لذلك.

كما في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ يقول: «**أما مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ، فَلَا يُؤَاخَذُ بِهَا، وَمَنْ أَسَاءَ، أُخِذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ**» متفق عليه، ﴿فَلَهُۥ﴾ من ربه عَزَّوَجَلَّ، ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا، وهذا يدل علىٰ رجاحة عقله وعلىٰ محبته لدينه؛ إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ أمره وخيره بين قتلهم وبين العفو عنهم ففصل، قال: من استمر علىٰ كفره وعناده وبغيه وشقاقه فحكمه الحكم الأول، ومن آمن وانقاد لشرع ربه فحكمه العفو والصفح والإكرام.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ثم سلك طُرقًا ومنازل أخرى إلى جهة مشرق الشمس ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ موضع طلوعها، ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ لم يكن بينهم وبين الشمس سترًا من بناءٍ أو غيره.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني: كما بلغ مغرب الشمس ومطلعها، أو كما حكم في القوم الذين كانوا عند مغرب الشمس حكم في اللذين هم عند مطلعها، ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ﴾ علمنا، ﴿بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ عنده ومعه من الجند والعدة والآلات، ﴿خُبْرًا﴾ علمًا فالخبر: العلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء:٣٥]، إلا أنه إذا قُرن بين العلم والخُبر كان الخُبر العلم بالمغيبات، ومعنى العلم: العلم بالظواهر، وإذا أُفرد أحدهما عن الآخر دل على المعنيين ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ثم سلك طُرقًا ومنازل أخرى معترضًا بين المشرق والمغرب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ وصل ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ ثغرة بين جبلين، ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ قبلهما ﴿قَوْمًا﴾ أمة من الأمم، ومن شأنهم أنهم ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ يعرفون ﴿قَوْلًا﴾ غير قولهم فكانوا يتكلمون بالعُجمة التي لا يفهمهم غيرهم، وذو القرنين قد ملك العرب والعجم.

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ يشتكون ويتظلمون لرفع ما نزل بهم: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قوم من بني آدم قيل: من الترك، وقيل غير ذلك، وقد ذكر العلماء فيهم كلاما كثيرًا أغلبه يعود إلى الإسرائيليات لا نلتفت إليه، إلا أننا نؤمن أنهم أمة من الأمم: ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالشرك وغيره.

ففي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ .**

قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» متفق عليه.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جُعلًا وعطاءً ومالًا، ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ يمنعهم من الدخول علينا ويمنعنا من الدخول عليهم.

وعن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ: دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ، وَمأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ، وَبِالَّتِي تَلِيهَا**» فَقَالَتْ زَيْنَبُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ**» متفق عليه.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ﴾ وفي قراءة ﴿مَا مَكَنَنِي﴾ أي: قواني ﴿رَبِّي خَيْرٌ﴾ من جُعْلِكم، ﴿فَأَعِينُونِي﴾ ساعدوني، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بالعمل، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ سدًا.

﴿ءَاتُونِي﴾ اعطوني، ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ﴾ قطع الحديد واحدتها زبرة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ الجبلين، أي: ارتفع البناء، ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ أي: النار حتى تشتعل، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: صار الحديد نارًا، ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ﴾ اعطوني، ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ وهو النحاس المُذاب، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس.

قال قتادة: هو كالبُرد المُحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء، وفي القصة: أن عرضه كان خمسين ذراعًا وارتفاعه مائة ذراع وطوله فرسخ والله أعلم.

❖والذين يزعمون: أن يأجوج ومأجوج هم الصين لا دليل معهم علىٰ ذلك، فنحن نؤمن أن بين يأجوج ومأجوج وبين الناس حاجزٌ ولا يخرجون منه إلا في آخر الزمان، أما الصين فإن الناس يدخلون إليهم ويخرجون وهم يسافرون إلىٰ الناس، ثم لا يقول لك قائل: إذًا أين هم؟ نقول: هم في مشرق الأرض لكن الله أعلم أين هم، ونحن لا نصدق أن الكفار قد أحاطوا بالأرض من جميع جوانبها حتىٰ الطائرات إذا خرجت عن مسارها ضاعت وتاهت ولا يجدون لها موطنًا، وفي بعض المناطق لا تستطيع الطائرة أن تطير عليه كمثلث برمودا ومن إليه.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ ما استطاع يأجوج ومأجوج، ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ يعلوه ويرتفعوا عليه، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ خرقًا لصلابته وقوته.

﴿قَالَ هَٰذَا﴾ السد بينكم وبينهم ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ حيث جعل بينهم وبين الناس حائلًا، فيحول بينهم وبين الإفساد الذي كانوا يفعلونه، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ قرب قيام الساعة، ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أرضًا ملساء مدكوكًا مستويًا على وجه الأرض، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ لا يُخلف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩].

وقصتهم في حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الإمام مسلم، بعد أن يُهلك الله عَزَّوَجَلَّ الدجال علىٰ يد عيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويلقىٰ عيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ المؤمنين، فيصلي خلف المهدي، فيوحي الله عَزَّوَجَلَّ إليه: «**إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَىٰ الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَىٰ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَىٰ كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ**»... «**وَيَفِرُّ النَّاسُ مِنْهُمْ، فَلَا يَقُومُ لَهُمْ شَيْءٌ، قَالَ: ثُمَّ يَرْمُونَ نُشَّابَهُمْ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بِالدِّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: قَدْ قَتَلْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَأَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَدْعُو عَلَيْهِمْ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ وَلَا يَدَيْنِ، فَاكْفِنَاهُمْ بِمَا شِئْتَ، فَيُسَلِّطُ اللهُ عَلَيْهِمْ دَوَابَّ يُقَالُ لَهَا النَّغَفُ، فَتَفْرِسُ رِقَابَهُمْ**».

ومن أنكر خروجهم فقد كذَّب القرآن، فيكون من الكافرين والعياذ بالله.

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ
وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ
نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ
كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ
يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ هذا عند فتح السد، وقيل: يوم القيامة، لكن السياقة تدل على الأول، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ بعد ذلك؛ لأنَّ خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى، ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ في صعيد واحد، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود:١٠٣].

﴿وَعَرَضۡنَا﴾ أبرزنا، وقربنا ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ يُشاهدونها، كما قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠]، قُربت، ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ [الشعراء:٩١]، يرونها.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ﴾ غشاوة لا يُبصرون الحق، ﴿عَن ذِكۡرِي﴾ عن طاعتي: وهو التزام الإيمان والقرآن، ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ أي: سمع قبول الإيمان؛ لغلبة الشقاوة عليهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

﴿أَفَحَسِبَ﴾ أفظن: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بسبب جهلهم بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ ينصرونهم ويرجونهم ويتقربون إليهم، ويُريد عيسى والملائكة؛ كلا، بل هم لهم أعداء يتبرؤون منهم يوم القيامة، ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ أعددنا وجهزنا ﴿جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ منزلًا ومثوًا.

۞ وهذا دليل علىٰ وجود النار كما هو معتقد أهل السنة والجماعة.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿قُلْ هَلْ﴾ أخبركم، ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ في الدنيا والآخرة، الذين أتعبوا أنفسهم وأهلكوها بما لا فائدة فيه.

فهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ﴾ هلك وذهب وبطل، ﴿سَعْيُهُمْ﴾ عملهم الذي عملوه، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وإن كان صالحًا؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من المُشرك عملًا، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ يظنون، ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ وهذا سبيل أهل البدع وسبيل الكافرين: أنهم لا يدخلون في الإسلام الحق؛ لظنهم أنهم على شيء وليسوا على شيء، فاليهود يظنون أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، ويظنون أنهم أبناء الله وأحباؤه، والواقع: أنهم أعداؤه وليسوا بأوليائه، فحسن العمل بموافقة الكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين يفعلون هذه الأفعال ويظنون هذا الظن، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ﴾ الشرعية، ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ في البعث والنشور يوم القيامة، ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ذهبت وولت، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

❁ وقد اختلف العلماء في أعمال الكفار؟

فذهب بعضهم: إلىٰ أنها لا توزن، وذهب بعضهم: إلىٰ أنها توزن ولكن لا قيمة لها وهذا هو الحق: لحديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**»، اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف:١٠٥] متفق عليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِرَ من حبوط أعمالهم وخسة أقدارهم، ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ ثوابهم، ﴿جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾ القرآن، ﴿وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ سخرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ أعلى الجنة ﴿نُزُلًا﴾ ضيافة يتنعمون فيها.

و عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ يقول: «**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ تَعَالَىٰ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهَا وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا، وَفَوْقَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهَا تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**»، أخرجه البخاري.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تحولًا؛ إذ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وحالهم فيها كما قال تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿قُل لَّوْ كَانَ﴾ الخِضم، ﴿مِدَادًا﴾ حبرًا، ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ دليل على أن الله يتكلم بحرف وصوت كيف شاء ومتى شاء، ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ انتهى وذهب ماؤه، ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ تنتهي ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم أزلًا وأبدًا متى شاء وكيف شاء، وأفعاله لا منتهى لها، وأفعاله صادرة عن كلامه، بل لو مُدت هذه البحار بسبعة أبحر ما نفدت كلماته كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ يمده ويرفده بالماء.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لأنهم طلبوا أن تنزل الملائكة إليهم، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ بالقرآن وغيره من السنة، ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذا معنى لا إله إلا الله، يوحى إليه بالتوحيد والدعوة إليه، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يؤمل لقاء ربه يوم القيامة، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ قد أخلص فيه لله عَزَّوَجَلَّ، وتابع فيه رسول الله ﷺ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ؛لأنه إذا أشرك حبط عمله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠].

وقيل في معنىٰ هذه الآية: لا يرائي بعمله، وفي حديث جندب قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ**» متفق عليه.

وجاء عن ابن عباس أخرجه مسلم، وعن محمود بن لبيد: أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ**» أخرجه أحمد.

وعند مسلم من حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَه**»، والله أعلم.

تفسير

سورة مريم

سُورَةُ مَرْيَمَ

۞ مكية، وآياتها: ثمانية وتسعون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ تقدم الكلام في أول سورة البقرة، علىٰ هذه الحروف ومع ذلك فسر بعضهم: الكاف: من الكريم والكبير، والهاء: من هادٍ، والياء: من رحيم، والعين: من عليم، والصاد: صادق.

❖ وأبعد الأقوال من جعل هذه الآية عبارة عما وقع في كربلاء من قتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمعنىٰ: هذا الذي نتلوه عليك هو، ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير: (ذِكْرُ رَبِّكَ)، ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ برحمته، وكان الأمر في ذلك ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا زكريا، ﴿رَبَّهُۥ﴾ في محرابه، ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ دعاءً ﴿خَفِيًّا﴾ سرًا من قومه في جوف الليل، وكان من دعائه أنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ﴾ ضَعُفَ ورق، ﴿ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ بسب بالكِبَرِ، ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ﴾ أي: ابيض شعر رأسي، ﴿شَيْبًا﴾ شمطًا، ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ عودتني الإجابة فيما مضىٰ ولم تخيبنِ، فهو يتوسل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بكرمه وجوده وإجابة دعائه أن يستجيب هذا الدعاء.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ قيل بنو العم العصبة، وقيل: الكلالة والورثة، ﴿مِن وَرَآءِي﴾ من بعد موتي، ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد، ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ اعطنِ من عندك

مكرمةً وهبة: ﴿وَلِيًّا﴾ ابنًا يكون لي ناصر بعد نصرك وعونًا بعد عونك، ووارثًا للنبوة والرسالة.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ النبوة والرسالة، فلا تعارض بين هذه الآية وبين قول النبي ﷺ: «**إِنَّا مَعْشَرُ الأنبِيَاءِ لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ**» متفق عليه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فالمنفي ما يتعلق بالميراث الدنيوي للأموال وغيرها، والمثبت ميراث النبوة والعلم، وفي حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ سلَكَ طريقًا يَطلُبُ فيه علمًا سَلَكَ الله عَزَّوَجَلَّ به طريقًا من طُرُقِ الجنة، وإنَّ الملائكةَ لتَضَعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العلم، وإنَّ العالم ليستغفِرُ لهُ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ والحيتانُ في جوف الماء، وإن فضلَ العالمِ علىٰ العابِدِ كفضل القَمَرِ ليلةَ البدرِ علىٰ سائر الكواكِبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا دِرْهمًا، ورَّثُوا العِلْمَ، فمن أخَذَه أخَذَ بحظٍّ وافِرٍ**» أخرجه أبو داود.

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: برًا تقيًا مرضيًا، والمعنىٰ: أنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه علىٰ ما كان شاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه وليًا صالحًا يأمنه علىٰ أمته ويرث نبوته وعلمه؛ حتىٰ لا يضيع الدين، وهذا معنىٰ قول عطاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ورجح هذا القول البغوي وابن كثير وغير واحد من أهل العلم.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾.

فناداه الله عند ذلك مُجيبًا لدعائه، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ نخبرك ونعلمك، ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ يولد ذكرًا، ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: أنه أول من سُميَّ بيحيى.

﴿قَالَ﴾ متعجبًا ﴿رَبِّ أَنَّىٰ﴾ كيف ومن أين، ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد، ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ يبسًا، ومثل هذا لا يولد له ﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أنه سيكون لك ابنٌ، وإذا قضى أمرًا: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥]، ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ يسير، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ يا زكريا، ﴿مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢].

﴿قَالَ﴾ زكريا ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ﴾ علامة على حِمل امرأتي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: لا يستطيع أن يكلم الناس مع أنه كان صحيحًا سليمًا من غير ما بأس ولا خرس، وكان يكلمهم بالإشارة كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ﴾ زكريا، ﴿فَخَرَجَ﴾ مقدم المجلس، ومكان العبادة، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أومأ إليهم، وأخبرهم بالإشارة، أو بأمر فهموه عنه: ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، ونزهوه وصلوا له، ﴿بُكْرَةً﴾ غدوة، ﴿وَعَشِيًّا﴾ في المساء، وهذا لشكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمته، ومزيد منته، فإذا وهبك الله عَزَّوَجَلَّ عطيةً، فأقبل على شكره ودعائه، وذكره يزدك خيرًا.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

ووهبنا له يحيى وقلنا له: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراة، ﴿بِقُوَّةٖ﴾ بجد ونشاط، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ النبوة، ﴿صَبِيّٗا﴾ وهو ابن ثلاث سنين كما قال ابن عباس، وقيل: أراد بالحُكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير.

﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ رحمة من عندنا.

ويستدلون بقول الحطيئة لعمر بن الخطاب:

حَـنَّن عَلَـيَّ هَـداكَ المَليـكُ فَـإِنَّ لِكُـلِّ مَقـامٍ مَقـالًا

أي: ترحم.

﴿وَزَكَوٰةٗۖ﴾ الطاعة والإخلاص والعمل الصالح، ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ مسلمًا خالصًا مراقبًا لربه، ﴿وَ﴾ كان مع ذلك: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ لطيفًا بهما مُحسنًا إليهما، ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ متكبرًا، ﴿عَصِيّٗا﴾ عاصيًا، بل كان طائعًا متواضعًا.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ أي: سلام له، ﴿يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ وهذه أشد حالات الإنسان:

- الحالة الأولىٰ: يوم يولد، يخرج من بطن أمه إلىٰ أرض لا علم له بها، ويبكي أول ما يخرج ويصيبه العُطاس، ويبدأ في البحث عن الثدي طمعًا في وجود الطعام.

- الحالة الثانية: يوم يموت، يخرج إلىٰ دار لم يكن له بها عهد، الله أعلم ما يكون من شأن الإنسان فيها، فإن كان من الصالحين يُرجىٰ له الخير، وإن كان من الطالحين فيخشىٰ عليه الشر والضير.

- الحالة الثالثة: يوم يُبعث، فيلقىٰ أعماله في موطن رهيب تُبلىٰ السرائر، وتُزلف الجنة، وتُبرز النار، فيُخبر الله عن يحيىٰ: أنه في سلامة في هذه المواطن الثلاثة، وهكذا أخبر عن عيسىٰ كما سيأتي.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ

وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمد، ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن، ﴿مَرْيَمَ﴾ ما كان من شأن مريم ابنة عمران، ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ تنحت واعتزلت، ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ قومها، ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: مكانًا في الدار مما يلي المشرق، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنه كان يومًا شاتيًا شديد البرد، والقول: بأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وُلد في الشتاء قول مطعون فيه وأن هذا التاريخ مزور من قِبل النصارى.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ﴾ ضربت بينها وبينهم: ﴿حِجَابًا﴾ سترًا، مقبلة على الدعاء، والذكر، والطاعة، ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وقال بعضهم: الروح هو عيسى جاء فدخل فيها وحملت به، وهذا قول غير صحيح.

فلما رأت مريم جبريل يقصد نحوها نادته من بعيد: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ مؤمنًا مطيعًا، فإن قيل: إنما يُستعاذ من الفاجر فكيف استعاذت منه قيل: هذا كقول القائل: إن كنت مؤمنًا فلا تظلمنِ، أي: ينبغي أن يكون إيمانك مانعًا من الظلم وكذلك هاهنا.

﴿قَالَ﴾ أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ﴾ أرسلني: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ولدًا ﴿زَكِيًّا﴾ صالحًا طاهرًا من الذنوب.

﴿قَالَتْ﴾ مريم عند ذلك: ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ومن أين: ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ولد، ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بزواج، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ بسفاح فكانت طاهرة مبرأة من هذا الأمر، إذ أن الولد يكون من إتيان الرجل للمرأة، فإما أن يكون من زواج ومريم لم تتزوج، وإما أن يكون من سفاح ومريم كانت عفيفة طاهرة.

﴿قَالَ﴾ لها جبريل عند ذلك: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ كما بشرك وخاطبك يا مريم، ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وقيل: المعنى هكذا قال رَبكِ: ﴿هُوَ﴾ خلق ولدٍ بلا أب ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ سهل، ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً﴾ علامة دالة على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ نعمة لمن تبعه على دينه، ﴿وَكَانَ﴾

ذلك الأمر: ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ محكومًا مفروغًا عنه لا يُرد ولا يُبدل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧].

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أضواء البيان: "أشار الله تعالى إلى كيفية حمل مريم: أنه نفخ فيها فوصل النفخ إلى فرجها فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢].

والذي عليه جمهور العلماء: أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم:١٩]، ولا ينافي ذلك إسناد الله جل وعلا النفخة المذكور لنفسه في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا﴾ [التحريم:١٢]، لأنَّ جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمرهِ ومشيئته، وهو تعالىٰ الذي خلق الحِمل من ذلك النفخ، فجبريل لا قدرة له علىٰ أن يخلق الحمل من ذلك النفخ، ومن أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالىٰ، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود للحمل منه إلا بمشيئته جل وعلا أسنده إلىٰ نفسه، وقول من قال: أن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط، بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلىٰ الفرج المعروف فوقع الحمل" اهـ من أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٣٩٠).

﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ أي: تنحت بالحمل وانفردت، ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيدًا من أهلها؛ لأنَّ الأمر الذي نزل بها ليس بالأمر السهل حتىٰ وإن كان بأمر الله، لكن هي بشر تستشعر كيف سيكون موقف الناس معها، امرأة لا زوج لها وتأتي بحمل، لا يقبلون منها الاعتذار، ولو

أرادت أن تتكلم ابتداءً لبادروها بالتهمة، فالأمر الذي نزل بمريم ابنة عمران أمر عظيم، امرأة عفيفة طاهرة مبرأة والناس يذكرونها بالخير والجميل فجأة تظهر حاملًا.

وبعد حملها: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ وألجأها واضطرها، ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ وجع الولادة، ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ يقول أكثر المفسرين أنها كانت نخلة يابسة في الصحراء في شدة الشتاء لم يكن سعف، ويقول بعضهم: بل النخلة كانت في الصيف، بدلالة وجود الثمرة فيها، ولو كانت في الشتاء لبين الله ذلك على أنها آية، ومما يدل على أن النخلة كانت في الصيف: ما كان عندها من السري وهو النهر الصغير، وقد قال تعالى: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ [المؤمنون:٥٠]، والربوة: هي المكان المرتفع المخضر، في أدلة ذكرها من يرجح أن ولادتها كانت في الصيف.

وقد اختلفوا في مدة حملها، فذهب بعضهم إلىٰ أنه كان في ساعة، وذهب بعضهم أنها وضعت في يومها، وزادوا ونقصوا.

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أوصل بعض المفسرين الأقوال في مدة حملها إلىٰ سبعة أقوال، والظاهر من الآية والمتبادر من التعقيب بحرف الفاء هو قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ حيث قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت" اهـ.

واستغرب هذا القول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّ الفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه، ثم رجح رأي الجمهور.

فقال: "فالمشهور الظاهر، والله علىٰ كل شيء قدير، أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن، وإن كان منشؤه خارقًا للعادة. والسياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته، وهل كان حملًا عاديًا كما تحمل النساء، وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة، فإذا هي علقة، فمضغة، فعظام، ثم تكسىٰ العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة، إن هذا جائز، فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتىٰ تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية.

كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصارًا، ويعقبها تكون الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة، وليس في النص ما يدل علىٰ إحدىٰ الحالتين، فلا نجري طويلًا وراء تحقيق القضية التي لا سند لنا فيها. والله أعلم".

والذي يظهر والله أعلم: أنها حملت حملًا ولا مدخل لذكر البيوضة والعلقة والمضغة؛ لأنَّ هذا من الغيب الذي لم يطلعنا الله عليه، فنحن نؤمن أنها حملت غلاما ووضعته، الله أعلم كم مدة ذلك وما كان شأن ذلك، مع أنها لو حملت به تسعة أشهر لعلم بها من يليها، والله أعلم.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ قيل جبريل، وقيل عيسىٰ، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ عند خروجه من بطنها، ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ لا يلحقكِ الحزن ولا البؤس، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهرًا صغيرًا، أي: قريبًا منها بحيث تنظف ولدها، ونفسها، وتشرب من مائه.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ﴾ مع أن جذع النخلة ما يتحرك بهزة امرأة، لكن من باب بذل السبب ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ﴾ أي: تتساقط منها: ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ يعني: رطبًا مجنيًا، وبهذا يظهر أن أحسن ما تتناوله النفساء الرطب والعسل ونحو هذا من الأطعمة التي تؤدي إلىٰ قوة بدنها.

﴿فَكُلِي﴾ مما يتساقط من النخلة، ﴿فَكُلِي﴾ من هذا السري، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ طيبي نفسًا قد وقع ما أراده الله عَزَّوَجَلَّ، وما تتهيبين منه من شأن الناس: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ يمر وأنتِ حاملة لولدك، ﴿فَقُولِيٓ﴾ له ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتا لا تتكلمي معهم؛ وذلك أنهم لن يقبلوا لها عُذرًا ولا قولًا، إذ كان هذا الأمر خارجًا عن العادة، ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وتنتظر فرج الله.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى

بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ بين يديها، ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ﴾ استعظاما لفعلها، ﴿لَقَدْ جِئْتِ﴾ أتيت ﴿شَيْـًٔا﴾ فعلًا ﴿فَرِيًّا﴾ عظيمًا منكرًا.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وليس بهارون بن عمران أخو موسى، وإنما رجل تسمى باسمه في عهدها وزمانها.

فعن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ يَا أُخْتَ هَارُونَ، وَمُوسَىٰ قَبْلَ عِيسَىٰ بِكَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ**» أخرجه مسلم.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ زانٍ فتقعين في هذا الأمر، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ فتتشبهين بها، والواقع: أن أباكِ كان رجلًا صالحًا، وأمك كانت امرأة تقية فكوني مثلهم.

﴿فَأَشَارَتْ﴾ عند ذلك: ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أن كلموه، أما أنا قد عزمت على الصمت؛ لأنَّ الكلام لن يجدي عندكم، والعذر لن يكون مقبولًا، ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ الصغر ﴿صَبِيًّا﴾ مستبعدين لذلك.

﴿قَالَ﴾ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ﴾ وهذا رد على النصارى إذ يزعمون أنه ابن الله، أو أنه الله، فكان قوله أول ما قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ﴾ عبدٌ فلا أُعبد، ورسول فلا أكذب ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾ بمعنى: سيؤتيني، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الأنجيل، ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أي: سيجعلني نبيًا، ومع ذلك هل قبل اليهود هذه المقولة؟ فقد كذبوه وأبوا إلا أن يقولوا بأن عيسى ولد ليوسف النجار، وكان خطيبًا لها، وقيل غير ذلك.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ يقول: «**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَىٰ ابن مريم وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ**»، وذكر الحديث: «**وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَىٰ**

دَابَّةٍ فَارِهَةٍ، وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ» متفق عليه.

﴿وَجَعَلَنِي﴾ صيرني الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا﴾ أي: صاحب بركة مُعلمًا للخير، وقيل: نَفَّاعًا حيثما توجهت، وقال عطاء: أدعو إلىٰ الله وإلىٰ توحيده وعبادته، وقيل: مباركًا علىٰ من تبعني، ولا يمنع أنه شامل لجميع المعاني، ﴿وَأَوْصَانِي﴾ أمرني، ﴿بِالصَّلَاةِ﴾ المكتوبة، ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ المفروضة، ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ مدة حياتي، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد ﷺ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَ﴾ جعلني: ﴿بَرًّا﴾ طائعًا محسنًا ﴿وَبَرًّا﴾ أمي، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عاصيًا، ﴿شَقِيًّا﴾ ملازمًا للذنب لا يتوب منه.

﴿وَالسَّلَامُ﴾ السلامة، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ﴾ حيث أمنه الله من طعن الشيطان، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ، إِلَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ» متفق عليه، ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ في آخر الزمان، وإلا فهو الأنَّ مقبوض في السماء الثانية ثم يكون آخر عهده أن ينزل لقتل الدجال، ويقبضه الله بعد سبع سنوات من بقائه في الأرض، وقيل بعد أربعين سنة ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يوم القيامة حيث يبعثه الله عَزَّوَجَلَّ سالمًا معافًا.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم ذكره ووصفه من أنه عبد الله هو: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: قال فيه الله عَزَّوَجَلَّ قول الحق، ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يختلفون فيمتري فيه اليهود

فيزعمون أنه ولد زنية، ويمتري فيه النصارى فيزعمون أنه الرب أو ابن الرب تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ لا يجوز لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ لأنَّ اتخاذ الصاحبة والولد دليل على النقص والعيب، ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ إذا أراد أمرًا أن يكون: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يتخلف ولا يتأخر، فأمره بعد الكاف والنون.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ عَزَّوَجَلَّ هو: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدوه، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ طريق قويم يوصل إلى جنة النعيم، ﴿فَاخْتَلَفَ﴾ عند ذلك: ﴿الْأَحْزَابُ﴾ الطوائف، ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ في شأن عيسى بن مريم على ما تقدم ذكره.

فذهبت اليهود: إلىٰ أنه ولد زنية، وذهبت النصارىٰ: إلىٰ أنه أب أو ابنٌ أو ثالث ثلاثة، وجاء الإسلام مبينًا: أنه رسول خلقه الله من أم بغير أب، واختلفوا أيضًا في شأن قبضه: فزعمت اليهود: أنهم قتلوه وقبروه، وزعمت النصارىٰ: أنه قُتل وصُلب ثم رُفِعَ إلىٰ السماء في الليلة الثالثة، بينما جاء الإسلام مبينًا: أنه لم يُقتل ولم يُصلب، حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨]، ﴿فَوَيْلٌ﴾ عذابٌ، ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر، أخبر أنهم يسمعون ويُبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ولم يُبصروا في الدنيا وذلك، ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: يحشرون يوم القيامة، ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون ﴿الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ خطأ بيّن، وهلاك واضح.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ خوفهم، ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ﴾ الندامة الشديدة حيث لا يُستعتبون ولا يرجعون، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لفراغ الله عَزَّوَجَلَّ من حساب العباد، وأُدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار،

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ في دنياهم عن أمر الله وأمر رسوله ﷺ وعما سيلحقهم في الآخرة، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالبعث والنشور فلا يُصدقون ولا يُقرون.

وفي الصحيحين: من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:٣٩] ».

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ على التعظيم، ﴿نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ حين يُهلك الله عَزَّوَجَلَّ جميع سُكانها ويقول: «**أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ**»، ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فيجازي المؤمنين بإيمانهم، وأهل الكفر بأعمالهم.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمد، ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن، ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ كثير التصديق والعمل، مصدقًا لربه وصادقًا في فعله كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم:٣٧]، ﴿نَبِيًّا﴾ النبي: الرتبة العالية نبأه الله عَزَّوَجَلَّ ورفعه، وكان من شأنه بعد أن نبأه الله وأرسله، أن دعا إلىٰ التوحيد.

و ﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر وهو يعبد الأصنام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ صوتًا، ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ شيئًا، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يكفيك: ﴿شَيْـًٔا﴾ ولا يملك لك نفعًا ولا يدفع عنك ضرًا.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الوحي، ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾ على ديني، ﴿أَهْدِكَ﴾ أرشدك وأدلك، ﴿صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ مستقيمًا يوصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لا تطعه فيما يُزين لك من الكفر، والشرك، والعصيان، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي: شديد العصيان حيث أمره الله أن يسجد لآدم فأبى وذهب للإفساد في بني آدم.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ أرهب عليك، ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ يُصيبك، ﴿عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يوم القيامة إن أقمت على كفرك ومِتَّ عليه، ﴿فَتَكُونَ﴾ عند ذلك، ﴿لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ قرينًا في النار، كما قال تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣] ﴿قَالَ﴾ أبوه مُجيبًا له: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾ في زهد ورغبة عنها، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن دعوتك وكلامك وعيبك لآلهتنا، ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحجارة، وقيل: لأبعدنك، وقيل: لأشتمنك، والأول أظهر، ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ اجتنبني، ﴿مَلِيًّا﴾ دهرًا وحينًا لا أراك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: سلمت مني لا أُصيبك بمكروه؛ وذلك أنه لم يؤمر بقتاله على كفره، وقيل: هذا سلام هجران ومفارقة، وقيل: سلام بر ولطف، وهو جواب الحليم للسفيه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤].

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أطلب لك المغفرة، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ برًا لطيفًا يستجيب دعوته ويحفظ ذريته.

❖ ولا يُثبت لله عَزَّوَجَلَّ اسم الحفي، وقد تردد فيه الشيخ ابن عثيمين إذ أنه جاء مُقيدًا بإبراهيم، والأسماء الحُسنى كمالها مُطلق؛ ولهذا لا يُسمى الله بالصاحب، ولا بالخليفة، مع ما جاء في حديث ابن عمر في الصحيحين: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، وَالصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**».

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ أهجركم، ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا﴾ تعبدون، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿وَأَدۡعُواْ﴾ أوحد، ﴿رَبِّي﴾ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ﴾ بعادة ﴿رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ خائبًا ضائع السعي، كما هو حالكم مع آلهتكم ومعبوداتكم، بل سيكون مُكرمًا مقربًا نبيًا، إذ أن الشقاوة إنما تلحق عُباد الأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى:١١-١٣]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:١٠٦].

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ﴾ هجرهم وقلاهم، ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان حيث هاجر إلى أرض الشام كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الصافات:٩٩-١٠٠]، فوهب الله له إسماعيل من هاجر، ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ أعطينا له: ﴿إِسۡحَٰقَ﴾ من زوجه سارة ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ ولد الولد، ﴿وَكُلّٗا﴾ منهما ﴿جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ ورسولًا، ويعقوب نافلة وإسحاق هو الولد، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء:٧٢].

﴿وَوَهَبۡنَا﴾ أعطينا، ﴿لَهُم﴾ لذرية إبراهيم ﴿مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾ أي: رحمة من الله من المال والولد والخير العظيم، ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ ثناءً عطرًا في الناس، كما قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

فجميع الطوائف تُثني علىٰ إبراهيم بالخير: المسلمون، واليهود، والنصارىٰ؛ ولكن أولئك انتحلوه فلا ينفعهم هذا الأنتحال، وأما أهل الإسلام فهم أولىٰ الناس به، كما قال

تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

وأما ما يُدعىٰ إليه من إنشاء البيت الإبراهيمي، ويحتوي هذا البيت علىٰ مسجد ومعبد وكنيسة أي: للمسلمين واليهود والنصارىٰ فهذا بيت ظالم أهله، ومن اعتقد جواز التعبد لله عَزَّوَجَلَّ بدين اليهود والنصارىٰ بعد مبعث النبي ﷺ فهو كافر كفر أكبر مُخرج من الملة، نسأل الله السلامة والعافية فاليهودية والنصرانية كلاهما دين سوء نسخهما الله بدين الإسلام، وأهلهما من أبعد الناس عن التوحيد والاستقامة، غلوا وجفوا، وحاربوا الله ورسوله، وعاثوا في الأرض فسادًا حتىٰ سلبهم الله النعمة التي كان قد أعطاها بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]، أي: عالمي زمانهم، فصاروا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة:٦].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۝٥٨﴾.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد، ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي بني إسرائيل، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ لله عَزَّوَجَلَّ في عبادته ودعوته، ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ مُرسلًا من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿نَّبِيًّا﴾ رفعه الله عَزَّوَجَلَّ المكان العلي، وهو من أُولي العزم من الرُسل.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ النداء بصوت مرتفع، ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ الجبل الذي قد غُطيَّ بالأشجار، ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ يعني: يمين موسى، ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي: موسى، ﴿نَجِيًّا﴾ ناجاه الله عَزَّوَجَلَّ، والمناجاة: تكون بصوت خافت، وبهذا يستدل أهل السنة والجماعة: على إثبات صفة

الكلام لله عَزَّوَجَلَّ وأنه كلام حقيقي بصوت وحرف، يتكلم الله عَزَّوَجَلَّ متى شاء وكيف شاء وبما شاء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

﴿وَوَهَبْنَا﴾ أعطينا، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ وذلك بشفاعته، حيث قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٢٩-٣٢]، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن، ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو ابن إبراهيم من هاجر، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ لم يعد بشيء إلا وفى به، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ مُرسلًا من الله.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ المفروضة، ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ المكتوبة، ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ قائمًا بطاعته رضيه الله عَزَّوَجَلَّ لنبوته ورسالته، ومن ذريته نبينا ﷺ إذ أن أبناء إسحاق منهم النبوة والرسالة بعد إبراهيم، أما إسماعيل لم يكن منه إلا محمد ﷺ.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن، ﴿إِدْرِيسَ﴾ يذكر بعضهم: أنه بين نوح وآدم، ويذكر بعضهم غير ذلك، ويذكرون في شأنه: أنه سُميَّ إدريس؛ لكثرة درسه الكتب، وأنه كان خياطًا وهو أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، والله أعلم، ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ كثير الصدق والتصديق.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ يعني: في الجنة، وقيل: هي الرفعة بعلو الرتبة في الدنيا، وقيل: بأنه رُفِعَ إلى السماء الرابعة وقُبض هنالك.

❖ وفي الحديث: أن النبي ﷺ لقيه في السماء الرابعة، لكن هل لقيه قبل أن يُقبض، أم أنه قد قُبض، الذي عندنا: أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي رفعه الله عَزَّوَجَلَّ حيًا، أما إدريس فلا شيء يثبت في ذلك، وقال بعضهم: إن الله قدر عليه أن يموت في السماء الرابعة، فَرُفِعَ إليها وقبضه ملك الموت فيها، لكن هذه إسرائيليات لم يثبت فيها عن النبي ﷺ شيء.

﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ﴾ تقدم ذكرهم، ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بالإسلام والاستقامة، ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إذ أن آدم هو أبو البشرية الأول، ونوح هو أبو البشرية الثاني، وإبراهيم هو أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده، ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعقوب؛ لأنَّ أنبياء

بني إسرائيل كلهم من ذريته، ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ ممن لم يُذكروا في هذا الموطن اصطفاهم الله عَزَّوَجَلَّ بنبوته ورسالته، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ﴾ القرآن، ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ لله عَزَّوَجَلَّ معظمين له، ﴿وَبُكِيًّا﴾ يبكون للخشوع الذي رزقهم الله عَزَّوَجَلَّ وامتن عليهم به.

﴿۞ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: جاء من بعد النبيين، ﴿خَلْفٌ﴾ وهم قوم سوء، الخَلَف بفتح اللام الصالح، وبالسكون الطالح، قال السدي: أراد بهم اليهود ومن لحق بهم، وقال مجاهد وقتادة: هم في هذه الأمة، أهل البدع في كل زمن وحين، ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ تركوا الصلاة المفروضة، وقيل: أخروها عن وقتها، ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ المعاصي والسيئات من شرب الخمر، والزنا، واللواط، وتعاطي المخدرات وغير ذلك، ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ في آخرتهم، ﴿غَيًّا﴾ عذابًا في جهنم، قيل: وادٍ وقيل غير ذلك.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ رجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَآمَنَ﴾ بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ رسولًا ونبيًا، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ التزم العمل الصالح وكان صادقًا في توبته.

فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أُنَاسٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: «**أما مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ، فَلَا يُؤَاخَذُ بِهَا، وَمَنْ أَسَاءَ، أُخِذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ**» متفق عليه.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين آمنوا بالله وانقادوا لشرعه، ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ يوم القيامة، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يُنقصون ﴿شَيْئًا﴾ من أعمالهم،، بل توفى لهم أعمالهم مضاعفة، كما قال

تعالىٰ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦]، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام:١٦٠].

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ بساتين إقامة لا يتحولون عنها، ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ المؤمنين على ألسنة رسله، ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ فيما أخبر الله به وأخبر به رسوله ﷺ فصدقوه وأخذوا به، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ آتيًا لا محالة؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُخلف وعده ولا يُنقص عهده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٤].

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة، ﴿لَغۡوًا﴾ كلاما باطلًا فاحشًا وفضولًا، ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ من ربهم، ومن ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ، ومن طوافهم على أنفسهم فهي دار سلام ويحييون بالسلام، ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ﴾ عطاؤهم ، ﴿فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ ليس في الجنة ليل يُعرف به البكرة والعشي بل هم في نور أبدًا ولكنهم يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار.

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي﴾ لهم فيها هذا النعيم وخلقها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين، ﴿نُورِثُ﴾ نعطي وننزل، وقيل يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾**». أخرجه ابن ماجه(٤٣٤١).

﴿مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ من المتقين، ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ﴾ إذن ﴿رَبِّكَ﴾ وهذا كلام جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، إذ قال له النبي ﷺ: «**مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾**» أخرجه البخاري عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾ أمامنا، وقيل: ما بقي من الدنيا، ﴿وَمَا خَلۡفَنَا﴾ ما مضىٰ منها، ﴿وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾ مدة سنة، وقيل: بعد أن نموت، فالله محيط بهم، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾ تاركك.

۞ فالنسيان في حق الله عَزَّوَجَلَّ يأتي بمعنىٰ: الترك، أما النسيان بمعنىٰ الذهول فالله عَزَّوَجَلَّ منزه عنه فهو بكل شيء عليم وبكل شيء محيط.

❁ وبهذه الآية استدل أهل السنة: علىٰ أن الصفات السلبية المنفية يُثبت بها كمال الضد.

❁ واستدل بها أهل السنة علىٰ أن ما لم يأتِ فيه حُكم من الله عَزَّوَجَلَّ فهو علىٰ الإباحة إذ لو كان حرامًا لبينه وحذر منه.

ثم قال في التعريف بالرب العظيم الذي لا ينسى هو: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مالكهما ومدبرهما، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات الكثيرة العظيمة، ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحده والتزم طاعته، ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِۦ﴾ تصبر على ذلك والزم الطاعة والعبادة؛ لأنَّ الإنسان إذا لم يصبر لم يستطع أن يفعل شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ لا تعلم له مثيلًا، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣-٤]، وكقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧٤﴾ [النحل:٧٤].

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ متكبرًا متغطرسًا مُنكرًا للبعث والنشور، قيل: بأنه أُبيّ بن خلف، ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ ودُفنت في التراب وأكلني الدود وذهبت العظام، ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أُبعث من قبري، وهذا تكذيب منه بالبعث والنشور.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ يتفكر ويتذكر: ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فالذي أوجده من العدم قادر على أن يُعيده بعد فنائه، فإن الإعادة أسهل من البدأة، والله لا يعجزه شيء.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يُقسم الله بنفسه، ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ نجمعنهم يوم القيامة، ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ كذلك يُجمعون معهم فيصفدون في السلاسل، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ في جهنم،

﴿جِثِيًّا﴾ جماعات جاثين على الرُكب، لشدة الهول، كقول تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢].

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ لنُخرِجنَّ، ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أمة وأهل دين من الكفار، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي: وأعظم بعدًا وعتوًا وفجورًا، فيخرج الله عَزَّوَجَلَّ قادتهم وينكل بهم.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ بدخول النار، وأحق بذلك ممن كفر وعاند، ﴿صِلِيًّا﴾ يُلقى فيها فتُحيط به من جميع جوانبه.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي وما منكم إلا واردها، والورود هو: المرور على الصراط، وقيل: الدخول في جهنم.

والصحيح الأول، ولا يُلتفت إلىٰ غير ذلك من التفاسير.

فعن حفصة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: قال النبي ﷺ: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، وَالْحُدَيْبِيَةَ**»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، قَالَ: «**أَلَمْ تَسْمَعِيهِ يَقُولُ:** ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» أخرجه مسلم.

والصراط: هو الجسر الممدود علىٰ متن جنهم، قال عنه النبي ﷺ: «**مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**» متفق عليه عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ هذا الأمر، ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ واقعًا، ﴿مَّقْضِيًّا﴾ لا يتخلف.

قال البغوي رَحِمَهُٱللَّهُ: «وَرَوَىٰ ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ أَنَّ نَافِعَ بن الأزرق مارىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فِي الْوُرُودِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: هُوَ الدُّخُولُ. وَقَالَ نَافِعٌ: لَيْسَ الْوُرُودُ الدُّخُولَ، تلا عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، أَدْخَلَهَا هَؤُلَاءِ أَمْ لَا؟ ثُمَّ قَالَ: يا نافع أمَا

والله أنا وأنت سَنَرِدُهَا، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَنِي اللهُ مِنْهَا، وَمَا أَرَىٰ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُخْرِجَكَ مِنْهَا بِتَكْذِيبِكِ.

وَقَالَ قَوْمٌ: لَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ الْوُرُودِ الدُّخُولَ، وَقَالُوا: النَّارُ لَا يَدْخُلُهَا مُؤْمِنٌ أَبَدًا، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢]، وَقَالُوا: كُلُّ مَنْ دَخَلَهَا لَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها، الْحُضُورُ وَالرُّؤْيَةُ، لَا الدُّخُولُ، كَمَا قال تعال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ﴾ [القصص:٢٣]. أَرَادَ بِهِ الْحُضُورَ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، وَعَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ جَمِيعًا يَدْخُلُونَ النَّارَ ثُمَّ يُخْرِجُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْهَا أَهْلَ الْإِيمَانِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ﴾ [مريم:٧٢]، أَيِ اتَّقَوُا الشِّرْكَ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ. وَالنَّجَاةُ إِنَّمَا تَكُونُ مِمَّا دَخَلْتَ فيه لا ما وردت، وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ نُنْجِي بِالتَّخْفِيفِ وَالْآخَرُونَ بِالتَّشْدِيدِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ هَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَيَلِجُ النَّارَ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ**»، متفق عليه، ولا يلزم من ولوجهم وورودهم عليها أن يعذبوا، فقد يمر أحدهم كالبرق لا يصيبه من أمرها شيء، ويمر أحدهم كشد الرجال، ويمر أحدهم يمشي، ومنهم من يُخدش، ومنهم من يكردس علىٰ وجهه في نار جنهم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ نسلم ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أهل الإيمان، ﴿وَّنَذَرُ﴾ نترك ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ يقيمون فيها فلا يخرجون منها أبدًا، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا ٧٦﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ تُقرأ، ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ من القرآن، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات جليات، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معارضة وردًا على المؤمنين، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أهل الإيمان أو أهل الكفر والطغيان، ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ منزلًا ومسكنًا، ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلسًا؛ لأنهم كانوا يجتمعون في النادي: وهو المجلس الذين يجتمعون فيه، فيقولون لأهل الإيمان: أي الفريقين خير نحن أم أنتم؟ فمجالسنا خير من مجالسكم، ونادينا خير من ناديكم، مع أن العبرة ليست بحسن المنظر وإنما العبرة بالمخبر وما عليه القلب من اليقين والإيمان والجوارح من الأنقيا،﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ من أمم وقرى، ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ منهم، ﴿أَثَاثًا﴾ من الأثاث والمتاع الذي تؤثث به البيوت، ﴿وَرِءْيًا﴾ منظرًا، فإن كان شأنهم أنهم أحسن منكم في مجالسهم وفي مناظرهم فقد أهلكنا أممًا قبلهم هم أحسن منهم أثاثًا وأحسن منهم رئيًا: وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**» أخرجه مسلم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي﴾ في الكفر والطغيان، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ يمهله ويملي له استدراجًا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦]، وفي حديث أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» متفق عليه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ﴾ إلىٰ أن يروا: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ ما يتوعدهم الله به بسبب كفرهم، ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ وهو الأسر والقتل في الدنيا، ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يوم القيامة، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك، ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلًا، ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أقل ناصرًا، فهم يتفاخرون في الدنيا، والمؤمنون ينتصرون عليهم في عاقبة الأمر في دنياهم وأخراهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢].

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ إيمانًا ويقينًا على ما هم فيه من الخير.

❁ وهذا دليل لأهل السنة والجماعة علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ

﴿إِيمَٰنًا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]، والأدلة علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه ثابتة بالكتاب والسنة وعليها إجماع السلف.

فعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**مَنْ رَأَىٰ مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» أخرجه مسلم، فيزداد الإيمان لأهله كما يزداد الكفر في أهله قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

﴿وَالْبَاقِيَاتُ﴾ الأعمال الباقية إلىٰ يوم القيامة، ﴿الصَّالِحَاتُ﴾ من الأذكار ونحوها، ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أجرًا وجزاءً، ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ عاقبة ومرجعًا، وقد قيل بأن الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

والصحيح: أنها من الباقيات الصالحات، وإلا فالتوحيد، والصلاة من أعظم الباقيات الصالحات، وهكذا الزكاة، والحج، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلىٰ الجيران، وكل الطاعات من الباقيات الصالحات، تجد أثرها وأجرها يوم القيامة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ [الغاشية:٩]، أي: تلقىٰ أعمالها، وترضاها.

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ٨٠ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا ٨٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾.

﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ أخبرني يا محمد عن، ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ وهو العاص بن وائل، ﴿وَقَالَ﴾ متعجبًا متكبرًا معاندًا، ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ لأعطين يوم القيامة إذا بعثت، ﴿مَالاً وَوَلَدًا﴾ كما أعطيتها في الدنيا.

📖 فِي سَبَبِ نُزُولِهَا: ما في الصحيحين: عن خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا، فَعَمِلْتُ لِلْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، فَاجْتَمَعَ لِي عِنْدَهُ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: لاَ وَاللهِ لاَ أَقْضِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، فَقُلْتُ: أَمَا وَاللهِ حَتَّىٰ تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ فلاَ، قَالَ: وَإِنِّي لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لِي ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ، فَأَقْضِيكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

فهل ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ على اللوح المحفوظ، ورأى أنه من أهل الجنة وهذا لم يقع، ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أنه سيسلمه من النار، وكان من أهل الإيمان الذين وعدهم الله عَزَّوَجَلَّ بدخول الجنة ﴿كَلَّا﴾ لم يفعل ذلك.

۞ وهذا أول موطن يُذكر فيه: كلا؛ لأنها لم تُذكر في النصف الأعلىٰ من القرآن، وتأتي بمعنىٰ: حقًا، وتأتي بمعنىٰ: الزجر والردع، ويكون لها معنيان: معنىٰ مع ما قبلها، ومعنىٰ مع ما بعدها.

﴿سَنَكْتُبُ﴾ سنحفظ عليه: ﴿مَا يَقُولُ﴾ من الأقوال والأفعال فيجازى بها في الآخرة، ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ نزيده عذابًا فوق العذاب، ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ من الأموال والأولاد، وقيل: نحفظ ما يقول حتى نجازيه به، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ بلا مال وولد، ففي حديث ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» متفق عليه، وفي رواية: «**بُهْمًا**».

وفي حديث عائشة: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**» متفق عليه.

فالغرل: الذي لم يُختن، والعاري: الذي لا لباس له، والبهم: الذي لا مال له، فيأتي فردًا؛ وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاَثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَىٰ مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَىٰ عَمَلُهُ**» متفق عليه.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ قوةً ومنعة.

﴿كَلَّاۚ﴾ حقًا ليسوا كذلك بل ﴿سَيَكۡفُرُونَ﴾ يوم القيامة، أي: أن الأصنام تجحد عبادة المشركين لها، كما قال تعالى: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣]، ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا﴾ أعداءً لهم، بعد أن كانوا أولياء لهم في الدنيا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٧-٦٨].

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ يا محمد: ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾ بعثنا، ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ الذين شطوا عن الطاعة ولجوا في الشرك والمعاصي، ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ تزعجهم إزعاجًا من الطاعة وتحركهم وتحثهم على الشرك والمعاصي؛ ولذلك تجد المجرم لا يستطيع أن يسكن كأن معه شيء يسوقه إلى الباطل وهي الشياطين قد استحكمت منه وسواسًا وأزًا، ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ لا تستعجل العذاب ولا تطلبه لهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾ يعني: الأنفاس التي يتنفسونها والأيام والليالي التي قُدِرت لهم حتى يلحقهم الموت.

واذكر: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ﴾ نجمع: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ يُحشرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ كأنهم في موكب، ومعلوم أن الوفد يُرحب به ويُكرم ويُستبشر بقدومه، فدخولهم دخول الكرماء.

﴿وَنَسُوقُ﴾ ندفع، ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ مشاة عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش.

وفي حديث الشفاعة عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: « **عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَىٰ النَّصَارَىٰ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ، كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ** » أخرجه مسلم.

﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ عندئذ، ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ من يشفع لهم قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ التوحيد، ومن قال لا إله إلا الله.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الكفار من اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله، ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ وهذا قول منكر ومسبة لله عَزَّوَجَلَّ.

فعن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ: «**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**» متفق عليه.

﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ﴾ أتيتم، ﴿شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ منكرًا عظيمًا وهو أعظم الدواهي، ومن أشهر من أظهر هذا القول النصارى: حيث زعموا أن عيسى ابن الله.

وهذا القول العظيم: ﴿تَكَادُ﴾ تقرب، ﴿السَّمَاوَاتُ﴾ شديدة التمسك ﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ تتشقق من شؤم هذا القول، ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ الصلدة الصلبة، ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ الشامخة، ﴿هَدًّا﴾ متكسرة.

والسبب ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ من أجل أن جعلوا للرحمن ولدًا، قال ابن عباس وكعب: فزعت السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا: اتخذ الله ولدًا، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: لا يجوز للرحمن عَزَّوَجَلَّ أن يكون له ولد؛ لأنَّ الله له الملك المُطلق.

فما حجة من يذهب إلىٰ دعوة التقارب بين المسلمين وبين اليهودية والنصرانية، وأين موقفهم من هذا القول العظيم الذي يصدر من اليهود والنصارىٰ؛ بأن لله عَزَّوَجَلَّ ولدًا فهو قول شديد الوقع، لولا أن الله عَزَّوَجَلَّ قضىٰ ببقاء السماوات والأرَضين والجبال الراسيات لتشققت السماوات من عظيم هذا القول القبيح، فإن الله عَزَّوَجَلَّ غني حميد عظيم لا يجوز أن

يكون له ولد أو تكون له صاحبة، فإن هذا إنما يكون للمخلوق الضعيف الذي يحتاج إلىٰ قضاء شهوة، وإلىٰ وارث، وإلىٰ معين والله عَزَّوَجَلَّ هو الغني الحميد، وقد قيل في معنىٰ: الصمد: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فيجب علىٰ المسلمين أن يحذروا من هذه البلية والرزية، فدعاتها أرادوا أن يجمعوا بين الشرك والتوحيد وهذا لا يكون، فالتوحيد حق الله، والشرك دين الشيطان، فلا يجتمع إسلام وكفر، ولا يجتمع توحيد وشرك، ولا تجتمع سنة وبدعة.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ يوم القيامة، ﴿عَبْدًا﴾ ذليلًا خاضعًا، فالخلق كلهم عبيده.

ومع ذلك، ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أحصى وحفظ أعدادهم وأعمالهم وآثارهم وجميع ما يتعلق بهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وفي حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَىٰ قُرْبِ الْمَسْجِدِ، قَالَ: وَالْبِقَاعُ خَالِيَةٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ**»، فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا» أخرجه مسلم.

﴿وَكُلُّهُمْ﴾ أي: أهل الأرض، ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ وحيدًا ليس معه من الدنيا شيء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ﴾ يُصير لهم، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ محبةً في قلوب المؤمنين.

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ**» وهذا لفظ مسلم، وأخرج البخاري أوله.

وهذا وعد من الله عَزَّوَجَلَّ لك أيها المستقيم علىٰ الكتاب والسنة أن يمكن لك، وأن يجعل لك ودًا ومحبةً في قلوب المؤمنين، وأما الكافر والمنافق والمُعرض فلا عبرة به، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ سهلناه أي: القرآن، ﴿بِلِسَانِكَ﴾ العربي، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين بما لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ من النعيم المقيم والخير العظيم، ﴿وَتُنذِرَ﴾ تخوف: ﴿بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أصحاب خصومة وبُعد عن الحق، وفي حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**» متفق عليه.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ قبل قريش، ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أمم، ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ تجد أو ترى أو تعلم ﴿مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ صوتًا، وقيل: الركز: الصوت الخفي، فقد بادوا جميعًا وأصبحوا كأمس الدابر، وهذا تهديد لقريش ومن كان على شاكلتهم ممن أبوا إلا البُعد عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وطاعة رسوله ﷺ، ولله الحمد.

تفسير

سورة طه

سُورَةُ طه

۞ مكية، وآياتها: مائة وخمسة وثلاثون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ .

﴿طه﴾ قيل: يا محمد، وقيل: هو قسم، وقيل: من أسماء الله، وقيل: يا رجل، ويا إنسان إلىٰ غير ذلك.

❖ والصحيح: أنه من الأحرف التي تتفتح بها أوائل السور، وليس له معنىٰ في نفسه، علىٰ ما بيناه في أول سورة البقرة.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد، ﴿ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ لتتعب ﴿إِلَّا﴾ أنَّ سبب نزوله: ﴿تَذْكِرَةً﴾ موعظة، ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ يخاف الله عَزَّوَجَلَّ مع التعظيم له؛ فهو الذي يتذكر كما قال تعالىٰ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلىٰ:١٠-١١]، وهذا القرآن نزل: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ جمع عالية وهي الرفيعة، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ارتفع وعلا وصعد، وقيل استقر.

۞ وهذه الآية من أصرح الآي التي يُستدل بها علىٰ علو الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه، وقد تقدم بيان إثبات هذه الصفة في مواطن.

﴿لَهُۥ﴾ أي: لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا﴾ من الخلق، ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ وما تحت التراب الندي.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ وتعلن به، ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ الذي يُخفيه الرجل في قلبه، ﴿وَأَخْفَى﴾ وما هو أخفى من ذلك، لا تخفى عليه خافية.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الله الذي لا إله إلا هو، لا معبود بحق إلا هو، فلا يُشرك معه ملك مقرب ولا نبي مُرسل، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الحسنة جمع أحسن، وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ كلها حُسنى مأخوذة من الكتاب والسنة، ومتضمنة لمعاني عظيمة فكل اسم يتضمن صفة، وليست بجامدة على ما بيناه في تفسير سورة الأعراف.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ قد أتاك، ﴿حَدِيثُ﴾ خبر ونبأ، ﴿مُوسَى﴾ ابن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين رجع من مدين ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ موقدة في وادٍ وكان برفقة أهله، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ الزوجة، ﴿امْكُثُوا﴾ اسكنوا في مكانكم، ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ أبصرت، ﴿نَارًا﴾ والنار يُستفاد منها في الضوء، والطهي، والاستدفاء، وغير ذلك من المصالح ﴿لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ شعلة من النار يأخذها بطرف العمود، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى﴾ عند ﴿ٱلنَّارِ هُدًى﴾ من يدلني على الطريق.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أتىٰ النار، يذكر أهل التفسير أنه رأىٰ شجرةً خضراء من أسفلها إلىٰ أعلاها، أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون، ولم يرد شيء يثبت عن النبي ﷺ في ذلك، ومثل هذه الأمور تترك ولا تُروىٰ، وإن كانت من الإسرائيليات إذ أنهم قد توسعوا جدًا، وينبغي ألا ننقب عما لا دليل عليه، فلو كان في ذكر هذه النار ونوعها وشأنها مصلحة للإسلام والمسلمين لذُكِرت، ﴿نُودِي﴾ ناداه الله عَزَّوَجَلَّ بصوت مرتفع، ﴿يَامُوسَى﴾ دليل علىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم بحرف وصوت.

فقال له، ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ الذي خلقك ورزقك، والذي أحاطك وحفظك، ﴿فَٱخۡلَعۡ﴾ القِ ﴿نَعۡلَيۡكَ﴾ الله أعلم ما السبب، أما شريعتنا فقد شَرع لنا الصلاة في النعال، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**خَالِفُوا الْيَهُودَ وَصَلُّوا فِي نِعَالِكُمْ**» أخرجه البزار، وفي الصحيحين من حديث أنس أن النبي ﷺ صلى في نعليه، ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ المُعظم والمُطهر، ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي.

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ اصطفيتك، ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ سمع إجابة، ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك من التوراة ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ لا شريك لي، ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ وحدني.

۞ وهذا دليل علىٰ أن المتكلم هو الله لا الشجرة كما تزعم المعتزلة، إذ لا يجوز لمخلوق أن يقول أنه الله، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: لتذكرني فيها، وقيل: إذا نسيت أن تأتي بها، ثم ذكرتها فأقمها.

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ**»، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤].

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامة، ﴿ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ قال بعض المفسرين: أكاد أُخفيها عن نفسي فكيف يعلمها مخلوق؟ أو كيف أُظهرها لكم؟، كما قال تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف:١٨٧]، ﴿لِتُجۡزَىٰ﴾ يوم القيامة، ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ﴾ من المُكلفين من الجن والأنس، ﴿بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ بما تعمل من خير أو شر، ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ يصرفنك ﴿عَنۡهَا﴾ عن الإيمان بالساعة، ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ ممن ينكر البعث والنشور، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فقدم مراده وهوى نفسه على مراد الله ﴿فَتَرۡدَىٰ﴾ فتهلك.

﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤال تقرير ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ اعتمد عليها إذا مشيت وإذا عييت وعند الوثبة، ﴿وَأَهُشُّ﴾ أضرب أوراق الشجر، ﴿بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ إذ كنت أرعى الغنم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ**» متفق عليه، ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ حاجات ومنافع، ﴿أُخْرَىٰ﴾ يعرفها من عاش في البادية، فقد تقتل بها ثعبانًا، وتعلم بها الطريق بالليل، وقد تأخذ بها شيئًا في الأرض وترفعه إليك، وربما ربط فيها حبلًا ونحوها وأنزلها إلى البئر ليستقي بها إلى غير ذلك من المصالح.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ انبذها وطرحها في الأرض ﴿يَامُوسَى﴾، ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ طرحها، ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ من الحيات، ﴿تَسْعَىٰ﴾ تتحرك وتمشي بسرعة، كما قال: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل:١٠]، وهي الحية الصغيرة الخفيفة الجسم، وقال: ﴿ثُعْبَانٌ﴾ [الأعراف:١٠٧]، وهي أكبر ما يكون من الحيات، فلعها بدأت صغيرة ثم كبرت حتى كانت كالثعبان أو أنها في حجمها كالثعبان، وفي خفتها كالجان.

وحين رأى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ العصا تضطرب تخوف ورجع إلى الوراء، ف ﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿قَالَ﴾ بيمينك، ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ من سطوتها، ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ هيئتها، ﴿الأُولَى﴾ كما كانت عصا، وهذا من قدرة الله.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ جنبك تحت العضد، كما قال تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص:٣٢]، الجيب: هو مقدم الصدر، ولعله يمدها إلى الإبط، ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ نيرة مُشرقة، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير عيب أو برص، ﴿آيَةً﴾ علامة على نبوتك وصدقك، ﴿أُخْرَىٰ﴾ غير العصا وتكون حجة لك بين يدي فرعون.

وفعلنا ذلك ﴿لِنُرِيَكَ﴾ نطلعك، ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الدالة على عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الطاغية الذي يقول: أنا ربكم الأعلى، ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ جاوز حده حيث قتل، وتمرد، وادعى الألوهية والربوبية.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

فعند ذلك دعا ربه؛ لأنَّ الداعي إلى الله يحتاج إلى أمور تؤهله للدعوة ومن أعظمها انشراح الصدر: ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وسعه للحق حتى لا أخاف غيرك، وحتى يطمئن، والله عَزَّوَجَلَّ قد امتن على محمد ﷺ بانشراح الصدر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، وامتن على المؤمنين بذلك كما قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، ولأنشراح الصدر أسباب قدرية وشرعية، فمنها: الكرم، والعلم، والشجاعة، وحسن العبادة، والتوكل، وملازمة الاستغفار، والذكر، والدعاء، واتباع هدي السلف الصالح، والتوبة، والتحلل من المظالم، وغير ذلك.

﴿وَيَسِّرْ﴾ سهل ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ في تبليغ الدين كما قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا، وَأَنْتَ تَجْعَلُ الْحَزْنَ إِذَا شِئْتَ سَهْلًا**» أخرجه ابن حبان في " صحيحه " (٢٤٢٧) وابن السني (٣٥١) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني، ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ وذلك لما ذُكِر: أن موسى كان في حجرة فرعون فلطم فرعون وأخذ بلحيته، فأراد فرعون أن يبطش به، فقيل: بأنه ولد صغير لا يتصرف في شأنه فأُعطي تمرةً وجمرة فأكل الجمرة، كما في حديث الفتون والله أعلم.

كي ﴿يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ يفهموا ﴿قَوْلِي﴾ ودعوتي لهم، ﴿وَاجْعَل لِّي﴾ صير لي، ﴿وَزِيرًا﴾ معينًا وظهيرًا يكون له في شأنه، ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ هذه أعظم شفاعة حيث شفع لأخيه أن يكون نبيًا.

﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ وهو أكبر من موسى في السن، وموسى أفضل منه في الرسالة والنبوة.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ قوي به: ﴿أَزْرِي﴾ يعني: ظهري، كناية عن: قوي به أمري.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ أي: يكون رسولًا كما أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رسول.

﴿كَيْ﴾ لكي ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ نصلي لك ﴿كَثِيرًا﴾ تعاون على البر والتقوى.

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك، ومهما أكثر الإنسان فـ: «**اللهُ أَكْثَرُ**»، كما قال النبي ﷺ.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ خبيرًا عليمًا بحالنا تُبصرنا بعينين حقيقيتين تليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ قَدْ﴾ أُعطيت ﴿سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ جميع ما سألت ﴿يَامُوسَى﴾.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ أنعمنا عليك، ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ يعني: قبل هذه المرة.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وحي إلهام حين وضعتك، ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما ألهمها الله به ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ اطرحيه ﴿فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ الصندوق، ﴿فَٱقْذِفِيهِ﴾ اطرحيه وارميه ﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾ في نهر النيل، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ شاطئ النهر، لفظه أمر ومعناه الخبر، ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ فرعون، ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ وضعتُ ﴿عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ فلا يراك أحد إلا أحبك، وهذا من عظيم نعمة الله: أنه يُحب المؤمنين ويُحبب المؤمنين إلى عباده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]، ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ تُربى ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ بمرأى مني.

۞ وفيه: إثبات صفة العينين لله عَزَّوَجَلَّ، وهما عينان حقيقيتان يُبصر ويرىٰ بهما تليق بجلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، وقد ذهب المبتدعة إلىٰ تفسير

البصر بالعلم بالمبصرات، وهذا تفسير باطل، بل إنه عليم بكل شيء ويُبصر المبصرات بعينين حقيقتين.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ﴾ لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أرشدكم، ﴿عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ يضمه ويقوم برعايته والإحسان إليه، إذ أنه قد أبى أن يرضع من أحد من النساء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ [القصص:١٢]، ومشي أخته كان بأمر أمها لها؛ لطلب أثره ولتتبع خبره، كما قص الله ذلك في سورة القصص، ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾ رددناك، ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ التي ولدتك، ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ برؤيتك وتربيتك، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ ويذهب عنها الحُزن: ﴿وَ﴾ اذكر إذ ﴿قَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قتل القبطي ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ﴾ سلمناك ﴿مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ من العقوبة والكرب الذي نزل بك إذ أرادوا قتلك، ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ اختبرناك اختبارًا، وابتليناك ابتلاءً، وقيل: أخلصناك إخلاصًا.

وحديث الفتون ذكره بطوله ابن كثير في تفسير سورة طه، وهو حَريٌّ بالدراسة بحيث مما وجد له ما يدل عليه من الكتاب والسنة بُيّن، وما لم يكن له ما يدل عليه من الكتاب والسنة توقف فيه إذ أن بعضهم لا يُثبته مرفوعًا، مع أن ابن عباس قد ذكر في آخره النبي ﷺ.

﴿فَلَبِثْتَ﴾ بعد فرارك من مصر، ﴿سِنِينَ﴾ عدة، ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ ترعىٰ الأغنام ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ علىٰ الوقت الذي قد قدره الله عَزَّوَجَلَّ، قيل: لبث في مدين ثمانية وعشرين سنة والله أعلم، ويظن البعض، أنه تزوج بنت النبي شُعيب؛ وشعيب قبله بدهور، لكنه إنما تزوج امرأة رجل من مدين قد يُقال له شُعيب وقد يكون اسمه غير ذلك والله أعلم.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ اخترتك، ﴿لِنَفۡسِي﴾ حيث جعله مُبلغًا لرسالته، فيه: إثبات صفة النفس لله عَزَّوَجَلَّ: وهي الذات على القول الصحيح، وذهب بعضهم إلى أن النفس صفة من صفات الذات، والراجح الأول.

﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ الشرعية وهكذا العلامات التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ حجة كالعصا وغير ذلك، ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ تفترا وتقصرا، ﴿فِي﴾ عن ﴿ذِكۡرِي﴾ بهذه الآية استدل أهل العلم على فضيلة الذكر، وأنه سبب للرفعة، وذهاب الحزن، وسبب للنصر والتمكين، فالله عَزَّوَجَلَّ أمر المؤمنين إذا التقوا بغيرهم أن يكثروا منه، كما قال: ﴿وَاذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥].

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ بدعوىٰ الربوبية، ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ داريا وارفقا به، قال ابن عباس: لا تُعنفا في قولكما، وسبحان الله مع بغي فرعون وسوطته وشدته يأمر الله عَزَّوَجَلَّ بالترفق به لعله أن يهتدي أو يلين، وكان قوله: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ [النازعات:١٨-١٩]، ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ، ﴿أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ يخاف الله عَزَّوَجَلَّ فيتوب من ذنبه العظيم في ادعاء الربوبية.

﴿قَالَا﴾ موسىٰ وهارون: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا﴾ من فرعون، ﴿أَن يَفۡرُطَ﴾ يتجاوز، ﴿عَلَيۡنَا﴾ بالقتل والعقوبة، ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ يتجاوز الحد في الإساءة، وهذه آية أخرىٰ من آيات الله إذ يدخلأنَّ علىٰ فرعون ليس معهما سلاح، ومع ذلك يكلمانه بكل فصاحة ووضوح علىٰ أنه ليس برب وأن الرب هو الله الواحد القهار، فلم يستطع أن يتعرض لهما، وما كان من شأنه إلا أن واعدهما شأن السحرة، مع حرصه علىٰ قتله لكنه عاجز لقول الله تعالىٰ ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص:٣٥].

﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ معية حفظ وكلاءة ونصر وتمكين، وهو علىٰ عرشه ﴿أَسۡمَعُ﴾ بسمع يليق بجلاله، ﴿وَأَرَىٰ﴾ بعينين حقيقيتين تليق بجلاله.

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ﴾ لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلنا بالبينات والهدىٰ؛ لدعوة بني إسرائيل إلىٰ توحيده وإفراده بما يجب له، ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾ ابعث، ﴿مَعَنَا بَنِي إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قوم موسىٰ؛ ﴿وَلَا

﴿تُعَذِّبْهُمْ﴾ لا تتعبهم في العمل، وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقة، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ﴾ أتيناك، ﴿بِآيَةٍ﴾ بينة، ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ الذي خلقك ورزقك ودبر شأنك، ﴿وَالسَّلَامُ﴾ السلامة، ﴿عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ الحق وانقاد له، وليس المراد منه التحية، وإنما هو إخبار أن السلامة في الدنيا والأخرىٰ لمن اتبع هدىٰ الله وانقاد لشرعه.

﴿إِنَّا﴾ موسىٰ وهارون، ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَنَّ الْعَذَابَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ رسل الله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الهداية، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]، أما من استجاب فله الخير العظيم.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ تعنتًا مع علمه بالرب؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل:١٤]، وموسىٰ يقول له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، فهو يعلم الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إلا أنه أنكره مكابرة، ولم ينكر الرب إلا شواذ من البشرية، فرعون من باب المكابرة، والاشتراكيون والشيوعيون من باب الجحود.

﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ﴾ خَلَقَهُ ﴿خَلْقَهُۥ﴾ صورته التي هو عليها، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل مخلوق إلىٰ ما يُصلحه، فالبهائم تعلم ما يُصلحها، فتجد بهيمة تأكل من الأعشاب فتأكل بعض ما يصلحها وتترك البعض، وترىٰ بهيمة تتغذىٰ علىٰ اللحوم فتأكل بعضًا وتترك بعضًا، وهكذا الطفل يخرج من بطن أمه يبحث عن الثدي، وهذه هي الهداية العامة التي يشترك فيها البر والفاجر، والمؤمن والكافر.

﴿قَالَ﴾ فرعون مُكابرًا: ﴿قَالَ فَمَا﴾ شأن، ﴿الْقُرُونِ الأُولَى﴾ الأمم التي سبقت وفنيت وأكلتها الأرض وبادت ﴿قَالَ﴾ موسىٰ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي﴾ أعمالها محفوظة عند الله يجازيهم بها، ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ لا يُخطئ: ﴿رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ لا يترك ولا يذهل، لكمال علمه فهذه الصفة تُسمىٰ صفة سلبية، والقاعدة عن أهل السنة: أن الصفات السلبية يُثبت بها كمال الضد، فقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، لكمال قوته، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ [فاطر:٤٤]، لكمال قدرته وعلمه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ﴾ الواسعة، ﴿مَهْدًا﴾ بساطًا وفراشًا، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طُرقًا تسلكونها، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطرًا، ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أنبتنا ﴿بِهِ أَزْوَاجًا﴾ أصنافًا، ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ مختلفة الألوان والطعوم والمنافع، بين أبيض وأحمر، وأخضر وأصفر.

﴿كُلُوا﴾ مما رزقكم الله عَزَّوَجَلَّ، والأمر للإباحة ﴿كُلُوا﴾ ارتعوا، ﴿أَنْعَامَكُمْ﴾ غنمكم وما تأكلون منه من الدواب، وتشربون من ألبانها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ علامات ودلائل وحجج، ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ لأصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة، ومع هذا كله ما استجاب لهم، بل بقىٰ في كفره وعناده.

﴿مِنْهَا﴾ من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾، وهذا أصل خلقة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: بعد موتكم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات:٢٥]، أي: تكفتهم: ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات:٢٦]، فتكفت ما يخرج منهم في حياتهم، وتكفت جثامينهم بعد موتهم، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ﴾.

❁ وهذا دليل علىٰ البعث والنشور.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ أي: فرعون، ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ البينات الظاهرات ولعلها الآيات التسع الذي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الأعراف، ﴿فَكَذَّبَ﴾ بهذه الآيات وزعم أنها سحر، ﴿وَأَبَىٰ﴾ رفض أن يُسلم.

و ﴿قَالَ﴾ فرعون معرضًا عن الدعوة: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ﴾ يعني: مصر، ﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ تتغلب علىٰ ديارنا فيكون لك المُلك ظاهرًا، وهذه دعوة عليلة قد اتهم بها جميع الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: مجيء السحرة، ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أجلًا نجتمع فيه، ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ لا نتخلف عنه ولا نجاوزه، ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ يعني: مكان بيننا وبينك عدلًا لا يخلف، ويحشر الناس ليروا من يغلب ممن ينهزم.

﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ﴾ يوم العيد يتزينون فيه ويجتمعون، ﴿وَأَن يُحْشَرَ﴾ يُجمع، ﴿ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ ضحوة في أول النهار؛ ليكون أبعد من الريبة ويرون الأمر على حقيقته.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ إلى وزرائه وأهل مملكته، ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ السحرة ومن إليه، ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ على الميعاد الذي ضُرِبَ بينهم.

﴿قَالَ لَهُم﴾ عند اجتماعهم: ﴿مُّوسَىٰ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَيْلَكُمْ﴾ كلمة تدل على التحذير: و(ويحك) على الترحم، ﴿لَا تَفْتَرُواْ﴾ تكذبوا وتختلقوا: ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعواكم أن هذه العصا سحر، ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ يُهلككم، ﴿بِعَذَابٍ﴾ قتل ودمار، ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر ﴿مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾

على الله الكذب، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ يدمدم عليه ويُظهر كذبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ تشاوروا وتناظروا، ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ على أنهم سيغلبوا موسى أو أنهم كما قال بعضهم: إن غلبنا موسى اتبعناه، ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ المناجات عن فرعون وقومه، والنجوى: هي التحدث فيما بينهم بالصوت الخافت.

﴿قَالُوٓاْ﴾ فرعون وملؤه، ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ﴾ يريدون موسى وهارون، ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ مصر، ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذي جاءا به، ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ بسبيلكم وقوتكم وشرفكم، ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ الفُضلى، تأنيث الأمثل، فبنوا إسرائيل كانوا أكثر عددًا وأقل قوة، وفرعون كان متغلبًا عليهم فظن أن انتصار موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إقامة لشأنهم، ولو دخل فرعون في الإسلام لكان له ملكه وشأنه، لكن هو الله لو علمه أهلًا للهداية لوفقه وسدده.

﴿فَأَجْمِعُوا﴾ فأحكموا، ﴿فَأَجْمِعُواْ﴾ سحركم ومكركم، ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ جميعًا بحيث لا ينفرد بأحدكم دون الآخر؛ بل تقومون عليه مرة واحدة، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ﴾ نال المطلوب وسلم المرهوب، ﴿ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ من ظهر سواءً أنتم أو موسى؛ لأنَّ فرعون واعدهم أن يكونوا من المقربين.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي: السحرة عند ذلك: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ الحبال والعصي.

﴿قَالَ﴾ لهم موسىٰ: ﴿قَالَ بَلْ﴾ أنتم قبلي، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ التي زعموا تحويلها إلىٰ ثعابين وحيات، ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿مِن سِحْرِهِمْ﴾ الكُبَّار، ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ وتجري، ﴿فَأَوْجَسَ﴾ وَجَدَ، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ خوفًا من ذلك، فخاف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

من الحيات المتكاثرة التي تضطرب في الوادي، وهذا خوف طبيعي لا يأثم عليه الإنسان، إنما الإثم إذا كان خوفه خوف السر من أن هذا المخلوق يتصرف مع الله أو من دون الله وهو خوف المشركين من أصنامهم وأوثانهم.

❖ وبهذه الآية استدل المعتزلة علىٰ أن السحر عبارة عن تخيلات ولا حقيقة له، وهذا قول رديء رده أهل السنة جملةً وتفصيلًا، فإن للسحر حقيقة، وإن كان قد يُخيل للمسحور بعض شيء، ومما يدل علىٰ حقيقته: أنه مرض قد يؤدي إلىٰ هلاك صاحبه، وربما شُفيَّ منه باستخدام الرُقَىٰ والأدعية الشرعية فقد سُحِرَ النبي ﷺ حتىٰ كان يُخيل إليه أنه يأتي الشيء ولا يأتيه حتىٰ عافاه الله.

كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين قَالَتْ: سَحَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ بَنِي زُرَيْقٍ، يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ: قَالَتْ حَتَّىٰ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ، وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ، دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ قَالَ: « **يَا عَائِشَةُ أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ جَاءَنِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ، أَوِ الَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، قَالَ: وَجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ** ».

قَالَتْ: فَأَتَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ وَاللهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**» قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أَحْرَقْتَهُ؟ قَالَ: «**لَا أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللهُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَىٰ النَّاسِ شَرًّا، فَأَمَرْتُ بِهَا فَدُفِنَتْ**».

﴿قُلْنَا﴾ علىٰ التعظيم أي: الله عَزَّوَجَلَّ أوحىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منهم ومن كيدهم، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الظاهر الذي لك الغلبة والظفر، ﴿وَأَلْقِ﴾ اطرح ﴿وَأَلْقِ مَا فِي﴾ العصا، ﴿تَلْقَفْ﴾ تلتقم وتبتلع، ﴿مَا صَنَعُوا﴾ من السحر والكيد، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟﴾ الذي صنعوه، ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ حيلة ساحر، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ لا يَسْؤُد حيث كان، وهذه من الآيات

البينات علىٰ أن السحرة إنما تتسلط عليهم الشياطين وتؤزُّهم إلىٰ الباطل، ولا فلاح لمكرهم كما لا فلاح في حالهم، وهذه من الآيات الدالة علىٰ كفر الساحر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]، فلا يجوز أن يُتَعَلمْ السحر والشعوذة ولا يجوز أن يُعَلم، كما أنه لا يجوز أن يُفك السحر بالسحر.

❖ وما جاء عن السلف في تجويز النُشرة فالمراد به: ما كان بالقرآن والسنة والأدعية الشرعية، أما النُشرة التي هي حل السحر بالسحر فهي شرك وكفر.

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ** ﷺ» أخرجه البزار موقوفًا عليه وله حكم الرفع وأخرجه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله شاهد من حديث عن أبي هريرة عند أحمد وآخر عن عمران بن حصين عند البزار.

وفي مسلم عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**».

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَأُلْقِيَ﴾ عند ذلك، ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ انقدنا وأقررنا، ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ وذلك؛ لما رأوا من الدلائل على صدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ أن الحية التي التهمت ما صنعوا كانت حية حقيقية لا تخيلية.

﴿قَالَ﴾ فرعون كبرًا وبغيًا، ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أقررتم وانقدتم له ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ وهو لن يأذن إنما هذا من باب المكابرة، ﴿إِنَّهُ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ عظيمكم، ﴿الَّذِي

عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وهذا من كذب فرعون إذ أنه جمعهم من البلدان والأوطان وموسىٰ كان مختفيًا في هذه الفترة كلها ولم يتعلم سحرًا ولا شعوذة، ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ يقطع اليد اليمنىٰ والرجل اليسرىٰ، وهذا من التعذيب الشديد.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: علىٰ جذوع النخل، ومن هذا تعلم أن معنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦]، علىٰ السماء، قيل: لأنَّ أحرف الجر تتناوب، وقيل: لأنَّ المراد بالسماء العلو، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أيها السحرة، ﴿أَيُّنَا أَشَدُّ﴾ قوة و ﴿عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ في النصر والتمكين ﴿قَالُوا﴾ السحرة: ﴿قَالُوا لَن﴾ نختارك، ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدلالات الواضحات علىٰ صدق موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أبدعنا وخلقنا.

❁ لها معنيان:

- **المعنىٰ الأول**: لن نختارك علىٰ ما جاءنا من البينات ولا علىٰ الذي فطرنا.
- **المعنىٰ الثاني**: أنها يمين: والمعنىٰ والذي فطرنا لن نختارك.

﴿فَاقْضِ﴾ اصنع، ﴿مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ صانع بنا وافعل ما بدىٰ لك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي﴾ تتسلط في ﴿هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ التي هي دار زوال ثم المآل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾ أقررنا وانقدنا وصدقنا ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ ذنوبنا السابقات السالفات في أيام كفرنا وشركنا، ﴿وَ﴾ يغفر لنا: ﴿مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قيل: كيف قالوا هذا وقد جاءوا مختارين يحلفون بعزة فرعون أن لهم الغلبة، والجواب ما روي عن الحسن أنه قال: كان فرعون يُكره قومًا علىٰ تعلم السحر؛ لكي لا يذهب أصله، وقد كان أكرههم في الابتداء، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ لمن أطاعه، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ عقابًا وعذابًا لمن عصاه.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿مُجْرِمًا﴾ كافرًا، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها ولا يخرج منها، ومن شأنه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فيتنعم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي

كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ [فاطر:٣٦-٣٧].

﴿وَمَن يَأْتِهِ﴾ يأتي الله عَزَّوَجَلَّ حال كونه ﴿مُؤْمِنًا﴾ منقادًا مقرًا، ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ المبرات، ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ الرفيعة في الجنة.

وهي: ﴿جَنَّاتُ﴾ بساتين، ﴿عَدْنٍ﴾ دار إقامة، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الجزاء، ﴿جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ بالتوحيد، وقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ رسله وأنزل كتبه؛ لزكاة الناس، وهي فضل الله الواسع، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١]،وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[الأعلى:١٤]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩].

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا﴾ وبعد أن قتل فرعون السحرة وصلبهم وصبروا على ما هم فيه من الخير العظيم، وقيل لم يقتلهم لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥] فأوحى الله: ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ يعني: أخرجهم بالليل من أرض مصر، فإذا تبعك فرعون ومن معه: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ قيل: بحر العقبة والله أعلم، ﴿يَبَسًا﴾ يُصبح يابسًا تستطيع المضي فيه، ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا﴾ لحوقًا وإحاطة، ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ ولا تخف منهم أن يحيطوا ببني إسرائيل فيقتلونهم.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ بغيًا وعدوًا، ﴿فَغَشِيَهُم﴾ غطاهم وأصابهم، ﴿مِّنَ الْيَمِّ﴾ من البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ وهو الغرق، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ بما زين لهم من الكفر، ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ ما أرشدهم إلى الخير، مع أنه قال: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

وكان من شأن فرعون حين اعتلاه الماء أنه قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، فكان الجواب: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ

مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٩١-٩٢]، فهذه هي سنة الله الكونية: أن يُديل أولياؤه علىٰ أعدائه وتكون الغلبة لهم في سالف الدهر وآخره، وما ترىٰ الأنَّ من ضعف المسلمين سيكون بعده النصر والعز والتمكين ولا بد، هذا قضاء الله القدري الكوني: من أن العاقبة للتقوىٰ، كم تجبر فرعون وتكبر وتغطرس وبغىٰ وآخر أمره يموت في البحر لا يلوي علىٰ شيء، ولم تنفعه أُبهة ولا مُلك ولا سُلطان.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

وبعد ذلك امتن الله عَزَّوَجَلَّ على بني إسرائيل فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ سلمناكم وحفظناكم، ﴿مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون، ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾ أن تكلم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ جانب الجبل المُغطى بالشجر، ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ بالنسبة لكم تنزلون فيه، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ طعاما، ﴿ٱلْمَنَّ﴾ كالعسل، ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وهو طائر يُقال له السماني أو ما في بابه، فكانوا يأكلون لحمًا ويتذوقون عليه عسلًا، ومع ذلك لم يُعجبهم ذلك وطلبوا من موسى من ثومها وبقلها وقثائها، كما قص الله عَزَّوَجَلَّ علينا ذلك في ﴿سورة البقرة﴾.

﴿كُلُوا۟﴾ يا بني إسرائيل، ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ حلالات، ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أعطيناكم، ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ تتجاوزوا شرع الله عَزَّوَجَلَّ فتكفروا النعمة فتكونوا من الطاغين فتُسلب منكم، ﴿فَيَحِلَّ﴾ ينزل، ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ ومن غضب الله عليه أهلكه ودمدم عليه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥]، ﴿وَمَن يَحْلِلْ﴾ ينزل ﴿عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ هلك وتردى في النار وبئس القرار.

﴿وَإِنِّى﴾ يا موسى: ﴿وَإِنِّى﴾ صيغة مبالغة من المغفرة ستار للذنوب ومتجاوز عن العيوب، ﴿لِّمَن تَابَ﴾ رجع إلى ربه، ﴿وَءَامَنَ﴾ انقاد لأمره وشرعه، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ظاهرًا وباطنًا، ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ لزم سُبل الهداية، قال سعيد بن جُبير: أقام على السنة والجماعة، وهذا شرط

عظيم في شأن التوبة، فليس كل من تاب غُفِرَ له وتُجُوِّزَ عنه، ولكن بهذه الشروط، ﴿تَابَ﴾: أقلع من الذنب وندم على فعله، وعزم على عدم العود إليه، ﴿وَآمَنَ﴾: بالله ربًا وبمحمد ﷺ نبينًا، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: من التوحيد فما دونه، ويدخل فيه الصلاة، ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ثبت على الهداية؛ لأنَّ كثيرًا من الناس قد يعرفون الخير ثم يسلكون غيره، لكن من شروط ذلك: الاستمرار في الهداية حتى يموت ويُبعث عليها.

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤﴾.

ولما ذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للميقات، قال تعالى له: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ أي: ما حملك على العجلة، ﴿عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وذلك أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ اختار من قومه سبعين رجلًا حتى يذهبوا معه إلى الطور ليأخذوا التوراة فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقًا إلى ربه عَزَّوَجَلَّ وخلف السبعين، وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل.

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لربه: ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ﴾ ورائي بالقرب مني يأتون من بعدي، ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ لتزداد رضًا عني، وفي هذا أهمية المسارعة إلى العمل الصالح والمبادرة به وعدم التواني، فإن كثيرًا من الناس يسوفون أعمالهم الصالحة فيحرمون الخير العظيم.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ﴾ ابتلينا، ﴿فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ الذين خلفتهم مع هارون، وكان افتتانهم بالعجل، ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ حرفهم عن الطريق المستقيم وصرفهم عن التوحيد الخالص، ﴿السَّامِرِى﴾ يُقال بأن اسمه موسى، ولا أعلم دليلًا على ذلك، والله أعلم.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ بعد أن أوحى الله إليه بالتوراة، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَانَ﴾ بسبب عبادتهم العجل ﴿أَسِفًا﴾ حزينًا عليهم، أو أنه في شدة الغضب، لكن المغايرة بين المعنيين أفضل، ﴿قَالَ﴾ معاتبًا لهم، ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعدًا صدقًا يكرمكم به، ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ مدة مفارقتي لكم، ولم يُطل إنما هو الابتلاء، ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ﴾ بصنيعكم هذا وهو الشرك: ﴿أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ ينزل بكم، ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيهلككم بسوء أعمالكم، ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ لهذا السبب.

﴿قَالُوا﴾ معتذرين بعذر بارد علىٰ عبادتهم للعجل ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ باختيارنا، وهذه علة عليلة، بعضهم يسرق ويقول: غلبتني نفسي، والآخر يزني ويقول: غلبني هواي ونحو ذلك فهذا لا يُقبل منهم، ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا﴾ أثقالا أو آثاما وتبعات ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ من حُلي آل فرعون، سموها أوزارًا؛ لأنهم أخذوها علىٰ وجه العارية فلم يردوها، وقيل: بأن الله لما أغرق فرعون نبذ البحر حُليهم فأخذوها وكانت غنيمة ولم تكن الغنيمة حلالًا لهم في ذلك الزمان فسماها أوزارًا لذلك، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ رميناها في حفرة، ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ كما رمينا حلينا في الحفرة ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ما كان معه من من تربة حافر فرس جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما يقول أهل التفسير.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ صنمًا علىٰ هيئة عجل، ﴿جَسَدًا﴾ مجسمًا ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ كانت تدخل الريح منه وتخرج، وقيل غير ذلك، ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي تتعبدون له، ﴿وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ وهذا من كذبه وتلبيسه حيث قال لهم: هذا إلهكم تركه موسىٰ تتعبدون به، ﴿فَنَسِىَ﴾ أخطأ الطريق وضل، وترك التوحيد والسنة إلىٰ الشرك والبدعة.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: بنو إسرائيل، ﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾ العجل، ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ لا يجيبهم ولا يرد عليهم، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فيدفعه أو يرفعه، فهو عجل من ذهب لا قدرة له علىٰ نفع عابديه ولا علىٰ ضرهم، ولكن هكذا يفعل الشرك بأصحابه يتسلط عليهم الشيطان فيتركون عبادة الرحمن، وما أكثر عباد الأصنام في الزمن المتقدم والمتأخر.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ﴾ منكرًا عليهم هذا الصنيع وهذا الفعل، ﴿مِن قَبْلُ﴾ رجوع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ ابتُليتم بالعجل واختبرتم فيجب عليكم الثبات، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي﴾ علىٰ ديني الذي أرسل الله به موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ في ترك عبادة العجل.

﴿قَالُوا﴾ معارضين لدعوته، ﴿قَالُوا لَن﴾ لن نزال، ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ عبادته، ﴿عَاكِفِينَ﴾ مقيمين، ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فيقضي بقضائه، فعند ذلك اعتزلهم هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ خشيةً علىٰ نفسه، فلما رجع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ﴾ ما الذي حملك، ﴿إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ أشركوا ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أن تتبعنِ وتتركهم، وقيل: هلا قاتلتهم وقد علمت أني لو كنت فيهم لقاتلتهم علىٰ كفرهم، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ خالفت أمري وأنا قد أمرتك أن تكون فيهم بخير حال.

﴿قَالَ﴾ هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ﴾ يا ابن أمي يستجديه الرفق، ﴿تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾ دليل علىٰ عدم التعرض للحية بحلق أو تقصير، ﴿وَلَا بِرَأْسِي﴾ لأنه جره بشعر رأسه أو لحيته، وإذا جر بشعر اللحية تنكس الرأس، ﴿خَشِيتُ أَن﴾ خفت ورهبت لو أنكرت عليهم، أو قاتلتهم أن يتفرقوا و ﴿تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ لم تحفظ وصيتي حين قلت لك: «**اخلفنِ في قومي وأصلح**» أي: ارفق بهم.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبًا للسامري: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ ما شأنك، ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ ما الذي حملك على هذا الصنيع السيء.

﴿قَالَ بَصُرْتُ﴾ نظرت ورأيت وعرفت، ﴿بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ ما لم يروا أن يقعوا عليه، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ قيل: من تراب أثر فرس جبريل، وهذا هو المشهور عند أكثر المفسرين ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ ألقيتها في فم العجل، حيث قال بعضهم: إنما خار العجل لأنَّ التراب كان مأخوذًا من تحت حافر فرس جبريل.

❖ فإن قيل: كيف عرفه ورأىٰ جبريل من بين سائر الناس؟

قيل: لأنَّ أمه لما ولدته في السنة التي يُقتل فيها البنون وضعته في الكهف حذرًا عليه، فبعث الله جبريل ليربيه لما قضىٰ علىٰ يديه من الفتنة، لكنَّ هذا قول لم يثبت عن رسول الله ﷺ بسند صحيح، إنما هذه من أقوال أهل التفسير، فلعله والله أعلم رجل من بني إسرائيل كان قد آمن بموسىٰ ظاهرًا ثم لما وقعت الفتنة كان ما كان من شأنه، ثم القول بأن العجل صار حيًا غير مستقيم، إنما هو عجل في صورته وإلا فهو صنم ووثن.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾ زينت، ﴿لِى نَفْسِى﴾ بتزيين الشيطان لها ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَاذْهَبْ﴾ طرده ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ الدنيا ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لا تخالط أحدًا ولا يُخالطك أحد ما دمت حيًا، يعني: أنه أمر بهجره، ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ يوم القيامة، ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ وهو أنك تموت وتعاقب علىٰ جريرتك الشنعاء، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ معبودك العجل، ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ﴾ دمت ﴿عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ مقيمًا علىٰ عبادته، ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار، ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ لنذرينه، ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر، ﴿نَسْفًا﴾ حتىٰ لا يبقىٰ له أثر.

فلو بقيت آثاره سيتمسحون بترابه، فتنة عند عباد القبور، وعباد الأصنام، وعباد الأوثان، كما قال تعالىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]، بين أيديهم نبي كريم، ورسول أمين، يذهب لميقات ربه يأتيهم بالتوراة وجعل شأنهم إلىٰ هارون، وتركوا وصيته وعارضوا هارون مع علمهم بنبوته وجعلوا يتابعون رجلًا من زنادقتهم يدعوهم إلىٰ عبادة عجل لا ينفع ولا يضر، مع قرب عهدهم بهلاك فرعون، ومع الدلائل والآيات التي أيد الله بها موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وبهذا تعلم أن شأن الشرك خطير جدًا، فيحتاج الإنسان أن يكون متحصنًا بأمور:

- **أولًا:** بدعاء الله والاستعانة والاعتصام به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾ [آل عمران:١٠١].

- **ثانيًا:** بالعلم؛ لأنَّ هؤلاء ما قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ إلا لجهلهم بباب التوحيد، فعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا هَذِهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لِلْكُفَّارِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، وَكَانَ الْكُفَّارُ يَنُوطُونَ سِلَاحَهُمْ بِسِدْرَةٍ، وَيَعْكُفُونَ حَوْلَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾** [الأعراف:١٣٨]، **إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**».

- **ثالثًا:** المجالسة، حيث جالسوا السامري فجرهم إلىٰ هذه البلية العظيم.

- **رابعًا:** عدم تعظيمهم لباب التوحيد والربوبية إذ عبدوا غير الله.

- **خامسًا:** عدم علمهم بالأسماء والصفات وإلا فإن الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه بائن من خلقه.

- **سادسًا:** أنهم ظنوا أن هذا شريك لله أو أنهم اتخذوه شفاعة وقربة، كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

ثم يقول لهم موسى ليس هذا إلهكم: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ معبودكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ لا تخفى عليه خافية، كما قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ١٠١﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما قصصنا عليك شأن موسى في هذه القصة وهي من أطول القصص، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ﴾ أخبار، ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من القرون السالفة، ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ وهو القرآن ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: عن اعتقاده والعمل به والدعوة إليه، ﴿فَإِنَّهُۥ

﴿يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ حملًا ثقيلًا من الإثم، لا سيما إذا كان إعراضه عنه إعراضًا كليًا بحيث كان مُشركًا منددًا.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ مقيمين فيه، ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ بئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم وهو الكفر بالقرآن، بينما المؤمن يفرح بأعماله الصالحة، كما قال تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية:٩].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾.

واذكر: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ النفخة الثانية، ﴿وَنَحْشُرُ﴾ نجمع ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في القيامة، ﴿زُرْقًا﴾ يعني: اسودت أعينهم وساءت صورتهم، وقيل: عُطاشا، لكن الذي يظهر: أن الزرقة تتعلق بوجوههم.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتشاورون ويتكلمون خفية، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ عشر ليال.

﴿نَّحْنُ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من الكلام والمسارة، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ﴾ أحسنهم، ﴿طَرِيقَةً﴾ وأعدلهم عقلًا وقولًا: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ يعني: رأوا أن العشر الأيام طويلة، فقالوا: كان لبثكم يومًا واحدًا.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ الله أعلم من السائل، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ﴾ ما يكون شأنها يوم القيامة؟ ﴿فَقُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يقلعها من أصلها ويجعلها هباءً منثورًا.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ يتركها، ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أرضًا ملساء مستوية لا نبات فيها ولا حياة ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا﴾ أي: في الأرض، ﴿عِوَجًا﴾ اعوجاجًا وارتفاعًا وانخفاضًا، ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ واديًا ولا رابية.

فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَكْفَؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ، كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ، نُزُلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ**» قَالَ: فَأَتَىٰ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ، أَبَا الْقَاسِمِ أَلَا أُخْبِرُكَ بِنُزُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**بَلَىٰ**» قَالَ: تَكُونُ الْأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً - كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ؟ قَالَ: «**بَلَىٰ**» قَالَ: إِدَامُهُمْ بَالَامُ وَنُونٌ، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: «**ثَوْرٌ وَنُونٌ، يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا**» متفق عليه.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ الذي يدعوهم إلىٰ موقف القيامة وهو إسرافيل، ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لدعائه، وهو من المقلوب أي: لا عوج لهم عن دعاء الداعي، لا يزيغون عنه يمينًا وشمالًا ولا يقدرون عليه بل يتبعونه سراعًا، ﴿وَخَشَعَتِ﴾ خضعت وسكنت، ﴿ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ فلا يستطيع أحد منهم أن يتكلم وإنما ربنا عَزَّوَجَلَّ يتكلم في ذلك الموطن: «**أَنَا الْجَبَّارُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧]، وهذا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ:٣٨]، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوتًا خفيًا مع الخوف والفزع.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ لا تنفع شفاعة أحد لأحد، ﴿إِلَّا﴾ بشرط: ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وإذن الرحمن أن تكون الشفاعة في موحد، من موحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ رضي قوله وإيمانه وفعله.

﴿يَعْلَمُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما قدموه من الأعمال، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأعمال، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

۞ وبهذه الآية استدل أهل العلم علىٰ أن أسماء الله وصفاته غير محصورة بعدد معلوم لنا، وهذا كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقد تكلمت عن هذه المسألة في مؤلف مستقل بعنوان: "التبيين لخطأ من حصر أسماء الله تسعة وتسعين"، فأسماء الله كثيرة لا يعلم عدها وما له من الأسماء والصفات إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي حديث ابن مسعود الثابت عند الحاكم وغيره قال رسول الله ﷺ: « **مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي فِي يَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا** ».

وفي مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**».

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ ذلت وخضعت، ومنه قيل للأسير عانٍ، ففي حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**فُكُّوا الْعَانِيَ**»، أخرجه البخاري.

﴿لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ وقد تقدم في سورة آل عمران قولهم أن الحي القيوم هو الاسم الأعظم والذي يظهر أنه الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر خسرانًا مبينًا، ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وهو الشرك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ سواءً كان ذكرًا أو أنثى ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بشرط الإيمان، فالكافر لا يقبل عمله وإن كان صالحًا، ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ظُلْمًا﴾ تجاوز، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ نقصًا من حسناته وزيادة في سيئاته، ولا يؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل حسنة عملها، وأصل الهضم: النقص والكسر ومنه: هضم الطعام، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بينا في هذه السورة ما تقدم، ﴿أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلسان العرب على محمد ﷺ، ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ كررنا وبينا ﴿فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ من آيات الوعيد والترهيب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يجتنبون الشرك ويأتون بالتوحيد

والطاعة، ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ يجدد القرآن: ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ موعظةً وتذكرًا، فسماع قوارع القرآن وترهيبه، من أسباب رفع الغفلة عن القلوب.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿فَتَعَٰلَى﴾ تعاظم، ﴿ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ جَلَّجَلَالُهُ عن إلحاد الملحدين، وعما يقول المشركون، ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ حيث كان النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي يحرك به لسانه فيشق ذلك عليه، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة:١٦]، كما في حديث ابن عباس، وهنا يأمره الله عَزَّوَجَلَّ أن لا يعجل بالقرآن، ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ﴾ يتم ويفرغ ﴿إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي: يقضي جبريل القراءة، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ بالقرآن والسنة، فإذا كان ربنا عَزَّوَجَلَّ يأمر محمدًا ﷺ بمثل هذا الأمر العظيم وهو سؤال زيادة العلم فكيف بنا؟ مع أن النبي ﷺ أعلم البرية بربه وخالقه، إذًا: فالإنسان بحاجة إلى زيادة العلم وإلى التفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ من حين يُكلف إلى أن يموت، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا**».

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ﴾ أمرنا ووصينا، ﴿إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ألا يأكل من الشجرة، ﴿مِن قَبْلُ﴾ حين كان في الجنة، ﴿فَنَسِىَ﴾ ترك الأمر ونقض العهد، ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ صبرًا عما نُهي عنه، وانظر إلى هذه المعصية التي ارتكبها آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت سبب في نزوله من الجنة إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ امتن عليه بالتوبة والأنابة.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَسَجَدُوا﴾ طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ لا عبادة لآدم، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [سورة الكهف:٥٠]، ﴿أَبَى﴾ أعرض أن يسجد لآدم بأمر الله، والسبب في ذلك ما لحقه من الحسد والبغي والكبر.

﴿فَقُلْنَا﴾ عند ذلك: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ﴾ يتربص بكم ويحاول في إغوائكم، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ أي: بسبب طاعتكما له، ﴿مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ فيلحقك شقاء الدنيا فتتعب وتنصب.

﴿إِنَّ لَكَ﴾ في الجنة، ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ لا يلحقك الجوع ولا يلحقك ذهاب اللباس، أي: أنه دائم في تجدد وفي تنعم، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا﴾ تعطش، ﴿فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ لا تبرز للشمس فيؤذيك حرها، أو يُصيبك قرها.

۞ وهذا دليل علىٰ أن الجنة التي كان فيها آدم هي جنة الخُلد كما جاء في الحديث: «**وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟**»، فمهما كانت جنة الدنيا فلا بد أن يُصيب الإنسان فيها من العُري، والعطش، والجوع، والسقم الشيء الكثير.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾.

۞ وهذا دليل علىٰ أنه لم يدخل الجنة، إنما وسوس إليه وسوسة، وجاء في بعضها: أنه حدثه وخاطبه، فلا يُمنع من حصول الأمرين.

﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ قيل: السنبلة، وقيل: التفاحة، وقيل غير ذلك ولا دليل، وإنما هي شجرة نهاه الله عنها، ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ لا يبيد ولا يفنىٰ.

﴿فَأَكَلَا﴾ آدم وحواء، ﴿مِنْهَا﴾ من الشجرة، ﴿فَبَدَتْ﴾ ظهرت، ﴿لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ عورتهما، وكانا قبل ذلك مستورين، ﴿وَطَفِقَا﴾ شرعا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يلصقان ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ لتغطية السوءة، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ بأكله من الشجرة، ﴿فَغَوَى﴾ أخطأ.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ﴾ اختاره واصطفاه، ﴿رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ قبل توبته وعفا عنه، ﴿وَهَدَى﴾ هداه إلىٰ التوبة وملازمة الرشاد حين قال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ، فَقَالَ مُوسَىٰ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَىٰ، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ»** متفق عليه.

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ لآدم وحواء: ﴿ٱهۡبِطَا﴾ إنزلا، ﴿مِنۡهَا﴾ من الجنة، ﴿جَمِيعًا﴾ آدم وحواء وإبليس، ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ قيل: العداوة بين بني آدم، وقيل: العداوة بين جنس الأنس والجن، ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ التوحيد والسنة، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ أخذ بأمري وانتهى عن نهيي وزجري، ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا، ﴿وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ في الآخرة؛ لأنَّ الإنسان قد يلحقه بعض النصب في الدنيا ويكون عنده مثل الشقاء، لكن المراد: أنه لا يشقى في الآخرة ولا يُعذب عذاب الأشقياء؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣﴾ [الأعلى:١١-١٣].

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ طاعتي، فالذكر: طاعة الله كما قال سعيد بن جُبير، وقيل: القرآن، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ﴾ في قبره، ﴿ضَنكٗا﴾ ضنكة شديدة ضيقة.

۞ وهذه الآية دليل علىٰ عذاب القبر لمستحقه إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ أخبر عن حال الميت في قبره.

ثم أخبر عن حشره بقوله: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ﴾ نجمعه، ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ لا يُبصر شيئًا.

وقد جاء تفسير هذه الآية في حديث مرفوع أخرجه الحاكم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ الْمَيِّتَ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ**

عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَ الصَّوْمُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَىٰ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَىٰ مِنْ عَنْ يَمِينِهِ، فَيَقُولُ الصَّوْمُ مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَىٰ مِنْ عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، وَيُؤْتَىٰ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَيَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْعُدْ فَيَقْعُدُ، وَتُمَثَّلُ لَهُ الشَّمْسُ قَدْ دَنَتْ لِلْغُرُوبِ.

فَيُقَالُ لَهُ مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ، وَمَا تَشْهَدُ بِهِ؟.

فَيَقُولُ: دَعُونِي أُصَلِّي.

فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ وَلَكِنْ أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ.

قَالَ: وَعَمَّ تَسْأَلُونِّي عَنْهُ؟.

فَيَقُولُونَ: أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ.

فَيَقُولُ: دَعُونِي أُصَلِّي.

فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ وَلَكِنْ أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْهُ.

قَالَ: وَعَمَّ تَسْأَلُونِّي؟.

فَيَقُولُونَ: أَخْبِرْنَا مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ وَمَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟.

فَيَقُولُ: مُحَمَّدًا، أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

فَيُقَالُ لَهُ: عَلَىٰ ذَلِكَ حَيِيتَ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ قِبَلِ النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَىٰ مَنْزِلِكَ وَإِلَىٰ مَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ، لَوْ عَصَيْتَ فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ قِبَلِ الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَىٰ مَنْزِلِكَ، وَإِلَىٰ مَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧]».

قَالَ: وَقَالَ أَبُو الْحَكَمِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: «أَرْقِدْهُ رَقْدَةَ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَعَزُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ».

ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: « وَإِنْ كَانَ كَافِرًا أُتِيَ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ، وَيُؤْتَىٰ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ، ثُمَّ يُؤْتَىٰ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ، ثُمَّ يُؤْتَىٰ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ.

فَيُقَالُ لَهُ: اقْعُدْ فَيَقْعُدُ خَائِفًا مَرْعُوبًا.

فَيُقَالُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ، وَمَاذَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟.

فَيَقُولُ: أَيُّ رَجُلٍ؟.

فَيَقُولُونَ: الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ.

قَالَ: فَلَا يَهْتَدِي لَهُ.

قَالَ: فَيَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ.

فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ قَالُوا فَقُلْتُ كَمَا قَالُوا.

فَيَقُولُونَ: عَلَىٰ ذَلِكَ حَيِيتَ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ قِبَلِ الْجَنَّةِ.

فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَىٰ مَنْزِلِكَ، وَإِلَىٰ مَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ لَوْ كُنْتَ أَطَعْتَهُ فَيَزْدَادُ حَسْرَةً وَثُبُورًا، قَالَ: ثُمَّ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، قَالَ: وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] ».

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ لا أُبصر، ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ في الدنيا، كان بصير العين لا القلب، فصار في الآخرة أعمى العين بصير القلب ولا ينفعه.

﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما، ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ أعرضت عنها وتركتها، ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في النار وبئس القرار، قال قتادة: نُسُوا من الخير ولم يُنسوا من العذاب.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جزينا من أعرض عن القرآن، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ﴾ أشرك، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الشرعية، وربما كفر بالكونية، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ مما يُعذبهم به في القبر

والدنيا، ﴿وَأَبْقَى﴾ أدوم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف:٧٥]، وقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

۞ وهذا دليل علىٰ أبدية النار خلافًا لقول المعتزلة.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ يُبين القرآن، ﴿لَهُمْ﴾ لأهل مكة، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ دمرنا، ﴿قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الأمم السالفات كقوم عاد، وثمود، وفرعون، وتبع، ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ حين ذهابهم للتجارة ورجوعهم منها كقرى قوم صالح، وقرية سدّوم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ علامات بينات، ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أصحاب العقول السلمية والفطر المستقيمة.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أنه لا يُعاجل بالعذاب بل يؤخره إلى يوم القيامة، ﴿لَكَانَ﴾ العذاب، ﴿لِزَامًا﴾ لازمًا لهم، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وقيل: فيها تقديم وتأخير: (ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لكان العذاب لازمًا لهم، غير متحول عنهم، كما لزم القرون الماضية الكافرة).

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد، ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من السب والشتم والسخرية، وقيل: نسختها آية القتال، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ نزه ربك في صبحك ومساءك، وقيل المراد: صلِ بأمر ربك: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر، ﴿وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاتها، ﴿فَسَبِّحْ﴾ صلاة المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ صلاة الظهر والمغرب، على قول لأهل العلم ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ يُرضيك الله عَزَّوَجَلَّ بثوابه العظيم وبخيره العميم في دنياك

وأُخراك، إما في الدنيا فطمأنينة القلب وسلامة الصدر، وإما في الآخرة فالسلامة من العذاب الأليم والكرامة في جنة النعيم.

وفي حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾ تطل النظر متمنيًا لأنَّ تكون علىٰ حالهم، ﴿عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ أعطينا: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافًا، ﴿مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ زينتها وما فيها من البهجة.

كما قال النبي ﷺ في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الآخِرَةِ**»، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢].

و عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**» متفق عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**» متفق عليه.

لأنك إذا نظرت إلىٰ من فوقك تعلق قلبك بالدنيا، فلا أحسن لطالب العلم وغيره من المسلمين من الزهد في هذه الدنيا، وما جاء الله به خير؛ لأنك وإن تطلعت ما ستحصل علىٰ شيء من أموالهم إنما الحسرة، وربما الاعتراض علىٰ القدر، وقد قال بعض الزنادقة:

كَـمْ عَاقِـلٍ عَاقِـلٍ أَعْيَـتْ مَذَاهِبُـهُ ... وَجَاهِـلٍ جَاهِـلٍ تَلْقَـاهُ مَرْزُوقَـا
هَـذَا الَّـذِي تَـرَكَ الأَوْهَـامَ حَـائِرَةً ... وَصَـيَّرَ الْعَـالِمَ النِّحْرِيـرَ زِنْـدِيقَا

ما يدري أن الله عَزَّوَجَلَّ لو أراد أن يُغني الناس جميعًا لكن سيكونون علىٰ الكفر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥]، وهذه الأموال التي يُعطونها للابتلاء: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ نختبرهم: ﴿فِيهِ﴾.

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]، أخرجه أحمد، ﴿وَرِزْقُ﴾ عطاء ﴿رَبِّكَ﴾ والرزق الخاص وهو الإسلام، وقيل: الجنة، ﴿خَيْرٌ﴾ لك أيها المسلم، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾، دائم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]، يأكلون فيها ويتبعلون، ويلبسون ويشربون علىٰ أكمل الهيئات والحالات.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ قومك ومن يليك: ﴿بِالصَّلَاةِ﴾ المفروضة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأن إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ [مريم:٥٥].

وقال النبي ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**» أخرجه أبو داود والترمذي، عن عبد الله بن عمرو، وعن سبرة بن معبد وبمجموع الطريقين يُحسن.

﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: اصبر علىٰ الصلاة واصبر علىٰ تعليم أبنائك فإنها تأمر بالخير وتنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ﴾ لا نطلبك ﴿رِزْقًا﴾ لا نكلفك أن ترزق أحدًا من خلقنا، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ نعطيك، وكما قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]، ونُعطي أتباعك أيضًا، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الآخرة والخاتمة المحمودة دائمًا ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ لأصحاب الهُدىٰ والتُقىٰ.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٣٣ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝١٣٥﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي كفار مكة، ﴿لَوْلَا﴾ هلا، ﴿يَأْتِينَا﴾ محمد ﷺ، ﴿بِآيَةٍ﴾ حجة، ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ فنأخذ بها، فكان الرد عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ في القرآن، ﴿بَيِّنَةُ﴾ حجة ﴿مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾

يعني القرآن العظيم الذي أنزله الله عليه وهو أمي لا يحسن الكتابة ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه بأخبار الأولين وما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافق عليه الكتب المتقدمة، وقيل: ألم يأتهم بيان ما في الصحف الأول التوراة والأنجيل وغيرها من أنباء الأمم، فلو كانو منصفين لاتبعوه لوجود دلائل صدقه، فإن زيد بن عمر بن نُفيل، وغيره كانوا علىٰ التوحيد الخالص في زمن الجاهلية.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ﴾ دمرنا عليهم، ﴿بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل إرسال الرسول وإنزال القرآن، ﴿لَقَالُوا﴾ معترضين علىٰ ذلك، ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هلا، ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ يُعلمنا القرآن والسنة، ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الشرعية، ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ أن نذل بالعذاب والهوان، والخزي: الافتضاح.

❁ وهذه الآية دليل علىٰ مسألة العذر بالجهل، وهي موافقة لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥]، بل إن كثيرًا ممن يُخالف في هذه المسألة يُلزم بهذه الآية، يقول الله: لو أننا أهلكناهم بعذاب ودمرنا عليهم، بسبب ما وقعوا فيه من الشركيات والمعاصي والسيئات، قبل إرسال الرُسل وإنزال الكتب، لكان حجتهم: هلا أرسلت إلينا رسولًا، فهنا يقول الله: قد أرسلنا إليكم الرُسل، وأنزلنا إليكم الكتب، فما استجبتم ولا انقدتم، بل الواقع أنكم خالفتم أمر الله وشرعه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿كُلٌّ﴾ منا ومنكم: ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ بالآخر ينتظر عليه دوائر الزمان وأحداث الدهر، فمن مات تخلصنا منه، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ يا معاشر الكفار وانتظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا جاء أمر الله وقامت القيامة، بل قد حصل في بدر نوع عذاب لهم بالقتل والأسر، ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ﴾ الطريق ﴿ٱلسَّوِيِّ﴾ المستقيم، ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ من الضلالة نحن أم أنتم، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٨٤].

والحمد لله رب العالمين.

تفسير

سورة الأنبياء

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

الجُزْءُ ١٧

۞ مكية، وآياتها: مائة واثنا عشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾.

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أي: يوم القيامة وهو وقت محاسبتهم علىٰ أعمالهم، ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ عنه وعن لقاء الله، ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ عن تعلم الكتاب والسنة والاستقامة علىٰ دين الله عَزَّوَجَلَّ والأنقياد لشرعه ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ﴾ قرآن ﴿مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ أي: تنزيل ينزله الله عَزَّوَجَلَّ متىٰ شاء علىٰ رسوله ﷺ.

❖ وذهب المعتزلة ومن إليهم: أن القرآن مخلوق استدلالًا بهذه الآية ولا حجة لهم، فإن الإحداث يأتي بمعنىٰ الخلق وليس هو المراد هنا، ويأتي بمعنىٰ: ما يُحدث الله عَزَّوَجَلَّ من أمره ونهيه وتنزيله، في وقت دون وقت وهو المراد هنا.

﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ استماع لهو ولعب، ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ معرضون لا يتعظون، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ﴾ [النجم: ٥٩- ٦٠]، أصحاب أغاني ولهو.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ ساهية غافلة، معرضة عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ فيما بينهم يتناجون في ذم الإسلام وذم رسوله ﷺ، ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا، وكانت نجواهم ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ليس بملك وهذه دعوىٰ عليلة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠]، ﴿أَفَتَأْتُونَ﴾ يقولون أفتتبعون، ﴿السِّحْرَ﴾ وتقبلونه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون أنه سحر، وهذا من شدة كذبهم علىٰ الرسول ﷺ.

﴿قَالَ﴾ رسول الله ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالكم.

﴿بَلْ﴾ الواقع أنهم اضطربوا في وصف محمد وما جاء به فقالوا سحر فلم تنفق لهم و ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أباطيلها وأقاويلها وأهاويلها رآها في المنام، فلم تنفق لما في القرآن من الإتقان والبيان، فقالوا عند ذلك، ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ اختلقه وما كان له ذلك ثم قالوا، ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ من الشعراء، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس:٦٩]، وفي كل ذلك يخصمون؛ لضعف حجتهم، ولبطلان قولهم، ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ محمد ﷺ، ﴿بِآيَةٍ﴾ حجة ظاهرة، ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ الذين جاءوا بالآيات، ومع ذلك لو جاءهم بالآيات ما استجابوا لها كما لم يستجب الأولون لأنبيائهم، ثم إن الآية التي أتيها رسول الله ﷺ هي القرآن؛ لأنَّ العرب كانوا يتميزون بالفصاحة والبلاغة، فجاءهم كتاب مقروء عجزوا أن يأتوا بمثله، ثم عجزوا أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم عجزوا أن يأتوا بسورة مثله.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ من القرىٰ، وقد اقترحوا هذه الإقتراحات، وطلبوا الآيات بل كذبوا فـ ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ دمرناهم بسبب تكذيبهم، ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إن جاءتهم آية، معناه: أن الأولين لم يؤمنوا فهؤلاء لن يؤمنوا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد، ﴿إِلاَّ رِجَالاً﴾ أي ذكور.

❁ وهذا دليل علىٰ أن النساء ليس منهن رُسل، وما ذهب إليه ابن حزم والقرطبي: من أن مريم نبية ورسوله قول لا يستقيم.

﴿نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ بما شاء الله عَزَّوَجَلَّ من الوحي، ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أهل العلم، ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بذلك، يعني: اسألوا من لديه علم وحجة وبرهان.

وهذه الآية بعمومها يُستدل بها علىٰ تعين العودة إلىٰ أهل العلم في المسائل العلمية والعملية والعقدية، فلا غنىٰ للمجتمعات عن علماء ربانيين يدلونهم ويرشدونهم إلىٰ أحسن السُبل وإلىٰ أقوم الطُرق، فالناس بلا علماء كأُناس في صحراء لا سبيل لهم ولا طريق، أو في ليلة مُظلمة لا قمر فيها ولا نجم؛ ولذلك قيل في العلماء: بأبي وأمي العلماء ضالتي إذا فقدتهم، وبُغيتي إذا وجدتهم، وكلما زاد العلماء في المجتمع زاد الخير، وإذا قلوا قل الخير وانتشر الشر والضير.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**» متفق عليه.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: الرُسل، ﴿جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ بل كانوا أجسادًا يأكلون الطعام وهذا رد لقولهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي﴾ [الفرقان:٧]، ﴿وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ﴾ في الدنيا، بل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم وبالنصر والتمكين من قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ الرُسل ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٣]، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ المشركين المُكذبين؛ لأنهم أسرفوا على أنفسهم بالشرك والعصيان.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش، ﴿كِتَابًا﴾ وهو القرآن، ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ شرفكم وعزكم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤]، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقد جاء في السير: أن النبي ﷺ قال لهم: «**يَا عَمِّ إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ**».

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أهلكنا، والقصم: الكسر، ﴿مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كافرة، ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أحدثنا بعد هلاكها: ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، فهكذا من تولى عن كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ أبدل الله بخير منه علمًا وعملًا.

فما عليك أيها المسلم إلا أن تثبت علىٰ دين الله، ولا تظن أنك إذا ضعفت عن العمل، أو قصرت في الاستقامة أن الإسلام سيتأثر، أبدًا، الإسلام محفوظ بنا وبغيرنا، الإسلام محروس ومحفوظ بحفظ الله له، ولما مات النبي ﷺ ارتد الناس قاطبة في جزيرة العرب ولم يبقَ إلا ثلاثة مساجد يُصلي فيها الناس: مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد جُواثىٰ بالبحرين، وجاء الله عَزَّوَجَلَّ بأهل اليمن ينصرون أبا بكر ثم ينصرون عمر رضوان الله عليهم وعاد الناس في دين الله أفواجًا: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦].

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أدركوا ﴿بَأْسَنَا﴾ عذابنا بحاسة البصر، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يسرعون هاربين.

﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ لا تهربوا، وهذا على سبيل التهكم ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من النعم، ﴿وَمَسَـٰكِنِكُمْ﴾ ابقوا فيها، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ عما كنتم فيه من الأعمال.

﴿قَالُوا﴾ ندمًا وحسرة، ﴿يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ كافرين مسرفين على أنفسنا بالمعاصي والسيئات، ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: تلك الكلمة: يا ولينا، ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ﴾ صيرناهم، ﴿حَصِيدًا﴾ كما يحصد الزرع، ﴿خَامِدِينَ﴾ ميتين.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: عبثًا وباطلًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥] ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ لعبًا، ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ من عندنا، ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لكن الله عَزَّوَجَلَّ منزه عن ذلك.

﴿بَلْ﴾ الواقع أننا، ﴿بَلْ﴾ نرمي ونسلط، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الهدى والقرآن، ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ السحر، والبدع، والخرافات، والشركيَّات، ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ فيهلكه، وأصل الدمغ: شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ذاهب، أي: أن الله يُبطل كذبهم، ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ العذاب ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي وصفهم الله بالصحابة والولد فيكذبون في ذلك، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]، ﴿وَلَهُۥ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ﴾ من الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يلازمونها ولا يأنفون عنها، ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يتعبون ولا يعيون، فهم في عبادة في ليلهم ونهارهم وسرهم وجهارهم وفي جميع شأنهم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يذكرون الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ قد أُلهِموا التسبيح كما أُلهِمنا النفس.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾.

﴿أَمِ﴾ بل: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ الكفار، ﴿ءَالِهَةً﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ مخلوقة مربوبة هل، ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ يحيون الموتى ويبعثونهم، وهذا إنكار عليهم.

﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾ في السماء والأرض، ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ غير الله، ﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾ لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع في الآلهة؛ لأنَّ كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجرِ على النظام، ثم نزه نفسه فقال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ من أن له شريكًا أو مثيلًا أو ظهيرًا، واستدل أهل الكلام بهذه الآية على دليل التمانع في الربوبية، وأنه لا يُمكن أن يكون للكون خالقين اثنين، إذ أنها ستجري بينهم المغالبة فإما أن ينتصر أحدهما فهو الإله، وإما أن يُهزما جميعًا فليسا بآلهة.

والصحيح: أن الآية يُستدل بها علىٰ توحيد الألوهية، إذ أن الفساد بسبب الشرك عريض، والمراد بـ: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ صاحب العرش استوىٰ عليه، تعالىٰ وتقدس وتنزه، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يصف به المشركون من أن له ولد وصاحبة.

ولكمال ملكه وعظيم شأنه ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيُكرم من شاء ويُذل من شاء، ويُعطي من شاء ويمنع من شاء، ويهدي من شاء ويضل من شاء الأمر أمره، وهذه حُجة في باب القدر، وقد يستدل بها الجَبْرِي ولا حجة له فيها، فإن الله يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فمع أنه لا يُسأل عما يفعل إلا أنه لا يؤاخذ إلا من استحق المؤاخذة: ﴿وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ عن أعمالهم ويؤاخذون عليها.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذوا، ﴿مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿آلِهَةً﴾ يعبدونهم ويرجونهم، ﴿قُلْ هَاتُوا﴾ أعطوا، ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم علىٰ صحة عبادتها، فـ ﴿هَذَا﴾ القرآن، ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ فيه خبر من معي علىٰ ديني ومن يتبعني إلىٰ يوم القيامة؛ وبما لهم من الثواب علىٰ الطاعة والعقاب علىٰ المعصية، ﴿وَذِكْرُ﴾ خبر، ﴿مَن قَبْلِي﴾ من الأمم السالفة، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن سماعه وتعلمه وتدبره.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد، ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ إلى قومه، ﴿إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ بالتوحيد، ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ وهذا هو التوحيد الذي أُرسلت به الرُسل وأُنزلت به الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٣].

﴿وَقَالُواْ﴾ مكابرة ومعارضة، ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالىٰ الله عن قولهم، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ تنزه وتقدس عن ذلك، إذ أن الذي يحتاج إلىٰ الولد المخلوق الناقص الذي يضعف فيحتاج إلىٰ من يقوم به، والذي يعجز فيحتاج إلىٰ من يعينه، والذي يموت فيحتاج إلىٰ من يرثه، أما ربنا عَزَّوَجَلَّ فهو الغني الحي الذي لا يموت، ﴿بَلۡ﴾ هم ﴿عِبَادٞ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ لا يعصونه، وفي منازل رفيعة عالية.

﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ﴾ لا يتقدمونه ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به، ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ لا يُخالفونه أبدًا.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ يوم القيامة، ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ رضي الله عنه ورضي عمله، ﴿وَهُم﴾ الملائكة ﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ من خوفه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ حذرون خائفون لا يأمنون مكره، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠].

۞ وفي هذه الآية دليل علىٰ أن الشفاعة من شروطها:

إذن الله للشافع، ورضىٰ الله عن الشافع والمشفوع، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وكثير من الناس قد صرفوا وطلبوا الشفاعة من غير الله عَزَّوَجَلَّ

حيث يطلبونها من أوثانهم وأصنامهم وأربابهم التي اتخذوها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فبعضهم يقول: يا محمد اشفع لي وهذا شرك، أو يا علي اشفع لي، يطلب الشفاعة من غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ومنهم من يتوسل بذواتهم يقول: بجاه محمد، وبحق محمد وهذا بدعة، ومنهم من يقول: اللهم شفع محمدًا ﷺ فيَّ وهذا هو المشروع.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة، ﴿إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله، ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ يُعذب فيها ولا يخرج منها، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، مع أنه لم يقل أحد من الملائكة بأنه رب ولا رسول لكن هذا من باب التهديد والوعيد لهؤلاء المشركين المنددين.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ روي عن ابن عباس: كانتا شيئًا واحدًا ملتصقتين، ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾ فصلنا بينهما بالهواء، والرتق في اللغة: السد، والفتق: الشق.

ويزعم أصحاب الهيئة الجديدة: أن السماوات والأرض كانتا شيئًا واحدًا ثم حصل ما يُسمىٰ بالطرد المركزي بحيث كانت تلك الكتلة تسير بسرعة فائقة حتىٰ انفصلت هذه الأجرام: الأرض، والشمس، والقمر وهكذا الكواكب، وبقية الأجرام وعندهم: أن الكون عبارة عن أجرام متفاوته، ومجرات كبيرة، حصل بينها التفارق بسبب الجاذبية ونحو ذلك، فلا يؤمنون بسماوات سبع ولا بعرش ولا بمن استوىٰ علىٰ العرش.

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن معنىٰ الرتق: أن السماوات كانت رتقًا لا تُمطر، والأرض لا تنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، وإنما قال رتقًا علىٰ التوحيد وهو

من نعت السماوات والأرض، والمعنىٰ الأخير هو الأقرب: إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق السماوات والأرَضين في ستة أيام، ولم يُذكر أنه خلقهما من غيرهما، فالله أعلم.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ خلقنا، ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: أحيينا بالماء كل شيء حي، وهذا كقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور:٤٥]، ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ الذي بيده تصريف الأمور.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ صيرنا وخلقنا: ﴿فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ﴾ جبال عظيمة، ﴿أَن تَمِيدَ﴾ تميل وتتحرك وتموج، ﴿بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ طرقًا ومسالك، فالفج: الطريق الواسع، ﴿سُبُلًا﴾ طرقًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المتصرف في هذا الكون خلقًا وإيجادًا.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ المرتفعة: ﴿سَقْفًا﴾ كالسقف على الأرض، ﴿مَّحْفُوظًا﴾ من وصول الشياطين إليه، حفظها الله بالشهب، كما قال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:٧]، وقال: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر:١٧]، ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ عما خلق الله عَزَّوَجَلَّ معرضون عن التدبر والتفكر؛ فلذلك لم يستفيدوا من هذه الآيات، وما زادتهم إلا عتوًا ونفورًا.

﴿وَهُوَ﴾ الله، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ المُظلم، ﴿وَالنَّهَارَ﴾ المُبصر، ﴿وَ﴾ خلق: ﴿الشَّمْسَ﴾ سراجًا منيرًا، ﴿وَ﴾ خلق: ﴿الْقَمَرَ﴾ نورًا، ومع ذلك: ﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات، ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يجرون بسرعة كالسابح في الماء.

۞ وفي هذا رد علىٰ من يزعم: أن الشمس ثابتة والأرض تدور، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨]، ومستقرها: «**تحت العرش**»، فينبغي لنا أن نتلقىٰ العلوم سواء العملية أو النظرية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومن سنة رسوله ﷺ.

وكل هذه الآيات التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ يُعرف بنفسه وبعظيم قدرته إلىٰ مخلوقاته، وقد عُلِمَ أن الله عَزَّوَجَلَّ يُعرف بآياته الكونية وآياته الشرعية.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ الدوام والبقاء في الدنيا، ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ يا محمد ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ فهم الذين يخلفونك ويتربصون بك ولا يموتون، كما قالوا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ

﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠]، ينتظرون موت النبي ﷺ؛ ليتخلصوا منه، فهب أنه مات هل سيبقون خلفه بلا موت.

والواقع أن: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ من بر وفاجر، ومؤمن وكافر، وذكر وأنثى، بل كل مخلوق له نفس يموت، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ نختبركم، ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ بالشدة والسقم، والفقر، ﴿وَٱلۡخَيۡرِ﴾ الرخاء والصحة والغنى، ﴿فِتۡنَةٗ﴾ ابتلاء؛ لينظر الله عَزَّوَجَلَّ من يشكر ممن يكفر، كما قال تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك:٢]، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك: ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ سخرية، ﴿أَهَٰذَا﴾ هو ﴿ٱلَّذِي يَذۡكُرُ﴾ يعيب ﴿ءَالِهَتَكُمۡ﴾ وهو محمد ﷺ يُعِيبُونه، ﴿وَهُم﴾ مع سخريتهم بك، ﴿بِذِكۡرِ﴾ بطاعة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون: لا نعرف الرحمن إلا مسيلمة، وهذا على المكابرة، وقيل: على الجهل بالرحمن، وقد وجِدَ في أشعارهم أنهم يثبتون الرحمن من قول بعضهم: أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا.

﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ يعني: يستعجل في جميع أموره، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء:١١]، ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ الكونية في هلاك الكافرين وعذاب المبطلين، ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ وهذا أن الكافرين قد طلبوا العذاب مرارًا، استعجالًا له، كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج:١].

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الكفار، ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ يوم القيامة، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم.

والواقع أنه: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ﴾ تقوم الساعة، ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾ يدفعون: ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ المُحرقة، ﴿وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾ إذ أنها تصلاهم وتحيط بهم، ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعون من العذاب، فيستعجلون أمرًا لو نزل بهم لأهلكهم، ولو كانوا من

أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة لقالوا: اللهم اهدنا ووفقنا وسددنا، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٢٥]، قُتِلَ منهم يوم بدر سبعون، وهكذا لحقهم الأسر والهوان.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ الساعة، ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تحيرهم؛ لشدة أهوالها وعظيم شأنها، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ دفعًا لها، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يُمهلون ويؤخرون حتى يتوبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ سُخِرَ، ﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد، ﴿فَحَاقَ﴾ نزل، ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم﴾ استهزئوا بهم، ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ جزاء استهزائهم، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ ينصر رسله ويؤيدهم بخيره العظيم ونصره المبين.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿قُلْ مَن﴾ يحفظكم، ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إن أراد بكم ضرًا، أو أنزل بكم عذابًا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك:٢٨]، ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ عن طاعة ربهم وتوحيده: ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ لا يستجيبون لدعوة ولا ينتفعون بزاجر.

﴿أَمْ﴾ بل ليس ﴿لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ معبودات ﴿تَمْنَعُهُم﴾ مما يسوؤهم ﴿مِّن دُونِنَا﴾ من غيرنا والواقع أن آلهتهم: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ فكيف تنصر عابديها؟ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ يُمنَعون ويُجارون ويُنصَرون، وهذا من عظيم الحُجج المبينة لعجز هذه الآلهة من الأصنام والأوثان، فكيف يطلبون منها النصر وهذا حالها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٧-١٩٨]، حجارة كيف تنتصر؟

وكيف تنصر؟ لكنها القلوب الغُلف التي قد غُطيت بالران فلا تستجيب ولا ترعوي، ومثل هذا ما عليه عُباد القبور، فيذهبون إليها وينذرون ويذبحون لها وهم في غاية الضعف، لا يستطيعون نصرًا لأنفسهم ولا لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ﴾ الكفار ووسعنا لهم في معايشهم، ﴿وَ﴾ متعنا: ﴿آبَاءَهُمْ﴾ الذين من قبلهم، ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ وظنوا أن الذي يُهلكهم هو الدهر، كما قالوا: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، فاغتروا بطول أعمارهم، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ رؤية تفكر، ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ يُدمر على القُرى التي حولهم ويدمدم عليهم، ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ المنتصرون أم جند الله؟ الواقع: أن جند الله هم الغالبون، فالمراد بقوله: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ليست الأرض التي هي الجُرم تنقص تذهب منها قطعة بعد قطعة؛ وإنما الأرض المحيطة بهم تنقص من تسلط الكفار إلى فتح المسلمين.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ أخوفكم: ﴿بِالْوَحْيِ﴾ الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ إليَّ، ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ أي: لا تسمع الأصنام الدعاء: ﴿إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ يُخوفون، وأنتم أيضًا في حكم الصم، كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، فلا تسمعون ولا تستجيبون.

﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ﴾ أصابتهم: ﴿نَفْحَةٌ﴾ لفحة ونصيب، ﴿مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ الشديد الموجع، ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا﴾ حسرةً على أنفسهم، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالشرك،

ولغيرهم بما يتعاطونه من أخذ الحقوق ومنع ما يجب عليهم، لكن هل ينفعهم هذا؟ لا ينفعهم؛ لأنه في وقت لا توبة ولا عمل فيه، فالدنيا دار عمل وقد لا يُجازى فيها، والآخرة دار جزاء ولا عمل فيها.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: للعدل، ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهذا رد علىٰ المعتزلة الذين قالوا: أن الميزان إنما يحتاج إليه البقَّال والثَّوَّامْ، وهذا لضلالهم؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يضع الموازين لإظهار عدله وفضله، فيعلم الكفار أنهم لم يُظلموا ولم يُنقصوا من أعمالهم، ويعلم أهل الإيمان أنهم قد أُكرموا وضُعِّفَ لهم.

ففي الترمذي عند عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من حديث البطاقة: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ**»، قَالَ: «**فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**».

۞ وفي الآية: دليل علىٰ إثبات الميزان: وهو جُرم عظيم له كفتان، ولسان، ولسان الميزان: هو ما يكون في وسطه ويُعلق فيه، ويوزن العمل والعامل والصُحف علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم: والدليل علىٰ وزن العامل: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥].

وحديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند أحمد قال رسول الله ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**».

والدليل علىٰ وزن العمل: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ [القارعة:٦]، وفي

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»، متفق عليه، وحديث أبي سُلمىٰ قال رسول الله ﷺ: «**بَخٍ بَخٍ خَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّىٰ لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ**» أخرجه أحمد.

والدليل علىٰ وزن الصحف؛ ما تقدم من حديث عبد الله عمرو.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ ولو كان قليلًا حقيرًا، ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ جاء الله بها وبأجرها، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ محصين وحافظين لأعمال العباد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ التوراة: وهي الكتاب المفرق بين الحق والباطل في زمنه، ﴿وَضِيَآءً﴾ أي: نورًا مبينًا، كما قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [المائدة:١٦]، ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ موعظة وتذكيرًا: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يُبادرون إلىٰ فعل المأمور ترك المحظور.

والمتقون هم: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ يخافون: ﴿رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ في سرهم، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة: ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وجلون.

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن: ﴿ذِكْرٌ﴾ يُرفع به من أخذ به واستقام عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤]، أي: سبب للرفعة لك ولقومك، وقد يكون المعنىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ تذكير، ﴿مُّبَارَكٌ﴾ في جميع شأنه في تلاوته، والعمل به، والدعوة إليه، وفي تدبره وتعقله، مبارك في الدنيا ومبارك في الآخرة، ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ عليك يا محمد، وهو كلام رب العالمين، ﴿أَفَأَنتُمْ﴾ يا معاشر قريش: ﴿لَهُ﴾ لهذا القرآن: ﴿مُنكِرُونَ﴾ جاحدون، وهذا علىٰ الأنكار عليهم، والله المستعان.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ابن آزر عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أبو الأنبياء الذين جاءوا من بعده، ﴿رُشْدَهُۥ﴾ أي: صلاحه حيث وفقه الله عَزَّوَجَلَّ لامتثال أمره واجتناب نهيه وزجره، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة:١٢٤]، ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧]، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أنه أهل للهداية والنبوة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ﴾ [القصص:٦٨].

﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر، ﴿وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ﴾ على سبيل الأنكار ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ الأصنام، ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ مقيمون على عبادتها؛ لأنَّ العكوف: هو اللزوم للمكان ونحو ذلك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ﴾ [البقرة:١٨٧].

﴿قَالُوا﴾ رادين عليه قوله، ومحتجين بالتقليد: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فاقتدينا بهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢] ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ﴾ بعبادتكم للأصنام وبعدكم عن التوحيد وطاعة الملك العلام، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ خطأ: ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر بيّن؛ وذلك أنهم عبدوا حجارة صماء بكماء لا تنفع ولا تضر.

﴿قَالُوا﴾ أي: قوم إبراهيم: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أتيتنا: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الصدق الواقع، ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ وهذا من سخريتهم بأنبيائهم ورسلهم، كما قال بنو إسرائيل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾ [البقرة:٦٧].

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ﴾ إلهكم وخالقكم ورازقكم، ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهن وأوجدهن على غير مثال سابق، ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: من المُخبرين المعتقدين أنه لا إله إلا هو لا رب غيره ولا إله سواه بحق.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ لأمكرن بها ولأكسرنها، ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ بعد أن تذهبوا لشأنكم، وقيل: أنه عزم على ذلك حين خرجوا في يوم عيدهم، إذ أن المكان يكون خاليًا من المراقبين.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ صيرهم، ﴿جُذَٰذًا﴾ كسرًا وقطعًا وحطاما ورفاتٍ، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ فإنه لم يكسره ووضع الفأس على عنقه، وقيل: ربطه بيده، ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لعلهم يرجعون إلى دينه وإلى ما يدعوهم إليه، إذ علموا ضعف الآلهة وعجزها، وقيل: لعلهم يرجعون فيسألون إلههم عن هذا الفعل، والمعنى الأول أظهر.

﴿قَالُوا۟﴾ عند ذلك: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾ حيث كسرها وأرداها، ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين على مذهبهم وطريقهم، أو أنهم يريدون به أهل الإجرام.

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهم ويزهد من عبادتهم، ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ لعله لم يكن قد شاع عندهم ظهور دعوته إنما علمها البعض.

﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ مرأى منهم حتى يرقبوا إبراهيم وما نفعل به من العذاب المُهين، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون عقابه، ويطلعون على ذلك فيكون أدعى لثباتهم على آلهتهم.

﴿قَالُوا۟﴾ كفار قومه: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أنت الذي كسرتها وأرديتها وأصغرتها وهي آلهة معظمة.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وأشار إليه، غضبًا من أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن، وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم، ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ أي: اسألوا الحجارة الصماء البكماء: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ وهم عاجزون عن ذلك.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: قال النبي ﷺ: «**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ: إِنِّي سَقِيمٌ، وَقَوْلُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ، فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ، إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ..**»، الحديث، وهذا من التعريض وليس من الكذب الصراح.

﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟﴾ باللوم والأنكسار، عند أن رأوا الحجة القويمة لكن سرعان ما نفخهم الشيطان وعادوا إلى فعلتهم: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعبادتكم ما لا ينطق.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟﴾ رجعوا ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ إلى الباطل حيث أدركتهم الشقاوة فرجعوا إلى عقيدتهم السابقة، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا إبراهيم: ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ الأصنام والأوثان، ﴿يَنطِقُونَ﴾ يتكلمون، فكيف نسألهم؟

﴿قَالَ﴾ محاججًا لهم ومُظهرًا لعوار آلهتهم: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ﴾ بدلا منه ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ من رزق وصحة وغيرها ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ بمرض وشدة، فكيف يعبد ما لا يرجى ولا يخاف منه لعجزه.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ كلمة تأفف يؤتى بها على الاحتقار ونحو ذلك، ومعناها: تبًا وقذرًا لكم، ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ من هذه الأصنام والأوثان، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن ليست بآلهة وهي عاجزة عن نفع نفسها فضلًا عن نفع غيرها.

﴿قَالُوا﴾ بحجتهم الجاهلية، وهي اللجوء إلى لقوة في حال العجز: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ وهو أشد العذاب، ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: انتصروا لها، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ذلك، فجمعوا الحطب الكثير وأوقدوا النار العظيمة، وأركبوه في المنجنيق؛ لشدة حرارتها وعظيم بطشها، فكان من شأن الوزغة أنها كانت تنفخ النار على إبراهيم.

كما في الصحيحين عن أم شريك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ ولذلك أمر النبي ﷺ بقتل الوزغ، فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، كما في حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران:١٧٣]».

﴿قُلْنَا﴾ قال الله ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي﴾ فاستحالت من الحرارة إلى البرودة، ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال العلماء: حتى لا تُهلكه ببرودتها.

۞ وهذا دليل علىٰ عظيم قدرة الله النافذة؛ إذ أحال النار الموقدة إلىٰ مكان آمن لا حرارة تؤذي ولا برودة تُهلك، ولعلها أحرقت ملابسة؛ لحديث ابن عباس في الصحيح: «**أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلاَئِقِ يُكْسَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ**»، والله أعلم.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ﴾ بإبراهيم: ﴿كَيْدًا﴾ مكرًا بهذا الصنيع، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ في مرادهم فبَوَرَ سعيهم، ولم ينالوا مرادهم.

وكانت هذه الأحداث في زمن النمرود بن كنعان ملك جبار ادعىٰ الربوبية؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة:٢٥٨]، قالوا في شأنه أنه: أخذ رجلين فقتل

أحدهما وترك الآخر، قال: أحييت هذا وأمت هذا، فقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة:٢٥٨]، عجز وخُصِم.

عند ذلك عزم علىٰ الهجرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦]، وفي هذا عظة وعبرة لجميع من يتعظ: أن الإنسان إذا ضُيق عليه في بلد ما فليرحل إلىٰ غيرها، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ [النساء:٩٧].

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ أي: إبراهيم، ﴿وَلُوطًا﴾ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو ابن عمه حيث نجاهم من بطش النمرود وقومه في أرض بابل في العراق، ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ بلاد الشام، حيث كانت كثيرة الأنهار والثمار.

﴿وَوَهَبۡنَا﴾ أعطينا: ﴿لَهُ إِسۡحَٰقَ﴾ ابن إبراهيم وهو ابنه من سارة، ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ ابن إسحاق، ﴿نَافِلَةٗ﴾ زيادة أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بالولد وزاده الحفيد، ﴿وَكُلّٗا﴾ إسحاق ويعقوب، وقبل ذلك إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ طائعين لرب العالمين.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ صيرناهم، ﴿أَئِمَّةٗ﴾ يُقتدى بهم في الخير، ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ يدعون الناس إلى ديننا ويهتدون بوحينا، ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ العمل بالشرائع والوحي المُنزل، ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ من ذكر الخاص بعد العام؛ لبيان فضلها وأهميتها، وإقامتها: بالمحافظة عليها في وقتها، ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ المفروضة وصرفها في مواطنها، ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ موحدين منقادين لرب العالمين.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۗ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ الفصل بين الخصوم بالحق، بل: ﴿وَعِلْمًا﴾ وهو العلم بالكتاب المنزل، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قرية سدّوم، ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ اللواط وهي في أرض الشام، إذ تميزوا بفعلةٍ شنيعة تتابعوا وتمالأوا عليها، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

۞ وهذا دليل علىٰ تنكس الفطر، وزوال المروءات، وانعدام الدين، وخبث الظاهر والباطن، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ خرجوا عن الطاعة والفطرة القويمة السليمة.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ﴾ لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾ إذ نجاه الله عَزَّوَجَلَّ مما نزل بهم من العذاب الذي صبحهم به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ [القمر:٣٤-٣٥]، ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الأنبياء والمرسلين.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿نُوحًا﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أبو البشرية الثاني، وأول رسول إلى أهل الأرض، ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ربه عَزَّوَجَلَّ بهلاك قومه: ﴿مِن قَبْلُ﴾ حين أبى قومه إلا الكفر والعناد، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعوته، ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ نجاه الله وسلمه: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الغم والشدة والغرق.

وفي حديث الشفاعة الطويل: حين يأتيه الناس نوحًا ويقولون له: اشفع لنا إلىٰ ربك قال: «**وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَىٰ قَوْمِي**»، بينما النبي ﷺ قال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**» متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ منعناه وحفظناه، ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ الكفار، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالطوفان الذي تقدم ذكر شأنه في سورة هود ولله الحمد.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿وَدَاوُۥدَ﴾ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَ﴾ ولده: ﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾ ابن داود، فكلاهما نبي رسول، وآتاهم الله عَزَّوَجَلَّ من القوة والمنعة الشيء العظيم، ﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ في الزرع، ﴿إِذۡ نَفَشَتۡ﴾ انتشرت ﴿فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ ليلًا فأفسدته، فالنفش: الرعي بالليل، والهمل: بالنهار، ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ لُحكم داود وسليمان: ﴿شَٰهِدِينَ﴾ مطلعين وبه عالمين.

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ أي: علمناه الحُكم بالقضية، وألهمناه ما لم يُلهم أبوه فيها، ﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان عليهما السلام، ﴿آتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿حُكْمًا﴾ النبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ بأحكام الشرع، قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أن الحُكام قد هلكوا، ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنىٰ علىٰ هذا باجتهاده.

وفي الصحيح من حديث عمرو بن العاص: قال النبي ﷺ: «**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ**».

والشأن في ذلك ما ذكر أهل التفسير أن رجلين دخلا علىٰ داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع: إن هذا انفلتت غنمه ليلًا ووقعت في حرثي فأفسدته، فلم يبقَ منه شيء فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث، فخرجا ومرا علىٰ سليمان فقال: كيف قضىٰ بينكما فأخبراه، فقال سليمان: لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا، وروي أنه قال: غير هذا أرفق للفريقين، فأخبرا بذلك داود فدعاه فقال: كيف تقضي، ويُروىٰ أنه قال: ادفع الغنم إلىٰ صاحب الحرث ينتفع بدرها، ونسلها، وصوفها، ونوافعها، ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيئته يوم أُكل دُفِعَ إلىٰ أهله

وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال: داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك، والحكم الآخر وهو الإسلام: أن ما أفسدت الماشية المُرسلة بالنهار من مال الغير فلا ضمان علىٰ ربها؛ لأنَّ علىٰ أصحاب المال أن يحفظوا أموالهم، وأن يجعلوا من يرد الدواب التي تنزل عليها، وما أفسدت بالليل ضمنه ربُها؛ لأنَّ في عُرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار، والمواشي تسرح بالنهار وتُرد بالليل إلىٰ المراح.

وأيضًا مما قضىٰ به سليمان بن داود وكان الصواب له علىٰ حُكم أبيه: ما في الصحيحين: قال النبي ﷺ: «**كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الأُخْرَىٰ: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَىٰ دَاوُدَ، فَقَضَىٰ بِهِ لِلْكُبْرَىٰ، فَخَرَجَتَا عَلَىٰ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَىٰ: لاَ تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللهُ، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَىٰ بِهِ لِلصُّغْرَىٰ**»، أي: بقرينة الرحمة وقرينة الحال.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ﴾ الشامخات، ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ معه إذا بدأ في تسبيحه فقد كان من أصحاب الأصوات الحسنة، ﴿وَالطَّيْرَ﴾ أيضًا يُسبحن معه للملك العلام، ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: ما ذُكر من التفهيم وإيتاء الحُكم والتسخير.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ أي: داود، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ الدروع التي تُلبس في وقت القتال، ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ أي: تحرزكم وتمنعكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ من الطعن والضرب، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ الله علىٰ نعمه، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيد أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير﴾ [سبأ:١٠-١١]، ﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾ سخرنا له: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ قوية متحركة، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أرض الشام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِسُلَيْمَنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ محيطين لا تخفىٰ علينا منها خافية.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قد سُخرت لسليمان، ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار فيستخرجون اللؤلؤ والمرجان، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن

مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ يخرجون بأمره ويرجعون بأمره، وهذا استجابة لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴿٣٨﴾﴾ [ص:٣٥-٣٨].

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر: ﴿أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ دعا ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ﴾ أصابني: ﴿الضُّرُّ﴾ المرض الطويل، إذ مكث مريضًا كما يذكرون ثمانية عشر سنة حتىٰ تركه القريب والبعيد، والصديق والحبيب، ثم دعا الله عَزَّوَجَلَّ بذلك، وفي الباب إسرائيليات كثيرة لا يثبت منها شيء نُعرض عن ذكرها، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: عجل بشفائي وارفع بأسي واستجب دعائي، فعند ذلك كان ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، فشرب من ذلك الماء، واغتسل منه فشفاه الله.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاؤه، ﴿فَكَشَفْنَا﴾ رفعنا، ﴿مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ﴾ من مرض وزمانة، ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ أعطيناه، ﴿أَهْلَهُ﴾ زوجه وأبناؤه، ﴿وَمِثْلَهُم﴾ زيادة ﴿مَّعَهُمْ﴾ مكرمة من الله عَزَّوَجَلَّ، وكل ذلك فعلناه ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فعل الله به ذلك رحمة، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ تذكيرًا وموعظة، ﴿لِلْعَٰبِدِينَ﴾ للطائعين حتىٰ يعلموا عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وفتحه علىٰ أوليائه.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَىٰ، قَالَ بَلَىٰ يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لاَ غِنَىٰ لِي عَنْ بَرَكَتِكَ**».

﴿وَ﴾ اذكر: ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ وهو ابن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ نبي، قيل: ما بين آدم ونوح، وقيل: بعد ذلك وهو الصحيح، ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ يذكرون أنه صَلُحَ في ليلة والله أعلم، ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ علىٰ أمر الله عَزَّوَجَلَّ وقدره.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي: أنعم الله عليهم بالنبوة والرسالة، ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ العابدين لرب العالمين، والله عَزَّوَجَلَّ يتولى الصالحين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٦].

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ٨٨﴾.

﴿وَ﴾ اذكر: ﴿ذَا النُّونِ﴾ صاحب الحوت وهو يونس بن متىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لقومه حين أبوا قبول دعوته والتصديق بنبوته، ﴿فَظَنَّ﴾ استيقن، ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ نضيق: ﴿عَلَيْهِ﴾ يعني: كان ظنه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يُضيق عليه، وألا يُعاقبه علىٰ هذه الفعلة التي فعلها، وكان الشأن: أنه حين ذهب ركب في سفينة مع قوم فبينما هم في البحر إذ جاءت الأمواج العاتية والرياح الشديدة، فاستهموا علىٰ أن يُنقص من رُكاب السفينة حتىٰ يسلم البقية، فوقعت القرعة علىٰ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكروا أنهم أعادوها فوقعت عليه، ثم لم يكن بُد من إلقائه في البحر، فحين ألقوه في البحر ألتقمه النون وهو الحوت العظيم الكبير، فبينما هو علىٰ ذلك: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في ظلمات البحر والليل وبطن الحوت: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ متوسلًا بألوهية الله إذ لا رب غيره ولا إله سواه، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ عن النقص والعيب، وتوسل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ باستجابة دعوته، ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في خروجه من بين قومه بغير إذن ربه؛ ولذلك كانت هذه الدعوة من أسباب استجابة الدعاء.

ففي حديث سعيد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**دُعَاءُ ذَا النُّونِ الَّذِي دَعَا بِهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، لَمْ يَدْعُ بِهَا امْرُؤٌ**

مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ» أخرجه الطبري؛ لأنها جمعت بين وصف الله عَزَّوَجَلَّ بصفات الكمال والجلال، وبين تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ، وهكذا ما يتعلق بالاعتراف بالذنب والتوبة.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أجبناه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ سلمناه ﴿مِنَ الْغَمِّ﴾ الكرب والحزن من تلك الظلمات، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما أنجيناه من هذه الضيقة، ﴿نُنجِي﴾ نسلم ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المضايق والأحزان، وكان من شأنه ما قاله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيم وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٥-١٤٧]، بمعنى: بل يزيدون، و عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبي ﷺ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» متفق عليه.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَ﴾ اذكر: ﴿زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى﴾ دعا: ﴿رَبَّهُ﴾ تعالىٰ بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي﴾ لا تتركني: ﴿فَرْدًا﴾ لا ولد لي ولا وارث، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ من الأسماء المركبة، من أنه الذي يبقىٰ حين تفنىٰ الخليقة، ويقول: «أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» متفق عليه، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه وحققنا له رجاءه، ﴿وَوَهَبْنَا﴾ أعطينا: ﴿لَهُ يَحْيَى﴾ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ جعلها ودودًا ولودًا، ﴿إِنَّهُمْ﴾ الأنبياء جميعًا، وقيل: زكريا وأهل بيته، ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ﴾ يبادرون ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ المبرات امتثالًا لأمر الله واستجابةً لداعيه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٣]، ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد:٢١]، ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾ مع ذلك: ﴿رَغَبًا﴾ طمعًا فيما عنده من الخير العظيم، ﴿وَرَهَبًا﴾ خوفًا من عذابه ونقمته، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ متواضعين أذلاء لحُكم الله وأمره.

﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حفظته من الحرام وهي مريم ابنة عمران، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ كقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ [التحريم:١٢]، أي: أن جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ نفخ في جيب

درعها ودخل الروح فرجها، ثم كان الولد، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ أي: من الأرواح التي عند الله عَزَّوَجَلَّ، أضافها إلىٰ نفسه إضافة تشريف لا أنه موصوف بالروح، ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ صيرناها، ﴿وَٱبْنَهَآ﴾ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿آيَةً﴾ دالة علىٰ كمال قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ حيث خلق رجلًا من غير أب، وربنا لا يُعجزه شيء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ملتكم ودينكم، ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ دينًا واحدًا وهو الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ خالقكم ورازقكم ومدبر شأنكم، ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ وحدوني لا تشركوا معي غيري لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا.

﴿وَ﴾ لكن الواقع أن الناس: ﴿تَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ اختلفوا وتمزقوا في الدين فصاروا فرقًا وأحزابًا، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**» أخرجه أبو داود، وفي حديث معاوية: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»، ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا﴾ كل هذه الأحزاب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة: ﴿رَٰجِعُونَ﴾ فنجازيهم بأعمالهم المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والمبرات المُكرَمَات، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بهذا القيد إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من كافر عملًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: لا جحود لعمله الصالح، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ حافظون، فيلقاه في: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[الشعراء:٨٨-٨٩]، ﴿وَحَرَامٌ﴾ الحرام: المنع، ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ دمرنا عليها: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلىٰ الدنيا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ وهذا في آخر الزمان يُفتح سدهم، وقد قال النبي ﷺ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا،» متفق عليه عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ صوب وجهة، ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون لكثرتهم، فيشربون المياه ويقتلون ويعيثون في الأرض الفساد، وفي حديث النواس بن سمعان: « ثُمَّ يَأْتِي عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ عِيسَىٰ: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَىٰ الطُّورِ [ص:٢٢٥٤] وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَىٰ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَىٰ كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّىٰ أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ

بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ» رواه مسلم (٢٢٥٤).

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ وهو القيامة؛ لأنَّ النبي ﷺ يقول.

كما في حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّىٰ تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ - فَذَكَرَ - الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَىٰ مَحْشَرِهِمْ».

﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾ مرفوعة لا يستطيعون لها ردًا؛ لشدة خوفهم، ﴿أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يقولون مع ذلك: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ﴾ نسيان وإعراض، ﴿مِّنۡ هَٰذَا﴾ عن ذكر القيامة، ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ كافرين، وهذا من شهادتهم علىٰ أنفسهم.

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾.

﴿إِنَّكُمۡ﴾ يا معاشر الكفار، ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿حَصَبُ﴾ وقود: ﴿جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ داخلون وفيها خالدون.

﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام والأوثان، ﴿ءَالِهَةٗ﴾ تُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ على الحقيقة، ﴿مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ ما دخلوا فيها، ﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ العابد والمعبود.

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾ صوت شديد عند جلب الهواء، ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ ولا يُبصرون وإنما يعذبون.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا: ولما نزلت هذه الآية قال الكفار: خُصِمَ محمد، أنه يزعم أننا وما نعبد من دون الله في النار، فكيف بعيسىٰ وهو نبي؟ وهكذا عزير، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ من أنهم من أهل الهدىٰ، وأهل الجنة كالملائكة، وعزير، والمسيح، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ عن النار.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ صوتها وحركة تلهبها، ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ في الجنة، ﴿خَٰلِدُونَ﴾ ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة:٣٣]، يقيمون على ذلك، فيها: «**مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**».

﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ﴾ يخيفهم، ﴿ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ النفخة الأخيرة، بدليل قول الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل:٨٧]، ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾ تستقبلهم: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حين دخول الجنة: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ على ألسنة الرسل.

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾.

وهو يوم عظيم شأنه، شديدة أهواله، وكثيرة أحواله، فاذكر يا محمد: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ الواسعة الغليظة العظيمة، ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ الصحف التي تطوىٰ، ﴿لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ يحشر الناس عراة غرلا بهمًا.

كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مُحْشُورُونَ إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، **وجاء عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»** قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**» متفق عليه.

﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ إعادة البعث.

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ أي: في الذكر، وهو جمع الكتب المنزلة علىٰ أنبيائه ورسله، ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ أم الكتاب الذي عنده، والمعنىٰ من بعد ما كتب ذكره في اللوح

المحفوظ، وقيل: الذكر القرآن، والمراد ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: من قبل القرآن، ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ هذا وعد الله سواءً كانت أرض الدنيا أو الآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ الوعد العظيم من الله عَزَّوَجَلَّ وفي هذا القرآن، ﴿لَبَلَٰغًا﴾ وصولًا إلىٰ البغية لمن اتبعه واقتفىٰ أثره، ﴿لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ مؤمنين موحدين.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

۞ وهذا دليل علىٰ عموم نبوة النبي ﷺ إلىٰ الثقلين من الجن والأنس، وهو القائل ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً»، «وَبُعِثْتُ إِلَىٰ كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ» متفق عليه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، ورحمته للعالمين: أن أخرجهم الله عَزَّوَجَلَّ بدعوته من الظلمات إلىٰ النور، ومن الشرك إلىٰ التوحيد، ومن البدعة إلىٰ السنة، ومن المعصية إلىٰ الطاعة، فاتباعه رحمة، وخلافه نقمة.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ بهذا القرآن، وفيه ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمۡ﴾ معبودكم ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ منقادون مستسلمون لله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وأعرضوا ولم يستجيبوا، ﴿فَقُلۡ﴾ لهم: ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾ أعلمتكم، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٖ﴾ إنذار بيّن يستوي في علمه جميع الناس، ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ وما أعلم، ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من القيامة.

ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يعلم ولذلك قال: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ ما يكون في صدوركم، لا تخفىٰ عليه خافية.﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ﴾ أي: لعل تأخير العذاب، ﴿فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾ واختبار من حيث أنهم لم يتوبوا ولم يؤبوا، ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ تتمتعون إلىٰ انقضاء آجالكم.

﴿قَٰلَ﴾ محمد ﷺ: ﴿قَٰلَ رَبِّ﴾ أي: اقضِ بيني وبينهم: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ البيّن الواضح، ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وتتهمونا به من الكذب والباطل والبهتان.

والحمد لله.[1]

---

(١) كان الأنتهاء من مراجعتها ظهر يوم السبت: الثالث/ ربيع الأول/ لعام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف، وكان الأنتهاء من المراجعة الأخيرة، في الثالث والعشرين من صفر لعام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف، ولله الحمد.

فهرس المحتويات

المحتويات

تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ المَائِدَةِ

[الآيات:١-٢]. ١٢
[الآية:٣]. ١٤
[الآية:٤]. ١٨
[الآية:٥]. ٢٠
[الآية:٦]. ٢١
[الآيات:٧-١١]. ٢٦
[الآيات:١٢-١٣]. ٢٧
[الآيات:١٤-١٩]. ٣٠
[الآيات:٢٠-٢٦]. ٣٣
[الآيات:٢٧-٣١]. ٣٥
[الآيات:٣٢-٣٤]. ٣٨
[الآيات:٣٥-٤٠]. ٤١
[الآية:٤١]. ٤٤
[الآيات:٤٢-٤٣]. ٤٦
[الآيات:٤٤-٤٧]. ٤٨
[الآيات:٤٨-٥٠]. ٥١
[الآيات:٥١-٥٣]. ٥٣
[الآيات:٥٤-٥٦]. ٥٥
[الآيات:٥٧-٦٠]. ٥٨
[الآيات:٦١-٦٤]. ٦٠
[الآيات:٦٥-٦٩]. ٦٣
[الآيات:٧٠-٧٣]. ٦٦
[الآيات:٧٤-٧٧]. ٦٨
[الآيات:٧٨-٨١]. ٦٩
[الآيات:٨٢-٨٦]. ٧٠
[الآيات:٨٧-٨٨]. ٧٣
[الآية:٨٩]. ٧٥
[الآيات:٩٠-٩٣]. ٧٩
[الآيات:٩٤-٩٥]. ٨١
[الآيات:٩٦-١٠٠]. ٨٤
[الآيات:١٠١-١٠٢]. ٨٩
[الآيات:١٠٣-١٠٥]. ٩٠
[الآيات:١٠٦-١٠٨]. ٩٢
[الآيات:١٠٩-١١١]. ٩٤
[الآيات:١١٢-١١٥]. ٩٦
[الآيات:١١٦-١٢٠]. ٩٨

تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ الأَنْعَام

[الآيات:١-٣]. ١٠٤
[الآيات:٤-٧]. ١٠٥
[الآيات:٨-١١]. ١٠٧
[الآيات:١٢-١٨]. ١٠٨
[الآيات:١٩-٢٦]. ١١٠
[الآيات:٢٧-٣٢]. ١١٣
[الآيات:٣٣-٣٥]. ١١٥
[الآيات:٣٦-٤١]. ١١٦
[الآيات:٤٢-٤٥]. ١١٨
[الآيات:٤٦-٥٢]. ١١٩
[الآيات:٥٣-٥٨]. ١٢٢
[الآيات:٥٩-٦٢]. ١٢٤
[الآيات:٦٣-٦٧]. ١٢٧
[الآيات:٦٨-٧٠]. ١٢٩
[الآيات:٧١-٧٣]. ١٣٠
[الآيات:٧٤-٨٣]. ١٣٢
[الآيات:٨٣-٩٠]. ١٣٦
[الآيات:٩١-٩٢]. ١٣٨
[الآيات:٩٣-٩٤]. ١٤٠
[الآيات:٩٥-٩٩]. ١٤١
[الآيات:١٠٠-١٠٥]. ١٤٤
[الآيات:١٠٦-١١١]. ١٤٧
[الآيات:١١٢-١١٣]. ١٥٠
[الآيات:١١٤-١٢١]. ١٥٢
[الآيات:١٢٢-١٢٤]. ١٥٥
[الآيات:١٢٥-١٣١]. ١٥٧
[الآيات:١٣٢-١٣٥]. ١٦٠

[الآيات:١٣٦-١٣٧]. ١٦٢
[الآيات:١٣٨-١٤٠]. ١٦٤
[الآيات:١٤١-١٤٢]. ١٦٥
[الآيات:١٤٣-١٤٤]. ١٦٧
[الآيات:١٤٥-١٤٧]. ١٦٨
[الآيات:١٤٨-١٥٠]. ١٧٠
[الآيات:١٥١-١٥٣]. ١٧١
[الآيات:١٥٤-١٥٨]. ١٧٥
[الآيات:١٥٩-١٦٣]. ١٧٧
[الآيات:١٦٤-١٦٥]. ١٧٩
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ الأَعْرَافِ .....
[الآيات:١-١٠]. ١٨٢
[الآيات:١١-١٨]. ١٨٦
[الآيات:١٩-٢٥]. ١٨٩
[الآيات:٢٦-٢٧]. ١٩٠
[الآيات:٢٨-٣٠]. ١٩٢
[الآيات:٣١-٣٤]. ١٩٣
[الآيات:٣٥-٣٧]. ١٩٥
[الآيات:٣٨-٤١]. ١٩٦
[الآيات:٤٢-٤٣]. ١٩٩
[الآيات:٤٤-٥١]. ٢٠٢
[الآيات:٥٢-٥٣]. ٢٠٤
[الآيات:٥٤-٥٦]. ٢٠٦
[الآيات:٥٧-٥٨]. ٢١٠
[الآيات:٥٩-٦٤]. ٢١١
[الآيات:٦٥-٧٢]. ٢١٣
[الآيات:٧٣-٧٩]. ٢١٦
[الآيات:٨٠-٨٤]. ٢١٨
[الآيات:٨٥-٨٧]. ٢٢٠
[الآيات:٨٨-٩٣]. ٢٢٢
[الآيات:٩٤-١٠٢]. ٢٢٣
[الآيات:١٠٣-١٠٨]. ٢٢٦
[الآيات:١٠٩-١١٤]. ٢٢٨
[الآيات:١١٥-١٢٦]. ٢٢٩
[الآيات:١٢٧-١٢٩]. ٢٣١
[الآيات:١٣٠-١٣٦]. ٢٣٢
[الآيات:١٣٧-١٤١]. ٢٣٥
[الآيات:١٤٢-١٤٣]. ٢٣٧
[الآيات:١٤٤-١٤٧]. ٢٤٠
[الآيات:١٤٨-١٤٩]. ٢٤٢
[الآيات:١٥٠-١٥٣]. ٢٤٣
[الآيات: ١٥٤-١٥٦]. ٢٤٦
[الآية:١٥٧]. ٢٤٨
[الآية:١٥٨]. ٢٥٠
[الآيات:١٥٩-١٦٢]. ٢٥٢
[الآيات:١٦٣-١٦٦]. ٢٥٤
[الآيات: ١٦٧-١٧١]. ٢٥٦
[الآيات:١٧٢-١٧٤]. ٢٥٩
[الآيات:١٧٥-١٧٩]. ٢٦١
[الآية:١٨٠]. ٢٦٥
[الآيات:١٨١-١٨٨]. ٢٧٢
[الآيات:١٨٩-١٩٥]. ٢٧٥
[الآيات:١٩٦-٢٠٦]. ٢٧٩
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ الأَنْفَالِ .....
[الآية:١]. ٢٨٧
[الآيات:٢-٤]. ٢٨٩
[الآيات:٥-٨]. ٢٩١
[الآيات:٩-١٤]. ٢٩٣
[الآيات: ١٥-١٦]. ٢٩٦
[الآيات:١٧-١٩]. ٢٩٧
[الآيات: ٢٠-٢٦]. ٢٩٩
[الآيات:٢٧-٢٩]. ٣٠٢
[الآيات:٣٠-٣٥]. ٣٠٣
[الآيات:٣٦-٣٧]. ٣٠٦
[الآيات:٣٨-٤٠]. ٣٠٧
[الآية: ٤١]. ٣٠٩
[الآيات:٤٢-٤٤]. ٣١٠
[الآيات: ٤٥-٤٩]. ٣١٣

[الآيات:٥٠-٥٤]. ٣١٦
[الآيات:٥٥-٦١]. ٣١٨
[الآيات:٦٢-٦٦]. ٣٢١
[الآيات: ٦٧-٧١]. ٣٢٢
[الآيات:٧٢-٧٥]. ٣٢٦
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ التَّوبَةِ
[الآيات:١-٦]. ٣٣٢
[الآيات:٧-١١]. ٣٣٦
[الآيات:١٢-١٦]. ٣٣٩
[الآيات:١٧-١٨]. ٣٤١
[الآيات:١٩-٢٢]. ٣٤٢
[الآيات:٢٣-٢٤]. ٣٤٤
[الآيات: ٢٥-٢٧]. ٣٤٦
[الآيات:٢٨-٢٩]. ٣٥٠
[الآيات:٣٠-٣١]. ٣٥٣
[الآيات: ٣٢-٣٣]. ٣٥٥
[الآيات:٣٤-٣٥]. ٣٥٧
[الآيات:٣٦-٣٧]. ٣٥٩
[الآيات:٣٨-٤٠]. ٣٦٠
[الآية:٤١]. ٣٦٣
[الآيات:٤٢-٤٩]. ٣٦٤
[الآيات: ٥٠-٥٢]. ٣٦٧
[الآيات:٥٣-٥٥]. ٣٦٨
[الآيات: ٥٦-٥٩]. ٣٧٠
[الآيات: ٦٠-٦١]. ٣٧١
[الآيات:٦٢-٦٦]. ٣٧٧
[الآيات:٦٧-٦٨]. ٣٧٨
[الآيات: ٦٩-٧٠]. ٣٧٩
[الآيات:٧١-٧٢]. ٣٨٠
[الآيات: ٧٣-٧٤]. ٣٨٢
[الآيات:٧٥-٨٠]. ٣٨٣
[الآيات: ٨١-٨٥]. ٣٨٦
[الآيات:٨٦-٨٩]. ٣٨٧
[الآيات:٩٠-٩٦]. ٣٨٨
[الآيات: ٩٧-١٠٠]. ٣٩١
[الآيات:١٠١-١٠٦]. ٣٩٣
[الآيات:١٠٧-١١٠]. ٣٩٥
[الآيات: ١١١-١١٢]. ٣٩٧
[الآيات: ١١٣-١١٦]. ٣٩٩
[الآيات: ١١٧-١١٩]. ٤٠١
[الآيات: ١٢٠-١٢١]. ٤٠٧
[الآيات:١٢٢-١٢٣]. ٤٠٨
[الآيات: ١٢٤-١٢٧]. ٤١٠
[الآيات:١٢٨-١٢٩]. ٤١٢
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ يُونُسَ
[الآيات: ١-٢]. ٤١٦
[الآيات:٣-٦]. ٤١٧
[الآيات:٧-١٠]. ٤١٩
[الآيات:١١-١٤]. ٤٢٠
[الآيات:١٥-١٧]. ٤٢٣
[الآيات:١٨- ٢٠]. ٤٢٤
[الآيات:٢١-٢٣]. ٤٢٦
[الآيات:٢٤-٢٥]. ٤٢٧
[الآيات:٢٦-٣٠]. ٤٢٨
[الآيات:٣١-٣٣]. ٤٣١
[الآيات:٣٤-٣٦]. ٤٣٢
[الآيات:٣٧-٤٤]. ٤٣٣
[الآيات:٤٥-٥٣]. ٤٣٥
[الآيات:٥٤-٥٦]. ٤٣٨
[الآيات:٥٧-٦٠]. ٤٣٩
[الآية:٦١]. ٤٤٠
[الآيات:٦٢-٦٤]. ٤٤١
[الآيات:٦٥-٧٠]. ٤٤٣
[الآيات:٧١-٧٣]. ٤٤٤
[الآيات:٧٤-٧٨]. ٤٤٦
[الآيات:٧٩-٨٦]. ٤٤٧
[الآيات:٨٧-٨٩]. ٤٤٩
[الآيات:٩٠-٩٣]. ٤٥٠

[الآيات:٩٤-٩٧]. ٤٥٢
[الآيات:٩٨-١٠٣]. ٤٥٣
[الآيات:١٠٤-١٠٦]. ٤٥٤
[الآيات:١٠٧-١٠٩]. ٤٥٥
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ هُودٍ
[الآيات:١-٥]. ٤٥٩
[الآيات:٦-٧]. ٤٦١
[الآيات:٨-١١] ٤٦٢
[الآيات:١٢-١٤]. ٤٦٣
[الآيات:١٥-١٧]. ٤٦٤
[الآيات:١٨-٢٤]. ٤٦٧
[الآيات:٢٥-٣١]. ٤٦٨
[الآيات:٣٢-٣٥]. ٤٧٠
[الآيات:٣٦-٤٠]. ٤٧١
[الآيات:٤١-٤٤]. ٤٧٣
[الآيات:٤٥-٤٨]. ٤٧٤
[الآيات: ٤٩-٥٧]. ٤٧٥
[الآيات:٥٨-٦٠]. ٤٧٧
[الآيات:٦١-٦٥]. ٤٧٨
[الآيات: ٦٦-٦٨]. ٤٨٠
[الآيات:٦٩-٧٦]. ٤٨١
[الآيات:٧٧-٨٣]. ٤٨٣
[الآيات:٨٤-٩٥]. ٤٨٦
[الآيات:٩٦-١٠٥]. ٤٨٩
[الآيات:١٠٦-١١٣]. ٤٩٢
[الآيات:١١٤-١٢٣]. ٤٩٤
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ يُوسُفَ
[الآيات:١-٦]. ٥٠٠
[الآيات:٧-١٠]. ٥٠٢
[الآيات:١١-١٥]. ٥٠٤
[الآيات:١٦-١٨]. ٥٠٥
[الآيات:١٩-٢٢]. ٥٠٦
[الآيات:٢٣-٢٩]. ٥٠٨
[الآيات:٣٠-٣٢]. ٥١١
[الآيات:٣٣-٣٥]. ٥١٢
[الآيات:٣٦-٤٢]. ٥١٣
[الآيات:٤٣-٤٩]. ٥١٥
[الآيات:٥٠-٥٧]. ٥١٧
[الآيات:٥٨-٦٢]. ٥١٩
[الآيات:٦٣-٦٦]. ٥٢١
[الآيات:٦٧-٦٨]. ٥٢٣
[الآيات:٦٩-٧٦]. ٥٢٣
[الآيات:٧٧-٧٩]. ٥٢٥
[الآيات:٨٠-٨٢]. ٥٢٦
[الآيات:٨٣-٨٧]. ٥٢٨
[الآيات:٨٨-٩٢]. ٥٢٩
[الآيات:٩٣-١٠١]. ٥٣٠
[الآيات:١٠٢-١٠٧]. ٥٣٣
[الآيات:١٠٨-١١١]. ٥٣٥
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ الرَّعْدِ
[الآيات:١-٤]. ٥٤١
[الآيات:٥-٧]. ٥٤٣
[الآيات:٨-١١]. ٥٤٥
[الآيات:١٢-١٥]. ٥٤٦
[الآيات:١٦-١٧]. ٥٤٩
[الآيات:١٨-٢٤]. ٥٥٠
[الآيات:٢٥-٢٧]. ٥٥٤
[الآيات:٢٨-٢٩]. ٥٥٦
[الآيات:٣٠-٣١]. ٥٥٧
[الآيات:٣٢-٣٤]. ٥٥٩
[الآيات:٣٥-٣٧]. ٥٦٠
[الآيات:٣٨-٤٣]. ٥٦١
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ إِبْرَاهِيْمَ
[الآيات:١-٤]. ٥٦٧
[الآيات:٥-٨]. ٥٦٨
[الآيات:٩-١٢]. ٥٧٠
[الآيات:١٣-١٨]. ٥٧٢
[الآيات:١٩-٢٢]. ٥٧٤

فهرس

[الآيات:٢٣-٢٧]. ٥٧٦
[لآيات:٢٨-٣٤]. ٥٨٠
[الآيات:٣٥-٤١]. ٥٨٣
[الآيات:٤٢-٤٦]. ٥٨٦
[الآيات:٤٧-٥٢]. ٥٨٧
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ الحِجْرِ
[الآيات:١-٥]. ٥٩٢
[الآيات: ٦ - ٩]. ٥٩٣
[الآيات: ١٠ - ١٥]. ٥٩٤
[الآيات: ١٦ - ٢٥]. ٥٩٥
[الآيات:٢٦-٤٤]. ٥٩٨
[الآيات:٤٥-٥٠]. ٥٩٩
[الآيات:٥١-٦٠]. ٦٠١
[الآيات:٦١-٧٠]. ٦٠٢
[الآيات:٧١-٧٧]. ٦٠٣
[الآيات:٧٨-٨٤]. ٦٠٤
[الآيات:٨٥-٨٩]. ٦٠٥
[الآيات:٩٠-٩٦]. ٦٠٦
[الآيات:٩٧-٩٩]. ٦٠٩
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ النَّحْلِ
[الآيات:١-٩]. ٦١٢
[الآيات: ١٠-١٣]. ٦١٦
[الآيات: ١٤-١٨]. ٦١٦
[الآيات: ١٩-٢٣]. ٦١٨
[الآيات:٢٤-٢٩]. ٦١٩
[الآيات:٣٠-٣٤]. ٦٢٠
[الآيات:٣٥-٤٠]. ٦٢٢
[الآيات:٤١-٥٠]. ٦٢٤
[الآيات: ٥١-٥٥]. ٦٢٧
[الآيات: ٥٦-٦٢]. ٦٢٨
[الآيات: ٦٣-٦٩]. ٦٣١
{الآيات: ٧٠-٧٢]. ٦٣٤
[الآيات: ٧٣-٧٩]. ٦٣٦
[الآيات: ٨٠-٨٧]. ٦٣٨
[الآيات:٨٨-٨٩]. ٦٤٠
[الآيات:٩٠-٩٣]. ٦٤١
[الآيات:٩٤-١٠٢]. ٦٤٣
[الآيات:١٠٣-١١٠]. ٦٤٥
[الآيات:١١١-١١٩]. ٦٤٨
[الآيات:١٢٠-١٢٨]. ٦٥٢
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ الإِسْرَاءِ
[الآية: ١]. ٦٥٦
[الآيات: ٢-٨]. ٦٦٠
[الآيات: ٩-١٧]. ٦٦٢
[الآيات: ١٨-٢٧]. ٦٦٧
[الآيات: ٢٨-٣٨]. ٦٧١
[الآيات: ٣٩-٤٨]. ٦٧٥
[الآيات: ٤٩-٥٨]. ٦٧٧
[الآيات:٥٩-٦٦]. ٦٨٠
[الآيات: ٦٧-٧٧]. ٦٨٤
[الآيات:٧٨-٨٧]. ٦٨٧
[الآيات: ٨٨-٩٦]. ٦٩٦
[الآيات: ٩٧-١٠٠]. ٦٩٧
[الآيات: ١٠١-١٠٤]. ٦٩٩
[الآيات:١٠٥-١١١]. ٧٠٠
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ الكَهْفِ
[الآيات:١-٦]. ٧٠٥
[الآيات:٧-١٦]. ٧٠٧
[الآيات:١٧-٢٠]. ٧١٠
[الآيات:٢١-٢٢]. ٧١٢
[الآيات:٢٣-٢٦]. ٧١٤
[الآيات:٢٧-٢٨]. ٧١٦
[الآيات:٢٩-٣١]. ٧١٧
[الآيات:٣٢-٤٤]. ٧١٨
[الآيات:٤٥-٤٩]. ٧٢٢
[الآيات:٥٠-٥٣]. ٧٢٥
[الآيات:٥٤-٥٦]. ٧٢٧
[الآيات: ٥٧-٥٩]. ٧٢٨

[الآيات: ٦٠-٧٠]. ٧٣٠
[الآيات: ٧١-٧٧]. ٧٣٥
[الآيات: ٧٨-٨٢]. ٧٣٧
[الآيات: ٨٣-٨٨]. ٧٣٩
[الآيات: ٨٩-٩٨]. ٧٤٣
[الآيات: ٩٩-١١٠]. ٧٤٧
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ مَرْيَمَ
[الآيات:١-٦]. ٧٥٣
[الآيات:٧-١١]. ٧٥٤
[الآيات:١٢-١٥]. ٧٥٥
[الآيات:١٦-٢١]. ٧٥٧
[الآيات:٢٢-٢٦]. ٧٥٨
[الآيات:٢٧-٣٣]. ٧٦١
[الآيات:٣٤-٤٠]. ٧٦٢
[الآيات:٤١-٥٠]. ٧٦٤
[الآيات:٥١-٥٨]. ٧٦٧
[الآيات: ٥٩-٦٥]. ٧٦٩
[الآيات:٧٣-٧٦]. ٧٧٣
[الآيات:٧٧-٨٧]. ٧٧٥
[الآيات:٨٨-٩٨]. ٧٧٨
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ طَه
[الآيات:١-٨]. ٧٨٣
[الآيات:٩-١٦]. ٧٨٤
[الآيات:١٧-٢٤]. ٧٨٥
[الآيات:٢٥-٣٥]. ٧٨٧
[الآيات:٣٦-٤٠]. ٧٨٨
[الآيات:٤١-٤٨]. ٧٨٩
[الآيات:٤٩-٥٥]. ٧٩١
[الآيات:٥٦-٥٩]. ٧٩٢
[الآيات:٦٠-٦٤]. ٧٩٣
[الآيات:٦٥-٦٩]. ٧٩٤
[الآيات:٧٠-٧٦]. ٧٩٦
[الآيات:٧٧-٧٩]. ٧٩٨
[الآيات:٨٠-٨٢]. ٧٩٩
[الآيات:٨٣-٩٤]. ٨٠٠
[الآيات:٩٥-٩٨]. ٨٠٢
[الآيات:٩٩-١٠١]. ٨٠٤
[الآيات:١٠٢-١١٣]. ٨٠٥
[الآيات:١١٤-١٢١]. ٨٠٨
[الآيات:١٢٣-١٢٧]. ٨١٠
[الآيات:١٢٧-١٣٢]. ٨١٣
[الآيات:١٣٣-١٣٥]. ٨١٥
تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ الأَنْبِيَـاءِ
[الآيات:١-٦]. ٨١٩
[الآيات:٧-١٠]. ٨٢٠
[الآيات:١١-١٥]. ٨٢٢
[الآيات: ١٦-٢٠]. ٨٢٣
[الآيات:٢١-٢٤]. ٨٢٤
[الآيات: ٢٥-٢٩]. ٨٢٥
[الآيات:٣٠-٣٥]. ٨٢٦
[الآيات:٤٢-٤٤]. ٨٢٩
[الآيات:٤٥-٤٧]. ٨٣٠
[الآيات:٤٨-٥٠]. ٨٣٢
[الآيات:٥١-٥٧]. ٨٣٣
[الآيات:٥٨-٦٣]. ٨٣٤
[الآيات:٦٣-٧٠]. ٨٣٥
[الآيات:٧١-٧٣]. ٨٣٧
[الآيات:٧٤-٧٥]. ٨٣٧
[الآيات:٧٦-٧٧]. ٨٣٨
[الآيات:٧٨-٨٢]. ٨٣٩
[الآيات:٨٣-٨٦]. ٨٤١
[الآيات:٨٧-٨٨]. ٨٤٢
[الآيات:٨٩-٩١]. ٨٤٣
[الآيات:٩٢-٩٥]. ٨٤٤
[الآيات:٩٦-١٠٠]. ٨٤٥
[الآيات:١٠١-١٠٣]. ٨٤٦
[الآيات:١٠٤-١٠٦]. ٨٤٧
[الآيات:١٠٧-١١٢]. ٨٤٨

مكتبة

دار الصحابة بالغيضة